

أشهر الكتب الجديدة في العالم



بليته موسوليف

بقلم كريستوفر هيرت
تقريب خيرى صمد

استهرا الكتب الجديفة فءا العالم

بنيتوموسولينى

بقلم : كرلىتوفرههبرت

تعريب وتعلق : خىرى حماد



ءار المءارف بمطر

١٩٦٥

BENITO MUSSOLINI
A BIOGRAPHY
By
Christopher Hibbert

ملزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورليش النيل - القاهرة ج . ع . م .

تقدمة المعرب

ما كنت أحسب في يوم من الأيام ، أننى سأنقل إلى العربية كتاباً عن حياة موسوليني ، فبالإضافة إلى ما أحمله من كره للفاشية كنظرية مذهبية ونظام حكم ، لقيامها على العنصرية المغلقة ، وتأليه الفرد الحاكم ، كنت دائماً أحمل في نفسى ، لموسوليني ، حتى في أيام حكمه ، وقبل تكشف حقيقة ما كانت عليه إيطاليا من ضعف في عهده ، نظرة تنطوى على كثير من الاستخفاف إذ أرى فيه شخص الدعى المغرور ، الذى استطاع أن يوهم نفسه وشعبه ، قبل أن يوهم العالم ، بقوة إيطاليا في جميع المجالات ، وفي مقدمتها المجال العسكرى ، وأن ادعائه هذا لا بد أن يتكشف ، تحقيقاً للقاعدة التى تقول إن فى وسع الإنسان أن يخدع جميع الناس بعض الوقت ، أو بعضهم كل الوقت ، ولكن ليس فى وسعه أن يخدع كل الناس كل الوقت . يضاف إلى هذا كله ، أن موسوليني كان صورة مجسدة لأطماع الاستعمار فى وطننا العربى ، وفى غير وطننا من الأراضى الإفريقية ورمزاً حياً على فظائع الاستعمار وشروعه ، يتمثل فى ما كان يعانيه إخواننا الليبيون فى جزء غال من وطننا العربى الكبير ، هو ليبيا ، من عنف ومظالم تفوق حدود الوصف ، والتسجيل ، وفيما تعرض له شعب الحبشة التعس من جرائم وحشية ، يقشعر من هولها ضمير الإنسان أثناء حرب العدوان على الحبشة فى أواسط ثلاثينات القرن .

وكننت إذا ما سمعت اسم موسوليني ، عاد فكري لتوه ، إلى صورته فى تلك الأيام وهو يعلو صهوة جواده الأبيض ، واقفاً على حدود مصر الغربية ، متطوعاً إلى الشرق البعيد ، إلى اليوم الذى يدخل فيه على رأس جيشه المنتصر أرض الكنانة ، ليعبر شوارع القاهرة العظيمة متجهاً إلى الأهرامات ليقف تحنها كما وقف نابليون من قبل ، فأرى فيه صورة ذلك المستعمر الطامع ، فى الحلول محل مستعمر بشع آخر ، كان جلّ همنا ، نحن أبناء الأمة العربية ، تحرير بلادنا كلها وفى

طليعتها وادى النيل ، من كابوس سيطرته الرهيب . وكنت أرجع بفكرى أيضاً إلى صورته ، وهو يقف في شرفة قصر البندقية ، في مدينة رومة ، يخطب عشرات الألوف من أبناء إيطاليا ، هادراً ومزججاً ، ومنادياً بالبحر الأبيض المتوسط على أنه « بحرنا » ، أى بحر إيطاليا ، وكأن لا وجود لشعوب أخرى بينها الشعب العربى بالطبع ، على شواطئه ، الطويلة الفسيحة ، مؤكداً بذلك أطماعه في السيطرة على الوطن العربى ، التى كان يهد لها عن طريق أعوانه المندسين في كل مكان . يغرون صغار الشبان على السفر إلى إيطاليا ، ليحتنقوا الفاشية ، وليصبحوا من المؤمنين بها ، وهو ما حققه عن طريق حزب عميل ، ظهر في تلك الأيام ، في بلاد الشام ، تحت اسم الحزب القوى السورى ، وكان زعيمه ، آنذاك ، صورة مقلدة ، لرعيم الفاشية الإيطالية .

أقول ، ما كنت أحسب ، أننى سأنقل إلى العربية كتاباً عن موسولبنى ، وهذا رأى فيه منذ أمد طويل ، لولا أننى وجدت نفسى ، وقد اقترح على الأستاذ الكبير محمد حسين هيكل ، رئيس تحرير « الأهرام » ، ترجمة هذا الكتاب الذى أضعه بين أيدي القراء ، مدفوعاً إلى تقبل الاقتراح ، رغبة منى في استكمال ناحية أخرى من نواحي الصورة ، التى شرعت في نقلها إلى العربية عن تاريخ العالم في الحرب الكونية الثانية ، وما سبقه من أحداث ما بين الحربين العالميتين ، بمثابة بعض الكتب التى عربتها وهى « مذكرات تشرشل » و « مذكرات إيدن » ، و « تاريخ ألمانيا هتلرية » و « مذكرات دييجول » ، وقد عرضت في هذه الكتب ، وجهات نظر مختلفة في تلك الأحداث العالمية الرهيبة التى عشناها ، والتي أصبحت تؤلف الآن جزءاً من التاريخ . وكلى أمل بعد أن عربت هذا الكتاب الذى يرسم الجانب الإيطالى من الصورة ، أن أتبعه بكتاب آخر ، يعرض الجانب الروسى منها ، وهو في نظرى من أهم جوانبها ، نظراً للدور الكبير الذى لعبه الاتحاد السوفييتى في هزيمة هتلر ، وإنقاذ العالم من الفاشية .

يضاف إلى هذا ، أن إيطاليا ، كانت تؤلف بين الحربين العالميتين ، وفي الفترة الأولى من الحرب الثانية ، دولة عظمى ، لها وزنها وقيمتها في الميدان العالمى ، ومجالات السياسة الدولية . وكان موسولبنى ، بنظام حكمه الفاشى الذى يقوم على

العنصرية المغلقة من ناحية ، وعلى تأليه الفرد من الناحية الأخرى ، هو إيطاليا الفاشية ، إذ ظل مسيطراً على أقدارها أكثر من عشرين عاماً ، كانت لإرادته وحدها فيها ، هي النافذة ، وهي المحكمة ، وكانت كلمته هي العليا التي ترمم للشعب الإيطالي ، المحروم من الحرية ، طريقه ، وتوجهه الوجهة التي تشاؤها . وكان طبيعياً أن تكون سيرة حياة موسوليني في هذه الفترة ، هي تاريخ إيطاليا ، لأنه كما قلت السيد المطلق فيها ، رغم وجود الملكية النافذة التي لا شأن لها ولا وزن ، ورغم وجود الحزب الواحد ، المتجسد في صورة زعيمه ، والمسلوب الإرادة والحرية .

وكانت المكتبة العربية مفتقرة إلى صورة حقيقية عن هذه الفترة ، بالرغم من كثرة عدد الكتب التي وضعت في اللغات الأخرى عنها والتي تجاوزت العشرات كما يبدو من قائمة المصادر التي أوردتها مؤلف كتابنا هذا ، في ذيل كتابه . يضاف إلى هذا ، أن الصورة الباهتة . التي كانت تمثل أمام قراء العربية عن حياة موسوليني وتاريخ إيطاليا في عهده ، كانت مخاطة بالتناقضات الغريبة ، تناقض راسمها في اتجاهاتهم وميولهم . سواء أكانوا من أنصار الفاشية ، أم من خصومها وأعدائها . فبعضهم كان يصور موسوليني ، على النحو الذي أراد هو أن يصوره الناس فيه ، صورة الرجل العبقري الفذ ، الذي شاء له القدر أن يبعث في شعب ضعيف خائر العزيمة مفتقر إلى الحيوية والبطولات ؛ بينما كان بعضهم يصوره على أنه إنسان دعي تافه ، مغترّ بنفسه ، كثير الزهو والاعتداد بشخصه ، غارق في حمأة الشهوات والرذيلة ، يعتمد على التمثيل المسرحي ، في تصوير نفسه بصورة البطل ، وتصوير نظامه بصورة النظام الأمثل ، وشعبه بصورة الشعب القوي الذي يريد حقه في مجالات السيطرة العالمية .

وعندما قرأت هذا الكتاب ، الذي يعتبر أحدث ما كتب عن موسوليني وتاريخ عهده ، إذ صدر في عام ١٩٦٢ ، انجلت أمامي تلك الصورة الغامضة الباهتة ، إلى حد كبير ، وتبينت فيه الكثير من الحقائق التي كنت أجهلها بالرغم من قراءاتي الكثيرة ، وبالرغم من حقيقة أود هنا أن أقررها ، وهي أن الكتاب رسم صوراً دقيقة لحياة موسوليني ، وتاريخ حكمه ، ولكنه لم يرسم مثل هذه الصورة للفاشية كنظرية وتطبيق ، إذ لم يعالجها بالتحليل والبحث العميقين . ولعل هذا

راجع إلى أن المؤلف نفسه ، وقد يكون محققاً كل الحق في ذلك ، لم ير أن الفاشية كذهب ، جديرة بالدرس العميق ، لخلوها من النظرية الفكرية الصحيحة ، ولا سيما أنه رسم لنا صورة موسوليني نفسه ، في شكل ذلك الإنسان القلب في آرائه الاجتماعية وأفكاره الاقتصادية ، متأرجحاً بين الاشتراكية ، والتبعية للبورجوازية ، والتنكر للتقدمية ، والحملة على الرأسمالية ، والعودة إلى التفكير الاشتراكي . وكان جاع ما نصل إليه من هذه الصورة المتعددة الجوانب ، والمتقلبة الاتجاهات ، هو أن موسوليني ، كان لا يؤمن إلا بنفسه وسيطرته ، وبشعبه ولكن عن طريق إيمانه بذاته ، على اعتبار أنه الإنسان الذي اختاره « القدر » ، ليؤدي دوره في قيادة هذا الشعب إلى العظمة المستمدة من عظمته ، والجد المتجسد في أمجاده الشخصية .

أجل ؛ إن هذا الكتاب الذي يعتمد على مئات المصادر ، والذي عانى المؤلف في وضعه كل المعاناة ، فقرأ عشرات الكتب والوثائق والمقالات ، بالإيطالية التي كان يتقنها وغير الإيطالية ، واجتمع إلى عشرات الناس الذين عاشوا تلك الفترة التاريخية ، مشتركين في أحداثها ، أو بعيدين عنها ولكن في موقف المراقب المناوئ ، وتحدث إلى مئات من الذين وجدوا على هوامش العهد الفاشي ، ولكن كان لهم دورهم في الأحداث التي تناولها الكتاب ، مهما كان هذا الدور ثانوياً أحياناً إذ لا يعدو حد العلاقة الشخصية بموسوليني كعشيقاته الكثر ، أو خدمه ، أو أقاربه ، أو حد دور معين أدوه في فترة محددة ، يعتبر من أصدق الكتب التي وضعت عن موسوليني موضوعية ، وأغزرها مصادر ، وأكثرها ثباتاً من الحقائق والوقائع ؛ فهو يكشف عن أسرار مثيرة كانت مجهولة لدى معظم الناس ، ويضع النقاط على الحروف ، بالنسبة إلى الكثير من الألغاز والمعميات التي ظلت تحيط بعهد موسوليني حتى يومنا هذا .

ولعل موضوعية المؤلف تتمثل أكثر ما تتمثل في هذه النظرة الحيادية المطلقة التي يعالج فيها موضوعه ، والتي تجعل القارئ لا يستطيع أن يحدد على وجه من التأكيد والتحقق ، موقفه من صاحب الشخصية التي أرّخها ، وهل هو موقف العطوف المشفق ، أو موقف الناقد المناوئ ، ولكن بالرغم من هذا كله ، وبالرغم مما يحيط بموقف المؤلف نفسه من غموض أحياناً ، لعله مستمد من غموض

موسوليني نفسه وتناقضاته ، فإن كتابه عن موسوليني يعتبر في نظري أصدق صورة
وضعية لحياة هذا الإنسان الذي قدر له أن يسيطر على إيطاليا مدة عشرين عاماً ،
وأن يلعب دوراً في منتهى الأهمية والخطورة في تاريخ العالم الحديث .

فهو يرسم لنا صورة موسوليني منذ ولد في أسرة فقيرة في عام ١٨٨٣ في قرية
من قرى إيطاليا الوسطى . ويتابع هذه الصورة بأسلوبه المشوق ، متنقلاً بها في مدارج
الحياة وملاعبها ، من حياة البوهيمية والتشرد في سويسرا ، إلى حياة الإعدام
الفكري ، في صفوف الاشتراكيين ، ومن معارك الحرب العالمية الأولى ، إلى
زنازانات السجون في أكثر من مكان ، حتى يصل بها إلى مرحلة الزحف على رومة
في عام ١٩٢٢ والوصول إلى مقاعد الحكم والسلطان ، ليمضي بعدها في تصوير
عهده الطويل ، حتى نهايته برصاص رجال المقاومة السرية في الثامن والعشرين
من أبريل عام ١٩٤٥ .

أما المؤلف ، كاستوفر هيرت ، فإنجليزي المولد والجنسية . ولد في
عام ١٩٢٤ ، ودرس في جامعة أكسفورد ، ثم اشترك في الحرب ، ضابطاً في
الجيش البريطاني في إيطاليا ، حيث أصيب بالجراح مرتين ، وحيث بدأت علاقته
بموضوع هذا الكتاب الذي ألفه عن إيطاليا . وله كتب عديدة منها « الطريق
إلى تيبورن » و « الملك موب » و « وولف وكوبليك » وغيرها .

وأخيراً أعود فأقول ، بعيداً عن الغرور ، إن مكتبتنا العربية كانت في حاجة
إلى مثل هذا الكتاب ، الذي راعيت في تعبيبه الدقة كل الدقة ، دون أن أقتطع
منه شيئاً ، أو أهمل جانباً . فهو كتاب يحسر النقاب عن أسرار كثيرة ، ويزيل
الكثير من الغموض عن الصورة الباهتة التي كنا نحملها لهذا الجانب من التاريخ
العالمي الحديث .

والله ولي التوفيق . . .

القاهرة في ٤ ديسمبر ١٩٦٤

نجوى حماد

مقدمة

كتب فيرناندو ميزاسوما ، عن موسوليني ، في الأسبوع الأخير من حياته معاً ، يقول ... « ليس ثمة من يستطيع أن يفهمه . فهو ساذج حيناً وماكر أحياناً ، وهو قاس كالوحش يوماً ، ودمت ناعم يوماً آخر ، وهو مزيج من الرغبة في الانتقام والميل إلى التسامح ، والعظمة والوضاعة . إنه أكثر إنسان رأيت في حياتي ، تناقضاً وتعقيداً . ومن الصبر على الإنسان أن يوضح غموضه للآخرين » .

وقد وضعت كتب عدة عن هذا الرجل الشاذ ، تحاول عرضه على حقيقته ، طيلة الثماني عشرة سنة التي انقضت بين تاريخ الزحف على رومة في عام ١٩٢٢ وبين نشوب الحرب الإيطالية في عام ١٩٤٠ ، وكان واضعها خليطاً من الفاشيين المؤيدين له ، ومن الإيطاليين المهاجرين الذين فروا من ظلمه ، وكان لهم كل الحق في أن يكرهوه وأن يكرهوا الفاشية . ولكن لم يصدر أى كتاب بعد موته ، يؤرخ حياته تاريخاً كاملاً ، بالرغم من ظهور عدد كبير لا يعد ولا يحصى من الوثائق ، التي كشفت النقاب عنها في السنوات الست عشرة الأخيرة .

وقد شعرت منذ عودتي إلى الوطن من إيطاليا بعد انتهاء الحرب ، بالحاجة الماسة إلى كتاب محايد ، يجيب على الأقل عن بعض الأسئلة التي طالما حيرتني . فقد كنت أتساءل دائماً ، ترى إلى أى حد يشبه موسوليني ذلك المهرج الخفيف الذي طالما صورته فيه دعاياتنا أيام الحرب ، أو إلى أى حد يشبه صورة ذلك الإنسان القريب من الآلهة والمجسد للعقيدة الفاشية على حد تصوير دعايته . وكنت أتساءل أيضاً كيف يمكن التوفيق بين أولئك الإيطاليين الذين لم يترعوا عن إطلاق النار على جنته ، وهي معلقة في ساحة لوريتو في ميلان من قدمها إلى رأسها ، وبين إخوانهم من الإيطاليين الذين لا يختلفون عنهم كثيراً والذين بكوا ، أحربكاء ، عندما نقل إليهم نبأ موته^(١) . وكثيراً ما تساءلت كذلك ، ترى هل صدق

(١) أنا لا أرى داعياً لهذا التساؤل ، فالأولون هم أنصار الحرية الذين كرهوا الفاشية لما تمثله من عنصرية بغضبة ، ولزوع إلى العدوان والاستعمار ، في حين كان الآخرون من الذين ضللتهم الفاشية أمداً طويلاً . وكثيراً ما يختلف المراء من الناحية العنصرية مع أخيه . « المعرب »

المستر تشرشل حقاً ، عندما قال إن « رجلاً واحداً ، وواحداً فقط » قد أغرق إيطاليا في المأساة التي حلت بها . وتساءلت أيضاً ، كيف استطاع هذا الرجل أن يحتفظ بسلطانه هذا الأمد الطويل ، وكيف وجد ، حتى في المرحلة الأخيرة التي تسبق المغيب ، على شاطئان بحيرة جاردا ، بعد أن أصبحت الهزيمة مؤكدة ، وموته محتوماً ، أنصاراً كثيرين على استعداد لمواصلة السير معه ، رغم ما حل به من انحلال معنوى وعضوى .

وكانت هذه الأسئلة لا تزال تتردد في خاطري ، عندما عدت إلى إيطاليا في عام ١٩٦٠ أحاول العثور على ردود لها في الكتب والأوراق التي توخيت قراءتها عن موسوليني وديكتاتوريته الفاشية ، والتي لا يتوافر لدى ، وأنا في لندن ، وأسعى إلى الاتصال بالذين عرفوه ، لأتحدث إليهم ، ولأكتشف أكثر ما يمكن من الحقائق عن سنواته الأخيرة التي لا يتوافر عنها الكثير من المعلومات الموثوقة . ولما كنت لا أجد نفسى أهلاً للحكم على الرجل ، حتى ولو كان الحكم ممكناً الآن ، فقد وضعت هذا الكتاب ، في شكل قصة تاريخية ، آملاً أن تؤدي روايتي لقصة حياته ، إلى توفير الأدلة المهمة التي يمكن على ضوءها إصدار أى حكم عليه . وبالرغم من أنني لم أشر في صلب الكتاب إلى المصادر التي بنيت عليها ما كتبت ، إلا أنني أدرجت في نهايته تعليقاتي على المواد التي اعتمدت عليها ، ولإني لعلّ يقين بأن القارئ سيجد فيها المرجع الذي يريد حول المصادر التي اعتمدت عليها ، والبيانات المتضاربة ، سواء أ جاءت في شكل اقتباسات محددة أم أقوال منسوبة .

وأجد لزماً على أن أشكر الكثيرين لما قدموه إلى من مساعدات مختلفة ، وأخص منهم بالذكر ، بالإضافة إلى أولئك الذين آثروا الإبقاء على أسمائهم مجهولة ، كلا من الأستاذ بالديني ، والصحفي الفرنسي باريت ، واللورد بيفر بروك ، والسنير بيترو بنيفانتانو ، والسير نوبل تشارلز ، والبريجادير (العميد) إيدج ، والأستاذ فيتوريو جابرييلي ، والكونتيسة هامبلدين ، والسير إيفون كير كباتريك ، والمرحوم السير بيرسي لورين ، والدكتور روجر مانفيل ، والأميرال فرانكو موجيري ، والأستاذ دون باولو ميلانو ، والسنير باولومونيلي

والكونت أمبرتو مورا دى لافريالو ، والسنير رومانو موسولينى ، والهر هانز باشر ،
والكونت نوفيلو بابافافا ، والسير تشارلز بيترى ، والهر أوتو رينشة ، والسنير
ليرنستورسكى ، والسنير دينوروزيللى ، والمس فرانسيم ريان ، والسنير بيترو
ساناريللى ، والسيد جوان سان جورج سوندرز ، والمستر سويت ليسكوت ،
والعقيد أوتو سكورزينى ، والجنرال كورت ستيودينت ، والعقيد هيدلى فينسينت ،
والأستاذ روبرتو ويس ، والآتسة إليزابيث ويسكيان . وفى لمدين بصورة خاصة
إلى الآتسة ليندا بارتيللى أتانازيو ، لما قدمته لى من عون فى البحوث التى أجريتها فى
رومة ، وإلى المستر روى - ماكريجور - هاستي ، الذى زودنى بالمعلومات عن
أسرة موسولينى ، وإلى الجنرال رافائيلى كادورنا ، لمساعدته لى ، فى إعداد
الفصول الأخيرة من هذا الكتاب . وفى لأود أن أشكر أيضاً موظفى مكتبة لندن ،
والمتحف البريطانى ، والمعهد الثقافى الإيطالى والسفارة الإيطالية فى لندن ، والمعهد
البريطانى فى فلورنسه . وغيرها من المؤسسات الثقافية الإيطالية .

كريستوفر - هيرت

أسرة موسوليني

أسلافه وذريته

(تمت عائلة موسوليني إلى أسرة قديمة في بولونيا كانت تعمل إحياءاً عامة في تجارة الطرير (الموولين) - ولم تنتج لميكي في عمله الزراعي ، وما زال عدد من ذريته يعملون في الزراعة كغلاجن لم يتصلوا من عهد قريبهم) -

فرانسكو توني ١٧٢٧ في كابول

بارلو توني في كابول في ١٧٧٩

جياكومو أليغري توني في مونزا بجوردي ١٨٢٢

لويجي توني في مونزا بجوردي ١٨٢٩

لويجي أجوريتو جاساري = تونج كاترينا فاسوف توني في ١٩٠٨

أليساندرو توني في ١٩١٠ = تونج راندا مانتوف إلسيد إيلينا فرانيسكا

بينو ١٨٨٣ - ١٩٤٥ تونج واشنطن جيني أرنالدر ١٨٨٥ - ١٩٢١ تونج أليساندرو بونفانيني إيدفيج تونجيت ميشيل مانسفي ١٨٨٨ - ١٩٥٢

جوسيب جوسيبينا باولو جوزيا ماريلا روزيتا روزا فيتو إيساندرو إيلينا ليكو

أنا ماريلا ١٩٢٩ رومانو ١٩٢٧ جينيا دروبري ١٩٤١ - ١٩١٨ برونو تونج جينيا دروبري ماريلا إيلينا تونجيت جاليا زوتشيانو ١٩١٠

أندريا ١٩٤٠ جيلو ١٩٢٧ مازينو ١٩٣٧ رايوندا ١٩٣٣ فابريزيو ١٩٢١

القسم الأول
الصراع من أجل السلطان

الناثر الشاب

(٢٩ يوليو ١٨٨٣ - ديسمبر ١٩١٢)

« كانت ولادتي في الوسط الشعبي : الورقة الراجعة في يدي »

١

انطلق في الساعة العاشرة والنصف من مساء التاسع من مايو عام ١٩٣٦ ،
صوت هدير فجائي ، وصفه أحد الصحفيين بأنه أقرب ما يكون إلى صوت التفجر
البركاني ، من حشد يضم ما يقرب من أربعمائة ألف إنسان . كانوا يقفون مترابطين
جنباً إلى جنب ، أمام قصر البندقية في مدينة رومة . فقد ظهر بنيتو موسوليني ،
دونشي الفاشية ، على شرفة القصر ، مطالاً عليهم ، ومتطلعاً بهدوء إلى حشودهم .
أجل ، وقف أمامهم ، وقفته المعبودة التي يعرفونها وقد وضع يديه في خاصرتيه ،
واندفع فكه الأسفل الضخم إلى الأمام ، وانفجرت ساقاه . كان يرتدى القميص
الأسود ، وبزة رمادية ، وقبعة مدورة سوداء ، هي الرداء التقليدي للمليشيا الفاشية .
وهكذا وقف أمامهم على الشرفة أمام النوافذ التي يتدفق الضوء من شبابكاتها ،
صامتاً لا يتحرك ، كشعار عهده المنحوت على الجدار المجاور له ، وهو الفأس
وقضبان الجلادين الرومان القدماء .

ورفع يده ببطء . ونحيم الصمت على الجماهير الحاشدة . وكانت ملايين
الإيطاليين لا في رومة وحدها ، بل في جميع أرجاء إيطاليا ، يصغون وكان على
رؤوسهم الطير ، ينتظرون صوت الزعيم . وتطلعت جماهير المستمعين الذين ألهم
التطلع مشاعرهم ، في تلك الأمسية الدافئة من ليالي الربيع ، وقد أضفى القمر
الساطع بوضوحه عليها صورة فيها الكثير من طابع النبوءات ، بعد أن احتشدوا في
الميدان تلبية لنداء أجراس الكنائس وصافرات الإنذار ، إلى مكبرات الصوت ،
وقد تقطعت بهم الأنفاس .

وانطلق صوت موسوليني أخيراً ، في تلك الصورة العميقة الرخيمة ، التي وصفها
 الليدى أوكسفورد بأنها من أجمل الأصوات التي سمعتها في حياتها ، يقول . . .
 « أيها الضباط ، يا ضباط الصف والجنود . يا رجال الثورة من لابسى القمصان
 السوداء ، يا رجال إيطاليا ونساءها ، أينما كنتم ، في وطنكم ، أو في خارجه ،
 اسمعوا ، وعوا . . . لقد تحقق حدث عظيم ، فقد تقرر مصير الحبشة اليوم في
 السنة الرابعة عشرة من العهد الفاشي . وقد تمكن سيفنا المرفف المتألق ، من فعم
 كل عقدة ، وسيظل الانتصار الحبشي في تاريخ بلادنا ، في صفائه وكماله ،
 كصفاء الجنود الذين سقطوا في حومة الوغى وكماله . أجل ، أصبحت إيطاليا
 إمبراطورتها . . . »

وضاعت كلمات الدوتشي الأخيرة وسط عاصفة هوجاء من الختاف ،
 والنشيد المتكرر والمتعالى . . . « دوتشي . . دوتشي . . دوتشي » ، ومن صراخ
 النساء المستعري المحنون ، ومن عبارات الحب والعبادة والولاء حتى الموت . ووقف
 الدوتشي يتطلع إليهم بهدوء ، دون أن يأبه لهنافاتهم ، وقد أمسك سور الشرنة
 الحجري بقبضتيه ، وخلت تعابير وجهه الضخم الجامد ، في وضوح المصابيح
 الكهربائية التي أحالت الليل إلى نهار ، من أى معنى .

وانطلق صوت أحد القادة في السلم الفاشي ، يقول وهو يرقبه واقفاً وكأنه إله يطل
 من فوق قمة الأولب . . . « انظر إليه ، إنه أشبه ما يكون بالإله » . . . فرد رفيقه
 الذى يقف إلى جانبه : « لا ، إنه لا يشبه الإله ، بل هو إله » .

٢

كان موسوليني في الثانية والخمسين من عمره في ذلك اليوم . وكان قبل خمسة
 وعشرين عاماً ، أى في أكتوبر عام ١٩١١ ، قد شرع في كتابة تاريخ حياته ،
 وهو يقضى في الزنزانة رقم ٣٩ في سجن فورلى ، مدة الحكم الذى صدر عليه ،
 لقيامه بتحريض « الناس على الإضراب والعصيان » .

وكتب موسوليني يقول . . . « ولدت في التاسع والعشرين من يوليو عام ١٨٨٣ ،
 في كوخ قديم يدعى فارنانو دى كوستا ، يقوم على قمة الزاوية في قرية دوفيا
 القريبة من قرية بريدابيو . وكان ذلك في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم من أيام

الآحاد ، بعد ثمانية أيام من دخول الشمس في برج الأسد .

وكان والده حداداً ، وهي حقيقة ظل ولده يزهو بها دائماً . . . وكان كثيراً ما يقول . . . « أنا رجل من الشعب ، وأنا أفهم الشعب لأنني واحد من أبنائه » . وقد رفعت في عام ١٩٣٥ ، لافتة ، عاقت على جدار إحدى المزارع القريبة من قرية بريدابيو ، حيث يراها المار ، وقد نقش عليها . . . « في هذه المزرعة ، عاش أسلاف موسوليني من الفلاحين وعملوا » . لكنهم لم يكونوا في الواقع من الفلاحين ، وإنما كانوا ينتمون إلى طبقة قدر للدوتشي أن يحترقها فيما بعد ، وهي طبقة البورجوازية الصغيرة . وكان جده قد ابتاع المزرعة التي ولد فيها أبوه . إذ كان يعمل ملازماً في الحرس الوطني . وكانت أمه روزا ، معلمة مدرسة ، سيدة هادئة متدينة ، تميزت باللطف والدماثة . وكان الجميع يحترمونها كما ذكرت عنها صحيفة « أفكار رومانا » التي تصدر في فورلى ، عندما توفيت « لما تميزت به من فضائل ، ولما اتصف به أداؤها لمهمتها في الحياة من حب وإدراك » . وكانت سيدة مقتصدة للغاية ، وما كان أحوجها إلى الاقتصاد ، إذ أن زوجها أليساندرو ، كان بالرغم من إعنته في حرفته ، وهي الحدادة ، وبالرغم من حيازته لآلة دراسة ، لا يأبه كثيراً لعمله ، ويقضى سحابة يومه ، في الحديث عن السياسة ، بدلا من العمل على سندانه . وبالرغم من أنه لم يؤم مدرسة قط في حياته ، إلا أنه لم يكن بالإنسان الجاهل ، بل كان في منتصفى الذكاء . وكان يزود مختلف الصحف الاشتراكية بمقالاته ، كما كتب باستمرار في الصحيفة المحلية « أفكار رومانا » . وكثيراً ما ذكر أولاده فيما بعد ، أنه كان يقضى الساعات الطوال ، يتلو على مسامعهم ما يقرأه في الكتب السياسية التي لم يكونوا بعد قد شرعوا في فهمها . وكان كغيره من أبناء مقاطعة رومانا ، ذلك الجزء الجميل رغم فقره من إيطاليا ، والواقع بين تسكانيا وإميليا ، يتمسك بإصرار بمعتقداته السياسية ، ويدافع عنها بجرارة وعنف . وقد أسس في قريته فرعاً محلياً للاشتراكية الدولية ، فكان السجن نصيبه ، كوالده من قبله ، نتيجة معتقداته . وقد عمّد ولده الأكبر باسم بنيتو ، إعراباً منه عن إعجابه بالثوري المكسيكي المعروف بنيتو خواريز^(١) ، الذي قاد

(١) بنيتو خواريز (١٨٠٦ - ١٨٧٢) - سياسى مكسيكى . ولد في أداجاكا ، عن والدين من -

الثورة العنيفة ضد الإمبراطور مكسمليان . كما ألحقه باسمين آخرين وهما إميلكارى ، نسبة إلى إميلكارى سيبريانى ، الفوضى من أهل رومانا ، وأندريا نسبة إلى أندريا كوستا أحد مؤسسى الحزب الاشتراكى الإيطالى .

وكان الفقير يقيم على البيت الذى عاشت فيه أسرة موسولينى ، فهو منزل صغير متهدم ، يقع على بعد ميلين من بريندايو ، ويعرف باسم « دارة فارانو » ، إذ كانت الأسرة كلها ، تعيش مكتظة فى غرفتين تقعان فى الطبقة الثانية منه . وكان على أفراد الأسرة ، للوصول إلى هاتين الغرفتين ، أن يعبروا بالغرفة التى جعلت منها روزا موسولينى مدرستها ، والتى يخزن فيها أليساندرو أثناء العطلة الصيفية الحنطة التى كان قد درمها على دراسته التى صنعتها بنفسه .

وكان بنيتو ينام مع أخيه الصغير البدين الهادئ أرنالدو ، فى الغرفة التى تستخدمها الأسرة كمطبخ ومستودع للحطب ، بينما كانت شقيقته إميلفيج تقوم مع والديها فى الغرفة الأخرى ، التى تعيش الأسرة فيها أثناء النهار ، وحيث يلعب الأطفال ، ويلهون بالتطلع إلى الصور فى كتب أبيهم ، وفى الصحف التى كان يجمعها فى صندوق للكتب معلق إلى الجدار . وعندما كبر بنيتو ، وأصبح قادراً على النفخ فى الكورلأبيه ، صار يمشى إلى « محدة » والده ، حيث ينال بعض الصفعات على رأسه ، إذا لم يبد اهتماماً كافياً بعمله ، أو إذا أظهر تخوفاً من الشرر المتطاير .

وكانت الأسرة تفتقر إلى المال لشراء الغذاء . فأمه لا تكسب من عملها فى التعليم سوى خمسين ليرة فى الشهر ، أما ما يجنيه الوالد أليساندرو فكان ينفق جلته على عشيقته . وكثيراً ما اقتصرت وجبات الطعام على حساء الخضار ، وبعض الثوم البرى والبقلة ، وبعض الكعك العادى المصنوع من الدقيق والماء . وكان بنيتو ولدأ عصبياً على التربية . فهو لا بطيع الأوامر ويكثر من الشجار ، ويتميز بالإذعان لمزاجه وإزادته الذاتية ، وكثيراً ما فقد تمالك أعصابه إذا استفز

== الهنود الحمر . أصبح قاضياً للمحكمة المدنية فى عام ١٨٤٢ ثم حاكماً لولاية أداجاكا فى ١٨١٧ ، حسن الأوضاع الإقليمية كثيراً فى فترة حكمه . نفى من المكسيك فى عام ١٨٥٣ ، ولكنه عاد إليها بعد ستين وانضم إلى ثورة الفاريز . انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٨٥٨ ، وظل فى الرئاسة حتى وفاته . كانت سياسته المتحررة ، ذات نفع كبير لوطنه . « العرب »

وعاد إلى بيته مقطع الثياب ، والحدوش تملأ وجهه ، والدماء تنزف منه نتيجة اشتباكه مع أطفال القرية في عراكات عنيفة ، إذا أحس أنهم لم يعطوه نصيباً عادلاً من حصيلتهم في عمليات الصيد المسروق التي كانوا يقومون بها . ولكن بالرغم من مزاجه الاستفزازي السيئ ، وعناده الأكيد ، فقد تميز بالقدرة على الشعور بالحب العميق . وإثارته عند الآخرين أيضاً . فقد كان أخوه وأخته يعبدانه . وحتى أطفال قريته الذين كثيراً ما تشاجر معهم ، واشتبك معهم في الخصومات ، ظلوا يذكرون بعد سنوات طويلة دفء ابتساماته النادرة . وإخلاصه الذي لا يجارى في صداقاته . وكانوا يذكرون أيضاً أنه بالإضافة إلى ميله إلى الشجار والمشاكسة ، كان إنساناً حاملاً ، إذ كان يجلس الساعات الطوال ، برقب الطير ، وينظر عبر الوادي الجميل الذي ولد فيه وقد وضع ذقنه بين يديه ، وراحت عيناه السوداوان الكبيرتان تجوبان بنظراتهما كل ما أمامه ، بشئ من الحلم مصحوباً بدقيق الملاحظة . . . وكثيراً ما قال لوالدته . . . ساد هش العالم كله يوماً ما .

وازداد غروره عاماً بعد عام ، وأضحى عسير القيادة . وكثيراً ما زحف في المدرسة ، تحت المقاعد ، « ليقصر » سيقان زملائه من الأطفال العارية ، وفي أيام الآحاد ، عندما كانت والدته روزاً تسوق أطفالها ، عبر الطريق الوعر الهابط مع التل إلى الكنيسة ، وقد علقوا أحذيتهم في رقابهم للإبقاء على نظافتها ، كان بنيتو ، يتخلف وراءهم ، وهو يضرب الحصى بأصابع قدمه العارية . ولم يكن ليطبق البقاء طويلاً في الكنيسة ، إذ كانت رائحة البخور تثيره ، وتدفعه إلى التواء ، بينما كانت ألبسة الكهنة بألوانها القائمة ، وأضواء الشموع ، وصوت الأرغن وغناء المرتلين ، تزعجه كل إزعاج . وكثيراً ما اقتعد مجلسه فوق إحدى الأشجار ، يرقب خروج أسرته ، ويتلهى عن مشقة الانتظار ، بفقد الأطفال من أبناء قريته بالحجارة وهم في طريقهم إلى مدرسة الأحد .

وبعث به أبواه ، عندما بلغ التاسعة من عمره ، إلى المدرسة في فاينيزا ، وكانا يأملان في أن يحقق نظام الآباء الساليزيين القاسي النجاح في إصلاحه ، بعد أن فشلاهما في هذا الإصلاح . وبالرغم من نزعة أبيه الإلحادية وكرهه للكنيسة الكاثوليكية ، فقد حمل ولده في العربة التي يجرها الحمار ، ومضى به إلى المدرسة

الدينية مبرراً عمله هذا ، بعجزه عن السيطرة على ولده المشاكس .

وتذكر بنيتو فيما بعد تلك الأيام فكتب يقول . . . « لا أذكر أنني تضايقت لأننى فارقت أخوى . فقد كانت إيدفيج فى الثالثة من عمرها بينما كان أرنالدو فى السابعة . ولكننى حزنت لأننى اضطررت إلى التخلي عن طير صغير كنت قد احتفظت به فى قفص تحت نافلتى . وقد تشاجرت فى اليوم الذى سبق رحيلى مع رفيق لى ، فحاولت أن أضربه ، ولكن اللكمة أخطأته . وأصابت قبضتى جداراً كان يقف أمامه ، فهشمت أصابعى ، ووجدت نفسى مضطراً فى اليوم التالى إلى الرحيل وقد ربطت يدى إلى عنق . وإنى لأذكر أن الدموع انهارت من عيني فى لحظة الرحيل » .

ولانه ليدكر كيف أن الحمار الذى قاد العربى ، تمرّ وهوى خارج قرية دوفيا ، فراح والده يسب ويشتم ويلعن ، معتبراً الحادث نذير سوء . كان يوماً من أيام أكتوبر ، وقد تمرّت الأشجار من أوراقها ، وامتلأت الجداول بالماء السريع المتدفق ، بينما نضج العنب على أشجاره وتحول إلى الاصفرار . ووصلت مع أبى إلى فايينزا فى الساعات المبكرة من بعد الظهر . وراح أليساندرو يقرع باب المدرسة الغليظ . ويسلم ولده إلى ناظرها ، ثم انحنى ليقبله وهو يودعه ، بشيء من الحنان الذى لا يخلو من الحشونة . ومضى الوالد فى طريقه ، وعندما أوصد الباب وراءه ، سألت عبرات الصبي . ومضى به الأستاذ إلى الفناء حيث كان الطلبة الآخرون يلعبون ، وراح بنيتو يرقبهم بهدوء ، وقد وقف بعيداً عنهم فى إحدى الزوايا ، تلبو عليه علام العداء .

وكره بنيتو المدرسة ، وكره الآباء الذين يرعونها ، ولا سيما أستاذ الفصل ، الذى تميّز بضحكته المجلجلة التى كانت تخيف الصبي ، كما كره رفاقه من الطلاب ، ولا سيما أولاد الأغنياء ، إذ كانوا يجلسون إلى مائدة منفصلة ، ليتناولوا طعاماً أفضل مما يتناوله بنيتو ورفاقه من الطلاب الفقراء . وانصرف عن الدرس ، ولم يبذل أى جهد . وضربه أحد الآباء ذات يوم ، فرد عليه الصبي وقذفه بإحدى الحماير . ولم يكن له من الرفاق إلا صديق واحد ، تميز بقوة رأسه ، حتى إنه كان يسمح لبنيتو ، بأن يسلى نفسه ويضربه بالعصا على هامته . وتشاجر

ذات يوم مع صبي يكبره سنًا ، فانتضى موسوليني موساه من جيبه ، وطعن به الصبي . وقرر ناظر المدرسة ، حرصاً على أخلاق الطلاب الآخرين أن يطود هذا الصبي المشاكس ، ولكنه ما لبث أن عدل عن قراره ، وقبل الاحتفاظ به حتى نهاية العام الدراسي . وأصابه الملل من قوانين المدرسة المتزمتة ، ومن المواعظ التي يسمعها باستمرار ، ومن المحاضرات التي تلقى عليه وعلى رفاقه عن الخطيئة والفساد . ومضى يعترف إلى الكاهن لأول مرة في حياته بسلسلة طويلة من الخطايا ، بعضها صحيح والبعض الآخر من نسيج الخيال . وانزاح عن الآباء هم ثقيل عندما انصرف من المدرسة ، وقال أحدهم . فيما بعد ، إنه لم يلق في حياته طالباً أتعبه كموسوليني . وعندما مضى إلى مدرسته الثانية ، وكانت تسمى مدرسة جيوسوى كاردوسى ، نسبة إلى الشاعر الإيطالى المشهور^(١) ، ويتولى إدارتها في بلدة فورليمبوبولى ، شقيق الشاعر «الفريدو» لم تكن تعاسته وميله إلى المشاكسة فيها ، أقل من تعاسته ومشاكساته في مدرسته السابقة . وتشاجر ذات يوم مع طالب دفع يده وهو يكتب ، فخرج على طوره ، وانتضى مديته من جديد ، ليطعن الصبي في أسفل بطنه . وكان نصيبه الطرد من المدرسة هذه المرة أيضاً .

وبالرغم من ثوراته العاطفية هذه ، ومن رفضه الدرس للمله منه أو لاعتباره أنه عمل لا ضرورة له ، فقد اعترف مدرسه ورفاقه ، بأنه كان طالباً غير عادى في ذكائه . وعادت المدرسة نفسها فقبلته فيها طالباً نهائياً ، ولم تمض سنوات ثلاث ، وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، حتى كان يجتاز امتحاناتها النهائية ، ويحصل على شهادة منها تخوله مواصلة مهنة التعليم . ولم يكن قد فقد في هذه السنوات ، ذلك المزاج الحاد الذى عرف به في صباه ، أو استقلاله العنيد فى الرأى ، ولكنه اكتشف فى نفسه نهماً إلى المعرفة ، وقدرة على اكتساب العلم . وغما لديه فى هذه الفترة أيضاً ، ميل شديد إلى الخطابة الحماسية . وكان يحب الوقوف على التلال المطلة على برىدايو ، يقرأ بصوته الجهورى ، أشعار كاردوسى الغنائية والوطنية . وقد حقق أول انتصاراته الخطابية فى مسرح فورليمبوبولى البلدى ، عندما اختاره

(١) كاردوسى (١٨٣٦ - ١٩٠٧) شاعر إيطالى مشهور ، وكاتب معروف . نال جائزة نوبل

« العرب »

فى الأدب فى عام ١٩٠٦ .

الإنجليزية والألمانية . وتمكن من أن يعول نفسه وأن يداوم على حضور محاضرات فيلفريدو باريتو في جامعة لوزان ، والدروس الصيفية في جامعة جنيف ، وذلك عن طريق إعطاء بعض الدروس الإيطالية وترجمة بعض المؤلفات الفلسفية والسياسية ، بمساعدة أصدقائه وصديقاته من الروس والبولنديين ، وبكتابة المقالات ، واقتراض المال من والدته ، ومن كل إنسان قد يقرضه . وظل حاله على هذا الشكل إلى أن أصدر ملك إيطاليا في نوفمبر عام ١٩٠٤ ، عفواً عاماً عن جميع الهاربين من الجندية بمناسبة احتفاله بولادة ولده الأمير أومبرتو .

وكان موسوليني قد فكر بالهجرة إلى أمريكا ، ولكنه ما لبث أن عدل عن عزمه هذا ، وقرر أن يعود إلى إيطاليا ، ليساعد أمه بالتدريس في مدرستها في دوفيا . والتقى في طريق عودته إلى وطنه ، بأنجيليكا بالابانوف في لوجانو ، ثم سافر إلى إيطاليا كما تقول ، بعد أن سرتى عما يجيش في نفسه بثورة عاصفة على الأغنياء . وقال لها ، وهو يشير بذراعه إلى المطاعم والفنادق المنتشرة على طول الطريق . . . « انظري الناس ، يأكلون ويشربون وينعمون . أما أنا فمأساوس في الدرجة الثالثة ، وأكل أخص الطعام وأسوأه . يا « للختيرة » العذراء (١) اكتم أكره الأغنياء ! ترى لم قضى على أن أحتمل كل هذا الظلم ؟ حتاماً تنتظر ؟ » . ووصل موسوليني بعد يومين إلى رومانا . وقد سبقته شهرته بالتطرف السياسي ، بعد أن غدت الآن أكثر من مجرد شهرة محلية . فقد نشرت صحيفة « لانتريونا » التي تصدر في رومه في الثامن عشر من أبريل عام ١٩٠٤ ، رسالة لمراسلها من جنيف تحدث فيها عن موسوليني ووصفه « بالدوتشي العظيم » للجمالية الاشتراكية الإيطالية المحلية . وهكذا كان موسوليني قد بدأ في صياغة حياته المقبلة .

(١) يستخدم موسوليني كثيراً مثل هذه العبارات التي تنطق بالمرقوق على دينه ، وبشكل لا حياء فيه . وقد آثرت ترجمة عباراته بأمانة ، لإظهار حقيقة هذا الإنسان دون تمويه . « المغرب »

توفيت روزا موسولينى فى التاسع عشر من فبراير عام ١٩٠٥ ، متأثرة من التهاب السحايا ، وكانت فى السادسة والأربعين من عمرها ، وغلب الحزن على ولدها بنبتو ، كما كتبت الصحيفة المحلية . وأراد أثناء تشييع جثمانها « أن يلقى كلمة وداع أخيرة على قبرها ، ولكن العبرات خنقته ، وعجز عن الكلام ، واكتفى بلقاء بعض الأزاهير على قبرها » . ومضى بعد وفاة والدته إلى بلدة كانيفا الصغيرة الواقعة فى كوميون توليزا فى جبال الألب إلى الشمال من الأوندين لتعليم فى مدرستها . ولم يكن من خيرة المعلمين ، وهى حقيقة تبينها فى نفسه . وكان الأطفال يحبونه حباً جمّاً ، ولكن يبدو أنه كان يجد صعوبة بالغة فى السيطرة عليهم ، ولا سيما أن عقله كان دائماً غائباً فى أماكن أخرى . وكثيراً ما فقد السيطرة على أعصابه ، فيضرب المنضدة بقبضة يده ، وينهال عليهم بالشتائم . وبالرغم من أنهم أطلقوا عليه اسم « الطاغية » إلا أنهم لم يكونوا يخشونه . وخيل إلى الكثيرين منهم أنه مصاب بلوثة فى عقله . وكان رباط عنقه دائماً الاعوجاج . كما كانت « باقة » قميصه قدرة ورباط حذائه محلولاً ، وشعره طويلاً ومنكوشاً . وكثيراً ما اجتاز طرقات البلدة والكيلومترين ونصف الكيلومتر بين البيت الذى ينام فيه وبين المدرسة وهو يقرأ فى كتاب بيده ، أو يتلو بعض الشعر . وتلقى بعض اللاتينية على أيدي كاهن الكنيسة ، وشرع يدرس الحساب الهندى ، ويعد ملاحظاته عن تاريخ الفلسفة ، كما يعد دراسة نقدية فى الأدب الألمانى . لكنه على أى حال كان يقضى أوقات فراغه من المدرسة ومن الدروس الخاصة التى يعطيها فى المنزل الذى ينام فيه ، فى احتساء الخمر ، أو فى إغراق شهواته الحسية والجسدية وإشباعها . وقد تحدث هو عن العام الذى قضاه فى توليزا فوصفه بأنه « شبه انحلال خلقى » . وكثيراً ما أغرق فى شرب الخمر مع رفاقه ، وعندما يفترق عنه هؤلاء الرفاق ، كان يمضى متعزراً فى شوارع البلدة المعنمة ، صائحاً ، ومعرّداً ، يقرأ أشعار كاردوسى ، ويلقى الخطب على نافورة المياه فى ميدان البلدة . وكان يتعاطى الحب

مع أية فتاة ترضى به ، ويهدد باغتصاب كل من ترفضه . وأصيب بمرض الزهري وعندما اكتشف علائمه في جسده . حشا مسدسه بالرصاص ، قائلاً إنه سيستحر ، ولكن رفاقه تمكنوا من إقناعه بعد لأي بمراجعة أحد الأطباء بدلاً من الانتحار . وكانت له علاقة غرامية بزوجة صاحب البيت الذي أقام فيه ، وعندما غادر البلدة نهائياً ، عاد إليها ذات يوم قادماً من بريدايبو التي تبعد عنها ثلاثمائة ميل ، في ليلة من ليالي الشتاء القاسية ، لأنه أحس بشوق زائد إلى عشيقته ، وقد انسل صاعداً السلم إلى دارها ، حيث أخذها بين أحضانه بينما كان زوجها يغط في نومه في غرفة أخرى .

واستضافه السجن مرة أخرى في أواسط الصيف التالي . فقد وقف بما عرف عنه من عنف لا يعرف التفاهم ، إلى جانب عمال المياومة ، أثناء أحد النزاعات المألوفة التي كانت مصدر إزعاج لحياة مقاطعة رومانا ، واشترك في جدال سياسى عنيف في بريدايبو مع ظالمهم من مستأجرى الأرض . وقضت عليه المحكمة بالسجن ثلاثة أشهر .

وأصبح الآن إنساناً معروفاً في رومانا . وبدأ الناس يتحدثون عنه . كما أخذت الصحف تنشر أخباره . وبات « الرفيق موسولينى » في الخامسة والعشرين من عمره قوة يحسب حسابها في المنطقة . ومضى بعد أن أطلق سراحه شمالاً إلى تورنتو ، وكانت آنذاك جزءاً من النمسا ، ليشغل منصباً نقابياً فيها ، وليغدو مساهماً دائماً في تحرير الصحيفة اليسارية الأسبوعية فيها وهي صحيفة « مستقبل العامل » الناطقة باسم الجماعات الثورية والدولية . ولكنه لم يمل إلى اشتراكى ترنتينو الذين كانوا يعبدون مازينى^(١) تماماً كما كره في الماضى الاشتراكيين السذج في جوالتيبرى . وكان يرى فيهم منافق « الرأسمالية البورجوازية » و « عبادة القومية والوطنية » ، الذين يجب أن يهاجموا المرة تلو المرة إلى أن تم « تعرية خياناتهم للطبقة البروليتارية العاملة » . وكان يرى أن على هذه الطبقة أن تكون « بحكم تعريفها وحتميتها معادية لوطنية » ، وأن تدرك أن القومية ليست إلا القناع « للعسكرية الشريرة » التي يجب « أن يمحى

(١) جيوسيبي مازينى (١٨٠٥ - ١٨٧٢) - زعيم ثورى وطنى إيطالى . لعب دوراً في توحيد

إيطاليا .

بينها وبين السادة» ، وأن العلم الوطنى ليس إلا كما قال جوستاف هيرفيه (Gustave Hervé) : «خرقة يجب أن ترفع فوق المذبلة» .

وبالرغم من عمق كراهيته لقومية اشتراكي ترينتينو ، فقد وافق على الكتابة لصحيفة «البوبولو» التى كان محررها سيزا - باتيسى ، وهو رجل ذو اتجاهات يسارية ، وراح يهاجم فى المقالات التى كتبها لهذه الصحيفة ، ولصحيفة أخرى يملكها باتيسى وتسمى «حياة ترينتينو» ، بأسلوبه العنيف المعهود ، عدداً مختلفاً من الأهداف ، تبدأ من العقلية المناهضة للبروليتارية عند الماسونيين الأحرار ، وتنتهى عند نزوات أصحاب الأرض ، ومن التأثير السيئ للنظرية المalthusية الجديدة (Neo-Malthusianism) ^(١) إلى الروح البورجوازية التى أدت إلى انحطاط الأول من آيار كعيد ثورى . لكن أعنف حملاته ظهرت فى مجلة «مستقبل العامل» وقد استهدفت الروح العسكرية والقومية والتأثير الكاثوليكي القوى فى ترينت الذى تعززه الصحيفة الكاثوليكية الواسعة الانتشار «ال ترينينو» ، التى كان السيد دى جاسبيرى من أبرز كتابها السياسيين . وقد صدق جوادينز ميجارو ،

(٢) ظل موسوليني طيلة حياته واقفاً تحت كابوس ما أسماه بمشكلة السكان فى إيطاليا . وعند ما اقترح عليه الكاتب الألمانى إميل لودفيج فى عام ١٩٣٢ أن المشوية (النظرية التى تدعو إلى تحديد النسل نسبة إلى مalthus ١٧٦٦ - ١٨٢٤) العالم الاقتصادى والسياسى الذى دعا إلى تحديد نسل) ، أكثر ضرورة لإيطاليا منها لأى بلد آخر فى العالم ، انفجر موسوليني غاضباً . وقد وصف لودفيج هذا الموقف بقوله . . . «لم أر موسوليني قط من قبل أو من بعد ، فى مثل هذا الموقف الذى فقد فيه السيطرة على نفسه . وكان يتكلم بسرعة تبلغ ضعف سرعة حديثه العادى ، وينهال على بأقواله كالصوارى وهو يقول . . . مalthus مalthus ! إن نظريته ، خطيئة اقتصادية وجريمة أخلاقية . فالحد من النسل يجر فى أعقابها الفاقة . فعند ما كان عدد سكان إيطاليا ستة عشر مليوناً ليس إلا ، كانت البلاد أكثر فقراً مما هى عليه الآن وقد بلغ تعداد سكانها ٤٢ مليوناً .

وظل يكرر دائماً ، أن على كل أسرة أن تنجب خمسة من الأطفال . وستدفع الدولة إلى الآباء الذين ينجبون عدداً كبيراً من الأطفال ، أجوراً أعلى من تلك التى يتقاضاها زبلاؤهم . وأمر بأن تعطى الأمهات اللاتى ينجبن عدداً كبيراً من الأطفال ، العضوية الفخرية فى الحزب افاشى .

وسحدث أن أمر بترقية أحد قادة الجيش فى الصباح ، ولكنه عاد فى المساء فألقى أمر الترقية لأنه اكتشف أن الجنرال ، من العزاب . وراح يقول . . . «على كل جنرال أن يكون أول من يدرك أن الفرق العسكرية تحتاج إلى رجال» . وكان فى إمكانه أن يقول إن زيادة عدد السكان تؤمن الرجال للجيش ، والمبرر المشاز لطلب المستعمرات ، ولإبقاء على الأجور المنخفضة . «المؤلف»

مؤرخ حياته عندما قال بأن حملاته العنيفة على الكنيسة الكاثوليكية التي وصفها «بالجنة العظيمة الميتة» ، وعلى الفاتيكان الذي وصفه «بمغارة التعصب وعصابات اللصوص» ، وعلى المسيحية نفسها التي وصفها «بالأثر الإنساني الدائم للخزي والعار» ، هي التي أدت إلى اعتقاله وطرده من النمسا ، وإن هذا الطرد لم ينشأ عن تلك الحملات العارضة التي شنها أحياناً على القومية النمساوية ، أو تلك المقالات التي أيد فيها حقوق الإيطاليين الذين يعملون تحت السيطرة النمساوية . ولا ريب في أن الحملات ، هي التي مكنت مؤرخي حياته اللاحقين من الفاشيين من إيراد عبارات من أقواله كدليل على ميوله اليسارية .

واعتقل في العاشر من سبتمبر عام ١٩٠٩ ، وفي السادس والعشرين منه طرد من النمسا ، كما سبق له أن طرد من مقاطعتي برن وجنيف في سويسرا . وعاد في الشهر التالي إلى وطنه حيث مضى إلى أبيه الذي كان قد تخلى عن مهنة الحدادة في دوفيا وارتحل مع عشيقته الطويلة والنحيلة والخشنة الطبع آنا جويدى ، ومع أطفالها الخمسة إلى فورلى ، حيث ابتاع خان بير سالجيرى . وكانت راشيل صغرى بنات آنا ، فتاة جميلة في السادسة عشرة من عمرها ، ذات شعر أشقر متموج ، ومزاج استفزازي وعنيد . وقرر موسوليني الزواج من الفتاة . وكان قد وقع في الماضي في غرام شقيقها الكبرى أوجستا ، ولكنها أوجست خيفة من عدم استقراره ، وآثرت الزواج برجل ذى عمل منظم يشتغل حافراً للقبور . لكن موسوليني سرعان ما تحول بعواطفه وحبه إلى راشيل . وكان يعكف في الأمسيات بعد أن يغسل الأقداح ، ويملاً الجرار في الخان على كتابة القصص القصيرة وعلى استكمال كتاب كان قد شرع فيه عن حياة جون هوس المصلح البوهيمي ، كما بدأ في كتابة قصة طويلة أخذ ينشرها في حلقات في صحيفة البوبولو ، التي كان رئيس تحريرها قد اقترح عليه موضوعها . وقد ترجمت هذه القصة التي أمماها «كلوديا بارتيسيل» إلى الإنجليزية في عام ١٩٢٨ تحت عنوان «عشيقة الكردينال» ، وهي قصة تخلو حتماً من الطافة والحيوية . وقد وصفت مرجريتا سارفاقي هذه القصة كغيرها من القصص التي وضعها موسوليني «بالخليط البليد الذي لا يعرف رأسه من ذنبه ، والشريط السريع لأحداث طويلة» . لكن راشيل ، أعجبت بالقصة ، وذلك لأن إحدى شخصياتها الرقيقة وهي خادمة البطلة ، قد ضححت بحياتها من أجل سيدتها ،

وقد أسماها بنيتو باسم حبيبته راشيل .

ووصفت راشيل الليلة الأولى التي مضى بها بنيتو إلى المسرح ، وقد عاد بها إلى الخان ، وطلب السماح له بأن يعيش معها . ولكن والده ووالدة الفتاة رفضا قبول طلبه . وسرعان ما انتضى مسدسه وهددهما بقتل نفسه وقتلها إذا لم يحقق أمنيته . وأخيراً أذعن الوالدان لرغبته ، ولم تمض أيام حتى كان يستأجر غفتين في منزل رطب ومتهدم في شارع « ميريندا » . وكتبت راشيل فيما بعد تقول . . . « وانتقلنا إلى المنزل ذات مساء . وإلى الأذكر كم كان سعيداً رغم ما يبدو عليه من جهد ، إذ لم يكن واثقاً من موقعي ، نظراً لعدم استكمال أوراق الزواج . ولكنني فهمت موقفه وقدرته . فأماى يقف الرجل الذى أحببت ، وهو ينتظر منى أن أمنحه ، الهبة الوحيدة التى تستطيع الحياة أن تمنحه إياها ، وهى حبي . وكانت الخطوط قد بدأت في الظهور على وجهه الفتي نتيجة ما يعانيه من جهد في كفاحه اليومي . ولم أتردد لحظة واحدة . ومضيت معه إلى آخر الشوط » .

وعاشا معاً في ذلك المنزل الفقير في شارع ميريندا ثلاث سنوات . وولدت لهما طفلتهما الأولى إيدا ، في نهاية العام الأول من الزواج أى في الأول من سبتمبر عام ١٩١٠ . ومضى موسوليني يبتاع لها سريراً عاد إلى البيت يحمله على كتفه ، وقد كلفه هذا السرير خمس عشرة ليرة ، أى نصف أجره الأسبوعي . مما اضطره إلى أن يعيش مع زوجته بقية ذلك الأسبوع على الكرنب . وكان يعمل الآن سكرتيراً لاتحاد فوري الاشتراكي ، ويتقاضى مرتباً ضئيلاً كان ينفق القسم الأكبر منه على الصحيفة الأسبوعية التي أسسها وهى « الصراع الطبقي » ، والتي كان يقوم بنفسه بتحرير معظم المواد التي تضمها صفحاتها الأربع . وكان قد بات الآن اشتراكياً مخلصاً . وكان يحنس الخمر أحياناً مع أصدقائه ، ولكنه لم يعد يشرب حتى السكر ، وبات لا يقبل فتاة جميلة إلا نادراً ، إذ ظل وفيّاً لزوجته راشيل وكان قد انصرف الآن بنحيوته كلها وبطموحه النامى المتزايد إلى السياسة ، وإلى العمل في صحيفته التي غدت الآن أكثر تأثيراً من معظم الصحف الاشتراكية الأسبوعية الإيطالية من نوعها ، إذ دأبت صحيفة « أفانتى » اللسان الناطق باسم الاشتراكية على الاقتباس من كتاباتها . وكان لا يعود إلى منزله إلا قليلاً ، إذ كثيراً

ما رآه الناس يندرع شوارع البلدة في طريقه إلى اجتماع عام ، لا يرفع هامته عن الأرض ، وقد وضع يديه في جيبي سرواله ، شاحب الوجه ، طويل الذقن ، مهلهل الثياب رثها ، يتحدث إلى نفسه . أما الساعات القليلة التي يقضيها في المنزل ، فتتقضى في العس كتابة أو قراءه ، يترجم كرويونكين وبعد خطبه . وكثيراً ما توقف فجأة عن العمل ، يمسك فيثارته ، التي تعلم منذ صباه العرف عليها متملداً على عازف متواضع . ولم يكن موسوليني بالموسيقى الكبير ، ولكن عزفه كان قوياً وعالياً ، وكان يريح أعصابه المجهدة . وهو يعزف بينما يحول فكره في المواد التي يضمها مقالاته وخطبه . وكان يمضي أحياناً إلى المسرح مع زوجته راشيل ، وأمهات الغريبة التي تشبه الساحرات ، ولكنه كان حتى أثناء وجوده هناك ، ينتقل بفكره ، كما ذكر فيما بعد ، إلى خطبه ، فيصبح مثلهفاً إلى العودة إلى منزله ، ليسجل الأفكار التي طافت بخاطره . وكان إذا ما تأخر العرض عن البدء في موعده ، ينتزع حذاءه من قدمه ، ويهدد بقذف المسرح بها .

وكان قد غدا الآن من خيرة الخطباء ، قوى الصوت ، مؤذناً على سامعيه . وكانت حملاته فظة قاسية ، وحفاقة التي يوردها حافلة بالأخطاء ، وآراؤه كثيرة التناقض ومعظمها محفوظ عن ظهر قلب . وكانت مواقفه مسرحية ، ولكن لم يكن ثمة من ينكر عليه ما في صوته من جاذبية طاغية ، وما في إيماءاته من عنف واستفزاز وتكرار ، وما في مواهبه من قدرة على استخدام التعبيرات المسرحية والإشارات الغامضة ، والاستعارات القوية رغم لا معقوليتها . وقد أنمى لديه قدرة عظيمة على إثارة العواطف عن طريق الهجاء بسلسلة من الحمل المتقطعة ، التي يلقيها في تلافقات حماسية ولكن في نغمات صوتية متباينة يؤكد بها إيماءات مدروسة ومحسوبة ، لينسجم كل الانسجام مع الجو الحماسي الذي يحيط به . وكان قد أنمى في نفسه أيضاً تلك القدرة التي باتت تمثل لديه فيما بعد عبقرية خطابية في فرض المزاج الذي يريده على جماهير سامعيه ، ثم ينطلق مع سجيته ، فيخرج كلامه إليهم عن حدود الخطابة إلى حدود الحوار ، أو ما يشبه الدعاء غير المحفوظ ، يشترك فيه المستمعون بتلاوة ردودهم على أسئلته الملحة ، ثم ينثر ما يقولونه في عبارة مبسطة يعيدها على مسامعهم ليتفجر انعكاسهم ، منطلقاً في صورة تشجيع عاطفي

يؤكدون فيه وحدتهم وراعه . وكان قد أُنقذ أيضاً الإفادة من مجموعة من الهتافه الذين تنطلق هتافاتهم بالموافقة عند إشارة معينة أو إيماءة متفق عليها ، فتسرى عدواهم إلى الجماهير . وأدرك فوق ذلك كله ، الحاجة إلى جماعة من المعجبين المخلصين حوله ، يستطيعون أن يؤلفوا نواة أتباعه المستعدين للسير وراء زعيمهم

فقد تبين الآن في نفسه صورة الزعيم في مرحلة الانتقال والتحول ، وقد اعتمد الآن على أفكار تفتقر إلى حد كبير إلى الترابط ، وإلى لفهم ، التقطها من هنا وهناك . من نيتشه ، وشوبنهاور ، وبلانكي ، وهيغيل ، وسوريل ، واقترضا من البلاشفة الروس ، وبات يؤمن ، بالعقيدة التي قدر لها أن تسيطر على حياته كلها ، وهي وجوب الإطاحة بالنظام القائم على أبدى صفوة من الثوريين يعملون باسم الشعب ، ويتولى هو قيادتهم .

لكن العنيفين فقط من رفاقه الاشتراكيين كانوا على استعداد للسير معه ، وتبنى آرائه المتطرفة والعنيفة في حملاته التي لا روية فيها ولا هودة ، على توراتي وبيسولاني وتريفيز وغيرهم من المعتدلين في الحزب . وعلى أية فئة داخل الحزب أو خارجه تختلف معه في الرأي . وكان في الواقع رجلاً بارزاً ، كما أكد أكثر الاشتراكيين التقليديين . ولكنهم رأوا فيه رجلاً خطراً بل لا يقل في خطورته عن لازاري . وكانوا يستمعون بكثير من الفزع إليه وهو يخاطب مدافعاً عن العنف كسلاح صالح إذ يصفه « بالضرورة التي لا مناص منها أو التي تشبه الحديد في صلابتها ، وإذا يتحدث عن الحاجة الملحة إلى استخدامه كأداة جراحية باترة » . وكانوا يقرأون بكثير من السخط المصحوب بالعصبية عن أساليبه في فورلي ، وبصورة خاصة عن تلك الحادثة التي زحف فيها على قاعة البلدية ، يتبعه حشد ضخم من الناس ، مهدداً بقذف رئيس البلدية من النافذة ، إذا لم يعمل على تخفيض سعر الحليب .

وأظهر موسوليني مدى خطورته عندما قررت حكومة جيوفاني جيوليتي في صيف عام ١٩١١ ، أن ترسل القوات الإيطالية إلى برقة وطرابلس محتجة بحماية ممتلكات الرعايا الإيطاليين ، وهادفة في الواقع إلى نهش هاتين المستعمرتين من تركيا .

وقد اشتد غضبه عندما رأى المؤتمر الاشتراكي القوي الذي عقد في ميلان ، والذي شاهده كمنذوب عن فورلى يرفض بحث مناهضة النزعة العسكرية ، ورأى في المؤتمر جماعة من « المنافقين الاشتراكيين » ، على استعداد لتأييد عدوان الحكومة . وقد علق جيوليتى بشئ من الرضى على ذلك بقوله . . . « لقد استبعد ماركس إلى الطبقة العليا من المكان » . وأوضح موسوليني كل الإيضاح عدم استعداده بأى حال من الأحوال ، وذلك في المقالات التى نشرها في « الصراع الطبقي » وفي خطبه ، لتأييد الحرب . وراح يهتف بشئ من الغضب الثائر . . . « ما زالت العسكرية الدولية ، تحتفل بطقوسها في التخريب والموت . وفي كل يوم يمر ، يرتفع الهرم الذى ينبئ من جثث ضحايا الحروب ، ليقف " مارس " إله الحرب على قمته ، ينتظر بنظرته الجهنمية وفيه الفاجر شفتيه ، لا يشبع ولا يرتوى ، المزيد من الضحايا . . . وما دامت هنالك أوطان ، فستظل العسكرية قائمة . . . وليس الوطن إلا شعباً . . . فهو كالإله ، وهو يشبهه في قسوته وطغيانه ورغبته في الثأر . . . علينا أن نظهر أن الوطن غير موجود ، كما أن الله غير موجود » .

وقررت لجان الاتحاد العام للعمل ، الاحتجاج على هذه الحرب المفضعة ، وقر رأيها على الإضراب العام ، وأعدت احتجاجاً عنيف اللمجة . لكن هذه الخطوة لم تكن كافية لموسوليني . وراح يصرخ في عمال فورلى ، طالباً لاليم الحبيء لحضور الاجتماعات السياسية لا بأذرع خالية تمتد إلى جوانبهم ، بل بأذرع تحمل السلاح ، وانضم إلى الجمهورى الشاب بيترو نينى (١) ، في دعوته الجماهير لا إلى الإضراب فحسب ، بل إلى الثورة أيضاً . ومضى يقود بنفسه زمرة من الرجال ، تمكنوا بعد يومين من الفتنة في فورلى ، من إشغال أنفسهم باقتلاع قضبان « الترام » في البلدة بقذووسهم . . ولم تمض بضعة أسابيع حتى كان يظهر أمام المحكمة مدافعاً عن نفسه بخطاب عرض فيه عرضاً رائعاً قدرته على التلاعب بالألفاظ . ولكنه أصبح نزيل السجن للمرة الخامسة .

وأطلق سراحه بعد خمسة أشهر ، وعاد إلى منزله في شارع ميريندا وقد حزم أمره أكثر من أى يوم مضى ، على أن يغدو زعيم الاشتراكيين ، وأن يحولهم إلى حزب

(١) بيترو نينى ، الزعيم الخالى للحزب الاشتراكي في إيطاليا . « الحرب »

ثوري جمهوري . وراح يطلب إلى الاتحاد الاشتراكي في فورلى ، بعد أن فشل في السيطرة على المؤتمر القوي الاشتراكي في ميلان ، إعلان انسحابه من الحزب ولكن بعد أن بدأ الرأي داخل الحزب يتجه إلى جانبه ، راح يصبر على عودة اتحاد فورلى إلى حظيرته ، وأطاعه الاتحاد طاعة كاملة ، وعندما عقد المؤتمر التالى للحزب في ريبيو اميليا ، جاء إليه ، المبعوث النازى الحديث ممثلاً لفورلى . ولم يكن الكثيرون من المندوبين قد سمعوا به من قبل ، بينما تذكره البعض منهم في مؤتمر ميلان الأخير وهو يفتقر إلى الاتساق في الفكر في خطبه . وراح يشن حملة عنيفة على خصومه من أعضاء الكتلة البرلمانية للحزب تميزت بالاندفاع والبلاغة والحقد السام ، من أمثال ليونيدا بيسولاتى ، وليفانو بونوى وأنجيلولو كابريني ، وهم من نواب الطبقة الوسطى الاشتراكيين الذين عرضوا أنفسهم كما قال « لاثامات خطيرة من الحزب » ، عندما هناؤا بشكل مكشوف الملك على نجاته من المحاولة التى قام بها فوضوى من عمال البناء لاغتياله . وأضاف موسولينى أن من الواجب تطهير الحزب من أمثال هذه الحشالات . وعليه أن لا يعرف سبيلاً إلى التفاهم مع المنظمات المناهضة للطلائع العمالية (البروليتارية) . وكان خطابه قوياً ، حقق له النصر ، وتأثر به حتى أنصار بيسولاتى وتوراتى . وكتب أحد هؤلاء وهو زوج مرجريتا سارقانى إلى زوجته يتحدث عن ظهور « شاب رائع ، مقابل له أن يسيطر على الحزب » وراح يضيف أنه « بالرغم من قوامه النحيل ، يتميز بالقسوة والمزاج النارى ، والابتكار في انطلاقات البلاغة » ، وأنه الرجل الذى ينتظره مستقبه العظيم^(١) .

(١) ومرضت مندوبة أخرى اشتركت في المؤتمر ، هي الفوضوية الروسية آنا كوليشوف ، التى سبق لها أن سمحت في عام ١٨٩٨ مع فيليبو ترواتي ، عند ما اشتركا في الاجتماعات الثورية التى عقدت في ميلان ، صورة مختلفة عن هذه الصورة للشاب النارى الحديث . . . فقد كتبت تقول : « إنه ليس من الماركسيين . بل إنه ليس من الاشتراكيين على الإطلاق ، ولا من الساسة أيضاً » ، وإنما هو ذواق عاطفى للشعر ، أكثر من قراءة نيتشه . وظهرت صورة أخرى أقل حساسة له في صحيفة « بعد الراحة » فوصفته بأنه يكتر من حركاته وتمبيراته بحيث يبدو كالصينيين . أما صحيفة « الكورسييرى ديلاسيرا » فقد تبنت رأى زوج مرجريتا وكتبت تقول : « خطب موسولينى بكثير من الصراحة والإخلاص في الإدارة . وقد أحبه المؤتمر في نحوه وممارته ، وتفجره في الحديث المخلص ، وأحسن أنه يضم بين أعضائه شخصاً قادراً على التعبير عن مشاعره » . « المؤلف »

وفي ديسمبر عام ١٩١٢ ، أى بعد ستة أشهر من المؤتمر الاشتراكي ، اعترفت اللجنة التنفيذية للحزب ، التي سيطر عليها الجناح اليساري الآن ، بالمواهب المذهلة ، للصحفي الشاب ، وأعلنت أنها « قررت بالإجماع تعيين الأستاذ (ابروفيسور) ، بنيتو موسولينى من أهل فورلى ، رئيساً لتحرير صحيفة الحزب «أفانتى» ». وعندما وصل موسولينى إلى مكتبه الجديد في ميلان راح يقول لمحرريه . . . « قررت أن أتولى بنفسى كتابة كافة المقالات السياسية » . ولم يمض شهران ، حتى كانت مواهبه العظيمة كصحفي ، وابتكاراته الطباعية الجريئة ، قد ضاعفت توزيع الصحيفة . وارتفع رقم التوزيع عندما انتهى عمله كرئيس لتحريرها من ٢٨ ألفاً إلى نحو من مائة ألف .

وقد ذكر أحد المحررين الشبان في الصحيفة . . . « لا أدري ما أفعاه بهذا الشاب الغريب موسولينى ، ولكننى أعرف أنه سيصل إلى منزلة . . . »

الداعية إلى التدخل

من أكتوبر ١٩١٣ إلى ٢٤ مايو ١٩١٥

لا مكانة لمحايد

وطد موسوليني في أكتوبر عام ١٩١٣ أقدامه كمرشح عن منطقة فورلى ، بين مرشحي الحزب الاشتراكي لعضوية البرلمان الإيطالي ، وشرع يلقي سلسلة من الخطب الانتخابية ، معلناً فيها استنكاره للزعة العسكرية والقومية العسكرية والقومية والإمبريالية ، ومنى بهزيمة ساحقة في المعركة . وبالرغم من انتخابه بعد فترة قصيرة عضواً في مجلس مدينة ميلان ، إلا أنه عزا هزيمته وهزيمة المتطرفين أمثاله إلى « روح الشعب البورجوازية » ، التي لا تجد الشجاعة ولا الحيوية للنضال من أجل مطالبها ، والتي تحتاج إلى حادث من النوع الجانح لتوعيتها بقدرها ومصيرها . وفي ذات يوم ، وبعد قيادته للهجوم على خطوط الترام في فورلى ، كان يلقي خطاباً في نحو عشرة آلاف من العمال ، في حديقة البلدية . وارتقى عدد من الصبية المنصة ، وراحت « قباقيبهم » الخشبية ، تفرع ألواحها ، محدثة صوتاً أشبه ما يكون بوقع حوافر الجياد . وتحولت الهتافات التي كانت تنادي بالثورة إلى صيحات فزعة تقول . . . « جاء الفرسان » . وسرعان ما انطلقت الجماهير هاربة من الحديقة . . . ونظر موسوليني إلى أحد رفاقه وهو يقول غاضباً . . . « إنه شعب من الجبناء . إنهم أضعف من أن يناضلوا » . وهكذا أحس بخيبة الأمل من جديد . وأعلن الإضراب العام في مستهل عام ١٩١٤ ، في كل من رومانا ومارش ، وسرعان ما أصبحت المنطقة كلها تنفور بالاضطراب . وقامت مظاهرات معادية للكنيسة وللزعة العسكرية ، كما أعلنت عدة جمهوريات عن قيامها بين عشية وضحاها . وأعلنت أنكونا نفسها كوميوناً مستقلة ، وارتفع العلم الأحمر على قاعة البلدية في بولونا . واندفع موسوليني في مدينة ميلان حيث ألف الاشتراكيون والسنديكاليون جبهة واحدة ولجنة عمل مشتركة ، مرة ثانية إلى الشوارع ، بأمر

العمال باحتلال الميادين العامة ، ولكنه رأى بنفسه عماله وهم يهزمون أمام هجوم قام به الفرسان في ميدان دوومو . وعندما قام رتل من القوميين يهدد باحتلال البناء الذي تقوم فيه مكاتبه ، لم تلق صيحاته « إلى السلاح » يا رفاق ، استجابة حماسية . وشجعتهم مرجريتا سارفاقي ، وكانت محررة الصفحة الفنية في صحيفته آنذاك ، على المناذاة بالمقاومة العنيفة ، واقترحت استخدام مقصات المحررين كخناجر ومدى ، ولكن المحررين الآخرين ، كانوا أقل إصراراً وتصميماً ، وبدأ عليهم الارتياح عندما عدل القوميون عن مهاجمة الدار .

ولم تمض بضعة أسابيع حتى كانت النمسا تعلن الحرب على بلاد الصرب ، لتكون الشرارة الأولى في الحرب العالمية . وانطلق صوت موسوليني يردد من مكاتب « ألافانتي » بقوله « لتسقط الحرب » ، مكرراً نفس الشعارات التي استخدمها في مهاجمة القوميين في ترينت . . . وارتفع صوته يهتف . . . « ليسقط السلاح وتلحق الإنسانية » . وكان من الختمي أن تنشب ثورة العمال في إيطاليا ، لو أن الحكومة الإيطالية ، اشتركت في الحرب إلى جانب النمسا وألمانيا ، شريكها في التحالف الثلاثي الناقص فعلياً . وكان التدخل إلى جانب فرنسا ، مفاجئاً أيضاً . وحتم الواجب على الاشتراكيين في الواقع ، أن يناضلوا ليضمنوا حفاظ إيطاليا على سياستها في « الحياد الصارم » . وبعث يستفي رفاقه الاشتراكيين يسألهم تأكيد موافقتهم على هذا الموقف الذي لا يلين ، وسرعان ما تلقى ردود أتباعه المعجبين به ، يؤيدونه كل لتأييد . وعندما أعلنت الحكومة اعتزامها على الاحتفاظ بحياد إيطاليا ، وراح السنديكاليون يعلنون أن هذا القرار خاطئ ، وأن على البلاد أن تشارك في الحرب ، هاجمهم موسوليني بعنف ووصفهم بأنهم خونة هدامون ، لقضية الطبقة العاملة .

ولكن آراء مغايرة كل المغايرة ، كانت تتولد الآن في عقل موسوليني ، وراء هذه الحملات الصريحة على دعاة التدخل في الحرب . ففي اليوم الذي صرع فيه الأرشيدوق في سراجيفو^(١) ، كان يقضى إجازة له ، في كاتوليكا ، مع زميل

(١) مقتل أرشيدوق النمسا في مدينة سراجيفو في صربيا ، وكان الحادث شرارة انفجار الحرب العالمية الأولى . « المغرب »

صحفى ، يدعى ميشيل كامبانا ، وعندما انطلقا فى طريق العودة إلى ميلان ، اعترف موسولبنى لرفيقه بخيبة أمله المتزايدة من زملائه الاشتراكيين ، وراح يقول له . . . « أريد أن أقود الحزب بطريقة ذكية بارعة ، موجهاً إياه كما يجب أن يوجه عبر الأحداث العظيمة التى تنتظرنا » . لكنه كان فى شك من أن الحزب سيسير وراءه .

ومضى موسولبنى يقول . . . « علينا أن نفهم هذه الحقيقة بمنتهى الوضوح . تهاجم دولتا الوسط إنجلترا وفرنسا عن طريق بلاد الصرب . ولا بد من أن يتحول القتال إلى حرب عامة . وستكون فرنسا أول ضحايا هذه الحرب ، إذا لم تبادر الدول المتمدنة إلى الاتحاد لإنقاذها ، وتعنى هزيمة فرنسا ، الضربة القاضية على الحرية فى أوروبا . وعلى الحزب الاشتراكى أن لا يتجاهل احتمال التدخل إلى جانب فرنسا إذا ما جرت إلى الحرب جرّاً . ولكن هل يفهم قادة الحزب هذه الحقائق ؟ » وراح رفيقه كامبانا يذكره بالخطاب الذى ألقاه فى المؤتمر الاشتراكى الأخير فى ريجيو اميليا ، عندما تحدث بمنتهى العنف والقوة مهاجماً القومية وأولئك السنديكاليين (النقابيين) ، الذين أيدوا الحرب الليبية ضد تركيا . . .

ورد موسولبنى بسرعة فائلاً . . « الموقف يختلف » . كانت الحرب الليبية حرباً عدوانية . أما هذه فقد يكون فيها إنقاذ إيطاليا . وفى وسعها أن تحل مشكلة ترينتينو وتريستا ، وإنقاذها من قبضة النمسا التى اعتبرها اليسارى سيزار روسى ، عدوة الحرية ، كما قد تقرب من يوم الثورة الاشتراكية . وبالإضافة إلى الإيمان بأن على الاشتراكيين أن يفبدوا من الحرب ، لإثارة الاضطراب والقلق ، وتحطيم النظام البورجوازى فى النهاية ، فقد كان ثمة إيمان آخر ، يدفع موسولبنى إلى تغيير وجهات نظره . فقد رأى أن الناس بدأوا يستمعون إلى النقابيين (السنديكاليين) الذين يقودهم السيستى دى امبريزو ، والقوى العنيف فىليبو كوريدونى ، فى دعوتهم إلى الحرب ، ويقابلون آراءهما بالإجلال والعطف ، وانتابه الخوف من أن يؤدى ذلك إلى إضاعة السيطرة على ضمائر الاشتراكيين ، الذين كانوا يرددون القاعدة التى وضعها كارل ماركس ، والقائلة بأن الثورة الاجتماعية تتبع الحرب عادة ، وأن ليس ثمة من شك فى أن هذا الوضع قد ترك أثراً عميقاً فى عقل موسولبنى .

وقد جاء ذكر هذه القاعدة التى أوردها كارل ماركس ، بكل تأكيد فى

حديث مهم جرى لموسوليني في ميلان مع فيليبونالدى ، صاحب صحيفة « ريسودى كارلينو » الصادرة في بولونا ، والتي كانت تدعو في الماضي إلى موقف محايد يميل إلى النمسا وألمانيا ثم تحولت إلى الدعوة إلى التدخل إلى جانب فرنسا . وقد أعاد موسوليني على مسامع نالدى ، ما كان قد سبق له أن ذكره لكامبانا ، من أن رفاقه الاشتراكيين لن يوافقوا على تأييد سياسة التدخل ، وأنه لا يستطيع والحالة هذه كرئيس لتحرير صحيفة « أفانتى » أن يؤيد هذا الاتجاه تأييداً فعلياً . وهنا اقترح عليه نالدى ، أن يستقبل من تلك الصحيفة ، وأن يصدر صحيفة خاصة به ، ووعده بتحويلها .

واستقال موسوليني في السادس والعشرين من أكتوبر من رئاسة تحرير أفانتى ، وظهر العدد الأول من صحيفة « البوبولو ديتاليا » في الرابع عشر من نوفمبر . وحملت الصحيفة على صدر صفحتها الأولى وإلى جانب اسمها شعارين يمكن اعتبارهما ، بمثابة إعلان مولد الفاشية ، أولهما لبلانكى يقول « من يملك الحديد يملك الخبز » . والثاني لنابليون يقول . . . « الثورة فكرة عثرت على حرايبها » . وظهر على صفحتها الأولى مقال يحمل توقيع رئيس التحرير ، بنيتو موسوليني ، وعنوانه « الجرة » .

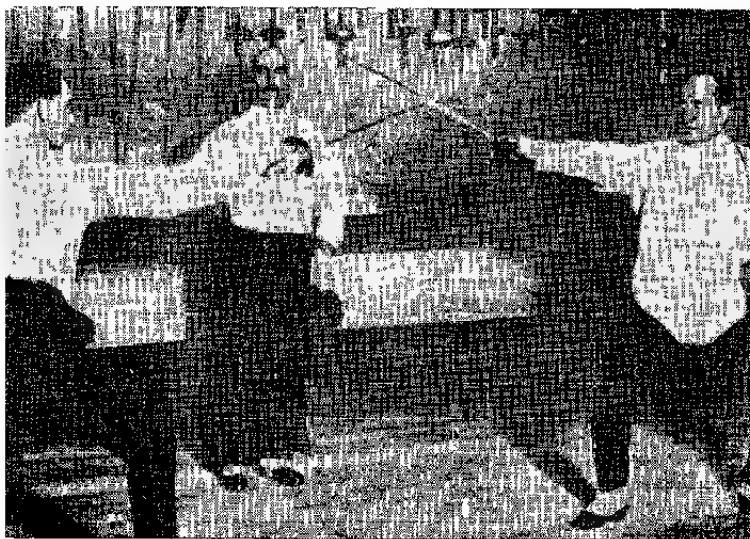
وجاء في هذا المقال قوله . . . « أوجه كلمتى الأولى إليكم يا شباب إيطاليا ، ويا فتياتها في مصانعكم وجامعاتكم . إليكم يا من تمثلون الفتوة في أعماركم وأرواحكم ، ويا من تنتمون إلى جيل شاء القدر له أن يصنع التاريخ . . . إنها كلمة ما كنت لأجأ إلى النطق بها في الأوضاع العادية ، ولكنى أجده نفسى مرغماً اليوم على النطق بها جهاراً وعلانية ، وبمتهى الوضوح والإخلاص . إنها كلمة الحرب بما فيها من بعث للرعب ، وللاستهواء » .

وعندما عقد الحزب الاشتراكي في ميلان اجتماعه بعد عشرة أيام ، اقترح بعضهم وسط هتافات « الخائن » والأجير ، وبائع الضمير « طرد موسوليني من الحزب » . وتقدم من المنصة وقد علا الشحوب وجهه ، وكل جارية فيه ترتعد فرقاً ، ليرد على ناقديه . كان يرتدى نفس البدلة السوداء الرثة التي طالما ارتداها ، ولاحظ أحد المندوبين أن « بنطلونه » كان قصيراً إلى ما فوق وسغ قدمه . وبدا أنه لم يخلق



موسوليني يعزف على قيثارة في دالة تورلوبي

موسوليني يتمم الممارسة - سلاح





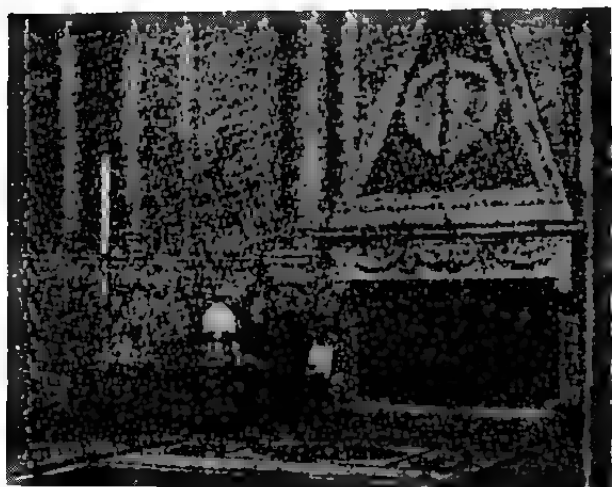
موسوليني في زيارة شهر إيطاليا والنوفريوني جاردوني

موسوليني والنوزير البريطاني وستن تشمبرلن في فلورنسة

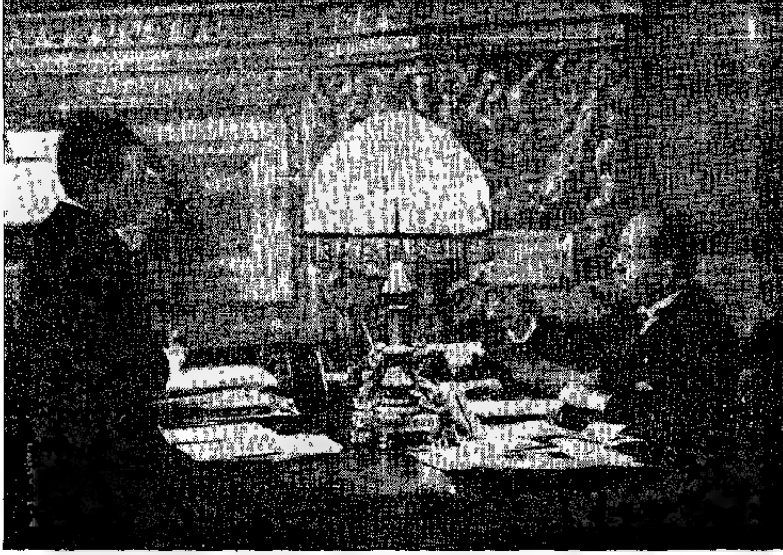




موسى بن موسى التحيه
القائمه في عرض روم



موسى بن يوسف
مكتبه في قصر الهندية



موسولینی يزود أحد الصحفيين لقائين بتعليقاته.

الاحتفال السنوي بذكرى الزحف على رومة
موسوليني مع ... هيو ودي بونو ودي فيش



ذقته لا في ذلك اليوم ولا في اليوم الذي سبقه . وارتقى المنصة ، وقد علا الحناجر ضده ، وارتفع صراخ الحاضرين . وشرع يتكلم ، ولكن أحداً لم يستطع سماع ما يقوله وإنهالت على المنصة قطع النقود وكرات الورق وبعض المقاعد يقذفونه بها ، وهو يصرخ متجهاً إلى المندوبين الغاضبين ، في حديقته ، لا ليدافع عن نفسه ، بل ليتهمهم بروح البورجوازية الصغيرة التي كان يراها أعظم إهانة يستطيع توجيهها .

وراح يصرخ في وجوههم ... « أقول لكم إنكم تضيعون صراخكم في الهواء ، وستجدون أنفسكم جميعاً مرغمين على دخول الحرب ... وليس في وسعكم الخلاص مني . فأنا اشتراكي ، وسأظل اشتراكياً ... وإذا ما اقترعتم ضدي ، فإن اقتراعكم لن يعنى شيئاً على الإطلاق » . وكان يتفجر بهذه العبارات بصوت يقرب من الجنون ، وذكر بعض الدين شهدوا الاجتماع فيما بعد ، أن عينيه كانتا مغروقتين بالدمع . وراح يقول بشيء من اليأس ، وهو يستخدم إحدى تلك الأحاجي التي تبدو معقدة في ظاهرها ولكنها تعني التأكيد الذي يجد ما يعبره ، والتي لم يمل قط من استعمالها فيما بعد ... « إنكم تكرهوني ... أجل أنتم تكرهوني لأنكم ما زلتُم تحبونني » .

ولكن أقواله هذه لم تجده فتيلاً . فقد تقرر كما قال هو عن نفسه ، مصيره من قبل ، ولم يجد جدوى من محاولة إسماع صوته إلى أناس كانوا قد حزموا أمرهم على رفض كل ما يقوله . وراح يغادر مسرح الشعب ومعه نفر صغير من مؤيديه متجهاً إلى مكاتب صحيفته .

وكان غضب الاشتراكيين عنيفاً ، وحافلاً بالحق . فالأصدقاء القدامى ، والمعجبون به ، وجدوا آمالهم تنهار ، وتحولت خيبات أملهم إلى كره شديد . واضطر إلى أن يبارز أحد كبار المعجبين به السابقين ويدعى سيكرتي ، وكان هذا قد أشار إليه ذات يوم بأن « له دماغ إنسان جاء من صلب سقراط » . واعتبره البعض وبينهم أنجليكا بالابانوف ، أشد خائناً خطراً على الاشتراكية . ولم يقتصر اتهامهم إياه على خيانة الاشتراكية ومثلها ، وإنما اتهموه أيضاً بقبول المال من فرنسا عن طريق المعهد الثقافي الفرنسي في ميلان . ليسر في هذا الطريق الذي سار

فيه ^(١). ولكن لم يحل مطلع عام ١٩١٥ حتى كان يكسب بعمله هذا أنصاراً يفوقون في عددهم أولئك الذين خسروهم . وقد اجتذب إلى جانبه معظم أولئك الذين وافقوه على رأيه ، في أن وطن الإنسان يجب أن يحتل المكانة الأولى في النهاية ، وأن الاشتراكيين الألمان بتأييدهم للقيصر قد عملوا على انهيار الحركة الاشتراكية الدولية ، وأن الحرية معرضة لأشد الأخطار . وانضم إلى تأييده نقابيو كوريدوف ، وفوضيو ليبرو تانكريدي ، ويساريو سيزار باتيسني ، والاشتراكيون اليمينيون من أنصار بيسولاني ، الذي كان موسوليني قد عمل على طرده من الحزب بعد الهجوم على طرابلس ، وتبنى العمال الوطنيون آراءه ، كما تبناها القوميون وألوف الشبان الذين عنت الحرب لهم مغامرة مسرحية ، وعدد من المثقفين والكتاب من أمثال جابرييل دانونزيو ^(٢) الذين آمنوا بأن الاشتراك في الحرب سيساعد إيطاليا في سيرها نحو تحقيق الوحدة الكاملة ، وضمان سيادتها الحقة في البحر الإندياتيكي ، ومنطقة نفوذها في أوربا .

وشجع هذا النجاح المتزايد لموسوليني ، كما شجعت استقالة جيوليبي من الحكم وتعيين الانتهازي أنطونيو سالانديرا في رئاسة الوزراء ، إذ أن هذا الانتهازي ، جعل من التدخل فكرة أكثر تقبلاً ، واحتمالاً . ولذا بات موسوليني يزيد من إلحاحه وإصراره على الحرب ، بالغا في دعوته هذه حد الحماسة . واشترك في مبارزة مع اشتراكي إصلاحي يدعى كلوديو تريفيز ، كان في السابق محرراً لصحيفة « أفانتي » . وقد اعتقل بعد اجتماع عنيف لدعاة التدخل في رومة ، واشتبكت في معركة مع ضباط الشرطة الذين فرقوا أحد اجتماعاته في ميلان . وأخيراً أعلنت إيطاليا الحرب في الرابع والعشرين من مايو عام ١٩١٥ ، لإرضاء الملك ، واليساريين وأعضاء الحركة المستقبلية (حركة فنية في إيطاليا) ، والماسونيين وموسوليني . لكن دعاة التدخل الذين رغبوا بإعلان الحرب بحماسة صاحبة لم يكونوا يمثلون البلاد في مجموعها في الواقع ، وقد سجل موسوليني فيما بعد والفرح يستبد به كيف أنهم

(١) بالرغم من أن المدل الذي قدمه فليبي فالوي ، لإصدار صحيفة البوبولوديتاليا لا يبدو صادراً عن الفرنسيين ، إلا أن ثمة دلائل قوية تشير إلى أن موسوليني تلقى عند ما وقعت الصحيفة في ضائقة مالية في عام ١٩١٥ ، مساعدات من « الرفاق الفرنسيين لمساعدة حملة التدخل » . « المغرب »

(٢) جابرييل دانونزيو (١٨٦٤ - ١٩٣٨) - شاعر إيطاليا وقصصها وكاتبها المسرحي . كان قائد حملة فيومي في عام ١٩١٩ - ١٩٢٠ . « المغرب »

أظهروا بصورة مؤكدة ، أن في وسع الأقلية القوية أن تفرض وجهات نظرها على الجماهير . وكان هذا درساً لم ينسه موسوليني .

وراح يكتب في صحيفته « البوبولو ديتاليا » . . . « أصبحنا جميعاً منذ اليوم ، إيطاليين ولاشيء غير إيطاليين . أما وقد بات على الفولاذ أن يلقي الفولاذ ، فإن صرخة واحدة تنطلق من قلوبنا جميعاً ، وهي ” عاشت إيطاليا ” . . . وكانت بذرة الفاشية قد زرعت في أرضها . . .

٣

'الفاشي' في دور التكوين

من أغسطس ١٩١٥ إلى ٢٨ أكتوبر ١٩٢٢

« أوثر من ناحيتي خمسين ألف بندقية على خمسة ملايين صوت »

١

كان موسوليني جنديًا ممتازاً ، ولم يتطوع كغيره من أتباعه ، منتظراً استدعائه في شهر أغسطس ليعمل مع الكتيبة الحادية عشرة للرماة ، ولأنما رفض اقتراح قائده العقيد في أن يعمل في مقر قيادة الكتيبة في إعداد يوميات الحرب ، وأثر أن يمضي في غضون أسابيع إلى الجبهة ليقا تل في صفوفها الأولى . وكان قد قضى منذ عودته من سويسرا في عامي ١٩٠٥ و ١٩٠٦ ، تسعة عشر شهراً في الخدمة العسكرية ، وأثبت أنه بالرغم من ثوريته المشهورة ، فإن في وسعه أن يكون جندياً منضبطاً كل الانضباط . وكان قد أظهر آنذاك ، كما أظهر الآن ، لفة على عرض قدراته على العمل الشاق والحماسة ، وسعيًا إلى إرضاء هذه اللفة . ولما كان قد حزم أمره على أن لا يبدي أى نقص في عمله ، فقد دأب على أداء واجباته بحمد وإخلاص ، دون إغراق في اصطناع البطولة ، ولكن في حماسة كانت كافية ، لأن يذكر اسمه في التقارير الرسمية كجندي ، يتميز بسلوك نموذجي ، وبروح هي حقاً روح جنود « الرماة » . وسرعان ما رقى إلى رتبة « عريف » . وقد تحدث في الرسائل التي بعث بها إلى أسرته في هذه الآونة عن الأخطار والمتاعب التي يتعرض لها جنود المشاة في حياتهم في الخنادق ، كما تحدث عن تعرضه للثيران المتصلة أسابيع كاملة ، وعن المرات العديدة التي تعرضت حياته فيها للخطر . وقد عاد إلى بيته في إجازة من الخنادق التي كان يعمل فيها عند نهر إيسونزو ، وقد ظهر عليه التعب والتهدم ،

وقد استعاض عن الأضرار في سترته بأسلاك تشد العرى إلى بعضها^(١) .

وكان يشهد ذات يوم في شهر فبراير عام ١٩١٧ ، عرض مدفع جديد من مدافع الهاون ، فوق انفجار مربع خفيف ، أدى إلى قتل خمسة رجال كانوا يقفون إلى جانبه ، إذ أصابهم الشظايا المتطايرة من القنبلة ، كما طارت « ماسورة » المدفع في الهواء . وقد سقط هو أيضاً فاقد الوعي ، على الأرض ، وحمله إلى مركز الإسعاف حيث أخرجوا من جسمه أكثر من أربعين شظية من هذه الشظايا . وتعرض المستشفى الذي نقل إليه فيما بعد في رونشي إلى قصف مدفعي عنيف ، وأصيب بأضرار خطيرة ، حتى اضطرت السلطات إلى إخلائه من المرضى ، ولكن موسوليني كان في حالة سيئة لا تسمح بنقله .

وعندما تحسنت صحته بعد بضعة أسابيع ، وبات قادراً على العودة إلى ميلان ، مضت مرجريتا سارفاقي لزيارته . وقد كتبت عن هذه الزيارة تقول . . . « لن أنسى أبداً كيف ذهبت لزيارته . كان متعباً إلى الحد الذي بات عاجزاً فيه عن الكلام . وانفجرت شفته عن ابتسامة ظهرت على وجهه الشاحب ، بينما كانت عيناه غائرتين . ولم ينبس ببنت شفة ، وفي وسع المرء أن يرى مدى ما عاناه من ألم . وسأله أحدهم ، عما إذا كان يود أن يجد كتاباً يقرؤه ، فرفض وقال مشيراً إلى ديوان شعر لكاردوس . . . » أنا لا أقرأ إلا هذا لأنني أعرفه . فلا أستطيع قراءة شيء جديد » .

ولم يكن موسوليني ذلك الرجل الذي يسمح لهذه الفرصة كجندى جريح ، بأن تمر دون أن يفيد منها . وكتب يقول بعد أن أبل من جراحه وبات قادراً على الإمساك بالقلم بشيء من التمثيل المسرحي الذي تميز به . . . « إني لأفخر بأنني

(١) تقول إنجليكا بالابانوف ، وهي كاتبة متحيزة ضده ، إن موسوليني لم يكن مجرد إنسان وقع فحسب ، بل كان جباناً سوداوى المزاج ومصاباً بالهستيريا . لكن معاصريه لم يلبسوا هذا الحكم ، حتى ولو كانوا من أولئك الكتاب من أعداء الفاشية من أمثالها ، الذين عرفوه ، في تلك الأيام ، وكان لهم كل ما يبرر مهاجمتهم له كخائن لمبادئهم ومثوبهم . وقد تحدث ريبلي التقيت به في ميلان في عام ١٩٤٥ . وكان كما يدهي عريفاً مع موسوليني في كتيبة الرماة ، فقال إنه « كن دائم الظاهر ، يكثر من الحديث ، ولكنه على أي حال ، شاب ممتاز . وكنت نجه جميعاً . ولم يكن قد تعرض كثيراً للنار ، ولكنه عند ما كان يتعرض لها ، كان يسلك سلوكاً طيباً » . « المؤلف »

صبغت الطريق إلى تريستا بدمى وأنا أؤدى واجبي الخطر كل الخطورة . وكتب أيضاً في تاريخ حياته ، بشيء من الجهد المسرحى يقول . . . « كنت أواجه ألماً لا يحتمل . أجل ، كان ألماً لا يوصف . وقد مررت بجميع العمليات الجراحية التي تعرضت لها دون أى غدر . وقد أجريت لى سبع وعشرون عملية في شهر واحد ، وكانت جميعها باستثناء اثنتين منها بلا غدر . »

وكان يدرك قيمة جراح الجندى فى مثل هذا الوقت ، ولذا عاد إلى مكتبه فى صحيفة « البوبولو ديتاليا » ، متكئاً على عكازيه اللتين ظل يستعملهما مدة طويلة بعد انقضاء الحاجة إليهما . وأحس كجندى خاض الحرب ، بالقدرة على مهاجمة الاشتراكيين ، والكهنة السلاميين والحياديين الذين اعتبرهم مسئولين عن كارثة كابوريتو ، وانطلق فى هجومه ، متحسناً بصفته الجديدة ، وبصورة ما كان ليستطيعها لو ظل مجرد صحفى مدنى . وكواحد من أولئك الذين أخذ يشير إليهم « بالناجين » من الحرب ، راح يلح على إشارك الجنود العائدين فى حكم إيطاليا الجديدة ، بحكومة يجب أن تتصف بالقوة وعدم التساهل . وأخذ فى مسهل شهر فبراير من عام ١٩١٨ . ينادى بظهور الديكتاتور الذى « يتميز بالقسوة والحوية لتطهير البلاد تطهيراً شاملاً » . وراح يوءى فى خطاب ذاع صيته ، ألقاه فى مدينة بولونيا بعد ثلاثة أشهر بأنه قد يكون هذا الرجل .

وكان يوجه هذه التطلعات بصورة خاصة إلى أولئك الذين اشتركوا فى الحرب ، وكان يجد فى صفوفهم العون الحماسى الذى يأمل فيه . وتبنى الذين حاربوا فى جبهة كارسو ، جميع المطالب التى صدرت عن موسولنى بضم فيومى وساحل دلماسيا إلى إيطاليا بالإضافة إلى منطقتى ترينتينو وفينيسيا جيولى اللتين أقرت معاهدة سان جرمين ضمهما إلى إيطاليا . ولقيت حملاته على الثورة الروسية وعلى جماعة لينين استجابة ضخمة لدى جميع أولئك الذين ربطوا بين ثورة أكتوبر والبلاشفة وبين الحزب الاشتراكى الإيطالى المعرض للانهام . ولم يعد يعتبر نفسه اشتراكياً حتى فى الاسم . وكان يقول إن الحزب لم يكتف بمعارضة الحرب فحسب ، وإنما عارض النصر أيضاً ، وكان على استعداد لتخنى عن ثماره ، وأضاف أن هذا الحزب بلدفاعه عن مبادئ البلشفية السولية قد فقد الحق حتى فى اعتبار نفسه المدافع

عن الطبقة العاملة الإيطالية . ولما كان يدرك أن آراءه إن تنجح إلا إذا تمكن من إضعاف الروبط التي كانت تربط بصورة تقليدية بين العمال وبين الحزب الاشتراكي ، فقد حرص على أن يظهر في مقالاته وخطبه على أنه ما زال صديقهم والمدافع عنهم . وكان يؤكد لهم ، أنه ما فتئ بالرغم من أنه لم يعد من الاشتراكيين ، غير مهان في عدائه للبورجوازية والرأسمالية .

ولكن بالرغم من أنه لم تبق الآن ثمة شكوك فيما يقف موسوليني ضده من آراء ، فإن الشك كان لا يزال كبيراً حتى في ذلك الحين أى في عام ١٩١٩ ، في حقيقة ما يدافع عنه . وعندما التقى في الثالث والعشرين من مارس ، وبدعوة منه عدد من الناس في إحدى غرف مكاتب اتحاد التجار وأصحاب الحوانيت في ميدان سان سيبولكردي في ميلان ، ليؤلفوا قوة جديدة في السياسات القومية ، كان الشك لا يزال يلف بحقيقة السياسة التي ينادى بها . وكان مؤيدوه خليطاً عجيباً من الاشتراكيين الساخطين واللقابيين والجمهوريين والفوضويين والثوريين اللامصنفين ، والجنود القلقين الذين كان الكثيرون منهم قد عملوا في وحدات الفدائيين المقدامة في الجيش الإيطالي ، بالإضافة إلى عدد من المطلوبين لرجال الشرطة^(١) . وقد شكلوا ما أسماه موسوليني بالمجموعة المناضلة ، التي تربط أفرادها عرى وثيقة كتلك التي كانت تجمع بين قضبان الجلادين في عهد الرومان كرهز للسلطة الرومانية . وكان الاسم الإيطالي الذي أطلقوه على أنفسهم اسم « فاشيو ميلان » وباستثناء البيانات الصريحة المؤيدة للمشاعر القومية ، التي كانت تصدر عنهم لم يكن في وسع هؤلاء أن يقدموا شيئاً إلى الرأي العام غير التأثير بهم ، والكثير التشكك بكل ما يسمعه ، بحيث يصدق هذا البرنامج السياسي الذي وضعوه واحتمال تطبيقه ، وهو البرنامج الذي ينطوي على فرض ضريبة تصل حدود (٨٠) في المائة على أرباح الحرب ، وحزبة على رؤوس الأموال ، ومصادرة أملاك الكنيسة ،

(١) لم يعرف عدد الرجال الذين شهدوا هذا الاجتماع ، ولكنهم كانوا على أي حال أقل من مائتين . لكن موسوليني الذي أراد أن يؤكد أهمية الأقلية المخلصة المؤمنة ، ذكر بأن عدد الذين وقعوا على البرنامج كان خمسة وأربعين رجلاً . ولكن ظهر بعد انتصار الفاشية في إيطاليا ، أن هناك مئات من الرجال أطلقوا على أنفسهم اسم « سانسبيو كلريسي » نسبة إلى المكان الذي دار فيه الاجتماع الذي كانوا قد حضروه . وقد اعتبروا أيضاً الصفوة الفاشية .

وضم دالماسيب ، وإلغاء البورصة ، وتسليم الإدارات الصناعية إلى العمال . ولم يزد عدد مؤيدي الحركة الجديدة كثيراً طيلة عام ١٩١٩ . ولكن سرعان ما انضم إليها عدد آخر من الجنود المسرحين ومن الاشتراكيين الخائبين في آمالهم والتقايين الثبان الساخطين والملكيين المحافظين ، ومن ضباط الجيش السابقين من أمثال سيزار ماريا دى فيشى والجنرال إميليو دى بونو . ولكن هذا الخليط الهجين في طبيعة الحركة ، والتناقضات الموجودة بين موسوليني الذى كان لا يزال يعتبر نفسه كما ذكر المستر دنيس مالك سميث « لينين إيطاليا » ، وبين العناصر المحافظة التى اعتبرت آراءه فى احتلال المصانع أكثر بلشفية من البلشفة نفسها ، كان السبب فى خرابها . ولم ينل الفاشيون عندما قدموا بعضهم كمرشحين لانتخابات مجلس النواب فى أكتوبر عام ١٩١٩ ، أكثر من أربعة آلاف صوت ، ونال خصومهم الاشتراكيون أكثر من أربعين ضعفاً لهذا الرقم ، كما انتخب مائة من الديمقراطيين المسيحيين نواباً فى المجلس . وأعلنت « ألافانتي » بشيء من الزهو ، أن موسوليني غدا جثة سياسية ، وإن جثمانه يطوف شوارع ميلان ، تحيط به الشموع ، وترافقه جموع المتظاهرين ينشدون الألحان الجنازية ، ليحرقوا الجثمان بعد ذلك فى ميدان دوومو . واقتحمت الشرطة بعد بضعة أيام من هزيمته الانتخابية الساحقة مكاتب صحيفته . فقد انزعج فرانسيسكو نيتى رئيس وزراء إيطاليا من تأييد موسوليني الصريح للعمل المسرحى والنارى الذى قام به الشاعر دانوزيو باحتلاله فيوى باسم إيطاليا ، وأمر باعتقال موسوليني بتهمة التآمر المسلح على الدولة . وبدأ أن ثمة كل ما يبرر هذه التهمة . فقد كانت مكاتب البوبولو ديتاليا الحقة أشبه ما تكون بالترسانة^(١) . وعثر الشرطة فى الخزائن والأدراج على عدد كبير من القنابل والمتفجرات ، وعثر رجال الشرطة على سبع قنابل فى موقد غرفة موسوليني . ووراء مرآة الجدار وفى أدراج مكتبه ، كما عثر على مسدسه ، وخنجره فوق مكتبه ، وخلف علم مطرز بالحرير لوحدة الفدائيين . ولكن السلطات ما لبثت أن أطلقت

(١) لم يستطع موسوليني قط أن يتغلب على رغبته لعنيفة فى حيازة الأسلحة . وقد ظل يحرص بعد وصوله إلى الحكم بأمد طويل ، وعلى منضدة فى الغرفة الخارجية لمكتبه فى قصر البناقية صندوقاً يضم عدداً من المسلمات وبعض الرماح .

سراح موسوليني بالرغم من جميع هذه المظاهر التي تدل على العنف ، فقد قبل لرئيس الوزراء نيبي إن الفاشية ما زالت حركة وليدة ، وأن ليس ثمة ما يدعو إلى أن يخلق شهيداً من قائدها الذي لا يعدو أن يكون « حطام لإنسان مهزوم » .

ولكن لم يحل مطلع يونيو المقبل ، حتى كان هذا الوصف أكثر انطباقاً على « نيبي » نفسه منه على موسوليني . وأدى فشله في مواجهة تحدى الإضرابات والقن الثورية ، وفي حل مشاكل البحر الأدرياتي ، وضعفه في مقاومة مطالب الاشتراكيين والشيوعيين ، إلى الإسهام كثيراً في تزايد نفوذ الفاشية وقوتها . واستقال نيبي للمرة الثالثة في غضون ثلاثة أشهر في السادس من يونيو عام ١٩٢٠ ، ليخلفه في الحكم جيوفاني جيويتي . ولكن هذا بالرغم من مهاراته وحساباته ، لم يكن أكثر قدرة من نيبي نفسه في مواجهة ما اعتبر تزايداً في الخطر البلشفي على أمن الدولة وسلامتها ، ولم تؤد محاولاته لإرضاء اليمين واليسار في وقت واحد إلى إرضاء أحد ، وعندما سمح للاشتراكيين في شهر سبتمبر بتسلم منظمة احتلال العمال للمصانع ، بالرغم من إظهاره ضعف العمال المضربين ، وافتقدهم إلى الفاعلية ، خسر تأييد الطبقة الوسطى التي رأت في رفضه التدخل ، تساهلاً مستمراً مع الفوضى وخرق القوانين . واتضح الحقيقة ، وهي أن الوضع القوي في البلاد لم يعد سهلاً بحيث تستطيع السيطرة عليه حكومة لا تقدر على الاعتماد على غالبية من العمال في برلمان لم تعد له قيمته . وتزايد التضخم من جراء المعونات المالية الحكومية التي عجزت على أي حال عن التخفيف من آلام بلد فقير فقراً شديداً ، بات مديناً بمليارات الليرات عندما توقف حلفاؤه فجأة عن تزويده بالمساعدات الاقتصادية . وساءت حالة البطالة في الوقت نفسه كل سوء من جراء تسريح الألوف من الجنود ، بينما ارتفعت نسبة الجريمة من جراء وجود ما لا يقل عن مائة وخمسين ألفاً من الجنود الهاربين من الجندية منذ الحرب ، والذين ألفوا منذ ذلك الحين العيش بطرقهم الخاصة .

وسرعان ما أدرك موسوليني وفاشيوه مدى الفرصة الضخمة المتاحة لهم ، والتي قدر لها أن تغدو مصدر اعتزاز الفاشية بأنها قد حققت سلطانها بعد فضال مرير مع الشيوعية ، منكرة بذلك الحقيقة الواقعة وهي أن الفاشية قد استمدت قوتها من ضعف الاشتراكيين . وقد قبل موسوليني بعد انتخابات عام ١٩١٩ ، هزيمته

الانتخابية كدليل على عجز الفاشية عن كسب تأييد الطبقة العاملة وانتزاعها من قبضة الاشتراكيين التقليديين ، وراح يعمل بمنتهى اللامهزمية على التخلي عن آرائه الدينية ، وتبنى لغة ومواقف أصبحت منذ ذلك الحين أساسية في الكيف الفاشي .

وعندما انتشرت الإضرابات والفن احتجاجاً على ارتفاع مستوى الحياة ، وازدادت كثرة وكيفاً ، وتعرضت القطارات والشحنات والمصارف والأبنية العامة للهجوم في أرجاء إيطاليا طويلاً وعرضاً ، وتحولت مناطق بأسرها إلى أبدى الشيوعيين ، حيث قامت مجالس «سوفييتيات» محلية ، وعجز الاشتراكيون ذوو القيادة السيئة والديمقراطيون المسيحيون عن الوصول إلى سياسة مشتركة تضمن وجود البديل عن الشيوعية ، راح الفاشيون يتقدمون إلى الأمام كمنفذى البلاد ، والقوة الوحيدة التي تستطيع كبح جماح الشيوعية ومنعها من الانتشار . وانتشرت فصائل من الفاشيين مسلحة بالمدى والمراوات والمسدسات والبنادق التي حملوها معهم من الحرب ، تحت ستار القول بأن العنف لا يقابل إلا بالعنف ، تهاجم الشيوعيين وأنصارهم ، بشيء من العنف والتنظيم ما لبثا أن خلقا شيئاً يكاد يشبه الحرب الأهلية . وتبين فيما بعد أن نحواً من ثلاثمائة فاشي وأكثر من ثلاثة آلاف من خصومهم قد قتلوا في هذه الفترة الواقعة بين أكتوبر عام ١٩٢٠ وتاريخ الزحف على روما . وبالرغم من أن الإحصاءات الفاشية تعكس هذه الأرقام ، إلا أن مجموعها صحيح على الغالب .

وكان الفاشيون وهم يرتدون القمصان السوداء التي جعل منها عمال روما وإميليا شعارهم ، والزي الموحد للفوضويين ، ويحملون أعلام الفدائيين ، يعضون فصائل وجماعات ، ينشدون الأناشيد الوطنية ، ويرفعون الشعارات القومية إلى مهاجمة أعدائهم ، وقد تألفت هذه الفصائل في مجموعها من الرجال الذين اشتركوا في الحرب الماضية ومن الشبان الذين كانوا يتوقون إلى أن يقوى عودهم ليحاربوا ، ومن المخضرمين الذين كانوا يلهبون بالحماسة الوطنية ، مما دفعهم إلى الاشتراك كمتطوعين جاءوا من جميع أرجاء إيطاليا في حملة دانوزيو على فيرمي متحدية حكومات أوروبا كلها ، ومن المغامرين المجرمين الذين كان دانوزيو قد

استبواهم أيضاً . وكانت تلقى التأييد أيضاً والإعجاب من ألوف الإيطاليين الذين كانوا على استعداد للتسامح معهم في أساليبهم ، اعتقاداً منهم ، بأن إرهاب خصومهم ، يدفعهم إلى تحية العلم الفاشي كما عمل إيتالوبالو في فيرارا ، وقتلهم أو تلطيخهم بالزيت ، هو السبيل الوحيد لوقف وباء البلشفية الدولية عن الانتشار وإزالته . وكانوا يرون أن الاشتراكيين الذين كان الكثيرون منهم لا يتميزون عن الشيوعيين يلجأون إلى أعمال الإرهاب والقتل ، وأن الرحمة مع الذين لا يرحمون ، سخافة ما بعدها سخف . وهكذا كان الفاشيون مثلاً ، هم الذين وجهوا المظاهرات في بولونا في نوفمبر عام ١٩٢٠ ، عندما تفجرت الاضطرابات فيها ، ضد مجلسها البلدى الذى يسيطر عليه الشيوعيون ، وهم الذين نظموا المقاومة ، واهتبلوا القصر للظهور إلى جانب الحرية ضد الطغيان . وليس ثمة من شك فى أن تخاذل الحكومة قد أعانهم فى بولونا كما أعانهم فى غيرها من المدن ، إذ لم يقم جيوليتى ، باستدعاء الجيش أو الشرطة أو الدرك ، للعمل ضدهم وقتلهم ، كما لم تفعل ذلك أيضاً الحكومات الليبرالية التى أعقبت حكومته . وهكذا سمح لسلطان الفاشية بالانتشار . وتحولت بعض النقابات العمالية وقد خاب أملها فى تدخل الشيوعيين بعد أن خبرت نكهم لعودهم إلى الفاشية ، وسيطر الفاشيون على عدد منها وعلى بعض مجالس المدن التى احتلوها . ورأى الكثيرون من الليبراليين والكاثوليك ، وغالبية الصحفيين ذات النفوذ الكبير فى البلاد ، أنه بالرغم من هذا السوء فى مظهر الفاشيين ، وميلهم إلى العنف الذى يكرهه جميع أعدائه ، فإنهم أكثر فاعلية ولا شك من نيتى أو جيوليتى أو أنصارهما فى إنقاذ البلاد من الفوضى .

وكان هناك وراء هذه الغوغائية ، ووراء هذه الوحشية الوضيعة ، وهذا الإخلاص المتعالى ، والسخيف للفضائل العسكرية التى لا يحبها هؤلاء الليبراليون ، خيط من الحماسة الوطنية والمثالية . وكان هناك أيضاً أولئك الذين يؤيدون الفاشية لأسباب ذاتية خاصة ، كالصناعيين ، ومستغلى الحروب ، الذين رأوا مصانعهم ورؤوس أموالهم مهددة ، والذين مالوا إلى استخدام الفاشية ضد الاشتراكية لسحقها ، وبينهم رئيس الوزراء جيوليتى ، وكذلك أصحاب الأراضي الذين تطلعوا إلى الوحدات الفاشية لحماية ممتلكاتهم ، والفلاحين الذين تطلعوا إلى استخلاص

الأرض من مزارعيها الاشتراكيين ، ولجنود الساخطين المتلهفين إلى انتزاع حقوقهم من أولئك الذين تبخلفوا عن الاشتراك في الحرب ، والتمتع بثمار الثورة الاشتراكية التي جاءت بها الحرب ، وذلك بالإضافة إلى الائتهازيين الذين رأوا المستقبل باسمهم في دولة فاشية ، يحصلون في عهدها على المال والسلطان اللذين يعجزون الآن عن الحصول عليهما . ولكن الحركة شملت أيضاً عدداً من المثاليين الواهمين .

فقد أبدعها مثلاً بوشيني ، كما رشح توسكاسيني نفسه على مبادئها في انتخابات عام ١٩١٩ . وخيل إلى بنديتو جروشي ، أن وصول الفاشية إلى الحكم ، سيكون خيراً من القوضي الراهنة ، واعتقد كما اعتقد جيوليتي ، أن في الإمكان تحويل الحزب إلى الدستورية . وأيدته أيضاً جماعات من الكاثوليك ، لأنهم رأوا في الفاشية ، الوسيلة الوحيدة القوية للدفاع عن الدين ضد إلهاد الشيوعية . وهكذا لم تحل نهاية عام ١٩٢٠ ، حتى كانت الفاشية معتمدة على المصادر السيئة والطيبة ، قد حققت لنفسها ، بنياناً كبيراً من التأييد السياسي . وعندما جرت انتخابات مايو عام ١٩٢١ ، التي تحالف فيها الفاشيون مع جيوليتي ضد الاشتراكيين ، مما أثار حفيظة الليبراليين على رئيس الوزراء العجوز ، وأخذوها خطيئة عليه لم ينسوها قط ، فاز الفاشيون بخمسة وثلاثين مقعداً في مجلس النواب الجديد ، وكان موسوليني أحد النواب الجدد . وتبين الآن الفرص الواسعة المتاحة له ، وشرع في هذه القوضي والاضطراب في الحياة السياسية الإيطالية يجمع حوله تماماً كما فعل لينين والبلاشفة ، عدداً من الثوريين المتحمسين ، المستعدين لاغتصاب الحكم باسم العمال ، سواء وجدوا تأييداً من العمال أم لم يجدوه . وقرر أن يتولى هو قيادتهم . وكان قد شهد الاشتراكيين وهم يفقدون نفوذهم قبل اشتراك إيطاليا في الحرب ، وتغلب على الحزب الذي أدرك عجزه عن قيادته إلى الحكم والسلطان . ولكنه آمن أن في استطاعته قيادة الفاشية إلى الحكم ، وهو الأمر الذي استهواه ، وظل يستهويه ويثير حماسه حتى النهاية . وقد اعترف بعد سنوات طويلة ، دون إحساس بالعار أو الخجل ، يقول ... «أجلد نفسي واقعاً تحت سيطرة هذه الرغبة الملحة الساعرة ، التي تحرق وجودي كله . فأنا أريد أن أترك أثراً في الحقبة التي نعيشها بإرادتي ، تماماً كما يفعل الأسد بمخالبه . أريد أن أترك أثراً كهذا ! » ثم راح بمنهى الوحشية ،

يخندش بأظافره الغطاء القماشى لمقعد يجلس عليه من أوله إلى آخره . واعترف بأنه ما كان ليتورع عن عمل أى شئ لتحقيق مطامعه . فالغاية عنده تبرر الوساطة دائماً . ولم تكن سياسة تأليف الفضائل الفاشية مثلاً إلا الجهد المنروس المتعمد لإثارة القلق وتحريك مشاعر الخيبة . وقد تمكن عن طريق هذه الفضائل ، وبظهورها بمظهر الجماعات الوطنية المعادية للبشفة ، من خلق وضع فوضوى يساعد الناس على تقبل الحكم السلطوى الذى رمت الفاشية إلى فرضه عليهم ، وتوسيعه .

وهكذا بات موسولنى رئيس تحرير الصحيفة الميلانية ، بعد انتخابات مايو عام ١٩٢١ ، وبعد أقل من سنتين من هزيمته كثرى مهان لا أصدقاء له ، شخصية قومية ، والزعيم الشاب الذى لم يتجاوز السابعة والثلاثين لحزب سياسى ، يتسع نفوذاً ويزداد عدداً شهراً بعد شهر . وكانت قيادته التى تمكن من الحفاظ عليها ، الثمرة الواضحة لمواهبه السياسية ، إذ أن الفاشيين بالرغم من أساليبهم العسكرية ، ومن عقيدتهم الوحشية التى ينادون بها ، كانوا لا يزالون فى الواقع جماعة مفسخة أشد التفسخ . وكثيراً ما اضطر موسولنى إلى تعديل إعلان سابق له ، وتغيير موقف كان قد صرح بأنه لا يقبل التبدل ، ومناقضة نفسه فى جهوده للسيطرة على هذه الفضائل الفاشية المتهورة المحتونة ، مع ظهوره فى الخطب التى يلقيها ، وفى مقالاته التى يكتبها بمظهر الثورى الرومانى ، المتقدم حماسة . وهكذا نراه ، رغبة منه فى توسيع قاعدة التأييد الفاشى ، يشير مثلاً ، إلى الدور العظيم الذى لعبته أسرة سافوى المالكة ، والذى تستطيع أن تلعبه فى تاريخ البلاد ، بالرغم من أنه كان يكثر من قبل الحديث عن « الميول الجمهورية للفاشية » . ورغبة منه أيضاً فى الحصول على تأييد نجيوليتى فى إدخال المرشحين الفاشيين فى قوائم الانتخابية ، كان على استعداد لتأييد معاهدة رابالو التى أقرت تنازل إيطاليا عن مطالبها فى الساحل الشمالى . ورغبة منه كذلك فى ضمان تأييد الصناعيين وأصحاب المعامل ، الذين ألف الآن الاعتماد على عونهم المالى ، راح يعلن فى إحدى خطبه النادرة فى مجلس النواب ، بأنه يجب العدول عن أية محاولات أخرى لاحتلال المصانع ، وهى محاولات كان قد أيدها قبل زهاء ثمانية عشر شهراً . ومع هذا كله ، فقد مضى فى شهر أغسطس من عام ١٩٢١ ، بعيداً فى الاتجاه المعاكس ، ووقع مع

الاشتراكيين اتفاق هدنة وسلام معلناً أن من « المضحك حقاً التحدث عن الطيقة العاملة ، وكأنها تسير مسرعة في طريق البلشفية » ، ولأنه على استعداد كلي للدفاع عن هذا الاتفاق بكل قواه . وراح يضيف قائلاً : « ولو تقاعست الفاشية عن السير ورائي في التعاون مع الاشتراكيين ، فلن يكون ثمة من يرغمني على السير وراء الفاشية » . ولكن لم تمض ثلاثة أشهر ، حتى اتضح أن الفاشية ليست على استعداد للسير وراءه في هذا الموضوع ، وأن الاتحادات الفاشية غير راغبة في قبول لإنذار موسوليني بأن الرأي العام يبتعد عن الفاشية ، وأن من الضروري تثبيت أقدامها ، وتأكيد نجاحها ، عقد هذا التفاهم البرلماني مع الاشتراكيين . وهكذا تم العدول عن الاتفاق . وبالرغم من أنه كان يعيد المرة تلو المرة ، طيلة هذا الوقت الإصرار في الاجتماعات الفاشية التي يعقدها على وجوب القيام بانقلاب للإطاحة بالبرلمان والدولة الليبرالية ، وعلى أن هذا الانقلاب يجب أن يكون قريباً جداً ، نراه ، في الوقت نفسه يكبح جماح زملائه المندفعين من أمثال إينالو بالبو ودينو جراندي وروبرتو فاريناشي ، ويمنعهم من وضع أي خطط لتنفيذ هذا الانقلاب . فقد كان في الواقع أقل ثقة منهم بأن الفاشية قوية إلى الحد الكافي لضمان النجاح ، وكان أكثر لفة منهم ، على أن يتحقق وصول الفاشيين إلى الحكم ، بتأييد عام إن لم يكن جماعياً . وكان كثيرون من النواب الفاشيين قد وصلوا إلى مقاعد النيابة بمساعدة خناجر أعوانهم ومؤيديهم ، وأقضى العدد المتزايد من حوادث القتل يوم الانتخاب مضجعه . وقد تحدث أحد رفاقه من القتلة بشيء من الصلافة ذات يوم فقال : « لعل المشكلة مع موسوليني أنه يريد التأييد والبركة من كل إنسان ، ولذا فهو على استعداد لتغيير ثوبه عشر مرات في اليوم لتحقيق ذلك » .

واتضح لموسوليني فرصته بوضوح في أغسطس عام ١٩٢٢ ، أي بعد أشهر طويلة من التردد والشك . فقد دعى في ذلك الشهر إلى إضراب عام ، تلبية لخطط الشعب المتزايد والخائب الأمل . وأعلن موسوليني ، أن الفاشيين سيمنعون الإضراب إذا تقاعست الحكومة عن منعه . وهكذا أتيحت له ثانية فرصة التدخل بالعنف تحت ستار حماية القانون والنظام . وهاجمت الفصائل الفاشية في أنكونا وليجورن وجنوا أبنية الاشتراكيين وأحرقوها وهدمتها . كما حطمت في ميلان مطابع

صحيفتهم «الافانتي» .

ويبدو أن تأثير موسوليني قد بلغ مداه بعد شهرين عندما اجتمع مؤتمر الحزب العام في مدينة نابولي ، وتبين له لإصرار أكثر من أربعين ألفاً من الفاشيين على العمل . ولذا انطلق يتكلم ويعد ويتوعد ، بصورة تفوق تهديداته في أى يوم مضى . وراح يخطب المؤتمرين قائلاً . . . « وكل ما نتطلع إليه ، هو أن ندخل في هذه الدولة الليبرالية التي أدت مهمتها واستنفدت أغراضها جميع قوى الجليل الحديد التي انبثقت عن الحرب والنصر . . . ولذا إما أن تستسلم الحكومة لنا ، أو أننا سنستولى عليها بالزحف على رومة » .

وانطلقت حناجر الألوف تصرخ هاتفة . . . رومة ، رومة . وتناقلت هذا الهتاف ألوف أخرى حملت الشعار .

٢

وكان موسوليني قد بحث موضوع الزحف على رومة مع أربعة من أبرز الفاشيين أصبحوا يحملون فيما بعد اسم « مجلس الأربعة » ، وهم ليتالو بالبو الشاب الأنيق الذي لا يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ، والذي يتولى قيادة الفصائل الفاشية ، والجنرال إمبيليو دى بونو القائد السابق للفيلق الإيطالى التاسع ، وسيزار ماريا دى فيشى ، عضو مجلس النواب الفاشى ، وميشيل بيانشى السكرتير العام للحزب . وقد روى بالبو فيما بعد ، أنه كان وبيانشى اللذين أصرا على الزحف على رومة ، وأن موسوليني كان حذراً ومتربداً ، بحيث وجدا نفسيهما مضطرين ، إلى أن يبلغاه بأن الفاشيين سيزحفون على العاصمة ، وافق أم لم يوافق . لكن رواية موسوليني تختلف عن هذه القصة كثيراً ، وليس ثمة من شك سواء أكان تردده مصطنعاً أم لا ، في أن هذا التردد مكنه من الحفاظ على اتصالاته بخصومه . الذين لم يكن أى منهم ، واثقاً حتى اللحظة الأخيرة ، من أن الضرورة تقضى بالتعاون مع موسوليني ، بدلاً من اصطباغ الثورة بالصبغة الفاشية وحدها . ولعل من المؤكد أيضاً أنه اقتنع عند عودته من مؤتمر نابولي في شهر أكتوبر ، بأن الوقت قد حان للعمل وأن حكومة لويجي فاكتي التي خلفت حكومة إيفانو بونومي ، وهى التي خلفت

بدورها حكومة جيوليتى ، عاجزة وغير مستعدة لمقاومة أى عمل صادق وحازم . وانفجرت الاضطرابات الفاشية فى السابع والعشرين من أكتوبر فى عدد من المدن الإيطالية ، وراح مجلس الأربعة يطالب حكومة فاكنا بالاستقالة . ولم يحل الصباح التالى ، حتى كانت أربعة أرتال تطبق على العاصمة ، زاحفة عليها . واندفعت الحكومة إلى العمل فى اللحظة الأخيرة ، وأعلنت عن عزمها على فرض الأحكام العرفية ، ولكن الملك وقد خشى أن يعنى هذا نشوب الحرب الأهلية ، وبات مستعداً لتقبل أية حكومة فاشية على أى حال ، رفض توقيع المرسوم بإعلانها ، فترك حكومته عاجزة عن أن تفعل شيئاً ، وأدى اليأس من إخمد الثورة ، ولا سيما أن الأرتال الفاشية قد اقتربت من العاصمة ، إلى عرض عدد من المقاعد الوزارية ، فى حكومة ائتلافية يمينية برئاسة أنطونيو سالانديرا على عدد من قادة الحزب . واقترح جراندى ودى فيشى على موسوليني قبول العرض ، ولكنه رفض . فقد بات السلطان كله على رأى منه الآن ، ولم يعد راغباً فى الحلول الوسط ، وإن كان التخوف من أن يكون قد مضى بعيداً فى تطرفه ، قد أرقه واستبد به .

وكان لا يزال قابلاً فى مدينة ميلان ، وأحاطت وحدات من الجيش والشرطة بمكتبه ، وظل يتطلع من النافذة بين آونة وأخرى ، ويهتف هنا أو هناك ، عن طريق الهاتف ، متسقطاً الأخبار التى يتلفه على تلقياها . وبدل جهد الجبارة للاحتفاظ بهدوئه الظاهرى ، وسيطرته على عواطفه ، لكن تأثره كان قد بلغ حد الجنون . وعندما اندفعت مجموعة من الدبابات عبر الشوارع متجهة إلى مكتبه فى «البويولو ديتاليا» ، خرج من البناء بحمل بندقية فى يده ، ويهتف هتافات لا رابط بينها ولا انسجام . وكاد أحد أعوانه الذين لا يقلون عنه حماساً ، يقتله نتيجة الخطأ . ولكن لم تكن هناك فى الواقع أية مقاومة للزحف الفاشى على رومة ، إذ كان الجيش والشرطة على استعداد للوقوف بمنأى ، تاركين للزحف أن يسير فى طريقه .

وجاءته رسالة هانفية أخيراً من رومة ، تستدعيه إلى هناك للتشاور مع الملك . فرد قائلاً باقتضاب ، « وقد استعاد هدوئه وثقته . . . » « أريد لها رسالة خطية » . وبعد وقت قصير ، وصلته برقية عاجلة تقول . . . « عاجلة للغاية — موسوليني —

ميلان . يطلب إليك جلالة الملك ، أن تتجه فوراً إلى رومة ، لأنه يعتزم عرض مسئولية الحكم وتأليف الوزارة عليك ، مع احتراي . التوقيع الجنرال جيتاديني » .
 وغادر ميلان في ذلك المساء ، متجهاً بالقطار إلى رومة . ورغب كما يبدو ،
 وكما قال أحد الصحفيين الذين رأوه في ذلك اليوم ، في أن يبدو بقميصه الأسود ،
 أكثر هنداماً ، فوضع على رأسه قبعة سوداء ، وعلى خذائه غطاء أسود . وعندما
 مثل أمام الملك ، راح يعتذر عن لباسه غير المألوف في مثل هذه المناسبات قائلاً ...
 « أرجو أن تغفر لي مظهرى » . وراح يكمل حديثه بلهجة مسرحية ، توحى بما يريد
 أن يفعله ، وتبدى غروره المتناهى قائلاً . . . « فقد جئت من ميدان الحركة » .

رئيس الحكومة

من ٢٨ أكتوبر ١٩٢٢ إلى ١٣ يناير ١٩٢٤

« تحب الجماهير الرجل القوي . فالجمهور كالمرأة تماماً . . .
ويتوقف كل شيء على قدرة المراء على التحكم فيه كفنان أصيل . »

« كان في وسعي أن أحيل هذه القاعة الشاحبة ، إلى معسكر مسلح لذوي القمصان السوداء ، وأن أجعل منها معرضاً للبحث . بل كان في إمكاني أن أقفل أبواب البرلمان بالمسامير » ، بهذه العبارات استهل موسوليني خطابه الأول في مجلس النواب ، بعد قبوله تكليف الملك إياه بتأليف الحكومة الجديدة .

وبالرغم من أنه كان في وسع قوات الجيش أن تغلب على أنصاره الذين لم يتجاوزوا في زحفهم على رومة ، نقطة تبعد أربعين ميلاً عن رومة ، لو أن الملك وافق على استخدام هذه القوات ، إلا أن تبججه هذا ، لم يكن يفقر كلية إلى الأساس الصحيح . لكن الشيء الثابت أن موسوليني وقد وصل إلى السلطان عن طريق التهديد باستخدام القوة ، راح يمارس هذه القوة دون تحفظ أو قيود . فقد أصدر أمره في اليوم الذي تلا اجتماعه بفكتور عمانوئيل ، إلى خمسة وعشرين ألفاً من أفراد الفصائل الفاشية ، كانوا لا يزالون يعسكرون خارج العاصمة ، بدخولها في قطارات خاصة ، ليقوموا بعرض كامل في ساحات الكيرينالى ، ثم ليعودوا بعد ذلك بهدوء إلى أماكنهم . وأنزل عقوبات صارمة بجميع أولئك الذين اقترفوا جرائم عنيفة ، وكان راجياً كما يبدو الآن في أن لا يظهر بمظهر الزعيم الفاشي فحسب ، بل في مظهر رئيس الحكومة الإيطالية أيضاً . وقد تضمنت الوزارة التي ألفها في غضون سبع ساعات رجالاً من مختلف الجماعات السياسية باستثناء تلك المناهضة للقومية، ووزع مقاعدها على الديمقراطيين الاجتماعيين (الاشتراكيين) والكاثوليك والأحرار . ولم يكن من الوزراء الفاشيين إلا أربعة فقط .

وليس ثمة من شك على أى حال ، في أنه لم يأت إلى رومة ليرأس حكومة ائتلافية ، بل ليحكم حكماً دكتاتورياً وشخصياً عن طريق حزبه وقد احتفظ

لنفسه يوزارتى الخارجية والداخلية بالإضافة إلى رئاسة الوزارة ، وطلب من مجلس النواب سلطات استثنائية كاملة لمدة عام واحد ، لينفذ في غضون الإصلاحات التي رآها ضرورية وحيوية . وقد منح هذه السلطات بأغلبية ٢٧٥ صوتاً مقابل ٩٠ .

وأكب على العمل بحيوية وتصميم لم يستطع حتى أشد نفاقه إخفاء إعجابهم بهما . وكان يصحو من نومه باكراً ويقوم ببعض التمرينات الرياضية العنيفة ، إلى أن يتصيب لعرق من صدره الذي يغطيه الشعر الكثيف ، ثم يمضي بعد أن يتناول إفطاره المؤلف من الحليب والفاكهة إلى مكتبه الذي يصله في الثامنة صباحاً ، بعد أن يكون قد قرأ بمنتهى لسرعة عدداً من الصحف الإيطالية والأجنبية ، التي تكتظ بها غرف منزله . وكانت وجبات طعامه متفرقة ، إذ أن القرحة التي قدر لها أن تضايقه وبصورة متزايدة بقية حياته ، كانت قد بدأت في التشكل في معدته . وكثيراً ما اقتصر غذاؤه أو عشاؤه ، على بعض المكرونة (الاسباجتي) ، مع قليل من الخبز والخضار والفواكه الطازجة وفي مقدمتها « السبانخ » والعنب الأسود . وكان يشرب كميات كبيرة من الحليب وعصائر الفواكه ، وقليلًا من النبيذ بسبب القرحة ، كما انقطع عن التدخين منذ الحرب . وكان في يوم ما مغرمًا بالطعام والشراب ، أما اليوم فلا يأكل إلا مسرعاً ودون أية لذة ، زاهياً بمائدته الاسبارطية المتقشفة ، وبامتناعه المتزمت عن الأكل في المآدب الرسمية ، حاملاً على مكثري الطعام والشراب ، لأنهما كهم في هذه الملذات الحسية المنحطة . وكان يقول إن لذته الوحيدة هي في العمل ، ولعله كان صادقاً في قوله هذا في هذه الآونة إلى حد كبير . وكان يتلقى دروساً في المصارعة والملاكمة ويقبل على السباحة ولعب كرة المضرب . ويقول الذين علموه هذه الرياضات أو الذين لعبوا معه ، إنه لم يكن يمارسها ، رغبة منه في التمتع بها ، وإنما لأنه كان متلهفًا على صحة البدن ، وعلى أن يكون له جسم قوى خشن^(١) . وكان جسمه قد بدأ يميل إلى البدانة ، واكتنرت أصابع يديه الناعمتين ، وكان جلد فكه الأسفل ، يترهل عندما ينسى

(١) كان يخشى من العداهات الجسدية ، ولم يكن يحس بأى عطف على المرضى . وقد قابل ذات يوم الأمير تارولينا الذي شكاه من « خراج » فقال : « كان لي صديق عانى مما عانيت ، ولكنه توفي على الفور » . « المغرب »

أن يدفع به إلى الأمام . وكان يبدو عليه أنه أكبر من سنه الحقيقية التي لم تكن تعدو التاسعة والثلاثين آنذاك ، إذ أن التجاعيد كانت تحيط بعينه الكبيرتين السوداوين ، وكان الصلع قد انتشر في مقدمة رأسه ، بينما كان الشيب قد وخط عارضيه وما تبقى من شعره . لكن حيويته كانت من الطراز الذي لا يكل ولا يمل . وقد تميز بالقلق وكثرة الحركة ونفاد الصبر ، والحيوية والعصبية وبدا وكأنه لا يتعب ولا يستريحى . وكانت حيويته الجنسية لا تزال قوية آسرة . ولذا كان يفترس ما يعترض طريقه من نسوة كن يفلن إليه في الغرفة التي حل فيها في أحد الفنادق ، ثم في الشقة التي ارتحل إليها فيما بعد ، والواقعة في الطبقة العليا من قصر في شارع راسيلا ، بكثير من العاطفة المتدفقة التي كانت تفرعن وتثيرهن في آن واحد . وكان نافد الصبر منهن ومن وزرائه ، ولذا كان يمتهن كما يمتن القائد المنتصر عبيده الأسرى ، وكان يبدو مرتاحاً إلى هذه الطريقة أياً كانت رفيقته . وكان ذوقه متميزاً بالشمول إلى حد كبير ، إذ لما كان في سنى شبابه ، كان يولج بالمرأة الذكية ، وكان له ذوق خاص بمعلمات المدارس . أما الآن فقد بات يحب كل امرأة ، دون تمييز ، شريطة أن لا تكون شديدة النحول ، وأن تكون رائحتها قوية نافذة ، إما عطرأ أو عرقاً . ولم يكن يكثرث بالنظافة كثيراً ، ولطالما أغرق نفسه بالكولونيا مستعيضاً بها عن الاستحمام . ولما كان معروفاً بإغراقه في حب ذاته ، فلم يكن يكثرث قط براحة عشيقته ، أو لذتهن ، إذ طالما أثر الأرض على السربير لإشباع شهواته ، دون أن يخلف ملابس ، ومنهياً من مغامراته الغرامية في غضون دقيقة أو دقيقتين^(١) . وقد تحدثت الكثيرات ممن عرفن موسوليني في مبادله ، من الصحفيات غير المتزوجات ، وزوجات أعوانه من الفاشيين والنبيلات والخادومات والممثلات والزائرات الأجنبية ، عن علاقاتهن به وتجاربهن ، دون ندم بل بكثير من الاعتزاز . وقد ذكرت إحداهن وكانت قد تأملت من مداعباته الثقيلة لصدرها أول مرة ، أنها عادت إليه ثانية ، لأنها وجدت أنها لا تستطيع « رفض رجل له مثل هذه المكانة » . وكانت هناك أخريات لم يكثرثن بكانته أو أهميته ، وإنما أسرن بعواطفه الجنسية القوية ، ولا سيما عندما تتحول وحشيته وشتائمته

(١) آثرت ترجمة هذه العبارات المكشوفة بوجهها الصحيح ، أمانة في الثقل من ناحية ، وإظهاراً لنزعات الحيوانية من الناحية الأخرى .

القاسية في المحطات الحاسمة إلى نعومة ورقة ، بعد إرضاء نزواته . وقالت الكثيرات منهن إن موسوليني كان قادراً على الحب قدرته على العشرة ، وعلى الملاحظة قدرته على الشهوة . وذكرت إحداهن أنه كثيراً ما كان ينهى مغامرته معها بالعرف على كمانه أحياناً ناعمة . وأجمعت عشيقاته على القول بأنه بالرغم من قسوته وأنايته التي لا يقطعها إلا لمحات عابرة من العطف ، كان هناك في موسوليني ما يأسر المرأة التي تعرفه ، وهو رفضه الانصياع إلى أية قاعدة من قواعد السلوك .

وقد نقل هذا العصيان لقواعد السلوك إلى الحياة العامة . فلم يكن يخلق في ميلان ذقنه في كل يوم . وهو لم يكن يفعل هذا أيضاً في الأشهر الأولى من حياته في رومه . بل بات يحضر بعض الحفلات الرسمية كذلك التي أقيمت في كوستنزي تكريماً للملك إسبانيا وملكتها دون أن يخلق ذقنه . وكانت الملابس التي ألف ارتداؤها في مثل هذه المناسبات مذهلة للغاية . فقمصانه ليست نظيفة دائماً ، وحذاءه لا يصبغ إلا نادراً . لكن هذا الخداء لم يكن يظهر إذ اعتاد تغطيته بشكل لم يعد مألوفاً في عصره . ولم يكن ليهم أبداً « بالوضعة » ، ولا يفهمها ، ولا يعرف اللباس إلا إذا سد له حاجته دون اهتمام بطرازه أو بشكله . ولم يكن يعرف السبب في عدم جواز وضع الياقة السوداء مع البدلة الرسمية (الفراك) ، ولذا ، فقد دأب على مخالفة العرف . ولم يكن يرغب في أن تضايقه أربطة الخداء ولذا استعاض عنها بالمطاط . وقد ابتاع بدلة رسمية (بوليجور) لارتداؤها في مكتبه في الصباح ، إذ أنه كان يستلطف السروال المخطط ، والجاكيت السوداء الطويلة ، ولكنه كان يظهر فيها في منتهى الضيق ، وكثيراً ما كان يباط عقه في غير موضعه ، كما دأب على رفع أكمام قميصه المنشأة إلى مرفقه . وعندما وصلت زوجته راشيل إلى رومة للإقامة فيها تحسن منظره وهندامه بعض الشيء . لكن قدومها إلى رومة جاء متأخراً إذ آثرت البقاء في ميلان مع ابنتها إيدا ومع والديها فيتوريو الذي ولد في عام ١٩١٦ ، وبيرونو المولود في عام ١٩١٨ . أجل لم ترغب راشيل في المجيء إلى رومة ، لأنها كانت تعرف أن مظهرها وحديثها هما مظهر فلاحية من روماننا وحديثها ، وأنها ستحس في رومة بالتعاسة والانكماش . ولم ترغب في أن تشترك مع بنيتو في حياته العامة ، بل أرادت أن تبقى زوجة له وأمّاً لأولاده ، وأن هذا هو كل ما يتوقعه

ويريده منها . ويذكر أصدقاؤه ، أنهم عندما كانوا يذهبون إلى زيارته في منزله في شارع ميريندا في ميلان قبيل الحرب ، كانوا يجدون راشيل ، تغسل ملابس الأسرة في باحة الدار . . .

وراح أحدهم يسألها ذات يوم . . . أهو في المنزل ؟
— لا إن السيد في الخارج . . . وكان هذا التعبير صورة لما نقوله المرأة الرومانية عن زوجها . . .

— ترى أين ذهب ؟
— لا أدري . فلم يَأْلَف أن يخبرني بما يفعله .
أجل ؛ إنه لم يكن يخبرها قط بما يعتزم عمله . لكنها لا تغضب ، فهذا شأن الرجال دائماً . وهي سعيدة في زواجها منه . وكانت تعرف أن زوجها « زير نساء » ، كما اعتزفت فيما بعد ، أنها كانت تعلم بأن له عشرين خلية ، ولكنها لا تكترث ، لأنها تعرف أنه يحب أسرته . وأمثاله من الرجال يحبون نساءهم دائماً . ولذا فهي لا تلومه . إنها تعمل كثيراً في بيتها ، سيدة مخلصه ، طيبة وفية ، وربة بيت لا تعرف المزاح ، وإن كانت تثور أحياناً لأسباب تافهة . لكنها دائمة العبوس . وبالرغم من سداجنها إلا أنها كانت تتمتع بمكر الفلاحين . ولم تكن تفهم إلا القليل عما يفعله زوجها ، وأقل من ذلك عن عمله ، وكانت تثره دائماً عندما تحاول أن تتقدم إليه بنصيحة أو تحذير ، وهو ما يحدث منها نادراً . ودأبت بعد انتقالها إلى رومة على تسليم رسائل لا يفصح كاتبوها عن هوياتهم ، وتلقى مكالمات هاتفية ورسائل من صديقاتها ، للتوسط في موضوع أو قضية ، فلذا ما نقات إلى زوجها ما سمعته ، بادرها يقول . . . « إنك لا تعرفين شيئاً عن هذا » . وحقاً كانت لا تعرف شيئاً ، ولذا فإن قوله هذا لم يكن يسيئها . . . وعندما نقلوا إليها نبأ موته قالت : « لقد كان أباً ممتازاً وزوجاً طيباً » . ولا ريب في أنها كانت صادقة في قولها هذا .

ويقال إنهم عندما أبلغوها نبأ تعيينه رئيساً للحكومة ، هتفت قائلة وقد بان السرور والاعتزاز والدهشة على وجهها : « باله من شخصية » .
وكان رأى الذين عملوا معه ، لا يختلف كثيراً عن رأى زوجته فيه . فقد كان

عبقرياً عند البعض ، ومجنوناً عند البعض الآخر ، ولكنه بارز في كلا الرأيين . ولا ريب في أنه كان داعية ممتازاً ، ولم يكن يتورع عن استخدام عبقريته الدعائية ، لا في إبراز شخصيته فحسب ، بل في خلق صورة لها عند الناس بعضها صحيح والبعض الآخر خيالي ، لرجل من رجال القدر ، يتصف بالدهاء الأصيل ، والعلم الغزير . ومن الواجب أن يقال على أى حال ، إن لطفه على إبراز ذكائه ، كانت واضحة وفي منتهى الغرابة . ولقد رسم له إميل لودفيج الكاتب الألماني الذي تحدث إليه موسوليني في عام ١٩٣٢ في سلسلة من المقابلات ضمنها كتابه « موسوليني قال لي » صورة إنسان واسع الاطلاع عميق المعرفة ، وافر التجربة ، يوحى للإنسان في نفس الوقت ، بأنه طراز ذلك الرجل الذي لا يضيع فرصة يستطيع فيها الظهور . ولم يكن بوصفه عاشقاً لذاته ، يسمح لإنسان بأن يسخر منه . ولعل من الطريف ، أن نفكر في الأعمال الكثيرة التي قام بها في حياته ، والتي نشأت عن رغبته في أن يثار من أولئك الذين اعتبرهم مدنيين يمثل هذه الإساءة أو ما يشابهها . ولكن لما كان قد تميز أيضاً ، بالسداجة في بعض أعماله ، فقد أتاح الفرصة للكثيرين للسخرية منه . ويقول لودفيج . . . « ولم يحاول قط أن يصحح أخطائي أثناء حديثي إليه بالإيطالية . ولكن عندما حدث ذات مرة ، وأسأت لفظ اسم فرنسي ، أطلت منه شخصية المعلم القديم ، وراح بصوت خفيض ينطق الاسم كما يجب أن ينطق . وعندما أراد ذات يوم الحديث عن " تقييم أحسن القيم " بالألمانية وراح يقترف هفوة صرفية رغم معرفته الكاملة بلفتنا ، سارع إلى تصحيح هفوته بنفسه مضيفاً أنها نشأت عن الخلط بين المفرد والجمع » . وكان يكثر من القول عند الحديث إلى أعضاء حكومته وغيرهم . . . « أرجو أن تغفروا لي عباراتي العلمية » . وقد سجل أولريخ فون هاسيل الذي غدا فيما بعد سفيراً لألمانيا في رومة وفيليبو أنفوسو ، الدبلوماسي الإيطالي ، هذه اللهفة من بجانب الدوتشي ، للظهور بمظهر العارف لأكثر مما يعرف . ويروى لنا أنفوسو قصة الحديث الذي دار ذات يوم بينه وبين موسوليني وأسرته ، حيث تحدث الدوتشي عن معرفة نيتشة^(١) الرائعة بالإغريقية . وهنا قاطعه أحد أولاده بصوت رقيق قائلاً . . . « وأكنك لا تعرف الإغريقية

(١) تحدثنا عن نيتشة في هامش سابق .

يا أبى». وعندما تظاهر أبوه بأنه لم يسمعه ، عاد الولد يكرر ما قاله . ووجد موسوليني نفسه ، مضطراً للخروج بضيفه من الغرفة . وروى هاسيل بشيء من الازدراء ، كيف أن موسوليني أمر ذات يوم المصورين بتصويره وهو يفوز في مباراة للشطرنج ، مع أنه كان لا يعرف شيئاً عن هذه اللعبة . وشك هاسيل أيضاً كما شك غيره كثيرون ، في صحة ما اشتهر به من ذاكرة قوية ، وقال إنها لم تكن أكثر من خدعة ، فقد كان يحفظ بعض الأرقام والإحصاءات قبل أية مقابلة ، ليؤثر على سامعيه ، عندما يأخذ في ذكرها وكأنه يخرجها من أعماق ذاكرته . لكن لودفيج خدع بهذه الحيلة التي خدع بها أيضاً كثيرون من وزرائه ، الذين كان يسلك معهم سلوكاً يعتمد أن يوحى لهم عن طريقه بالمهابة والإعجاب . وكان يبدو أحياناً فقطاً إلى حد الغرابة ، بينما يبدو في أحيان أخرى في منتهى الدماعة واللطيف ، فهو متناقض الشخصية إذ يبدو متعجلاً حيناً ومفرقاً في الأناة حيناً آخر . عنيفاً في غضبه تارة ومتساهلاً كل التسامح تارة أخرى . ولم يكن وزرائه يعرفون موقفه منهم ، وهل سيظلون في مناصبهم أو يستبدل بهم غيرهم دون سابق إنذار ، ودون أى سبب يفهمونه ، وإن كان كثيراً ما يكون شعوره بتزايد نفوذهم ، مما يؤلف خصباً على مركزه في قمة السلطان الذي كان قد حزم أمره على الاحتفاظ به . وكثيراً ما هتف في الصباح إلى أحد وزرائه ، صارخاً مزيجاً ، منها لا عليه بتعليماته وأوامره ، ثم لا تمضي ساعة أو ساعات ، حتى يعود فيهتف إليه ثانية ، متحدثاً إليه وكأنه من أقرب أصدقائه . أجل ؛ كان عسيراً على الفهم ، حاد الطبع ، نابضاً بالحياة ، معتزاً بإدراكه للسلطان الذي يملكه . وكان قادراً على أن يبعث الخوف والفرح في رفاقه أثناء غضبهم ، وأن يوصلهم على التفاني في حبه نتيجة صفحه وغفرانه .

ولم تمض شهور على وصوله إلى الحكم ، حتى كان نجاحه قد بات مضموناً : وتحول الجيشان والفوضى في إيطاليا إلى حالة من الترقب المعجب الخدر . وعاد العمال إلى مصانعهم ، وزاد إنتاجهم ، ونحلت الشوارع من التظاهرات وهدأت ، وآب الطلبة إلى معاهدهم ودراساتهم . ولم يكن لديه برنامج سياسى محدد عندما وصل إلى الحكم ، وكان جل همه ، أن يضمن التوازن في الموازنة ، ويضمن الوضع العادل

الطيب للعمال ، وأن يسير بسياسة البلاد الخارجية بمنتهى التصميم والاحتفاظ بالكرامة . وكان يقول دائماً . . . « سننجح لأننا نريد أن نعمل » . ويمكن بعبقريته الدعائية من إيهام الشعب بأنه يعمل كثيراً ، لا في مكتبه فحسب ، بل في المصانع والمزارع أيضاً ، حيث كان يقوم بتشجيع العمال والفلاحين وحشهم على العمل . وكثيراً ما نشرت الصحف صورته وهو يحمل « الطوب » بيديه ، أو يطرق الحديد بإصرار وتصميم في المصانع ، أو يحصد القمح ، وقد بدا صدره كما يريد هو أن يبدو عارياً ، متألقاً في ضوء الشمس .

وسار الإيطاليون على خطاه . كان أصغر رئيس للوزراء ، عرفوه في تاريخهم ، وكثيراً ما أظهر لعبيد منهم زهوهم به . وقد قبلوا عن طيبة خاطر ، عودتهم إلى العمل ثمانى ساعات في اليوم ، كما ارتضوا ما أجراه من تخفيضات في موازنة النفقات الحكومية ، التي كانت قد ارتفعت ارتفاعاً هائلاً في ظل الحكومات السابقة ، بحيث قدر العجز في عام ١٩٢٢ - ١٩٢٣ بنحو من ٦٥٠٠ مليون ليرة إيطالية ، بالإضافة إلى قبولهم إحالة الألوف من الموظفين على التقاعد ، أو نقلهم إلى أعمال أخرى . ولم يمض عامان على حكمه حتى كان العجز البالغ خمسمائة مليون ليرة في الخدمات البريدية قد تحول إلى وفر قدره ٤٣ مليوناً حسب الإحصاءات الفاشية التي ظهرت صحفها ، كما تحول العجز في السكك الحديدية والبالغ ١٤٠٠ مليون ليرة إلى وفر قدره ١٧٦ مليوناً . وبات الإيطاليون يزجون بالقول بأن القطارات أصبحت تسير في مواعيدها المقررة .

حقاً شرع الإيطاليون يزجون بأشياء كثيرة . وبدأ لهم أن الفاشية ناجحة في عملها . ونعم موسوليني بتأييد الشعب له ، وكان يحرص أشد الحرص ، على تنمية الانطباع لدى مواطنيه بأنه قد أنقذهم من لفوضى والبلى . وكانت نخبة أمل العمال في قادتهم الاشتراكيين ، واستياقهم من دعاة الإصلاح الاجتماعي ، وعجز الشيوعيين الإيطاليين عن الاتفاق على سياسة واحدة مشتركة ، عوامل أدت إلى إنقاذهم من البلى . وقد أدرك موسوليني هذه الحقيقة ، وقاده إدراكه هذا إلى السخط على أولئك الذين اكتشفوا الحقيقة وأذاعوها ، وهي أن الفاشية ليست إلا الثورة المضادة لثورة لم تقع في إيطاليا قط . وكان قد أعلن بشيء من المبالغة التي

لها ما يبررها قبل أمد طويل من الزحف على رومة أن البلشفية « ماتت في إيطاليا » . لكن الادعاء بأن الفاشية قامت في إيطاليا لإنفاذها من البلشفة أسطورة من الأكاذيب التي حاكت الفاشية نسيجها . ولعل الأكاذوبة الثانية ، التي انبثقت عن الأولى ، لتغدو في النهاية الظاهرة المميزة للعقيدة الفاشية ، هي أن الزعيم هو الإنسان الأكل (السوبرمان) ، وأنه ليس مجرد قائد الفاشية الكلى القوة والحكمة والذي لا يخطئ أبداً فحسب ، بل إنه كذلك ، إله أو شبه إله ، يتميز بالعدل والرحمة والإحسان . وبالرغم من أن أنبياء الفاشية ، كانوا قد أعلنوا في البداية ، أنها تمثل حركة لا عقيدة ، وبالرغم من أن موسوليني نفسه كان قد ذكر بأن « برنامجنا هو العمل ، فليست لدينا عقيدة جاهزة » ، إلا أنها أخذت تعرض الآن نفسها كقوة خلقية بالإضافة إلى كونها قوة سياسية ، وكثيراً ما قال الدوتشي بأن الفاشي الصادق يجب أن يتميز بالنزعة السلطوية والحوية والصرامة والاتجاه القوي ، وأن « يعتبر نفسه التابع الأمين لعقيدة تقوم على الانضباط الكامل . . . » وأن يؤمن بأنه الخليفة الشرعي لقيصر . . . » وذكر الأستاذ ألفريدو روكو ، وهو من أوائل مثقفي الفاشية ، موضحاً فلسفة الدوتشي العسيرة على الفهم ، والقائمة على الاستتاج ، أن الفاشية « ترفض النظريات الديمقراطية للدولة ، وترى أن المجتمع لا يوجد من أجل الفرد ، وإنما يخلق الفرد من أجل المجتمع ، ولا تلغى الفاشية وجود الفرد كما ألغى الأفراد وجود المجتمع في بعض العقائد البدائية ، وإنما تخضع الفرد للمجتمع تاركة إياه حراً في تنمية شخصيته في خطوط يفيد منها مواطنوه » .

وقام روكو وحتليل وغيرهما من المدافعين عن الفاشية بمحاولات عدة ، ليظهروا أن النظرية الفاشية لا تتناقض بحال من الأحوال مع « الانجازات الأساسية للتاريخ الإيطالي » . وكانوا يحاولون إظهار جاريبالدي^(١) ومازيني بمظهر الميالين إلى النظرية الفاشية في صميم فؤاديهما . لكن مثل هذه المحاولات لإيضاح الفاشية فكرياً وتاريخياً ، لم تترك أثراً ملحوظاً لدى الشعب الإيطالي ، وقد اعترف موسوليني نفسه ذات يوم بأن القصد منها هو التأثير على الأجانب لا على الإيطاليين . وكان يقول إن على الإيطاليين أن لا يحاولوا فهم الفاشية وأن عليهم

(١) من أبطال الوحدة الإيطالية في القرن التاسع عشر .

تجربتها ليس إلا . فعليهم أن يحسوا لا أن يفكروا . ولعل الرغبة في التأثير عليهم بطبيعتها العاطفية هي التي دفعت موسوليني وصحبه إلى إظهارها بمظهر « الرؤيا الصوفية الباطنية » التي تعتمد الرموز والطقوس ، والقواعد الدينية ، وأساليب الرقص وألحانه ، والتعاويد الورائية ، وزخارف القرون الوسطى ، والاتصال « بالروح التقليدية لرومة القديمة » . وقال ناقدو الفاشية عنها إنها البديل الزائف بل الاصطناع الفكري والسياسي على حد تعبير إيجنازيو سيلوني ، وإن كان موسوليني قد أعجب بهذا الزيف والاصطناع . وفي وسع الفاشية في رأيه أن تحل محل الحقيقة والحرية والفن والفكر الاشتراكية والديمقراطية ، وأن تؤمن له وهذا هو الأهم ، الحاجة إلى القائد وإلى النبي .

وعثرت الفاشية في شخص موسوليني على هذا القائد والنبي . وراح بنى في الخطب التي يلقيها في جميع أرجاء البلاد بعد أن يجهد في إعدادها ، وإن تظاهر بإلقائها ارتجالاً ، مضمناً إياها عبارات وكلمات سحرية يصعب حفظها ، تلك القدرة الخطابية الرائعة والبليغة على الاتصال بال جماهير ، التي مارسها منذ عهد طويل في روما . وكان أسلوب الحوار الذي يتبعه ، والذي طالما سحر الجماهير في مسقط رأسه ، وكان الطريقة التي اتبعها دنونزيو نفسه في مغامرته في فيرو ، يأمر ألباب الشعب كله ، فيحس بأنه قد أفاق وبعث ، ليمضي إلى مستقبل زاهر جديد ، بقيادة الرجل الذي لا يعجز عن تحقيق أي شيء . وكانت الهتافات المتكررة التي لا معنى لها من أمثال « ايا ، ايا ، الا لا ، الا لا » ، التي ابتكرها دنونزيو أيام الحرب ، والتي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الطقوس المجنونة للتظاهرات الفاشية ، تزيد في أوهام الوحدة والسلطان عند الشعب الإيطالي ، وتدفعه في الطريق إلى حمى عبادة الفرد .

ومع ذلك ، كان يقال للشعب ، إن الدوتشي بالرغم من عبقريته التي لا تنضب ولا تستهلك ، ليس إلا رجلاً بسيطاً وطيباً . فالدموع تنال من عينيه عندما يتحدث إلى الفلاحين الجياع في الجنوب ، وعندما يرى ما هم عليه من شقاء وذبول ونحول . وكان يقول لهم . . . « سأعفى بكم كل العناية ، فقد عرفت بنفسى

معنى الجوع » . وكان هذا القول موضع تصديقهم ، لأن قائله محل ثقتهم^(١) .

وكثيراً ما قيل لهم إنه رجل متواضع . فعندما كرمته مدينة فلورنسة باختياره مواطن شرف فيها ، سمعه الناس وهو يقول . . . « لا أرى نفسي جديراً بهذا الشرف » . وهو لا يرضى بأن ينال شهادة فخرية في القانون من جامعة رومة ، إلا إذا قدم لها أطروحة ، تبرر حصوله على هذه الشهادة . وقد رفض وشاح أنونزياتا ، أرفع الأوسمة الإيطالية شأنًا ، عندما قدم إليه أول مرة ، ولم يكن رفضه ناجماً ، كما اعترف حتى خصومه ، عن خطة مدروسة ، وإنما نشأ عن عزوف أصيل في نفسه عن الاهتمام بمثل هذه الأمور . وقد روى وزير خارجيته بعد سنوات طويلة ، أنه كان قد طلب إلى الدوتشي الإذن بتقديم القلادة العظمى من وسام سان موريزيو ، إلى بالدور فون شيراخ ، الألماني ، فرد موسوليني قائلاً ، وقد ظهرت عليه علامة نفاد الصبر . . . وأجل ، وفي وسعك إذا شئت ، أن تعطيه كل أوسمتي الخاصة أيضاً » . وتحدث شيانغو عن واقعة أخرى أيضاً ، عندما وجدت وزارة الشؤون الجميلة مشقة بالغة في العثور على تحفة فنية تصلح كهدية لماريшал الريخ جورنيج بمناسبة عيد ميلاده الخمسين ، فقال . . . « وكانت لدى الدوتشي في منزله . قطعة فنية واحدة ، هي الصورة الشخصية التي رسمها مانسبى . . . وعندما سمع بأن هدية ستقدم إلى جورنيج . . . راح يفكر على الفور ، بالتحفة الموجودة في بيته . وقد تطلب مني إقناعه بالعدول عن هذه الفكرة أمداً طويلاً . . . ولا ريب في أن عدم اهتمام الدوتشي بمقتنياته الخاصة شيء عجيب حقاً » .

وقرر لاثر مجيئه إلى رومة ، ألا يقبل رتباً ، لا كرئيس للوزراء ، ولا كوزير

(١) هناك قصتان تعرضان عبادة مئات الأوف بل الملايين من الإيطاليين الجملة لشخص الدوتشي . فعندما ثار بركان إتنا في الجنوب ، وراح موسوليني يزور المناطق المهتدة ، ساد الناس إيمان شامل ، بأنه لنجح من حيث فشل كانيوت (ملك داماركي يقال إنه عمل المعجزات في القرن الحادى عشر) في كبح جماح قوى الطبيعة ، وقد نقلت إحدى الصحف هذا الإيمان كحقيقة واقعة . وعند ما قامت إحدى الإطاليات بزيارة ضريح أوربينو الإيتروسكرانى ، وقيل لها إن الكتابات المنقوشة على الضريح لم تفهم بعد لأنها مكتوبة بلغة مجهولة ، قالت بكثير من الإيمان : « لعل السبب في هذا أن موسوليني لم يزر هذا الضريح بعد ، ولكنه عند ما سيزوره فسيعرف ما كتب عليه » . ولم تكن هذه الثقة القريبة مقتصرة على هذه السيدة وحدها .

« المؤلف »

أو نائب ، معتمداً في معاشه على الأجر الذي يتقاضاه من المقالات التي كان يكتبها إما لصحيفة البوليوديتاليا أو بعض الصحف الأمريكية^(١). وكان يحترم احتقاراً كلياً وعميقاً أولئك الذين لا هم لهم إلا جمع الثروات . وكثيراً ما أطلق على هذه الرغبة اسم الجنون أو الهوس ، واصفاً إياه ، بأنه مرض ، معزياً نفسه بالتفكير بأن الأغنياء لا يكونون سعداء إلا نادراً ، مشيراً دائماً إلى روكفلر الذي عاش « على الحليب والبرتقال طيلة الستة عشر عاماً الأخيرة من حياته » . ولكن بالرغم من أنه لم يكن صاحب ثروة خاصة ، ولم يرغب قط في جمعها ، فإنه لم يكن متخشناً في عيشه ، وإن لم يكن هذا أنه كان أبيقوزياً يعيش على ملذاته . فعشيقاته لم يتلقين منه ثمين الهدايا ، وكان جل ماتناله الواحدة منهن زوجاً من الجوارب ، أو زجاجة من العطر . أما أولاده ، فقد تلقوا العلم في المدارس الرسمية ، وعاشت زوجته حياة بسيطة . وكان هو يقضى الأسابيع في ارتداء بدلة واحدة وإن كان لم يتورع قط عن لإرضاء أية نزوة من نزواته بحجة التوفير أو الاقتصاد . وكان قد تلقى دروساً في الطيران في ميلان ، وأصبح طياراً مجازاً ، فقد اقتنى طائرته الخاصة ، وأصبح يطير بها كلما شعر بميل إلى الارتفاع في الجو . وأحب قيادة السيارات ، ولذا فقد ابتاع سيارة سباق حمراء وثمينة . وعشق ركوب الخيل ، وسرعان ما حشد عدداً من خيرة الحيات في إسطنبولاته . وكان يحب عرض الجيوش والأساطيل ثم هوى العروض الجوية ، وكثيراً ما اتهمه خصومه ، بأنه كان يأمر بإجراء هذه العروض الباهظة التكاليف ليرضى بها ميوله الشخصية . وأحب الحيوانات ، وعندما توافرت لديه الأماكن لاقتنائها ، أصبح لديه ما يقع في حدود حديقة حيوان خاصة تضم الحيتول والكلاب والظباء والقروود والنسور والوعول والفخورة والقطط ، التي كان يؤثرها على سائر الحيوان . واقتنى في قفص في غرفته ، حيوان (البيومة) الأمريكي الأصل . ولكن هذا الحيوان ، اقتحم جدران قفصه ذات ليلة وراح يحول في الدار ، باعثاً الرعب والفرع لدى خدمه وموظفيه . وكان يحب الأفلام السينمائية ، ولا سيما أشرطة

(١) ظل موسوليني لا يكتثر بالمال حتى النهاية . وقد وجد المستولون صعوبة كبرى في إقناعه بقبول مرتب كرئيس للجمهورية الاشتراكية في عام ١٩٤٣ . وعند ما جاءه أحد سكرتريه ، يحمل مرسوماً أعده أحد الوزراء بتخصيص مرتب قدره (١٢٥) ألف ليرة إيطالية في الشهر ، رفض أن يوقعه وهو يقول . . . « وما حاجتي إلى كل هذا المال ؟ » . « المؤلف »

الأخبار التي كانت تعرضه وهو يخطف الجماهير ، مؤثراً عليها ، وأفلام لوريل وهاردى الهزلية ، ولذا فقد أقاموا له داراً خاصة للسينما . وكان له بيتان بالإضافة إلى دارته على شاطئ البحر ، أولهما دارة تورلونيا في رومه ، وثانيهما «روكاديللا كاميناتي» في رومانا ، وقد قدمت له مقاطعة فورلى هذا البيت هدية منها له .

تقع درة تورلونيا ، وهي منزل كبير جميل لطيف المناخ ، ذو منظر كلاسيكى رائع ، ورم أسوار عالية وسط حديقة غناء في شارع نوميتانا القائم وراء ميدان «بورتا بيا» . وكان صاحب هذه الدارة الأمير جيوفانى تورلونيا ، وهو أحد أصحاب المصارف الكبيرة في رومه ، قد وضعها تحت تصرف الدوتشى للمدة التي يشاؤها . وقد قبل موسوليني الذى أعجب بفخامة الدارة وبأسوارها الصفراء العالية التي تضيئ على بيوت رومة القديمة جمالا لا يضاهى ، العرض شاكرآ ، إذ أحب العيش في مثل هذا المنزل المريح ، ولكنه كان كثيراً ما يجب الفرار إلى بيته الآخر ، وهو قصر إقطاعى منيف يقوم على قمة رابية عالية ، يستطيع أن يرى منها أمامه ، الريف الذى قضى فيه أيام صباه ليصل بنظره إلى جبال الأبنين في الجنوب ، وإلى شطآن البحر الإذنياتي البعيدة في الشرق . وكان هذا القصر مهتماً عندما أهدي إليه ، ولكن مبالغ ضخمة من المال أنفقت عبر السنين على ترميمه وتجديده، وأصبح حاشداً بالهدايا التي كانت تنال على الدوتشى من كل مكان في العالم ، بحيث أصبح إذا ما استثنينا مكتبته الخالي من الذوق في أثاثه ، والمرصعة جدرانها بالصور التي تعرضه الكثيرات منها في أوضاع نشاطاته المختلفة كالرياضة والطيران ورعاية الأسرة وإدارة الحكم ، أشبه ما يكون بالمتحف لا بالمنزل . وقد أفضى في أخريات أيامه إلى الطبيب الألماني الدكتور زاخارى ، بأنه كان يأمل أن يحول منزله هذا إلى متحف . وأخبره أيضاً أن تحفه تضم صورة مرسومة على الحرير ، أهداها إليه إمبراطور اليابان ، وتعتبر أجمل تحفة من نوعها في العالم ، وأن أحد أصحاب الملايين من الأمريكان ، أثاره عندما عرض عليه عدة ملايين من الدولارات ثمناً لها . واستطرد موسوليني يقول لصاحبه ، إنه لم يستطع بيعها ، لأنها ليست ملكاً خاصاً به ، وإنما هي ملك لإيطاليا كلها .

وكان هذا الربط بينه وبين بلاده ، قد غدا ، ولاسيما في الآونة الأخيرة، الكابوس

المسيطر عليه ، بحيث بات يعتبر كل حملة تتعرض لها إيطاليا ، وكأنها إهانة شخصية موجهة إليه ، ولا ريب أيضاً في أنه كان جزءاً من السر في هذه السيطرة التي كانت للدوتشي على ولاء شعبه وخياله . وكانت قومية الدوتشي المتعجرفة والمزهوة تمثل أعظم إلهام منه في حركة بعث إيطاليا في عيون الوطنيين الإيطاليين من أبناء الجيل الجديد الذي اقتحم الحياة في عشرينات القرن . ولكنه بدا في عيون الغالبية الغالبة من أبناء الشعب الإيطالي كله ، في هذه الحقبة المبكرة من تاريخه لا في عيون أبناء الجيل الجديد وحدهم ، القدوة الذي لا يجارى ، والمثل الذي يصعب الوصول إلى تقليده ، فهو لا يخطئ أبداً . وكان يحرص على أن يسير ببطء للغاية في البداية ، وأن يعمل بعيداً عن الأضواء ، حتى إن بناء الدولة الجديدة اللائبرالية كان يتم دون أن يلاحظه أحد . فلم يكن صاحب سياسة مقرر ، وإنما كان يتبنى الأفكار والسبل ، كما تراءى له ، حالا المشاكل حلاً عارضاً عند بروزها ، مضيفاً على عهده صورة « فاشية تقدمية » على حد تعبير قانون المعارف الذي أصدره جنتيل في عام ١٩٢٣ ، ومعطياً إياه حيناً آخر صورة وقوراً ومحترماً ، نتيجة موقف الإجلال الذي وقفه من شدة حاسية المقترعين الكاثوليك والكنيسة . وكان اضطهاده المتزايد للحرية ، التي وصفها في خطاب عام ألقاه ، « بالآفة المتفحظة » ، هو الطريق الذي خطت فيه الفاشية ، والذي « لا بد أن تعود للسير فيه بهدوء مرة تلو المرة إذا تطلبت الضرورة » ، على اعتبار أنه ضرورة لا بد منها إذا أرادت إيطاليا أن تغدو قوة وأن تزيح عنها انكماشات التفرقة التي كانت تتسلل إليها منذ سنوات طويلة . ولم يأسف ملايين الإيطاليين على تحول برلمانهم ، إلى مجرد مجتمع للعجزة ، لأنهم وافقوا على ما وصفه به موسوليني من أنه « مجمع القواقع القديمة » . وقد قبلت غالبية الشعب الغالبة ، حرمان الصحافة المتدرج من حريتها ، وإقامة حرس وطني فاشي معظمه يضم نحواً من مائتي ألف رجل ليحل محل الفصائل الفاشية السابقة والسيئة التنظيم ، وليجمع أفرادها إلى صقوفه ، وحل فرق الحرس الملكي الذي لم يلق إلا مقاومة ضعيفة ، وامتناد السنن والنشائج الفاشية إلى كل درب من دروب الحياة الإيطالية يصلح لسريان العدوى ، والعقوبات العنيفة التي تنزل بالنقاد الذين يجهرون برأيهم في نقد النظام ، كمتطلبات

أولية لا بد منها لقيام إيطاليا الجديدة التي وعدوا بها . وقد أعلن موسوليني نفسه في شهر يوليو عام ١٩٢٤ . . . « لم يطلب إلى الشعب في المرات العديدة التي قابلته فيها وجهاً لوجه ، وتحذرت إليه فيها عن كتب . . . تحريره من الطغيان الذي لا يحس به لأنه غير قائم . وكان كل ما يطلبه الشعب مني المزيد من السكك الحديدية ، والمنازل والمجاري والجسور ومياه الشرب والنور والطرق . ولا ريب في أن قوله هذا صادق إلى حد كبير . فقد شعر الناس بفوائد الفاشية بحيث هانت عليهم أخطاؤها وعيوبها .

وكان موسوليني نفسه يبرأ دائماً من التحريض على عمليات ضرب خصومه الوحشية والدموية . ومن الحق أن يقال إنه بالنسبة إلى الأدلة المتوافرة ، لم يكن يأمر بها ، وكان يحرص أشد الحرص ، على عدم الظهور كمتحرض عليها . ولم يظهر اشتراكه في مثل هذه الأعمال إلا نادراً ، كالحالة التي اكتشفت فيها إحدى الصحف الفرنسية ، بقايا برقية بعث بها موسوليني إلى مدير شرطة تورين ما لبثت الصحيفة أن نشرتها ، وفيها يأمره بأن يجعل حياة بيتر وجوبى العدو الخطر للفاشية « أمراً لا يطاق » ، وقد نفذ المدير أمر الدوتشي ، وضرب الرجل ضرباً عنيفاً في تورين حتى إن أضلعه المخطمة ، خرقت إحدى رثتيه . ويقول سيزار روسي ، الذي كان رئيساً لدائرة الصحافة الفاشية في تلك الأيام إن مراكز الحزب الرئيسية في فلورنسة وميلان وبيزا ومونزا وغيرها من المدن الصغيرة ، تلقت في يوليو عام ١٩٢٣ ، تعليمات من موسوليني بتدمير المكاتب المحلية للنادي والاتحادات الكاثوليكية . وتلقى وزراء الشرطة في جميع المدن التي وقعت فيها المظاهرات المعادية للكاثوليك في الوقت نفسه ، برقيات من موسوليني هذا نصها . . . « بالنظر إلى ما أثارته الحوادث الأخيرة المعادية للكاثوليك من ردود فعل سيئة في الفاتيكان ، فقد يكون من المفيد أن يقوم القادة المحليون في الاتحادات الفاشية الإقليمية رسمياً ، بزيارة الممثلين البابويين لتقديم أسفهم على ما حدث ، وتأكيد إجلال الفاشية للكنيسة من جديد » .

ولا ريب في أن المحاولات التي قام بها المؤرخون الفاشيون ، لتبرئة موسوليني كلية من تهم الاشتراك في جرائم من هذا الطراز ، أو لإنكار وجودها كل الإنكار ،

مفرقة في الربيع والخداع . فنذ أصبحت الصحافة خاضعة للسيطرة الفاشية لم تعد تنشر شيئاً عن هذه الأحداث ، أو لم تعد تنشر عنها إلا المختصر الموجز . ولكن الشيء الثابت هو أن هذه الحوادث استمرت أمداً ما ، وأن الدوتشي كان قد أعلن أكثر من مرة لأوساط حزبه لإيمانه بأن بقاء الفاشية يتطلب أن يظل أعداؤها في خوف وقلق دائمين .

ولكن الملايين من غير الفاشيين ، الذين كانوا على استعداد للتغاضي عن مساوئ العهد الكبيرة ، أملاً في أن تكون هذه المساوئ الثمن الذي تدفعه البلاد للحصول على مستقبل شريف ، فوجئوا في صيف عام ١٩٢٤ ، بما هزمهم هزاً عنيفاً وأثار سخطهم وهياجهم ، مما تعذر نسيانه ، واستحال تلطيفه إلى أمد بعيد . ولم يكن موسوليني هو الذي أصدر أمره بما اقترف ، كما لم يعرف بالخطأ التي دبرت ، ولكن مسؤوليته عنه لا تقل عن مسؤولية هنري الثاني عن مقتل توماس بيكيت^(١) . لكن موسوليني اختلف عن هنري ، في أنه لم يذهب إلى قبر الضحية معلناً ندمه وأسفه ، وطالبا الصفح والغفران .

(١) قصة شهيرة في التاريخ الإنجليزي . كان توماس بيكيت (١١١٩ - ١١٧٠) رئيساً لوزراء إنجلترا ، ورئيساً لأساقفة كنتربري . ونشأ الخلاف بينه وبين الملك الذي كان راغباً في تحطيم سلطة الكنيسة بما أرغمه على الفرار إلى فرنسا فرومة . سوى الخلاف بينهما في عام ١١٧٠ ، وعاد بيكيت إلى إنجلترا حيث استقبله الشعب استقبالا حافلا . ما لبث الخلاف أن عاد واشتد فقدم أربعة من فرسان الملك بقتل رئيس الأساقفة في مقره الرسمي . « العرب »

الديكتاتور

من ١٣ يوليو ١٩٢٤ - ١٠ يونيو ١٩٤٠

« ليست الحرية غاية في حد ذاتها ، وإنما هي وسيلة لتحقيق غاية .
وهي كوسيلة ، يجب السيطرة عليها ومراقبتها »

١

أعد موسوليني في صيف عام ١٩٢٣ مشروع قانون عرف فيما بعد باسم « القانون الانتخابي الفج » ، إذ أقر تقسيم إيطاليا إلى خمس عشرة دائرة انتخابية ، يطلب إلى المقترع فيها أن يقترح إلى جانب الحزب الذي يخاره . ونص القانون على أن الحزب الذي يحصل على العدد الأكبر نسبياً من الأصوات ، شريطة أن لا يقل عن ربع مجموع أصوات الناخبين المقترعين ، ينال ثلثي المقاعد في المجلس ، بينما يوزع الثلث الباقي على الأحزاب الأخرى ، على أساس النسبة العددية للأصوات التي حصل كل حزب عليها . وبالرغم من أن هذا المشروع قد لقي معارضة من الاشتراكيين والأحرار (الليبراليين) والكانتوليك على السواء ، إلا أن معظم النواب لم يكونوا قد فقدوا ثقتهم بحكومة موسوليني وكانوا على استعداد لتأييدها ، أوللامتناع عن التصويت على القانون على الأقل . وأقر مجلس النواب ، الذي شهد عدد كبير من ذرى القمصان السوداء جلسته في شهر يوليو من شرفات المجلس ، المشروع بأغلبية كبيرة ، وعاد مجلس الشيوخ فأقره بأغلبية أكبر في شهر نوفمبر . وجرحت الانتخابات في أبريل من السنة التالية ، ومضت جماهير المقترعين إلى صناديق الانتخاب ، تراقبها عيون الحرس الوطني الفاشي (المليشيا) . وكان فشل المعارضة في الاتفاق على سياسة مشتركة ، والرعب الذي نزل بالصحف المعارضة ، السبب في استجابة البلاد للنداء الذي وجهه موسوليني إليها لتأييده في مواصلة العمل الذي شرع فيه ، والذي حقق فيه الكثير ، فانتصر نصراً كبيراً ، ونال حزبه (٦٥,٢٥) في المائة من مجموع الأصوات ، باستثناء تلك التي أعطيت لمرشحي الأقلية الذين أعلنوا عن استعدادهم لتأييد الحكومة . كان النصر طاعياً ، إذ مثل

أكبر أغلبية نالتها أية حكومة إيطالية منذ أيام كافور ، وقد تحقق ، كما ادعى الفاشيون زهواً وخيلاء ، دون أى ضغط أو إكراه ، إلا فى بعض الحالات الشاذة المتفرقة .

وهكذا أكدت الفاشية التى وصلت إلى السلطان عن طريق تهديد القوة ، سلطانها الآن بإرادة الشعب . وأراد موسوليني الذى تعزز مركزه كل التعزيز بهذا النجاح أن يعود إلى الأوضاع السياسية العادية ، بل فكر فى شكل من أشكال التعاون مع الاشتراكيين ، وراح يعلن فى السابع من يونيو بعد أن اقترح المجلس الجديد على الثقة بالحكومة بأغلبية (٣٦١) صوتاً مقابل (١٠٧) ، أنه على استعداد لإدخال عضوين اشتراكيين فى وزارته .

ولم تمض أيام ثلاثة ، حتى كان أحد النواب الاشتراكيين واسمه جياكومو ماتيوقي ، وهو ملاك غنى من روفيجو كان موسوليني يصفه بأنه من أصحاب الملايين ، يخفى من مدينة رومة . وكان هذا النائب من أشد خصوم الفاشية وأكثرهم جرأة ، وكان يعتقد أنه يعتزم نشر بعض الوثائق التى تكشف عن بعض الأعمال اللامستولة ، والوحشية التى قامت بها العصابات الفاشية . وفى الثالث عشر من يونيو ، عثر على جثته مدفونة فى قبر صغير على بعد عشرين كيلومتراً من العاصمة .

ووصل نبأ مصرع الرجل المحترم الشجاع إلى عناوين جميع الصحف فى طول العالم وعرضه . وبينما أشار إليه المدافعون عن الفاشية واصفوه بأنه مهيج « تافه » وشريد ، يعتبر مصرعه على أى حال « حادثاً مؤسفاً » ، راح الأحرار فى كل مكان يتحدثون عنه كبطل من الأبطال ، وشهيد من شهداء الاشتراكية ، سيظل اسمه مع الخالدين إلى الأبد . وهكذا وقعت الواقعة . وظل الناس يذكرون أن موسوليني هو قتله . ولا ريب فى أنه كان قاتله ولكن ليس على النحو الذى يصر خصوم الفاشية على تأكيده . ويعرب كارلو سيلفيستري ، الصحفي الإيطالى المناهض للفاشية والذى اجتمع كثيراً بموسوليني فى الأشهر الأخيرة من حياته ، عن ثقته بأن موسوليني لم يعرف شيئاً عن مؤامرة الاغتيال ، وأنه غير مشغول عنها . واقتنعت السيدة ماتيوقي أرملته الفقيد بأن موسوليني لم يكن على علم بالمؤامرة ،

وأنها أزعجته كل الإزعاج . واتضح في المحاكمة التي جرت في عام ١٩٤٧ ، لإعادة النظر في القضية ومحاكمة الأحياء من المتهمين السابقين ، أن موسوليني لم يكن على علم بالحادث ، وأن القتلة ، وهم من غلاة الفاشيين قد اضطربوا من اتجاه موسوليني الظاهر إلى الإبقاء على الحياة البرلمانية وأرادوا أن يضربوا ماتينيوني ضرباً مبرحاً ، كما كانوا يضربون أنصاره ، ولم يكونوا يعتزمون قتله ، ولكنه مات بين أيديهم متأثراً بسكتة قلبية . وليس ثمة من شك في أن سلوك موسوليني بعد الحادث ، لم يكن سلوك القاتل أو الشريك في القتل . وقد ذكر متبعجاً في سيرة حياته التي كتبها ... « لم أشعر لحظة واحدة بالشك أو بثبوت العزيمة » . لكن الواقع يثبت عكس هذا ، فقد صرم أسابيع عدة في حالة من القلق الذي بلغ حدود الجنون . وكتب مرجريتا سارفاقي تقول ... « وبدأت حياته ، وقد تحطمت كل التحطم » . وظل محتفظاً بشجاعته أمام الناس ، لكن تعاسته في حياته الخاصة ، كانت تستثير الإشفاق . وفي ذات يوم أبلغ سيلفيستري بأنه يفكر في تقديم استقالته . وعندما حاولت إحدى صديقاته التسمية عنه ، مظهرة له عطفها عليه ، انفجر باكياً وهو يقول ... « ما كان في وسع أشد أعدائي خطراً أن يؤذني ، كما فعل أصدقائي » .

وراح النواب الاشتراكيون بعد يومين من اكتشاف الخطة ، ومعهم حلفاؤهم ، بقيادة جيوفاني أميندولد ، الذي قاطع موسوليني وهو في عنفوان ثورته الوحشية الغاضبة ، خطابه الشجاع الأخير ، مديناً عهد موسوليني ، سبعاً وعشرين مرة ، ينسحبون من المجلس ، ليؤلفوا جبهة معارضة حققت درجة كبيرة من التأييد لم يكن أحد يتصوره قبل أسبوع واحد . وقد أطلقت هذه الجبهة على نفسها اسم « نواب أفينينو » نسبة إلى عامة رومة التي انسحبت في أيام رومة القديمة إلى تل أفينتين ، احتجاجاً على طبقة النبلاء ، وأخذت تذكر البلاد بمحملات موسوليني الأخيرة على ماتينيوني ، وبما كتبه حليفته البوبولو ديتاليا قبل أيام قائلة « لو أن رأس ماتينيوني قد تحطم ، فإن السبب في ذلك يرجع إليه وإلى عناده » . وعلقت الجبهة آمالها على أن يقتنع الملك المتخاذل باستخدام نفوذه تأييداً للحكم البرلماني ، وطالبت بوقف جميع أعمال العنف التي يقوم بها الفاشيون ، وبحل الحرس لفاشي . وشرع موسوليني ،

يرى امامه فى كل مساء ، وهو يغادر مكتبه فى قصر شيجى ، متجهاً إلى منزله ، جماعات من الناس ، تقف صامته وكأن على رؤوسها الطير ، تنظر إليه موهجة عاتبة ، بينما ظهرت ألوف المناشير المعادية للفاشية على جدران المنازل فى العاصمة .

واعتقل أربعة من كبار الفاشيين بتهمة الاشتراك فى عملية القتل ، وهم جيوفانى مارينى ، السكرتير الإدارى للحزب ، وفيليبو فيليبى ، رئيس تحرير صحيفة « الكورييرى إيتاليانو » ، وسيزار روسى ، رئيس الدائرة الصحفية الفاشية ، وفيليبو نالدى . لكن الضجة لم تنته عند حد الاعتقال . وبدأت صحف المعارضة التى لم تكن قد انطوت تحت جناح النفوذ الفاشى ، تعلن آراءها جهاراً ، قبل انتهاء الشهر ، وأصدر موسولنى فى الثامن من يوليو مرسوماً ، يحوله وقف أية مطبوعات أو صحف ، تواصل نشر ما يفسر على أنه مادة مهيجة أو مثيرة للاضطراب والعنف . وهكذا تم انتزاع صحيفة كورييرى ديلاسيرا ، الميلانية ، وهى من أكثر الصحف نفوذاً فى إيطاليا ، من صاحبها الشيخ البرتنى المناهض للفاشية ، وسلمت إلى محرر كان على استعداد لتأييد موسولنى . وأرغمت صحف ليبرالية وديمقراطية أخرى ، بينها صحيفة « لاستامبا » ، على التحول إلى ليدى لفاشين ، لكن لإحدى هذه الصحف وقد تمكنت من الإفلات من قبضة الفاشيين مؤقتاً وهى إيليموندو لصاحبها إلمندولا ، راحت تنشر فى نهاية شهر ديسمبر وثيقة كانت نهاية الأشهر الستة من المعارضة القلقة للفاشية . وكانت هذه الوثيقة ، بياناً من سيزار روسى ، الرئيس السابق للدائرة الصحفية الفاشية ، والذي اعتقل بعد حادث القتل ، يتهم موسولنى بالاشتراك فى المؤامرة . وفقد الدوتشى كل أمل فى التفاهم مع الليبراليين . وراح يقبل نصيحة روبرتو فاريناشى الكاتب السابق فى السكك الحديدية والحامى الحديث ، وأحد العنيفين من قادة الفاشية ، وزعماء الفصائل السابقة التى احتشدت الآن فى رومة لدعم ثقة الدوتشى المترعزة ، وراح يعلن فى مجلس النواب ، بعد خمسة أيام من نشر مزاعم روسى ، بأنه قد رفع يديه عن خصومه الشريرين ، رغبة منه فى تهدئة أنصاره الذين نفذ صبرهم . وأضاف أن الوقت قد حان الآن للعمل . ثم قال « وها أنا أعلن أمام هذا المجلس ، وأمام الشعب الإيطالى كله ، بأننى وحيدى الذى أتحمل المسؤولية السياسية والحلقية والتاريخية عن كل ما حدث ، فإذا كانت

الكلمات التي أسيء نقلها كافية لشنق إنسان، فإلى الجحيم إذن بالمشقة والحبل .
 وإذا كانت الفاشية قد تحولت إلى شيء بغض كزيت الخروع ، أو المראה ،
 ولم تعد عاطفة نبيلة زاهية تجيش في صدور خيرة شباب إيطاليا ، فإن اللوم
 يجب أن يقع على وحدي ، لا على غيري . وإذا كانت الفاشية قد تحولت إلى
 مؤامرات إجرامية ، وإذا كان العنف قد نشأ عن أجواء سياسية وتاريخية وخلقية
 معينة ، فإن المسؤولية تقع على وحدي ، لأنني أنا الذي خلقت عامداً متعمداً هذا
 الجو . إن ما تريده إيطاليا هو السلام والهدوء ، والعمل ، والطمأنينة . وسأمنح
 لإيطاليا ما تريده بالحلب إن أمكن ، وبالقوة إذا اقتضى الأمر » .

وكان هذا الخطاب في الثالث من يناير عام ١٩٢٥ ، وهو أحد التواريخ
 الرئيسية في قصة الفاشية وتاريخها .

ولم تعد بعد الآن أية فرصة في تفاهم ، أو أي احتمال في نكوص . وبالرغم
 من أن مصرع ماتيوقي قد أثار موجة واسعة من رد الفعل العنيف ضد الفاشية ،
 في بلاد خاب رجاؤها فجأة ، فإن مصرعه أيضاً قد أظهر مدى ضعف خصوم
 الفاشية ونشتمهم ، وعدم تنظيمهم ، وقلة عدد المستعدين منهم لمقاومتها مقاومة فعالة .
 وتمكن موسوليني في غضون خمس سنوات وبمساعدة روبرتو فاريناتشي ، السكرتير
 العام الجديد للحزب ، من تحقيق هدفه الذي أعلن عنه ، وهو تحويل إيطاليا
 كلها إلى الفاشية . وتعرضت البقية الباقية من الصحف الحرة إما لخطر الإغلاق ،
 أو للتحويل إلى السيطرة الفاشية . وقد بقيت بعض الصحف المستقلة ، ولكنها ظلت
 بلا لون بحيث لا تلقى من الدولة إلا الامتهان ، ولا تلقى من خصوم الدولة
 إلا التجاهل والإهمال . وحلت خبيث أحزاب المعارضة ، وانتهى عهد الانتخابات
 الحرة . ولم يعد مجلس النواب يمثل أكثر من مجرد أداة ، لإلباس المراسيم الفاشية
 هالة من التأييد القوي . وبات مجلس الشيوخ مليئاً بالشيوخ المستعدين لارتداء
 القمصان السوداء إذا ما طلب إليهم ذلك ، وأن يشتركوا في إنشاد الأناشيد الفاشية .
 وقد أدرج المجلس الفاشستي الأعلى ، الذي تولى موسوليني رئاسته ، مع الصلاحيات
 المطلقة لتحديد جدول أعماله ، وتعيين أعضائه ، في الدستور ليكون بمثابة كايح
 للاستقلال الذي قد يبدية أي فرد من أعضاء الوزارة . وحل رؤساء معينون محل

رؤساء المجالس البلدية المنتخبة في نظام أتوقراطي للحكم أخذ يتجه إلى المركزية الشديدة . وحل النشيد الرسمي للحزب الفاشي « جيوفينزا » ، محل النشيد القومي الإيطالي ، في جميع الاستعراضات والحفلات الصاخبة التي كان الدوتشي مولعاً بها ، وذلك لأن الحزب أصبح الآن مرادفاً للدولة . وأعلنت الإضرابات والتوقف عن العمل ، مظاهر لا تتفق مع النظام التعاوني الجديد الذي أدخله موسوليني والذي تميز بالفساد ، بالرغم من وصف موسوليني له بأنه سيكون « المحبس لحضارة القرن العشرين » . وكان من المقرر في ظل هذا النظام التعاوني ، الذي كان دانونزو قد أدخل شكلاً مبسطاً منه في فيوي ، بأن تحل جميع الخلافات العمالية ، عن طريق إحالتها إلى محاكم عمالية ، تكون ملقحة بمحارم الاستئناف ، وتؤلف من ممثلين لأصحاب الأعمال والمستخدمين . ولما كان الحزب هو الذي يعين موظفي جميع الاتحادات النقابية التي تشمل الفئات الاثنتين والعشرين لختلف المهن والحرف ، فإن النظام التعاوني تحول في الوقت المناسب إلى قناع صالح لإخفاء الديكتاتورية وكانت القوانين التي وجهت ضد الماسونية وضد الإيطاليين المناهضين للفاشية ، والذين يعيشون خارج البلاد ، والقوانين التي وسعت من صلاحيات رئيس الحكومة ، أكثر بعداً عن الليبرالية بشكل جلي واضح .

وقد عني بالشبيبة عناية خاصة ، كما هي الحالة في جميع النظم الجماعية . وتقرر إدخال الأطفال من سن الرابعة في منظمات الطفولة الفاشية ، التي كانت تزودهم بمسدسات من اللعب وقمصان سوداء . ولم نثر هذه الإجراءات التي قصدت من كل منها أن يفرض طبيعة فاشية واضحة على الدولة وأنظمتها ومواطنيها ، وأن يضمن على غرار النموذج البلشفي الروسي ، سيطرة الدولة على جميع أجهزة الإعلام ، معارضة كبيرة لدى جماهير الشعب الإيطالي ، التي لم تعترض على عزم الحكومة الذي أعلنت عنه مراراً وتكراراً على التسامح بل الترحيب بالمعارضة المستولدة ، وعلى عدم السماح للمعارضة الشريرة واللاقومية والمثيرة للفتن والمنافقة والمشاغبة . وبالرغم من جماعية هذه القوانين فقد قبلها الشعب ، إذ أنه قبل معظم القوانين الفاشية المعتدلة المبكرة ، كتمن لا بأس به لقيام إيطاليا الجديدة التي كان ظهورها قد بدأ يثير دهشة العالم .

واستقر النقد الإيطالي أخيراً وبعد سنوات من الأزمات الاقتصادية المتكررة . وغدت البلاد تتمتع برخاء كان شاملاً أوروبا بأسرها ، وإن عزى لحجى الفاشية وتصميمها على تحقيق الاكتفاء الذاتي عن طريق الاقتصاد الموجه . وبالرغم من أن موسوليني لم يفهم قط مشاكل الاقتصاد والتجارة ، إلا أنه تقبل بسرعة الفضل في فترة الإبلال الاقتصادي التي كانت قد بدأت في البلاد ، قبل مجيئه إلى الحكم ، تماماً كما سارع فيها بعد إلى تقبل الفضل في إبلال البلاد ، من الأزمة التي كانت سياساته إلى حد ما هي المسؤولة عنها . ولم يبد هذا الفضل في غير موضعه في الظاهر . فقد حمّله تصميمه على تسوية دين البلاد الهائل للولايات المتحدة إلى الإبحار إلى واشنطن ، ومعه وكيل وزارة خارجيته ، دينو جراندي ، حيث عقد اتفاقاً ضمن إجراء تخفيض كبير في الدين الأصلي . وزاح نتيجة تصميمه على كسب ما أسماه « معركة القمح » ، يطوف أرجاء البلاد ، ملقياً الخطب على « الفلاحين الشجعان الذين يحاربون في خط القتال » ، وهكذا راح المحصول يرتفع سنة بعد أخرى . فقد بلغ المحصول في عام ١٩٢٥ نحواً من أربعة وستين مليون قنطار ، مقابل ٤٩ مليوناً في السنوات التي سبقت الحرب . وزاح نتيجة تصميمه على أن يجعل من إيطاليا دولة حديثة وقوية على النحو الذي تصوره ، يضع برنامجاً للأشغال العامة ، لم يسبق له مثيل في أوروبا الحديثة كلها . وأقيمت الجسور والقنوات والطرق ، وشيدت المستشفيات والمدارس ومحطات السكك الحديدية وملاجئ الأيتام ، وجففت المستنقعات ، واستصلحت الأراضي ورويت ، وزرعت الأحراج ، وافتتحت الجامعات . ولم تحل نهاية الثلاثينات حتى كانت مشاريع ضخمة كثيرة قد أكلت ، لا على الأرض الإيطالية وحدها بل في جزيرة صقلية وسردينيا أيضاً ، وكذلك في ألبانيا وإفريقيا ، بينما وضعت الخطط لتنفيذ مشاريع أضخم ، انتهى التفكير في تنفيذها . وكان رجال الإحصاء من الفاشيين يزعمون بأن ما لا يقل عن مائة ألف عامل ، أصبحوا يعملون في الأشغال العامة ، ولم يحل صيف عام ١٩٣٩ ، حتى كان نحو من مائة وسبعين ألف رجل ، يعملون في الطرقات وفي مشاريع الري في ألبانيا وحدها . وقد أنفقت وزارة الأشغال العامة بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٤٢ نحواً من (٣٣,٦٤٣) مليون ليرة إيطالية في

مثل هذه المشاريع . وجرى تمويل أعمال التنقيب عن الآثار في محاولة لتبصير الشعب بذكريات ماضيه المجيد . وتحدث موسوليني إلى مجلس مدينة رومة فقال :.. « يجب أن تبدو هذه المدينة في غضون خمس سنوات ، في منتهى الروعة أمام العالم كله . وأن تغدو عظمة ومنظمة وقوية تماماً كما كانت في أيام الإمبراطورية الأولى في عهد أوغسطس . ويجب تطهير مسرح مارسيلوس وكامبيدوليو والبانثيون من كل ما ظهر حولها إبان عصور الانحطاط . وقبل مرور خمس سنوات ، يجب أن يبدو تل البانثيون واضحاً عبر طريق رئيسي يمتد إليه من ميدان كولونا ... ويجب أن تمتد رومة الثالثة فوق التلال الأخرى على ضفاف النهر المقدس ، لتصل إلى شواطئ البحر التيراني » .

وبالرغم من أن الكثير قد تم تحقيقه ، وهو في منتهى الأهمية والبروز ، إلا أن المنجزات في ميدان الأشغال العامة كما في التنمية الاقتصادية والتصنيع بل في معظم ميادين العمل الفاشي ، كانت أقل من الخطة المقررة . وكان العمل يبدأ ، ثم يتوقف دون أن يكتمل ، وتنفق كميات ضخمة من المال على مشاريع ضخمة لا تتحقق ، أو تتسرب إلى جيوب الموظفين المرتشين والفاشين من ذوي الرتب العالية ، التواقين إلى جمع الثروات قبل أن تتبدل الأوضاع . ولكن وراء هذه الصورة التي أفتن الإعلان عنها من مشاريع التعصير ، والخدمات الاجتماعية ، ما يربو على نصف مليون إنسان لا يزالون يعيشون في فاقة تثير الإشفاق . وكان رجال الشرطة يخلون الشوارع من المسؤولين للإبقاء عليها نظيفة في عيون السائحين ، لكن الفاقة لا تعالج بإخفاها . وخصصت الأوسمة والمساعدات المالية للفلاحين لمساعدتهم في خفض ما تستورده البلاد من الحنطة ، وذلك لضمان النصر في « معركة القمح » . لكن أعمال الزراعة تأثرت تأثراً بالغاً ، بهذا التركيز على الحبوب التي لم تكن في يوم ما من المنتجات الزراعية الاقتصادية في إيطاليا . وهجر الأرض ألوف من صغار المزارعين ومن الفلاحين الساخطين ، بينما لم يتم الحكم بأى إجراء لتوزيع الإقطاعات الزراعية الكبيرة التي كان وجودها مصدراً رئيسياً من مصادر السخط والنقمة . وظلت الأجور وأوضاع العمل في المدن وفي الأرياف على حالها من السوء ، رغم انقضاء السنوات واحدة إثر أخرى ، ولم يصل حدود التحسن فيها

حتى حدود المستويات الحفيضة التي وصلت إليها بلاد أوروبا الغربية .
ومع ذلك فاللوم لم يوجه إلى الدوتشي . وبالرغم من إدراك الناس لما في الفاشية من نقص ، إلا أن مؤسسها كان لا يزال يمثل رجل القدر للشعب الإيطالي .
ومن المحتمل أن يكون قد وجد في إيطاليا في تلك الأيام مناهضون للفاشية ، ولكن لم يكن ثمة إلا عدد قليل للغاية يناهضون موسوليني . فليس ثمة من يسأله أو يحاسبه . وهو لا يبدو ديكتاتوراً فحسب ، بل هو المعبود أو الإله . والناس يقطعون صوره من الصحف ، ويلصقونها على جدران ألوف المنازل ، بينما تكتب عبارات إطرائه ومديحه بالدهان الأبيض في كل مكان . واحتفظ الناس بالأقداح التي شرب بها أثناء جولاته الواسعة ، وبالفؤوس التي استعملها في العمل مع الفلاحين كأثار مقدسة . ووصلت شعبيته إلى آفاق أسمى وأرفع في عام ١٩٢٩ عندما حل تلك المشكلة التي ظلت تجزئ إيطاليا منذ عام ١٨٧٠ ، ووقع مع الفاتيكان الاتفاق الجديد المعروف « بالميثاق الجانبي » . ونسى ناقدوه السابقون من الكاثوليك كل ما سبق له أن قاله من بيانات مناهضة للكنيسة ، وغفروا له هجماته الإلحادية على « المسيح الصغير النافه » ، ورأوا في هذه الاتفاقات بداية علاقات جديدة ومرضية بين الدولة والكنيسة . وسرعان ما غطى الموقف الفاشي الرسمي الجديد الذي يظهر الدوتشي كاثوليكيًا يؤدي واجباته الدينية على موقفه المتلبس السابق من الكتلثة والمسيحية ، الذي كثيراً ما قاده إلى التحدث عن نفسه أحياناً « ككاثوليكي متدين . ومسيحي مخلص » وأحياناً أخرى ، عن نفسه ككافر لا يؤمن بشيء .

ولم يكن في الواقع في أي يوم ، أكثر من كاثوليكي غير مستقر . فهو دائماً كثير الإيمان بالحرافات ، ولا يستحي من الظهور بهذا المظهر . وكثيراً ما شاهده الناس ، وهو يضع يده في جيبه لمسك بها خصيته ، متبعاً التقليد الإيطالي المعروف ، ليقبه ذلك من عين الحسود . وتقول مرجريتا سارفاقي ، إنه كان يؤمن بأشياء في منتهى الغرابة عن القمر « وعن تأثير ضوئه الخافت على الناس والأحداث » ، والخطر من السماح لأشعته بإضاءة وجه الإنسان وهو نائم^(١) . وكان يفخر بقرينته

(١) يبدو أنه ورث اعتقاده بالتأثير الشرير لأشعة القمر عن والده الذي يبدو أنه اعتبرها مسؤولة عن مرض « الحرب » الذي أصابه ذات يوم ، عند ما كان صغيراً في عام ١٩٠٢ . « المؤلف »

على تفسير الأحلام ، والنذر ، وفي قراءة الطوالع عن طريق ورق اللعب « الكوتشينية » كما كان يحب أن يقرأ الآخرون له طالعهم ، في كفه ، أو في غير كفه . وكانت هناك قارئة للطوالع ، تنبأت بمصرع ماتيو في قبل وقوعه ، مما دفع موسوليني إلى الإيمان بها ، وإلى استشارتها دائماً عن طريق رئيس شرطته ، كلما واجه مشكلة يرى من الصعوبة بمكان حلها . وقرأ ذات يوم في صحيفة « التايمز » اللندنية عن الكنوز التي اكتشفت في مقبرة توت عنخ آمون ، وعن لعنة الفراعنة التي تنزل بكل من يزعمهم في سباتهم الأخير ، وسرعان ما هرع إلى الهاتف ، يأمر برفع مرمية كانت قد أهديت إليه ، وكان قد وضعها في صالات دارته ، من مكانها فوراً . وكانت أدرج مكتبه مليئة دائماً بالأحجية السحرية والتعاويد الدينية والرق ، التي كان يتلقاها من المعجيين به ، والتي لم يجرؤ في يوم من الأيام على التخلي عنها . وظل يحمل حتى آخر يوم من حياته ، في عنقه حمالة جلدية ، تضم حجاباً ، كانت أمه قد أعطته إياه ، وقطعة نقدية أثرية كانت الملكة مارجريتا والدة الملك قد طلبت إليه الاحتفاظ بها ليذكرها دائماً ، إذ أنها كانت من أصدق المعجيين به . وكان يقول إن هذه التعاويد تقيه من الموت على أيدي أعدائه .

وجرت المحاولة الأولى من المحاولات الأربع لاغتياله ، في الرابع من نوفمبر عام ١٩٢٥ ، عندما اعتقل النائب الاشتراكي السابق تينو زانبيوني ، الذي وصفه موسوليني بأنه كان مدمناً على المخدرات يعمل لحساب تشيكوسلوفاكيا ، في غرفة في أحد الفنادق القريبة من دارة شيجي ، حيث كان قد اعترم إطلاق النار على الدوتشي وهو يخرج من منزله ليعرض قوة عسكرية . وجرت المحاولة الثانية بعد خمسة أشهر ، عندما أطلقت عليه سيدة إيرلندية تدعى فيوليت جيبسون النار وهو في طريقه لزيارة طرابلس . لكن موسوليني لم يبدأ في أية إجراءات انتقامية إلا بعد المحاولة الرابعة التي جرت في بولونيا في ٣١ أكتوبر ١٩٢٦ ، والتي قام بها صبي ما لبثت الجماهير أن مزقته إرباً ، وإن ظل موسوليني على اعتشاده ببراءة الصبي حتى النهاية . وكان الناس قد أطروا تسامحه في البداية غاية الإطراء ، لكنهم اعتبروا الآن إجراءاته ضد الماسونيين والاشتراكيين عادلة كل العدل وأعجبوا ببسالته وهذوئه في كل حادثة من هذه الحوادث . وعندما أصابت قذيفة الفأة

الإيرلندية طرف أنفه فخلدشته . راح يقول بمنتهى الهدوء ، وذوئ أن يبدو عليه أى أثر لقلق تصوروا تصوروا . . . فتاة تفعل هذا » . وبعد أن أسعفوه بالعلاج ، وربطوا أنفه الجريح ، راح يهتف بمن حوله من الموظفين . . . « إذا تقدمت فاتبعوني . أما إذا تراجعتم فاقتلونى وإذا مت فاثأروا لى » . وتأتى بعد إحدى المحاولات مباشرة زيارة من السفير البريطانى ، الذى كان يجهل أمر المحاولة ، وظل يجهلها مدة طويلة أثناء اجتماعه إليه ، إلى أن تنأته إلى مسامعه عبر النافذة ، أصوات الناس وهم يشكرون الله فى الشوارع على نجاته^(١) .

ووقف سكرتير الحزب ، بخطب الجماهير التى وصل هتافها إلى عذن السماء ويقول . . . « عناية الله تحرس الدوتشى ، فهو أعظم من أنجبته إيطاليا من أبناء . إنه خليفة يوليوس قيصر » .

وردت الجماهير بهزيم كالرعد . . . « يا دوتشى ، يا دوتشى . نحن معك حتى النهاية » .

ومضت الشهور ، وتضاعفت الانتصارات ، وأسقطت النكسات من الحساب ، واستبعدت ، واخترعت الأساطير ونشرت ، وشوهت الحقيقة وخنقت ، وارتفعت صورة الدوتشى كالإنسان الأكمل ، ورجل الخير ، تحلق فى محبة كل لإنسان . أما قلبه وعدم استقراره ، وتصنعه وريائه ، وغروره أمام الجماهير ، وإيمانه الخطر بأنه يستطيع أن يسيطر على كل مشكلة وأن يحلها بسرعة وحزم ودقة ، وطرده المتواصل لوزرائه وسكرتيرى حزبه وكبار موظفيه ، إن ارتقى أى منهم إلى رتبة يصبح فيها منافساً خطراً له ، كما حاول بالبو أن يفعل ذات يوم ، وحقارته التى دفعته ذات يوم إلى أن يصدر أمره إلى الصحفيين الإيطاليين بأن يقاطعوا هيلاسلاسى أثناء إلقائه خطابه فى عصبة الأمم نيابة عن الحبشة بلاده ، وأن يسكتوه ، وتركيزه السلطات فى يديه بحيث بات فى يوم من الأيام ، رئيساً للوزراء ، ووزيراً للخارجية ، ووزيراً للدخالية ، ورئيساً للمجلس الأعلى ، ووزيراً للتعاون . وقائداً أعلى للمليشيا ،

(١) سلك الملك فيكتور عمانوئيل الذى كان لا يقل عنه جرأة وشجاعة ، سلوكاً مماثلاً عند ما حاول شاب اغتياله فى تيرانا (عاصمة ألبانيا) فى عام ١٩٤١ . وراح الملك يقول يهدو إلى رئيس وزراء ألبانيا الذى كان يجلس معه فى نفس العربة . . . « إن الصبي إنسان بائس . أليس كذلك ؟ » « المؤلف »

ووزيراً للبحرية والحربية والطيران ، فكلها أمور كان الناس ينسونها ويغفرونها له ، ولا يتحدثون عنها ، ولا ينشرونها .

وكان هناك المنشقون بالطبع ، والأصوات المعزولة التي تنادى بالحرية والخلاص من هذا الوضع السيئ ، ومن هذا الرخص الفكرى والمادية الضحلة اللذين تتميز بهما الفاشية ، لكن الناس لا يأبهون لهم ، وإنما يقابلونهم بالزراية والاستخفاف . وبدا النجاح ، والاحترام أفضل عند الناس من الحرية السياسية ، وبدأت الأجور المضمونة خيراً عندهم من الحق في الإضراب في أية صناعة فقيرة . وكان عدد أعداء الفاشية الذين يعملون ضد الدولة من خارج إيطاليا أو داخلها ، والذين يتميزون بالذكاء والحرأة من أمثال إجناتزو سيلوني ، صغيراً ، ولم يكونوا يستطيعون التأثير على شعب ، يتعرض للتضليل أكثر من تعرضه للقسر والإكراه ، ويدفعه الخداع إلى الانسجام مع العهد . وكان الفاشيون يقولون إن الحرية لا تعنى شيئاً للفلاح الذى يخشى عودة المجاعة ، أما أولئك المثقفون والكتاب ، وغيرهم من المهيجين السياسيين والاجتماعيين اللذين كان الدوتشى واحداً منهم في يوم من الأيام ، والذين ظلوا يحتجون ويذكرون الشعب بأنحطار الخنوع ، فقد تعرضوا إما للإبعاد أو الخلع من الحرية ، أو استخدمت الرشوة في حملهم على الخضوع ، وعلى تأييد سياسة كان موسوليني يشير إليها دائماً بكثير من الصراحة الشريرة بسياسة «أغصن الزيتون والهاوة» . وكان هناك عدد آخر من الكتاب والفنانين والعلماء آثروا الصمت ، وكان في وسعهم أن يأملوا في أن تنتهى النزعة الاستبدادية ذات يوم ، عندما تنتهى حالة الطوارئ ، أو في أن يتم إصلاح الفاشية من داخلها . وكان في وسعهم أن يشيروا إلى أمد ما بشيء من الرضى إلى الآن المتبع مع المنشقين على الصف الناشئ . وكانوا يقارنون الإبعاد إلى الخارج أو إلى جزر البحر الأبيض المتوسط وقرى كالابريا ، والاعتقال في بعض المعتقلات التي لا تتميز بالسوء ، بما ينتظر المنشقين من موت في غرفة التعذيب أو من أشغال شاقة مؤبدة في معسكرات الاعتقال ، أو من أعمال السخرة سنوات طوالاً في المناجم ، في ظل الديكتاتوريات الأخرى ، الأقل تسامحاً . وكانت الحملات التأديبية التي تشنها العضبات الفاشية المحلية ، والتي لا سيطرة للشرطة عليها ، حيث تقوم هذه

العصابات بإذلال خصومها ، عن طريق إرغامهم على أن يشربوا علناً زيت الخروع . أو يأكلوا الضفادع وهي حية من أبشع الأمور التي تنتفزز منها النفس ، ولكن في الإمكان مقارنتها بالحرية النسبية الممنوحة لبعضاً خصوم الفاشية الجديدة من أمثال بنديتو جروسى . وكانت فرق مكافحة خصوم الفاشية الساهرة (الأوفرا OVRA) ، أقل أذى بكثير من قوة البوليس السرى السوفياتى (الأوجيو OGPU) أو الجستابو في عهد النازية . وكان قائدها أرتورو بوشينى ، رجلاً خبيثاً ، ولكنه لم يكن بالرغم من سمعته السيئة ، رجلاً شريراً . ولم يحل عام ١٩٢٧ ، حتى كان الدوتشى ، وقد وثق من نجاحه ، ووعى كل الوعى الحقيقة الواقعة وهي أن الناس قد نسوا قصة اغتيال ماتيوئى ، قد أصبح قادراً على إبلاغ «مخافظيه» في الأقاليم ، بأنه لم تعد ثمة ضرورة للفصائل الفاشية ، وأن «عهد الانتقام والعنف» قد انتهى .

ولم يكن الظن قد ساور موسولينى في أى يوم ، بأنه رجل ظالم . وقد سأله إميل لودفيج ذات يوم عن تجاربه في السجن ، فقال وهو يحنى جذعه إلى الأمام ، ليقع ضوء المصباح الكهربائى المرتفع على وجهه ، وليتكى بمرفقيه على المائدة ، وذلك شأنه دائماً إذ يحاول إيضاح أمر ، أو سرد قصة . . . «لقد ذقت مرارة السجن في بلاد عدة» . ويمضى لودفيج فيروى قصة هذا الحديث قائلاً . . . «ويكون الدوتشى في مثل هذه الحالات في منتهى الوداعة ، وقد أبرز فكاهة الأسفل ، وانفجرت شفتاه بعض الانفراج ، محاولاً إخفاء مزاجه الهادئ ، وراء تقطيب حاجبيه» . . . وما لبث موسولينى أن قال . . . «أجل لقد ذقت مرارة السجن في بلاد عدة ، إذ سجتى إحدى عشرة مرة . . . وكان السجن يمنحنى دائماً الراحة التي لم أكن أستطيع الحصول عليها في خارجه . . . ولعل هذا هو السبب في عدم حقدى على سجانى . وقد قرأت في إحدى فترات سجنى قصة دون كيشوت ، ووجدت أنها قصة مسلية للغاية» .

وقال لودفيج ساخراً وهو يتشم . . . «ولعل هذا هو السبب في أنك تضع خصومك السياسيين في السجن ؟ ولكن ألا تحملك ذكرياتك المريرة عن السجن على التفكير أحياناً في هذا قبل أن تفعله ؟»

فرد موسوليني قائلا . . . « لا . لا أبداً . فأنا لا أتردد . لقد بدأوا هم بزجى فى السجن ، وها أنا أسد لهم دينهم الآن ، بنفس عملتهم » .

وكان من العسير على المرء أن يصدق ، أن هذا الرجل ، وأقواله على هذا النحو من الزيف والرياء ، كان قادراً على القيام بأعمال القسوة المتطرفة التى تصدر عن الديكتاتور . ولم يكن رجلاً فظيلاً ، كما تقول البيانات عنه . حقاً كان دائماً العبوس ، وكان فى مكتبته أن لا يعرف الصفح والنسيان ، بل كان أحياناً شريراً ، ومتعجرفاً ، ولكنه كان يخفى وراء صورة الطاغية ، والحمود الرخامى الذى كان يحاول أن يظهره فى وجهه الضخم ، كثيراً من العطف والإشفاق . وتروى مرجريتا سارفانى قصة منحه أوسمة « نجمة العمل » ، لى عدد كبير من الرجال الطاعنين فى السن . وكان يبدأ بمعاينة الرجل العجوز الواقف فى أول الصف ولكن لا يكاد يصل آخره ، حتى يكون قد انسجم مع طبيعته وراح يداعب كل واحد أمامه ، ويتحدث إليه بحماسة حتى ليخيل لى من يحدته « أنه وجد فيه أخاً ضالاً » . ويروى ماكارتنى مراسل « التايمز » الهندية فى رومة فى الثلاثينات قصة حادثين آخرين ، وقع فيهما الدوتشى تحت سيطرة عواطفه . وكان الحادث الأول عندما سمع بوفاة أخته ، بعد أن حمل له النبأ الأميرال الكونت كونستاتزو تشيانو والد وزير الخارجية . ونهار موسوليني تمام الانهيار وراح يجھش بالبكاء دون تحفظ على كتف الأميرال . ويقول ماكارتنى إنه انهار أيضاً عندما قدمت إليه « دمية » فى حفلة استقبال أقامها رئيس اتحاد الصحافة الأجنبية للمراسلين الأجانب فى رومة . وكانت الدمية هدية لابنته الصغرى آنا ماريا التى كانت تبلى آنذاك من مرض التهاب النخاع الشوكى الذى توفيت أمه متأثرة منه . . . ويقول مراسل الديلى ميل الذى كان يشهد الحفل . . . « وقد تساقطت العبرات من عينيه وحمل الدمية فى يده لحظة ، وتنحنح وكأنه يعتزم الكلام ، ثم راح يقول بهمسة مغتصبة لى السنهور ألفييري ، وزير الصحافة . . . « لا أستطيع الكلام . أرجو أن تقول شيئاً » . ونحط الدوتشى نحو النافذة ، وقد أدار ظهره للناس ، وراح يتطلع لى الخارج . وبكى مرة ثالثة فى نوبة عنيفة من نوبات الألم ، عندما قتل ولده الثانى برونو فى الحرب . وعندما جاءت أرملته لتسلم المدايلة الذهبية التى منحت لزوجها

في حفل رسمي ، وقد حملت ابنتها مارينا ، حفيدة موسوليني التي مدت ذراعيها إلى جدها ، رأى تشيانو في عينيه « بريقاً » فضح كل ما حاولت إرادته الحديدية إخفاؤه ، وشعر بأنه قريب من قلب حميه وأحزانه .

وكان مولعاً أشد الولع بأطفاله الخمسة . وكان يحب اللعب معهم ، وتعليمهم الألعاب المختلفة . وكانت صوره معهم تظهر بانتظام في الصحف المحلية ، التي لم تكن تعرضه على الشعب كرياضي عظيم فحسب ، وإنما عرضته كفارس من خيرة القربان وطيّار من أمهر الطيارين ، ورب أسرة من خيرة الناس ، بل المثل الرائع لرجل الأسرة في إيطاليا كلها . لكن الناس لم يكونوا يعرفون كثيراً أنه « زير نساء » . وكانت بعض الصحف الأجنبية تنشر أحياناً قصة من قصص مغامراته الغرامية ، ولكن الرأي العام الإيطالي ، ظل يجهل إلى حد غريب ، فجور زعيمه ، الذي كان هو يعمل جهده على إخفاؤه . وكانت من أولى نخبيلاته على سبيل المثال امرأة غريبة الأطوار تكاد تكون مجنونة تدعى إيدا دالسر ، وقد ولدت منه طفلاً ذا عاهة وضعيف العقل ، ظل مصدر إزعاج له مدة طويلة . وعندما قطع موسوليني علاقاته بها بصورة نهائية ، تحولت في ثورتها إلى نمر هائجة ، مما أجبره على حبسها في إحدى المصحات للأمراض العقلية . وكانت تصر على أن موسوليني هو من يهددها منذ عام ١٩١٣ بالزواج منها ، أو أنه كان قد تزوجها فعلاً ، وأنه لا يستطيع شراءها بالراتب الضئيل الذي خصصه لها . ويقول سيزار روسي ، إنها كانت تزوره دائماً في مكتبه في صحيفة البوبولو ديتاليا في ميلان ، وإنما عندما جاءت ذات يوم وقد حملت طفلها في حجرها ، راحت تصرخ مهددة موسوليني بالتزول إليها إذا استطاع ، وأنه مضى إلى النافذة ليهددها بمسدسه . وقد اعتقلت مرة أخرى ، بتهمة إثارة الاضطراب في ترينينو عندما أشعلت النيران في فراش غرفتها في فندق بريستول ، صارخة بصورة جنونية بأنها زوجة الدونشي . وقد ماتت في مستشفى الأمراض العقلية في البندقية في عام ١٩٣٥ ، ومات ولدها بنيتو في مستشفى ممثّل آخر على مقربة من ميلان في عام ١٩٤٢ . لكن الشعب الإيطالي ، باستثناء عدد قليل من الأفراد ، كان يجهل كل هذه الحقائق . وتورط موسوليني بعد موت إيدا دالسر بفضيحة غرامية لم يكن من الممكن إخفاؤها . فقد جاءت لممثلة الفرنسية ماجدة كوداييف

وكان اسمها التمثيلي ، فونتانجيس إلى رومه في عام ١٩٣٧ لتجربى مقابلة باسم صحيفة « ليبرى » مع الدوتشى . وراحت تجهر علناً ، بأنها لن تعود إلى باريس قبل أن تصبح لها علاقة غرامية بالدوتشى . وراحت تزهر فيما بعد قائلة ... « وأقيمت في رومه شهرين . وكنت خليلة الدوتشى فيهما عشرين مرة » . وظهرت أسرار من هذا الطراز وبلغة مكشوفة في الصحافة الأجنبية ، وأبلغ موسوليني دوائر الأمن الإيطالية ، والسفارة الفرنسية في رومه ، بأن إيطاليا لن تقبل الآنسة فونتانجيس في ربوعها . وكان رد فعلها عنيفاً فقد حاولت الانتحار بالسسم ، ثم أطلقت النار على السفير الفرنسى الكونت دى شامبرون وأصابته بجراح ، لأنه كان السبب كما قالت في خسارتها « لحب أعظم رجل في العالم » وعندما اعتقلها رجال الشرطة وجدوا في شقتها أكثر من ثلاثمائة صورة لموسوليني^(١) . وكان الدوتشى في غضون هذه الفترة التي لها فيها بهذه الفتاة الفرنسية ، قد شرع في علاقة عاطفية أشد عمقاً مع امرأة شابة أخرى ، لم يكن يشبع قط منها .

وكانت هذه المرأة هى كلاريتا بيتاتشى ابنة طبيب إيطالى ، وزوجة ضابط بمرتبة ملازم في السلاح الجوى الإيطالى ، وهو الرجل الذى حصلت على طلاقها منه فيما بعد من محكمة مجرية . ويقال إن موسوليني رآها لأول مرة وهو في طريقه إلى أوستيا في عام ١٩٣٢ . فقد كان يجلس في المقعد الخلفى من سيارته « الالفاروميو » عندما مر بها وكانت تلوح بيديها وتهتف « دوتشى دوتشى » . وقد بدت رائعة جميلة في حماسها فاستوقفت أنظاره . وأمر سائقه بالوقوف . وخرج من السيارة متجهاً إليها ، فارتجفت من وقع المفاجأة ، وأحست بشعور طاغ ، كما ذكرت ، وهو يتحدث إليها لأول مرة .

كانت فتاة جميلة ، ذات عينين خضراوين ، وساقين طويلتين وملفوفتين ، وصلبر عامر من الطراز الذى يحبه موسوليني في أية امرأة . وكان في صوتها بحة جنينة . وكانت ملابسها زاهية الألوان بلا ذوق ، بينما سرحت شعرها أيضاً بصورة تافهة . وكانت شقتها العليا قصيرة ، وأسنانها صغيرة ، حتى إذا ما ابتسمت

(١) حكم عليها بالسجن سنة واحدة بتهمة الاعتداء على السفير وإصابته بجراح . كما قضت مدة أخرى في السجن بعد الحرب بتهمة التجسس للمحور ، وقد انتحرت بالسّم في جنيف في عام ١٩٦٠ .

بانت لثمتها، وظلت على هذه الصورة حتى تعلمت الابتسام دون أن تفرق شفتي كثيراً . وكانت كريمة ، وفي عقلها لونة ، كما كانت مغرورة ومشوبة العاط وكثيرة التبلد . وكان إخلاصها لموسوليني كاملاً وقويّاً . وكانت تشكو دائماً ، أوجاع حقيقية ووهية ، وعندما أجهضت ذات مرة ، كادت تموت من التزيف وواظب موسوليني على زيارتها ، فتأثر والدها بإخلاصه الواضح ، وقلقه عليها وإصراره على أن يشهد عملياتها . وكانت تذهب إليه في العادة إلى قصر البندقية وتدخل من باب جانبي . وتستقل المصعد إلى شقة في الطبقة العليا من القصر حيث يوافقها الدوتشي ، ليقضى معها أحياناً بضع دقائق بين مقابلة وأخرى من مقابلات الرسمية .

وكان موسوليني كأي زير نساء آخر ، ميالاً إلى العزلة . ولم يكن له إلا عدد قليل جداً من الأصدقاء . ولم تكن له صلات وثيقة بالناس ، وهي حقيقة كاد دائم الزهو بها . وكان يقول دائماً بشيء من التفاخر . . . « لو أن الأب الأقدس جاءني ليقول إنه صديقي ، لرفضت عرضه مهدداً بقبضة يدي ، ولو أن والدي عاد إلى هذه الحياة ، لما وضعت ثقتي فيه » . وقال ذات يوم بصورة أرق في أخريات أيامه . . . « لم أعرف قط في حياتي دفء الصداقة الحقيقية ، وإن كنت قد أحببت عدداً كبيراً من النساء . ولكنني لا أعني هذا ، وإنما أعني الرابطة القوية التي لا تنفصم والحب الوثيق بين رجلين . ومن المؤسف أنني لم أعرف مثل هذه الرابطة منذ مات أخي أرنالدو » .

وقد مات أرنالدو في ديسمبر عام ١٩٣١ ، وكتب موسوليني تخليداً المذكره ، كتاباً لم يضمه عواطفه تجاه أخيه فحسب ، وإنما ضمّه أيضاً حبه لوالديه ، بكثير من الإخلاص والتأثر . ويتضمن كتابه هذا « حياة مع ساندر وأرنالدو » ، على التقيض من تاريخ حياته الذي كتبه ، ومن الفقرات الواعية الشديدة الإحساس في كتابه الآخر « حديث مع برونو » الذي كتبه بعد موت ولده الثاني في حادث الطائرة في الحرب ، صفحات عدة في منتهى الجمال والروعة . وذكر جيوفاني جنشيل بعد أن قرأ هذه الصفحات التي تحدث فيها موسوليني عن أسرته وعن الريف الجميل الذي عاش فيه ، يقول : « إنه ليس في إمكان طاغية أن يكتب بمثل هذه

الرقعة . وقد يكون في هذا القول الكثير من المبالغة ، ولكنه صحيح إلى حد كبير وفي وسع الإنسان أن يفهمه . فلا ريب في أن موسوليني قد كتب ما كتبه من صميم فؤاده ، إذ أنه كان يفتقر إلى القدرة على تبين الجمال وتذوقه في أي عمل من أعمال الفن .

وتصف مرجريتا سارفاتى ، حادثاً وقع لها عندما كانت في صحبة موسوليني ، وهما ينظران إلى ما في متحف الفاتيكان من طنافس فنية . لم يكن الدوتشى قادراً على تمييز الجمال في هذه الطنافس . فقد ذكرت الكاتبة أنه قال لها . . . « ترى ما الذى تعنيه هذه الطنافس على أى حال ، سوى أنها مجرد أشياء » . وأضافت مرجريتا أن بناء الفاتيكان نفسه لم يكن يؤثر عليه كثيراً ، سوى من ناحية ضخامته . وكان يقول كأى طفل صغير يلج قصراً منيفاً . . . « ما أكثر ما فيه من غرف ، وما أوسعها . كانوا يعرفون في الماضى كيف يبنون » .

ولاحظ هتلر أيضاً افتقار موسوليني إلى تذوق الفنون المنظورة وقد هاله ما رآه على الدوتشى من ضيق وتبرم أثناء الزيارة التى قاما بها معاً لمعرضى بينى وأوفيزى فى فلورنسة فى عام ١٩٣٨ . وعاد الدوتشى فأذهل القوهر من عدم اكتراثه بالصور التى أخذها لمشاهدتها فى مدينة نابولى فى تاريخ لاحق . ويقول هتلر عن هذه القصة . . . « وبعد أن شاهد ثلاث صور ، أحس بالملل والضيق ، ولم يعد فى وسعه أن ينظر إلى صور أخرى . وكانت النتيجة أننى لم أراه بدورى أى صور منها . ولم يكن فى وسع موسوليني أبداً أن يشترك مع الإيطاليين فى زهوهم بتراثهم الفنى ، ولم يستطع فهم ما أثاره تصرف الحكومة الفاشية فى إهدائها تمثال « المنتقم » من صنع ميرون (Myron)^(١) لهتلر عندما أعجب به إبان زيارته لرومة من فرع وسخط . وقد رفض أيضاً أن يحس مع الإيطاليين بالخوف من أن تدمر الطائرات البريطانية والأمريكية بقنابلها ، آثارهم الفنية العظيمة ، أثناء الحرب .

ولكن بالرغم من عدم تأثره بالرسم والنحت ، وجميع الفنون والزواجر الأخرى ، وحبرته فى أمرها ، وبالرغم من أنه كثيراً ما كان ينام فى دار الأوبرا كما ذكر ولده

(١) ميرون نحات إغريقى . عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد على حدود أتيكا . وكانت تماثيله كلها من البرونز تقريباً . ويعتبر تمثال المنتقم من أعظم التماثيل الأثرية لأنه التمثال الحقيقى الذى صنعه ميرون . . . وهناك نسخة فيها بعض الخطأ من نفس التمثال فى المتحف البريطانى .

فيتوريو ظل الأدب يفرض عليه طيلة حياته جاذبية مسيطرة ، كان صادقاً كل الصدق فيها ، مزهواً دائماً بذوقه الأدبي وإن ظل يميل سرّاً إلى قراءة القصص الجنسية الرخيصة^(١) . وكثيراً ما قال في أنخريات أيامه إن مما يؤسسه ويؤله كل الأسى والألم أن الفاشية لم تنجب شاعراً عظيماً واحداً ، أو كاتباً واحداً يستحق القراءة .

وكثيراً ما قال . . . « ما كنت لأشكو ، لو كان هناك كتاب فاشي رائع واحد . ولكن ماذا نجد أمامنا ؟ نجد كتباً تافهة سيئة الكتابة ، تمتلحنى وكم كنت أؤثر لو وجدت كتاباً جيداً يهجونى ويتقلىنى » . وقد يكون موسوليني صادقاً في قوله هذا ، بالرغم من عجائب الرقابة الفاشية التى حظرت كتب روبرت جريفز (Robert Graves) ، وأكسيل مونتي (Axel Munthe) ، وغيرهما ، ومنعها من العرض في المكاتب العامة .

وتحدث ألبرتو مورافيا في مقابلة صحفية أخيرة عن كتابه النقدى المشهور للفاشية « المسخرة » والذي صور فيه كاهرى في عام ١٩٤٠ فقال :

« كنا في غمرة الحرب ، بما حملته من فاشية طاغية ومن رقابة . وكان علينا أن نقدم ما نكتبه من مخطوطات إلى وزارة الثقافة الشعبية للحصول على موافقتها ، وكانت هذه الوزارة مكتظة بمعلمى المدارس الابتدائية الذين يتقاضون ثلاثمائة ليرة عن كل كتاب يرأخونه . وكانوا رغبة منهم في الاحتفاظ بالمظاهر عندما يجدون إلى ذلك سبيلاً ، يصلحون أحياناً أحكاماً سلبية . وقد قدمت ذات يوم مخطوطة إلى الوزارة ، ولكن الذين قرأوها في البداية عزفوا عن اتخاذ قرار بصددتها ، فأحالوها إلى مساعد وكيل الوزارة . وتعرض المساعد لامتحان عسير أمام ضميمه ، فأحالها إلى الوكيل

(١) لا شك في أن إيجنازيو سيلوني يعارض في هذا الرأى بالطبع . فهو في كتابه الرائع والمعادى للفاشية - « مدرسة الديكتاتوريين » - يرمم صورة أحد الأبطال معلقاً على ما قاله موسوليني من أن والده كان يتلو على مسامعه كل مساء بيت ، من كتاب الأمير لكيافل بقوله . . . « لعل معرفتنا بوالده موسوليني تجعلنا نرى أن آخر شيء يمكن أن نصنعه هو أنه كان قادراً على أن يتلو أى شيء على مسامع لى إنسان مساء يوم السبت . وكان هدف موسوليني الوحيد من نشر مثل هذه القصص أن يترك أنطباعاً حسناً عند سامعيه . ولعل جل ما استطاع أن يفعله موسوليني طيلة حياته كلها أنه كان لا يقرأ ، إلا الصحف . ولكنه كصحن موهوب ، كان قادراً على أن يتحدث وأن يكتب بشيء من الغرور عن كل شيء ، حتى عن الأمور التى كان لا يعرف شيئاً عنها .

« المؤلف »

للخلاص من هذا الامتحان ، الذى أحالها بدوره إلى الوزير ووصلت المخطوطة أخيراً إلى موسوليني .

وسأل الصحفي مورافيا : « إذن أفترض أنك تعرضت إلى التحقيق . ؟ »
- لا ، أبداً . فقد أمر موسوليني بطباعة الكتاب .

- حقاً !!

- أجل ، إنه لم يكن رجلاً سيئاً .

- سننشر هذا الحديث في الخارج ، حيث ينظر إلى موسوليني بمنظار آخر .

- ولكننا نفهم حقيقة موسوليني أكثر من غيرنا ، وآمل أن لا يستنتج الناس من هذا أننا من الفاشيين . ولعل أسوأ أخطائه ، جهله المعيب بالشؤون الخارجية . ولو كانت له سياسة خارجية ذكية كسياسته الداخلية ، لظل على الغالب في مكانه حتى اليوم .

٣

بالرغم من أن من الشائع اتهام المخالفين للعهد الاشتراكي الوطني في ألمانيا بالاشتراك في أعمال هذا العهد ، إلا أن الدولة الفاشية في إيطاليا كانت في نهاية عام ١٩٣٦ ، قد غدت المكان الذى بات الانحراف فيه عن المبادئ الفاشية أمراً مألوفاً . وقد بذلت محاولات ضخمة ومتعبة وسخيفة أحياناً لإرغام الإيطاليين على الارتفاع إلى المثل الفاشية في النظام والواجب ، وفرض سلوك يتميز بالصرامة والفردية عليهم ، رغم غرابته على طبيعتهم ، وعدم انسجامه مع الشعائر الفاشي المبكر . . « أنا لا أكره قيد شعرة » . وكان الدوتشى لا يمل من تكرار القول ، بأن الوقت قد حان لأن تجعل الفاشية مسئوليتها التاريخية والتقليدية ، المراعاة الدقيقة الصارمة للنظام الفاشي ، كما أن واجب الفاشي أن يقدم المثل الذى يحث على الكفاية ، والحزم في العمل ، واللبنامية ، بدلا مما تميزت به الحياة الإيطالية قبل الفاشية من تراخ ، وكسل ، وخلافاً للحياة في الديمقراطيات الغربية التي يصورها موسوليني بالترهل والاسترخاء ، والتقليد والبورجوازية ، والانحلال . ولم تكن أقوال الفاشية من أمثال . . . « عش حياة خطيرة » ، و « انظر إلى الحياة نظرة جديدة » ،

مجرد شعارات ، وإنما كانت خصائص جوهرية في العقيدة الفاشية . وكان موسوليني مولعاً دائماً بأن يقول . . . « لقد تحول الثوريون في البلاد الأخرى بصورة متدرجة إلى مواد عين هادئين ، لكننا هنا في إيطاليا ، نزداد يوماً بعد آخر ، تطرفاً وعناداً وإصراراً » .

وكان عى الفاشي أن يحذر دائماً من خطر الاسترخاء والعودة إلى عادات الماضي المتكاسلة من معنوية وخلقية . وعليه أن يكون « رجل عهد موسوليني الحديد » ، مثقده الحيوية والنشاط ، حازماً في قراره ، مخلصاً في ولائه ، قادراً على التخلي عن ملذاته ، وعلى إذابة شخصيته في خدمة المثل العليا الصارمة للأخلاق الفاشية . وكان موسوليني يقول . . . « نحن المدافعون عن الأهمية الجماعية للحياة ، ونحن نريد تنمية هذا الاتجاه على حساب الفردية (individualism) . وكان على الأعضاء المسجلين في الحزب ، والذي بلغوا في مارس عام ١٩٣٧ ، أكثر من مليونين ، في سبيل تحقيق هذا الهدف ، أن يضعوا معياراً متزمتاً للسلوك ، يتحتم على جميع الإيطاليين السير بموجبه .

وقد أطلق على السنوات الخمس التي سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية اسم « حقبة ستراشي » ، نسبة إلى الجهود المتكررة التي ظل يبذلها سكرتير الحزب ، أنجيل ستراشي ، لصب الإيطاليين جميعاً في قالب الطاعة بحيث يكونون كالإسبارطيين في حمل الشعارات والمثل الموسولينية . وكان ستراشي هذا مطيعاً للدوتشي طاعة عمياء ومتفانية في الإخلاص ، يفتقر إلى سعة الأفق والدكاء ، ومكروهاً ، بصورة خاصة من أبناء الشمال ، لأنه جنوبي جاهل وتافه ، من ذلك الطراز من الموظفين الذين كان موسوليني يحب دائماً أن يعهد إليهم بمراكز المسؤولية في السلم الفاشي . وذكر تشيانو في يومياته ، أنه لم تحل نهاية الثلاثينات حتى ظهرت موجة شعبية عارمة من السخط على القيود التافهة التي فرضها سكرتير الحزب . وقد اقرنف هذا الرجل الخطأين الكبيرين والخطيرين اللذين يمكن للإنسان أن يقرنهما عندما يتعامل مع الشعب الإيطالي . فقد خلق جواً من الإرهاب ، وأزعج الإيطاليين بألوف المسائل الصغيرة التافهة ذات الطابع الشخصي . فالإيطاليون يحبون من يحكمهم أن يحكموا حكماً عاطفياً . وقد يغفرون لحاكم إذا أساء إليهم ، ولكنهم

لا يغفرون له أن ينكد عليهم عيشهم» .

وكان ستراشى . مكروهاً من جميع مواطنيه ، محترقاً منهم ، لأسباب عدة منها حبه للمظاهر والأوسمة ، وإصراره على أن تحل التحية الرومانية القديمة محل المصافحة باليد ، وإخلاصه للشعارات ونفاقه المثلث الواضح فى تبئ كل ما يصدر عن الدوتشى من فكر أو رأى . وعندما تبئ موسولبنى فى عام ١٩٣٨ آراء برونو سيكورجنانى (Bruno Cicognani) ، الذى كان قد كتب مقالاً فى صحيفة الكورييرى ديلا سيرا ، يهاجم فيه الاستعمال المضحك للضمير « أنت » الشائع (Lei) فى الأحاديث المهدبة ، كضمير للمخاطب فى الكلام مما يتعارض مع التقاليد الأدبية الإيطالية القديمة والجيدة ، ويتنافى مع الكرامة الشخصية ، بادر ستراشى إلى تبئ الحملة ، ضد هذا « الضمير » بعنف شديد ، وأصدر منشورات حزبية يطلب فيها على الفور وبصورة إلزامية استعمال الضمير القديم « أنت » (Voi) بدلاً من ذلك « الضمير » المألوف . ولا ريب فى أن حملاته المفرطة والعنيفة على هذا الضمير ، عمقت مشاعر الازدراء التى يحملها له الشعب الإيطالى . ودفعت خصوم العهد إلى الإصرار على استخدامه دائماً كرمز على تحديهم للعهد الفاشى . وراح بنديتو جروش ، الذى تحول الآن إلى خصم قوى ومكشوف للفاشية يستعمل الضمير المألوف فى أحاديثه مع أسرته وأصدقائه بدلاً من الضمير التقليدى ، الذى كان دائماً الاستعمال له من قبل . وكثيراً ما خرج ستراشى على حدود المألوف ، وحدود ما يرضى به موسولبنى ، كمحاولته مرة ، فرض قاعدة معينة ، وهى إنهاء جميع المراسلات الرسمية بعبارة « عاش الدوتشى » . وسمع موسولبنى لأول مرة بهذه القاعدة الجديدة ، عندما رآها منشورة فى الصحف كأمر من الحزب ، وراح يستدعى سكرتير الحزب إلى حضرته وهو فى ثورة غضبه . وعندما دخل ستراشى مكتب الدوتشى ، راح موسولبنى يملأ على سكرتيته أمامه قائلاً . . . « سيدنى . . . أبعث إليك بهذه الرسالة لأبلغك أن ولدك العريف فى كتيبنا ، قد سقط عن جواده ، وتبشم رأسه . عاش الدوتشى » . . . « وسيدى العزيز . . . نبعث إليك بهذه الرسالة لنبلغك أن الرغبة فى التخفيض فى عدد الموظفين فى الشهر القادم ستؤدى إلى فصلك من وظيفتك . عاش الدوتشى » . ومضى موسولبنى يملأ مجموعة

من أمثال هذه الرسائل الوهمية قبل أن يستدير غاضباً إلى ستراشي . ليطرده من حضرته ، متهماً إياه في سورة غضبه ، بأنه قد نجح في أن يجعل من الدوتشي أضحوكة في طول إيطاليا وعرضها .

وكان ستراشي كسكرتير للحزب مسئولاً أيضاً عن التدخل المتزايد للأفكار والعقيدة الفاشية في الرياضة ، مما أدى إلى أن تصبح احتكاراً للدولة ، تمارس عليها دوائر الدعاية في الدولة لإشرافها السخيف النموذجي ، كأن تقرر مثلاً أن يرتدى فريق التنس اللولى الإيطالى القمصان السوداء ، وأن يرفض أفرادها مصافحة من يلعبون معهم مكتفين بالتحية الرومانية ، وأن تمنع الصحف مثلاً من نشر صورة بطل الملاكمة الإيطالى ، بريموا كاونيرا ، وهو يهزم في الحلقة في مباراة البطولة العالمية . ومع أن المنظمة التى حملت اسم «بعده العمل» (Dopolavoro) ، قد عملت الكثير لتأمين الألعاب المسلية والرخيصة للعمال ، وامتاعهم بعبط وأجازات لا تكلفهم كثيراً ، إلا أن هؤلاء العمال ، غضبوا من الإصرار على «الطراز الفاشي» في الرياضة ولألعاب التسلية ، واعتبروه تدخلاً فيه الكثير من الادعاء والتظاهر . وكان النظام الذى أدخل وبات يسمى «بالسبت الفاشي» كالعطلة الأسبوعية التى حلت محل «نهاية الأسبوع» وكل ما انطوى عليه هذا النظام من مظاهر «بث روح الثورة» ، نموذجاً لهذه الحقيقة . وكان يطلب إلى العمال والكتاب سواء أكانوا في خدمة الحكومة أم لا ، أن يقضوا أوقات بعد الظهر يلعبون الألعاب ، أو يشتركون في الفارين العسكرية والاستعراضات . أو يحضرون بعض الندوات والمناقشات السياسية .

وقد كتب مؤرخا العهد الفاشي لويجي سلفاتوريللى وجيوفانى ميرا في كتابهما «تاريخ إيطاليا في العهد الفاشي» يقولان إن . . .

«الميل الطبيعية للشعب والمقاومة السلبية التى أبدىها ، هبطت بالبرنامج الفاشي إلى الحد الأدنى ، وبات «السبت الفاشي» في النهاية مجرد وقت للراحة والمتعة ، أى كالسبت الإنجليزى . ولم تظهر المقاومة للانضباط الستراشي في هذه الصورة وحدها . . . فالتباين المقبول بين ما هو مطلوب ، وبين ما هو واقع ، أو بين النظرية والتطبيق وبين المظهر والواقع في ميدان الانضباط الفاشي ، أسهم من ناحية

في حماية الإيطاليين من الاستعباد المطلق والانحلال الروحي ، كما خلق من الناحية الأخرى ، تلك النزعة لاحترام القانون ، وعدم التظلم من الأنظمة ، وذلك الافتقار إلى الضمير الاجتماعي ، وهي جميعها عيوب كانت وما زالت خطيرة في الشخصية القومية . على أي حال ليست هذه هي أقل التهم التي توجه إلى العهد الفاشي أهمية » .

وكان ليتالو بالبو ، أذكي الأربعة من أعضاء مجلس الأربعة ، والذي كان مسؤولي يخنق من شعبيته ويثور على انتقاداته العلنية ، ولذا فقد بعث به الدوتشي ليكون حاكماً عاماً في ليبيا . ولم يكن هذا الرجل يجهل هذه الحقيقة ، إذ أنه قال في صيف عام ١٩٣٨ . . . لم يعد هناك مع الأسف طعم للإخلاص في إيطاليا .

القسم الثاني

الإمبراطورية والمحور

الدبلوماسية

٢٨ أكتوبر ١٩٢٢ - ٢٠ يونيو ١٩٤٠

« حل الألمان أن يسمحوا لي بتوجيههم ، إذا أرادوا تجنب الأخطاء
التي لا تقتصر . وليس نعمة من يشك في أنني أكثر ذكاء ودهاء من هتلر
في الشؤون السياسية »

« كان من رأيي دائماً ، أنني وقد حطمت كبرياء البلشفة ، يجب أن تغدو
الفاشية الحارس الأمين لسياستنا الخارجية » . . . هذه هي العبارة التي صدرت عن
موسوليني قبل لشروع في الزحف على رومة . ولعل هذا الوعد الذي كان يكثر
من ترداده ، هو الذي دعاه إلى أن يحاول قيادة إيطاليا إلى مركز أكثر احتراماً
في أوروبا ، وإلى أن يحظى بتأييد قوى من جانب الشباب في بلاده . فقد راح
في أول خطاب ألقاه في مجلس النواب بعد انتخابه نائباً ، يعرب عن تطلعاتهم
الملحة ، وقد لقي التشجيع في موقفه هذا مما دعاه إلى اتخاذ موقف التحدي .
الذي أوصل البلاد إلى شفير الحرب في غضون سنة واحدة من توليه الحكم .
في السابع والعشرين من أغسطس عام ١٩٢٣ ، اغتال بعض اليونانيين
الجنرال الإيطالي إينريكو تيليني ، رئيس اللجنة الدولية لتخطيط الحدود بين ألبانيا
واليونان مع ثلاثة من الجنود الإيطاليين ، لانتهاكه بمبالاة المطالب الألبانية . ولم
يمض يومان حتى كانت إيطاليا توجه إلى اليونان إنذاراً نهائياً مطالبة بتعويض قدره
خمسون مليون ليرة إيطالية . وعندما أنكرت اليونان مسئوليتها عن الحادث ، أرسل
موسوليني الأسطول الإيطالي إلى جزيرة كورفو فاحتلها . واشتكت اليونان في الأول
من سبتمبر إلى عصبة الأمم ، وكان رد إيطاليا الإصرار على أن العصبة لا تملك
الصلاحية في معالجة القضية . وسرعان ما تعرضت اليونان للضغط الشديد لتلبية
مطالب إيطاليا ، ودفع التعويضات الكاملة وجلا الإيطاليين عن كورفو .

وأفزع الحرب الوشيكة موسوليني . وبالرغم من أنه لم يعترف بهذه الحقيقة إلا بعد سنوات طويلة ، إلا أنه راح منذ ذلك الحداث ، يسير بمنتهى الحذر والحيلة في سياساته الخارجية وفي هذا الميدان الخطر من سياسات القوة . وبدا في الواقع في السنوات العشر الأولى من حكمه ، وكأن لا مطمح له في أوروبا وأفريقيا ، وكان قانعاً بأن ينفق كل طاقاته في الرفع من شأن دولته الفاشية وتعزيز الرخاء فيها . وقد بدا في الحالات القليلة التي ظهر فيها خارج إيطاليا ، في أوزان وفي لندن أثناء مؤتمرات عام ١٩٢٢ ، وفي لوكارنو في ديسمبر عام ١٩٢٥ ، ليوقع نيابة عن إيطاليا المعاهدة المشهورة بهذا الاسم ، برباط عنقه الذي يجعله على شكل الفراشة ، وبخدائه المغطى بالقماش ، وقبعته العالية ، وقفازيه الأبيضين ، وسرواله التي يتقصه الكي ، شخصاً يختلف كل الاختلاف عن صورة ذلك الثوري العنيف الذي كان يرسمه فيها الصحفيون الأجانب . وكان الناس يدهشون من ضآلة جسمه ، إذ لم يعد طوله خمس أقدام وست بوصات ، وبما يبدو في ابتسامته غير المتوقعة من دفة . ولم يكن ثمة ما يدعو أحدهم إلى الفرع منه . وقد علق اللورد كيرزون على شكله بشيء من الازدراء الأرستقراطي قائلاً . . . « حقاً إنه شخص غريب ^(١) » .

وبدت آراؤه معقولة ، بل أكثر انطباقاً على العقل في الواقع من تلك التي كان يحملها كثيرون من ساسة أوروبا في عهده ، وكانت الخطب التي يعرض فيها هذه الآراء إذا ما قورنت بانفعجاراته اللاحقة ، من النوع الإيجابي المودعة والتوفيق . وأقام الدليل على تسامحه الواضح ، بتلك السلسلة من الاتفاقات التي عقدها مع يوجوسلافيا ، والتي كانت من ناحية المصلحة الإيطالية ، أقل بكثير مما كان يتوقعه الكثيرون من القوميين الإيطاليين . ولما كان قد رأى في « المراجعة » فرصة لاستغلال ما تحس به أوروبا من مرارات هي في صالح إيطاليا ، فقد واصل الحث على ضرورة تعديل معاهدة فرساي وراح في عام ١٩٢٦ يقول . . . « ستؤدي هذه السخافة المسماة بفرساي ، لا إلى الثورة في ألمانيا في يوم ما ، بل إلى الحرب في أوروبا أيضاً » . وقد أعاد هذا الإنذار المرة تلو المرة . وبالرغم من استمراره

(١) أحد موسوليني الإهانة لكيرزون . فقد كره كيرزون ، ولندن معه ، لأنها بدت في عينه حاشدة بالناس من أمثال كيرزون ، وقد قرر بعد زيارته القصيرة للندن أن العاصمة البريطانية تمثل كابوساً لكل من يفد إليها من إيطاليا . وأعرب عن أمله في أن لا يزورها مرة ثانية . « المؤلف »

في الإخلاص لحلفاء إيطاليا في الحرب ، ومن تأييده لهم عامة في جهودهم للعثور على حلول سلمية لمشاكل أوروبا ، فإنه لم يستطع الموافقة دائماً ، على أن حلفاءه يعالجون هذه المشاكل بطريق واقعي ، ولذا فقد دأب دائماً على السير على سياسة مستقلة بل مناقضة لسياساتهم أحياناً ، متابعاً كما قال اللورد هاليفاكس^(١) ، فيما بعد « الدور التقليدي لإيطاليا في الموازنة بين ألمانيا والدول الغربية » . ووقف إلى جانب تلك البلاد التي أحس بأنها عوملت معاملة خطيرة وبحققة في معاهدة فرساي ، وراح يلحف على وجوب اتخاذ مواقف أكثر عملية وعطفاً من مشاكل أعداء إيطاليا السابقين ، ويطلب بصورة خاصة ، أن تتخذ فرنسا موقفاً أكثر واقعية ، ولا سيما أنه لم يستطع أن ينسى قط معارضتها لطلباته في مؤتمر لندن في عام ١٩٣٠ ، لتكون لإيطاليا المساواة البحرية مع فرنسا . واقترح في عام ١٩٣٣ ، عقد ميثاق رباعي يضم فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وألمانيا ، آملاً في أن تؤدي « إعادة النظر السلمية » عن طريق قيام إيطاليا وبريطانيا بدور الوسيط بين فرنسا وألمانيا ، إلى وضع أفضل تستطيع إيطاليا عن طريقه الاستفادة من حركة بعث ألمانيا في الحصول على تنازلات جديدة من فرنسا . لكن الفرنسيين وقد شكوا في حوافزه ، وقفوا موقف التحفظ من اقتراحه ، ثم أقنعتهم الأحداث التي وقعت في النمسا في العام التالي ، بأن الفرصة في تحسين مركز إيطاليا في أوروبا عن طريق العطف على مطالب ألمانيا المشروعة قد ولت وانتهت . وكان ما يراد الآن ، كما يعتقد اتخاذ موقف صلب من الأطماع المتزايدة لهذه الدولة التي بدأت تدرك أن في وسعها أن تأخذ كل ما تريده ، رغم إنكار جاراتها المعاديات لها عليها ذلك .

وسرعان ما عدل موسوليني سياسته التي تدعو إلى قيام جبهة قوية مناهضة لألمانيا ، وما أعقب هذه السياسة من توثيق لعلاقاته بفرنسا وبريطانيا ، تعديلاً جذرياً ووقع في نهاية عام ١٩٣٤ ، صدام بين الجنود الإيطاليين والأحباش على الحدود بين الحبشة والصومال الإيطالي . ولم تمض عشرة أشهر انصرمت في التأهب والشائعات والتهديد والوعيد والإنذارات والتردد حتى كانت إيطاليا تغزو الحبشة في أكتوبر

(١) اللورد هاليفاكس ، كان وزيراً لخارجية بريطانيا مدة طويلة في عهد حكومة تشمبرلين قبيل الحرب العالمية الثانية وبعد نشوبها ثم في وزارة تشرشل ، وعين في عام ١٩٤١ سفيراً في واشنطن حيث ظل هناك حتى توفي بعد بضع سنوات .
« العرب »

عام ١٩٣٥ . ولم يكن الصدام الذي وقع على آبار « وال وال » بالطبع إلا الدريعة الظاهرية . فقد ركز موسوليني نظره على هذه البلاد الوحيدة التي لم تستعمر حتى تلك اللحظة في أفريقيا منذ أمد طويل ، ويقول الجنرال دي بونو إن « وسواي » قرر غزوها منذ عام ١٩٣٢ . وبالرغم من خوفه منذ البداية من تدخل بريطانيا لمنعه من تحقيق غايته . فإن دينو جراندي ، سفيره الآن في لندن ، راح يبلغه أنه علم من خصوم ليندن في الوزارة البريطانية أن بريطانيا لن تحارب دفاعاً عن الحبشة . وسرعان ما تأكد من هذا النبأ من رسالة حصلت عليها المخابرات الإيطالية . وأمل هتلر في أن يؤدي انشغال إيطاليا في أفريقيا إلى تحقيق مطامعه هو في النمسا ، فراح يشجع موسوليني على القيام بمغامرته .

وسمع العالم بأسره بقصص الأحباش العزل من السلاح الذين تحصدهم مدافع الإيطاليين الرشاشة ، وتخلفهم غازاته السامة التي سلطها عليهم ، فاشتد سخطه وغضبه . لكن هذه الأمور فسرت للإيطاليين في صورة أخرى . وعندما انتهت الحملة السريعة القصيرة ، كان موسوليني قد وصل إلى ذروة شعبيته وسلطانه في بلاده .

فقد تحدى العالم بأسره وانتصر في تحديه . ومثل انتصاره لكثيرين من الإيطاليين مكافأة عادلة ، كما مثل تحديه للعالم ، موقفاً كريماً ، وشريفاً ، وذلك لأنهم لم يروا في عزمه على إقامة إمبراطورية في أفريقيا عملاً من أعمال الوحشية والسطو . وكان البريطانيون والفرنسيون قد بنوا إمبراطوريتهم بنفس السبل والوسائل ، ولكن بحماية الاتفاقات الدولية ، ولذا لم يكن لهما حتى في هذا الرياء الزائف في استنكار الطلبات المشروعة لدولة أوربية أخرى تكاد تموت اختناقاً ، وتطلب فراغاً لإيواء عدد متزايد من السكان . وكانت بريطانيا وفرنسا تحتججان باسم الإنسانية ، لكن عداهما كان نابعاً في الواقع عن رغبتهما في الإبقاء على إيطاليا بعيدة عن أفريقيا ، وعن تصميمهما على حرمانها من المنفذ الاقتصادي ، ومن إمكان التوسع الإقليمي . وكان من السخف في رأى الإيطاليين التحدث عن الحبشة كدولة مستقلة ذات سيادة ، إذ أنها لم تكن في الواقع أكثر من مجرد مجتمع لقبائل مختلفة الجنس والعنصر ، يسيطر عليها عدد من الشيوخ القبليين البدائيين ،

وفي مقدمتهم هيلاسلاسى ، الذين لا يحترمون خصوم إيطاليا وأعدائها ، إلا لأنهم يعتنقون مذهباً من مذاهب المسيحية . وكان من السخف أيضاً إنكار الحقيقة الواقعة ، وهى أن نفوذ إيطاليا فى الحبشة سيكون نفوذاً طيباً . وكانت بريطانيا نفسها قد اعترضت على قبول هذا « الدولة المتوحشة » عضواً فى عصبة الأمم ، عندما اقترحت إيطاليا إشراكها فيها لمنع بريطانيا من التدخل فى شؤونها . وسرّدى غزو إيطاليا لها إلى وقف الحروب الداخلية وتجارة الرقيق ، كما سينم الشعب بالفوائد الاجتماعية العظيمة^(١) . وكانت التهمة التى نشرتها بريطانيا وفرنسا على نطاق واسع من أن الجيش الإيطالى قد استخدم الغازات السامة فى قتل الألوف من الإفريقيين الأبرياء ، فى نظر الإيطاليين مجرد دعاية شريرة ليس إلا . وكانت الغازات المسيلة للدموع هى الغازات الوحيدة التى استعملت ، بالإضافة إلى « غاز الخردل » الذى لا يمت ولا يصيب بعاهات دائمة . أو لم يجد برنارد شونفيس مبررات لاستخدام هذه الغازات ؟ وكان الدوتشى نفسه قد قال لأحد الصحفيين الإنجليز : « إذا أردتم الحديث عن الفظائع ، فسأريك صوراً لما فعله الأحباش بجنودنا ، وهى فى منتهى البشاعة ، بحيث تشتمر أية صحيفة من نشرها . ونحن لم نستخدم قط سحب الغازات التى استخدمت فى الحرب الكبرى ، أما غازات الخردل ، التى كنا نقذف بقنابلها فى لشقوف والوهاد الجبلية التى كان الأحباش يزحفون إليها لمهاجمة رتل إيطالى معزول ، فلم تكن فى الواقع إلا إجراء إنسانياً للحيلولة دون ضياع أرواح أخرى » .

وهكذا كانت ضماير الإيطاليين مستريحة لما تفعله حكومتهم . ولم يكونوا قد أحسوا بالحاجة الماسة إلى الإمبراطورية كما أحس بها اللوتشى ، ولذا لم تكن حماسهم شديدة لضمان وجودها عن طريق القوة . وقد تحدث كثيرون من الفاشيين القنّاديين

(١) لم تكن هذه الادعاءات الإيطالية وما شابهها من أقوال جديدة على الاستعمار العالمى . فقد استخدم الاستعماران البريطانى وفرنسى أمثالها فى تبرير استعمارهما للقارتين الأفريقية والآسيوية ، كما بلغت إليها الدول الاستعمارية الأخرى كإسبانيا والبرتغال وهولندا وبلجيكا ، والشعوب المستعمرة لا تستحق الحياة الحرة لأنها متأخرة ، وعلى « الرجل الأبيض » أن يودى رسالته « المزعومة » فى نشر الحضارة التى لم تكن فى الواقع إلا استغلال ثروات هذه البلاد واستعباد أهلها ، وتسخيرها فى خدمة البلد الاستعمارى وضمان رخائه وازدهاره .

« المغرب »

إلى الأمير ستارهمبرج نائب مستشار النمسا ، وقائد جيشها ، وكان صديقاً شخصياً لموسوليني ، فبينوا له معارضتهم للحرب الحبشية ، ولم يكونوا يوافقون الدوتشى في إيمانه بأن الفاشية ستعزز في الداخل وعلى المسرح الدولى ، بعرض من عروض القوة ، وأن هذا العرض يفرض من الاحترام أكثر مما تفرضه أية مناورات سياسية مهما كانت ناجحة ؛ ولم يبينوا أيضاً ، افتراض الدوتشى العاطفى بأن سلطة إيطاليا في أوروبا « وتقدم الخلق الفاشى المقبل ، يتطلب الثأر من معركة عدوة » ، وهى المعركة التى هزم الأحباش فيها ، قبل نحو من أربعين عاماً ، الإيطاليين هزيمة منكرة ومذلة ، أضحكت العالم بأسره على إيطاليا .

أما الآن فقد ثبت بطلان هذه التحفظات ، وأخرست الأصوات المطالبة بالحد من وضبط النفس . وكان موسوليني قد أعلن قبل بضعة سنوات . . . « أن هدفى فى منتهى البساطة ، فأنا أريد العظمة لإيطاليا ، وأريد من الدول الأخرى أن تحترمها وأن تخافها » . ولم يعد فى وسع الإيطاليين أن ينكروا أنه حقق هذه الغاية . وكان هناك بالطبع بعض الإيطاليين الذين شكوا فى أن يكون عمل إيطاليا متفقاً مع « أخلاق » القرن العشرين ، والذين خافوا من أن تكون غيرة موسوليني من نجاح هتلر المتزايد فى أوروبا ، ورغبته فى أن يظهر أن إيطاليا ، دولة قوية أيضاً ، هما السبب فيما حدث . ومع ذلك فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الإعجاب بالسرعة التى انتهت فيها حملة الحبشة خلافاً لتوقعات الخبراء العسكريين فى لندن ورومة ، وهى سرعة يرجع الفضل فيها إلى الدوتشى وحده ، ملاحظين ، وكأن ملاحظتهم هذه مدعاة للتبجح والزهو ، بأنه ظل يمطر قائده فى الميدان بتعليقاته المستمرة ، التى وصلت فى بعض الأيام ، إلى أكثر من مائة برقية عاجلة ، تعالج كل ناحية محتملة من نواحي العمل العسكرى . لكن النجاح العسكرى لم يكن إلا جزءاً فقط من النصر الذى حققه الدوتشى . فقد خلفت الحرب أثراً أكبر أهمية ، وهو الروح الدائمة للوحدة القومية التى خلقها . وتمكن أنطونى إيدن الوزير البريطانى لشؤون عصبة الأمم بعد الاجتماع العاصف الذى عقده فى رومة مع موسوليني ، والذى حدد الشكل النهائى لراى كل من الرجلين فى الآخر ، من الفوز بتأييد عصبة الأمم لسياسة « العقوبات » التى اقترحتها ، وقررت الجمعية العامة

لعصبة الأمم في العاشر من أكتوبر عام ١٩٣٥ ، بأغلبية خمسين صوتاً ضد صوت واحد ، القيام بإجراء جماعي ضد إيطاليا . لكن نتيجة القرار كانت في صالح إيطاليا إلى حد كبير . فقد أعلن ستانلي بلدوين رئيس وزراء بريطانيا في تلك الأيام ، جرياً على القعدة المقبولة آنذاك للدبلوماسية البريطانية ، رفضه دعم عصبة الأمم إلى الحد الذي قد يؤدي إلى خطر الحرب ، كما رفض أن يتخلى عنها ، بإعلان صفحه عن عمل موسوليني . وراح يؤكد أن العقوبات تمنع الحرب ، وأنه مصمم ثانياً ، كما ذكر ونستون تشرشل فيما بعد « على أن لا تقع هناك حرب . وإنه عازم ثالثاً على تأييد العقوبات . وكان من الواضح أن التوفيق بين هذه الأهداف الثلاثة أمر مستحيل » . وأدرك بيير لافال وزير خارجية فرنسا الذكي والشري ، منذ البداية استحالة التوفيق بين هذه الاتجاهات الثلاثة ، ودعا إلى مساومة موسوليني . وعندما أقرت العصبة قرار العقوبات ، راحت تعمل بتشجيع من بريطانيا على أن لا تضم قائمة الصادرات الممنوعة إلى إيطاليا ، أيّاً من المواد التي قد تشعل حرباً أوروبية ، كالزيت مثلاً .

وهكذا لم تحل الدبلوماسية الغربية بين موسوليني وبين مهاجمة الحبشة واحتلالها ، وكان كل ما فعلته على التقيض من ذلك ، هو أنها أعطته الفرصة لتوحيد شبهة في ظل الفاشية وحمايتها ضد ما يقوم به العالم المعادى لها من أعمال ، وإساءات ، وراح يعلن قائلاً . . . « ستواجه إيطاليا العقوبات بالانضباط ، والاقتصاد والتضحية » . وهذا ما فعلته حقاً . وكما التفت الدول الأعضاء في عصبة الأمم ، الساخطة على موسوليني ، حول أنطوني إيدن ، راح الشعب الإيطالي المعزول ، الذي لقيت غالبية ، مشاركة موسوليني في كراهيته لإيدن ، يلتفت حول الدوتشي . وأنهلت عليه التبرعات من كل مكان ، فالسيدات العجائز يبعثن إليه بحليهن لمساعدته في الإنفاق على الحرب ، وأعلن شباب إيطاليا أنهم على استعداد للتضحية بأرواحهم في غارات جوية انتحارية على الأسطول البريطاني . واشترك كثيرون من الأحرار (الليبراليين) السابقين في تأييد الحرب ، ولم تعترض الكنيسة عليها . وآب إلى البلاد عدد كبير من أعداء الفاشية السابقين الذين كانوا يعيشون في مناهم الاختيارية بعيداً عنها ، ليساعدوها في أوقات محنتها . وقد قال

موسوليني في إحدى خطبه التي كانت تفرح الإيطاليين من فاشيين وغير فاشيين ... « إن الشعب الإيطالي جدير بمصيره العظيم » . وعندما استقبل الشعب البريطاني بما يشبه الدعر ، اتفق هور - لافال لعام ١٩٣٥ ، والذي قضى بتقسيم الحبشة بين إيطاليا وبين الإمبراطور ، اعتبر الإيطاليون هذا الاستقبال مناهضاً لإيطاليا ، وعندما اضطر السير صمويل هور لأثر الضجة العنيفة التي أثارها نشر الاتفاق إلى الاستقالة من وزارة الخارجية ليخلفه فيها أنطوني ليندن الذي يكرهه الإيطاليون ، اعتبر هذا التبديل في برسمانيا دليلاً على اتباع سياسة أكثر صرامة وقسوة مع إيطاليا ، مما أدى إلى ارتفاع شعبية موسوليني في بلاده إلى ذرى جديدة .

وكان ثمة نتيجة أخرى ، أكثر أهمية لانتصار موسوليني ، فقد راقب هتلر نجاح صديقه الإيطالي في نزاعه مع عصبة الأمم التي كان هو قد انسحب منها بصورة تميزت بالضجة والعنف في أكتوبر عام ١٩٣٣ ، وبني على ضوء هذا النجاح استنتاجاته الجديدة . وهكذا مثل تصدع العصبة ، أكثر من مجرد تكريس لفلسفة القوة ، ومن عرض جديد لانحلال الديمقراطية ، إذ مثل نهاية ماسمي بجهة ستريزا وبداية عهد التحالف الألماني - الإيطالي .

٢

مرثمة وقت كان فيه مثل هذا التحالف يبدو مستحيلاً . فقبل سنتين ليس إلا توترت العلاقات بين البلدين إلى الحد الذي هدهدها بالانقطاع . فقد كان موسوليني في حرصه على حماية المصالح الإيطالية في الأوربيتين الوسطى والجنوبية ، مصمماً على منع هتلر من تحقيق أطماعه المعروفة في النمسا . واشترك مع بريطانيا وفرنسا في السابع عشر من فبراير عام ١٩٣٤ ، في إصدار إعلان عن الحاجة إلى المحافظة على استقلال النمسا . وراح بعد شهر من هذا التاريخ يؤكد تصميم إيطاليا على الحيولة دون توسع ألمانيا باتجاه حدودها الجنوبية والشرقية عن طريق التوقيع مع النمسا والمجر على اتفاقات رومة ، التي نصت على التشاور المتبادل في حالة وقوع أي خطر يهدد هذه البلاد الثلاثة . وعندما حاول النازيون في يوليو من العام

نفسه ، القيام بانقلاب في النمسا عن طريق اغتيال مستشارها لينجلبرت دولفوس ، في الوقت الذي كانت فيه زوجة المستشار وأولاده في ضيافة موسوليني في إيطاليا ، كان رد فعل الدونشي فورنياً وعنيفاً ، إذ أبرق إلى الأمير ستارهمبرج ، المستشار بالوكالة ، واعدأ إياه بمساعدة إيطاليا ، ثم بعث بثلاث فرق إيطالية إلى الحدود النمساوية للتأكيد على جدية الوعد المذكور . وعندما أدرك هتلر أن أنصاره في النمسا قد شطوا بعيداً في أعمالهم ، وجد نفسه مرغماً على التراجع . وتحولت غيرة موسوليني التي كان يتقن إخفاءها ، من الرجل الذي تحدث عنه بكثير من الازدراء بعد اجتماعه الأول به واصفاً إياه « بالمهرج الصغير المجنون » ، إلى ما يشبه الكراهية . وقال الأمير ستارهمبرج إن هتلر هو قاتل دولفوس ، وهو المسئول عن كل ما حدث . وراح ينعت به بأقبح النعوت ويصفه « بالخلوق المنحل جنسياً إلى درجة مخيفة » و « بالمجنون الخطر » . وكان في رأيه الزعيم الطبيعي للاشتركية الألمانية وهي صورة مزوقة ومتوحشة للفاشية ، و « نظام بربري متوحش ، لا يعرف إلا القتل والنهب والابتزاز » . وعندما وقعت عمليات التطهير العنيفة في ألمانيا في يونيو عام ١٩٣٤ ، وصفها موسوليني « بأنها الأزمة الحتمية لمثل هذا النظام السياسي الكريه » . وراح يقول لصديق آخر له ، هو الصحفي ميشيل كامبانا ، « يسرني غاية السرور أن يكون هتلر قد أعلن ثورته على طريقتنا . ولكنه يقود الألمان ، وسينهي بهم المطاف إلى تحطيم فكرتنا . فما زالوا هم برابرة تاسيتوس وعصر الإصلاح الديني الذين يصطرون اضطراباً أبدياً مع رومة » .

وفي وسع الإنسان أن يفهم السبب في غضب موسوليني . فتهديد استقلال النمسا بالخطر ، يعني تعرض إيطاليا نفسها لخطر إضاعة ضمانات أمنها ، وضرباع ثلثمائة ألف من الإيطاليين خاضعين لحكم النمسا في منطقة « التواديج » ، ليصبحوا عبيد القومية الألمانية . ووجد نفسه مضطراً إلى التخلي عن سياسته « المراجعة » ليأخذ موقفاً أكثر وداً من فرنسا التي يحتاج الآن إلى دعمها . وكانت هذه هي الأفكار التي سيطرت عليه عندما انضم إلى جبهة ستريزا المعادية لألمانيا في الحادي عشر من أبريل عام ١٩٣٥ ، إذ اتفق مع بريطانيا وفرنسا على استنكار أية محاولة تجري لتغيير الاتفاقات النعاهدية عن طريق القوة .

وقد شهد موسوليني هذا المؤتمر مع فولفيو سوفييتش ، وكيل وزارة الدولة للشؤون الخارجية ومستشاره لرئيسي في القضايا الخارجية ، وهناك بين أن إصراره على كبح جماح المطامع الألمانية لم يكن السبب الأول في حضوره المؤتمر . وكان التفاهم مع فرنسا وإنجلترا ، كفيلاً بأن لا يحفظ لإيطاليا مركزها في أوروبا فحسب ، بل أن يساعدها أيضاً في توسيع نفوذها في البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا .

وكان قد أشار في خطابه إلى البيان النهائي للمؤتمر الذي أدان أي « رفض من جانب واحد للمعاهدات قد يهدد سلام أوروبا » . وكان الدوتشي قد أورد كلمة « أوروبا » ، بشيء من التأكيد الواضح ، ثم توقف طويلاً قبل أن يواصل كلامه ، قائلاً إن ممثلي وزارة الخارجية البريطانية أدركوا لتوهم ، ما يفكر فيه ، وتشاوروا فيما بينهم في تلك الليلة ، ليقرروا ما إذا كانوا سيحذرونه من الهجوم على الحبشة أم لا . وقد قرروا أن تأييده لموقفهم ضد ألمانيا ، هام جداً بحيث لا يستطيعون المفاخرة به . ولذا فقد امتنعوا عن تحذيره . وغادر موسوليني سترىزاً معتقداً بأنه قد حقق غايته . وعندما وقعت المعاهدة البحرية الإنجليزية - الألمانية في شهر يونيو ، تأكد موسوليني من يقينه الثابت من أن بريطانيا لا نهتم حقاً بما يقع في العالم طالما أن مصالحها في نجوة من التهديد .

وبدأ غزو الحبشة بعد أربعة أشهر . وعندما تحولت أوروبا الغربية في ذلك الحريف ضلعه ، بتلك الصورة اللافعاة ، طرأت على تفكيره فكرة جديدة ، وهي أن يتحالف مع الدولة القوية الوحيدة التي لم تعاده علناً حتى الآن ، واستولت على جماع تفكيره .

٣

قام هتلر بالخطوة الأولى ، إذ كان معجباً بالدوتشي طيلة حياته السياسية ، كما كان متأثراً تأثراً عميقاً بكثير من مفاهيم الفاشية المذهبية وأساليبها المتقلبة . وكان في عام ١٩٣٦ ، قد كتب إلى رومة ، يطلب إلى الدوتشي صورة موقعة منه . وقد بعثت وزارة الخارجية الإيطالية برد في منتهى البرود إلى سفارتها في برلين

تقول ... « أرجو أن تشكروا السيد المشار إليه على عواطفه ، وأن تبلغوه بالطريقة التي تستسبونها ، بأن الدوتشي لا يرى من المناسب لإجابته إلى طلبه » .

وبالرغم من وجود بعض الأدلة التي تشير إلى أن النازيين كانوا يتلقون معونة مالية من إيطاليا منذ عام ١٩٣٢ ، إلا أن الدوتشي نفسه ، لم يرغب في تشويه سمعته الرائعة ، عن طريق الاتصال علناً بذلك « المغامر الثافه التّن » الذي يتولى قيادتهم . ولم يتخفف موسوليني من شكوكه واحتقاره لهتلر ، حتى بعد وصوله إلى الحكم في عام ١٩٣٣ ، وهو التطور الذي فجأ موسوليني وباغته . وكان يقول في هذه الآونة ، إنه جعل من الفاشية ، كما يعتقد ، شيئاً يحترمه الناس ويعجبون به ، ولذا لم يكن راغباً في تشويه سمعتها وتلوّثها عن طريق الارتباط بالاشتراكية الوطنية التي وصفها بأنها « ثورة القبائل الألمانية التي ما زالت تعيش في غابات ما قبل العصور الوسطى ومجاهلها » . ولم يكن ثمة أدنى شك على الإطلاق ، في أن أوروبا وأمريكا كانتا تنظران إلى موسوليني نظرة أكثر احتراماً من نظرتهما إلى هتلر . وكانت عبارات الإطراء التي انهالت عليه بسخاء وحماسة من الكتاب المحافظين ، ومن الشخصيات العامة في عشرينات القرن ومسهّل ثلاثيناته ، كثيرة ، وقد صيغت في عبارات واضحة ، حتى إنه وجد نفسه معتقداً دون أية صعوبة بأنه أعظم ساسة العالم في عصره .

وقد أشار إليه السير أوستين تشمبرلين ، وزير خارجية بريطانيا عندما زار رومة في ديسمبر عام ١٩٢٤ ، بأنه « رجل عظيم ... يعمل ليضمن العظمة لبلاده » . وكثيراً ما ظهرت السيدة تشمبرلين في السنوات التالية ، وقد وضعت الإشارة الفاشية على ذراعها . وقام ونستون تشرشل بزيارة رومة في عام ١٩٢٧ ، وروى عنه أنه قال إبان هذه الزيارة ... « لو أنني كنت إيطالياً لما ترددت لحظة واحدة في ارتداء القميص الفاشي الأسود » . وقد صرح في مؤتمر صحفي نشرته صحيفة التايمز اللندنية بقوله ... « لم أستطع أن أمتنع نفسي ، كما صجر كثيرون غيري ، عن أن أقع تحت تأثير ما في شخصية السنيور موسوليني من استهواء ولطف وبساطة ، وأن أعجب بما يبديه من هدوء وكرامة ، بالرغم مما يواجهه من أعباء وأخطار كثيرة . وفي وسع كل من يلقاه أن يرى أن خير الشعب الإيطالي على النحو

الذى هو يراه ، هى الفكرة المسيطرة عليه دائماً ، وأنه لا يهتم قيد أنملة ، بأى موضوع آخر . . . ولو كنت ليطاليًا ، لكنت معكم يجمع عواطفى وقلبى منذ البداية حتى النهاية ، فى نصالكم الظافر ضد غرائز اللينينية المتوحشة واندفاعاتها العاطفية . وراحت صحيفة التايمز اللندنية فى اليوم التالى تهىء المستر تشرشل « لأنه تفهم الروح الحققة للحركة الفاشية » . وأعلن لويد جورج اتفاقه مع موسولينى فى أن النظام التعاونى هو « التطور المبشر بالخير العميم » . وراحت صحيفة الديلى ميل تنشر فى عام ١٩٢٨ ، بكثير من الحماسة والتأكيد ، ما أعلنه صاحبها اللورد روزمير ، من أن موسولينى ، « هو أعظم شخصيات العصر » . وذكر كاتب بريطانى أرخ حياة موسولينى فى كتاب طافح بالثناء والإطراء ، نشره فى عام ١٩٣٢ ، بأن موسولينى هو « أعظم سياسى فى عصرنا » ، وهو رأى اعترفت المانشستر جارديان حتى فى يناير عام ١٩٣٩ بأنها تحمله أيضاً . ولم تكن هذه الآراء نادرة أو شاذة . فقد كان يؤثر تأثيراً طاعياً على جميع الدبلوماسيين والزائرين الأجانب من رسميين وغير رسميين الذين يقابلهم فى مكتبه القمخ فى قصر البندقية ، ولم يكونوا يترددون فى الإعراب عن إعجابهم به . وقد أحس المستر ريشارد واشبورن تشايلد السفير الأمريكى فى رومة بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٤ ، نحو الدوتشى بإجلال يكاد يقرب من العبادة ، وراح يكتب فى المقدمة التى وضعها لسيرة حياة موسولينى كما كتبها صاحبها بقوله . . . « ولم يكتف بالقدر على الاحتفاظ بتعلق الناس جميعاً به فحسب ، بل قام ببناء دولة جديدة على أساس مفهوم جديد للدولة . ولم يكتف بإحداث انقلاب فى حياة الناس ، بل أحدث انقلاباً ماثلاً فى عقولهم وقلوبهم وأرواحهم » . ثم راح يتحدث بعد ذلك عن إنسانية الدوتشى وحكمته وقوته وحيويته الدائمة الحركة ، ثم قال . . . « إنه أعظم رجل العصر ، وعندما يغلق الإنسان الباب وراءه وهو يفارقه ، يضم ملابسه إلى جسده ، محاولاً الاحتفاظ بشيء منه فى قرارة صدره » .

وقد رويت قصص كثيرة عن غروره ، وعن تمثيلياته ، وعن سلوكه المدعى وإيماءاته السخيفة ، لكن معظم زائريه اكتشفوا فيه منطقاً وجاذباً ، كما رأوا فيه ، وهذا يثير الدهشة حقاً ، رجلاً حياً ، يتميز بشيء من الافتقار الواعى إلى

الثقة بنفسه . وكثيراً ما قيل لهم ، بأنهم سيجدونه عند ذهابهم إلى زيارته ، جالساً وراء مكتبه الضخم في تلك القاعة الفسيحة والكثيرة الزخارف ، يجتلس النظر إليهم ، وهم يتقدمون إليه عبر القاعة المرصوفة بالفسيساء ، الممتدة ستين قدماً ، لينشغل بعد ذلك كلية عنهم في مواصلة الكتابة . وكان يقال لهم أيضاً : إن عليهم عند مقابلته أن يمرؤا بصوف من الخناجر ، بتضميها عدد من الرجال المقطعي الوجوه من ذوى القمصان السوداء . لكن هذه المناظر لم تكن تحدث إلا نادراً . وكان المنظر المألوف ، هو ذاك الذى وجده داف كوبر عندما زار رومة في عام ١٩٣٤ ، فقد كتب يقول . . . « لم أجد تمثيلات على الإطلاق ، ولم أجد نفسى مضطراً كما قيل لى ، إلى السير عبر قاعة طويلة من الباب إلى مكتبه . فقد استقبلنى عند باب القاعة ، ورافقنى إليه عند انتهاء المقابلة . وقد اتفقنا على أهمية إعادة التسليح ، وضحك كثيراً ، عندما قلت إن من الخطأ الظن بأن التسليح يؤدى إلى الحرب ، كما أن من الخطأ بل الجنون القول بأن المظلات تأتى بالمطر . أجل ضحك طويلاً لنكتتى ، ونخيل إلى أنه رجل يحب المزاح ، وكنت على استعداد لأن أتصور وجود مزايا أخرى عظيمة فيه . . . حقاً إننى تأثرت بمقابلتى له غاية التأثير . . . »

كان هذا هو الانطباع العام . ولكن كان هناك حقاً آخرون لم يعجبوا به . فقد كانوا يصابون بالفرع منه وهو يتقدم إليهم بخطى قافزة كخطوات القطط ، مرحباً ووداً ، وعندما كان يوحى بالانطباع ، كما أوحى إلى اللورد فانستيارت ، بأنه رجل « يسر بالغ السرور لصحبة الآخرين » ، كان يذكر زائره بأنه أقرب ما يكون إلى الملاك الذى يرتدى ملابس زاهية مصافحاً نفسه أمام نظارته ، وكان يبعث فى نفس زائره ، « شيئاً من السرور الذى يحس به هو » . وقال عنه فانستيارت أيضاً . . . « إنه على أى حال ليس بالإنسان التافه ، ولا بالمهرج الذى يقتله الحسد » . فهو يتحدث فى صوت هادئ خفيض ، وكانت مواهبه فى الحديث رفيعة الدرجة . فهو طلق اللسان ، مؤثر فى حديثه الذى لا يخلو من سرعة البديهة والدكاء أحياناً ، وكانت تعليقاته مفعمة بالإشارات غير العادية ، والقلرة الواضحة على العصرية فى حديثه . ولقد ذكر وزير خارجيته عنه ذات يوم . . .

« عندما يشرع الدوتشى فى الحديث ، يبدو إنساناً متمماً . ولا أعرف رجلاً يستعمل مثله الاستعارات الرائعة والأصيلة » . فهو كمعظم المحادثين الممتازين ، لا يحسن الاستماع ، وكثيراً ما قطع على محدثه كلامه ، ناهضاً من مقعده ، لينقل المبادرة بالحديث إليه ، فيخطو فى الغرفة جيئةً وذهاباً ، وهو يتحدث . لكنه كان يبذل جهداً بالغاً للتغلب على هذه العادة عند مقابلاته لزمائيه من الأجانب ، وبالرغم من أنه كان يجد من الصعوبة بمكان ، بسبب القرحة التى كان يشكو منها ، أن يظل قابلاً فى مقعده ، فإنه كان يتظاهر بالإصغاء لمحدثه ، وهو جالس إلى مكتبه منتصب القامة ، وقد جمع أطراف أنامله إلى بعضها . وكان نادر الضحك ، ولكنه عندما يضحك ، فإن ضحكته تبدو وكأنها صادرة عن الازدراء ، أو ضحكة ذلك الإنسان الذى يحس بضرورة إبداء المرح ، دون أن يكون مرحاً فى الواقع . لكن البسمة التى تحمل طابع الموافقة ، كثيراً ما أضاعت وجهه الذى يغلب عليه العبوس . وقد تحدث عنه أريستيد بريان (وزير خارجية فرنسا) فقال . . . « إنه ليس بالرجل العظيم فحسب ، بل إنه رجل طيب أيضاً » . . . وقد وجد فرانز فون بابن فى موسولنى عندما ذهب إلى رومة فى صيف عام ١٩٣٣ لتوقيع الاتفاق مع الفاتيك « رجلاً يختلف كل الاختلاف عن هتلر . فهو قصير القامة . لكن علام السلطة تبدو على محياه . وتوحى هامته الضخمة لناظرها بما فيها من قوة شخصية ، وهو يتصرف مع الناس تصرف الرجل الذى ألف منهم أن يطيعوا أوامره ، ولكن مع كثير من الجاذبية . . . وبينما يتميز هتلر دائماً بشيء قابل من عدم اليقين والثقة ، فيسبر وكأنه يسبر أغوار طريقه ، كان موسولنى يبدو دائماً فى منتهى الهدوء ، والاعتزاز ، والثقة بالموضوع الذى يتحدث فيه . . . وهو يجيد الفرنسية والألمانية » .

ولم يكن لإطراء موسولنى فى أمريكا أقل منه فى أوروبا . وكما شبهه اللورد روزمبر بنابوليون ، نرى رئيس جامعة كولومبيا ، يقارنه بكمرومويل . وبعضى المذكور قائلا . . . « ولا ريب فى أن الفاشية طراز من الحكم من الدرجة الأولى فى الصلاح والتفوق » . وقد اتفق معه أوتو كان ، رجل المال المعروف ، وراح يصف موسولنى فى خطاب ألقاه على طلبة جامعة « ويزليان » بالإنسان العبقري . وأيد الكردينال

الأمريكي أوكوينيل ، هذا القول . . . إذ جاء على لسانه . . . « لا شك في أن موسوليني عبقرى في ميدان الحكم ، وقد منحه الله لإيطاليا ليساعد شعبها على ارتقاء ذرى المجد بسرعة لتصل إلى قدرها المجيد » . وعاد رئيس أساقفة شيكاجو من زيارته لرومة ، فذكر أنه يرى في موسوليني رجل العصر . وأعرب فيوريلو لا جوارديا ، رئيس بلدية نيويورك عن أطيب تمنياته للدوتشى بالنجاح مؤكداً أن ليس ثمة سبيل للمقارنة بين هتلر وموسوليني .

وقد رفض موسوليني رفضاً قاطعاً مصحوباً بالغضب الأقوال التي تشير إلى وجود شبه بينه وبين هتلر . وقد اضطر إلى الإقرار بأن الاشتراكية الوطنية تشبه الفاشية في تسلطها ، وجماعتها ، وعدائها للنظام البرلماني ، ولاديمقراطيتها ، ومناهضتها لليبرالية ، ولكنه رفض المضي إلى أبعد من هذا . أما بصدد النظرية التي تقوم عليها الفلسفة النازية ، وأعني بها وجود « العنصر السيد » ، فقد رفضها موسوليني رفضاً قاطعاً وقال : « إنها سخف مطلق ، بل بلادة وجمود » . وكان يقول إنه لو صحت نظريات هتلر في التفوق العنصري ، فإن « الشعب الإيطالي يجب أن يصير أسمى شعوب الإنسانية رتبة » . . . وراح يقول في خطاب ألقاه ذات يوم من أيام شهر سبتمبر عام ١٩٣٤ في مدينة بارى . . . « هناك ثلاثون قرناً من التاريخ المجيد ، تحملنا على أن ننظر بشيء من الإشفاق المتعالي على بعض العقائد التي تعلم على الجانب الآخر من جبال الألب من ذرية ذلك الشعب الذي كان يعيش في ظلمات الأمية ، عندما كانت رومة تزدهو بأمثال قيصر وفرجيل (Virgil) »^(١) وأوغسطس » . ووصف اللاسامية في حديث له مع إميل لودفيج في عام ١٩٣٢ . « بالرديلة الألمانية » . ومضى يقول . . . « وليس ثمة مشكلة يهودية في إيطاليا ، ولا يمكن أن تقوم مثل هذه المشكلة في بلاد تتمتع بنظام حكم سليم » .

ولم يجتمع بهتلر للمرة الأولى إلا في الرابع عشر من يوليو عام ١٩٣٤ . وقد كرهه بعد هذه المقابلة ، بنفس القوة التي كان يتوقعها . وقد جرت المقابلة التي

(١) فرجيل (رجيلوس (٧٠ - ١٩) ق . م . شاعر الرومان الكبير . ولد قرب مانتوا . ودرس في كريمونا (ميلان) وناپول . طاف في أنحاء الإمبراطورية الرومانية . أهم روايته الإنيادة وهي ملحمة شعرية قصصية تقف على قدم المساواة مع إلياذة هومر . « المغرب »

أعدها الدبلوماسيون الألمان أملاً منهم في أن يتمكن موسوليني من حمل هتلر على الاعتدال في موقفه من النمسا ، في الدارة الملكية في سترا ، على نهر برنيتا على مقربة من بادوا . وبدأ هتلر الذي استصحب معه عدداً من رجال حرسه النازي الخاص ، ومعهم سيب ديتريش ، عصبي المزاج ، نافهاً . ولاحظ موسوليني بوجه خاص ، شعره المسترسل وغير المشوط ، وعينه الشاحبتين ، فتمتم قائلاً . . . « أنا لأحب رؤيته » . وكان يرتدى معطفاً من الجلد ، وسروالاً مخططاً ، وحذاء مفتوحاً من الجلد ، ويشد إلى رأسه قبعة رمادية من الفلين ، كان يلوكلها دائماً في أصابعه ، وبدأ وكأنه كما قال أحد الصحفيين الفرنسيين ، « سباك نافه » ، بمسك بيده آلة غربية . أما موسوليني فقد وصل إلى مكان الاجتماع أيضاً في ملابس مدنية ، ولكنه ما لبث أن استبدل بها على الفور ، بدلة عسكرية زاهية ، بيدواً الخنجر على جانبيها ، وبجذاء أسود ، له أضرار من الفضة .

ولم يكن حديثهما الأول قد انتهى عندما كوّن موسوليني رأيه في هتلر . وعندما ابتعد عن مائدة الاجتماع في فترة راحة قصيرة ، متجهماً إلى النافذة راح يتمتم وقد بدت على محياه علامة الاحتقار . . . « حقاً إنه رجل مجنون » . ولم يكذب يحل المساء ، حتى بدا وكأن الرجلين لم يفقدا احتمالهما فحسب ، بل كأنهما على وشك التشاجر . اتفقا على أنهما يكرهان معاً كلا من فرنسا وروسيا ، لكنهما لم يستطيعا الاتفاق على شيء آخر . ولا سيما في موضوع النمسا ، حيث بين موسوليني أن على النازيين أن يوقفوا حملاتهم الإرهابية فيها . وظل البعوض يثر طيلة تلك الليلة التي قضها موسوليني دون أن يستطيع النوم . إذ أنه بالإضافة إلى البعوض ، تذكر ما كان يوصف به في الماضي من أنه « مهرج سخيف » ، وكابوس شبح نابوليون الذي لم يفارقه لحظة واحدة ، إذ قضى ليلة متعبة في مدينة سترا أيضاً . واقترح عند الصباح أن يتقل الاجتماع إلى البندقية .

وكان الجو هنا أكثر توتراً أيضاً . وقد استقبل أهل البندقية الدوتشي بهتافات عالية مدوية ، بينما استقبلوا ضيفه بما يكاد يشبه الصمت . وعندما تحدث الرجلان فيما بعد عند ملعب الجولف في البيرونلي . دون أن يشترك في محادثتهما أى من رجالهما ، سمع أفراد الحاشيتين ، وكانوا يقفون على منأى منهما ، الصراخ الصادر

عنهما والذي شبهه قسطنطين فون نوراث وزير خارجية ألمانيا آنذاك « بعواء كليين من كلاب الدرواس الكبيرة ». ولم يعرف لإنسان الموضوع الذي كانا يتناقشان فيه ، كما لم يكشف القناع فيما بعد عن سره . كانا يتحدثان بالألمانية ، ولا ريب في أن هذه الحقيقة أضعفت من موقف موسوليني ، إذ بالرغم من رفضه للخدمات بول شميدت « ترجمان » وزارة الخارجية الألمانية . فإن تملكه لخاصية اللغة لم يكن كبيراً كما كان يفترض في نفسه . وقد ذكر عنه كورت فون شوشنيج ، خليفة دولفوس في منصب مستشار النمسا أنه كان يحب التحدث بالألمانية ، ولكنه كان يعاني جهداً في التحدث بها ، وكان هذا الجهد يظهر في بطله في الحديث وفي دقته في النطق بكل كلمة من الكلمات . ولا ريب في أنه كان يبذل جهداً أكبر في تفهم لهجة هتلر النمساوية القوية ، وما يخالفها من تعبيرات بافاروية .

وبالرغم من أن موسوليني لم يذكر قط شيئاً فيما بعد عن موضوع هذا النقاش الحاد الذي وصل حدود الشجار ، إلا أنه أشار فيما بعد ، إلى حالات أخرى ، بقى الرجلان فيها وحدهما أثناء المؤتمر ، عندما راح هتلر « بدلا من مناقشة مشاكل محددة ، يتلو على مسامعي ، عبارات يحفظها عن ظهر قلب من كتابه كفاحي ، ذلك الكتاب الممل الذي لم أستطع قراءته قط » . وعندما اقتربت الزيارة من نهايتها ، وكان موسوليني قد أخذ ضيفه في زورق بخاري في نزهة في « بحيرة البندقية » ، راح هتلر ، بدلا من الصمت والتمتع بسحر الطبيعة وجمالها ، يلقى على مسامع مضيفه خطاباً مطولاً عن نظرياته العنصرية . وقد ذكر سوفيتش لستار هيمبرج أنه « قضى الوقت كله ، متحدثاً عن تفرق العنصر النوردي ، ومنهما جميع شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وفي مقدمتها الشعب الإيطالي ، بأن دمها قد اختلط بالدم الزنجي الذي يسرى في عروقها » . . . وكان موسوليني قد يئس من مناقشة ضيفه ، فجلس صامتاً يصغي إليه ، وقد ظهرت عليه علامة السخرية . وسئل موسوليني في اليوم التالي لعودته هتلر إلى ألمانيا ، عن رأيه في الرجل ، فقال ، وهو يومئ بما يفسر على أنه زراية واستخفاف عنه إنه « راهب ثرثار » .

لكن موسوليني سرعان ما أحس ، رغم احتقاره لهتلر ، بحاجة إلى صداقته . وراح يقنع نفسه بأن من الخير لإيطاليا أن تتحالف مع ألمانيا ، وأن تحالفها هذا

يفيدها أكثر من التحالف مع الديمقراطيات الغربية^(١) . وكان العداء الذى أظهرته فرنسا وإنجلترا لإيطاليا إبان حرب الحبشة ، قد قضى على كل فرصة في عقد اتفاق بين الدول الثلاث مناهض لألمانيا ، وإن كان لم يدفع إيطاليا إلى الاقتراب كثيراً من هتلر ، الذى كان يحرص كل الحرص ، على ابتزاز كل ما يمكنه من مزايا من الصراع ، وكان قد انزعج كل الانزعاج من احتمال إنهائه ، بحس وسط من النوع الذى اقترحه اتفاق هور ولافال^(٢) . فقد ظلت المعاهدة الإنجليزية - الألمانية التى عقدت في عام ١٩٣٥ ، تقض على موسوليني مضجعه ، كما كانت مشكلة استقلال النمسا وخطر ضمها إلى ألمانيا (الانشلوس) ، الموضوع الذى يشغل فكره كثيراً . وكان من المتعذر الوصول إلى تحالف بين إيطاليا وألمانيا ، طالما أن هذه المشكلة ما زالت قائمة . لكن هتلر كان يحس بالحاجة الماسة إلى صداقة موسوليني الظاهرة ، بصورة تفوق إحساس موسوليني بحاجته إلى صداقة هتلر ، ولا ريب في أن هذه النظرة من جانب هتلر ، والرغبة في اكتساب صداقة الدوتشى هما العاملان اللذان دفعاه إلى توقيع الاتفاق النمساوى - الألمانى في يوليو عام ١٩٣٦ ، بموافقة موسوليني وإقراره . وبالرغم من أن هذا الاتفاق قد سوّى في الظاهر ، الخلافات بين النمسا وألمانيا ، يابشكلى يرضى البلدين ، إلا أنه أعطى هتلر الفرصة ، ليقطع شيئاً من استقلال النمسا . كما أتاح له الفرصة الحقيقية الأولى ، التى كان يتطلع إليها ، للتفاهم مع إيطاليا . فلم يعد في وسع موسوليني الذى بات الآن في متأى عن الدول الغربية الدفاع عن استقلال النمسا بنجاح ، وكان لا بد له من أن يحمّد لهذا الاتفاق إبقاءه على استقلال النمسا ولو بصورة شكلية . وقد تحققت الفرصة النموذجية لإقامة علاقات أوثق بين ألمانيا وإيطاليا بعد شهر واحد ، عندما اندلعت نيران الحرب

(١) يكثر الكتاب الغربيون من التحدث عن الدول الغربية ، واصفياً بالديمقراطية ، لكن هذا الوصف المستمد من المفهوم البورجوازي الديمقراطية ، لا ينطبق على الواقع والحقيقة ، إذ أن معظم هذه الدول ، أو بعضها على الأقل ، بعيدة عن الديمقراطية في معناها الاشتراكي الصحيح ، بعد الأرض عن السلام . فبالرغم من أنها تشير على نظام التمثيل البرلماني ، إلا أن الطبقة المهيمنة في الغالب من الفئات البورجوازية والرأسمالية ، التى تمكّنها سيطرتها الاقتصادية من تحقيق السلطان على الصعيد السياسي التمثيلي ، الذى لا يعبر عن إرادة الشعب ، الفاقد إرادته وقدرته على التعبير ، بالإضافة إلى ما يسود بعض هذه الدول من تفرقة عنصرية تتنافى مع أبسط مفاهيم الديمقراطية الحقة .

(٢) نسبة إلى سمويل هور وزير خارجية إنجلترا ولافال وزير خارجية فرنسا آنذاك . « المغرب »

الأهلية في أسبانيا ، وراح موسوليني عن طريق إسماعه إلى مساعدة فرانكو ، أملاً منه في خلق دولة فاشية ثالثة في أوروبا ، وفي الحصول على بعض القواعد البحرية في أسبانيا لتهديد فرنسا عن طريقها . يزداد تأيلاً عن أعداء ألمانيا وسرعان ما تبين أولريخ فون هاسيل ، سفير ألمانيا آنذاك في روميه أهمية « الحرب الأسبانية بالنسبة إلى علاقات إيطاليا بكل من فرنسا وإنجلترا » . وأبرق إلى وزارة الخارجية الألمانية ، مشيراً إلى أن دور هذه الحرب يمكن أن يكون مماثلاً « لدور الحرب الحبشية في عرض المصالح المتعارضة للدول الكبرى ، ومنع إيطاليا من الوقوع في شباك الدول الغربية » . وحققت الحرب الأسبانية هدفاً آخر ، فقد تمكن هتلر عن طريق السماح لإيطاليا بحمل العبء الأكبر من المساعدات النازية - الفاشية لفرانكو ، تحت ستار الادعاء بأن أسبانيا من بلاد البحر الأبيض المتوسط ، أي أنها تقع ضمن منطقة النفوذ الإيطالي ، في إيجاد بديل عن الحرب الحبشية ، يقوم بامتصاص قوة إيطاليا ، ويحول بينها وبين الوقوف موقفاً صلباً من المشكلة النمسية التي كان قد حزم أمره على تسويتها بالشكل الذي يريده (١) .

ومهد هتلر طريق التقارب مع موسوليني ، بإعرايه عن استعداد ألمانيا للاعتراف بالإمبراطورية الإيطالية . وكانت قضية الاعتراف من القضايا الحساسة للغاية بالنسبة إلى موسوليني إذ أنه إقرار بوضع إيطاليا الجديد ، الذي ترفض معظم الدول الاعتراف به ، ولذا فقد فرح الدوتشي ، كما توقع فون هاسيل ، غاية الفرح بخطوة هتلر ، التي لم يستطع إنكار جميله فيها . وأوفد هتلر في سبتمبر من ذلك العام ، إلى موسوليني وزير عدله الذي يتحدث بالإيطالية ، هانز فرانك ، ليوجه الدعوة إلى الدوتشي لزيارة ألمانيا . وأصغى موسوليني بكثير من التحفظ ، إلى ما وجهه إليه فرانك من إطراء بالغ ، وإلى ما أعرب عنه من إيمان القوهر بالخاصة إلى المزيد من التعاون بين البلدين . وقد غر هذا الإطراء موسوليني ، رغم تظاهره بالصلافة في موقفه ، ولم يكذب يفرغ من اجتماعه مع مبعوث هتلر ، حتى راح يلقي خطاباً في ميدان دوومو في ميلان ، استخدم فيه للمرة الأولى ، تعبيراً

(١) تفسر هذه الحقيقة ظاهرة غريبة أذهلت الجمهوريين الأسبان في تلك الأيام ، وهي أنهم كانوا يتلقون في وقت واحد مع أعدائهم من الفاشيين السلاح من ألمانيا .

قدر له أن يحمل فيما بعد معنى الدمار لبلاده . فقد أشار إلى التفاهم الأفضل بين ألمانيا وإيطاليا ، واستعار تعبيراً مجازياً مسرحياً كان رئيس وزراء الحزب كومبوس ، قد استعمله قبل عامين في وصف هذا التفاهم . وراح الدوتشي يقول . . . « خلق محور برلين - رومه ، وهو المحور الذى تستطيع جميع الدول الأوروبية المحبة للسلام ، الدوران حوله » . وطرب الألمان لهذا الإعلان الواضح عن الصداقة ، وقرأوا في الخطاب أكثر مما عناه صاحبه بالفعل ، وتولد لدى الشعب الألماني الانطباع مما ذكرته صحافته ، بأن سياسة مشتركة قد تم إرساؤها بين الدولتين .

وكان وزير خارجية إيطاليا الجديد ، الكونت جاليازو تشيانو ، يمهّد الطريق في غضون ذلك ، للزيارة الرسمية ، التى تقرر أن يقوم بها الدوتشي عما قريب لألمانيا . وكان هذا الوزير نجل الأميرال الكونت قسطنطين تشيانو أحد أبطال الحرب العالمية الأولى ، قد التحق بالسلك السياسى وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، بعد أن عمل أمداً ما فى الصحافة فى رومه . وراح بعد ثلاث سنوات ، أى فى الرابع والعشرين من أبريل عام ١٩٣٠ ، يبنى بلداً موسولينى ، كبرى بنات الدوتشي ، وأقرهين كما كان يعتقد إلى قلبه . وبدأ منذ تلك اللحظة صعود تشيانو سلم الحكم والشهرة ، بسرعة تكاد تشبه سرعة الضاروخ . ولم يلبث شهران ، حتى كان تشيانو ، يعين قنصلاً عاماً فى شانجهاى ، ليصبح بعد فترة قصيرة ، وزيراً مفوضاً لبلاده فى الصين . وعاد إلى إيطاليا فى عام ١٩٣٣ ، ليصبح رئيساً لدائرة الصحافة ، ثم عمل طياراً إبان الحرب الحبشية ، ليصبح بعد ذلك وزيراً للخارجية . وكان يتصرف فى هذه السنوات الأولى ، تصرف الحوارى المخلص لأسناده الذى خلقه ، والذى لم يعد يعامله كصهر قريب إلى قلبه فحسب ، بل كصديق يثق فيه كل الثقة . وكان تشيانو إنساناً مغروراً ، محباً لدانته ، مغرقاً فى حبه لها ، طموحاً ، دعيماً ، وكثير القلب ، وكان يحاول أن يخفى بشئ من الدناءة المصطنعة ، ما كان يحمله من إعجاب حقيقى بالدوتشي . وقد حاول حتى فى اليوميات التى دأب على كتابتها بعد أن أصبح وزيراً للخارجية ، إخفاء ما يحمله من عبادة لموسوليني ، كان فى أحاديثه مع أصدقائه يسعى إلى عدم إظهارها مطلقاً . لكن هذه المحاولات المكشوفة ، كانت تظهر على حقيقتها فى بعض الأحيان ،

عند ما يكتب في يومياته بشيء من الصراحة ، إذ يقول . . . « أطرى الدوتشي جهودى اليوم عدة مرات . . . وقد أحسست بالضيق من هذا الإطراء البالغ ، حتى لئن عجزت عن شكره . ولا ريب في أن هدفى الأول من عملى ، هو أن أرضيه . ولا ريب أيضاً في أن نجاحى في إرضائه ، هو غاية ما أنشدته وأتمناه » . وذكر في عام ١٩٣٨ ، بعد أن أبل من مرض أصابه ، أنه عند ما سمع صوت الدوتشي ينطلق من جهاز الإذاعة « راح يبكي وكأنه طفل صغير » .

وكان هذا الإعجاب الشديد البالغ بالدوتشي ، يبدو واضحاً في شتى الصور ، التى أظهرته أحياناً في مواقف تثير الهزء والسخرية . فهو يقلده بصورة لا واعيّة . وهو يقتبس منه مواقفه ، وتصرفاته العامة والخاصة على حد سواء . وكان يحذو حذوه في التحدث بسرعة وبصوت عال ، وبصورة تنطوى على التأكيد ، كما كان يقلد مواقفه الجلمدة ، عند ما يوشك أن يسمع أنباء كان ينتظرها بفارغ الصبر . لكنه لم يكن إنساناً تافهاً يثير السخرية . فقد كان نهائياً للفرص ، ذا موهبة كبيرة في هضم المعرفة ، ووطنية صادقة . ولم يكن مولعاً بكنم الأسرار ، بل كان أحياناً قاسياً في صراحته ، وكثيراً ما وضع بلاده ، في أوضاع حرجية ، ودفعها إلى مغامرات لا خلقية وتافهة . وقد تميز بالكسل الشديد ، حتى إنه كان يرفض قراءة أية مذكرة ، إذا تجاوزت الصفحة الواحدة ، وكان يقضى جل أوقاته في لعب الجولف ، أو في حضور الحفلات التى يقيمها أصدقاؤه من رجال المجتمع في رومة ، أو الجولوس متكاسلاً في مكتبته في قصر شيجى . وكان يفتقر إلى الشعور بالمسئولية ، فقد ذكر رافائيل كواريجليا ، سفير إيطاليا في باريس بين عامى ١٩٣٨ و ١٩٤٠ ، أن التعليمات الوحيدة التى تلقاها منه طيلة تلك المدة ، كانت تقضى بالبحث عن مربية فرنسية لأطفاله . لكنه كان يتمتع على أى حال ، ببعض المزايا التى ندر وجودها عند كبار الفاشيين . فقد كان إنساناً ذكياً ، ويقظاً وشجاعاً ، ولا يفتقر إلى الإحساس ، كما كان جذاباً رغم مواقفه التثيلية وادعاءاته المغرورة . وكان ولداً باراً ، وأخاً رقيقاً بإخوانه ، يحب أطفاله ، وبالرغم من وفرة عدد أصدقائه من رجال ونساء ، إلا أنه لم يفقد قط حب زوجته له . وقد ذكر عنه اللورد فانسينارت الذى لقيه لأول مرة في عام ١٩٣٤ ، أنه « إنسان داعر » ، لكن الدعارة

لم تكن تعتبر خطيئة في تلك الأيام . فقد أحب النساء ، وتعشق العظمة ، وكان يبرز غيره في إرضاء شهواته . فقد حباه الله بشكل جميل الصورة ، وطبيعة طيبة ، وإحساس عارض بالنكتة الطريفة . وكان يقضى وقتاً طيباً لا يحتمل التعرض لأى لزجاج ، ولا ريب في أن كراهية المغرق في نملذاته للحرب ، تكون أقوى من كراهية الإنسان ذى النزعة السلامية ، لأنها أكثر اتصالاً بالعملية والواقع .

وقدر لدينو الفيرى ، سفير إيطاليا في ألمانيا ، أن يعرف تشيانو معرفة وثيقة ، ولذا فقد رسم له صورة مماثلة ، وإن كانت أكثر زهواً وإطراء . . . فقال . . .

« وبالرغم من تقلبه وافتقاره إلى الاستقرار ، وهما صفتان كانتا تثيران الدهشة والخيرة فيمن يعرفه ، فإن تشيانو كان رجلاً طيباً وكريماً . وكان يحب دائماً خدمة أصدقائه ، ويحس بأقصى السعادة ، إذا تمكن من إبلاغهم نبأ طيباً . وكانت تعبيراته تحمل الطابع « التوسكاني » ، كما كان حديثه يتصف بالحيوية ، ولغته بالدقة والاختصار . وكان يبدو أحياناً في منتهى الجدل والدكاء ، والرغبة في السخريّة التي تصل في حالات معينة حدود الدناءة . . . لكنه كان بطبيعته ، إنساناً مرحاً ، يتعلق بنزواته ، كثير الفضول والسخريّة ، مغرقاً في الاستجابة لعواطفه ، وكان سريع الخاطر ، حاد الدكاء ، حاضر النكتة ، ساخر الكلم . »

بكن الآخرين لم يوافقوا الفيرى على ما رآه فيه من سرعة بديهة ، وجاذبية ، وإن كان معظم الناس لم يكرهوه ، ولم يجلدوا فيه إنساناً تافهاً . لكن الألمان لم يحبوه على أى حال . وكان يحرص دائماً على القول في مذكراته الرسمية ، بأنه على خير ما يرام من التفاهم معهم . لكنه لم يكن في الواقع متفاهماً معهم ، إذ كانوا يرون فيه الإنسان المتصنع ، المغرور ، الراغب في تأكيد وجوده ، بحيث يتصرف تصرفات في منتهى السوء والسخف . وقد وصفه ويليام شيرر ، الصحفي الأمريكي ^(١) ، أثناء زيارته في إحدى المرات لبرلين بأنه كان « مهرج تلك الأمسية . فقد كان يكثر ، دون أى مناسبة ، من صفق قدميه ، وأداء التحية العسكرية . ولم يكن

(١) وردت هذه العبارة في الكتاب الضخم الذى وضعه ويليام شيرر ، عن تاريخ ألمانيا الحديثة ، والذى توليت تعريبه في أربعة مجلدات .
« العرب »

فى وسع إنسان ألا يلحظ شدة عصبيته ، فهو بحرك فكيه باستمرار ، دون أن يخفض قليلا من اللبان » .

وكانت زيارته الرسمية الأولى لبرلين فى شهر أكتوبر عام ١٩٣٦ ، أى بعد شهر واحد من زيارة هانز فرانك لرومة . وقد نجحت هذه الزيارة نجاحاً كاملاً ، إذ لم يكن ريبنتروب الذى دأب على كراهية تشيانو ، قد حل بعد محل نوراث فى وزارة الخارجية الألمانية ، بينما عامله هتلر ، الذى كرهه فيما بعد أيضاً ، عند استقباله له فى برخستجادن ، معاملة تنطوى على الكثير من الاحترام الزائف . وقد سر هتلر طبعاً بالرسائل الودية التى حملها تشيانو معه . وتحدث الفوهرر عن رأيه فى موسولنى إلى صهره ، حديثاً ، أطرب تشيانو ، فقد وصفه بأنه « أعظم سياسى فى العالم ، ولا يستطيع أى سياسى آخر ، أن يقارن نفسه به لا من قريب ولا من بعيد » . وانطلق بعد ذلك يتحدث بسرعة عن الوضع الدولى ، وعن خطر البلشفية المتزايد ، وعن سرعة ألمانيا فى تسليحها . وكتب تشيانو فى يومياته عن هذه المقابلة يقول . . . « كان هتلر يعرض كل موضوع عرضاً مطولاً ، يصل منه إلى استنتاجات يكررها مراراً وتكراراً ، وبعبارات مختلفة » . واستخلص تشيانو من هذر محدثه وثرثره ، أن هتلر لم يكن قد حزم أمره بعد بالنسبة إلى بريطانيا ، وأنه لم يكن حتى تلك اللحظة ، يستبعد احتمال شكل من أشكال الاتفاق معها . أما موسولنى فكان ساخطاً أشد السخط على بريطانيا لأنها وجهت الدعوة إلى هياسلاسى لحضور حفلات تنويع ملكها جورج السادس ، وكان يخشى من أى تقارب ألمانى - بريطانى ، ويعمل على إحباطه ، بكن وسيلة ممكنة . وقد مرّ غاية السرور عندما سمع من تشيانو ، أن مثل هذا التقارب غير محتمل بالرغم من اعتدال هتلر فى موقفه ، وأنه نقل إليه قول الفوهرر بأن فى وسع ألمانيا وإيطاليا ، إذا واصلت بريطانيا العمل ضدّهما ، أن يهزّماها ، إذ أن القوة ستكون متوفرة لديهما للقيام بذلك . ومضى الفوهرر يقول لضيفه . . . « ستكون ألمانيا مستعدة لذلك فى غضون ثلاث سنوات . أما بعد أربع سنوات فستكون أكثر من مجرد مستعدة . وإذا أتبع لها أن تستعد لخمس سنوات فإن فى ذلك الخير كل الخير . . . ويرى الإنجليز أن هناك بلدين فى العالم ، يقودهما مغامران ، هما ألمانيا وإيطاليا .

لكن المغامرين كانوا يتولون أيضاً قيادة بريطانيا عندما قامت إمبراطوريتها . أما اليوم فيحكمها ضعفاء عاجزون » . ولم تمض بضعة أشهر ، حتى كانت بريطانيا تضيق سينة أخرى إلى مساوئها تجاه إيطاليا ، وذلك عندما وقعت في اجتماع نيون في العاشر من سبتمبر عام ١٩٣٨ ، اتفاقاً جديداً مع فرنسا ، لحماية السفن التجارية الفرنسية في البحر المتوسط ، حيث كانت الغوصات الأسبانية في الظاهر ، والإيطالية في الواقع تقوم نيابة عن فرانكو « بأعمال القرصنة » ضد السفن الفرنسية والبريطانية . وراح هتلر يستغل هذه الفرصة من جديد ، فيعلن تأييده لموسوليني وعطفه عليه ، ويبين أن محاولة الديمقراطيات الجديدة ليست إلا سعيًا منها للاتحاد ضد المحور النامي والناهض .

وكما كان موسوليني متلهفاً على ألا يقع اتفاق بين بريطانيا وألمانيا ، وهو الاتفاق الذي لم يغب لحظة واحدة عن تفكير هتلر في هذه السنوات كلها ، كان الفوهرر بدوره ، متلهفاً أيضاً على أن تجدد إيطاليا وبريطانيا علاقتهما الودية على حساب ألمانيا . وقام سعيًا وراء هذا الهدف ، وتأكيداً منه لتضامنه مع إيطاليا في المحور ، بإيفاد عدد من المبعوثين إلى رومه في عام ١٩٣٧ ، في زيارات بدت في ظاهرهما بقصد تأكيد الود والصدقة . لكن أيًا من هذه الزيارات لم تنجح نجاحاً بارزاً وملحوظاً . وعندما وصل جورنيج في مطلع العام ، وعقد اجتماعين مع موسوليني ، كان الجو في الاجتماعيين في منتهى التوتر . وكان موسوليني قد قرر لنفسه أنه لا يحب جورنيج منذ اجتماعهما لأول مرة . فقد رأى فيه شخصاً « سريع الغضب كثير الادعاء » ، ولم يعجبه منه إعجابه الشديد ببالبو . وعندما أشار جورنيج في إحدى هاتين المقابلتين إلى الاتحاد مع النمسا ، كأمر حتمي ، هز موسوليني ، كما روى المترجم بول شميدت ، رأسه ممتعضاً ، وبعنف شديد .

لكن النمسا لم تكن إلا مشكلة واحدة من مشاكل موسوليني ، وقد قادته أطماعه التي لم تتحقق في أوروبا والبحر الأبيض المتوسط ، وحقدته على الدول الغربية ، إلى الإيمان بأنه بات عاجزاً عن مقاومة إغراءات هتلر وملاطفتاته . وراح يعلن أنه سيزور ألمانيا في شهر سبتمبر بعد أن قبل الدعوة الموجهة إليه ، مشروطاً أمرين ، أولهما أن لا يحمل معه ملابس السهرة الرسمية ، وثانيهما أن لا تقتصر

اجتماعاته على زعماء البلاد ، وأن يسمح له بمقابلة العاديين من الناس ، ولم يكن تواضعه هو الذى حفزه على التقدم بهذين الشرطين . فقد أراد أن يظهر ، أن فى وسعه حتى بلغة أجنبية بالنسبة إليه ، إثارة جماهير برلين ، بنفس الحماسة التى يثير فيها شعبه ، كما أراد أن يضمن عدم الظهور بالملابس المدنية التى لا يبدو فيها فى صورة مقبولة .

وقد ارتدى بزة رسمية رائعة ، صنعت خصيصاً لهذه المناسبة ، ثم سافر إلى ألمانيا فى الثالث والعشرين من سبتمبر عام ١٩٣٨ ، ترافقه حاشية كبيرة ، ترتدى أجمل الملابس أيضاً كملابسه . وأصغر هتلر ، الذى لم يرغب فى تفوق موسولنى عليه ، أمراً بأن يرتدى أفراد لجنة الاستقبال ، الذين كانوا سيستقبلونه على الحدود البزة الرسمية أيضاً ، بينما ارتدى هو القميص البنى والسروال الأسود ، لباس النازى الرسمى ، منتظراً ضيفه فى مونيخ التى اصطف الجنود على جانبي شوارعها ، والتى اذانت مبانيها بالأعلام ترحيباً بمقدم الدوتشى .

وكانت ألمانيا تعد العدة منذ أسابيع لهذه الزيارة ، لا للترحيب بالضيف وإيلائه ما يستحقه من احترام فحسب ، بل لعرض قوتها عليه بصورة دقيقة ومدروسة ، يتبين فيها حسن التنظيم وروعة الانضباط ، بحيث لا ينسى موسولنى ذلك طيلة حياته . ولم ينس موسولنى بالفعل هذه الزيارة . فقد ظل طيلة حياته ، رغم خيبة أمله بالألمان فيما بعد ، يؤكد أنه لم يتخل يوماً عن إعجابه بكفائتهم وإخلاصهم ، وجدهم العسكرى العنيف . وبدأ عليه التأثير منذ اليوم الأول للزيارة . وكان له مطلق الحق فى هذا التأثير . فقد كانت هتافات الجماهير تشق عنان السماء ، رغم الأمطار الغزيرة الهاطلة ، وبدت الصفوف التى لا نهاية لها من الجنود من ذوى الخوذ الفولاذية جامدة بلا حراك . وأقيمت المآدب على شرفة فى مونيخ ، والمناورات العسكرية فى مكلينبرج ، كما أعدت له زيارات لمصانع الروهر ، وعروض عسكرية للجنود يمشون مشية الأوزة فى كل مكان . واحتشد أكثر من تسعمائة ألف إنسان فى برلين ، قبيل نهاية الزيارة ، ليستمعوا إليه وهو يخطبهم ، وهناك ، وبالرغم من أن جورنيج كان قد أثار أعصابه بالسماح للبؤنة الصغيرة بأن تقفز على حضن الدوتشى ، متشاعلاً عنه باللعب بقطاراته الكهربائية

حتى اللحظة الأخيرة . وبالرغم من العاصفة الموحجة التي هبت عنيفة على الميدان حيث كان يخطب ، فاطعة عليه خطابه ، ومبيلة أوراقه ، ومخرجة مكبر الصوت ، فإن تأثيره كان بالغاً بهذه المناسبة . وقد انتظرت الجماهير تحت المطر المهرم ، وكأنها في عرض عسكري ، تهتف له في نهاية خطابه ، الذي لم يعد في سماعها إلا صغاء إليه ، والتي صعب عليها أن تفهمه منذ بدايته . وعاد الدوتشي في السيارة إلى مقره ، وقد أغرقه البلى ، ولحق به الإجهاد ، ولكن معنوياته ظلت عالية . فقد رأى بأم عينيه « أقوى أمة في أوروبا الحديثة ، وهي تسمو في طريقها إلى المجد والعظمة » . وكان نجاحه في تلك البلاد منقطع النظير . وكتب تيشانر معتزلاً به في يومياته يقول . . . « أسرت جاذبيته ، وصوته ، وفتوته ، وحيويته ، مخيلة الجماهير الألمانية تمام الأمر » . ولم تكن قد أتاحت له الفرصة لرؤية هتلر على انفراد أكثر من بضع دقائق ، لم يدر إبانها حديث في أى موضوع هام ، ولم تذكر قضية المصا كما قال لشو شنيخ فيما بعد ، لا في قليل ولا في كثير . ولكنه كان قد حزم أمره بالنسبة إلى ألمانيا ، فقد راح يصرخ بأعلى صوته عندما تعطل جهاز تكبير الصوت في ميدان ميتهيلد لسمع الناس قوله ، رغم المياه المنصبة كالعرب من السماء . . . قائلاً : « وعندما يكون للفاشية صديق ، فسنسير مع ذلك الصديق حتى النهاية » .

وكان هذا الوعد القاطع بالولاء ، بداية الهبوط نحو الكارثة . وكان هذا الوعد أيضاً بالنسبة إلى كثيرين من الإيطاليين بداية خيبة الأمل المرة . فقد كانوا يرون في الثورة الفاشية حتى هذه اللحظة شيئاً دافعاً ونظيفاً . وبالرغم من نزوحها إلى الحكم السلطوي ، وإلى بعدها عن الليبرالية ، كانوا يرونها شيئاً رائعاً إذا قارنوها بوحشية الاشتراكية الألمانية الضخمة . وكانوا يحسون بالسعادة عندما يسمعون الناس يصفون الألمان بالغلظة ، وهتلر بالوحش السياسى ، المحنون ، والذي يقلد غيره ، والغريب الأطوار . لكنهم تحتم عليهم الآن أن يقرأوا قصة مغايرة . فقد أشار الدوتشي نفسه إلى الألمان متحدثاً عنهم بأنهم « الشعب العظيم ذو التقاليد الكريمة ، والمستقبل العظيم » . ولم يعد هتلر عنده « المهرج » ، بل صوره في خطاب ألقاه ، ونشر على نطاق واسع في إيطاليا على أنه « العبقري » ، بل أحد أولئك العباقرة القليلين الذين يصنعون التاريخ ، ولا يسرون في ركابه » . ولم يمض شهر واحد على هذه الزيارة

حتى كانت إيطاليا توقع في السادس من نوفمبر عام ١٩٣٧ على ميثاق مكافحة الشيوعية الدولية . ونص هذا الميثاق على أن تقف إيطاليا وألمانيا « جنباً إلى جنب ضد تهديد البلشفية وخطرهما » .

وسرعان ما اتضح نفوذ الألمان على الفاشية . وقد تأثر موسوليني تأثراً بالغاً ، ينطوى على الإعجاب الذي لا مزيد عليه برؤية هذه الألوف من الجنود المدربين تدريباً صارماً ، وهم يخطون أمامه في مشية الأوزة ، وأحذيتهم الغليظة تضرب الأرض بإيقاع موسيقى رهيب ، مارين بتلك الشوارع التي غسلتها مياه الشتاء ، مما دعاه إلى أن يقرر لإدخال هذا المظهر الحيوي الذي يدل على النشاط في الجيش الإيطالي والحرس الفاشي . وراح يصدر أمره ، جاهلاً أو متجاهلاً ، ما يثيره هذا التقليد المحط من موجات الاستياء والسخرية ، بأن تصبح مشية الأوزة ، المسيرة الجديدة للجندى الإيطالي . وأطلق عليها اسم « الخطوة الرومانية » ، واصفاً إياها بأنها « الخطوة الثابتة الصارمة التي كانت الفيالق الرومانية تخطوها ، والتي كانت كل واحدة منها تقود إلى الفتح والنصر » . وكان النازيون قبل عشر سنوات قد جعلوا من التحية الرومانية ، تحيتهم الرسمية ، وها هو ذا موسوليني اليوم، رغم إنكاره العنيف لظاهرة التقليد ، يدعى أن الأوزة طائر روماني لأنها هي التي أنقذت الكايتول^(١) ، وينقل عن الألمان مشية الأوزة دون أن يعترف بفضل النقل ، تماماً كما نقل هتلر من قبل التحية الرومانية عن دانونزيو . وكانت هذه المشية صعبة عسيرة على الأداء ، وكانت في منتهى البشاعة ، إذ لم يتقنها القائمون بها . وقد ثار موسوليني على ما وجه إليه من نقد في هذا المجال ، وعلى تسمية المشية الإيطالية الجديدة بالصورة المقلدة لمشية الأوزة . وعندما حاول الملك أن يمشي مشية الأوزة ، راح موسوليني يعلق بشيء من الزاوية لتشيانو قائلاً . . . « ليس الذنب ذنب إذا كان الملك لا يعدو من الناحية العضوية أن يكون نصف إنسان ، فمىء القامة . ومن الواضح أنه لا يستطيع تأدية الخطوة دون أن يثير الهزء والسخرية . وهو لا يحب هذه المشية ، لنفس السبب

(١) إشارة إلى قصة قديمة من التاريخ الروماني ذكرها تيتوس ليفي في كتابه « تاريخ رومة » . وكان الرومان يؤمنون بالفكر والعرافة ، ويكيفون خططهم الحربية على ضوء ما يقوله لهم رجال الطير . وقد نجما الكايتول من الحريق بفضل أوزة في الحرب البونية التي وقعت في القرن الثالث قبل الميلاد . « الحرب »

الذى يكره من أجله امتطاء الجهاد ، إذ يجد نفسه مضطراً إلى استخدام سلم للصعود إلى ظهر الجواد . وراح يقول فى مناسبة أخرى بعد أن جرب المشية بنفسه : « من الواضح أن ذلك الإنسان القمى الشقى لا يستطيع أداء المشية فى الاستعراضات العسكرية ، لكن هذا لا يهم على الإطلاق . فسأعمل على الخلاص منه . وكثيراً ما تغير سير التاريخ فى ليلة واحدة » . وقد اشتدت نقمة موسولنى على الملك من جراء الحقيقة الواقعة ، وهى أنه كان يكره الألمان ، ولم يكن يتردد فى إبداء هذه الكراهية لهم ، والتعبير عن قلقه من جراء توثق عرى الصداقة بين إيطاليا والرايخ . وقرر موسولنى وهو ساخط ، أن « الملكية قد غدت نظاماً لا ضرورة له » . وعندما قيل له إن الملك قد اعترض على إدخال التحية الرومانية فى الجيش ، انفجر موسولنى غاضباً ، وهو يقول . . . « إننى احتملت فوق ما أطبق لأجرّ هذه الملكية المتعبة معى . ولم أقم حتى الآن بعمل يلزم العهد ببقاء الملكية . أنا ما زلت أنتظر وأعتقد أن الوقت فى مصلحتنا ، لأن الملك قد بلغ السبعين من عمره ، وكلى أمل فى أن تهرع الطبيعة لمساعدتى فى هذا الصدد » .

وكانت هناك نتيجة أخرى أكثر إثارة للرعب والفرع لصداقة موسولنى الجديدة لألمانيا ، وأكثر مدعاة للزراية والاحتقار من إدخال مشية الأوزة والتحية الرومانية فى الجيش الإيطالى ، وهى إقحام اللاسامية على الحياة القومية الإيطالية . لكن هذا الشر لم يتعمق جذوراً قط فى هذه الحياة . واستقبل البيان الذى أصدره بعض أساتذة الجامعات المشهورين ، والذى نشرته الصحف الفاشية فى يوليو عام ١٩٣٨ من أن الإيطاليين من العنصر الآرى النوردي الذى لم يختلط دمه بغيره منذ غزوات اللومبارديين ، بكثير من الاستخفاف الذى يستحقه . ولكن لم تمض ثلاثة أشهر حتى كان المجلس الفاشى الأعلى ، يقر برنامجاً للتشريع العنصرى . وقد حظر هذا التشريع الزواج بغير الآريين ، وهو تعريف لم يحدد قط ، إلا بإذن من وزارة الداخلية ، وقرر طرد اليهود الأجانب أو أولئك الذين جاءوا إلى البلاد بعد الأول من يناير عام ١٩١٩ ، كما حرّم على اليهود أن يعملوا فى التعليم والحمامة والصحافة والمصارف وأن ينتموا إلى عضوية الحزب الفاشى ، وأمر بفتح مدارس ابتدائية خاصة للأطفال اليهود . ونص القانون على معاقبة من يتزوجون من أفريقيات أو حتى من يقيمون

علاقات جنسية معهم بالسجن . وقال الدوتشي . . . « إن هذه الإجراءات كلها ستزيد من كراهية الأجانب لإيطاليا . حسناً فليكن » .

وقد زادت هذه الإجراءات أيضاً مما تلقاه الفاشية من معارضة ، ودفعت هذه التطورات موسوليني إلى الحملة حملات عنيفة ومتكررة على من أسماهم « بالجناء » في إيطاليا الذين أثر عليهم مصير اليهود . وكان الملك أحد هؤلاء الجناء . وقد أثار إعرابه عن « عطفه اللاحدود على اليهود » موسوليني ، ودفعه إلى القول بأن من الواجب معاملة هذا « المخت » كما يعامل اليهود . وكان موسوليني حتى قبل زيارته لألمانيا قد أطلق عبارة ساخرة ضد أمريكا نقلها تشيانو في يومياته فوصفها « ببلاد الزنوج ، واليهود ، وهما القوتان اللتان تعملان على انحلال الحضارة » . وتنبأ بأن الشعوب التي ستلعب دوراً عالمياً بارزاً في عام (٢٠١٠) ، هي الشعب الإيطالي ، والألماني والروسي والياباني ، ومضى يقول . . . « أما البلاد الأخرى ، فسيحطمها ما يحدثه "الخامض" اليهودي من تآكل في بنائها . واليهود يرفضون التكاثف عن طريق التناسل . لأنه يسبب الألم ، وهم لا يدركون أن الألم هو العامل الخلاق الوحيد في حياة الأمم » . وراح يقول فيما بعد ، إنه يقر بـ « قبح أو شرط » العمليات الثأرية التي قام بها النازيون ضد اليهود ، بعد مصرع السكرتير الثالث للسفارة الألمانية في باريس على يد يهودي بولندي ، متخذين من الحادث مبرراً للمزيد من أعمالهم اللاسامية .

ومع ذلك ، لم يكن الدوتشي يتابع باهتمام واضح ، الطريقة الفجة والانفاقية التي كانت تتبع في إنفاذ تشريعاته العنصرية ، بل جميع تشريعاته الفاشية الأخرى . وروى أحد موظفي السفارة الألمانية في رومة لصديق له ، أن الصورة الحقيقية للدوتشي ، « هي أنه ينبج كالكلب المسعور ، ولكنه لا يعرض » . وقد استبدل بطبيب أسنانه اليهودي طبيباً آخر ، كما أمر أحد الرزماء الفاشيين باستبدال سكرتيره اليهودية بأخرى ، لكن مثل هذه الإجراءات ، لم تنفع الألمان بأنه جاد في موقفه من المشكلة اليهودية . ولم تصدر الأوامر قط للحزب الفاشي ، بأن يتأكد من تنفيذ التشريعات العنصرية ، كما أن بوشيني ، سكرتير الحزب نفسه ، عرف بأنه لا يحمل الموضوع على محمل الجد . فقد كان موسوليني وظل حتى النهاية ، خجيباً لأمل هتلر في موضوع العداء للسامية . وعندما ذهب إليه أحد العلماء

الإيطاليين يشكو من المعاملة التي يلقاها بعض أصدقائه من اليهود ، رد عليه قائلاً . . . « لأننى على وفاق مع ما تقوله على طول الخط . فأنا لا أومن قيد شعرة بنظرية اللاسامية السخيفة ، وإن كنت أطبقها لدوافع سياسية مجردة » . وليس فى وسع لإنسان أن يتحرر من الانطباع ، بأنه كان ينفذ هذه السياسة لإرضاء لرغبات الألمان .

ولحق ألوهن فى مستهل عام ١٩٣٨ ، بحماسة موسولنى لألمانيا ، فقد أدرك فى ذلك الشتاء أن هناك خطراً قريباً عن اعتداء الألمان على استقلال النمسا ، دون أن يكلف هتلر نفسه ، عناء التحدث إليه ، أو الإقضاء إليه بمخططة ومشاريعه . وقام شوشنيج ، مستشار النمسا الذى كان منذ توقيع اتفاق يوليو عام ١٩٣٦ مع ألمانيا ، يحاول كسب الوقت ، وإرضاء الألمان . ليتجنب وقوع انقلاب نازى فى بلاده ، بزيارة برختسجادن فى الثانى عشر من فبراير عام ١٩٣٨ ، لإجراء محادثات مع هتلر . وقد انتهك عليه الفوهرر عند لقائه به بالإهانات والسباب ، منذراً متوعداً . وقدم إليه الألمان مطالب واسعة شاملة ، لم يكن الإيطاليون قد أبلغوا بها مسبقاً . وأدرك شوشنيج أن عليه أن يذعن إذا كانت تهديدات هتلر ستؤدى إلى الحرب ، وعندما اتخذ بعد شهر خطوته الجريئة والخطرة ، بإعلان ضرورة استفتاء الشعب النمساوى فى موضوع الوحدة مع ألمانيا (الانشلوس) ، علق موسولنى على إعلانه هذا ، بأنه خطيئة كبرى . لكن هتلر رأى فى هذه الخطوة أكثر من مجرد خطيئة . وكانت الخطوة كما وصفها أى . جى . بى . تيلور « أشبه بمن يمس عصباً مصاباً عند إنسان متألم » . وراح هتلر يحدد يوم السبت فى الثانى عشر من مارس موعداً للزحف عبر الحدود ، وبعث قبل يومين من الموعد ، برسالة إلى رومة ، ليسلمها إلى الدوتشى شخصياً ، الأمير فيليب هيسى ، الذى لم يكن يحظى بالتقدير والاحترام فى رومة ، كرَسُول من الأمراء ، اشتهر بالشذوذ الجنسي ، وانحطاط الخلق من ناحية ، وكصهر لملك إيطاليا ، إذ كان متزوجاً من ابنته الأميرة مافالدا .

وكان هتلر قد كتب فى رسالته إلى موسولنى يقول . . . « حزمت أمرى الآن على إعادة النظام وحكم القانون إلى نصابه فى وطنى . وأود أن أؤكد لفخامتكم

بكل إخلاص وصدق ، كزعم لإيطاليا الفاشية بأننى (١) أعتبر هذه الخطوة مجرد دفاع قوى عن النفس و (٢) كنت قد برهنت لك فى ساعات إيطاليا الحرجة على صدق عواطفى ، وأرجو أن تتأكد بأن أى تبدل لن يطرأ على موقفى هذا فى المستقبل ، و (٣) مهما كانت نتائج الأحداث المقبلة ، فقد رسمت حداً نهائياً بين ألمانيا وفرنسا ، وهأنذا أرسم أيضاً ، حداً نهائياً بين ألمانيا وإيطاليا . لأنه ممر برينر . ولن يكون هذا اقرار فى المستقبل موضع نقاش أو تبدل .

وبالرغم من أن هتلر ، كان متلهفاً على الحصول على موافقة موسولنى بعدم التدخل فى الموضوع كما فعل فى عام ١٩٣٤ ، إلا أنه قرر أن يهجم على النمسا ، مهما كان موقف إيطاليا . وبينما كان أمير هيسى لا يزال فى طريقه إلى رومة ، صدرت أوامره بالشروع فى عملية « أوتو » . وكان موسولنى على علم بهذه الحقيقة عندما تسلم رسالة هتلر . وقد أدرك أن معارضته لن تجدى فتىلاً ، وكان قد تبين منذ زيارة شوشنيج لبرختسجادن ، أن المعارضة فى هذا الصدد ، لا تتفق مع الفراهة السياسية . وكان كل ما يأمل فيه الآن ، هو الحصول على فائدة نتيجة استعداده للاعتراف بتعرض هتلر للاستفزاز . وقبل الساعة العاشرة والنصف من ليلة الجمعة ، كان الأمير فيليب ينقل إلى هتلر عن طريق الهاتف ، رد الدوتشى على رسالته قائلاً . . . « هأنذا قادم من قصر البندقية ، وقد قبل الدوتشى الموضوع كله بروح ودية صديقة مطلقة . وهو يبعث إليك بخالص احترامه . . . »

وسر هتلر بهذه النتيجة سروراً بالغاً . فقد كان يعرف أن موسولنى سبق له أن أعلن بشيء من الاندفاع العاطفى بأن إيطاليا « لن تسمح قط بأن تغدو النمسا القلعة المدافعة عن الحضارة المتوسطية ، فريسة للدعوة الجرمانية القومية » . وها هوذا يتأكد الآن من تأييد الدوتشى ، الذى لم يكن مقتنعاً فى أى يوم مضى ، بأنه سيحصل عليه .

وراح يقول لرسوله . . . « أرجو أن تبلغ موسولنى بأننى لن أنسى له هذا الفضل أبداً . . . »
— أمرك يا سيدى .

— أجل لن أنسى له هذا الفضل أبداً . . . أبداً . . . مهما حدث . . .
وعندما تم تسوية المشكلة النمساوية ، فسأكون على استعداد للمضى معه جنباً إلى
جنب ، في السراء ، والضراء ، مهما حدث من تطورات .

— أجل يا سيدى الفوهرر .

— سأوافقه على كل ما يريده . . . وفي وسعك أن تبلغه ، بأننى أشكركه
جزيل الشكر . . . ولن أنسى له منته أبداً . . .
— أجل يا سيدى الفوهرر .

— لن أنسى له فضله مهما حدث . ولو حدث واحتاج إلى عون ، أو تعرض
إلى خطر ، فى وسعه أن يثق بأننى سأكون إلى جانبه ، مهما حدث ، حتى ولو وقف
العالم بأسره ضده .

— أجل يا سيدى الفوهرر؟ .

وبعد يومين ، كان هتلر يكرر تأكيدات هذه واعترافه بفضل الدوتشى مدى
الحياة فى برقية بعث بها إليه فى النمسا التى كانت قد غدت بصورة رسمية « لإحدى
مقاطعات الريف الثالث » ، قائلاً . . . « لن أنسى لك هذا الفضل » .
ورد عليه موسولنى فى برقية جوابية يقول . . . « قررت الصداقة بين
بلدنا التى يجسدها المحور ، موقفى هذا » .

ولكن تحتم على موسولنى على أى حال ، أن يوضح هذا الموقف للشعب
الإيطالى الساخط ، الذى كان قد استمع قبل بضعة أشهر لى الدوتشى ، وهو
يعلن بأن « استقلال النمسا الذى مات دولفوس من أجله ، سيظل أحد المبادئ التى
حاربت إيطاليا ، وستحارب فى المستقبل من أجلها » . ولم يكن فى وسعه إيضاح
موقفه هذا للإيطاليين على النحو الذى أوضحه إلى تشيانوفى حديثه معه ، عندما
وصف النمسا بأنها « كمية غامضة مهملة كان لا بد من زوالها من خارطة أوروبا » .
وقد حاول فى مجلس النواب ، إسكات المعارضة بأسلوب ينطوى على المراوغة
والخداع ، عندما راح يؤكد فى خطاب مليء بالتبجح والادعاءات ، بأن إيطاليا
لم يسبق لها أن تعهدت بصورة مباشرة أو لا مباشرة ، وخطياً أو شفويًا ، بالتدخل
لإنقاذ استقلال النمسا . ولكنه كان يكذب فى قوله هذا ، وكان الشعب الإيطالى

يعرف أيضاً أنه يكذب في إدعائه . وساد الشعب الإيطالي ، لأول مرة بعد مصرع ماتيوتي ، شعور عام وعميق من خيبة الأمل . وبالرغم من أن المحور قد استطاع البقاء بعد « الانشلوس » ، إلا أن شعبية موسوليني المؤكدة قبلها ، لم تستطع البقاء . ولم يكن في وسع أى مراقب ذكى للأمور ، أن يتجاهل الأخطار التى ينطوى عليها بالنسبة إلى إيطاليا السباح لدولة قوية ومحاربة كألمانيا بتوسيع حدودها إلى جبال الألب ، بالإضافة إلى ما فى هذا العمل الذى قام به الدوتشى من تبدل وضع وفجائى فى سياسته لإرضاء حليف مقيت ومكروه . ولا ريب فى أن هذا التبدل ، كان مناقضة صريحة لنظرية السياسة الخارجية الإيطالية التقليدية كلها .

ومثل نصر النمسا هتلى نصراً كبيراً ، بل وتحقيق أحد مطامحه الرئيسية . لكن هذا الضم كان فى الوقت نفسه نقطة وثوب . باتجاه إمبراطورية أوسع فى الشرق . وكان منذ نوفمبر عام ١٩٣٧ ، قد تحدث فى اجتماع سرى عقد فى دار المستشارية فى برلين ، عن عزمه على احتلال تشيكوسلوفاكيا . وها قد بات الآن على استعداد لتنفيذ خطته . ولم يحمل تأكيد الحكومة الفرنسية لضماتها السابقة لتشيكوسلوفاكيا ، على محمل الجحد . وقد أحس بتلك الحاسة السادسة الغامضة التى كان قد شرع يؤمن بصدقها عنده ، بأن فرنسا كإنجلترا ، لا ترغب فى الدخول فى حرب ، وأن فى وسعه أن يتجاهل ادعاءاتها واحتجاجاتها . ولكنه رغبة منه فى التأكد من أن الخوف سيدفع فرنسا إلى الانكماش ، قرر قبل أن يقوم بهذه الخطوة الحاسمة أن يعمل على تعزيز المحور وتقويته .

وكان موسوليني قد وجه إليه الدعوة فى سبتمبر الماضى لزيارة إيطاليا . وفى الثانى من مايو عام ١٩٣٨ ، غادر الفوهرر برلين قاصداً روما ، وهو عازم كما روى أحد سكرتيرى السفارة الإيطالية فى ألمانيا ، على إشباع غرور الإيطاليين وإرضاء كبريائهم ، والتأكيد لهم بأن المحور حقيقة واقعة . وكان قد فقد الكثير عند الإيطاليين نتيجة ضمه للنمسا ، وتحتم عليه أن يستعيد الأرض التى فقدتها . ولم يكن هؤلاء قد نسوا حادث النمسا ، وكذات مخاوفهم قد تجددت من المطامع الألمانية فى منطقة « الادبيج » . يضاف إلى هذا أن الحكومة البريطانية ، أرادت احتيال فرصة ما تصورته من خيبة أمل الإيطاليين فى ألمانيا بعد موضوع النمسا ،

وأن تحول دون مزيد من التوسع من جانب هتلر ، فراححت تسوى مشاكلها مع موسوليني .

وقد رحب تشمبرلين ، بهذه التسوية التي اقترحها تشيانو ، بالرغم من معارضة إيدن الشديدة لها وهو « اعدوا الأكيد لإيطاليا » كما أسماه موسوليني ، ودار نقاش حاد بين الرئيس البريطاني ووزيره بحضور الكونت دبنو جراندي سفير إيطاليا في لندن ، أسفر عن الاستقالة التي قدمها وزير الخارجية إيدن ، بعد يومين اثنين ، وطرب موسوليني لاستقالة إيدن ، التي اعتبرتها الصحافة الإيطالية نصراً لإيطاليا ، بالرغم من التعليقات التي وجهت إلى رؤساء تحريرها . بالحد من التهويل لها مخافة تحول إيدن إلى « شهيد » عند الرأي العام البريطاني ، وراح يقبل التسوية . بشيء من السرور المزوج بالتبرم . وكان يعرف أن أعمال هتلر في أوروبا ، قد عززت من قوته هو على المساومة ، وتمكن عن طريق وعود غامضة وغير حاسمة قدمها بالنسبة إلى أوضاع أوروبا الوسطى ، من الحصول على إقرار بريطانيا بالفتوحات التي قام بها في الحبشة ، وبتدخله في أسبانيا ، بالإضافة إلى ما حصل عليه من ضمانات مرضية في البحر الأبيض المتوسط . وكتب تشرشل ساخناً إلى إيدن يقول « لا ريب في أن الاتفاق الإيطالي ، نصر كامل لموسوليني » . وكان هذا هو عين رأى تشيانو أيضاً ، إذ لم يستطع إخفاء احتقاره الملتف للإنجليز ، لتخبيهم عن الكثير من المواقع لإيطاليا . وراح يعلق على الاقتراح الذي قدم إليه لتوقيع الاتفاق في عيد الفصح لأنه يصادف عيد ميلاد هاليفاكس وزير الخارجية البريطانية الجديد بقوله . . . « حقاً إنه اقتراح رومانطيقي » . وكتب في يومياته بشيء من الحماسة يقول . . . « لا ريب في أن مجال الاتفاق واسع كل السعة . فهو يمثل بداية عهد جديد في علاقاتنا مع بريطانيا العظمى . إنها الصداقة على قدم المساواة ، وهي الطراز الوحيد من الصداقة الذي يمكن أن نقبل به مع لندن أو مع غيرها » . وأضاف في يومياته يقول . . . « وسيرحب الرأي العام الإيطالي بهذا الاتفاق ، ترحيباً حماسياً ، إذ أنه سيرى فيه وسيلة ممكنة للتدخل من ارتباطاتنا ببرلين » . وحقاً قبل السفير البريطاني اللورد بيرث ، عند مغادرته قصر شيجي بعد توقيعه على الاتفاق في الأول من أبريل عام ١٩٣٨ ، من الشعب

الإيطالي مقابل حماسية ، إذ تعالت له الهتافات ، كما تكررت هذه المقابلة الحماسية لتشيانو وهو يغادر القصر إلى قصر البندقية ، ليقدّم تقريره إلى الدوتشي . ولم تكد تحل الساعة الثامنة من ذلك المساء ، حتى كانت الحشود المتجمهرة قد بلغت حداً كبيراً أمام قصر البندقية ، مما أرغم موسوليني على الخروج إلى شرفة القصر ، لتلقى هتافات هذه الجماهير .

حقاً لقد كان الاتفاق « نصراً » على النحو الذى وصفه فيه تشرشل . لكنه كان بالنسبة إلى البريطانيين شيئاً لا قيمة له البتة . فموسوليني لم ير فيه لحظة واحدة . الخطوة الأولى فى سياسته للتحلل من التزاماته تجاه ألمانيا ، وإنما رأى فيه مجرد اعتراف آخر ، بنفوذ إيطاليا المتزايد ، وسلطانها النامى . وقد أرضاه غاية الرضى فى الواقع ، أن ألمانيا نفسها اعتبرت الاتفاق من جانب واحد ، وكان هذا الاعتبار من جانبها أكثر إرضاءً له من الفوائد التى ستجنيها إيطاليا منه . ويبدو أنه لم يترك الآن ولا فيما بعد الفرص العظيمة التى أتاحت له فى اتباع السبيل التقليدى الوسط بين ألمانيا والديمقراطيات الغربية ، كما لم يترك أن شريكه فى الحور ، لا بد وأن يزيد من توقيره له ، بشكل يفوق احترامه له لو أنه كان واقعاً كل الثقة فى إمكانه الاعتماد عليه . لكن موسوليني كان مثلهما فى الواقع إلى التأثير على الألمان بصرامته ، وبأن فى وسعه أن يطرح جانباً هذه الفرصة التى أتاحت له لاتباع سياسة دبلوماسية أكثر براعة وذكاء .

وكانت هذه الرغبة فى التأثير على الألمان ، قد نمت لديه بشكل واضح منذ زيارته الأخيرة لألمانيا ، وأضحت العامل المؤثر فى جميع سياساته . وكان اللورد بيرث قد احتج فى المراحل الأولى من المفاوضات لعقد الاتفاق الإنجليزى - الإيطالى ، لدى تشيانو على الغارات الجوية الإيطالية على المدن الأسبانية . لكن الدوتشي « لم يترعج قط » ، كما قال تشيانو فى يومياته ، من ملاحظات السفير البريطانى ، وإنما « سر فى الواقع » ، لأن يعرف بأن الإيطاليين يثيرون الفرع فى العالم ، بهذا التبدل الاستغزائى العدوانى الذى طرأ عليهم ، بعد أن كانوا يسحرونه بمهاراتهم فى العزف على القيثارة ، وكان يرى أن هذا سيرفع من أسهمنا فى ألمانيا ، حيث يحب الناس فيها الحرب الشاملة التى لا تعرف الرحمة .

وقرر موسوليني أن تكون زيارة هتلر المقبلة لإيطاليا ، مؤثرة بالقدر الذى حققت زيارته لألمانيا هو . وبدأ الإعداد للزيارة قبل موعدها بستة أشهر ، وحرص تشيانو ، على أن لا تضم هذه الإعدادات ، كما قال فى يومياته « شيئاً عادياً ، وريفيّاً ، ورخيصاً » . ولذا فقد عنى أشد العناية بتزيين الشوارع ، وبالرغم من أن الكثيرين من أصحاب الحوانيت رفضوا أن يرفعوا على حوانيتهم صورة هتلر ، فلمهم أرغموا على أن يبدووا هذه الحوانيت فى صورة رائعة تنطوى على الترحيب . وقضى الدوتشى ساعات طويلة ، وهو يشرف على الإعدادات التى تجرى للعروض العسكرية ، ويدرس بنفسه تفاصيلها . ويبدو أن جهوده قد حققت النجاح ، فقد كان أخيل ستاراشى ، رغم جميع أخطائه ، مديراً مسرحياً رائعاً . وكتب تشيانو يقول . . . « وكانت العروض العسكرية فى منتهى الروعة . ولا ريب فى أن الألمان الذين كانوا يشكون فى قدراتنا العسكرية ، سيغادرون بلادنا بانطباع مختلف تمام الاختلاف »

وليس ثمة من شك فى أن هتلر قد تأثر فعلاً . وبالرغم من أنه كان قد شهد عروضاً أكثر خبرة فى ألمانيا . وكان قد عرف بأن إيطاليا لا يمكن أن تحسب قوة عسكرية ضخمة ، فقد أدرك أن إيطاليا ، حليف لا يمكن أن يتخلى عنه على الإطلاق . وبرهن موسوليني لهتلر ، على أن من حقه أن يعتبره الزعيم الوحيد فى العالم ، الذى يستحق المقارنة به . وسلك القوهر من ناحيته سلوكاً ممتازاً . ولم يعد ذلك « المهرج الصغير السخيف » ، الذى كان عليه عند زيارته السابقة للبندقية ، وكان العيب الوحيد الذى رآه الدوتشى فيه هذه المرة أنه يبدو وقد صبغ وجنتيه « بالحمرة » ، ليخفى شحوب وجهه . وقد هتفت له الجماهير بحماسة فى رومة وفلورنسه ونابولى ، ونحطب الحشود الحاشدة ببراعة واعتزاز . وراح يعان لها عزمه على عدم المطالبة بعودة التيرول الجنوبى قائلاً . . . « وإن لإرادتى التى لا تتحول ولا تبدل ، ووصيتى التى لا تتغير للشعب الألمانى ، هى أن يعترف بأن حدود الألب ، التى أقامتها الطبيعة بيننا ، ستظل دائماً وإلى الأبد دون أى تبدل » وسجل تشيانو انطباعاته عن هذه الزيارة بقوله . . . « لا ريب فى أن القوهر ، حقق نجاحاً شخصياً عظيماً » . وقد أفلح كل الفلاح فى إذابة الجليد الذى كان يحيط به . . . وأكسبته انصالاته الشخصية مزيداً من الحب ، ولا سيما عند النساء »

ولم تحطم الصورة السخيفة التي ظهرت له وهو يغادر دار أوبرا سان كارلو ، في ملابس السهرة والقبعة العالية ، الانطباع الناجح الذى تركه عند الشعب الإيطالى لكن الملك فكتور عمانوئيل ، لم يكن راضياً ، بالرغم من رضى القيادة الفاشية فقد كره هتلر منذ النظرة الأولى ، ولم يستطع أن يكسب ثقته ، وكان بادى التبرم ، عندما استضافه فى قصر الكيرينالى . وراح يقول لموسولنى إن هتلر ، طيب فى ليلته الأولى فى القصر ، امرأة فى غرفته . وأثار هذا الطلب موجة عارمة من السخط ، فى القصر الملكى ، لم تهدأ إلا عندما فسر رجال حاشيته ، طلبه بأن هتلر لا يستطيع النوم ، إلا إذا رأى امرأة تعد له سريره . وقد تساءل تشيانو فى يومياته دهشاً عن صحة هذه القصة ، معرباً عن شكه فى أن تكون أكذوبة اخترعها الملك للتعبير عن كراهيته ، مصيفاً إليها أن هتلر « يحقن نفسه بالحقن المهيجة والمنومة » وأضاف تشيانو أن جو القصر كله . كان متعناً ، إذ لا يعقل أن تحب أسرة مالكة يرجع تاريخها إلى ألف سنة ، الطريقة التى يعبر بها عهد ثورى عن ذاته . ولا ريب فى أن هذه الأسرة ، تؤثر ملكاً صغيراً تافهاً على هتلر ، الذى تعتبره من محدثى النعمة .

وقد كره هتلر الملك فكتور عمانوئيل ، ككره الملك إياه ، وظل طيلة حياته كلها ، يحمل حقداً وضغينة على أسرة سافوى المالكة وكانت هذه الكراهية المتبادلة ، تبدو واضحة عليهما فى الحالات التى كانا يظهران فيها معاً فى الحفلات العامة . لكن الود بدا من الناحية الثانية جلياً بين الفوهرر والدوتشى . وقد ظهر التأثير عليهما بجلاء فى المخططة ، عندما وقف موسولنى يودع ضيفه أثر انتهاء زيارته ، وبدا الفوهرر وهو ينظر إلى مضيفه نظرة حب وإخلاص كتلك التى تبدو على الكلب وهو ينظر إلى سيده . وقال الدوتشى موجهاً حديثه إلى ضيفه ، « لن تستطيع قوة فى الأرض بعد اليوم ، التفريق بيننا » . واغروقت عينا هتلر بالدمع وهو يستمع إلى هذا القول .

وعاد هتلر من إيطاليا ، وقد وثق من أن الدوتشى لن يتدخل فى الخطط التى رسمها لتشيكرسلافيا . وبالرغم من أنه لم يشر إلى الموضوع إلا بإشارات غامضة أثناء الزيارة ، إلا أنه كان يعرف أن موسولنى لا يحب التشيكيين وكان يشير إلى بلادهم

كما أشار من قبل إلى النمسا بأنها « نقطة غامضة على الخارطة الأوروبية » . وراح الدوتشى بمعهد الجلو لتقبل الشعب الإيطالى ، الحل الذى تراه ألمانيا للمشكلة التشيكية ، فأخذ يتحدث فى خطبه عن ضرورة مواجهة المشكلة التشيكوسلوفاكية ، و « حلها بصورة عامة » وقال فى إحدى خطبه . . . « وإذا كانت تشيكوسلوفاكيا تجد نفسها اليوم فى موقف دقيق ، فإن هذا الموقف ناشئ عن أنها لا تضم التشيك والسلوفاك وحدهم ، وإنما تضم التشيك والألمان والبولنديين والمجريين والروثنيين والرومانيين والسلوفاك أيضاً » .

ولم يكن قلق الدوتشى منصرفاً إلى أن الألمان سيحلون هذه المشكلة إذا تطلب الأمر بالقوة ، بل إلى خوفه من ان لا يبلغه الألمان بموعدهم عملتهم مسبقاً . فقد تلقى برناردو اتوليكو ، سفير إيطاليا فى برلين التعليقات أكثر من مرة ، بأن يسأل ريبنتروب ، خليفة فون نوراث فى وزارة الخارجية الألمانية أن « يبلغه مسبقاً ، الموعد التقريبى للعمل الذى تزمع ألمانيا القيام به ضد تشيكوسلوفاكيا » . ولكن عندما كان موسولنى يرى أن دبلوماسية هتلر ، قد تستفز حرباً عالمية ، وأن تهديداتها قد تخلق أزمة دولية ، كان ينكمش مترجعاً ، ومعيداً النظر فى موقفه ، متسائلاً عما إذا كانت المصلحة تقضى بأن يواصل تأييده لهتلر ، بلا قيد أو شرط . ويقول تشيانو ، إن تشمبرلين كان أكثر اهتماماً من الدوتشى بالوصول إلى اتفاق سلمى . لكن الدوتشى أخذ يحس فى الواقع بأن هتلر يقترب من شفيع الحرب ، وشرع يدرك خطورة السماح لبلاده هو ، وهى على ما هى عليه من افتقار إلى الإعداد ، بأن ترغم على الدخول فى الصراع ، لما فى ذلك من تعريض « لبفتة » الدعية لخطر الانكشاف . وراح يسر إلى وزير خارجيته تشيانو قائلاً . . . « لو قدر للحرب أن تنشب فى ألمانيا وبراج وباريس وموسكو ، فسألتزم جانب الحياد » .

وبدت الحرب فى الثامن والعشرين من سبتمبر ، حتمية الوقوع . وكان من المقرر أن تنتهى مهلة الإنذار الذى قدمه هتلر إلى التشيكيين فى جودسيرج قبل أربعة أيام فى الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم . وتلقى مقر وزارة الخارجية الإيطالية فى قصر شيجى فى ذلك الصباح ، معاداة هاتفية عاجلة . فقد تطلع البريطانيون من جديد إلى موسولنى ، ليؤثر على هتلر ويحمّله على الاعتدال .

وتسأل السفير البريطاني اللورد بيرث ، عما إذا كان في مكتبه أن يلتقي الكونت تشيانو على الفور . وسجل تشيانو في يومياته أنه استقبله على الفور ، وأن السفير أبلغه بكثير من الهياج العاطفي ، بأن تشمبرلين يناشد الدوتشي ، أن يتدخل لتخلياً ودياً في « هذه الساعات الحرجة التي يعتبرها آخر فرصة للقيام بعمل ما لإنقاذ السلام والخضارة » .

وطرب موسوليني لهذا التطور . واعترف بأن من الخير له أن يبدو كصانع للسلام ، على أن يغامر في الانجذاب إلى حرب . لم يستعد لخوضها . يضاف إلى هذا أن أعين العالم بأسره ، قد شخصت إليه . وراح يأمر تشيانو ، بأن يطلب برلين هاتفياً ، وعندما بات سفيره اتوليكو ، على الجانب الآخر من الخط ، تناول الدوتشي سماعة الهاتف وأمره بأن يمضي لتوه إلى هتلر ، ليؤكد له وقوف إيطاليا إلى جانب ألمانيا ، وليفترح عليه تأجيل التعبئة العامة أربعاً وعشرين ساعة وأضاف قائلاً . . . « أريد الرد قبل الظهر » .

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة . وهرع اتوليكو يهبط سلم السفارة راكضاً ، ليقفز وقد تقطعت أنفاسه في أول سيارة أجرة . وعندما وصل إلى دار المستشارية ، كان هتلر مجتمعاً مع اندريه فرانسوا بونسيه ، سفير فرنسا في برلين ، الذي جاء بحمل إليه ، وفي اللحظة الأخيرة ، عرضاً من الحكومة الفرنسية . وانطلق ضابط من ضباط الحرس النازي ، إلى مكان الاجتماع . ليعلن للقوهر ، أن اتوليكو ، قد وصل حاملاً رسالة إليه من الدوتشي . وسرعان ما فارق هتلر زائره ، ليجتمع بالسفير الإيطالي . وقرأ رسالة الدوتشي التي كان اتوليكو قد ترجمها إلى الألمانية ، فتردد لحظة واحدة ثم أعلن للسفير ، قبوله ، بوجهة نظر موسوليني . وقد اعترف هتلر فيما بعد لجورنيج ، بأن رسالة موسوليني جعلته حائراً في أمره ، ولم يستطع التأكد مما إذا كان رفضه اقتراحه ، لن يؤدي إلى أن يتخلى الدوتشي عنه لمضى في طريقه وحيداً . وبعد بضع ساعات ، كان اتوليكو ، يقول للسفير البريطاني في برلين ، نيفيل هندرسون إن « الشيوعيين قد خسروا فرصتهم اليوم ، إذ لو قطعوا أسلاك الهاتف بين رومة وبرلين ، لكانت الحرب العالمية قد نشبت » . وأعلن نفيس تشمبرلين ، رئيس وزراء بريطانيا في مجلس العموم في الساعة

الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم ، موافقة هتلر على التأجيل . . . ومضى رئيس الوزراء يقول وقد استبدت به العاطفة ، عندما تلقى وهو يلقي كلمته ، رسالة جديدة قراها بعد أن قطع خطبته . . . وهذا ليس كل ما فى الأمر . فلدى الآن ما أضيفه للمجلس المقرر . فقد تلقيت الآن دعوة من الهر هتلر ، لملاقاته غداً صباحاً فى مونيخ . وقد وجه دعوة مماثلة إلى كل من السنيور موسوليني والمسيو ديلاييه وقد قبل السنيور موسوليني الدعوة ، وليس لدى من شك فى أن المسيو ديلاييه سيقبلها . وغنى عن القول ، أننى سأرد عليها بالإيجاب أيضاً .

لكن موسوليني ، رأى من ناحيته إن سرور تشمبرلين واعتزازه كانا فى غير موضعهما . وعندما هتف له تشيانو ليبلغه قرار هتلر . علق عليه بشئ من الرضى قائلاً . . . « لن تكون هناك حرب ، ولكن هذه هى نهاية مكانة بريطانيا وهيبتها » .

وعندما مضى فى طريقه إلى ألمانيا فى تلك الليلة ، راح يفصل رأيه هذا قائلاً بشئ من النكتة والمزاح . . . « عندما ترى بلاداً تعبد فيها الحيوانات إلى الحد الذى يقيمون لها فيها مقابر ومستشفيات ومساكن . وتحمل الرسائل إلى البيغاوات تنقلها ، فى وسعك أن تتأكد بأن الانحلال قد دب فيها . ولهذا الانحلال عوامل عديدة ، من بينها تركيب الشعب الإنجليزى نفسه . فهناك يزيد عدد النسوة أربعة ملايين على عدد الرجال ! أجل أربعة ملايين من النسوة اللاتى لا يجدن الترضية الجنسية ، فيخلقن مجموعة مصطنعة من المشاكل ، لإثارة غرائزهن أو إطفائها . وهن عندما يعجزن عن عنق رجل واحد ، يحاولن معانقة الإنسانية جمعاء » .

ومضى فى مثل هذه الأحاديث حتى ساعة متأخرة من الليل . أجل كان فى نشوة روحية عالية . فقد آمن أن نفوذه وحده ، هو الذى حقق مثل هذا الاجتماع . فهو وحده القادر على مناقشة هتلر ، وكان تبنيه لفكرة المحادثات هو الذى آمن للفورر السبب الذى يغطى به تراجعهم ، وقبوله للتفاوض . ولم يوافق هتلر على الدخول فى أية محادثات إلا إذا كان الدوتشى حاضراً لها شخصياً . وقد أوكل إليه فريق ذلك كله ، اختيار مكان الاجتماع ، إذ اقترح هتلر فرانكفورت أو مونيخ ، وهو الذى اختار ثانيهما .

وتوقف القطار ، فى كوفشتاين ، أى قبل وصوله إلى مونيخ بسبعين ميلاً ،

ليستقله هتلر ومعه أمير هيسي ، فقد كان الفوهرر جد تواق للتحدث إلى الدوتشى على انفراد ، قبل بدء الاجتماع . ودعاه هتلر إلى عربته حيث عرض عليه بعض الخرائط الكبيرة ، للبلاد التى يعترم ابتلاعها . وكان يصر على أنه سيفرض حله على تشيكوسلوفاكيا بالقوة فى حالة فشل المؤتمر . ووجد الدوتشى صعوبة بالغة فى إقناعه بأن لا يحكم على المؤتمر بالفشل قبل الشروع فيه ، ولم تبد على هتلر علامة الرضى ، إلا عندما وعده الدوتشى بأن تقوم إيطاليا بمساعدة ألمانيا فى حالة فشل المؤتمر . ومضى الفوهرر يقول . . . « لا ريب فى أن اللحظة التى سنحارب لإنجلترا فيها جنباً إلى جنب . قادمة عما قريب » . ولم يرد موسوليني على هذا القول ، وظل هتلر فى حيرة من أمره ومن مدى قدرته على الوثوق بمساعدة إيطاليا وعونها .

وأعاد الفوهرر ظاهرة عناده من جديد ، عندما التأم شمل الاجتماع بعد بضع ساعات فى دارة الفوهرر فى كوينجز بلاتز . وقد هبط درج الدارة لاستقبال ضيوفه وقد بان الإصرار والتصميم على وجهه . وحيا الوفد الإيطالى بشيء من الحرارة « الموزونة » بينما صافح بمنتهى البرود والجمود كلا من تشمبرلين وديلايديه . وراح يعلن زائريه على الفور ، بكلمات متسارعة تطبعها الإثارة والحماسة ، إنه أبلغ العالم بأنه يعترم العمل ضد تشيكوسلوفاكيا ، ولكن قيل له بأن عمله هذا يحمل طابع العنف ، ومن هنا كان من واجب المجتمعين أن « يحلوا العمل من مثل هذا الطابع ، لا سيما وأن العمل يجب أن يقع على الفور » .

ولكنه بالرغم من هذه العبارات القاطعة الحاسمة ، بدا عصبي المزاج ، وغير واثق من نفسه . وعندما انتهى من حديثه ، نأى عن الآخرين ، ووقف إلى جانب الحائط . وقد بان عليه القلق ، يتطلع إلى موسوليني ، الذى بدا على النقيض من زميله فى منتهى الثقة . وفى صورة الوصى على المجتمعين ، يخطو فى الغرفة جيئة وذهاباً ، وقد وضع يديه فى جيبه متحدثاً بفرنسية طليقة إلى ديلايديه . وبألمانية دقيقة إلى رينتروب ، وبنجليزية صعبة وإن كانت سليمة إلى تشمبرلين . وراح يخرج من جيبه مذكرة تضمنت كل الاقتراحات الألمانية التى نقلها إليه سفيره أتولييكو هاتفياً قبل مغادرته رومه ، بعد أن أدخل عليها تعديلات طفيفة . وقبل الآخرون المذكورة على أنها من وضع موسوليني ، وإن الألمان على استعداد لتقبلها كأساس

مرض للبحث ، وأعربوا عن استعذابهم لدرسها بدقة وعناية . وأعدت مسودات أخرى ونوقشت . ولكن مذكرة موسوليني هي التي ألقت أساس الاتفاق الذي تم التوقيع عليه في الساعة الثانية من صباح الثلاثين من سبتمبر . وكان موسوليني قبل التوقيع بساعات قد أدرك أن هتلر قد فاز بكل ما أرادته تقريباً ، وأن المناقشات التي استطلت ، كانت في الواقع دون أى جدوى . ولم يشترك تبعاً لذلك في هذه المناقشات ونجح في أن يوحى لشمبرلين بالانطباع بأنه « رجل هادئ كل الهدوء ، ومتحفظ بالغ التحفظ ، إلى الحد الذي يجعله يبدو وكأنه خائف من هتلر » وخيل إلى ايفين كيركبا تريك الذي شهد الاجتماع أيضاً ، بأن موسوليني كان بالرغم من ثقته الظاهرة بنفسه ، خائفاً من هتلر ، وإنه بدا وكأن « حملاً ثقيلاً » قد أزعج عن منكبيه نتيجة الاجتماع .

وأحس تشيانو بالارتياح أيضاً للنتيجة ، وظل يرقب الدوتشى وهو يقف مترفعاً على الآخرين ، مما أثار إعجابه ، وراح يكتب في يومياته قائلاً . . . « كانت روحه عالية دائماً سبابة للأحداث والرجال ، وكانت قد استوعبت فكرة الاتفاق ، وبينما كان الآخرون يجهدون أنفسهم في مناقشة بعض القضايا الشكلية ، كان هو ، قد فقد كل اهتمام بالمناقشة . فقد انتهى الموضوع بالنسبة إليه ، وراح فكره يحول في نواح أخرى » .

وبالرغم من أن هتلر ظل فيما بعد يعرب عن عدم رضاه عن اتفاق مونيخ ، إلا أنه بدا في ذاك اليوم يشارك تشيانو إعجابه بالدوتشى . وقد ذكر فرانسوا بولنسيه أنه ظل يرقبه باستمرار « وقد بدا عليه الإعجاب الذي بلغ حد السحر . فلو ضحك الدوتشى . ضحكك لضحكك ، ولو عبس ، شاركه عبوسه » .

وهللت إيطاليا للدور الذي أداه الدوتشى معتبرة إياه نصراً عظيماً . وجاءه الملك من فلورنسه إلى دارته الريفية في سان روسورى ، ليهنئه على ما فعله ، وعندما وصل القطار الذي يقله مدينة رومه ، احتشدت جماهير غفيرة من الناس ، جاءت لتحييه بحماسة لم يكن لها مثيل على حد تعبيره هو ، منذ أعلن قيام الإمبراطورية الإيطالية . لكن هذه الحماسة لم تعجبه ولم ترضه ، إذ أن لقب « ملك السلام » ، الذي سمع الناس يهتفون له به مصحوباً بلقب « الدوتشى » ، لم يكن من الألقاب

التي تعجبه . وعندما رأى قوساً من أوراق الزيتون وقد أقيم عبر شارع « ناسيونالي »
الذي مر منه موكبه ، لم يستطع أن يكبت غضبه ، فانفجر قائلاً . . . « ومن
المستول عن هذا الكرنفال ؟ » وكان يرى أن الواجب يقضى بعدم السماح للشعب
الإيطالي بأن يتعلق بأهداب السلام ، وأن « القتال » يجب أن يصوغ طبيعته
وشخصيته . وحزم أمره على عدم السماح لشعبه بأن يرى فيه صورة أخرى
لتشميرلين « صانع السلام » ، لأنه رأى في هذه الصورة ما يحط من قدره ،
وقرر أن يحتفل بعودته إلى إيطاليا بسلسلة من الخطب التي يرغمه فيها ، ولا سيما
البورجوازيين من أفرادها ، الذين كانوا في حاجة إلى « من يقرر لهم بطونهم » ،
على تقبل ألمانيا المعتدية كصديقة لهم وحليفة بدلاً من فرنسا التي يجب أن ينظروا
إليها كعدوة . وكان يقول لنفسه . . . « لا يمكن لإيطاليا أن تتحول إلى بروسيا ،
ولكنني لن أسمح للإيطاليين بأن يعيشوا في سلام إلى أن أموت » . وكان قد تحدث
إلى تشيانو قبل بضع سنوات بقوله . . . « إنني أعد للإيطاليين مفاجأة مذهلة ،
فعندما تنتهي من أمر أسبانيا سأذيع عليهم بياناً تاريخياً . وكان زراؤه قد ألفوا أن
يقبلوا منه مثل هذا الوعيد إليهم بشيء من التحفظ ، ولكنهم لم يستطيعوا إلا أن
يتبينوا هذه المرة أنه جاد فيه . وراح في السادس والعشرين من سبتمبر ، يبلغ
تشانو ، بأنه قد حزم أمره على إعلان التعبئة العامة في اليوم التالي ، لإرسال قوات
إلى ليبيا ، مما حمل تشيانو على الاعتراف فيما بعد بأنه كان قد صدق ما قاله
الدوتشي . وأفضى تشيانو إلى صديق له فيما بعد ، بأنه خشي حقاً في أن يمضي
الدوتشي إلى الحرب ، لإثارة البورجوازيين الذين بكرهمهم ، والذين كانوا لا ينفكون
عن إظهار فزعهم من مغارم السياسة الفاشية ، ومن البيروقراطية الضخمة التي كان
الفاشيون قد أنشأوها . وأظهرت أرقام الإنفاق الحكومي التي نشرت ، وجود عجز
يتزايد باستمرار ، إذ ارتفع من نحو ألفي مليون لير إيطالي في عام ١٩٣٤ - ١٩٣٥
إلى ما يربو على أحد عشر ألف مليون في عام ١٩٣٧ - ١٩٣٨ ، وما يزيد على ثمانية
وعشرين ألف مليون في عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ ، وقد عزا موسوليني ، انسجاماً منه
مع طبيعته ، هذا القلق المتزايد عند أفراد الطبقات الوسطى إلى اهتمامهم الأنوى
بمصالحهم الخاصة وريختهم ، وإلى رفضهم الاعتراف بالمصلحة القومية ، أو على

حد تعبيره المشهور والدعى . . . « بالتوجيه التاريخى والكلاسيكى ، للأساليب الفاشية » . وكان الأغنياء أيضاً مترددين فى تأييدهم للعهد ، وقد سرت إليهم أيضاً ، عدوى الأفكار البورجوازية . وقال إن من الواجب ضربهم بالمرات ، لإرغامهم على عدم الأثرة والانضباط ، وعهد إلى ستراشى بأن يدرس لإمكان القيام بإجراءات ضد البورجوازية ^(١) . وعلى قادة الحزب أن يكونوا قدوة فى الأخلاق الفاشية المناهضة للبورجوازية بعدم ارتداء الياقات « المنشأة » ، وأم النوادى الليلية ، واحتساء القهوة . وراح يدرس فيما بعد إغلاق البورصة ، وإلغاء الدرجة الأولى فى القطارات ، ومنع رياضة الجولف واستيراد المجلات والملابس والكتب لفرنسية .

وكان قد شرع فى حملته على فرنسا منذ عدة أشهر . وتحفل يوميات تشيانو فى شهر مايو عام ١٩٣٨ بالإشارات إلى هذه الحملة . فى الثالث عشر من مايو ، وصف الوزير زعيمه بأنه « أخذ يعيل شيئاً فشيئاً إلى إظهار عداته لفرنسا » . وكان يصف الفرنسيين بأنهم شعب « حطمته الخمر والأمراض السرية والصحافة » . وراح فى اليوم التالى يلقى خطاباً فى جنوه وقد تحدث عنه تشيانو بقوله : « كان خطاباً عنيفاً فى عداته لفرنسا . وراحت إلماهير تصفر هازئة بفرنسا ، وتضحك من اتفاقها مع لندن » . وعندما حل السابع عشر من مايو ، كان لا يزال يوجه حملاته العنيفة إلى فرنسا . وبلغ به الإجهاد والعنف بعد يومين مداهما . ونقلت إليه برقية بعد يومين كان السفير الفرنسى قد بعث بها إلى حكومته ، وقد تضمنت ملاحظات مهينة له ، فثار غضبه إلى حد الجنون .

واستمرت الحملة بعد اجتماع مونيخ إلى أن أصبحت المظاهرات العدائية لفرنسا فى مستهل شهر ديسمبر أمراً مألوفاً . وراح موسولنى يسر فى التاسع من ديسمبر إلى تشيانو ، بأن الأمور قد تجاوزت الحد فى الوقت الحاضر ، وأن من الواجب تلطيف الحملة المعادية لفرنسا بعض الشيء ، ومضى يقول . . « ولو استمرت الحملة على هذا النحو فسنضطر إلى أن نحمل المدفع على الكلام ،

(١) لعل من الحقائق الثابتة أن الناس يميلون إلى أن يستكروا بمنتهى العنف ، كل ما يخشونه أشد الخشية ، ويكرهونه بالغ الكره . وكان موسولنى الشاب بالرغم من بوهيميته المفرطة ، يعنى بأن تؤخذ صورته ، وهو مرتد ثياباً مقبولة جميلة ، وقد أعد بطاقاته وقد حملت لقب « الأستاذ » ، وهو اللقب الذى كان يحمله وهو يزارل مهنة المدرس .

« المؤلف »

ولكن الوقت لم يحن بعد لحديث المدفع . ولم يكن القصد من شن هذه الحملة منذ البداية أن تكون مقدمة إلى الحرب ، وإنما كان القصد منها لإعداد الرأي العام لتقبل التحالف العسكرى الخطى مع ألمانيا .

وكان ريبنتروب ، هو أول من اقترح هذا الحلف ، أثناء الزيارة التى قام بها هتير لرومه فى شهر مايو الماضى ، لكن موسولنى بالرغم من رضاه على الفكرة بادئ ذى بدء ، راح يصدر تعليقاته إلى تشيانو ، بالتهرب من الحديث فيها . وعاد ريبنتروب فأثار الموضوع من جديد فى مونيخ ، إذ دون تشيانو فى يومياته يقول . « إنه يصف الحلف بأنه أعظم شئ فى العالم . لكن هذا الرجل ميال إلى المبالغة دائماً . ولا ريب فى أننا سندرس موضوعه ، بمنتهى العناية ، وقد نؤجل البحث فيه مدة من الزمن » . حقاً كانت هذه هى إرادة موسولنى وتوجهاته له .

ولم يكن وزير خارجية ألمانيا ، أكثر نجاحاً فى هذا الصدد عندما زار رومه فى شهر أكتوبر . وقرر تشيانو الآن بعد أن انجلت فورة الحماسة المبكرة . إنه لا يجب هذا الرجل ولا يستلطفه ، ومع ذلك ، فقد ظل يصغى إليه ، وهو يتحدث عن إنجلترا ، كما يتحدث العشيق المهجورة عن « صديقها الخائن » ، ويقول للدوتشى بلهجة الأستاذ لتلميذه ، إن الحرب قادمة لا ريب فيها ، وإن الضرورة تقضى بتحويل ميثاق مكافحة الشيوعية إلى حلف عسكرى يضم اليابان أيضاً . وكان موسولنى كيساً فى حديثه إلى زائره ، إلا أنه رفض أن يعده بشئ ، وقال إن رأى العام الإيطالى لم يتهأ بعد لهذه الخطوة التى لا بد وأن تلقى معارضة عنيفة من القادة العسكرين وممثلى الطبقة الوسطى ، بالإضافة إلى معارضة الكنيسة التى ساءت علاقاتها كل سوء بالحكومة الألمانية ، وإلى مقاومة الملك الذى يكره الألمان أكثر من كراهيته للفرنسيين ، وأكثر من تشبيه الاستيلاء على كورسيكا الفرنسية .

لكن الحصومة مع فرنسا كانت قد أرغمت موسولنى ، كما سبق لها أن أرغمته إبان الحرب الحبشية ، على الإكثار من الاعتماد على دعم ألمانيا ومساعدتها . وقد استبد به القلق ، عندما سمع أنه فى الوقت الذى كان يطالب فيه علناً بكورسيكا ونيس وتونس من فرنسا ، كان ريبنتروب يزور باريس ، ويوقع مع حكومتها رغبة منه فى إيقاع الفرقة بينها وبين بريطانيا ، لإعلاناً رسمياً بضمن فيه الحدود الراهنة بين

فرنسا وألمانيا . واشتد قلقه وتعاضم . عندما وصلت إلى مسامعه شائعات الاتفاق العسكري بين بريطانيا وفرنسا . وشائعات أخرى تقول إن أمريكا تعترم تقديم المعدات الحربية إلى الدول الديمقراطية إذا اقتضى الأمر ذلك . يضاف إلى هذا ، أنه كان يأمل على الغالب ، في أن يصبح في حالة توقيع ميثاقاً عسكرياً مع ألمانيا ، أكثر قدرة على التأثير على سياسات ألمانيا . وتوصل في نهاية عام ١٩٣٨ إلى الاستنتاج ، بأن التسويف والمماطلة لم يعودا ممكنين . وراح تشيانو يبلغ سفيره اتوليكو في الثالث من يناير ، بأن ينقل إلى الألمان استعداد الدوتشي عما قريب لتوقيع معاهدة التحالف . ودون تشيانو في يومياته في هذه الآونة يقول . . . « وكان اتوليكو في الماضي معادياً لفكرة التحالف مع ألمانيا ، ولكنه بات الآن مؤيداً لها كل التأييد . وراح يقول إن الأجازة التي قضّاها أخيراً في إيطاليا ، قد اقنعت به بأن ليس ثمة شيء ينال تأييد الشعب الإيطالي . أكثر من الحرب مع فرنسا » . ولم يحض يومان حتى كانت التعليمات قد صدرت إلى أنجيل ستراشي . فالدعاية ضد فرنسا يجب أن تستمر وتوسع ، بحيث يمكن إعلان توقيع الحلف في اللحظة التي يبلغ فيها العداء لفرنسا ذروته ، وإن عليه أن يعد العدة لإقامة مظاهرات عداوية لفرنسا في اللحظة التي يعلن فيها عن توقيع الحلف . لكن هذه التعليمات سرعان ما أُنبتت بطلب التأجيل إذ أن رئيس وزراء بريطانيا سيزور رومة قريباً ، وإن من الخير التريث في الشروع في الحملة حتى تنتهي هذه الزيارة .

وكان تشمبرلين هو الذي اقترح هذه الزيارة . وكان قد آمن بأنه قد توصل إلى تفاهم مرضٍ مع هتلر ، وأن عليه أن يتأكد الآن من صداقة إيطاليا أيضاً . وكان على استعداد كثيره من ذوي الإدراك العدليين في بريطانيا ، لنسيان المغامرة الحبشية ، ولإقامة علاقات جديدة مع إيطاليا على أساس « ما فات مات » على حد تعبير داف كوبر^(١) . وكان الكثيرون من أعضاء حزبه^(٢) ، قد امتنعوا عن استنكار الهجوم الإيطالي على الحبشة في حينه ، وكانوا على استعداد كما ذكر المستر مايكل فوت في كتابه الرائع والساخر ، للغفران والنسيان . وهكذا مضى

(١) من وزراء المحافظين ، وكان قد استقال من حكومة تشمبرلين في عام ١٩٣٨ احتجاجاً على سياسة الترضية التي اتبعها مع هتلر .

(٢) يعني حزب المحافظين .

تشمبرلين إلى إيطاليا ، وكله أمل في أن يتمكن من استغلال هذه الحقيقة ،
 أما إذا أفلح في خلق شقاق بين رومة وبرلين ، فهذا عين الصواب . وراح يكتب
 إلى رومة ، بعد أن حصل على موافقة متبرمة من الحكومة الفرنسية ، مقترحاً عليها
 أن يقوم في شهر يناير بزيارتها مستصحباً معه ، وزير خارجيته الأورد هاليفاكس .
 لكن الزيارة فشلت كل الفشل ، بل كانت مصدر ضيق شديد ، بالرغم
 من الجهود الهائلة التي بذلها تشمبرلين لإنجاحها ، والظهور بمظهر مرض . فقد
 ذكر موسوليني بأن « الإنجليز يحملون عقولهم في أفقيتهم » ، وراح يقول لزوجته
 إن « تشمبرلين ومظلمته سيصلان إلى رومة » . وبالرغم من اعترافه فيما بعد بأن
 أحاديث رئيس وزراء بريطانيا كانت « أكثر مرحاً من أن تصدر عن إنجليزي » ،
 فإن تأثيره به في هذه الزيارة ، كان أقل من تأثيره عندما التقاه أول مرة في مونيخ .
 وكانت التعليمات قد صدرت إلى ستراشي بأن لا يكون استقبال تشمبرلين وهاليفاكس
 حماسياً ورائعاً . وقد نفذت هذه التعليمات تنفيذاً دقيقاً . فقد استقبل الضيفان
 الإنجليزيان بمنتهى الدماثة المتحفظة . وبالرغم من لطف موسوليني في لقائهما ،
 ومن تظاهره بالسرور عندما قدم إليه الرئيس البريطاني صورته وقد وقع عليها ،
 إلا أنه كان يتحدث عنهما في غيابهما بكثير من الامتنان الذي يبلغ حد الزرابة .
 وراح تشيانو يسجل في يومياته ، بعد أن سافر الضيفان ، وبعد أن رأى عيني
 تشمبرلين تغرورقان بالدمع عندما تحرك به القطار ، وهو يستمع إلى بعض أفراد
 الجالية البريطانية في رومة ينشدون . . . « حقاً إنه رجل مرح طيب » . . . ما نصبه .
 « ما أبعدنا عن هؤلاء الناس ، إنهم يعيشون في علم آخر » . وقد كنا نتحدث عن
 هذا الموضوع بعد العشاء مع الدوتشي ، وقد تحلّينا في زاوية من القاعة . . . وسمعت
 الدوتشي يقول . . « إن هؤلاء الناس من معدن يختلف عن معدننا ، بل وعن معدن
 فرنسيس دريك ^(١) ، وغيره من المغامرين العظام الذين خلقوا إمبراطورية بريطانيا .
 إنهم الأحفاد المجهدين لخلقة طويلة من الأجداد الأثرياء ولا بد من أن يضيعوا
 إمبراطوريتهم » . وقد أعرب الدوتشي عن نفس هذا الازدراء ، بعد بضعة أسابيع ،

(١) السير فرانسيس دريك (١٥٤٦ - ١٥٩٦) - مكتشف إنجليزي مشهور ومن أشهر قادة
 الأسطول البريطاني ، بذل إليه يرجع الفضل في قهر أسطول أسبانيا العظيم (الآرصاد) ، التي أعدته أسبانيا
 لغزو إنجلترا .
 « المهرب »

عندما عرض عليه اللورد بيرث ، خطاباً كان المستر تشمبرلين يعترم إلقاءه في مجلس العموم ، لينال موافقته عليه . وراح الدوتشى يقول . . . « أعتقد أنها المرة الأولى في التاريخ . حيث يقوم رئيس للحكومة البريطانية بعرض مسودة خطاب يعترم إلقاءه ، على حكومة أجنبية . حقاً إنها نذير شؤم لم » . وقال في مناسبة أخرى ، إن من الطبعي أن يخشى الإنجليز الحرب وفكرتها خشية كبيرة . فهذا أمر متوقع من شعب يحبش حياة الدعة والاسترخاء » ويجعل من اللاعب والأكل . ديانتته التي يؤمن بها . وكانت العقيدة الفاشية معادية كل العداء لهذه الفكرة . فقد كتب في مقال مشهور وبتوقيعه الصريح ، في دائرة المعارف الإيطالية (انسا يكلو بيديا ايتاليا) ، يقول إن « الفاشية لا تؤمن باحتمال دوام السلام ولا بمجدواه . . . فالحرب وحدها هي التي تستثير طاقات الإنسان كلها ، وتضع طابع النبيل على أولئك الذين يجدون الشجاعة لمواجهة . » وكانت هذه فلسفة « لا يستطيع الإنجليز حتى أن يشرعوا في فهمها » . وراح يتساءل في خطاب لاحق ألقاه ، ضمنه هذه المفاهيم الخاطئة عن الحياة الإنجليزية بشكل مهول يستثير إعجاب سامعيه قائل . . . « ولكن ماذا ينتظر على أى حال ، من شعب يرتدى أفراده ملابس السهرة ، إذا ما أقبلوا على تناول الشاي بعد الظهر » .

وتحدث تشيانو هاتيفاً إلى رينيتروب ، بعد انتهاء زيارة تشمبرلين ، ليؤكد له أن اجتماعه بموسوليني لم يسفر عن شيء ، ثم قال « كان اجتماعاً فاشلاً ولا أهمية له على الإطلاق » . وهكذا مضى العمل في إعداد صيغة الحلف العسكري . لكن صدمة أصابت المحور قبل توقيعه ، كادت تودي به إلى الانهيار .

في الرابع عشر من مارس عام ١٩٣٩ ، عبرت الجيوش الألمانية دون استشارة موسوليني المسبقة ، الحدود التشيكوسلوفاكية ، ليصل هتلر إلى براغ بعدها بيوم واحد . واشتد غضب موسوليني عندما نقلت إليه هذه الأنباء . وراح يقول بعد أن زاره الأمير فيليب هيسى مبعوث هتلر الشخصي ، ليشكره كالعادة على تأييده . . . « عودنى القوهجر ، على أن يبعث إلى برسلته ، بعد أن يحتل بلداً ما » . ثم مضى يقول فيما بعد . . . « لا شك في أن التحالف مع ألمانيا سخيخ مطبق ، لا ترضى به حتى الحجارة التي تقيم صرحه » . لكن غضبه سرعان ما تحول إلى

أسمى . فعندما علق تشيانو بشيء من التهمك ، قائلا « إن المحور يعمل لمصلحة أحد جانبه ليس إلا » ، رد موسوليني بيت من شعر دانتي ^(١) يقول فيه . . . « علينا أن نتجنب إثارة غضب الرب وأعداء الرب » . وأضاف يقول ، علينا أن نقبل « خداع الألمان » برحابة صدر . وكان قد توصل الآن إلى الاستنتاج بأن هتلر غدا أقوى من أن يستطيع أحد وقفه عند حده ، وإن على إيطاليا أن تظل إلى جانبه مهما عاملها بصلف وغرور . وكان أشد ما يقلقه توسع النفوذ الألماني عبر البلقان الذي كان يود أن يعتبره منطقة نفوذ إيطاليه ، وارتضى بشيء من الشك الواضح ، تأكيدات هتلر له بأن ألمانيا ستخلى لإيطاليا عن البحر الأبيض المتوسط ، وبحر الادرياتيک ، ولم يرض على أى حال بقصم المحور ، قائلا . . . « لن نستطيع تبديل سياستنا اليوم ، فنحن على أى حال لسنا من عواهر السياسة » .

وأعلن الدوتشي في الخطاب الذي ألقاه عشية الواحد والعشرين من مارس في المجلس الغاشي الأعلى ، والذي وصفه تشيانو . . . « بالروعة وقوة الحججة وسلامة المنطق ، والتصميم ولبطولة » ، قراره التاريخي ، فقد تحدث عن « الولاء المطلق للمحور » كحاجة حتمية للسياسة الخارجية الإيطالية والمفهوم الغاشي عن الصداقات الحقة . ولما كان المجلس قد ألقى الطاعة دون نقاش ، فقد قبل قرار الدوتشي دون أى اعتراض . ويبدو أن جراندى وبنو وبالبو ، كانوا غير راضين عن القرار ، فلما نعى نبأ ذلك إلى الدوتشي تجاهلهم واصفاً إياهم « بالبلداء » . وقال إن بالبو الذي يصف البقاء في المحور بأنه « لعق لحذاء الألمان » ، ليس إلا « خنزير ديمقراطي » ، كان الدوتشي قد قرر مستقبله عندما أعلن « بأنه لا يستطيع أن يضمه » . أما ديونو فليس إلا « عجوز أحرق خرف » ، يقول لموظفي قيادة الحزب وأعضائها في مقرهم . . . « أعلن الدوتشي مشيئته ، ولا مرد لهذه المشيئة » . ويبدو أن شخصية موسوليني بالإضافة إلى سياساته ، قد تأثرت نتيجة اشتراكه مع هتلر . فقد بات يتكل عليه بشكل متزايد ، وإن كان هذا الاتكال مصحوباً بالتردد ، كما أخذ الإعجاب المتبرم مصحوباً بالغيرة الكامنة ، يحتلان مكانة بارزة

(١) دانتي البجيري (١٢٦٥ - ١٣٢١) - أعظم شعراء إيطاليا ، ومن وجالات الأدب العالمي خلد أسمه بلحمته الشعرية « الملهاة الإلهية - الكوميديا الإلهية » ، وقد وصف فيها طبقات الجحيم ، ونعيم السماء في سفره وهمية قام بها مع عشيقته بياتريس . « المغرب »

في تصرفاته . وبالرغم من أنه كان يستمع في الماضي إلى المشورة ، وأحياناً إلى النقد ، فقد بات الآن يهاجم بكثير من الحقد المرعب ، كل من يجراً على التقدم بنصيحة أو على مناقشة إحساسه السياسي . ولما كان قد حزم أمره على أن الإيطاليين في حاجة إلى الخشونة وإلى التكيف مع تلك الروح التي طبعت انتصارات ألمانيا العسكرية فقد راح يرغم وزرائه ، وقادة الحزب الفاشي ، على أن يكونوا قدوة للشعب في أداء بعض التمارين القاسية والخطرة ، والإسهام في الرياضات المجهدة . ووسع مستهدفاً نفس الغاية ، فثبات الموظفين ، الذين كان ينتظر منهم أن يرتدوا البزة العسكرية ، وأصدر مراسيم غايتها فرض الأنظمة التي تلغى المصافحة باليد ، والطريقة المهذبة في الحديث ، وألزم القادة العسكريين وكبار ضباطهم بالجرى بدلاً من المشي في التمرينات العسكرية . وكان يرغم بالقول دائماً ، بأن على « الإيطاليين أن يتعلموا الخشونة والصلابة ، وتجنب اللين ، واحتمال كره الناس لهم » . وكثيراً ما قال عن نفسه بأنه يؤثر أن يرهبه الناس على أن يحبوه . وكان يعمل ما في وسعه ، لفرض هذه الرهبة عليهم . فقد أسرت قوات فرانكو قبيل انتهاء الحرب الأسبانية عدداً من الشيوعيين الإيطاليين الذين كانوا يحاربون في كاتالونيا ، وعندما سئل عما يراه في أمرهم قال على النحو الذي سجله تشيانو في يومياته . . . « أعلموهم ، فالموتى لا يتحدثون » .

أما بالنسبة إلى اليهود ، فقد أعد مصيراً لهم أكثر ابتكاراً . وعندما عرض عليه مشروع لتحويل جزء من الصومال الإيطالي ، إلى أرض لليهودية العالمية قال ، أن « ميجويرتانيا » هي المكان الأفضل ، لما فيها من موارد أولية يستطيع اليهود استغلالها ، وبينها صيد كلاب البحر ، التي تستطيع أن تعيش في البداية على لحوم اليهود .

وأصبحت اللاسامية الآن جزءاً رئيسياً من السيامة الفاشية . وبالرغم من أن المراسيم التي صدرت لتطبيق هذه السياسة ، لم تنفذ تنفيذاً صارماً ودقيقاً قط ، إلا أنه لم تحل نهاية عام ١٩٣٨ ، حتى كان عدد من اليهود البارزين قد فصلوا من مراكزهم الرئيسية في الخدمة العامة ، وأرغم الكثيرون منهم على مغادرة البلاد . وانتشرت مصادرة ممتلكات اليهود في ربيع عام ١٩٣٩ . وكان يقال إن حملة

مكافحة السامية التي بدأها موسوليني . كانت تهدف إلى أن يفرض على البورجوازية « المتخاذلة والانهزامية » ، والميالة إلى الأجانب « على حد تعبيره ، طرازاً أفضل من التفكير الإمبريالي ، وأنها كانت جزءاً من إجراءات اقتصادية استلزمها الحالة العسرة التي يعيش فيها الاقتصاد الإيطالي . وكثيراً ما قيل أيضاً ، إن موسوليني أراد عن هذا الطريق اكتساب ود العرب^(١) ، ولكن لم يكن هناك من شك على الإطلاق ، في أن تأثير هتلر عليه في هذه الناحية ، كان كبيراً للغاية .

وليس ثمة من يشك أيضاً في أن توقيت أول عمل عدواني ضخم قامت به إيطاليا منذ غزو الحبشة . كان تحت تأثير احتلال هتلر لتشيكوسلوفاكيا أيضاً . وبالرغم من أن موضوع الهجوم على ألبانيا كان قد درس منذ بضعة شهور ، وحدد أسبوع عيد الفصح كالموعد المقرر له منذ مستهل شهر فبراير ، إلا أن الدوتشي لم يحزم أمره في هذا الصدد إلا في أواسط شهر مارس . وقد انقضت أسابيع على ترده ، يعد فيها بالأوامر دون أن يصدرها . وينذر إبانها بالضربات القاصمة دون أن يوجهها . وكان كعادته في الحالة التي يفتقر إبانها إلى الثقة بما يجب أن عمله . يتراوح بين حالات من الإثارة الخنوية ، والكتابة الصامتة . يتحدث في يوم عن التوسع الذي لا بد منه للإمبراطورية الإيطالية ، وهو في اليوم الثاني ، يرفض الحديث في أى موضوع مهم على الإطلاق . وكان تباينه بنفسه يصل في حالات ارتفاع معنوياته إلى حدود الجنون والنشوة . وقد تحدث بوسيني ذات يوم إلى تشيانو ، فقال : « إن على الدوتشي أن يعالج نفسه علاجاً جلياً من الأمراض الزهرية التي يعانى منها ، إذ أن قلقه قد بات واضحاً الآن لدى جميع زملائه » .

وراح يعلن في إحدى نوبات تفاخره . وفي جلسة للمجلس القاشي الأعلى ،

(١) كانت الحملة التي شنها موسوليني على اليهود . وهي حملة لم تكن عنيفة بحال من الأحوال ، جزءاً من الفلسفة الفاشية نفسها التي تقوم على العنصرية ، كما كانت جزءاً من حملته على البورجوازية التي كان اليهود يؤلفون جزءاً كبيراً منها . واعتقد أن المؤلف بالإضافة إلى مبالغته في الحديث عنها ، قد أخطأ في تفسيرها ، كما أخطأ في القول ، بأنها صدرت عن رغبته في التحبب إلى العرب ، إذ أن العرب لم يحبوا في أى يوم من الأيام ، إنزال الاضطهاد باليهود في دول العالم ، وهم يعرفون أن هذا الاضطهاد ذريعة سياسية تستخدمها الصهيونية في استئثار العطف العالمي عليها لفرض إطماعها السياسية في فلسطين . « المغرب »

«الأهداف لفورية للحركة الفاشية» ، فالبنانيا يجب أن تغدو إيطالية والبحر الأبيض المتوسط ، يجب أن يصبح منطقة أمينة لإيطاليا عن طريق احتلال تونس وكورسيكا ، والحدود الألبية يجب أن ترجع إلى الوراء لتشمل منطقة «الغار» . ومضى بعد ذلك يقول . . . «ولاني لأتطلع أيضاً إلى تيسينو ، فقد فقدت سويسره قوة تلاحمها ، وأصبح مصيرها كغيرها من الدول الصغيرة حتمياً ، إذ لابد للتفسخ من أن يصل إليها . هذا برنامجي ، ولكنني لا أستطيع تحديد أوقات التنفيذ . وكل ما أعمله الآن هو تحديد الخطوط التي يجب أن نسير عليها . وكل من يبوح بما قلت الآن ، كلا أو جزءاً ، سيحاكم بتهمة الخيانة» . وقد توسعت هذه المطالب المغالية في اليوم التالي لتشمل جيبيوتي وحصة في قناة السويس . ولكن لم يمض يومان ، حتى بدا وكأنه قد فقد كل اهتمام بالموضوع ، فقد وجدته تشيانو في الثالث من مارس راجعاً في «أن يدع الأمور تسير سيرها الطبيعي في موضوع ألبانيا . ولم يحل الثالث والعشرون من الشهر حتى كان قد قرر الإسراع في العمل»^(١) .

وجاء احتلال هتلر لتشيكوسلوفاكيا فوضع حداً لشكوكه ومخاوفه . ولم تكند تصل إلى مسامعه أنباء الغزو الألماني حتى طار فكره إلى «احتمال توجيه الضربة إلى ألبانيا» . ولكنه ما لبث أن أعلن عن مخاوفه في أن يؤدي احتلال تلك البلاد الفقيرة ، التي غدت في الواقع تابعة له دون احتلالها إلى «مقارنته عند الرأي العام العالمي ، باحتلال الرايخ لبوهيميا التي تعتبر من أغنى بقاع العالم» . وكما كان ألم تشيانو الذي كان منذ أمد طويل يلحف بضرورة الشروع في المغامرة الألبانية كحركة مسرحية تخفف قليلاً من «اتساع هيبة الرايخ الذي لا ترضى عنه إيطاليا» وتعمل على «رفع معنوية الشعب الإيطالي» ، عند ما رفض موسوليني أن يصدر أوامره على التو ، بالشروع في العمل . ولكن عندما نقل إليه أن الملك عاد وكرر

(١) لم تكن هذه التقلبات المفاجئة في أوضاع موسوليني وتفكيره ، بالرغم من صلتها المباشرة بتدري حالته الصحية ، ظاهرة من ظواهر هذه المرحلة في سياسته فقط ، إذ كانت حالة دائمة معه منذ أمد بعيد ، وتقول مارجريتا سارفاقي إن موسوليني أبدىها عشية يوم الانتخابات في عام ١٩١٩ أنه عدل عن ترشيح نفسه ، ولكنه ما لبث في اليوم التالي أن أعلن أن اسمه يجب أن يحتل مقدمة قائمة المرشحين في ميلان .

اعتقاده ، بأنه لا يرى ضرورة للمغامرة في الحرب من أجل « الاستيلاء على أربعة صخور » ، راح يحزم أمره ويقرر الشروع في العمل ، « فور الانتهاء من موضوع أسبانيا » .

وأطربته أنباء سقوط مدريد في الثامن والعشرين من مارس . وكان قد شك في يوم ما في أن يتمكن فرانكو « بقيادته الواهنة » للحرب ، من أن يصل إلى النصر ، وذكر لتشيانو في الصيف الفائت ، بأنه يريد منه أن يسجل في يومياته تنبؤه بهزيمة فرانكو . ولكن ها هي الحرب المضنية ، تنهى أخيراً ، وها هو العالم يشهد الدليل على « نصر عظيم وجديد للفاشية » . وعاد الدوتشي إلى مكتبه من شرفة قصر البندقية ، حيث كان قد خرج إليها لتحية الجماهير الحاشدة التي جاءت لتحفل بنهاية الحرب الأسبانية ، وأشار إلى خارطة أسبانيا في الأطلس المفتوح أمامه وهو يقول . . . « ظل الأطلس مفتوحاً على هذه الخريطة ، منذ ثلاث سنوات . وكانت هذه المدة أطول من الكفاية . ولكنه يجب أن يفتح الآن على صفحة أخرى » . ولم تمض عشرة أيام ، حتى كانت القوات الإيطالية تهبط أرض ألبانيا . ولم تقع أية معارك ، أو قتال عنيف . وبالرغم من أن الصحافة الإيطالية وهي تعكس المصاعب الكامنة في تفسير « الحركة الفاشية » ، والدعوة إليها ، لم تتفق على ما إذا كان عدم القتال ، يعنى قوة الجيش الإيطالي ، أو ترحيب الألبانيين به لإنقاذه من حكم ملك مكروه ، إلا أن إيطاليا حققت على أى حال نصراً من نوع ما . ولم يحل المساء حتى كانت إيطاليا قد فازت ، على حد تعبير هتلر ، « بقلعة تستطيع عن طريقها فرض سيطرتها القوية على البلقان » .

وكان تردد الدوتشي قبل بضعة أيام ، قد اختفى ليحل محله إيمان وتصميم . وكتب تشيانو في يومياته للخامس من أبريل يقول . . . « إنه هادئ . أجل هادئ إلى حد يثير الخوف » . وعندما انتهت العمليات في الخامس عشر من أبريل ، ووصل إلى رومة وفد ألباني ليقدم تاج البلاد إلى فيكتور عمانوئيل ، كانت اللفة مسيطرة على نفس موسوليني . وكانت ردود الفعل على الصعيد العالمي تافهة . وكانت الاحتجاجات البريطانية على حد تعبير تشيانو « للاستملاك الداخلي أكثر منها لأى شىء آخر » . وعندما تلقى موسوليني رسالة الرئيس روزفلت التي يقترح

فيها هدنة لمدة عشر سنوات ، رفض في بادئ الأمر قراءتها . ولكنه ما لبث أن قرأها ، ثم نحاها جانباً عنه وهو يقول . . . « إنها ثمرة تفكير شلل الأطفال » .



وصل جورنيج إلى رومة في ذلك اليوم . وكان هتلر قد أوفده ليسرد على مسامع موسوليني أوضاع الإعداد الألماني للحرب ، والثقة التي نواجه بها الحكومة الألمانية موضوع « حل المشكلة البولندية » . وكان حل هذه المشكلة التي قدر لها أن تقود إلى الحرب ، قد بات وشيكاً ، وكان الفوهرر متلهفاً على أن يعلن إلى العالم ، أن ألمانيا وإيطاليا تفان معاً ، ويربطهما حلف عسكري ، وذلك قبل الشروع في الخطوة التي لا يمكن إصلاحها . وكان يعرف أن إيطاليا لم تصبح بعد قوة عسكرية قوية ، بالرغم من أن الجنرال فون ريتلين ، ملحقة العسكرية في رومه كان قد خدع بنبجحات الدوتشي ، واعتقد بأنها أقوى من حقيقتها . ولكن هتلر كان في حاجة إلى تأييدها السياسي ، وكان يأمل في أن يؤدي إعلان الحلف بين ألمانيا وإيطاليا إلى منع الديمقراطيات الغربية من الوفاء بالتزاماتها إلى بولنده . وأصدر أمره إلى ريننروب ليجدد محاولاته لحمل إيطاليا على توقيع الحلف ، ولكن تشيانو متردد ولا يريد توقيعه . فهو يخشى أن يتجاوز الألمان الحدود في بولنده ، وأن يقوموا بخطوات تترك آثاراً مفعجة . ولم تمض خمسة أيام على محادثات جورنيج مع موسوليني ، حتى كانت رومه تتلقى برقية من اتوليكو سفيرها في برلين ، يقول فيها إن العمل الألماني في بولنده بات وشيك الوقوع . وانتاب القلق تشيانو ، الذي كان قد لاحظ أثناء زيارة جورنيج ، أنه يتحدث عنها على نفس النحو الذي كانوا يتحدثون فيه في الماضي عن النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، فهرع بحمل برقية السفير إلى قصر البندقية ، ليطلع الدوتشي عليها . لكن موسوليني لم يكن في حالة نفسية طيبة . فقد جدد النصر الذي حققه في أسبانيا وألبانيا أطماعه في التوسع وطرب عندما أبلغه تشيانو ، أن سفير هولنده في رومة زاره في قصر شيجي ، ليعبر له عن قلق بلاده من الأنباء القائلة بأن ألمانيا وإيطاليا قد اتفقتا على اقتسام أوروبا بينهما . وراح موسوليني وكأنه

يؤكد مخاوف السفير الهولندي يقول . . . «لأنى فى الواقع أدرب إيطاليا على الحرب» ولكنه رغم هذا المزاج الميال إلى الحرب ، كان بعيد النظر أحياناً وفى أوقات اتزانة فى موقف إيطاليا ، فىرى أنها ليست متأهبة للحرب بعد . وطلب إلى وزيره تشيانو أن يمهّد لاجتماع يعقده مع ريبنتروب ، ليشين المدى الذى يعترم الألمان الوصول إليه ، والموعده الذى حدده للشروع فى العمل ، وأن يؤكد لريبنتروب فى الوقت نفسه ، ضرورة استمرار السلام لإيطاليا ثلاث سنوات أخرى على الأقل .

وعندما اجتمع الوزيران فى ميلان فى السادس من مايو ، راح ريبنتروب يقول . . . «وليس ألمانيا أقل اقتناعاً من إيطاليا ، بضرورة استمرار السلام فترة أخرى لا تقل عن أربع سنوات أو خمس» .

وكان ريبنتروب فى منتهى الدماثة والكماسة فى هذا الاجتماع . وسرعان ما حلت بينه وبين تشيانو ، الذى كان قد وصفه قبل بضعة أشهر ، أى فى شهر أكتوبر المنصرم ، بأنه «رجل دعى وأحمق وثرثار ومفتقر إلى الكياسة» ، والذى كان قد أرضاه ما سمعه عنه من الدوتشى ، عند ما قال بأن «نظرة واحدة إلى رأس هذا الرجل كافية للحكم على صغر ما فيه من عقل» . وراح تشيانو يهتف إلى الدوتشى بعد مأدبة العشاء التى أقامها لضيفه فى فندق الكونتيتنتال ، مبالغاً إياه ، أنه بالرغم من تصميم هتلر الواضح على وجوب استعادة دانزيج ، فإن الألمان يؤكدون ضرورة الحفاظ على السلام لعدة سنوات مقبلة . وارتاح موسوليني إلى هذا التأكيد المطمئن ، وثار للأبناء التى وصلتته عن عدم استقبال شعب ميلان لريبنتروب استقبالا ودياً ، فراح يأمر تشيانو ، بأن يعلن إلى العالم ، أن الحلف العسكرى الألمانى - الإيطالى قد أصبح حقيقة وقعة .

ووصل تشيانو إلى برلين فى الواحد والعشرين من مايو لتوقيع معاهدة الحلف التى أراد موسوليني أن يطلق عليها فى البداية اسم «ميثاق الدم» ، ثم ما لبثت أن حملت اسم «ميثاق الصلب» الذى اشتهرت به فى العالم . وقدم تشيانو فى احتمال جرى ذلك المساء فى دار السفارة الإيطالية فى برلين إلى ريبنتروب وسام «انوزياتا» الرفيع الشأن . وكان جورنج ، الذى شهد المأدبة ، قد مضى إلى قاعة الطعام لاستبدال بطاقته ببطاقة ريبنتروب ، ليضمن اجلوس إلى يمين المضيف الإيطالى .

وعندما عاد إلى قاعة الاحتفال ، رأى وزير الخارجية الألماني وقد أحاط به الضيوف يعربون عن إعجابهم بقلادة الوسام التي منحها والتي تخوله الحق بأن يعتبر نفسه ابن عم الملك لإيطاليا . وأحس جورنيج . أن التكريم كان يجب أن يوجه إليه ، لأنه هو الذي نجح أثناء زيارته لرومة في إقناع موسوليني بتوقيع الحلف ، وراح يعرض ، والدموع في عينيه ، منظراً مربكاً ، فقد أصغر على أن تكون القلادة له ، ولم يتمكن تشيانو من إقناعه بالبقاء في الحفل إلا بعد جهد جهيد . ولم يكن جورنيج قد أبل من الصدمة بعد في اليوم التالي ، عندما جرى حفل التوقيع على الحلف في دار المستشارية ، وكان يشيخ بوجهه جانباً كلما رأى ريبنتروب أمامه . أما هتلر ، فقد بدا في أسعد حالاته وأكثرها مرحاً وجوراً . فهو يكثر من الحديث إلى الحد الذي يبعث الضيق عند سامعيه ، واكتشف تشيانو أن القومهر ، يبدو مجهداً وقد شاخ ، نظراً لأن النوم قد فارق جفنيه في الآونة الأخيرة . وكانت هناك أيضاً شائعات تحدث عن ولعه الشديد بقتاة فائقة الجمال في العشرين من عمرها ، صاحبة « جسم رائع » تدعى سيجريد فون لا باس . كانت تستأثر بأوقاته كلها . ولكن بالرغم « من الغضن العميقة التي بدت على جفنيه » ، فقد بدا . كما قال تشيانو ، « في أحسن حال » وأهدأ بال . وكان من حقه أن يرضى وأن يطمئن . فالميثاق الذي وقع . أكثر بكثير من ذلك الحلف الدفاعي الذي كان موسوليني قد اقترحه في الشتاء المنصرم . وقد جسدت مادته الثالثة حقيقة طبيعته إذ نصت ... « ولو حدث وتورط أحد الفريقين المتعاقدين ، خلافاً لرغبات الفريقين المتعاقدين وأمالهما ، في حرب مع دولة أو أكثر ، فإن الفريق المتعاقد الثاني ، يسارع فوراً إلى الوقوف إلى جانبه كحليف ، ويمده بكل ما لديه من قوى عسكرية في البر والبحر والجو » . ولم يكن هناك نص في هذه المادة أو في غيرها من مواد الميثاق ، على أن لا يكون العون العسكري شرطاً في حالة الهجوم العدواني من أحد الفريقين . وكان من الواضح لهتلر أن ميثاق القولاذ ، مقدمة فعلية للحرب .

وفي نفس يوم التوقيع ، دعا هتلر كبار قادته العسكريين إلى اجتماع سري عقده في مكتبه في دار المستشارية ليقول لهم بصراحة ما نصه ...

« ليست دانزيج في الواقع هي هدف أعمالنا ، وإنما الحلف توسيع مجالنا

الحيوى فى الشرق . . . وليس ثمة مجال للتفكير فى نجاة بولندا . فأمامنا قرار واحد وهو أن نهجم بولنده ، فى أول فرصة ممكنة . وليس فى وسعنا أن نقبل تكرار ما حدث فى تشيكوسلوفاكيا . فستكون هناك حرب . . . وعلينا أن نحرق سفننا . ولم تعد القضية موضوع خطأ أو صواب » .

لكن موسولبنى وقد أفزعه ما استطاع استنتاجه لا ما سمعه ، واصل الدعوة إلى الأخذ بالأناة والحيلة . وراح يسلم الجنرال كافاليرو . الذى اختبر ممثلاً لإيطاليا فى اللجنة العسكرية لميثاق الفولاذ ، وهو فى طريقه إلى ألمانيا للقيام بمهمته ، مذكرة سرية أكد فيها التحذيرات التى كانت قد صدرت عن تشيانو ، فى ميلان . أثناء اجتماعه الأخير بربينروب . وقد أوصى هتلر فى مذكرته ، بأن يقضى الستين أو السنين الثلاث القادمة ، فى إجهاد الدول الديمقراطية وإنهاكها بإثارة الخوف فى نفوسها . لا باستخدام القوة الفعلية ، وراح يؤكد له ، أن إيطاليا تحتاج إلى السلام حتى نهاية عام ١٩٤٢ على الأقل ، وعلى كل حال . واقترح موسولبنى أن تكون حرب الأعصاب هى السياسة الآتية للمحور .

وكان موسولبنى نفسه قد شرع فى مثل هذه الحرب فعلاً . فقد شجع الناس على الاعتقاد بأن ميثاق الفولاذ موجه ضد فرنسا وبريطانيا ، وراح يتحدث متوعداً عن يوجوسلافيا واليونان ، ويمنع الدبلوماسيين الأجانب من الوصول إلى تيرانا (عاصمة ألبانيا) ، وضاعف من عدد الرسائل المغفلة التى تحمل أنباء مفزعة ، والتى كان يأمر بإرسالها إلى سفارات الدول غير الصديقة فى رومة ، مكثرأ من الإشارة فى خطبه إلى « مفهوم الولاء والإخلاص عند الفاشية » . وروى تشيانو ، أن موسولبنى كان فى منتهى الغلظة ، عندما قدم إليه السير برسى لورين سفير بريطانيا الجديد وخليفة اللورد بيرث لأول مرة فى السابع والعشرين من مايو . وراح يقول للسفير إن من حق الإنسان أن يتساءل ، نظراً لسياسة التطويق التى تتبعها بريطانيا بشكل واضح ضد إيطاليا ، إذا كان ثمة مجال للاعتقاد بأية جدوى فى بقاء الاتفاق الإنجليزى - الإيطالى . وفوجئ لورين بهذا الهجوم المباغت ، واحمر وجهه أشد احمرار ، وتردد طويلاً قبل أن يجد العبارة المناسبة للرد على الدوتشى . وكتب تشيانو عن هذه المقابلة يقول . . . « وبدا الدوتشى الذى عرفت عنه الدماثة واللفظ

متجههم الوجه ، لا يستطيع المرء أن ينفذ إلى ما يخفيه وراءه . وبدا كوجه إله من آلهة الشرق ، قد من الصخر » . وعندما قام لورين بزيارته الثانية لموسوليني ، راح هذا يقول له بمنتهى الوضوح . . . « أبلغ تشمبرلين ، أنه إذا كانت إنجلترا على استعداد للقتال دفاعاً عن بولندا ، فإن إيطاليا ستمتشق الحسام دفاعاً عن حليفها ألمانيا » ، وقد أعاد موسوليني على مسامحة هذه العبارة مرتين ^(١) .

ولكن بالرغم من أن الدوتشي كان يحرص الآن على أن لا يترك مجالاً للشك في أنه سيقف إلى جانب ألمانيا ، فإن الألمان لم يعاملوه كالحليف الموثوق الصادق ، الذي كان يود أن يكونه . وكانت المادة الثانية في ميثاق الفولاذ قد نصت على المحادثات المسبقة في جميع القضايا التي تهم الفريقين المتعاقدين ، إلا أن هتلر قال لمستشاريه في مكتبه في اليوم الذي تلا توقيع الميثاق . . . « علينا أن نخفي حقيقة هدفنا عن إيطاليا ^(٢) » . لكن موسوليني رفض أن يصدق رغم تحذيرات اتوليكو المستمرة ، أن هتلر قد يشرع في العمل دون استشارته . وكان تشيانو نفسه يشك في أن هتلر قد يقدم فجأة على العمل بعد « هذه التحذيرات المتكررة عن حاجة إيطاليا إلى السلام » . وواصل ريبنتروب التأكيد له ، بعدم وقوع تبدل فيما تم الاتفاق عليه في اجتماع ميلان ، مكرراً عزم ألمانيا على أن تضمن لنفسها فترة من السلام لا تقل عن ثلاث سنوات . لكن تحذيرات اتوليكو ظلت تنهال على قصر شيجي ، كما نقل في العشرين من يوليو أنباء « تحركات عسكرية على نطاق واسع في تشيكوسلوفاكيا » . واعترف تشيانو في يومياته التي كتبها في الثاني من أغسطس بأن « إصرار اتوليكو يدعوني إلى التساؤل . فلماذا أن يكون سفيرنا قد جن ، أو إنه يرى ويعرف أشياء ، غابت عنا تماماً » .

(١) أبلغني السير برسي لورين أن وصف تشيانو لموقف موسوليني ينطوي على كثير من المبالغة . وأضاف أن موقفه كان بارداً ، ولكنه لم يكن على هذا النحو من العنف .

(٢) يبدو أن إصرار هتلر المستمر على رفض الكشف مسبقاً عن خططه للإيطاليين ، وهو إصرار أثار غضب موسوليني وأله ، لم يكن ناشئاً عن لسبقفة والفرور بقدر نشوئه عن تخوفه من خدعهم الاحتفاظ بسرّيها ، وقد تحدث إليه جوبلز ذات يوم فقد « إن جميع الإيطاليين يثثرون كالنجر » . وطلب هتلر من الاميرال ريدر في يناير عام ١٩٤٣ ، أن يحرص كل الحرس من عدم تسرب المعلومات المتعلقة بالخطط البحرية الألمانية إلى الإيطاليين . وكان يقول . . . « هناك احتمال كبير في أن تكون الأسرة المالكة تنقل المعلومات إلى بريطانيا » .

وقرر تشيانو في ذلك الأسبوع أن يمضى إلى ألمانيا ليتأكد بنفسه من حقيقة ما هو دأثر هناك . فقد رفض ريبنتروب الفكرة التي نادى بها الدوتشى والتي أيدها اتوليكو كل التأييد بعقد مؤتمر دولي . وطلب الألمان تأجيل الاجتماع الذي اقترح الإيطاليون عقده بين هتلر وموسوليني . لكن ريبنتروب وافق في التاسع من أغسطس على أن يجتمع بتشيانو بعد يومين في سالزبرج .

وليس ثمة من شك في أن جل هم موسوليني كان منصرفاً في هذه الآونة لإنقاذ إيطاليا من الحرب . فهو في حاجة إلى الوقت لتثبيت الوضع في ألبانيا وأفريقيا الشمالية والحبشة ، ولتخفيف التركز الصناعي في حوض نهر البو عن طريق نقل بعض المصانع وأجهزتها وآلاتها إلى الجنوب ، وللوصول بالأسطول والقوة الجوية والمدفعية والفرق الآلية إلى كامل قوتها ، ولإرجاع ملايين الإيطاليين الذين يعملون في فرنسا ، ولتحسين موجودات إيطاليا من النقد الأجنبي عن طريق المعرض الدولي الضخم لدى كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق لإقامته في رومة في عام ١٩٤٢ تخليداً للذكرى السنوية العشرين للزحف على رومه . وكانت هذه الأسباب كلها ، وفي مقدمتها فكرة المعرض الدولي التي استبدت بموسوليني فوق كل تصور ، هي التي حملته على التلهف على الاحتفاظ بالسلام لأمد ما على الأقل ، وعلى أن يجتج عن طريق التعليقات القاطعة التي أصدرها إلى تشيانو ، بأنه يريد « أن يصبح قادراً عندما تقرر ألمانيا تعبئة قواتها عند منتصف الليل ، على تعبئة قوات إيطاليا قبلها بخمس دقائق » .

وطلب الدوتشى من وزيره قبل أن يمضى إلى اجتماعه مع ريبنتروب في سالزبرج ، أن « يبرهن للألمان بالأدلة المادية والخطية ، على أن اندلاع نيران الحرب في هذه الآونة ، عمل جنوني أحمق ، وأن استعداداتنا ليست من النوع الذي يحملنا على الثقة من أن النصر سيكون حليفنا . فالفرص الآن لا تعدو أن تكون متعادلة . . . أما بعد ثلاث سنوات فستكون بنسبة أربعة إلى واحد » . ودرن تشيانو في يوميته بتاريخ العاشر من أغسطس يقول . . . « أوصاني الدوتشى قبل سفرى ، بأن أبلغ الألمان بمنتهى الصراحة أن علينا تجنب الاصطدام مع بولنده ، إذ من المتعذر حصر الحرب في هذه الحالة كحرب محلية ، كما أن نشوب حرب

عامة - يكون بمثابة كارثة للجميع . ولم يسبق لى أن سمعت الدوتشى يتحدث عن الحاجة إلى السلام بمثل هذه الحرارة والصراحة ، كحديثه اليوم » .

ونقل تشيانو في سألزبرج آراء الدوتشى بجملة لا تقل عن حرارته ، لكن ريبنتروب لم يكن ميالا إلى الإصغاء إليها قط . فقد كان - كما اكتشف تشيانو مما أزعجه وأفرغه - مصمماً على الحرب ، وعازماً على أن يكون السبب في اندلاعها . وراح تشيانو يدون في يومياته بعد أمد بعيد . . . « وكنا نتأهب لاحتلال مقاعدنا على مائدة العشاء عندما حدثنى ريبنتروب عن تخطيط ألمانيا لإشعال نيران الحرب في أوروبا ، وكان وهو يلقي على مسامعى بهذه العبارة الرهيبة محتفظاً بهدوئه ، وكأنه يتحدث عن إجراء إدارى عادى لا وزن له ولا نتائج » .

ومضى تشيانو قائلاً . . . « ورجت أسأله ونحن نسير معاً في الحديقة بعد العشاء ... حسناً يا ريبنتروب ، ما الذى تريده؟ أتريد الممر البولندى أودانزيج ؟ » « فرد وهو يتفكر في بعينه الجاهلتين الباردتين . . . (لا هذا ولا ذاك . إنما نريد الحرب » .

لكن ريبنتروب ، رفض على أى حال ، الإفضاء بشئ إلى الإيطاليين ، عن الطريقة التى يريد إشعال الحرب بواسطتها . وقال مزهواً ، وهو يستخدم بشئ من الهدوء الذى يستفز الأعصاب ، واحدة من تلك الاستعارات القديمة المهجورة . التى تجعل حديثه مملاً . . . « إن جميع القرارات ما زالت مغلقة في صدر القوهر الذى لا يمكن النفاذ إليه » . ومضى تشيانو يقول . . . « ورفض ريبنتروب أى حل قد يرضى ألمانيا ويجنبنا الحرب والصراع . وبت على ثقة من أن الألمان لو أعطوا أكثر مما يطلبون ، فلنهم سيمضون إلى الحرب على أى حال ، لأن شيطان التدمير كان قد سيطر عليهم . وتوتر جو الحديث بيننا في بعض الأحيان . ولم أكن لأتردد في التعبير عن أفكارى بمنتهى الصراحة الفاسية ، ولكنه لم يتأثر ، ولم يتحول عن موقفه . وتجلد الجوى بيننا ، وامتدت برودته حتى إلى سكرتيرينا ومساعدينا . وجلسنا إلى العشاء ، فلم نتبادل عبارة واحدة . . . وتوضحت لي حقيقة واحدة ، وهى أن الألمان ينظرون إلينا نظرة الامتئان والزرابة » .

وزاد يقين تشيانو من هذه الحقيقة في اليوم التالى ، عندما مضى إلى مقابلة

هتلر في « عش النسر » . وبالرغم من أن الفوهرر كان في منتهى الود والكراسة ، إلا أنه لم يكلف نفسه عناء إخفاء الحقيقة الواقعة ، وهي أنه قد حزم أمره ، ولن يحول عنه ، مهما كان رأى الدوتشي . وكانت الخرائط منتشرة على مكبته ، إذ كان قد شرع في العمل في الخطط العسكرية . وراح يعيد على مسامع تشيانو ما قاله له ريبنتروب بالأمس من أن فرنسا وانجلترا لن تخوضا الحرب ، مضيفاً أنهما حتى لو فعلتا ذلك ، فسيكون في مكتنة ألمانيا بعد احتلال بولنده الذى لن يستغرق منها وقتاً طويلاً ، أن تحشد « نحواً من مائة فرقة على الجدار الغربى لجوض الحرب العامة » . وأضاف أنه بالنسبة إلى إيطاليا ، فلن يكون في موقف « يحتاج فيه إلى مساعدتها بموجب الالتزامات الراهنة » .

وقد أراد هتلر أن يفهم تشيانو ، « بأن الألمان يرون في حلفهم مع إيطاليا وسيلة لإرغام العدو على الاحتفاظ بعدد من فرقته أمامنا . مما يخفف الوضع على الألمان في جبهات قتالهم . . . وهكذا لم يكن يهمهم في قليل أو كثير المصير الذى قد يحقق بنا » .

وقد انطوت هذه الملاحظة من جانب تشيانو على شيء من التكهّن الصادق حقاً .

وعندما عاد تشيانو إلى فندقه في ذلك المساء ، أصدر أوامره إلى مرافقيه بحراسة طائرته الخاصة حراسة دقيقة ، مخافة أن يقوم أحد رجال المخابرات الألمانية بحمل شيء فيها يحطمها في طريق العودة ، ليظهر الحادث وكأنه اتفاق عرضى . وعندما جاءه اتوليكو تلك الليلة ليباحثه في الوضع ، مضى معه إلى الحمام ، على اعتبار أنه قد يكون المكان الوحيد الذى لا يخفى فيه الألمان مكبراتهم الصوتية لمعرفة كل ما يدور معه من أحداث . وبدا الوضع وكأنه قد تحول إلى علو للألمان .

وعندما كان يجرى محادثاته مع الفوهرر في عش النسر ، تظاهر الألمان عمداً بوصول برقية إلى هتلر سلمت إليه أثناء المحادثات . وقد سمح لتشيانو بأن يعرف بأن البرقية صادرة عن موسكو ، وأنها تعلن موافقة الحكومة السوفياتية ، على أن تقوم ألمانيا بإرسال وفد إلى العاصمة السوفياتية للتفاوض في عقد ميثاق بضمن هزيمة بولنده ، ويؤكد حياد روسيا مما يقضى على الآمال التى طالما علقها فرنسا وانجلترا

على تعبئة العون السوفياني للحد من توسع ألمانيا . ولم تغب عن ذهن تشيانو أهمية هذا الاتفاق ولا الأهمية التي يعلقها هتلر عليه . ولم يكلف نفسه في اليوم التالي ، حتى عناء الدخول في مناقشات على الإطلاق ، وكان كل ما سأله عن هتلر ، تحديد موعد الهجوم . وراح هذا يؤكد له بأن القضية كلها ستنتهي قبل منتصف أكتوبر . وعاد تشيانو إلى رومه في الثالث عشر من أغسطس وقد « اشمازت نفسه كل الاشتزاز من الألمان ومن فوهررهم ، ومن طريقهم في تصريف الأمور . » وراح يكتب في يومياته ، بشيء من العاطفة اللامألوفة فيه . . . « انهم خانونا ، وكذبوا علينا . » وها هم يجرؤنا الآن إلى مغامرة لا نريدها إذ قد تؤدي إلى تحطيم بلادنا وعهدنا القاشي كله . ولا ريب في أن الشعب الإيطالي سيصاب بما يشبه الذعر ، عندما تصل إلى مسامعه أنباء العدوان على بولنده ، بل وقد يكون توافاً إلى محاربة الألمان أنفسهم » . فلم يحبب الشعب الإيطالي ميثاق الفولاذ في أى وقت من الأوقات ، ولكن هذا العمل سيستثير كراهيته المطلقة له .

لكن مخاوفه هذه وشكوكه قد انتهت الآن . فلم يعد يمر بلحظات يعتقد فيها بصحة رأى الدوتشي في أن من واجب إيطاليا الإصرار على البقاء إلى جانب ألمانيا حتى النهاية . وكان أتوليكو قد توصل إليه في حمام سالزبرج أن يبلغ الدوتشي أن في وسعه الآن أن يعتبر نفسه متحرراً من التزامات حلف الفولاذ نظراً لقيام هتلر بصفه وغروره ، بتفسيره إياه على النحو الذي يراه . لكن تشيانو لم يكن على ثقة من أن على إيطاليا أن تمضي إلى هذا الحد . وعندما كان في طائرته عائداً إلى رومه ، صدر بلاغ رسمي أذاعته وكالة الأنباء الرسمية الألمانية يعلن أن اجتماع سالزبرج قد انتهى باتفاق إيطاليا الكامل مع ألمانيا في آرائها وتطلعاتها . أجل انفق هتلر ورينتروب . ومثل هذا البلاغ لتشيانو الإهانة الأخيرة . فقد طلب منهما أن لا يذاع أى بلاغ رسمي في الوقت الحاضر ، وقد أقرأ بوجهة نظره ، وها هما يتراجعان عن اتفاقهما . ومضى إلى الدوتشي ليقول له بمنتهى الصراحة إن « الألمان خونة ومخادعون وإن علينا أن لا نتردد في التأني عنهم » . ودون في يومياته ما يلي . . . « ولن أتردد في أن أثير في نفسه كل شعور معاد للألمان ، بكل وسيلة ممكنة في طاقتي ، فقد قلت إن مكانته قد هبطت ، وأنه يؤدي دور الشريك التابع . ثم

عرضت عليه في النهاية وثائق تقيم الدليل على أكاذيب الألمان علينا في القضية البولندية . وأكدت له أن حلفنا معهم يقوم على وعود ينكرونها هم الآن » .

وكان رد فعل موسوليني الفوري ، نموذجاً من الشكوك والخاوف والمراوغات المفاجئة التي تميزها في هذه الفترة ، والتي كادت أن تصل بوزرائه في غضون الأشهر العشرة التالية إلى حد الجنون . وكتب تشيانو فيما بعد متذكراً ما حدث يقول . . . « وقد وافقني على رأي بادئ ذي بدء ، ثم عاد يقول إن الشرف يقضى عليه بالسير إلى جانب ألمانيا ، ثم قال أخيراً ، إنه يريد حصته من الغنيمة » .

ولم يكن رد فعله الأول غريباً أو غير متوقع . فقد كان في تلك الأيام التي كان يعرب فيها عن استعداده لدعم حلفائه دون تحفظ ، قادراً على توجيه النقد إليهم بعبارات قاسية لا تقل في عنفها عن النقد الذي يوجهه إلى الإنجليز أو حتى إلى الإيطاليين أنفسهم . وقد قال عنهم ذات يوم بلهجة تنطوي على الكثير من الاتمهان والزراية . . . « إن الألمان مجرد جنود وليسوا بمحاربين حقاً ، اعطهم ما يكفيهم من «السجق» والزبدة والجمعة واعطهم سيارة صغيرة ، ثم انظر كيف يضربون الناس بحرايمهم » . لكنه كان يفقد كل شعور بالتحفظ في حضرة الألمان ، فهو يرتخي فكاهة الأسفل ، ويتخذ صورة الجدية المطلقة التي تظهر في وجهه الذي يبدو وكأنه قد من الصخر ، ويظل يتحدث ساعات وساعات ، حتى بعد أن يفارقوه ، عنهم بكثير من الإعجاب « مطرباً روحهم العسكرية الرائعة » و « فلسفتهم البطولية » . ولكنه لا يلبث أن يرتد عن هذا الموقف مفسحاً المجال لشكوكه من جديد .

وتقيم يوميات تشيانو في هذه الأيام من شهر أغسطس عام ١٩٣٩ الدليل الصحيح على حالة موسوليني العقلية المتأرجحة والمتقلبة . فهو في الرابع عشر من الشهر برفض الاستقلال في العمل ، ولكنه يعود في اليوم التالي فيعرب عن يقينه من أن على إيطاليا أن لا « تسير مسيرة العميان مع ألمانيا » . ويشرح في السادس عشر من الشهر فيعرب « عن سخطه على سلوك ألمانيا تجاهه » واقعاً في الوقت نفسه تحت كابوس المخاوف من أن تتمكن ألمانيا من الحصول على نصر رخيص يحرم هو من نتائجه . وتلقى تشيانو في العشرين من أغسطس وكان في زيارة إلى دورازو ،

برقية عاجلة من كبير سكرتيريه فيليبو انفوسو ، تستدعيه إلى رومة لأن الدوتشي قرر فجأة « تأييد ألمانيا مهما كان الثمن في الصراع الذي بات وشيك الوقوع » . وطار تشيانو عائداً إلى رومة حيث وجد الدوتشي « مصراً على أفكاره بعناد وتصميم » وشهد انوليكو الذي كان قد عاد إلى رومة دون استدعاء ، لشد أزر تشيانو في موقفه ، مقابلته مع الدوتشي ، ثم غادرها وقد « ثبطت عزائمه وأحس بحزن عميق » . لكن تشيانو الذي كان يعرف طبيعة زعيمه ، كان لا يزال يأمل في تحول في موقفه ، وقد أفلح في اليوم التالي بالفعل في إقناعه بتغيير رأيه من جديد . ووافق على أن يقوم تشيانو باستدعاء ريبنروب للمجيء إلى مقر برينر ليلقاه هناك ، وليؤكد له حقوق إيطاليا كشريكة في المحور .

لكن ريبنروب كان منشغلاً بقضايا أهم من لقاء تشيانو . فقد كانت موسكو ترتقب وصوله إليها في الصباح التالي لتوقيع ميثاق عدم الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفياتي . ورد بأنه لا يستطيع الحثي إلى برينر ، ولكنه يستطيع توفير ساعة واحدة أو نحوها للقاء تشيانو في اينزبروك . وعاد التردد يسيطر على موسوليني . ورأى أن على تشيانو أن لا يمضي إلى اينزبروك ، فشاكر العداء لألمانيا عند الشعب الإيطالي آخذة في الازدياد . وبالرغم من أنه لا يستطيع أن يكتم إعجابه « بضربة المعلم » التي حققها هتلر ، إلا أن الشعب الإيطالي لا يشاطره هذا الإعجاب . وكان ستراشي على حق عندما حذر من أن الشعب الإيطالي سيتظاهر ساخطاً . لو قام العهد الفاشي بتأييد هجوم هتلر على بولنده . يضاف إلى هذا أن ضباط الجيش لا يصلحون للعمل العسكري ، وكان عتاد الجيش قديماً وممسخاً . وعلى إيطاليا « أن ترتب تطور الأحداث وألا تفعل شيئاً » .

ولم تمض ساعات على وصول موسوليني إلى هذا القرار حتى كان يستقبل جيوسيبي باستيانيني ، سفيره السابق في بولنده الذي وصفه بأنه كان « عنيفاً في ميله إلى الحرب » . وكان لا يزال في هذا المزاج ، عندما جاءه تشيانو إلى قصر البندقية في ذلك الصباح . حيث بذل جهده الجبار لإقناعه بتأجيل التدخل إلى أن تكون إعدادات التعبئة قد استكملت . وارتاح تشيانو إلى هذه النتيجة التي توصل إليها ، وغادره عائداً إلى مقر وزارته ، عندما تلقى دعوة عاجلة أخرى من الدوتشي .

ودون تشيانو في يومياته بقول بكثير من الألم واليأس . . . « عاد فغير رأيه .
لأنه يخشى لوم الألمان . وهو يريد التدخل فوراً . وكان من العيث أن اختصم معه ،
فأذعنت » .

وتلقى موسوليني بعد ظهر ذلك اليوم ، رسالة من هتلر ، يبلغه فيها أن العمل
العسكري ضد بولنده ، سيبدأ في وقت قريب للغاية ويؤكد له فيها أنه « لو كان
في موقف كموقفه ، فإنه ، أى هتلر ، سيقدر هذا الموقف كل التقدير ويفهمه
كل الفهم » . ورأى تشيانو في هذه الرسالة فرصة جديدة لإثارة شكوك الدوتشى
فعاد إلى قصر البندقية ، حيث تمكن من إقناعه بأن يبعث برسالة إلى هتلر
يبلغه فيها ، لأنه ما لم تنلق إيطاليا على الفور معدات حربية وبعض المواد الأولية من
ألمانيا ، فإن تأييدها لها سيقصر على « الناحيتين السياسية والاقتصادية » . وأضاف
الدوتشى يقول في رسالته وكأنه يجمع بين الاعتذار وبين التأييد . . . « كان
تصورنا في لقاءتنا معاً أن الحرب ستشعب بعد عام ١٩٤٢ ، حيث أكون مستعداً
في البر والبحر والجو ، طبقاً لخططنا المتفق عليها » .

وأفقدت هذه الرسالة هتلر زمام التحكم في أعصابه مؤقتاً ، فقد كان يعتمد
على تأييد أكثر تحديداً من هذا من جانب إيطاليا . وكانت الأنباء المزعجة قد
وصلته بعد ظهر ذلك اليوم عن توقيع ميثاق العون المتبادل بين بريطانيا وبولنده في
لندن ، فقرر تأجيل الغزو الذي كان من المقرر أن يبدأ في الصباح التالي .
وعندما اطلع على قائمة المعدات والمواد التي تطلبها إيطاليا ، اتضح له عجزه عن
تأمينها . وكان ماكيتزن سفير ألمانيا في رومه ، غير راغب في الحرب ، فاقترح
على تشيانو أن يعجز ألمانيا بقائمة طويلة يعجز « الثور عن حملها » على حد تعبيره .
فقد انطوت القائمة على سبعة ملايين طن من الزيت وستة ملايين من القمح ومليونين
من الصلب ومليون من الخشب ، وسبع عشرة ألف سيارة ومائة وخمسين بطارية من
المدافع المضادة للطائرات . . . وعندما قدم اتوليكو هذه القائمة إلى الألمان ، راح
ريبنروب يسأله بكثير من المكر عن الموعد الذي تريد فيه إيطاليا أن يقدم لها
الألمان محتوياتها . ورد اتوليكو على الفور دون أن يستشير حكومته . . . « قبل
الشروع في العمليات الحربية » . كانت هذه هي المحاولة الأخيرة من جانب

اتولى كور للحفاظ على السلام ولكنها كانت محاولة فاشلة . فقد استعداد هتلر زمام السيطرة على أعصابه . وكان على استعداد الآن على حد تعبير جيزيفيوس الألماني ، كما كان في مسهل أغسطس « للقذف بأى خنزير يحاول القيام بدور الوساطة ، من أعلى السلم في دارته ، حتى ولو اضطر إلى ركله بقدمه في بطنه أمام المصورين » . وتقبل على الفور استحالة تحقيق المطالب الإيطالية ، وطلب من الدوتشى أن يقدم إليه عونه السياسى ليس إلا ، وأن لا يعلن قراره بالوقوف على الحياد إلا عندما تقتضى الضرورة ، وأن يواصل القيام بإعداداته العسكرية لإرهاب الفرنسيين والبريطانيين ، وأن يبعث إليه في ألمانيا بالعمال الزراعيين والصناعيين من الإيطاليين . وراح يكتب إليه قائلا . . . « أنا أحترم أيها الدوتشى الدوافع والتأثيرات التى فرضت عليك هذا القرار . وعسى أن يكون فيه الخير » .

وبالرغم من حالة الهدوء التى سيطرت مؤقتاً على الدوتشى بعد أن حزم أمره أخيراً على الموقف الذى رآه ، إلا أن هذا الهدوء لم يطل . فقد عذبه الفكرة التى سيطرت عليه ، وهى أنه قد خان حليفه ، وأن هيئته أصيبت في الصميم ، وراح يلج على اجتماع آخر ، كاجتماع مونيخ ، كالوسيلة الوحيدة التى يمكن تجنب الحرب عن طريقها ، والتى تؤمن له الفرصة لاستعادة مركزه المتفوق على هتلر ، كما تحمى كذنبه بوجود « الملايين المستعدة من الحراب » من الانكشاف . لكنه لم يصر على دعوته على أى حال بكثير من التصميم ولقوة . فقد أدرك تمام الإدراك تفاهة مركز إيطاليا لألمانيا كحليفة محاربة ، وإن كان لم يدرك بعد القيمة التى يحتلها في نظر هتلر كحليف سياسى .

وراح يكتب بكثير من اللطف في السادس والعشرين من أغسطس إلى هتلر قائلاً . . . « اسمح لنفسى بالإصرار من جديد ، على احتمال الحل السياسى الذى ما زلت اعتقد بإمكان الوصول إليه . وأنا لا أفعل هذا مدفوعاً باعتبارات سلامية غريبة على طبيعتى وروحى ، وإنما باعتبارات تتعلق بمصالح شعبينا ونظامينا » .

وكان لا يزال يلحف بكثير من الحياء حتى الواحد والثلاثين من أغسطس على ضرورة الأخذ بوجهة نظره في عقد اجتماع كاجتماع مونيخ . ومضى اتولى كور عشية

ذلك اليوم إلى دار المستشارية في برلين يعرض وساطة موسوليني . ولكن هذه الخطوة جاءت متأخرة ، إذ كان هتلر قد مضى بعيداً .
ورد هتلر بشيء من الحدة على اتوليكو . . . « أنا لست على استعداد لأسمح لبولنده بلطمي في وجهي المرة تلو المرة ، كما لا أريد أن أضع الدوتشي في موضع غير لائق » .

وراح اتوليكو يسأله ، إن كان هذا يعني أن كل شيء قد انتهى ، فرد هتلر بالإيجاب . لكن موسوليني عاد بعد يومين فكرر محاولته لآخر مرة ، ولكن غزو بولنده ، كان قد بدأ بالفعل .

ورد هتلر برسالة إلى الدوتشي عى وساطته الأخيرة ، متكهناً بكارثة إيطاليا المقبلة بقوله . . . « بالرغم من أن طريقينا قد اختلفا الآن ، فقد كنت على يقين دائماً من وحدة المستقبل لنظامينا . وليس لدى شك أيها الدوتشي في أنك تشاطرني نفس اليقين » .

٥

أثارت الانتصارات الرائعة التي حققها الجيوش الألمانية في بولندا اضطراب موسوليني من جديد . وبالرغم من إعلانه في الجلسة التي عقدها المجلس الفاشي الأعلى في الأول من سبتمبر أن إيطاليا « لن تشارك في الوقت الحاضر في العمليات الحربية » ، إلا أنه حرص على أن يضيف موجهاً كلامه إلى أولئك الذين بدوا مرتاحين من أعضاء المجلس لقراره هذا ، بقوله . . . « لكن هذا لا يعني بحال من الأحوال اتخاذ موقف الحياد » . وراح يعلن فيما بعد ، أن إيطاليا « اتخذت موقفاً لنفسها من نفسها ، تتميز فيه القرارات الواضحة ، وخطوط العمل . ولعل هذا هو السبب الذي يدعونا إلى عدم الحديث عن الحياد . فالحياد هو الذي يكتفي بالوقوف موقف المتفرج ، لأن مصالحه لا تتعرض للخطر ، ولأن الصراع الدائر لا يهمه في قليل ولا في كثير . لكن هذا الصراع يهمنا كثيراً ، على العكس ولا يمكن تصوير موقفنا الآن بأن ليس لدينا ما نقوله ، فنحن نحفظ بحقنا في أن نقول كلمتنا في اللحظة المناسبة ، وبلغتنا ، وأسلوبنا . فنحن نرتب بمنهي الهدوء ،

سائرين بتصميمنا في طريق التصميم الكامل » .

لكن موسوليني كان أعجز من أن يظل مراقباً للأوضاع بهدوء . فقد كان في كل مرة تمتد يده إلى تقرير سرى ، أو إلى إحدى تلك البرقيات التي كانت تسرق بانتظام من ملفات السفارات الأجنبية في رومه ، ليرى في التقرير أو في البرقية ، ملاحظة غير مستحبة عن حياده ، وكان في كل مرة ، يقرأ فيها تعليقاً ناقداً أو مطرباً في إحدى الصحف الأجنبية ولا سيما البريطانية منها على قراره ، يسارع إلى الحديث عن عزمه على دخول الحرب . وقد كتب تشيانو في يومياته يقول ... « وكان في كل مرة يقرأ فيها مقالا يقارن كتابه فيه بين موقفه الروم وبين موقف إيطاليا في عام ١٩١٤ ، يسارع إلى الرد بعنف معلناً تأييده لألمانيا . وقد سر كثيراً لمقال صدر في صحيفة إنجليزية ، يؤكد فيه أن الشعب الإيطالي لا بد وأن يحارب إلى جانب ألمانيا ، متأثراً بدوافع الشرف . فقد كانت هذه هي وجهة نظره أيضاً . ومن المحتمل أن تنطلق ألوف الأصوات معاكسة رأيه ، وينطلق صوت متعزل وحيد من إنسان مجهول ، يقره على موقفه ، فيسارع إلى تبني ذلك الصوت ، متجاهلاً أصوات الألوف ، ومنكراً عليها آراءها » . وبالرغم من أن فوائد الحياد أو .. غير المحاربة ، كما كان يصر على تسمية موقفه ، قد اتضحت على الفور ، في ارتفاع أسعار البورصة ، وأسعار الأسهم الإيطالية في الأسواق الخارجية ، ولا سيما في أسواق البلقان ، التي استولت عليها إيطاليا الآن لتحل محل ألمانيا ، وفي عشرات البواخر الإيطالية محملة بالصادرات . ومبحرة من كل ميناء ، إلا أن موسوليني لم يكن راضياً أو مهتماً بهذه التطورات ، وكانت أنباء الانتصارات الألمانية هي التي تسيطر على خياله وتلهيه . وراح يقول لزوجته بكثير من نفاد الصبر : « من المحال ، أن نبقي على إيطاليا في متأى من الحرب ، بل ولعل ما هو أكثر استحالة وخطورة ، أن لا ندخلها إلى جانب ألمانيا ، فقد جعل الميثاق الألماني - السوفياتي ، من ألمانيا قوة لا تغلب لا من دولة ولا من مجموعة دول » . وكان يتمتع أحياناً مكرراً ما أكثر من ترداده منذ عام ١٩١٥ من أن « أى إنسان لا يجب المحايدين » .

لكن أخطار الاشتباك فيما كان لا يزال يبدو كصراع طويل الأجل ،

كانت لا تزال تكبح جماحه . وكان يرتضى في المحطات التي يكاد فيها صبره يفرغ ، الحقيقة التي تقول إن على إيطاليا أن تدخل الحرب ، عندما ترى أن النصر بات مؤكداً وقريباً . وعندما سقطت وارسو ، واجتمع ريبنتروب إلى ستالين في الكرملين ليتفقا على اقتسام بولنده ، وليقرا السماح لروسيا بمطلق الحرية في جمهوريات ايستونيا ولاتفيا وليتوانيا على بحر البلطيق ، رأى موسوليني الفرصة متاحة له ، للخلاص من هذه المعضلة التي تحبسه . وقرر القيام بمحاولة جديدة لإقناع هتلر بقبول وساطته . فالتسوية التي يتم التفاوض عليها ، لا تسمح لإيطاليا بتجنب الحرب التي لم تنهأ لها بعد بما فيه الكفاية فحسب ، وإنما تنقذ المحور من الوضع الثانوي في الأهمية الذي هبط إليه ، بعد انصراف هتلر بكل حواسه إلى التحالف النازي - السوفييتي أيضاً ، وتؤمن السبيل لتهدئة الشعب الإيطالي ، الذي ثار من مرأى حكومته الفاشية تقف موقف المتفرج الراضى كما يبدو عن قيام دواتين ملحدتين وسفاحتين باقتسام بولنده الكاثوليكية بمنتهى الوحشية . ولذا فقد رحب موسوليني أشد الترحاب بالاقتراح الذي جاءه من هتلر ، عارضاً أن يقوم تشيانو بزيارته في برلين .

واكتشف تشيانو في زيارته أن هتلر كان في منتهى الثقة بنفسه . وبالرغم من أن الصحافة الألمانية رحبت كل الترحيب بالبلاغ المشترك الذي صدر عن محادثات ريبنتروب ومولوتوف ، والذي جاء فيه . . . « إن مما يخدع المصالح الحقبة لجميع الشعوب ، وقد تمت تسوية المشكلة البولندية تسوية نهائية ، الوصول بالحرب القائمة بين ألمانيا من ناحية وبين إنجلترا وفرنسا من الناحية الأخرى ، إلى نهاية سلمية ، فإن تشيانو رأى أن هتلر نفسه لا يؤمن كثيراً بالحلول السلمية ، وإنه لا يريد في الواقع مثل هذا الحل . وكان في منتهى النشوة وقوة الإقناع ، عندما أبلغ تشيانو أنه يعترم إلقاء خطاب في الرايخستاغ عما قريب ، يضمه محاولته السلمية الأخيرة مع الغرب مضيفاً إلى ذلك قوله . . . « أما إذا كانت إيطاليا راغبة في السير معي على الفور ، فسأمتنع عن إلقاء هذا الخطاب ، واستعيز بالقوة عنه ، واثقاً من أن إيطاليا وألمانيا تستطيعان تهديم فرنسا وإنجلترا في وقت قصير وتسوية حساباتهما معهما مرة واحدة » . وراح يؤكد لتشيانو ، أن على إيطاليا أن لا تخشى كثيراً من

افتقارها إلى المدافع المضادة للطائرات . إذ أن خوف العدو البالغ من انتقام ألمانيا سيحول بينه وبين الإغارة على إيطاليا .

لكن موسوليني لم يتأثر بهذا القول على أى حال . ولم يعد يخفى الحقيقة الواقعة وهي أن موقف هتلر بات يثير أعصابه . ولم تعد الغمزات والنصائح التي يقرؤها في الصحافة الخارجية ، تحمله على الرغبة في الاشتراك إلى جانب ألمانيا في الحرب ، بل أصبح مبالاً إلى أن يبين للعالم ، أنه لم يكن الرجل الذي يتخلى عن ألمانيا بل إن ألمانيا هي التي تخلت عنه . وشرع يأمل في هزيمة ألمانيا ، كما أمر تشيانو بأن يوصل إلى سفارتي بلجيكا وهولنده في رومه . بأن الغزو الألماني لبلاديهما بات قريباً ، وموضوع توقيت ليس إلا . وسمح لتشيانو في السادس عشر من ديسمبر بإلقاء خطاب في مجلس النواب الإيطالي ، أثار دهشة العالم .

وبالرغم من أن الخطاب انطوى على حملات عنيفة على بريطانيا وفرنسا لإحباطهما محاولة الوساطة التي قام بها الدوتشي ، إلا أن الفكرة الأساسية فيه ، كانت إبراز خيانة ألمانيا لحليفها . فقد بين تشيانو في خطابه أن ألمانيا تنكرت لسياستها المعادية للشيوعية الدولية (الكومنترن) ، ورفضت نصيحة إيطاليا بأن فرنسا وإنجلترا ستحاربان دفاعاً عن بولنده ، واندفعت إلى الحرب متجاهلة تعهدها لحليفها بأن لا تخوضها قبل انقضاء ثلاث سنوات . وكان إعلان الدوتشي عن موقف « الدولة اللامحاربة » ، أكثر مما كان يحق له من الناحية القانونية أن يتوقعه ، بعد أن رفض الاستماع إلى موسوليني . وهلل الشعب الإيطالي بأسره فلما الخطاب معتبراً إياه « اللحن الجنائزي » في موكب تشييع المحور إلى مقره الأخير . وتلقت الصحف الإيطالية ، التعليقات بأن تنشر الخطاب في صفحاتها الأولى ، ولم تمض أيام ثلاثة ، حتى كانت الأوامر قد صدرت إلى هذه الصحف بنشر أنباء الحرب دون أى تحيز . ولكن موسوليني عاد فبعث في الثالث من يناير عام ١٩٤٠ برسالة إلى هتلر يؤكد له فيها أن كل ما قاله تشيانو ، لا يعبر إلا عن وجهة نظره وحده أدق تعبير . وكانت هذه الرسالة من أقوى الرسائل التي كتبها الفوهرر في حياته : « ليس ثمة من يعرف أحسن مني ، وقد انقضى على أربعون عاماً من التجارب السياسية ، إن أية سياسة ولا سيما إذا كانت من الطراز الثوري ، تتطلب بعض

المتطلبات التكتيكية الخاصة بها . فقد كنت من أوائل من اعترفوا بالاتحاد السوفياتي في عام ١٩٢٤ . وقد وقعت مع السوفيات في عام ١٩٣٤ معاهدة صداقة وتجارة . ولذا فأنا أفهم ، ولا سيما بعد أن بان خطال توقعات ريبنتروب في أن بريطانيا وفرنسا لن تدخلوا الحرب ، بأنك في حاجة ماسة إلى تجنب الحرب في جبهتين . لكنك دفعت الثمن غالياً بسماحك لروسيا ، دون أن تطلق عياراً واحداً ، بأن تغدو المستغل الأكبر في بولندا وبحر البلطيق .

« لكنني وأنا الآخر ، الذي لم يطرأ أى تغيير على تفكيره الثوري ، أستطيع أن أقول لك ، بأنك لن تتمكن من التضحية بصورة دائمة بمبادئ ثورتك في سبيل المتطلبات التكتيكية ، إلا لفترة مرحلية . . . وعلى أن أضيف أيضاً ، أن أية خطوة أخرى في علاقاتك مع موسكو ستترك آثاراً مفعجة في إيطاليا ، حيث لا شك في إجماع الشعب على المشاعر المعادية للبشقية ، متميزة بالصلابة والإصرار^(١) أرجو أن أسمع منك أن هذا لن يحدث على الإطلاق » .

وقد سلم أتوليكو هذا التوبيخ القاسي هتلر ، فقرأه « باهتمام شديد » . ، وعندما غادر السفير الإيطالي مكتبه ، راح يستدعى جورنيج وريبنتروب لبحث معهما وهو في ذروة غضبه في أمر هذه الرسالة . وأصر هتلر على وجهة نظره في أن إيطاليا لن تدخل الحرب إلا في حالة تحقيق « انتصارات ألمانية عظيمة ولا سيما على فرنسا » ، وأن اسهامها في الحرب في مثل هذه الحالة لا يجدى ولا يفيد ، لما يفرضه من إتاوات باهظة على ما لدى ألمانيا من مواد ومخزونات .

وطال الأمد على موسوليني ، وهو ينتظر رد هتلر على رسالته ، لكن موقفه كان قد شرع في التعرض للتبدل من جديد . وراح يلقي في مستهل شهر فبراير ، خطاباً أفاضت الصحف في نشره والتعليق عليه ، أعلن فيه أن الإيطاليين يكادون يتحرقون شوقاً إلى القتال « الذي لا بد من وقوعه » . وانتصف الشهر وهو لا يزال ينتظر رد هتلر ، وراح يقول إن ليس في وسع إنسان أن يفرض بأن ما تعانيه إيطاليا من نقص في المعدات الحربية ، يصلح مبرراً لتغيبها عن القتال . ودرن تشيافو في يومياته في الواحد والعشرين من فبراير يقول . . . « يعترم الدوتشي إرضاء

(١) تطوع ألوف الإيطاليين للحرب ضد الاتحاد السوفياتي دفاعاً عن فنلندا .

الألمان . وكان موقف الملك المعادى للألمان . ، حافزاً أيضاً لموسوليني على التلطف على الحرب إلى جانبهم . وعندما وصل إلى سمعه ذات يوم أن الملك يحمل على الحلف مع ألمانيا ويقارن بين « استقامة » البريطانيين وبين « خداع » حلفائه الطبيعيين ، استشاط غضباً ، وراح يصرخ قائلاً . . . « كيف يجرؤ ذلك القزم القمى على أن يبين لى ما يجب أن أفعله ؟ أليس من الأفضل لتلك « السردينة » الصغيرة البليدة أن تشغل نفسها بهوايتها فى جمع النقود الصغيرة . هذه هى هوايته وهذا هو الشئ الوحيد الذى يفهمه » . وراح يقول ، إنه عندما تنتهى الحرب ، فسيشير على هتلر بالقضاء على هذه « المساخر التافهة التى تحمل زى الملوك » . ومضى يقول لتشيانو . . . « يريد الملك منا أن ندخل الحرب ، عندما تغدو المهمة مجرد جمع الصحف المهشمة . وكلى أمل أن لا تتحطم هذه الصحف فوق رؤوسنا قبل أن نشترك فى الحرب . حقاً من الإذلال أن يظل المرء مكتوف اليدين بينما يصنع الآخرون التاريخ . قد لا يهمنى كثيراً من يريح . فخلق الشعب العظيم ، يتطلب الزوج به فى أتون المعركة ، حتى ولو اضططر إلى ركل أفراده فى أفضيتهم لينفع بهم إليها » .

وكان البابا يتصرف فى رأى موسوليني بطريقة تثير الأعصاب تماماً كالمطريقة التى يتبعها الملك . لكن البابا الجديد لم يكن فى نظره ، خالياً من العقل والمنطق كذلك « العجوز المستبد الصعب القيادة » بيوس الحادى عشر ، الذى لم يوفر لحظة واحدة ، دون الهجوم فى أحاديثه على القومية المتطرفة ، والمذاهب العنصرية ، عندما « وقفنا حلف الفولاذ » ، مما دعا موسوليني إلى التعليق بقوله إنه على استعداد « لتكسير بعض الهراوات على أفقية رجال الدين » . وقال موسوليني إن هذا لن يكون عسيراً عليه ، فالإيطاليون ليسوا متدينين ولكنهم يؤمنون بالخرافات . وه يستقبلون بسهولة فكرة العيش بدون القاتيكان . ولكن بالرغم من أن الكردينال باشيلي الذى خلف البابا بيوس الحادى عشر فى كرسي البابوية فى مسنبل عام ١٩٣٩ ، لم يظهر فى البداية عناداً ورغبة فى التدخل فيما لا يعنيه كسلفه ، إلا أنه شرع الآن فى تمثيل دور المزعج المضيق للحكومة . فقد كان قاصداً رسولياً فى ألمانيا ، وكان يجب الألمان ، لكنه يرى أن واجبه يدعوه الآن للعمل بكل م فى وسعه لمنع إيطاليا من

الحرب إلى جانبهم . وكان يواصل عن طريق الأب اليسوعي بييترو ناشي - فينتوري ، الذي مثل البابا لدى قصر البندقية منذ توقيع الاتفاق بين الفاشية والكنيسة ، إذ جاء يقدم النصح لموسوليني بضرورة بقاء إيطاليا على الحياد . ومبلغاً لإياه رغبته في السلام . ونشرت صحيفة الفاتيكان « اوبزرفاتوري رومانو » ، هذه التصيحة مع بعض التعليقات السياسية التي كانت تخفي بصورة ماكرة وإن كانت سهلة على التمييز مشاعر العداء للفاشية . ونشرت في شهر مايو عام ١٩٤٠ ، رسالة العطف التي وجهها البابا إلى ملك البلجيك وملكة هولندا وجراندوقة لوكسمبورج . وارتفع توزيع الصحيفة بسرعة البرق ، رغم نشاط العصابات الفاشية التي كان أفرادها يرهبون الراغبين في شراء هذه الصحيفة عن طريق إحراق نسخها في الشوارع ، وضرب أصحاب الأكشاك التي تعرضها للبيع . واضطر موسوليني في النهاية إلى إبلاغ القاصد الرسولي بأن على الصحيفة التوقف عن نشر التعليقات السياسية التي تفسر على أنها معادية للفاشية وإلا فسيجد نفسه مرغماً على إيقافها . وأحست الصحيفة بضرورة الخضوع .

وكان من الأخطاء الخطيرة التي أخذها عليها موسوليني ووجد من العسير عليه أن يتسامح بها ، معارضتها للسياسة الفاشية الرسمية التي أيدتها بقوة صحيفة « العهد الفاشي » التي يتولى روبرتو فاريناشي إصدارها ، وهي أن ليس في إمكان إيطاليا أن تغفر لتلك البلاد التي أيدت فرض العقوبات عليها إبان الحرب الحبشية . وكانت هذه الفكرة تستبد بذهن موسوليني باستمرار . وقد لاحظ سمنرويلس^(١) ، عند اجتماعه في فبراير عام ١٩٤٠ بموسوليني أن هذه الفكرة تؤلف كابوساً سيظراً على موسوليني .

وكان الرئيس روزفلت قد أوقف سمنرويلس إلى أوروبا ، ليرى إذا كان في وسع موسوليني أن يفعل شيئاً لعقد الصلح بين بريطانيا وفرنسا من ناحية وألمانيا من الناحية الأخرى . وقد وصل ويلس إلى روما في الخامس والعشرين من فبراير يحمل رسالة شخصية مطولة من الرئيس الأمريكي إلى الدوتشي . وقد استقبله

(١) كان يشغل رسمياً منصب وكيل وزارة الخارجية الأمريكية ولكن صمغهم روزفلت كان يعتمد عليه كثيراً ، ويوفده في مهمات رسمية بلغة الخطورة . « الحرب »

موسولنى فى البداية استقبالاً بارداً كالثلج ، ولكن هذا البرود ما لبث أن ذاب ، عندما أحيا الزائر الأمريكى الآمال الكامنة فى نفسه فى الوصول إلى تسوية عن طريق التفاوض ، مقرباً أن يطير روزفلت نصف الطريق عبر المحيط الأطلسى لمقابلته ، وعقد اجتماع لابد وأن يترك آثاراً مدوية فى طول العالم وعرضه . وعندما غادر ويلس رومة فى التاسع والعشرين من فبراير كانت الآمال العريضة تساوره . ولكن لم يحل العاشر من مارس ، حتى كان موسولنى قد عاد سايماً إلى المعسكر الألمانى . فى ذلك اليوم بالذات وصل إلى رومه رييتروب متوجهاً معاكسة أية تحفظات من جانب موسولنى تجاه حلفه مع ألمانيا ، قد تكون ناشئة عن تأثير المبعوث الأمريكى على أفكار موسولنى أثناء محادثتهما الأخيرة . ولم يكتف رييتروب فى هذه الزيارة التى حمل فيها رد متلر الذى طال انتظاره على رسالة الدوتشى المؤرخة فى الثالث من يناير المنصرم ، باستصحاب عدد كبير من سكرتيريه وتراجمته وموظفى وزارته ، بل استصحب معه أيضاً حلاقه ، ومدلكه ، ومدربه فى ألعاب الجحماز وطبيبه . وعندما أكد له رييتروب بمنهى الثقة والاطمئنان ، أن ألمانيا توشك على تحقيق نصر عظيم وحاسم ، رد موسولنى ، بأن تدخل إيطاليا فى الحرب الآن أصبح يقيناً ، إذ أنها لا تستطيع البقاء حبيسة الحصار الذى تفرضه بريطانيا عليها فى ما أسماه الآن وفى نص إعلانه الحرب فيما بعد ، «بحرها» . وعندما قرر متلر بعد ثلاثة أشهر احتلال الدانمارك والنرويج ، وبعث كعادته المألوفة بماكترن حاملاً رسالة إلى الدوتشى يخبره فيها بأنه شرع فى العمل فعلاً ، لم يد الدوتشى أى انزعاج ، وإنما قال على النقيض من ذلك إنه «يوافق على العمل من صميم فؤاده» . وبدأ لماكترن أن الدوتشى لم يعد قادراً على أن يصبر على عدم دخول الحرب مدة أطول ، وقد زاد نفاد صبره عندما وصلته الرسائل المطولة من الفوهرر ، متحدثاً عن الانتصارات الرائعة التى حققها الجيوش الألمانية . ولم يكن يستطيع أن يتصور كما ذكر تشيانو فكرة احتمال كسب ألمانيا للحرب وحدها . ولم يحل الواحد والعشرون من أبريل حتى كان الدوتشى قد غدا «متلهفاً على الحرب ومؤيداً للألمان أكثر من أى يوم مضى» .

وكان البريطانيون لا يزالون يشاركون الأمريكان أملهم فى إمكانية الإبقاء

على إيطاليا خارج الحرب . ودرغبة منهم في إظهار أثر الحصار البريطاني على تموين إيطاليا بالفحم الألماني ، عرضت الحكومة البريطانية على إيطاليا تزويدها بثمانية ملايين طن من فحمها لتستعوض به عن الفحم الألماني . وخول اللورد لويد بوصفه رئيس المجلس الثقافي البريطاني ، رغبة من الحكومة في إظهار عدم وجود خلاف جوهري بينها وبين الفاشية ، بأن يصدر كتيباً يحمل مقدمة تعليلية من اللورد هاليفاكس ، تتضمن الملاحظات التالية . . .

« تطورت العبقورية الإيطالية في النظم الفاشية النموذجية التي يمثلها عهد مغرق في السيطرة لكنه لا يهدد على أى حال الحرية الدينية أو الاقتصادية ، ولا يهدد أمن غيره من الدول الأوروبية الأخرى . ومن الجدير بنا أن نلاحظ هنا ، أن هناك فروقاً جوهرية بين بنیان الدولة الفاشية ومبادئها وبين بنیان الدولتين النازية والسوفيياتية ومبادئها . ويقوم النظام الإيطالي على صخرتين متبعتين ، أولاهما الفصل بين الكنيسة والدولة ، وتفوق الكنيسة لا في قضايا الإيمان وحدها ، بل وفي قضايا الأخلاق أيضاً ، وثانيتهما حقوق العمالة . ويقوم الجهاز السياسي للفاشية فعلاً على الحركة النقابية ، بينما يقوم الجهاز السياسي للدولة الألمانية على أنقاض الحركة العمالية الألمانية » .

وفي السادس عشر من مايو عام ١٩٤٠ ، أى بعد ستة أيام من تولي ونستون تشرشل دفة الحكم في بريطانيا ، بعث رئيس الوزراء ، وكان يعرف أن عليه أن « يفعل كل ما في وسعه للإبقاء على إيطاليا بعيدة عن الصراع » ، برسالة إلى موسوليني الذي كان يتوقع منه كما ذكر للرئيس روزفلت في اليوم السابق « أن يسارع لأخذ نصيبه من غنيمة الحضارة » . وراح يكتب إليه بتلك التعابير المتناهية في البلاغة ، والعريضة على قلبي الكاتب والمكتوب إليه ، يقول . « ترى هل فات الوقت على وقف نهر الدم من الانسياب بين الشعبين البريطاني والإيطالي ؟ ليس ثمة من شك في أن الواحد منا يستطيع أن ينزل بالآخر . أكثر الأضرار بعناً للألم ، وأن يدهق بمنتهى الضراوة والوحشية ، لننزل بالظلام معاً نتيجة صراعنا على البحر الأبيض المتوسط . فإذا كانت مشيتك أن يقع هذا ، فلتكن مشيتك ، واكنني أريد أن أعلن لك ، أنني لم أكن في يوم ما معادياً عظمت إيطاليا . ولا خصماً في

فؤادى للشعب الإيطالى الذى منح العالم قوانينه ولانى لأتوسل إليك ، أن تؤمن بأننى لا أكتب إليك ما أكتبه ، ولا أوجه إليك هذا النداء الجدى الذى سيسجله التاريخ ، نتيجة ضعف أو خوف . ولا ريب فى أن النداء بأن لا يقف الوارثون المشتركون للحضارتين اللاتينية والمسيحية موقف العداء وجهاً لوجه فى صراع قتال ، سيظل عبر القرون والأجيال ، مرتفعاً فوق كافة النداءات الأخرى . أسمع هذا النداء ! أرجوك بمنتهى الإجلال والتقدير أن تسمعه قبل أن تصدر الإشارة الخفيفة . على أى حل لن نكون نحن الذين نصدرها .

وكان رد موسوليني قاسياً ، ولكنه كان كما اعترف السير ونستون فيما بعد « متميزاً بالصراحة على الأقل » .

وكتب الدوتشى يقول . . . « أبعث إليك لأرد على هذه الرسالة التى بعثت بها لى ، لأقول لك ، بأنك تعرف ولا شك الأسباب الخطيرة ذات الطابع التاريخى والاتفاقي التى فرضت على بلادينا أن يقفا فى معسكرين متعارضين . وقد لا أجد نفسى مضطراً للعودة بذكريتى لى تاريخ بعيد فى القدم ، وإنما أرى أن أذكرك ، بالمبادرة التى قامت بها حكومتك فى جنيف فى عام ١٩٣٥ ، لتنظيم فرض العقوبات على إيطاليا المنشغلة فى تأمين مجال صغير لحياتها تحت الشمس الإفريقية ، دون أن تلحق أى أذى مهما ضئيل ، بمصالحكم وأراضيكم ، أو بمصالح الآخرين وأراضيهم ، وأود أن أذكرك أيضاً بوضع العبودية الفعلى والواقعى الذى تجد إيطاليا نفسها فيه فى بحر^(١) . وإذا كانت حكومتك قد أعلنت الحرب على ألمانيا لتشرىف توقيعها والحفاظ على كلمتها ، فإنك ستفهم ولا شك أن نفس الإحساس بالشرف وباحترام الالتزامات التى أكلتها معاهدة التحالف بين إيطاليا وألمانيا هى التى توجه السياسة الإيطالية اليوم وغداً مهما كانت الأحداث التى ستواجهها » .

(١) ليس من الغريب أن تصدر مثل هذه الأقوال الاستعمارية عن زعيم الفاشية التى تمثل ذروة العنصرية الاستعمارية والأمبريالية . فهو لا يعرف شيئاً عن حقوق الشعب الحبشى التى أهلرها واغتصبها وداسها بأقدامه ، وهو لا يرى على البحر الأبيض المتوسط إلا صورة إيطاليا وحدها ، التى تعتبر هذا البحر بحرها ، وتعتبر الامبريالية البريطانية معتدية عليها فيه . فهو فى أفريقيا لا ينظر إلا إلى وجود مصالح امبريالية لبريطانيا أو غيرها من الدول الاستعمارية . أما مصالح الشعوب الأفريقية صاحبة البلاد والحقوق فلا قيمة لها عنده على الإطلاق ، وكذلك لا قيمة للشعوب المتوسطية أو حقوقها فى البحر الأبيض المتوسط . « المغرب »

وكان السير ونستون يظن « أن الحكمة والروية تفرض على موسوليني أن يرقب اتجاه سير الحرب ، قبل أن يلزم نفسه وبلاده باتجاه لا يستطيع التراجع عنه » . ولكنه بعد أن تلقى هذا الرد ، لم يعد لديه أدنى شك في أن الدونشي قد قرّر الدخول في الحرب إلى جانب ألمانيا . وتوصل الفرنسيون أيضاً في نفس الوقت إلى عين النتيجة . وقد أعرب سفيرهم في رومة ، فرانسوا بونسيه عن إيمانه بأن موسوليني يريد أن يسرق « من ستالين مجد الضرب في عدو هوى على الأرض » .

أما أن هذا العدو قد هوى ، فلم تعد في ذلك ذرة من الشك الآن . فقد شجعت الانتصارات في النرويج هتلر على أن يشن هجومه على فرنسا والبلاد المنخفضة (هولندا وبلجيكا) في أوائل شهر مايو . ولم تحل نهاية الشهر حتى كان الحلفاء قد أرغموا على التراجع إلى دانرك . وقامت الحكومة الفرنسية في الثالث من يونيو بمحاولة أخيرة ومحمومة لمنع إيطاليا من مهاجمتها في الجنوب ، فأمرت سفيرها فرانسوا - بونسيه ، بأن يحاول رشوة موسوليني بالتنازل له عن بعض الأقاليم ، وهو عرض سرعان ما رفضه موسوليني رفضاً قاطعاً . إنه لم يعد يكثر بالمفاوضات السلمية ، وهذا ما قلّه تشيانو بكل صراحة للسفير الفرنسي ، إذ أنه قرّر خوض الحرب .

وكان قد أعلن تشيانو رأيه قائلاً . . . « لم يعد في وسعنا أن ننتظر لحظة واحدة . فالوقت يفوتنا . . . وقد سبق لي أن قلت قبل بضعة أشهر إن الحلفاء قد خسروا ، وها أنا أقول الآن إنهم خسروا الحرب والنصر معاً » . وكان يصبر على أن الشعب الإيطالي الذي لقي من الإذلال والامتهان ما فيه الكفاية ، على استعداد للحرب الآن ، بل وهو متلهف على القتال ، وهو يخشى خشية شديدة من أن يضيع فرصة قد لا تلوح له ثانية . وراح يروي حديثاً هاتيفياً دار بين صحفيين والتقطنه له أجهزة محابراته ، قل فيه أحدهما إن « الألمان يلتهمون كل شيء » . وستسقط حتى نيس نفسها في أيديهم الآن . فرد عليه الآخر قائلاً . . . « لا تقلق ، فالدونشي يفكر في كل شيء . والموضوع الآن ليس بموضوع حرب أو قتال ، وإنما هو موضوع عدم التغيّب عند اقتسام الغنيمة » . لكن الشعب الإيطالي لم يكن في الواقع ، كما أدرك معظم الزعماء الفاشيين وإن لم يجروا على التعبير عن إدراكهم ،

مستعداً للقتال أو متلهفاً عليه . فقد تحدث بوشيني إلى أصدقائه حديثاً طافحاً بالأسى ، وإن كان هؤلاء الأصدقاء قد شكوا في أنه أعاد على مسامع الدوتشي آراءه المتشائمة ، عن الوضع الداخلى السيئ ، والفاقة المنتشرة في البلاد ، والهبوط في مكانه العهد وهيبته ، وقلق الشعب من الاشتراك في الحرب ، وهذا هو الأهم . ولم يكن ثمة شك في أن الشعب قد هلّل لفصل عدد من الفاشيين الميالين إلى الحرب من مناصب الحزب القيادية في أكتوبر الماضى ، إذ أن البلاد كانت تحس بالقلق اليائس من احتمال دخولها في الحرب ، وكان تهليله أشد لاستبدال ستراشي الذى كان دى بونو يلقبه « بالمهرج الشرير » في سكرتيرية الحزب العامة ، بايتورى موني ، صديق تشيانو . والرجل المقبول والأقل دعوة إلى الحرب . وكان الشعب بأسره ، ابتداء بالملك الذى منح قلادة « انوزياتا » الرفيعة الشأن لتشيانو لكسبه إلى صفه في سياسته الحيادية وضمان تأييده له ضد عداء موسوليني المتزايد للماكية ، وانتهاء بالفلاحين الفقراء والعمال الصناعيين ، ضد اشتراك إيطاليا في الحرب إلى جانب ألمانيا . ولم يكن ميثاق الفولاذ قد اكتسب شعبية في البلاد في أى يوم منذ توقيعه ، فجاء غزو الألمان لبولنده ، وجعله مكروهاً إلى النفس مقيتاً . وكانت فكرة جر البلاد إلى الحرب تحزن الكاثوليك الذين كانوا يخشون اضطرابهم للقتال تأييداً لعهد كان يناوئ الكاثلكة مناوئة مكشوفة وصريحة ، كما كانت تزعج ذوى الميول الحرة الذين خافوا بأن تضع الحرب نهاية لآمالهم في بعث الحرية واستعادتها . وأحزنت الفكرة أيضاً الوطنيين الإيطاليين الذين فزعوا من أن يؤدى نصر الألمان إلى نهاية استقلال إيطاليا ، كما أثارت الفاشيين الأوسع تفكيراً والأكثر إطلاعا ، إذ أنهم كانوا يعرفون أن البلاد مفتقرة كل الافتقار إلى الاستعداد للحرب ، بالرغم من بيانات الحزب عن الإنفاق العام وإدعاءات الدوتشي بوجود « عدد من ملايين الحراب » . ولم يسبق لسمعة الفاشية أن هبطت إلى مثل هذا الدرك الذى هبطت إليه الآن . فقد شرعت تفقد دعم حتى أثلث الممالين الأثرياء من أمثال الكونت فلبى ، الذى عمل في الماضى كثيراً ليد العون إليها في أوقات ضائقها . وفي مثل هذا الجو من التفرز والانحلال المعنوى . أعلنت إيطاليا موقفها « اللامحارب » فأحست البلاد بشيء من الارتياح أزاح عن صدرها الهموم . وفي هذا يقول المؤرخ الإيطالى لويجي سالفاتورى . . . « قد لا يكون من اليسير عرض صورة واضحة

عن مشاعر الرضى العامة والعميقة ، وأحاسيس الانفراج والراحة ، التي عمت الشعب بأسره من جراء إعلان موقف اللاعشارية ، بما في ذلك الفاشيون أنفسهم .
 لكن الحقيقة المخزنة تظل قائمة ، وهي أن الشعب الإيطالي ، عندما اتضح له أن هذه المرحلة في السياسة الإيطالية قد مرت ، وأن بلاده تقترب من الحرب ، قابل ذلك بشيء من الاستسلام المتخلى الكريه ، إذ كان هذا الشعب قد بات في منتهى الكسل والترهل بعد سبعة عشر عاماً من بث العقيدة الفاشية . فقبل ثلاثة أعوام ، صدر كتاب مدرسي ، فرضت الدولة قراءته على الأطفال في المدارس الرسمية .. وتقوى إحدى العبارات السفسطائية في هذا الكتاب : « إن الطفل الذي يتساءل بالرغم من عدم رفضه الإطاعة ، عن السبب ، يشبه حربة مصنوعة من الخليلب . فقد قال الدوتشي وهو يشرح أسباب الطاعة ، إن عليكم أن تطيعوا ، لأن الطاعة واجبة عليكم » .

حقاً لقد كان تفسيراً ، نشأ الأطفال على قبوله . وقد أدرك موسوليني قبل بضع سنوات ، أن من الواجب عرض كل ما يقوله ، وكأنه حقيقة لا تقبل النقض أو الشك . فمن الواجب عدم السماح للملكات النافذة عند الشعب بالعمل ولا ريب في أن أكثر القواعد التي يضعها الديكتاتور فاعلية ، هي أكثرها غموضاً ، بل وهي أكثرها ، وفي أحيان كثيرة خلواً من المعنى .

٦

كان هتلر قد اقترح في نهاية شهر مايو عام ١٩٤٠ ، أن تشن إيطاليا هجومها بعد « تصفية المعازل الإنجليزية والفرنسية البلجيكية » وبعد أن يكون الألمان قد باتوا قادرين على القذف بكل ثقل قواتهم على مدينة باريس . وقد وافق موسوليني على ذلك الاقتراح وكان يدرس في تلك الآونة فكرة الشروع في التدخل في نهاية يونيو . ولكن عندما بدا الجيش البلجيكي على وشك الاستسلام ، قرر موسوليني أنه لم يعد في وسعه الانتظار مدة أطول . وقد شجعه على ذلك ما اعتبره حماساً مفاجئاً من جانب الشعب الذي يريد « كالعواهر » أن يكون دائماً إلى جانب الظافر المتصبر . وأحسن حتى تشيانو ، بأن مزاج الشعب قد تبدل ، وقد

دهش من أن يرى الناس يستقبلونه استقبالا حماسياً في كل محطة مر بها القطار الذى كان يستقله عندما قام في شهر مايو برحلة إلى الساحل الشرقى حيث سمع « أصواتاً كثيرة تطالب بالحرب ». وجاءت ابدا في نفس الشهر إلى قصر البندقية لترى والدها ، ولتنقل إليه أن البلاد باتت تريد الحرب الآن ، وإن مواصلة السير على سياسة الحياد « محطة بشرف إيطاليا ». وأيد المارشال رودلفو جرازيانى ، الفاتح الإيطالى للممتلكات الأفريقية ، والمؤيد للألمان وجهة النظر هذه .

وعندما وصلت إلى مسامع موسولنى أنباء استسلام الجيش البلجيكى في الثامن والعشرين من مايو ، راح يستدعى مارشال القوة الجوية ابتالو بالبو ورئيس أركان حرب القوات البرية المارشال بيترو بادوليو ، ليلفهما أنه قرر إعلان الحرب في الخامس من يونيو . وروى بادوليو أنه قال للدوتشى إن إعلان الحرب انتحار . ورد موسولنى بشئ من الصلابة . . . « لست أيتها المارشال في وضع كاف من الهدوء بحيث تستطيع فيه الحكم على الموقف . وفي وسعى أن أؤكد لك أن كل شئ سينتهى قبل شهر سبتمبر ، وأن كل ما احتاج إليه بضعة ألوف من القتلى لأجلس إلى مائدة الصلح كرجل اشترك في الحرب » .

وكان وهو ينطق بهذا الحديث ، واقفاً وراء مكتبه وقد وضع يديه في خاصرته ، متطعماً بصرامة إلى المارشالين القلقين . وكان الناس يرون أنه في مثل هذه اللحظات يكون على استعداد للتحويل في رأيه فجأة من ناحية إلى الناحية المعاكسة ، واتخاذ القرارات المتناقضة التي يعدها بهدوء ويستريحها بمكر ، وكانوا يقولون عن هذه اللحظات إنها لحظات الإلهام الخادع ، التي يبدي فيها براعة غريزية في اتباع أساليب مكيافلى . ولكن الشئ الثابت ، أن بادوليو كان في اليوم التالى ، كما قال تشيانو ، يعد للحرب راضياً هادئاً .

وتقرر بناء على طلب من هتلر ، تأجيل موعد دخول إيطاليا الحرب ، عدة أيام أخرى . وأخيراً ، راح موسولنى في العاشر من يونيو بعد أن أعد العدة لتعيين نفسه قائداً أعلى للقوات الإيطالية في الميدان مثيراً ضيق الملك ، بذلك ، ولكن دون أن يستفزه هذا الضيق على الاحتجاج ، يخرج إلى شرفة قصر البندقية ، حيث أطل على الجماهير الحاشدة التي ارتفعت هتافاتها ، ولكن بشكل آلى ، وقال بصوته

الجمهورى المرتفع ...

« يا أيها المحاربون فى الأرض والبحر والجو . يا رجالنا من ذوى القمصان السوداء ومن أبطال الثورة . يا رجال الفرق المتطوعة ، يا رجال إيطاليا ونساءها ، ويا رجال امبراطوريتنا ومملكة ألبانيا ونساءهما . اسمعوا وعوا ... فقد دقت ساعة المصير فى سماء بلادنا . أنها ساعة اتخاذ القرارات التى لا رجوع عنها . فيها نحن ندخل قائمة المحاربين ضد البلوتوقراطية والديمقراطية الرجعية فى الغرب . اللتين طالما أعاقتا طريق تقدمنا وآمرتنا على وجود الشعب الإيطالى نفسه ... »

« سبق لى أن قلت فى اجتماع خالد عقدناه فى برلين إن قواعد الأخلاق الفاشية ، تقضى بأن يسير انصديق مع صديقه حتى النهاية . وقد فعلنا هذا وسنفعله مع ألمانيا وشعبها ، وقواتها المسلحة الظافرة ... »

« وها هى إيطاليا الفاشية البروليتارية تقف للمرة الثالثة على قدميها قوية متكبرة ومتحدة ، بصورة لم يسبق لها نظير فى أى يوم مضى . وهناك كلمة سرية واحدة مفردة وقاطعة تربطنا جميعاً . وقد راحت هذه الكلمة تحلق فى الأجواء ، وتلهب الحماس فى الأفئدة من جبال الألب حتى المحيط الهندى ، داعية إلى النصر . أجل سننتصر . وسنقدم لإيطاليا أخيراً عهداً طويلاً من السلام المصحوب بالعدالة ، مع عهد مماثل لأوروبا والعالم . يا أبناء إيطاليا ... هيا إلى السلاح . اظهروا شجاعتكم وصلابتكم وجدارتكم بالجهاد . »

وكان موسولنى قبل بضع ساعات من هذا الخطاب قد نقل إلى السفيرين البريطانى والفرنسى ، نواباه بصورة أقل تمثيلاً ومسرحية .

ويقول تشيانو إن السير برسى لورين ، تلقى ذلك « دون أن يُطرف له جفن ، أو يتغير لون . واكتفى بأن يدون نص العبارات التى استخدمتها ، سائلاً إناى عما إذا كان سيعتبرها مجرد معلومات مسبقة أو إعلاناً رسمياً للحرب . وعندما عرف أنها تعنى إعلان الحرب ، راح ينسحب بكبرياء وكياسة . وتبادلنا عند الباب مصافحة طويلة ودية . »

ولم تكن المقابلة مع فرانسوا بونسيه ، أقل وداً وكياسة .

وقد فاجأه تشيانو وكأنه يمتنر له بقوله . . . « أتوقع أن تكون قد فهمت السبب من استدعائي إليك . . . »

فرد فرانسوا - بونسيه ، وكأنه يبتسم . . . « لا ، فأنا لست مغرراً في الذكاء . أما الآن ، فعلى قد فهمت الوضع » . وكان كزيميله السير برسي لورين ، قد أدرك منذ حين ، أن الحرب واقعة لا ريب فيها ، وأن موسوليني كان قد قرر مصير بلاده .

وتلا تشيانو على مسامعه إعلان الحرب .

وعلق فرانسوا - بونسيه ، والألم يحز في نفسه . . . « إنها ضربة خنجر توجه إلى ظهر رجل هوى ، لكن الشكر لكم لأنكم استعملتم قفازاً من الحرير في حمل الخنجر » .

وأضاف قبل أن يغادر القاعة ، تحذيراً ، كان على تشيانو أن يذكره . . . « ولكن الألمان سادة قساة ، ولا ريب في أنكم ستعرفون هذا » .

٧

وخيم جو من الصمت الحزين الرهيب على مدينة رومة في تلك الليلة . وهو مراسل « التايمز » وهو في طريقه إلى بيته لحزم أمتته ، بطريق أومبرتو وبميدان سبانا دون أن يرى راية واحدة قد ارتفعت . وجاءه عدد من أصدقائه الإيطاليين يودعونه ، ماربن بالشرطي الذي يقف حارساً على مدخل داره ، ووقفوا يتمتمون بجانبه ثم صافحوه بشيء من الحزن وكأنهم يعتذرون إليه .

وسبق لكافور^(١) أن قال . . . « إن الهتافات في الميدان لا يمكن أن تعتبر صورة للرأي العام » .

(١) كافور - سياسي إيطالي ، كان رئيساً لوزراء مملكة سردينيا الإيطالية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، لعب دوراً بارزاً في تحقيق الوحدة الإيطالية . « المغرب »

القائد الأعلى

من ١٠ يوليو ١٩٤٠ حتى ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢

.. كانت لدى كرومويل فكرة رائعة . . . وهي السلطان المطلق في
والدولة ، عدم الحرب . .

سارت الحرب منذ البداية سيراً سيقاً بالنسبة إلى إيطاليا . فقد اتضح على الفور
وبصورة مثلية ، أن البلاد غير مهيأة لخوض حرب رئيسية بالرغم من الحقيقة
الواقعة ، وهي أن أكثر من نصف اتفاق الدولة كان يصرف في السنوات الثمان
الآخيرة على الأهداف العسكرية ليس إلا . وكانت الحرب الأسبانية الطويلة ،
قد استنزفت الكثير من الموارد الاحتياطية العسكرية غير الكافية ، وهي الموارد التي
كانت الحرب الحبشية قد أضعفها ، وهبطت بها إلى مستوى خفيض للغاية . ومع
ذلك فإن السياسات غير المنسقة والمتناقضة التي اتبعتها دوائر الحكومة المختلفة قد
سمحت بتصدير مخزونات قيمة للغاية إلى إنجلترا حتى بداية عام ١٩٤٠ ، وكذلك
إلى فنلندا التي تضمنت الصادرات إليها أعداداً من الطائرات بعد هذا التاريخ (١) .
وكانت معظم معدات الجيش إما من الطراز القديم أو من الطراز المنسوخ
الذي بطل استعماله . ففرق المدفعية تستخدم مدافع كانت تستعمل منذ
عام ١٩١٨ ، وكانت الفرق المدرعة المزعومة ، مفتقرة إلى السيارات ، حتى أن
كارمين سينيز ، رئيس الشرطة ، قال إنها كانت تقترض بعض سياراته للقيام
بالعروض العسكرية . وكان السلاح الجوي أيضاً سيئ الإعداد للغاية ، كما لم تكن
لدى الأسطول ، حاملات طائرات ، أو سلاح جوى . وأثبتت التعبئة العامة التي
جرت أيام غزو البانيا في أبريل عام ١٩٣٩ ، أن أعداداً من الوحدات المسجلة
كفرق على الورق ، لم تكن في الواقع أكثر من مجرد بضعة أفواج ، وعندما حلت

(١) هناك مثل آخر على تناقضات السياسة الفاشية وارتباكاتها ، وهو أنه عند ما تم التوقيع على
ميثاق مكافحة الشيوعية مع اليابان ، كانت هناك باخرة تحمل بعض التموينات إلى الصين ، ورغبة في
تجنب الحرج ، صدرت الأوامر إلى قبطانها بإغراقها على مقربة من الساحل الصيني . « المؤلف »

نهاية صيف ذلك العام ، اضططر موسوليني نفسه إلى الاعتراف ، بأن عشر فرق فقط من مجموع السبعين فرقة التي كان قد زعم أن الجيش الإيطالي يملكها ، صالحة للعمل . وكان رئيس أركان حرب الجيش قد ادعى في مستهل عام ١٩٣٨ ، أن مخزونات الجيش وإنتاج المعدات والدخائر ، ستكون في نهاية الربيع المقبل ، كافية لحرب واسعة النطاق . لكن الجنرال كارلو فافا جروسا وكيل وزارة الإنتاج الحربي ، أعلن في الواقع قبل نشوب الحرب بستة أشهر ، أنه لو استطاع تأمين جميع المعدات التي يحتاج إليها ، مما يتطلب تشغيل المصانع في نوبتين (وردبتين) ، فإن أقرب موعد ، يمكن للبلاد أن تكون متأهبة فيه للحرب ، سيكون في أكتوبر عام ١٩٤٢ . وكان الجنرال فال ، وكيل وزارة الطيران قد قال إن لدى إيطاليا أكثر من ثلاثة آلاف طائرة صالحة للعمل ، بينما كان مجموع ما لديها ، لا يعدو في الواقع ألف طائرة . وكان الجنرال بارياني وكيل وزارة الحرب ، قد أقنع موسوليني بأن في إمكانه تعبئة ثمانية ملايين رجل في غضون بضعة ساعات ، بينما لم يكن في الإمكان في الواقع تعبئة أكثر من نصف هذا العدد في غضون عدة أسابيع ، مع تحقيق ذلك على حساب الصناعة والزراعة بشكل مفرط . وحاول الأدميرال كافاناري وكيل وزارة البحرية ، أن يظهر الحالة السيئة التي تسود مختلف الدوائر والوزارات لا وزارته وحدها والتي تجعلها غير مستعدة للحرب ، ولكن الدوتشي كما روى الأدميرال ، لم يتأثر على الإطلاق بأقواله ، ولم يكن يقبل النصيحة . وحاول دي بونو ذات يوم ، أن يحذر موسوليني من تصديق أقوال فال « الأحمق » وبارياني « الخائن » ، ولكن موسوليني لم يصغ إليه ، مما جعله يقول . . . « لأنه لا يصدق إلا ما يريد أن يصدقه » . وكان رافائيلو ريكاردى ، وزير التجارة ، دائم التحذير له من المتاعب الاقتصادية التي تواجهها البلاد ، ولكنه كان يرد بمنتهى البلاهة ، أن الحكومات لا تهوى بسبب المتاعب الاقتصادية ، وكان يؤثران يستمع إلى تاوون دي ريفيل وزير المالية ، الذى كان يقول له إن كل شيء على ما يرام ، وأن في مكنة إيطاليا أن تصبح ثرية من بيع روائع الفن . وكثيراً ما تساءل الوزير . وقد ملّ من موقفه . . . « ترى ما الذى يصنعه الدوتشي ؟ إنه كما يبدو غارق في شؤون التدريب ليس إلا » .

ولكن بالرغم من أن قدرته على خداع نفسه ، كانت بلا حدود كما يبدو ، لم يكن ثمة شك في أن موسوليني كان يعرف تمام المعرفة أن بلاده غير مستعدة للحرب . وقد اعترف بهذه الحقيقة بعد انهيار إيطاليا النهائي في حديث له مع الأدميرال موجيرى ، قائلاً إن إيطاليا كانت أفضل استعداداً قبل الحرب العالمية الأولى ، منها قبل الحرب العالمية الثانية . فقد اشغل وزارات القوى الحربية الثلاث منذ عام ١٩٢٥ حتى النهاية ولم يتخل عنها إلا فترة قصيرة بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٣ ، وبالرغم من رغبته في أن يصدق ما يريد أن يصدقه ليس إلا ، وأن يتجاهل ما يسيئه ، وفي أن يدفع بالعمل إلى مساعديه من غير الأكفاء ، وأن يشغل نفسه بمشية الأوزة أو بموعد تبديل الملابس الشتوية بالملابس الصيفية أكثر من انشغاله بالقضايا المهمة والملحة حقاً ، وأن يضحي بالحقيقة على مذبح الدعاية وبالواقع على مذبح الأمل ، إلا أنه كثيراً ما وجد نفسه مرغماً على أن يدرك ، بأن ما يقدم إليه من معلومات وأرقام ، لا تفتقر إلى الدقة فحسب ، بل ومضلة كل التضليل أيضاً . وكتب تشيانو في أبريل عام ١٩٣٩ يقول . . . « وهو يعتقد أن وراء الظواهر التى يحافظ الجميع عليها إلى حد كبير ، ليس ثمة إلا القليل » . وتلقى بعد خمسة أشهر أى في الثامن عشر من سبتمبر ، تقريراً من جرازيانى يبين أن هناك عشر فرق ليس إلا متأهبة للقتال ، لا تلك الأعداد الضخمة التى كثيراً ما نباهى بوجودها كقوى تصلح للخط الأول . أما الفرق الخمس والثلاثون الأخرى ، ففرقة ، وغير كاملة ، وسيئة الإعداد » . وذكر تشيانو « أن الدونشى اعترف بهذه الحقيقة ، وأطلق بعض العبارات التى تنطق بالمرارة عن الوضع الفعلى للجيش ، الذى كان فى هذه الآونة فى منتهى السوء » . وبعث الجنرال فاخا جروسا فى اليوم الذى سبق اعلان الحرب مباشرة إلى موسوليني بتقرير قائم للغاية عن افتقار إيطاليا إلى الاستعدادات مؤكداً بوجه خاص على نقص وسائل الدفاع ضد الطائرات .

لكن موسوليني كان مصمماً على أى حال على المضي إلى الحرب لا « لأن الأخلاق الفاشية تتطلب ذلك » فحسب ، بل ولأنه كان على بين من أن الصلح سيحقق قبل أن تتكشف حقيقة الادعاءات الفاشية الزائفة . وتمينت ثقته من أن الحرب ستنتهى قريباً ، من الحقيقة الواقعة ، وهى أنه لم يصدر أية أوامر بوقف

عمليات البناء في مكان المعرض الذي تمتد مساحة أرضه مئات الأفلنة ، والذي كان من المقرر أن يدهش العالم بأسره في خريف عام ١٩٤٢ ، كما أن عمليات التسريح سارت على قدم وساق في خريف عام ١٩٤٠ بعد انهيار فرنسا ، وبعد أن اتضح أن الغزو الألماني لإنجلترا بات وشيك الوقوع . ولما كان مهتماً بالغ الاهتمام ، بأن يحقق جيشه تقدماً رمزياً على الأقل وراء جبال الألب ، قبل أن ينهي الألمان الحملة كلها ، فقد أصدر أمره بالهجوم في غضون ثلاثة أيام بالرغم من أن مستشاريه كانوا قد نصحوه بأن الجيش في حاجة إلى ثلاثة أسابيع على الأقل ، لإعداد العدة لمثل هذا الهجوم . وعندما طلبت فرنسا الهدنة بعد أقل من أسبوع واحد من إعلان الحرب ، وقبل أن يحقق أي نصر رمزي ، أحس بالقلق والفرع ، وراح يسافر إلى ألمانيا ليجتمع إلى هتلر ، لبحث معه في الشروط التي يجب فرضها على فرنسا ، واعياً تمام الوعي ، وبحزن بالغ على حد تعبير تشيانو ، إلى أن رأيه لن يحمل أكثر من « الطابع الاستشاري » . ومضى تشيانو في يومياته يقول . . . « فقد كسب هتلر الحملة كلها دون أي إسهام عسكري فعلي من جانب إيطاليا ، وستكون لهتلر بلطبع ، الكلمة الأخيرة في الموضوع . ولا ريب في أن هذه الحقيقة أحرزت موسوليني وأزعجته . وكانت آراؤه في الشعب الإيطالي ، ولا سيما في القوات المسلحة في متنتى المرارة . . . ويخشى السوتشي في الواقع ، أن تكون ساعة الصلح قد دنت ، وهو يرى أن ذلك الحلم الذي عاش حياته كله دون أن يحققه ، وهو المجد في حومة الوغى أخذ يخبثني من أمامه من جديد » .

وازداد تدمير موسوليني من الشعب الإيطالي مرارة وشدة مع ورود الأنباء إليه عن الطريقة المقترة إلى الحماسة ، التي كان هذا الشعب يخوض الحرب فيها . وكان تدمره من دخول الحرب أصلاً ، ولا ريب في أنه سمع بهذا التدمير بالرغم من بياناته العامة المتكررة ، قد أوصله إلى حدود الهياج الغاضب . وكان شتاء عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ الشديد البرودة قد أثلج صدره . وكان يرقب الثلوج وهي تتساقط في شهر ديسمبر ويقول . . . « لا ريب في أن هذه الثلوج والبرد الذي يفوق الحد ، مناسبان لنا تماماً . فهذه الطريقة يمكن تحسين الشعب الإيطالي الذي لا يصلح لشيء ، والذي يمثل دون الوسط في درجته . وكان من أهم الأسباب التي

دعني إلى الأمر بتحريج جبال الابينين ، أننى أرغب فى أن يصبح طقس إيطاليا أكثر برذاً وثلوجاً » . وعندما وقعت أزمة خطيرة فى موجودات الفحم فى شهر يناير ، سر غاية السرور من جديد ، إذ أن من الخير تعريض الشعب نحن تجعله يطرح عن نفسه كسل القرون القديمة العقلى « فحسبنا أن نبقى على انضباط الشعب ، وأن نجعل أفرادهم يرتدون البزة العسكرية ليلاً ونهاراً . آه لو كان فى إمكاننا أن نضربهم ونضربهم ونضربهم » .

وكان يشكو دائماً ويقول ... « لئننى بحاجة إلى المادة الخام لأصنعها . فقد كان ميشيل انجيلو فى حاجة إلى الرخام ليصنع تماثيله منها . ولو افترق إلى الرخام ولم يجد إلا الصلصال بين يديه ، لما أصبح إلا مجرد صانع للخزف . فالشعب الذى قضى ستة عشر قرناً يمثل دور السندان ، لا يمكن أن يصبح مطرقة فى غضون بضعة سنوات » . وكان يطلق على الإيطاليين اسم « شعب من الأغنام » . ولم تكن الثمانية عشر عاماً التى انقضت على العهد الفاشى كافية لتغيير طبيعة هذا الشعب . وظل طيلة أيام الحرب يتحدث بهذه اللغة . فكل هزيمة منى بها بل وكل نكسة ، تقع مسئوليتها فى رأيه الغاضب على هذا الشعب « الناعم الذى لا يسوى شيئاً » . والذى جعل منه الفن شعباً هشاً قابلاً للكسر ، بينما ظل كل نصر يحققه الألمان ، يثير فى نفسه لهفة حزينة على فرص تقليدهم ووسائله . وكان تفكيره يقبل كل لئمة إلى نصر لإيطالى ركانها حقيقة واقعة لا تلبث الصحافة أن تتحدث عنها ، إلى أن غدت الخيالات حقائق ووقائع ، وباتت التقدمات الطفيفة انتصارات ضخمة ولم يكد شهر واحد يمضى على نشوب الحرب ، حتى كان يصر لإصراراً أعمى على تصديق جميع الأنباء المتألقة التى تلقاها عن القوة الجوية الإيطالية ، وعلى أن الأسطول الإيطالى قد « أزال من الوجود نصف القوة البحرية البريطانية الموجودة فى البحر الأبيض المتوسط » . ركان يرضى عن الأنباء الطيبة التى يتلقاها من جبهات القتال ، ويثور أشد الثورة عندما يخيب أمله أو تصله أنباء مزعجة ، مما دفع الكثيرين من قادته العسكريين إلى إخفاء الأنباء التى قد تثيره عنه ، مكثفين باطلاعه على الأنباء التى ترضيه ، ومهولين فيها فى معظم الحالات . ويبدو أن المسؤولين فى حكومته قد أخذوا عنه الحقيقة الرهيبة ، وهى أن موازنة الدولة لعام

١٩٤٠ - ١٩٤١ ، تعرضت لعجز قدره ثمانية وعشرون ألف مليون ليرة إيطالية .
ولما كان قد فشل في توجيه ضربة قاصمة ورايحة إلى فرنسا . فقد ظل يتطالع
بفارغ الصبر إلى هدف آخر . وراح يدرس فكرة توجيه هجوم ضخم على مصر
من ليبيا حيث تعزز الجيش الإيطالي تعزيزاً كبيراً ، كما درس فكرة الهجوم على
يوجوسلافيا . وكان قد ذكر للماريشال جرازيانى في توجيه حربى وجهه إليه ،
قبل إعلان الحرب . . . « علينا أن نجبر يوجوسلافيا على الركوع على ركبتيها .
فنحن في حاجة إلى المواد الأولية ، وعلينا أن نحصل عليها من المناجم اليوجوسلافية »
وقد حذره الألمان من الهجوم عليها ، مخافة إثارة عدد كبير من « الكلاب » في
أوروبا الشرقية ، بينما نصحه جرازيانى بعدم القيام بهجوم على مصر لأنه يمثل
مشروعاً خطيراً ، لم تكن الإعدادات له مهيأة على الإطلاق . لكن موسوليني
أصر على رأيه ، وأعلن في الجلسة التى عقدها مجلس الوزراء في السابع من
سبتمبر ، إنه ما لم يقع الهجوم في يوم الاثنين التالى ، فإن جرازيانى سيستبدل بقائد
آخر . وبالرغم من أن جميع القادة الذين كانوا يعملون تحت إمرة جرازيانى هذا ،
كانوا ضد فكرة الهجوم ، كما قال قائدهم ، فقد اضطروا إلى الإذعان ،
وأصدر أوامره بالشروع فيه . وعلق تشيانو في يومياته على ذلك بقوله ... « لم يسبق
لأية عملية عسكرية أن وقعت ضد رغبة القادة المسئولين عنها كهذه العملية » .
لكن الواقع أن جرازيانى وبادوليو ، ما كانا ليجبرا على الإصرار على وجهات
نظرهما في حضور الدوتشى .

وبدأ الهجوم في الثالث عشر من سبتمبر . ولم تمض أيام أربعة ، حتى كانت
ست فرق ، وثمانية أفواج من الدبابات ، قد تقدمت مسافة ستين ميلاً إلى سبىدى
برانى ، ويقول تشيانو إن « الفرع الغامر استبد بموسوليني » . ولم يسبق أن شهد
الناس الدوتشى في مثل حالته من « الفرع الطاغى ، والمزاج المرح » ، كما شهدوه
في الرابع من أكتوبر . لكن الجيش الإيطالى توقف عند سبىدى برانى ، وظل
جرازيانى ثلاثة أشهر ، يرفض التقدم . بينما يصير موسوليني على القيام بهجوم خاطف
على المواقع البريطانية في مرسى مطروح .

وفي هذه الأثناء ، اختار موسوليني ضحية جديدة له ، ليظهر امتعاضه ،

كما قال أحد جنرالاته ، من قادته العسكريين : وليعرض استقلاله عن هتلر .
 فنذ بداية شهر يوليو ، كان الجنرال دى فيشى ، الحاكم العام فى الدوديكانيز ،
 قد بعث ببرقية يقول فيها إن طائرات البريطانيين وسفنهم تجد الملاجأ والوقود والمؤن فى
 مطارات اليونان وموانئها . وأخذ يعد العدة منذ ذلك الحين لهجوم على اليونان ،
 وراح يعلن فى الثانى عشر من أكتوبر أنه وصل إلى قراره النهائى . فقد اعترف دون
 أى من وخز الضمير . بأن احتلال هتار غير المتوقع لرومانيا هو الذى دفعه إلى
 قراره هذا ، وراح يحدد موعد الهجوم بنهاية الشهر . وذكرته حركة هتلر ضد
 رومانيا ، بتكتمه السابق فى عملياته السابقة فى الغرب ، وراح يقول . . . « ما زال
 هتلر يصبر على أن يواجهنى دائماً بالأمر الواقع . وسأدفع له هذه المرة دينه ، بنفس
 العملة التى يستخدمها . وسيقرأ فى الصحف أننى احتلت اليونان . وسنعيد بذلك
 التوازن إلى وضعه السابق » . ولم يكن قد توصل بعد ، كما ذكر ، إلى اتفاق مع
 بادوليو ، ولكن لو أن أحداً فكر فى معارضة الهجوم ، فلن عليه أن يقدم
 « استقالته من الجنسية الإيطالية » . وكتب إلى هتلر فى الثانى والعشرين من أكتوبر
 يطلعه على نواياه ، وكان هذا فى طريقه إلى « هيندلى » ليقوم بال محاولة الفاشلة فى
 إقناع فرانكو بالدخول فى الحرب . وقد آرخ موسولبنى رسالته بتاريخ سابق هو
 التاسع عشر من أكتوبر ، وحرص أشد الحرص ، على أن لا يتسلمها هتار
 إلا بعد أن يكون الوقت قد فات على إثارة أية اعتراضات .

وأيد تشيانو هذه المرة الدوتشى فى فكرته لأنه اعتبر أن الهجوم الإيطالى على
 اليونان ، يحد من توسع النفوذ الألمانى فى البلقان ، لكن القادة العسكريين ، عارضوها
 أشد المعارضة . فقد وقف رؤساء القوات المسلحة الثلاث ضدها ، مشيرين بشىء
 من الإحجام إلى متاعب الحرب الجبلية وصعوباتها فى مثل هذا الوقت المتأخر من
 العام . لكن قرار موسولبنى كان فوق قرارهم . ونقلت المخابرات العسكرية معاولات
 مزعجة ولكنها دقيقة عن القوة المحتملة للمقاومة اليونانية ، فاعتبرها موسولبنى معاولات
 مفرقة فى تشاؤمها إلى حد السخف . وبعد أن غير موسولبنى موعد الهجوم أكثر
 من مرة ، بل خمس مرات فى ريع ساعة ، كما يقول الجنرال أرميلبنى ، حزم
 الدوتشى رأيه أخيراً ، واجتازت الجيوش الإيطالية حدود اليونان تغزوها فى الثامن

والعشرين من أكتوبر ، أوى فى موعد الذكرى السنوية للزحف على رومة . ومضت ستة أسابيع ، اضطّر موسولنى إبانها ، إلى قبول استقالة بادوليو المجهد ، من رئاسة أركان حرب القوات الإيطالية المسلحة ، وإلى الاعتراف فى جلسة عقدها مجلس الوزراء بأن الوضع فى منتهى الخطورة ، بل وبأنه قد يصبح مفاجئاً . وقرر موسولنى أن هذا الوضع يقيم دليلاً جديداً على أن الجيش ولا سيما كبار ضباطه ، يمثلون مصدر عار لإيطاليا . فقد فشل هذا الجيش من جديد فشلاً ذريعاً . وراح يشكو بشورة وحشية . . . « إن المادة الإنسانية التى يتحتم على العمل معها لا تساوى شيئاً » . وعندما عاد ستراشى من جبهة القتال ، راح يؤيد نظرة موسولنى هذه مصدراً « حكماً قاسياً على سلوك قواتنا وتصرفها ، إذ أنها لم تحارب أبداً ، وإن حاربت ، فى منتهى السوء » . وقرر الجنرال أوبالدو سودو وكيل وزارة الحربية الذى كان موسولنى قد بعث به إلى البانيا ليرى بنفسه حقيقة ما هو حادث هناك ، عند عودته فى الرابع من ديسمبر ، أن الوضع العسكرى يائس للغاية ، ولا يمكن لإصلاحه ، وأنه يتطلب « عملاً سياسياً لتعديله » . واستدعى موسولنى وزير خارجيته تشيانولى قصر البندقية وواجهه فور وصوله بقوله . . . « لم يعد فى وسعنا أن نفعل إلا شيئاً واحداً ، رغم بشاعته وسخافته . لكننا حقيقة مرة ، علينا أن نواجهها . أجل علينا أن نطالب هدنة عن طريق هتلر » . ولم يسبق لتشيانو أن رآه من قبل ، على نحو ما كان عليه فى ذلك اليوم من يأس .

وكان ثمة كل ما يبرر يأسه . فقد سبق لهتلر أن نصحه أشد النصح بعدم غزو اليونان ، لأن هذا العمل ، سيثير الاضطراب فى البلقان ، وكان قد قصد إلى إيطاليا على الفور بعد اجتماعه بالماريшал بيتان فى مونتوار وبفرانكو فى هينداى ، ليحاول اقناع موسولنى بعدم القيام بهذا الهجوم المصع . ولكن الأتباء وصلته ، وهو فى قطاره المتجه إلى فلورنسه للاجتماع بالدوتشى ، وقبل ساعتين من وصوله . أن الوقت قد فات ، إذ أن القوات الإيطالية قد اجتازت حدود اليونان تغزوها . وبالرغم من أن هتلر قد كبت عواطفه تمام الكبت . ومضى إلى حد وعد إيطاليا بتأييده الكامل فى الحملة اليونانية ، فقد عاد موسولنى إلى رومة ، مقتنعاً من أن

عمل إيطاليا قد أزعجه كل الإزعاج ، مخافة التأثير على خططه المقبلة وشلها . وراح يثقل من ألمانيا بعد ثلاثة أسابيع من هذا اللقاء ، وبعد أن بدا الفشل الحتمي والمخزى نتيجة هذه الحملة . تأكيداً لانطباعه هذا . ولم يكتف هتلر في رسالته هذه ، بتذكير حليفه ، بأن حملة اليونان ستدعو يوجوسلافيا وبلغاريا وفيشي وتركيا إلى المزيد من التردد في إقحام نفسها في الحرب إلى جانب المحور ، كما ستؤدي إلى قلق روسيا على البلقان ، الذى قد يثير تهديداً جديداً من ناحية الشرق ، في الوقت الذى تمكنت بريطانيا فيه من الحصول على قواعد في اليونان تستخدمها في نصف رومانيا وجنوب إيطاليا من الجو . وأضاف أن نتائج المغامرة اليونانية ستؤدي إلى تأجيل العمليات المقررة في الصحراء ضد مصر ، وإلى أن تبعث ألمانيا بقوات إلى تراقيا لمحاربة البريطانيين فيها ، بالرغم من أن أى إجراء في هذا السبيل لن يتم قبل حلول العام الجديد . وعلق موسوليني على هذه الرسالة بكثير من الأسى قائلاً . . . لقد ضربنى الفوهرر هذه المرة على أصابعى عقاباً لى^(١) .

وها هو وكيل وزارة حربيته ، يأتبه مقترحاً عليه طلب الهدنة من اليونانيين ولكنه راح يسمح في النهاية لتشيانوف بإقناعه بأن الوضع لم يبلغ بعد هذا الحد من السوء، وإن في الإمكان تثبيتته بمساعدات المانية فورية وكبيرة . واستصحب تشيانوف معه إلى قصر البندقية ، ديتوالفيرى ، سفير إيطاليا في برلين ، الذى كان يقضى فترة النقاهة من مرض أبل منه في رومه وكتب هذا يقول

« وجدت الدوتشى غارقاً في أعماق وجومه ويأسه . ولم يسبق لى أن رأيته قط في مثل هذه الحالة من انحطاط المعنويات . وكان وجهه شاحباً ونحيلًا ، بينما كانت أسارير وجهه تنطق بالأسى والهموم . وزاد من مظهره البشع هذا ، أنه كان يرتدى قميصاً ذا قبة مقلوبة واسعة . وكانت ذقنه طويلة لم تحلق منذ يومين على الأقل . وراح يلاطفنى بدماعة غير معهودة فيه ، مما دلل على اضطراب تفكيره ،

(١) تقول وثائق هتلر - بريمان التي نشرت في عام ١٩٦١ ، إن هتلر اعتبر خطأ موسوليني أكبر عمل أدى إلى فشله في الحرب ، ولا ريب في أن هتلر ، اعتبر في أخريات أيامه ، أن تحالفه مع إيطاليا ، كان العقبة الرئيسية في طريق نجاحه . وقد حال هذا التحالف أيضاً بينه وبين التقرب إلى العرب والأفريقيين عن طريق رفع شعار مناهضة الاستعمار . لأن حليفته إيطاليا كانت من الدول الاستعمارية .

إذ عرف عنه أنه كان يضع على وجهه دائماً مع مرعوسيه ، قناعاً من الجلود والسلبية ، وأخذ يسألني عن أحوالي الصحية ، وعما إذا كنت قد أبلت من سقامي . .. وظل يخطو حول مكتبه الضخم ، خطوات قصيرة ، يشغل ذهنه تفكير عميق في فكرة سيطرت عليه ، ورح يتحدث عن برقية سودو ومحولاً أن يسير أغوار الأسباب التي دعت الجنرال إلى التحويل في خطورة الوضع . وظل يمسك بيمناه ، وبعضبيته بينة ذقنه ووجهه ، متنقلاً بنظره بيني وبين تشيانو ، وكأنه ينشد التأييد لنظرياته ولتبريرات آماله منا .

لكن آماله كلها ، كانت سراباً في سراب . ولم يرغم على طلب الصلح من اليونانيين ولكنه أرغم على الاعتماد على مساعدة ألمانيا ، لإنقاذه من الورطة التي وقع فيها . وكان هذا المذاق على كرامته وهيبته . وبينما ظلت برقية سودو تؤثر عليه مضجعه ، وتبعث في نفسه الأسى ، مما دفعه إلى التفكير في تأليف جيش المستقبل من سكان وسط إيطاليا وشمالها ، تاركاً بقية البلاد لتؤلف « جيش الأرسقراطية المعادي » ، جاءته رسالة هتلر ، تحمل الطمأنينة ، وتخلو من التأنيب ، وإن لم تخل من معنى فرض الوصاية ، تقول إن الترتيبات تعد الآن ، ليتدخل الألمان في حرب ليونان . وقامت مجموعة من الضباط اليوجوسلاف ، قبل الانتهاء من أمر هذه الترتيبات ، بانقلاب ضد حكومتها التي كانت قد وقعت قبل أيام على ميثاق يشد يوجوسلافيا إلى المحور . وكان رد فعل هتلر في منتهى العتف . فقد أصر على وجوب سحق يوجوسلافيا « دون رحمة أو إشفاق » ، وعلى الشروع في عملية « ماريتا » ضد اليونان في الوقت نفسه . ولم تخمس عشرة أيام على انقلاب بلجراد ، حتى كان هتلر في الخامس من أبريل ، وبعد أن كان قد طلب إلى موسوليني وقف العمليات في ألبانيا لبضعة أيام ، ليتمكن من نشر قواته الإيطالية على الحدود اليوجوسلافية ، قد أبلغ حليفه ، بأن هجوم القوات الألمانية على يوجوسلافيا واليونان سيبدأ في اليوم التالي ، واقترح أن تكون جميع القوات الإيطالية ، خاضعة لأوامر القيادة الألمانية ، فأقر موسوليني هذا الطلب دون استشارة قادته العسكريين .

وبدأ الهجوم الألماني في السادس من أبريل ، وكان في منتهى الضراوة ،

فحقق نصراً كاملاً في بضعة أيام . ففي السابع عشر من أبريل ، استسلمت يوجوسلافيا ولم تعص عشرة أيام حتى كان الألمان قد احتلوا أثينا . وقبل الألمان استسلام اليونان وخططوا حدود يوجوسلافيا دون مشاورة الإيطاليين . وبالرغم من أن هتلر حاول في الخطاب الذي ألقاه في الرايشتاج تخفيف وطأة الضربة التي وجهت إلى كبرياء موسوليني فوصف التدخل الألماني بأنه « إجراء احتياطي لمنع البريطانيين من تثبيت أقدامهم في البلقان » ونفى أنه كان يقصد مساعدة الإيطاليين ضد اليونان » ، إلا أن أحداً ، وفي المقدمة موسوليني نفسه ، لم يشك لحظة واحدة في الحضيض الذي هوت إليه مكانة إيطاليا في عيون ألمانيا بل والعالم كله . ويجد الفيري نفسه في برلين مضطراً إلى الاستماع إلى انتقادات هتلر الموجهة إلى العمل الإيطالي ، وإلى سلوك القوات الإيطالية . وروى الفيري هذا فيما بعد أن « الفوهرر كان يتحدث بلهجة استفزازية عنيفة ، ولم يسألني خلافاً لعادته عن أنباء موسوليني » .

ولم تكن أحداث اليونان ويوجوسلافيا هي وحدها التي كشفت عن موقف التبعية الذي تقفه إيطاليا . فقد وصلت الأنباء في العاشر من ديسمبر إلى رومة عن الهجوم الذي وقع على مراكز الإيطاليين في سيدي براني . وقد أذهل موسوليني وزيره تشيانو ، بموقف الهدوء وعدم الاكتراث الذي وقفه مركزاً آماله على أن يتمكن الماريشال جرازباني من الصمود في وجه هجوم العدو . ولكن هذه الآمال ، سرعان ما انهارت كعبرها من آماله في ذلك الشتاء . ففي مساء نفس اليوم ، كان البريطانيون قد أسروا ما لا عد له ولا حصر ، من الجنود الإيطاليين . وروت قيادة فوج حرس جولدم ستريم البريطاني في تقريرها أن « عدد الأسرى من الضباط يملأ خمسة أفدنة من الأرض ومن الجنود مائتي فدان » .

وروى تشيانو في يومياته . . . « في مكتنتنا أن نقول إن أربع فرق قد دمرت عن بكرة أبيها » . واعترف موسوليني في اليوم التالي أن إيطاليا قد منيت بهزيمة شنيعة . وعند ما حل مطلع شهر يناير ، كانت « البردية » قد سقطت ، واضطر الجيش الإيطالي المترنح ، وكانت بعض وحداته قد قاتلت ببسالة تثير الإشفاق ضد قوات تفوقها قياداً وأعداداً ، إلى التقهقر إلى طبرق . واحتفظ موسوليني بهدوئه .

بل كان كما وصفه تشيانو « هادئاً بشكل يفوق طاقة البشر » وذلك في الجلسة التي عقدها مجلس الوزراء في السابع من يناير ، إذ قال ، أن لكل جواد كبوة ، ولكل جيش هزيمة . ولكنه وجد من العسير عليه أن يخفي مشاعر الذعر من الإجراءات التي أعدها هتلر لمساعدته . فقد أدرك أن رومل ، قائد عسكري لامع ، إلا في حالات أزماته القاسية ، ولكن كان من المؤلم له أن يقبل الحقيقة الواقعة ، وهي أن هذا الضابط الألماني وحده ، ومعه حفنة صغيرة من القوات الألمانية ، قد تمكن في غضون بضعة أسابيع قليلة من وصوله إلى أفريقيا الشمالية ، من تغيير صورة الوضع الحربى كله في المنطقة . وكان يقارن بشيء من الأسى بين رومل الذى لا يكاد يفارق دبابته المكشوفة على رأس أرناله المهاجمة وبين جرازيانى الذى ظل « يقبع في قبوه الرومانى الذى يهبط إليه بسبعين درجة تحت الأرض » ، فبرى أن الانتصارات التي تحققت في الصحراء ، انتصارات ألمانية لا إيطالية . وأمر بمثل جرازيانى أمام محكمة للتحقيق ، فقضت بلوم ذلك الرجل الذى لم يعد يحس تجاهه إلا بالازدراء على تصرفه . وأرضت النتائج التي توصلت إليها المحكمة ، بإدوليو غاية الرضى ، إذ كان يكره من صميم فؤاده هذا الزميل ذا الشعبية الواسعة ، لكنه كان يعرف ، كما عرف موسوليني نفسه ، أن الذنب ليس بذنوب جرازيانى وحده . فقد حصلت المخبرات الإيطالية ، وهي من أنجح أجهزة الجيش الإيطالى ، على رسائل سرية أمريكية تظهر الجيش البريطانى في أفريقيا الشمالية في منتهى الضعف في العدد والعدة . وكان في مكتبة أى قائد حتى ولو كان أقل كفاية من جرازيانى أن يوقف البريطانيين برجال دربو تدريباً صحيحاً على القتال ، لو كانت لديهم الرغبة في القتال ، وكانوا مزودين بالمعدات اللازمة له . وراح جرازيانى يتسائل في رسالة بعث بها إلى زوجته .. « ولكن ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل . هل يستطيع تحطيم الدروع برؤوس الأظافر وحدها » فبادوليو الذى تولى رئاسة أركان الحرب منذ عام ١٩٢٦ والذى كان مشغولاً عن خطط أركان الحرب والبحوث الخاصة بالأسلحة ، أكثر من خمسة عشر عاماً ، وموسوليني الذى أغمض عينيه عن عجز بادوليو الفاضح ، لا بد أن يشتركا أيضاً في المسؤولية عن ضعف الجيش وفشله . ولكن في الوقت الذى كان

فيه بادوليو وجرازيانى يتبادلان التهم بالمسؤولية كان موسولبنى يوجه الملامة إليهما معاً.. ويعرب عن سخطه بانعكاسات غاضبة يتصور فيها انتصارات الألمان المذهلة. وعندما أصدر هتلر أمره بترقية رومل إلى رتبة المارشال ، تدمر موسولبنى من أن هذه الترقية كانت وسيلة « لإضفاء الصبغة الألمانية على المعركة » ، وراح يرد على ذلك بترقية الجنرال الكونت أوجوكافاليرو خليفة بادوليو في رئاسة أركان حرب القوات المسلحة إلى رتبة المشير (المارشال) . وإن كان رأيه فيه لا يزيد على رأيه في أى من جيرانه الآخرين . ويقول دى بونو . . . « يتميز كافاليرو بالتفاؤل . ولعل هذا هو السبب الوحيد الذى جعل الدوتشى يؤثره على غيره » . وكان بالإضافة إلى ذلك مفرطاً في خضوعه على حد قول تشيانو ، وكان « في إمكانه أن ينحنى إلى المراحض العامة خضوعاً لو أنه عرف أن ترقية تكون عن طريقها »^(١).

وبالرغم من سخط موسولبنى وزله ، فقد ظل هتلر ، يقف منه شخصياً موقف الود والتفهم . فهما كان رأيه في الإيطاليين عموماً ، فإن احترامه « لدوتشيهم » ، كان لا يزال على حاله من القوة والوضوح . وكان حتى في شهر نوفمبر ، عندما كان الوضع على أسوأ ما يكون من الاضطراب في جبهة اليونان ، قد آثار عواطف تشيانو ، عندما بادره قائلاً والدموع تترقق في جفنيه . . . « من هذه المدينة فيينا مدينة الوحدة مع ألمانيا (الانشلوس) ، أبعث إلى الدوتشى ببرقية أؤكد له فيها أننى لن أنسى ما حييت مساعدته ، وإننى لأؤكد له اليوم أننى أقف إلى جانبه بكل ما لدى من قوى » . وعند ما اجتمعا في يناير في عش النسر بعد كارثة أفريقيا الشمالية ، كان هتلر في منتهى الود لموسولبنى . وكان موسولبنى ، خجلاً كل الخجل من فشل جيشه ، حتى أنه سافر إلى ألمانيا وهو في حالة من ثورة الأعصاب والحشية من الاجتماع . وكان قد طلب تأجيل الاجتماع مرتين ، أملاً في ورود أنباء أفضل من الجبهات عن القوات الإيطالية ، كما قام بنصف محاولة لإلغاء الزيارة كلياً . لكنه اتخذ طابعاً ودياً إلى الحد الذى دعا تشيانو ، إلى وصف وضع موسولبنى

(١) كان تشيانو متعيزاً في رأيه في هذه القضية كما في غيرها أيضاً . فقد كان على أحسن العلاقات مع ابنة كافاليرو ، وهي زوجة فرانسيسكو جاكومونى ، حاكم ألبانيا ، حتى قيل إنها عشيقته . وكان المعروف في رومة في تلك الأيام أن تشيانو ، أيد الهجوم على اليونان لأنه كان يهتم اهتماماً شخصياً بتوسع ألبانيا . « المؤلف »

النفسى بعد انتهائه بالانتعاش ، « كرد فعل طبيعى على لقائه بهتلر » . وعندما وصل الوفد الإيطالى إلى محطة بوتش وجد الفوهرر فى انتظاره على الرصيف والثلج يتساقط على معطفه الجلدى الطويل ، وقد انسدت قبعته على أذنيه . وتوقفت عربة « البيلان » التى يستقلها موسولنى أمام الفوهرر مباشرة ، وهبط الدوتشى منها ببطء متجهاً إلى مضيفه ، ليصافحه وقد أخذ الواحد منهما يتفرس فى وجه الآخر . وكان موسولنى قد قال قبل لحظات من وقوف القطار . . . « لا أعتقد أن فى عروقى قدرأ كافياً من الدم ، بحيث يصطبغ وجهى حياء منه عندما أراه » . ونطقت أساريره بصورة جامدة قاسية على حد تعبير السفير الإيطالى ، وعندما شرع فى تبادل الحديث مع هتلر ، انطلقت على وجهيهما ابتسامتان مصطنعتان .

واجتمع السفير إلى موسولنى وحده للحظات قبل الشروع فى الاجتماع الرسمى ، وأبلغه أن هتلر على استعداد تام لتلبية أية طلبات قد يتقدم بها للحصول على معونة ألمانيا . وقاطعه موسولنى بشيء من الخشونة قائلاً . . . « ليس لدى ما أطلبه منه » .

وحقاً لم يطلب موسولنى شيئاً ، فقد سمح لهتلر بأن يحتكر معظم الحديث ، مكتفياً بالجلوس فى مقعد وثير مريح ، من المقاعد التى تكتظ بها قاعات الاجتماعات الألمانية ، وبالتعليق بين آونة وأخرى ، بينما واصل الفوهرر عرض معرفته الشاملة بالمشاكل العسكرية ، وتحديد خططه لحلها ، بذكاء ترك انطباعات عميقة فى نفوس الفييرى ونشيانو ، والجنرال القصير البدن الفريدو جوزوفى القائم بأعمال كافاليرو فى رئاسة أركان الحرب ، نظراً لغياب الأخير فى أفريقيا الشمالية .

وكان هتلر بآدى الرضى والانشراح ، إذ كان تفكيره منصرفاً إلى الهجوم المقبل على روسيا ، وهو الهجوم الذى تكتم فى خططه وتفصيله تمام التكم مع الإيطاليين . لكن كبرياء موسولنى تأثرت بالغ التأثير ، بما تصوره من مهانة لحقت ببلاده ، من جراء إصرار الألمان ، على وقف محاولاته لتحسين علاقاته مع موسكو ، وإشاداتهم الواضحة إلى أنه بالنظر إلى عجز إيطاليا عن تأمين الجنود القادرين على الحرب ، فإن عليها أن تؤمن مزيداً من العمال الصناعيين لألمانيا وذلك حتى يتجاوب مع حب هتلر وثقته المطمئنة . وقد اضطر إلى الاعتراف للسفير الإيطالى بأن الفوهرر كان « مهذباً وودوداً ومتفهماً » ، ولكنه

أفرط في ذلك كل الإفراط . ولا ريب في أنه مصاب بشيء من الجنون . فعندما حدثني قائلاً بأن ليس ثمة من عايش أكثر منه معي في آلامي ، وأحزاني ، كانت عيناه تغورقان بالدمع . لا ريب في أنه كان يغالي في كل هذا ، فقد حرص أشد الحرص ، على أن يحملني على الشعور بلطفه وكرمه ، وقوته وقوته .

وكان موسوليني يبدو أثناء وجبات الطعام منكباً على طعامه ، يأكل من الصفحة التي أمامه ، وقد وضع « فوطته » إلى صدره . فكان يأكل قليلاً وبسرعة بالغة . وكان يصغي إلى حديث هتلر بذلك الطراز من التركيز الذي يخفى في الواقع ، ضيقاً شديداً ، وعندما كان يحاول الاشتراك في الحديث ، كان التلعثم يسيطر عليه وكأن الألمانية لغة نسي الحديث بها . وأثار منظره عند تناول الشاي في اليوم الأول الإشفاق ، عندما كان يحاول أن ينأى بمقعده عن النار الشديدة الحرارة المشتعلة في الموقد محتسباً قدحاً من الشاي ، بينما كان هتلر يلتهم كمية ضخمة من البسكويت والفطائر المحشوة بالمرابي ، وكان جورنج ، مزهواً ببيزته الرائعة الجديدة ، يتحدث ويتحدث .

وقد تكررت صورة هذا الاجتماع من جديد بعد ستة أشهر أي في أغسطس عام ١٩٤١ ، عندما قام موسوليني بزيارة القوهرر في مقر قيادته في الجهة الشرقية ، ليقوم بجولة في ميادين القتال . ويقول السجل الإيطالي الرسمي عن هذا الاجتماع ... « وقد وجد الدوتشي أن من المناسب السماح للقوهرر بالحديث عن اقتراحاته بمنتهى الحرية والصراحة . وقد اهتبل هتلر الفرصة ، وظل يتحدث بلا توقف ساعتين ونصف الساعة . ولم ينقذ موسوليني من الاستماع إلى ثرثرته ، إلا مغادرتهم المكان متجهين إلى الجهة » .

ولم يلق الإيطاليون اشعاراً بالهجوم الألماني على روسيا إلا في الساعة الرابعة والنصف من صباح الثاني والعشرين من يونيو . فقد استدعى السفير الإيطالي الفيري ، إلى دار وزارة الخارجية حيث أبلغه ريبنتروب ، أن الجيوش الألمانية عبرت في الساعة الثالثة من صباح ذلك اليوم الحدود زاحفة على روسيا . وكان موسوليني لا يزال في فراشه عندما رن جرس الهاتف في دارته في ريسيني ، فردت زوجته راشيل ، ونقلت الرسالة إلى زوجها . وذكرت راشيل فيما بعد للصحنى برونو

داجوستيني أن زوجها استقبل النبأ بتأثر بالغ ، ثم قال لها . . . « اسمعي يا عزيزتي راشيل . . . إن هذا يعني أننا خسرنا الحرب » . ولكن لم تمض بضع ساعات حتى كان تشيانو ينقل إلى الفييري عن طريق الهاتف رسالة من الدوتشي إلى الفوهرر . يقول فيها إن إيطاليا تعتبر نفسها في حالة حرب مع روسيا منذ الساعة الثالثة من ذلك الصباح ، ثم طلب من السفير أن يعمل « كل ما في وسعه لإقناع الألمان بالموافقة على اقتراح الدوتشي بإرسال حملة إيطالية للاشتراك في حرب روسيا »^(١) .

وبالرغم من أن برلين لم تستقبل هذا العرض بإرسال القوات الإيطالية بالترحاب ، إلا أن موسوليني كان مصراً على أن يبعث بها ، مؤكداً في مجالسه الخاصة أن القضية لا تتعلق بكبريائه الشخصية وحدها . فعلى إيطاليا أن تسهم في تحقيق نصر سريع . وكان يرى أن روسيا إن لم تهزم في الأشهر الستة الأولى فلن تهزم أبداً . وأخيراً تم إرسال مائتي ألف جندي إيطالي كان في وسعهم أن يغيروا مجرى الحرب في أفريقيا الشمالية ، بالرغم من نصيحة جميع الجنرالات الإيطاليين المستولين ، إلى الجبهة الشرقية للقتال إلى جانب الألمان . وكان ما أصابهم هنا من رعب من معاملة الألمان القذيمة للمدنيين الروس ، وما وجدوه هم من سوء معاملة بعد انهيار ستالينجراد حيث احتكر الألمان جميع وسائل النقل كما فعلوا في شمال أفريقيا في عام ١٩٤٢ ، من الأسباب الكثيرة التي أدت إلى إضعاف الحلف العسكري بين ألمانيا وإيطاليا .

وظل موسوليني يراقب تحركات قواته في روسيا باهتمام كان يشغله آناء الليل وأطراف النهار . وكانت الصحافة تنقل دقائق كل ما يقومون به من نشاط مهولة من أنباء انتصاراتهم في الوقت الذي تقلل فيه من قدر الانتصارات الألمانية . وطرب موسوليني عندما تمت إلى مسامعه أنباء المقاومة العنيدة التي واجهتها جيوش الألمان في مينسك . وكثيراً ما سمع يقول . . . « إن كل ما آمل فيه شيء واحد ، وهو أن يفقد الألمان في حربهم في الشرق ، الكثير من ريشهم » . وقد اتضح موقفه هذا

(١) كان موسوليني قد أصر أيضاً على إشراك حملة إيطالية مع القوات الألمانية في غزو إنجلترا ، في عام ١٩٤٠ . وكانت إيطاليا قد عرضت عشر فرق وثلاثين سرباً من الطائرات « تلبية لرغبة الدوتشي الملحة »
« المؤلف »

أثناء طوافه بالجبهة الشرقية . وعندما استعرض فرقة تورين التي يقودها الجنرال ميسى ، انزعج أيما انزعاج ، لرؤيته الرجال نظيفي الثياب ، حليقي اللحى ، وهم يمرون به في شاحناتهم المصادرة من الروس ، والتي تسير فوق الطرق التي تغطيها الرحول . ولم يستطع إخفاء خيبة أمله ، في أن هتلر لم ير فيهم المحاربين الذين تركت المعارك آثارها في وجوههم وأجسادهم . وكان الجنود الألمان يبدوون على النقيض من ذلك جفافة غلاظاً ، وعندما مضى هتلر إليهم يحدّثهم ويثير ضحكهم بالنكات التي يطلقها ، والتي يصغون إليها بدافع الواجب ، كان موسوليني يظل واقفاً على منأى متحدثاً إلى الماريشال « فون رونشتادت » وكثيراً ما اشتكا فيما بعد إلى الفيرى بشيء من المارة بقوله . . . « كان في وسع هتلر ، أن يأخذني معه وهو يتحدث إلى جنوده ، بدلاً من أن يخلفني مع رونشتادت العجوز . أرايت ما أبعد الفوهرر عن روح الجندية وهو يتحدث إلى رجاله ؟

وأراد في وقت لاحق من ذلك اليوم أن يظهر لهتلر أنه يستطيع أن يفعل شيئاً لا يستطيع هتلر أن يفعله ، ففضى إلى باور قائد طائرة هتلر الخاصة ، وبعد أن تحدث إليه بعض الحديث وطرح عليه بعض الأسئلة عن الطائرة التي كان يستقلها مع الفوهرر ، أعرب عن رغبته في أن يتولى قيادتها بنفسه . وعندما مضى إلى هتلر ، يسأله إذا كان يستطيع قيادة الطائرة ، تطلع الفوهرر إلى من حوله بقلق ، فهو لا يريد أن يرفض طلب ضيفه ولكنه يود أن يجد أحد مرافقيه عذراً لرفض الطلب دون أن يجرح عواطف الدوتشي . وبلغ باور نظرة زعيمه فأخفى رأسه ، مشيراً إلى أنه فهم قصده وأن في وسعه أن يطمئن . ووافق هتلر آنذاك على أن يتولى الدوتشي قيادة الطائرة ، ولكن هتلر ظل بقية الرحلة معلقاً أنظاره بظهر باور ، ليطمئن ، وخيل لالفيرى أن انتباه هتلر لم ينصرف لحظة واحدة عن النظر إلى الدوتشي .

وصدرت على إثر انتهاء الزيارة بلاغات رسمية حددت فيها دول المحور أهدافها الحربية ونظامها الجديد لأوروبا ، كرد على ميثاق الأطلسي الذي كانت بريطانيا وأمريكا قد أصدرتا مؤخرًا ، وضمن موسوليني هذه البلاغات قدرته كطيار إذ قال لسفيره الفيرى ، وهو يوجهه بالبيانات اللازمة لوكالة ستيفاني الإيطالية الرسمية

للأخبار ، ... « وفي وسعك أن تضيف حسب تقديراتي أنني قطعت ٣٣٠٠ ميل في القطار و ١٢٥٠ ميلاً في الجو وسبعمائة ميل باسيارة . ولعلك تتبين أن في وسعي أن أقوم من جديد بنفس الرحلة » .

ويقول الفييري ... « وكان وجهه ينطق بالابتسام ، وهو يحدثني بهذا الحديث ، ويتغرس في بشيء من الرضى الصياني » .

لكن هذه الزيارة لهتلر ، كانت الأخيرة في زياراته السعيدة . ففي مستهل يناير من العام لتالي ، وصل جورنيج إلى رومة ، وقد ارتدى كما قال تشيانو « معطفاً رائعاً من فرو السمور » ، هو وسط بين ما كان يرتديه راكبو الدراجات النارية في عام ١٩٠٦ وبين ما ترتديه عاهرات الدرجة الأولى في أيامنا هذه : « وقد اقترح أن يقوم موسوليني برحلة أخرى إلى ألمانيا . وكان هتلر يريد أن يبعث في الدوتشي روحاً جديدة ، بعد أن فقد الكثير من معنوياته في تلك الأيام الحزينة من ذلك الشتاء ، فدعاه إلى شلوس كليشام . ودون تشيانو في يومياته ، وصفاً حائفاً لهذا الاجتماع فقال ... « وكان هتلر يتحدث ويتحدث ويتحدث . وكان موسوليني يعاني الكثير من ذلك ، فقد ألف هو نفسه على أن يكون المتحدث دائماً وأن يصغي الآخرون إليه ، ولكنه يجد نفسه مضطراً الآن للإصغاء . وحل اليوم الثاني ، وكان الحديث قد نضب بينهما ، وما كادا يتناولان الغداء ، حتى انطلق هتلر من جديد يتحدث لمدة ساعة وأربعين دقيقة بلا انقطاع . ولم ينس في حديثه أي موضوع من المواضيع ، إذ تناول الحرب والسلام والدين والفلسفة والفن والتاريخ . وظل موسوليني يرقب ساعة يده ، متطلعاً إليها بين الفينة والأخرى . وكنت مشغولاً في بعض القضايا التي تهجنى ، بينما كان كافاليرو وحده . وهو فريد في استخداثه وتبعيته ، يبدو مصغياً لكل كلمة يقولها هتلر بشغف ، يوجئ برأسه بعلامات الموافقة والتأييد . وكان الألمان على أي حال أشد خشية منا من هذه المحنة التي يعانونها ، فقد تحتم على هؤلاء المساكين أن يحملوها في كل يوم ، ولست أشك في أنهم لم يحفظوا عن ظهر قلب كل كلمة يقولها ، وكل إمحاء تصدر عنه ، ووقفة يقفها . وظل الجنرال بودل يكافح طويلاً قوة احتماله ، ثم أغرق في سبات عميق على مقعده . أما كايبل فقد ظل يثأب ولكنه أفلح في مقاومة الإغفاء » .

وراح هتلر بعد ذلك يقارن نفسه بنابليون ، ثم أسر إلى الدوتشي بأنه يعيش « في حمى العناية الإلهية » . وعلق موسوليني وهو في طريق العودة إلى إيطاليا على كل ذلك بقوله . . . « لا أدري حقاً ، لم طلب مني الفوهرر أن أمضى للقائه » .

وكان في وسعه بعد ثلاثة أشهر أن يوجه مثل هذا السؤال بالنسبة إلى كافاليرو هذه المرة . وكان قد انقضى أكثر من عام عليه ، وهو ينتظر فرصة مواتية لزيارة أفريقيا الشمالية ، إذ أصدر أوامره إلى الجنرال كافاليرو ، بأن يبرق إليه مستديعاً لإياه بعارة واحدة ، عندما يصبح على يقين من أن الجيش الإيطالي قد شرع في زحف سيوصله إلى قناة السويس . ووصلت البرقية في السابع والعشرين من يونيو ، عندما كان الأمل سائداً في أن هجوم رومل المضاد الذي دحر البريطانيين إلى ما وراء حدود مصر ، سيستمر في قوته واندفاعه . ولكن عاصفة جوية حالت دون رحيل موسوليني لمدة يومين ، وعندما وصل أخيراً إلى ليبيا كان البطء قد حل محل سرعة الزحف ، ليتوقف أخيراً عند العلمين^(١) واشتد سخطه على القائد العسكري الذي عرضه لهذه السخرية ، إذ استدعاه إلى الجبهة في مرحلة غير مواتية ، كما وقع عند غزو اليونان ، وقضى ثلاثة أسابيع تعيسة في ليبيا يطوف فيها مؤخرة الجبهة ومعه عدد من الجنرالات الإيطاليين الذين هبطت معنوياتهم ، محاولاً تشجيعهم بالعودة يقدحها عليهم ، في أن كل جهد ممكن سيبلد ، للوصول بالمؤن عبر البحر الأبيض المتوسط ، وأن قافلة بحرية لا بد وأن تعبر البحر عما قريب . وأكد لهم أن الخطط تعد الآن لاحتلال جزيرة مالطة ، وأن ذلك ستظل الطرق البحرية مفتوحة على مصراعها ، لكن سامعيه لم يستطيعوا إخفاء شكوكهم في صحة ما يقول .

وعاد موسوليني إلى رومة في العشرين من يوليو عام ١٩٤٢ . وكان يبدو في غاية الإجهاد والمرض . وأعلن بيان رسمي أن ما أصابه من إجهاد نتيجة الواجبات التي يؤديها قد عرضه للإصابة بالإسهال الأميبي . ونقل إلى دارته الريفية في روكاديل كامنياني ، وسرعان ما انتشرت الشائعات ، في رومة بأنه نقل إلى هناك ليموت في دارته . وقال أحد وزرائه . . . « من المحتمل أن يكون في طريق الموت ،

(١) بين موسوليني في كتابه « قصة سنة » الذي أعده بعد عامين ، أن الثامن والعشرين من يوليو عام ١٩٤٢ ، كان نقطة التحول في الحرب ، وفي تاريخ حياته .

ولكن لا بفعل الإسهال (الدوزنطاريا) ، فهذا مرض مألوف لا يقتل ، وإنما بفعل ما أصابه من إذلال .

وكان تشخيص هذا الوزير معقولا . فقد مضى إلى ليبيا تستثيره آمال النصر في أفريقيا الشمالية ، حتى إنه شرع في إعداد تفاصيل خطته للحكم العسكرى الإيطالى - الألمانى فى مصر ، ثم وجد نفسه يواجه وضعاً لم يستطع حتى كافاليرو المفرق فى تفاؤله وثقته إلا أن يصفه « بالخطورة » . ووجد نفسه مضطراً أيضاً إلى تقبل فكرة التخلي عن المخطط الموضوع لاحتلال مالطة ، بعد أن أبلغه هتلر أن تنفيذها بنجاح بات مستحيلاً بسبب هبوط الروح المعنوية الإيطالية هبوطاً كبيراً . وكان عليه أن يقبل بخفض كبير فى شحنات الفحم والزيوت من ألمانيا ورومانيا ، إلى بلاده ، إذ أن الحكومة الألمانية لم تعد ميالة إلى تسليم « الزيت الثمين إلى أيدى سيئة » على حد تعبير أحد الملمحين فى السفارة الألمانية فى رومة ، بالرغم من كل ما فى تعبيره من قسوة وخشونة . وتحتم عليه مع مضى أيام تلك السنة القاسية ، أن يقرأ وأن يسمع تفاصيل قيام الوحدات الألمانية بمصادرة وسائل النقل على الجبهة الشرقية لاستخدامها فى نقل قواتها المترجعة مخلفة وراءها ، الوحدات الإيطالية ، لتراجع وسط الثلوج مشياً على الأقدام . وكان عليه أيضاً أن يواجه الحقيقة الواقعة ، وهى أن الألمان لم يشرعوا فى فقد ثقتهم فى عزيمة الإيطاليين على الحرب فحسب ، بل وأخذوا يقومون بالخطوات الفعلية أيضاً لحماية أنفسهم من النتائج المحتملة لانتهيار إيطاليا . وقد عين الملمحق العسكرى الألمانى فى رومه « ضابط ارتباط » لدى القيادة العامة الإيطالية ، كما وصلت عدة وحدات ألمانية إلى إيطاليا بحجة « التدريب » ، وأوفد الماريشال كيسلرينج إلى إيطاليا ليصبح قائداً أعلى فى الجنوب . وكانت هناك أيضاً أنباء مزعجة عن تشكيل خلايا ألمانية فى المدن الإيطالية الكبيرة ، وعن خطط تعد لاحتلال البلاد عسكرياً ، وعن إقامة حكومة تابعة من « الديو » برئاسة روبروفاريناتشى ذى الميول الموالية للألمان والعبد لإرادتهم .

وأخذت العلاقات تسوء بين ألمانيا وإيطاليا شهراً بعد شهر . وكانت هناك مواضع عدة أثارت تذمر موسوليفى وشكاواه ، ومنها معاملة العمال الإيطاليين

السيئة في معسكرات العمل الألمانية ، وتدمير الشعب الإيطالي من تصدير عدد كبير من الروائع الفنية الإيطالية إلى الرايخ ، ورفض الإيطاليين أن يكونوا على حد تعبير جوبلز أكثر من مجرد « مفرطين في التراخي » ، واستياء الألمان من « معاملة الإيطاليين لليهود » ، وتردد هتلر المستمر في الموافقة على اتباع سياسة أكثر تشدداً مع فرنسا ، التي كانت تمتلكها في البحر الأبيض المتوسط ، تؤلف مصدراً مستمراً من مصادر الاحتكاك في العلاقات بين دولتي المحور .

وكان موسوليني يكثر من القول بأن ألمانيا اتبعت سياسة بعيدة عن الذكاء تجاه فرنسا لأنها لم تقم « باحتلالها كلها وقت الهدنة » . وكانت هناك أيضاً شكاوى دائمة ومتزايدة من جانب الألمان ولا سيما من جانب جورنيج ، الذي كانت أقواله تثير غضب موسوليني ، ثم ما لبث أن تبناها هتلر الذي ضمنها رسائله الخطية ، مؤكداً أنه لو لم تهاجم إيطاليا اليونان ، لدخلت أسبانيا الحرب ، ولسقط جبل طارق في أيدي المحور . ولا ريب في أن جميع هذه الخلافات خلقت توتراً في العلاقات بين البلدين ، وهي العلاقات التي لم تكن في يوم ما منسجمة ، مما يؤدي إلى اقتناع موسوليني في النهاية من أن استمرار الأمور على هذا النحو سيؤدي إلى أن تجد إيطاليا نفسها « في حالة حرب مع الألمان تنفيذاً لإملاءات الشرف والواجب التاريخي » . وأصبحت مثل هذه الأقوال مألوقة من جانب موسوليني . فقد أضحى يثور على الألمان الذين سرت إليهم عدوى « جرائم الأنبياء » ، لما يقومون به من « أعمال بربرية تخلو من كل منطق وعقل » ، وعلى شعبه هو لما يظهر فيه من « رحمة مستخذية » ، وأصبحت ثوراته هذه المشيرة إلى مزاجه السيئ ، شيئاً مألوفاً ، تماماً كالتحولات في طبيعته ومزاجه . فهو ينتقد في أحد الأيام فرانكو على نكرانه للجميل ، ليعود فيطريه في اليوم التالي على صموده في وجه الضغط الألماني . وهو يتحدث في المساء ، بكثير من التشاؤم مطلقاً نبوءاته السوداء عن سير الحرب ، ليعود في الصباح فيقبل التأكيدات التي تصدر عن مستشاريه الأكثر طمأنينة وثقة ، وليتحدث كما قال تشيانو « في شكل ينبض بالتفاؤل ، عن الانتصارات ، واحتمالات الهجوم ، واستعادة الموقف في أفريقيا » . ولم يعد ذلك الإنسان الحائر ، في أفكاره فحسب ، بل بات ذلك الإنسان الذي يقف

مواقف غير مستقرة عن وعى وتصميم . فقد هدد بالحرب ضد ألمانيا ، ولكنه عاد بعد بضعة أيام فأكد تصميمه على السير مع ألمانيا جنباً إلى جنب حتى النهاية . وهو يرى في رومل حليفاً إنسانياً « مجنوناً » ، ولكنه لا يلبث أن يراه في وقت آخر ، « أحد عظماء قادة العصر العسكريين » .

ولم يعد موسوليني يظهر بصورة عامة بعد صيف عام ١٩٤٢ إلا فيما ندر . وكان الناس يظنون إليه ، إذا ما ظهر أمامهم بكثير من العطف المندهل ، وكان لا يزال يدفع فكاهة الأسفل إلى الأمام إذا ما وقف أمام المصورين ، ويفتح عينيه على سعتهما ، لكن وجهه كان قد فقد تلك الحيوية التلقائية التي جعلت منه في يوم ما وجهاً بأسر المتطلع إليه . وكان سمير ويلز قد وجد فيه قبل ثلاث سنوات رجلاً « يبدو أكبر من عمره الحقيقي وهو ٥٦ عاماً ، بخمسة عشر عاماً على الأقل . فهو دائم التفكير وقد تحول إلى الجحود من الحركة والحيوية . وبات متناقل الخطى كالقيل ، وكأنه يبذل جهداً ضخماً في كل خطوة بخطوها . وكان الترهل قد صاحب بدانته ، وبدت التجاعيد في وجهه ، أما شعره القصير فقد أصبح أبيض كالثلج » . وبعد شهر من زيارة ويلز ، أصيب السكرتير العام الجديد للحزب الفاشي ، ايتورى موتى بالدهول من صورة الإجهاد وكبر السن في وجه الدوتشي . ولحق القلق بتشيانو أيضاً ، لكن هذا كان يعزى نفسه بالتصور بأن الحالة التي يعاني منها الدوتشي ، مؤقتة لا تلبث أن تزول .

ولكن تشيانو كان جد مخطئ في رأيه . ففي صيف عام ١٩٤٢ ، كانت سستان من الحرب . قد ألحقنا الانهيار بحالة موسوليني الصحية ، حتى أن أحد أطبائه ، بدأ يشك في احتمال بقاءه أمداً طويلاً على قيد الحياة . ورأته إحدى السيدات في دارة تورلونيا في نهاية ذلك الصيف فقالت : . . . « لم يعد الدوتشي يبدو إنساناً حقيقياً على أى حال . إنه صورة كاريكاتورية لما كان ، بل جثة تكاد تكون هامدة » .

القسم الثالث

سقوط العملاق

الحرب تسير سيراً سيئاً

من ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢ إلى ٢٣ يناير ١٩٤٣

« القدر . . . إن الساسة لا يتحدثون عنه إلا عند ما يحطون . . . »

عندما حل خريف عام ١٩٤٢ ، وكان قد انقضى أكثر من عامين على الحرب الكربية ، كانت المعارضة للألمان وللعهد الفاشي ، قد انتشرت فشملت إيطاليا كلها . وتكاثرت الاعتقالات اليومية للمثقفين في رومه وميلان والعمال في نابولي وصقلية^(١) . وانتشرت الإضرابات ، وشرعت الشرطة في إطلاق النيران في حالات كثيرة فوق رؤوس الجماهير الغاضبة ، كالتريقة الوحيدة التي تلجأ إليها لتفريق التظاهرات . وبدأ الاشتراكيون في جنوه والشيوعيون في جنوه يوزعون المنشورات السرية ويمزقون المنشورات الفاشية المعلقة على الجدران ويضعون عليها منشورات تطلب الحرية واسلام . وأخذت الصحف غير الفاشية تؤيد المعارضة بصورة حذرة ، وتلهب مشاعر النخبة عن طريق الإشارة إلى النقص في التموين وصغوف المواطنين التي تنتظر التوزيعات ، بالرغم من حظر نشر مثل هذه الأمور إلى أن قامت السلطات بإغلاق عدد منها وبينها صحيفة أوجي . وتم تقنين جميع المواد الغذائية بما فيها الخبز والخضار واللحم والأوز والبيض ، ولم تعد الشرطة تتدخل في السوق السوداء التي اتسعت مجالاتها وتعقدت وأصبحت عسيرة على السيطرة ، إذ أن الحكومة أصدرت مرسوماً يتسم بالعجز قررت فيه دون أية إجراءات أخرى خفض أسعار جميع السلع بنسبة عشرين في المائة .

وبات ألوف الفلاحين في الجنوب في خطر المجاعة ، واضطر الفقراء في طول

(١) تجمع اصناد على أن الحكم الفاشي الذي ظل يقبض على ناصية السلطة في البلاد بيد من حديد نحواً من عشرين عاماً ، بدأ يتقلص ويضعف نفوذه في السنة الثالثة من الحرب بعد أن انهارت المعنويات الإيطالية من جراء الهزائم التي مني بها الجيش الإيطالي .

البلاد وعرضها إلى المزيد من حزم بطونهم بعد أن جاعوا ، إلى الثقب الأخير في أحزمهم وقد أطلقوا عليه اسم « ثقب موسوليني » . فقد كانت الحرب ، حربه الخاصة ، وهو الذى قادهم إليها ، وكان هؤلاء الألمان الذين يسرون في كل مكان وكأنهم جنود قوة محتلة ، أصدقاءه لا أصدقاء الشعب الإيطالي . وهم لن يفعلوا شيئاً لإنهاء الحرب . وهذا ما كان الإيطاليون يحدثون بعضهم بعضاً به ، مكررين نكتة شعبية بلهجة ساخرة ، من أنهم سيحاولون كسبها كآخر إجراء . ولكنهم كانوا في الواقع قد توقفوا عن التفكير في النصر ، وظلوا ينتظرون بكثير من الاستسلام المشفوع بالأمل ، وقوع الهزيمة ، مصغين إلى إذاعات لندن وإلى أية إشارة قد تصدر عنها .

وتقبل موسوليني هذه الانهزامية وذلك اليأس من جانب شعبه كدليل جديد على عدم جدارته بأن يعتبر أكثر من « شعب تافه لا يصلح لشيء » . وإنه « لا يعرف إلا الغناء وتناول المثلجات » . وكان يقول إن الإيطاليين عام ١٩١٤ كانوا أحسن منهم ، لكنه لم يكن قادراً على أن ينكر أن هذا كان نتيجة للعهد الذى أقامه . أما الجيش « فلا نفع فيه » ، وأما قادته ، فجميعهم من « المشلولين » . ولم يكن أمراء البحر أحسن من قادة الجيش حالا . أما البورجوازيون فهم في الحقيقة « منحلون وأنانيون » وهم « أسوأ الإيطاليين قاطبة » . وبالرغم من أنه كان يسمح لنفسه بمثل هذه الهجمات المتكررة والمتعددة التى يوجهها إلى شعبه . فإنه كان يثور أشد الثورة إذا حاول الألمان تأييد آرائه هذه .

وسلمته مخابراته ذات يوم نص حديث هانفي جرى بين أحد ضباط الأركان في مقر القيادة العامة للقوات الألمانية في إيطاليا ، وبين ضابط ألماني آخر في برلين ، وصف فيه الأول الإيطاليين بأنهم « شعب المكرونة » كما أشار إلى وجوب احتلال إيطاليا في وقت قريب . وانصرفت أيام طويلة ، وهو لا ينفك عن تكرار التهديدات التى دأب مؤخراً على توجيهها ، والتى لم يحس قط بالتعب من ترديدها معيداً على مسامع تشيانو ما سبق له أن قاله له ، من أنه يعد ملفاً عن جرائم الألمان وإهاناتهم ، وإنه « سيستخدمه عندما تحين اللحظة المناسبة » .

وكان في غضون ذلك ، قد قيد نفسه بالتحدث في كثير من الحالات وفي

المناسبات العامة عن فضائل اليابانيين وانتصاراتهم ، رامياً من ذلك كما هو واضح إلى الاستهانة بألمانيا . وراح في إحدى خطبه يعلن أنه « أشد نصير لليابانيين في العالم » ، ثم أنهى خطابه معلناً « أن جنود إيطاليا واليابان سيسرون جنباً إلى جنب نحو النصر مع الجيوش الأخرى لدول الحلف الثلاثي » دون أن يذكر اسم ألمانيا . وراح في مناسبة أخرى يتلو تقريراً تلقاه عن المعاملة السيئة التي يلقاها العمال الإيطاليون في معسكرات العمل الألمانية ، حيث لا يعاملون كعبيد أرقاء مكروهين ، ولا يضمن عليهم بأى مظهر من مظاهر الخفاوة فحسب ، بل وحيث يجلدون في حالات كثيرة عقاباً على التمرد أو الكسل ، ويوكل إلى الكلاب الشرسة بمراقبتهم ، ثم انفجر ساخطاً يقول . . . « ولا ريب في أن مثل هذه الأمور لا بد وأن تخلق كرهاً دائماً في صميم قواذى . ولا بد لي في النهاية من تصفية الحساب . فقد انتظر هذه التصفية سنوات طويلة ، ولكنني لن أسمح لكلاب « الهون »^(١) المتعطشة للدماء ، بافتراس أبناء ذلك الشعب الذى وهب الإنسانية قبصر ودانتي^(٢) وميشيل انجيلو .

ولم يقدم احتجاجاً مباشراً إلى الألمان على هذه المعاملة على أى حال ، مؤثراً الاعتماد على عادة الألمان في الاستماع إلى المحادثات الهاتفية بين رومة وبرلين ، إذ ظل سنوات طويلة يرى في هذه الطريقة الأسلوب المقبول لنقل شكاواه إلى ألمانيا . وأصدر تعليقاته إلى نشيانو بأن يثير الموضوع مع ماكتزن ، السفير الألمانى ، وكأنه يقوم بذلك من نفسه ، ودون أية أوامر من الدوتشى الذى يجب ، اعتباره وكأنه لا يعرف شيئاً عن هذا الموضوع . ولا ريب في أن هذا التردد في التدخل شخصياً كان طالع ذلك الموقف العقلى الذى وقفه من الألمان ، والذي أنزل الكوارث المفجعة بإيطاليا . فهم في رأيه « برابرة أنفاظ » ، يحاولون أن يتسلطوا على إيطاليا لتنفيذ أهدافهم ، وهم الآن كما كانوا في عام ١٩٣٦ منحطون بدائيون لا ذوق لهم ولا فكر . فهم في رأيه « كلاب قذرة يأخذون اللحم من إيطاليا ، ولا يتركون لها إلا العظم » ، بل هم « نصابون لا يوثق بهم » ، وعليهم أن يتركوا الإيطاليين وشأنهم . وكثيراً ما سمع وهو يقول . . . « عليهم أن يذكروا

(١) قبائل الهون من قبائل الجرمان البرابرة وهو اسم يطلق على الألمان .

(٢) دانتي الميجورى - شاعر إيطاليا المشهور وصاحب الكوميديا الإلهية .

أننا فقدنا إمبراطورية بسببهم . وهناك شوكة تحز في فؤادي ، فقد أضعنا إمبراطوريتنا بينما ما زال الفرنسيون المهزومون يحتفظون بإمبراطوريتهم . وقد نكون راغبين في إعطاء الألمان قمصاننا ، ولكنهم يريدون حتى جلودنا » . وكان يعترف في مجالسه الخاصة بأن الأمل الوحيد لإيطاليا يقوم في حل وسط للحرب يقوم على التفاهم ، فينقذ استقلال إيطاليا ، عل أن تكون الحرب طويلة إلى الحد الذي يجهد الألمان ويقطع أنفاسهم . ولكن بالرغم من هذه الأحكام القاسية ، وتلك الحملات المقدعة التي كان يوجهها إليهم ، فقد ظل يحمل لهم شيئاً كثيراً من الإعجاب الطاغى . وكان يغار كل الغيرة من انتصاراتهم العسكرية ، حتى إنه كان لا يخفى سروره عندما سمع بنكسة ألمانيا على الجبهة الشرقية ، وكان يخشى من أن يعطيهم مجالا للإدلال عليه بكبريائهم ، مما منعه حتى من أن يوجه إلى هتلر رسالة تنطوى على الدلة ، يطلب فيها بعض القمح الذي يعينه في إطعام الملايين من شعبه الجائع . وكان يثور لكل نبأ جديد بصله عن استبدادهم وقسوتهم ولا سيما في منطقة (الاديج) على ساحل الادرياتيك بحيث توقع « صداماً حتمياً بين إيطاليا وألمانيا » ولكنه بالرغم من ذلك كله ، ظل يدعن لما في سلطانهم وقوتهم من جاذبية طاغية ، وكان لا يخفى إعجابه بكفائتهم وحزمهم ، إذا ما اجتمع بقائد أو دبلوماسي ألماني أو كان في حضرة زعيمهم هتلر .

ولم تمض ساعات على اجتماعه بالماريшал كيسلرنج ، القائد الألماني العام في إيطاليا ، حتى كان يتحدث عن جنرالاته بكثير من الامتئان والازدراء . وكان لا يجب إلا واحداً منهم ، على حد قوله ، وهو ذلك الجنرال الذي تحدث إلى جنوده في ألبانيا بقوله . . . « نمتي إلى مسامعي أنكم رجال طيبون من أرباب الأسر . وهذا حسن هناك في الوطن ، أما هنا فلا . وليس في وسعكم هنا أن تغرقوا في أعمال السرقة والقتل والاعتداء على الأعراض » . وراح موسوليني يعلن وهو في دروة غضبه وهياجه . . . « وسألجأ أيضاً إلى أسلوب الرهائن » . وقال إنه أصدر أوامره بأن يقتل لثنان من الرهائن مقابل كل إيطالي يجرحه الثوار الكرواتيون . وأن يقتل عشرون من هؤلاء للرهائن مقابل كل إيطالي يقتل . لكنه كان يعرف ، كما قال تشيانو ، إنه عاجز عن تنفيذ هذا الوعيد . فهو يتربد دائماً بالقتل والعقاب ،

ولكنه لا يتجاوز في الواقع حدود الوعيد .

وراح في تصميمه الأكيد على أن يجعل من شعبه قساة منضبطين وأقوياء وصابرين على الألم كالألمان ، يتبع إجراءات اعتبرها الإيطاليون في منتهى السخف . وكان راضياً عن تعرض مدينة نابولي ، كما قال ، لعدد كبير من الغارات الجوية ، إذ أن هذه الغارات ستشد من أزر الحيل الحديد وتقوى عزائمهم ، وتجعل من أهل نابولي ، عنصراً « نوردياً »^(١) ، وراح يصدر أوامره ، بإطلاق صافرات الإنذار من الغارات الجوية في مدينة رومة أيضاً ، في كل مرة تتعرض فيها نابولي لغارة فعلية ، وأن تغتنم أجهزة الدفاع أول فرصة لإطلاق نيران المدافع المضادة للطائرات ، لتوهم أهل رومة بتعرضهم للخطر ، فتجعلهم يعيشون في جو من الإثارة والخوف والمسرحية . وسرعان ، ما راح يعلن وقد وضع هذه الغايات نصب عينيه ، عن صلاح قوات أخرى من المدنيين للتعبة العامة ، وعن فرض عقوبات أقسى على الجرائم السياسية والأخطاء العسكرية . وصدر الأمر للصحف بأن تنشر دون اكتراث بالحقيقة أو تحر عنها ، أنباء تؤدي إلى الهاب المشاعر الوطنية والولاء للفاشية والكره للعدو . وكان يقول لتشيانو إن هتلر لجأ إلى استعارات ضخمة للتأثير على الناس كتصويره « روزفلت بالحمار » . وإذا كان الألمان يشحنون بلاغاتهم الرسمية بالكاذب ، فمن حقه هو أيضاً أن يفعل ذلك . وقد أقدم على الكذب دائماً . ففي اليوم الذي هاجم فيه الأسطول البريطاني أسطول إيطاليا المحارب في الحادي عشر من نوفمبر عام ١٩٤٠ في ميناء تورنتو ، معطلا عن العمل نصف وحداته وبينها البارجة الجديدة « ليتوريو » صدرت الأوامر إلى الصحف الإيطالية بالتقليل من قيمة هذه الهزيمة الساحقة ، وأن تنشر عوضاً عن ذلك تعليقات خيالية عن الغارة الجوية التي قام بها السلاح الجوي الإيطالي ، بإلحاف من موسوليني في نفس اليوم على قافلة بحرية بريطانية في « ميدواي » ، وهي الغارة التي لم تلحق في الواقع كبير إذى بالقافلة ، وكلفت الإيطاليين ثمانى طائرات من قاذفات القنابل ، وخمس طائرات محاربة ، وكانت الغارة الأولى والأخيرة ، التي قامت بها

(١) « الناصر » « النوردي » هو الناصر الشمال في أوروبا الذي يمت إليه الألمان ، والذي جملة هتلر في المرتبة الأولى في فلسفته النصرية .
« العرب »

الطائرات الإيطالية على بريطانيا . وعندما هبطت سرية من المظليين الإيطاليين في إحدى جزر البحر الأيوني ، لا يزيد عدد أفرادها على مائة وخمسين رجلاً ، واحتلت الجزيرة ، أمر موسوليني بأن يتضمن البلاغ الرسمي القول بأن فرقة إيطالية قد هبطت في الجزيرة .

لكن الإيطاليين لم يتأثروا على أى حال بمحاولات الدوتشي تضليلهم ، وصياغتهم في شكل الشعب الذى يريد أن يكونوا فيه ، وإرغامهم على الظهور بخصائص ليست لهم على الإطلاق . وبدأ موسوليني مع مرور الشهور ، واستطالة الحرب ، وتبين استحالة النصر ، يفقد ببطء ولكن باستمرار ، تأييد حتى أولئك الذين تقبلوا بحماسة في البداية إعلانه الحرب ، وغفروا له الكوارث التى حلت ببلادهم في السنتين الأوليين . وكان الناس لا يزالون يهتفون له طبعاً ، إذا ما رأوه في بعض الحالات النادرة الآن ، وكانوا لا يزالون يتحدثون عنه بشئ من الإعجاب ، ويعاملونه بذلك الإجلال الذى يحمل طابع العبادة والذى بات يعتبره حقاً من حقوقه ، لكن تلك التلقائية في التفانى وذلك الطغيان في الإعجاب اللذين تحكمنا في شعب بأسره تلك المدة الطويلة ، كانا قد ذهبا الآن إلى غير رجعة . فقد بات المتناف آلياً ، وبات الإجلال لإكراهياً لا طوعياً .

وكانت ثمة أسباب أخرى ، غير الحرب المقيمة والتحالف الكريه مع الألمان هى التى أدت إلى هذا التطور .

فقد بات موسوليني الآن مريضاً للغاية . ولم يعد منظره متألقاً وناصباً بالحركة كما كان دائماً . وكان قد فقد القسم الأكبر من حيويته السابقة التى لا تعرف الكلل ، ولم يعد مزاجه الدائم الثقل ، مجرد أمر عارض بل غدا صورة للشروء والحيرة . ويقول أعداؤه إن مرض الزهري الذى كان يعانى منه هو السبب في هذا ، إذ أنه لم يعالج منه معالجة صحيحة في شبابه ، وكان قد دخل الآن مرحلته النهائية ، محدثاً عنده حالات من الهياج المحرم ، والهبوسة . ويقول جيوسيبى بوتاي ، وزير التربية الوطنية إنه سمع في تلك الأيام من الماريشال بالبو قوله إن موسوليني « ثمرة من ثمار مرض الزهري » ، وإننى كنت أعارضه رأيه هذا . وإلى لأتساءل الآن ، عما إذا لم يكن حكمه هذا صائباً وصحيحاً ، أو قريباً من الحقيقة على

الأقل . فقد انحطت قوى الدوتشى البدنية والفكرية . ولم تعد شخصيته تسهولى .
لأنه لم يعد رجلاً نشيطاً . وكل ما بقى منه ادعاؤه وطموحه ، ورغبته فى أن يعجب به
الناس ويتملقوه ، ويخدعوه .

وعندما حل شهر أكتوبر عام ١٩٤٢ ، لم يكن موسولنى يسير فى طريق
الأنهار فحسب ، بل وكان يشكو آلاماً مبرحة ، وكان طبيبه الدكتور بوزى ،
يقيم إلى جانبه باستمرار إما فى دارة تورلونيا أو فى روكاديل كامينافى . فقد عادت
الجراح التى أصيب بها فى عام ١٩١٧ إلى التفتيح من جديد . يضاف إلى هذا أن
القرحة التى كان يعانى منها دون انقطاع منذ سنوات . أصبحت تؤله أشد الألم ،
حتى بات من المتعذر عليه فى كثير من الحالات ، وهو فى مقابلاته الرسمية ، أن
يجلس هادئاً ، فكان يستدير بمقعده ، ووجهه ينطق بالألم المبرح ، وكثيراً ما اضطر
إلى وضع يده على فمه ليخفى صيحة مكتومة من الألم الشديد . وروى كونيتو
نافاً حاجبه الشخصى فى قصر البندقية أنه كثيراً ما استسلم للألم ، فراح يقذف
نفسه على الأرض . متقلباً عليها ذات اليقين وذات الشك ، يئن أنيناً صارخاً .
ولم يكن فى وسع أحد أن ينكر عليه شجاعته الشخصية ولكنه لم يكن ذلك الشخص
الذى ينفى ألمه ، دون شكوى ، وقد أكسب الآن وبصورة متزايدة على الاعتماد على
العقاقير المخدرة ، والحقق المسكنة للألم ، التى دأب الدكتور بوزى على إعطائه
إياها .

وكتبت إيدا تشيانوفى نهاية شهر سبتمبر إلى زوجها فى وزارة الخارجية تقول ...
« لا تعرف أى معنى النكتة أبداً ، فهى تقول وتفعل أشياء فى منتهى الغرابة . لكن
هذا ليس على أى حال ، السبب فى هذه الرسالة التى أبعث بها إليك ، إن والدى
مريض للغاية . فهو يشكو من آلام المعدة التى لا تطاق ، ومن الهياج لأى سبب ،
والانحطاط فى الجسم وغير ذلك من العلل . وترسم والدنى صورة قائمة ، وأنا أعتقد
أنها القرحة القديمة عادت إليه ثانية ، فحياته الخاصة فى السنوات القليلة الأخيرة ،
تبثت المرء على القلق من آثارها . حسن . علينا أن لا نتحدث عن هذا . وقد
أخذوا له مجموعات من الصور بالأشعة ، ولكنها كانت سلبية جميعها . ومع ذلك
فهم لا يستدعون إحصائياً . . . أرجوك أن تفعل شيئاً . . . يضمن فحص والدى

فحصاً صحيحاً . أرجو أن تتصل بوالدتي وأن تساعدنا . ولم تتعد الإجراءات التي اتخذت حتى الآن حدود الكفر والشتائم .

واستدعى الأستاذ سيزار فروجوني ، وهو من أشهر أطباء إيطاليا أخيراً لفحص الدوتشي ، وجاءت نتيجة فحصه مماثلة لرأي ابنته ايذا ، وهي وجود قرحة في الاثنا عشرى . وسرعان ما فرضت عليه حمية قاسية لا يتناول فيها إلا السوائل ، فأصيب بفقر الدم (الأنيميا) . وعثر أحد الخدم ، عليه في مايو عام ١٩٤٣ وهو يتلوى من الألم على أرض غرفته في روكاديليا كاميناتي ، فهرع إلى غرفة زوجته راشيل صابحاً . . . « إن الدوتشي يموت » . وجاء الدكتور بوزي على الفور ، وأبلغ الزوجة بأن على الدوتشي أن يبقى في فراشه وأن يستريح . ونصح باستدعاء خبير آخر لاستشارته بالإضافة إلى الأستاذ فروجوني والأطباء الثلاثة الآخرين الذين استدعوا لميادته . لكن راشيل كتبت في يومياتها تقول . . . « إن فكرة استدعاء عدد كبير من الأطباء تخيفني » . وكان الواحد منهم يناقض الآخر على أى حال وكان فروجوني الذى شخص المرض في البداية بأنه نتيجة قرح في الاثني عشرى متهماً زميلاً آخر له بالسخف لأنه تحدث عن « الإسهال » عاد فأقر بأن « الإسهال الحاد » هو الذى يعقد الحالة الصحية . وعاد فأعرب عن رأيه في أن الدوتشي يعاني من حالة سرطان متقدم ، لكن الأستاذ سيزار بيانشي ، عارضه على الفور في رأيه .

لكن تشيانو وفيتوريو نجل موسوليني الأكبر كانا يعرفان السبب الحقيقي في المرض ، وأنه مرض ناتج عن حالة عاطفية^(١) . فبالرغم من أن الدوتشي كان ينام نوماً ثقيلاً ، فإنه كان يقضى أيامه في حالة دائمة من القلق ، والهياج . ولم يكن من المنتظر أن يهدأ له بال ، أو يقر قرار ، طالما أن الحرب تسير سيراً سيئاً لإيطاليا . وكان كلما وصلته أنباء كارثة جديدة في أفريقيا الشمالية وفي البحر

(١) نشرت صحيفة افانتي الإيطالية في شهر مايو عام ١٩٤٥ مقالا ألفت فيه ضوءاً على حقيقة مرض موسوليني ، كتبه شخص يدعى استوفى ، ذكر فيه أن الطبيب الذى قام بتشريح جثة موسوليني بعد موته ، لم يجد إلا أثراً بسيطاً لبقايا قرحة . أما قلبه وشرائنه فكانا في حالة سليمة . ولا ريب في أن معرفة أحوال غلده تعمر النقاب كثيراً عن حالته الصحية .

الأبيض المتوسط ، كان يصاب بنوبة عاطفية حادة ، وهو يحمل على الجيش الذى يحارب « بهدوء المحترفين وعدم اكتراثهم ، لا بوحدة المتعصين ولا بيمانهم » وعلى الأسطول الذى كان يتوق إلى أن يبعث إليه برسالة كذلك التى بعث بها تشرشل إلى اميرالاته » ، ولكنه لم يتج له الفرصة لكى يفعل هذا فى غضون ثمانية عشر شهراً ، وعلى الشعب الإيطالى الذى لم يخلق للحرب كالشعب الألمانى أو اليابانى والذى لم يكن قد وصل درجة من النضج والاستقرار تكفيه لاحتمال مثل هذه المحنة الخطيرة والحاسمة » ، وعلى الإنجليز الذين أقسم « على كرههم إلى الأبد » ، لأنهم أخذوا إمبراطوريته منه ولأنهم قاموا باحتلال الحبشة « ليثأروا منه شخصياً » ، وعلى روزفلت الذى كان يحتفظ له بكرامية تكاد تكون لديه حالة مرضية . وكان يقول دائماً بمعتقد دفين . . . « لم يسبق فى التاريخ أن سمحت أمة لمشلول بقيادتها . وقد كان هناك ملوك من الصلح ، أو ملوك على جانب كبير من البدانة أو الجمال أو البلادة ، ولكن لم يكن ثمة قط ملك كان يتكى على غيره من الناس وهو فى طريقه إلى حمامه أو غرفة طعامه » ، « وثار فى عيد الميلاد على الهدايا التى « يستخدمها الأغنياء حجة ببررون بها حظوظهم فى عيدون الفقراء » . وكثيراً ما ثار أيضاً على الأعياد التقليدية ، فكان يقول . . . وما أهمية عيد رأس السنة على أى حال ، سوى أنه اليوم الذى تم فيه ختان المسيح ، أى الاحتفال بطقس عبرى ، جاءت الكنيسة فألغته » . ولماذا يشكو الناس كثيراً من الأمية ؟ فحتى لو وجدت الأمية ، فهل بهم هذا كثيراً ؟ فى القرن الرابع عشر ، كان جميع سكان إيطاليا من الأميين ، لكن هذا لم يحل دون ظهور دانتي الليجييرى . والآن وكل من فى إيطاليا يجيد القراءة والكتابة ، من لدينا من الشعراء « إنه الشاعر جوفونى ! ! !

وقد علق تشيانو بكثير من السخرية فى يومياته بقوله . . . « كان موسولينى فى الواقع يثور على كل شيء وعلى كل إنسان عندما تسوء الأوضاع . وكانت ثورته تصل أحياناً إلى التهم على الله جل شأنه

وبالرغم من تزايد الميل لديه للقبح بالناس ، فقد غدا موسولينى الآن أكثر خولا ، حتى فى تلك الأيام التى تبدو فيها صحته فى طريق التحسن . ولم يعد حديثه يتميز بقوة الإقناع وسرعة البديهة ، كما لم تعد تعليقاته الساخرة مثيرة للإعجاب ،

بل مجرد انعكاسات لمزاج سيئ . وكثيراً ما ناقض نفسه بنفسه ، وثار لأقل استفزاز ، ودفع نفسه إلى دفعات من النشاط المحجد ، ليعود بعدها فيغرق في سبات طويل من شرود الذهن والتخاذل . وأصبح أكثر تصريحاً بجزائريته منه في أى يوم مضى وقد طرد رجلاً ذات يوم من أفراد حاشيته لأنه كان صاحب ذقن ، كان يعتبرها « شيئاً سخيفاً » ، ويعتبرها قناعاً يخفى وراءه النصابون والانتهازيون من الدرجة الثانية . ورفض أن يستخدم رجلاً آخر لأنه لم يعجب بخطه وكتابته ، وذلك لأنه كان كغيره من الذين يؤمنون بالخرافات يعتقد أن خط الإنسان يدل على شخصيته ، وكان يعتر دائماً بخطه الطبيعي الثابت . وسمعه البعض يقول ذات يوم . . . « أستطيع أن أحكم على خلق إنسان وشخصيته من رؤية خطه ، تماماً كما أحكم عليه من رؤية وجهه » . وكان يقضى الساعات الطوال مشغلاً نفسه بتفاصيل الحملات الدعائية ، التى كانت فى الغالب تافهة وخالية من كل معنى . فهو الذى يقطع بعض الأنباء والمقالات من الصحف الأجنبية التى يقرأها بافتتان واضح ، وهو الذى يعيد كتابة العناوين فى صحف بلاده . ويعيد كتابة المقالات السياسية الخفية العجز ، ويغير أسلوب البلاغات الحربية اليومية ويحتواها قبل إذاعتها ، ساعماً بنشر خبر ومضيفاً إلى أهمية خبر آخر ومقلداً من أهميته وهكذا كان يجهد نفسه فى أعمال كان فى وسع أى صحفى ذى تجربة أو موظف من وزارة الإرشاد القومى أن يقوم بها . وكان كرئيس لتحرير « البوبولو ديتاليا » يسلى نفسه بقطع بعض الأنباء المسلية ، والكاذبة من الصحف الأخرى وإصاقها على جدار فى المكتب تحت عنوان « عمود كره » ، أما اليوم وكتقليد لهذا الإجراء فقد راح يقضى وقتاً طويلاً فى البحث عن الأنباء الكاذبة والغريبة فى الصحف الأجنبية وقصها ، تقليداً لما ألفه فى السابق — ليأمر بعد ذلك بنشرها فى الصحف الإيطالية تحت عنوان « لعمود سخيف » . وكان من المعروف عنه قبل الحرب ، أنه كان يصدر نحواً من ستة أوامر فى اليوم إلى الصحف موعزاً لها بكيفية التصرف فى الأنباء ، أما الآن فقد ارتفع هذا الرقم إلى عشرة أوامر فى اليوم على أقل تقدير .

وكان رجال الصحافة يدعون فى الأيام الأولى من الحرب إلى دارة تورلونيا ، ليقدموا صورة للشعب عن الحياة المتقشفة والنابطة بالحياة التى يعيشها الدوتشى .

وليرسموا صوره وهو يقفز من فراشه عندما يستيقظ في الصباح . وحمامه البارد قبل قراءة بريده ، واملاءه بسرعة آلة الطباعة « التليبرينتر » وآليتها ، ثم توقفه الفجائي ليمارس رياضاته في ركوب الخيل والسباحة ولعب كرة المضرب ، ووجباته البسيطة ، وعزوفه عن الراحة ، وإقباله المتحمس والعنيف على العمل . أما الآن فقد تغير كل شيء ، إذ باتت الوجبات البسيطة . أدوية يشربها ، وحيل بينه وبين ممارسة الرياضة بأمر الطبيب ، واقتصرت رياضته على تقطيع الحشائش وقصها في حديقته ، وخبث الحيوية ، وهدأت السرعة . وكان الضوء يظل منيراً في مكتبه حتى ساعة متأخرة من الليل . ولكن بقصد إيهام الذين يمرون على مقربة من نافذته التي أسدلت الستائر عليها ، بأنه ما زال يعمل بينما يكون المكتب في الواقع خالياً . ولم يعد الدوتشى يظهر الآن في الواقع إلا فيما ندر .

وتسلط عليه كابوس من خشية الهزيمة والفشل ومن الشكوك والوساوس ، وطغت عليه عليه انفجارات فجائية من الغضب التي تعقبها أيام طوياسة من اليأس ، وأحس بوجنتيه الغائرتين ، ورقبته التي نحات ، وعينييه اللتين أحاطت بهما التجمعات السوداء ، فراح يعزف شيئاً فشيئاً عن الظهور أمام الناس ، وعاش كما قال يوماً لحيوسبي بوتاي ، في قصر البندقية « حياة منعزلة ، يضطرع فيها مع مشاكلة ، ويقررها وحيداً بنفسه » .

ولاحظ بوتاي فيما بعد ، أنه كان من الأفضل حقاً ، لو أنه عاش حياة منعزلة هناك ، ولكن كلاريتا بيتاتشي ، ظالت في معظم الأمسيات ، تقبع في الجناح الخاص المقام في الطبقة العليا من قصر البندقية ، تنتظر مجيئه ولم يكن بوتاي . على أي حال ، الإيطالي الوحيد ، الذي رأى أن الزيارات المنتظمة التي كان يجد نفسه مضطراً إلى القيام بها لخليلته ، كانت مسؤولة إلى حد ما عن صحته المتدهورة . لكن هذه الزيارات ، كانت في الواقع قد غدت أقصر أمداً ، وأقل تكرراً من الأيام الماضية ، وكانت كلاريتا ، تظل الساعات الطوال ، مستلقية على الأريكة في غرفة الجحوس ، تتطلع إلى الرسوم المنقوشة بالذهب في سقف الغرفة الأزرق ، وتستمع إلى بعض الاسطوانات تعزف الأغاني العاطفية والألحان الراقصة ، معيدة إياها المرة تلو المرة . وكثيراً ما كانت تشغل نفسها برسم « الموضات »

للباسها الجديدة ، و رسم صور عاطفية للطيور والأزهار ، وبقراءة بعض القصص الغرامية ، أو صباغ أظافرهما ، متطلعة إلى نفسها في المرآة ، أو عبر النافذة إلى الصهريج المقام في باحة القصر . ومألت دفترها صغيراً كانت تكتب فيه أحياناً ذكرياتها عن الأيام السعيدة الخوالي التي قضتها معه ، يتزحلقان على الثلج في تيرمينيو ، أو يسبحان في ريميني ، أو يتنزهان في المزارع الملكية في كاستيل بوزيانو ، مضمنة إياه أيضاً شكوكها المخزنة في المستقبل . فقد كان حبيبها ، يفد إليها في هذه الأيام فاقد الحيوية ، يثور لأقل شيء ، ويتفجر غاضباً من أقل إشارة . وكثيراً ما انتظرته ليالي طويلة حتى العاشرة مساءً ، دون أن يأتي إليها ، وتأصلت في نفسها ، إبان وحدتها هذه ، روح النعمة على أولئك الذين يوجهون إليها اللوم ، ويلقونها بالزراية . وراحت تصرخ ذات يوم في وجه أحد الخدم ، وقد انظرته عبثاً أكثر من خمس ساعات . . « إنهم جميعاً أعداؤه . وهم يخونونه خمس عشرة مرة في اليوم الواحد » . فالفاشيون في نظرها « خونة » ، والقادة العسكريون « حمقى مخرفون متبلدون » ، ولا سيما ذاك الأحق المهزوز دى برونو وتساءلت ذات يوم غاضبة . . « ولماذا يدعى الفضيلة ، وهو يرتكب الإثم مع تلك الكونتيسة العجوز على أريكة غميلة سوداء ؟

وبدأت تحس بالطبع . إن الدوتشي لا يتعرض إلى خيانات الآخرين فحسب ، بل وإنه يخونها أيضاً . وتسلط عليها كابوس من التخوف من أن يكون قد عثر على عشيقة أخرى ، أو أن يكون قد عاد إلى إحدى خليلاته السابقات . وراحت تتصور أن مرجريتا سارقاني أو انجيلا كيرني ، تحاول استعادته منها . بالإضافة إلى وجود امرأة أخرى تدعى إيرما ، « تحاول أن تجعل منه بقايا لإنسان » . وكثيراً ما تبرمت قائلة . . « يظن الناس أنني أنا التي استترف قواه . ولكنها إيرما . أجل إنها إيرما » . وإذا حدث وشكت إليه من غيرتها ، وهواجسها متحدثة إليه عن عشيقاته الأخريات ، فإنه كان يسخر منها ، وكثيراً ما أهانها ، دافعاً بها إلى البكاء الذي كان يستفز غضبه أكثر من أي شيء آخر . ولذا فقد دأبت على أن تهبث إليه برسائلها وقد حشنتها بتوسلاتها وأهاناتها وخوفها من أن تفقده . وراحت تسأل ذات يوم عشيقة أخيها زيتاريتوسا ، عن الطريقة التي تستطيع التأكد فيها

من أنها لن تفقده . ونصحها زيتا بأن الطريقة الوحيدة للاحتفاظ به ، هي أن لا تلجى رغباته عندما يشبهها . وراحت تقول لصديقتها . . . « ولكنى لو فعلت ذلك ، فلن يكثر لى ، وسيهجرنى » . وقد يكون فى قولها هذا الكثير من الحق . فقد يبدل فى هذه الآونة جهداً حقيقياً لإنهاء هذه العلاقة التى طالت سبع سنوات ، وكانت أطول علاقة غرامية فى حياته . وذكرت الأميرة الصقلية دى جانجى ، إنه اعترف لها فى هذه الأيام ، بأنه أخذ « يتقزز » من عشيقته . وجاءت كلارينا بعد ظهر أحد الأيام من ربيع عام ١٩٤٣ إلى قصر البندقية ، فأبلغها الشرطى القائم على حراسة مدخل القصر من شارع « استالى » ، وهو يتلثم ، بأن الأوامر قد صدرت إليه ، بعدم السماح لها بالدخول . وفقدت سيطرتها على زمام أعصابها ، ونحت الشرطى جانباً واندفعت إلى الداخل ، لترى الدوتشى فى منتهى البرود متطلعاً إليها ، بنظرة تخلو من الحب ، ولتسمعه يقول لها بلهجة متعالية اعترفت فيما بعد ، أنها قد أرعبتها ، لأنها كانت قد سمعت منه فى الماضى ، أنه كان يستخدمها فى الخلاص من عشيقاته السابقات . . . « أعتقد أن الدورة قد انتهت » . ولكنه ما لبث أن استسلم لها . وقام بعدة محاولات أخرى للخلاص منها ، ولكنه كان يستسلم فى أعقاب كل محاولة . فقد كانت العبرات تنال من مقلتها على وجهها مختلطة بالمساحيق التى تغطيه ، وتروح ترجوه أن يغفر عنها ، وأن يعيدها إلى قلبه ، فيستسلم لبكائها . ولكنه لا يلبث أن يعود فيندم على تراجعها ، ويهتف لها قائلاً إن عليها أن لا تذهب ثانية إلى قصر البندقية ، منياً حديثه الهانئ . . . بقوله . . . « دعينى وشأنى . فالخرب تسير سيراً سيئاً . وقد ينتقدنى الناس على ضعفى » . وكثيراً ما سمع وهو يقول . . . « هناك امرأة واحدة ، دفعتنى إلى القيام بأعمال فى منتهى البلادة ، وأنا عازم على الخلاص منها » . ولكنه كان يعود إليها . وكان يهينها ، ويتشاجر معها ، ويسلك معها سلوكاً ينطوى على التجاهل وعدم الاكتراث وكأن امرأة أخرى ، قد انتزعت منه ، كما كان يقول ، كل شىء . وكان يتشاجر معها فى موضوع أسرتها متحدثاً عن مضاربات أخيها المالية المشبوهة . وعن تلك المذكورة السخيفة التى بحث بها إليه عن الطريقة التى يراها لكسب الحرب . وعن أمها الطويلة ذات الأنف المحقوف ، الشغوفة بالحسابات ، والى

كانت نبجحاتها الخطرة عن حمايته لها ، قد أكسبتها ازدياء رومة كلها واحتقارها وضربها ذات يوم في شجاره معها حول أخيها ، ضربة عنيفة ، أفقدتها وعيها ، ولم تستفق إلا بعد « حقنة » منبهة من والدها . ولكن كانت هناك أيام ينسيان فيها الخصام والمشاجرات . ويمجدان الراحة في الحب وفي ذكريات سعادتهما ، فتروح تملأ بعدها ، مفكرتها ساردة أنفه التفاصيل التي تناولها في حديثهما . وهست في أذنه ذات يوم تقول . . . « لن آتي إليك في وضوح النهار بعد اليوم . بل سآتي بعد هبوط الدجى لأراك لوضع لحظات وأقبلك . فأنا لا أريد أن أسبب لك الفصائح والمتاعب » .

ولكنها كانت فضيحة حقاً ، وكانت تنزل بالدوتشي على حد تعبير ضباط كبير من ضباط الشرطة ، « أذى يفوق ما تنزله به خسارة خمس عشرة معركة » . وأقر تشيانو ، وهو يتحدث إلى صديقه سيرانوسونير وزير خارجية أسبانيا ، بأن هناك كثيراً من اللفظ حول هذا الموضوع حقاً . فقد تكون للإنسان عشيقات كثر ، ولا يعترض أحد ، أما هذا التركيز على واحدة ، وعلى أسرتها ، ففضيحة خطيرة . وذكر انجيلو سبريكا وهو من كبار ضباط « الكاربنيري » أن « أسرة بيتاتشي تتدخل في كل شيء ، وتضفي الحماية لسياسية على الناس ، وتوجه التهديدات من عل ، وتحرك الدسائس من أسفل » . وتساءل تشيانو بكثير من اليأس والقنوط « ولكن ما عسى المرء أن يصنع لتحذير الدوتشي ، لا سيما وأن اثنين من أقرب زملائه إليه ، وهما سكرتيره الخاص دى سيزارى ، ووكيل وزارة الداخلية ، جيدو بوفارينى - جيلى ، بجنين الأموال الطائلة من « هذه الحياة السرية » . وأصرت شقيقة موسوليني ايدفيك ، على أن أحداً يجب أن يجرؤ على التحدث إليه في هذا الموضوع . وقد يكون صحيحاً ما يقوله أخوها في معرض التبرير لاليساندرو باقوليني وزير الإرشاد الشعبى ، من أن جميع العظماء في عصر النهضة الإيطالية ، كانوا يعشقون ، وكانت لهم خليلاتهم ، وأنه لا يعطى كلارينا شيئاً سوى بعض الهدايا التافهة بين آونة وأخرى ، مع خمسمائة ليرة إيطالية في بعض الأحيان ، لا بتياع ثوب جديد ، ولكن الشعب الإيطالى الذى يراها وهى ترتدى أغلى الثياب ، وتفوح منها الروائح الغالية ، التى يزودها بها التجار الإيطاليون ورجال الأعمال ،

طمعاً في وساطة أو عمل ، لا يصدق ما يقوله موسوليني ، ويتهاشم أبناءه ، بأن الضرائب الثقيلة التي تبتز منهم تنفق على ترفها وتبذيرها . ولا يمكن للإيطاليين أن يعرفوا أن الخاتم الماسي الكبير الذي تضعه في أصبعها ، هدية لها من صاحب مصرف كبير ، اعتقد أن الفضل في عقد صفقة ناجحة قام بها يعود إلى تدخلها ، وأن معطفها القرمزي ، هدية من صديق لأخيها حصل على التزام مريح من وزارة الأشغال ، وعندما يتحدث الناس ، على أي حال . وهم يتحدثون الآن جهاراً وبصورة مستمرة عن « فضيحة بيتانشي » ، فلأنهم كانوا يشيرون إلى ما تقوم به الأسرة من أعمال مشبوهة ، أكثر من إشارتهم إلى كلاريتا نفسها . وكانوا يعرفون أن والديها بنيا قبل الحرب دارة عصرية جميلة ، حماماتها من الرخام الأسود في منطقة كاميلوكيا الأرستقراطية التي ترتفع فيها أثمان الأرض ، وكانوا يؤمنون أن موسوليني هو الذي دفع تكاليف هذا البناء ، أو تكاليف غرفة نوم كلاريتا الفاخرة على الأقل ، إذ غطيت جدرانها بالمرابا ، وكان السرير الضخم الموشى بالحرير فيها مرتفعاً وكأنه عرش على منصة . لكن موسوليني لم يدفع شيئاً من هذا ، وإن كانت والدتها صاحبة السلطة عليها قد طلبت إليها أن تسأل موسوليني دفع هذه التكاليف . لكن كلاريتا رفضت حتى إثارة هذا الموضوع ، وعندما شهد الدارة لأول مرة ، وسأله أصحابها المعتزون بها عن رأيه فيها ، وهل أعجبته ، رد بشيء من الحشونة . . . لا ، لم تعجبني كثيراً .

وكان أشد أفراد الأسرة مقتاً من الناس ، شقيقها مارسيلو ، الذي يعمل طبيباً في البحرية ، وكان يقال إنه جمع ثروة هائلة من تهريب الذهب في الحقايب الدبلوماسية ، ومن الاتجار غير المشروع بالنقد الأجنبي ، وكان يستخدم علاقته التي يعلن هو عنها ، بالدوتشي في عقد الصفقات والاتفاقات المربحة ، وتحديد المواعيد الحزبية . وبالرغم من أن الدوتشي لم يساعد مارسيلو قط ، في جني الأرباح اللامشروعة ، كما لم يساعد أي إنسان آخر حتى نفسه في جمع المال ، إلا أنه كان على أي حال ، على درجة كبيرة من عدم الاكتراث والإهمال ، بحيث سمح للشكوك بأن تنتشر . وكانت الحقيقة أن الدوتشي لم يكن يهتم بالمال على الإطلاق ، ولم يكن يوليه شيئاً من تفكيره على الإطلاق . وكان في الواقع بريئاً كل البراءة

من هذه الاتهامات ، على حد تعبير كلاريتا إذ أنه راح بسألها ذات يوم ، عن كيفية تمكنها من الحياة على هذا النحو الباذخ ، ثم قال ، وهو يرغب رغبة صادقة في أن يعرف شيئاً لم يكن قد خطر في باله ذات يوم . . . « هل يكسب والدك كثيراً ؟ » . وكان من السخف حقاً ، بالنسبة إليه ، أن لا يبين الحقيقة ، وهو يرى كلاريتا ، ترقى أعلى الثياب ، وأجملها ، وتتعطر بأعمن الروائح وتوزع الأموال على الفقراء . ودون تشيانو في يومياته أن مدير وزارة الصحة العامة أبلغه بأن جيدو بوفاريني - جيدي ، وكيل وزارة الداخلية ، كان يعطيها مائتي ألف ليرة في الشهر من المخصصات السرية ، وكان من الطبيعى ، أن يقول الفقراء الذين كانت توزع عليهم القسم الأكبر من هذا الجعل الشهري بأن ما تدفعه ليس إلا تكفير الضمير من عاهرة فاسدة .

وكان من السخف أيضاً من موسوليني أن يفترض أن اختياره لأصدقاء أسرة بيتاتشى ومحاسبيهم ، لإملاء الوظائف الشاغرة في الحكومة ، لن تثير موجة عارمة من السخط . وليس لنا أن نشك في صحة ما كان ينتابه من دهشة ، عندما يسمع بالثورة على اختياراته ، ولأنه ظل جاهلاً في الواقع لحقيقة هذا السخط . فلم يكن هناك كثيرون اعترضوا على الطلب الذى وجهه إلى صحيفة المساجيرو ، لتعيين والد كلاريتا ، مراسلاً طبياً لها ، فقد كان الدكتور بيتاتشى على أى حال من أكثر الأطباء كفاية . ولم يعترض أحد على سعيه لتأمين مستقبل ناجح في الحياة السيئانية لميريام ، شقيقة كلاريتا ، فقد كانت ممثلة لا بأس بها . لكن الناس ما كانوا ليتسامحوا ، مع الحالات الأخرى لمحبوباته المتعددة ، ولا سيما اختياره لالدو فيدوسوى ، الشاب الذى لم يتجاوز عمره السادسة والعشرين ربيعاً ، وصديق أسرة بيتاتشى ، لمنصب هام ، كسكرتير الحزب الفاشى ، مما أثار موجة عارمة من الأذى . ولم يفلح نبريره ، في أنه اختار هذا الشاب لهذا المنصب ، ليفرض شيئاً من التأثير النافع على شباب البلاد المتراسخ والمتردد في إقناع أحد من الناس . وقد فرغ تشيانو نفسه من هذا الاختيار لرجل وصفه فيتوريو ابن موسوليني بأنه صورة مجسدة « للحق والجهل والخبث » ، وتعيينه في مثل هذا المنصب الهام . وأعرب الوزير عن فزع هذا ، ولكنه لم يجرؤ على التحدث به إلى الدوتشى نفسه .

وتقدم عدد من كبار الفاشيين إلى تشيانو ، وأبلغوه أن واجبه يحتم عليه بوصفه صهر موسوليني وأقرب مستشاريه إليه ، بأن ينقل إليه مشاعر أعضاء الحزب الساخطة على هذا التعيين ، بالإضافة إلى ما يعم البلاد من ثورة آخذة في التزايد على نفوذ آل بيتاتشي ، لكن تشيانو لم يجرؤ على نقل آرائهم هذه إليه . ولم يجرؤ أحد أيضاً على أن يذكر أمامه ، تلك الشائعات الخفيفة التي أخذت تنتشر في رومة عن النفوذ الذي بات لمهندس سبيء السيرة إلى حد ما يدعى باتر على الدونا راشيل ، زوجة موسوليني ، التي كانت كما ذكرت ابنتها ابدا ، تمر في هذه الآونة في مرحلة المراهقة الثانية . ويقول بوتاي ... « إن هناك حقيقة واقعة ، وهي أن أحداً لم يجرؤ على أن يتحدث إلى موسوليني في أى موضوع من هذا النوع » . وعندما جاء أحد أصدقائه إلى تشيانو قائلاً له إن الدوتشي يبدو معانياً لآلام مبرحة تثير الفزع على حياته ، وأن من الواجب عمل شيء في هذا الصدد ، رد تشيانو قائلاً ... ولكن ما العمل ... ؟ أهناك من يجرؤ على التحدث إليه في قضية خاصة ؟

وهل كان هناك كما قال بوتاي ، وكما أكد تشيانو أيضاً من يجرؤ على الحديث إليه في موضوع لا يسره ؟ فعندما أعدت وزارة الداخلية تقريراً مدعماً بالوثائق ، عن الوضع الداخلي المزيج في إيطاليا وعن اشتداد الشعور المعادي للفاشية ، لم يجرؤ وكيلها بوفارينى - جيدى ، على أن يعرضه على الدوتشي . وعندما تجاوز سخط رافائيلو ريكاردى وزير التجارة حدوده في النهاية على صفقات آل بيتاتشي اللامشروعة في تهريب الذهب ، وحمله على التغلب على تردده وإحجامه والتحدث إلى الدوتشي في الموضوع ، بدا موسوليني ساخطاً للغاية ، بل وأحس كما خيل لريكاردى بشيء من « الذلة والمهانة » . لكن تشيانو ، أدرك أن مستقبل الوزير في الحزب . لم يعد لامعاً ولا مشرقاً ، وراح يعلق بشيء من الخبث قائلاً ... « من الخطر كل الخطر ، عند موسوليني ، أن يعتقد إنسان أن في وسعه أن يرقى على مستواه » . وقد وافقه بوفارينى - جيدى على رأيه وقال إن رد فعل الدوتشي على حديث الوزير لم يكن نابغاً عن السخط ولا عن الإحساس بالذلة كما خيل إليه ، وإنما نشأ عن الغضب من ريكاردى ، لأنه تجرأ على مواجهته بمثل هذا الاتهام . ولم يعرض الكونت كافاليرون نفسه للخطر الذى تعرض له ريكاردى . فقد علمته

التجارب أن من الأسهل عليه ، أن يحظى برضى الدوتشى ، إذا أخفى عنه الأنباء التي لا تسره . وعندما طلب إليه موسوليني أن يزوده بقائمة عن المعدات الحربية التي تصنع في إيطاليا ، راح يهول عامداً متعمداً في أرقام المدافع المضادة للدبابات . وبالرغم من أن موسوليني كان يتقبل عادة الأنباء الطيبة التي تصل إلى مسامعه دون أن يحاول التثبت من صحتها عن طريق الاستقصاء ، مخافة أن تخيب الحقيقة آماله ، فإنه راح يسأل كافاليرو هذه المرة عن صحة هذه الأرقام العالية التي عرضها عليه . ورد الكونت بأن هذه الأرقام تمثل احتمالات نظرية للإنتاج ، أكثر منها أرقاماً واقعية ، وراح يغيرها بقلم الرصاص الذي يحمله .

ولم يكن هذا الإخفاء المدروس للمعلومات عن الدوتشى بالتطور الجديد بالطبع في المحافل الفاشية . فقد كان الاعتقاد السائد في إيطاليا منذ سنوات طويلة ، بأن المسئولين عن الحكم يخفون عنه الحقائق الصحيحة . وكان مثل هذا الاعتقاد في الماضي في مصلحة موسوليني نفسه . فعندما كان يتهم أحد المسئولين الفاشيين بالرشوة أو القسوة أو الشر ، أو عندما كان يبدو أحد المراسيم الفاشية قاسياً أو غير متسامح ، كان الناس يقولون لبعضهم البعض . . . « آه لو أن الدوتشى يعرف هذا ! » . فقد كان الدوتشى لا يزال لهماً عندهم ، ولم يكن ليسأل عن أخطاء أتباعه من البشر . لكن هذا الموقف لم يعد إلا نادر الوجود الآن . فقد شرع معظم الإيطاليين في نهاية عام ١٩٤٢ ، يفترضون أن الدوتشى يتحمل شطراً من المسئولية في كل ظلم وكل هزيمة ، وكل مسغبة يعانونها ، بل وكل كارثة تظهر أن النظام الفاشي الذي خلقه لم يعد قادراً على معالجة الأوضاع الطارئة التي ورط نفسه فيها . أجل طال أمر الحرب أكثر من اللازم .

المتآمرون . . .

من نوفمبر ١٩٤٢ - ٢٤ يوليو ١٩٤٣

« لم يلق قيصر نظرة على قائمة أسماء المتآمرين عند ما وضعت
لقائمة في يده ؟ من المحتمل أن يكون قد سمح لهم بأن يقتلوه ،
شعوراً منه بأنه قد وصل نهاية المطاف » .

احتلت وحدات من الجيش البريطاني في الثالث والعشرين من يناير
عام ١٩٤٣ ، مدينة طرابلس . وبدأ للكثيرين من الإيطاليين ، أنهم قد خسروا
الحرب وأن أمل إيطاليا الوحيد ، هو في تخلصها من الحلف مع ألمانيا . لكن قلة
منهم فقط ، اعتقدت بأن المحور لن ينقسم طالما أن موسوليني قائم على الحكم .
وكان الألمان أنفسهم يحملون مثل هذا الرأي أيضاً . فقد أكد جوبلز وهو يكتب
بعد سقوط طرابلس ، وبعد أن تبين بأن تونس لا بد وأن تسقط قريباً ، هذا
الاعتقاد كذلك ، إذ كتب يقول . . . « أكد الدوتشي للفوهرر من جديد ،
بصورة قاطعة ، أنه سيواصل السير معنا في سرائنا وضرائنا ، وأنه سيظل على وفائه
للمحور . ولا ريب في أنه كان صادقاً في وعده ، ففي وسعنا أن نشعر بالطمأنينة ،
طالما أن الدوتشي قائم على الحكم في إيطاليا ، إذ أن ولاء الفاشية مؤكدة ومضمون » .

لكن جوبلز راح يتساءل عن المدة التي سيتمكن فيها موسوليني من البقاء
في الحكم ، وعن مدى السلطان الفعلي الذي ظل له في إيطاليا . فهو واثق من أن
النبلاء والبلالط الملكي ، يخربون كل ما يتخذ من قرارات ، وكان القادة العسكريون
الآن على خلاف دائم معه .

لكن المعارضة كانت في الواقع قد أوغلت عميقاً أكثر مما عرف جوبلز وتوقع .
فقد نوفمبر عام ١٩٤٢ ، عندما صور النصر الذي حققه الجنرال موننجومري

في العالمين ، الهزيمة النهائية للجيش الإيطالية في أفريقية الشمالية ، بدأ التآمر على عهد موسوليني . وكان هذا التآمر محصوراً في البداية في اقتراحات وإشارات غامضة ومتقطعة ، وفي محادثات واجتماعات سرية تعقد بين رجال البلاط الملكي وبعض ضباط هيئة أركان الحرب . لكن المؤامرات ما لبثت أن تضاعفت وانتشرت ، وأصبح الملك نفسه متورطاً إلى حد كبير فيها ، بينما كان وزير خاصة الملكية الدوق بيترو داكوارون ، والأميرة ماريا جوزيه زوجة ولده ، وولي عهده الأمير أومبرتو ، على اتصال كما هو معروف بأولئك الجنرالات الذين أرادوا أن يروا نهاية لديكتاتورية موسوليني . ولم يكن اكوارون في الواقع قد جدد اتصالاته بالجنرالات ، إذ كان قبل ثلاثة أعوام ، أى في يناير عام ١٩٤٠ ، قد اتصل بتشيانو في ملعب « الجولف » ، وأبلغه بأن الملك يرى أن « من الضروري لإضفاء وجهة أخرى على الأمور » . ونحى إلى تشيانو أن الدوق أراد التعمق في الحديث ، ولكنه لم يجد الفرصة مواتية لذلك على أى حال .

ودون المارشال كافيليا ، وهو رجل عمجوز ومحترم من أعداء الفاشية في يومياته في شتاء عام ١٩٤٢ يقول . . . « أسمع من مختلف المصادر ، أن القصر يتصور العثور على حل أسرع مما يفترضه أى إنسان ، وأن الملك يدرس بلمعان ما يجب عليه عمله » .

لكن الجنرالات من زملاء كافيليا ، الذين أخذوا يدرسون أيضاً ، ما يجب عمله ، لم يتفقوا جميعاً ، على أن موسوليني هو الوحيد الذى يجب أن يستبدل . فقد اعتقد الجنرال فيتوريو امبروزيو ، مثلاً ، وهو رجل قلسر له أن يلعب فيما بعد دوراً بارزاً في الأحداث المسرحية التى أدت إلى اعتقال موسوليني ، بأن من الواجب الإطاحة بالملك أيضاً ، إذ أنه « ارتبط أشد الارتباط بالفاشية » . وقد دون في يومية كتبها في فبراير عام ١٩٤٣ مليئة بالألغاز ، ولكنها تلقى الكثير من الأعضاء . ما يلي . . . « زوت بونوى — اقتراح بادوليو — تنازل الملك — الأمير — الهدنة — كافاليرو » .

وكان ايفانو بونوى ، الذى كان اسمه أول ما ذكر في هذه اليومية رئيساً للوزراء قبل مجئ الفاشيين إلى الحكم ، ورئيساً لهم ، بعد الإطاحة بالفاشية ، وكان أحد

الاشتراكيين القلائل الذين يثق الملك فيهم . لكن ولاءه المفترض للتاج ، كان عن انتهازية ، لا عن ثبات وإيمان . وكذلك كان الوضع بالنسبة إلى بادوليو ، الذى كان اقتراحه بتنازل الملك موضوع الحديث الذى أشار إليه الجنرال امبروزيو . واعتقد الماريشال كافيليا ، أن بادوليو يطمع فى « خلافة موسوليني » ، بالرغم من إنكاره الحلم بمثل هذا المطمح الضخم ، ولكنه ما لبث أن اعترف لصديق له فى أبريل عام ١٩٤٣ ، بأنه اتفق مع الجنرال امبروزيو ، على أن لا تضيق إيطاليا الوقت قبل خروجها على ألمانيا « مع الملكية أو بدونها » ، وإن هذا ينطوى على الإطاحة بالدوتشى قبل كل شئ » .

وبينما كان بادوليو وأمبروزيو ، بالاتفاق مع جنرالين آخرين هما جيوسيبى كاستيلانو وبومبيو كاربوني ، يبحثون خططهم ويقومون فرصهم فى النجاح ، كان هناك عدد آخر من وزراء موسوليني الفاشيين يتآمرون للإطاحة بالدوتشى . وكان أكثر هؤلاء تأثيراً ، وجراً فى الكلام جيوسيبى بوتاي ، وزير التربية . والكونت دينو جراندى ، وزير العدل . وكان الأخير ، يتميز كالماريشال بادوليو بالطموح والمكر والدهاء . وكان أيضاً غاية فى الذكاء والغرور والحاذية ، وعلى النقيض من معظم القادة الفاشيين ، كان إنساناً مثقفاً إلى حد ما ، وساحر الشخصية . فابتهامته رائعة ، وسلوكه غاية فى الحلاط بين الانبساط والإيهام . وقد كان ولا يزال ، صاحب شخصية مغلفة ، لا يستطيع لا أصدقاؤه ولا أعداؤه معرفة خفاياها . وكان بين هؤلاء الأعداء ، جيدو بوفارينى جيسى ، وكيل وزارة الداخلية الضخم الجسم . والمائش على غرائزه ، وهو يأمل فى أن يؤدى اطلاعه الدوتشى على نشاطات جراندى التآمرية ، إلى تقريبه منه . وقد تمكن من تحقيق ذلك بطريقة غاية فى الانحراف . إذ لما كان المشغول عن المخصصات السرية التى كان تشيانو قد أشار إليها . فقد أصبحت كلاريتا بيتاتشى معتمدة عليه كل الاعتماد . وقد حرص أيضاً كل الحرص على التقرب من الدونا راشيل موسوليني ، وبالرغم من أنها غدت تحترقه فيما بعد ، إلا أنها كانت فى هذه الآونة قد أخذت بما يبيديه لها من تملق وود . وكانت هناك امرأة ثالثة حرص بوفارينى — جيسى . على التقرب إليها ، وهى انجيلا كورتى ، إحدى عشيقات الدوتشى السابقات ،

والمحافظة بثقته رغم انقطاع علاقته بها . وادعى القلق على سلامة موسوليني ، فأفنع أنجيلا ، بأن تكتب إلى الدوتشي عن المؤامرات التي يحوكمها جراندى وبوتاي . وأسر إليها أيضاً بأن الكونت تشيانو وروبرتو فاريناتشي ، أخذوا يظهران علام جديد على عدم ولائهما .

لكن موسوليني لم يقلق كثيراً ، ولم يمض يومان على تسلمه رسالة انجيلا كورتى ، حتى كان قد قرر لإحداث « تبدل جديد فى حرسه » ، وهو الأمر الذى كان يطلقه على التعديلات الوزارية فى العرف الفاشى . وكان كل ما حدث هو إجراء تبدل فى الوظائف الهامة ، بحيث لم يستثن منها أيّاً من الوزراء ، الذين تلقى التحذير بصدددهم ، ولم يبعد أيّاً منهم من مدينة رومة . وبالرغم من أن الكونت جراندى قد أقصى عن وزارة العدل إلا أنه احتفظ برئاسة مجلس النواب . وأقصى جيوسيبى بوتاي عن وزارة التربية ولكنه احتفظ كالأخرين بعضوية المجلس الفاشى الأعلى . وأبعد الكونت تشيانو عن وزارة الخارجية ليخلفه فيها الدوتشي نفسه ، بعد أن أتى بـ جيوسيبى باستيانينى ، الذى كان سفيراً فى لندن لعدة أشهر قبل الحرب ليتولى وكالة الوزارة . ولكنه سمح لتشيانو بأن يختار المنصب الذى يريد ، فعين بناء على طلبه سفيراً لدى الفاتيكان . وىروى تشيانو أن موسوليني كان حائراً وهو يبلغه قراره هذا قائلاً . . . « عليك أن تعتبر نفسك فى فترة استراحة ، وسأتى دورك من جديد ثذية » . وأضاف تشيانو أن ساعة التسليم والوداع كانت ودية « وفى لسعيد لذلك ، إذ أننى أحب موسوليني غابة الحب ، وكل ما أسف له ، هو أننى سأفقد اتصالى المباشر به » .

وبدا أن الغاية من التعديل الوزارى ، إقناع الألمان بأن شركاءهم فى المحور ، عازمون كل العزم على متابعة الحرب بمزيد من الحيوية والنشاط . وكان موسوليني قبل ستة أيام من إجراء تعديله الوزارى ، أى فى الواحد والثلاثين من يناير ، قد أقبال الكونت أوجو كافاليرو ، من رئاسة أركان الجيش ، على إثر الهزائم العسكرية فى أفريقيا الشمالية ، وكان من الطبيعى أن يعقب ذلك تعديل وزارى .

وكان اختيار موسوليني لخليفة الجنرال كافاليرو ، المؤيد المخلص للحلف مع ألمانيا ، عملاً بنطوى على الغباء ، تماماً كرفضه أن يحمل الأنباء التى وصلته عن تأمر

وزرائه عليه على محمل الجحد . فقد اختار الجنرال أمبروزيو رئيساً لأركان الحرب ، وهو أحد الرجال المتورطين في المؤامرات للإطاحة به ، والقائد الذى يكرهه ويحتقره الماريشال كيسلرنج القائد الألماني العام في إيطاليا ، كما يزدرية هتلر الذى يرى فيه أنه سيسر « بالغ السرور لو أن إيطاليا أصبحت اليوم مستعمرة بريطانية » .

وتوسعت المؤامرات مع مجئ الربيع وتشعبت . فقد كانت هناك مؤامرات ضد الملكية ، وأخرى ضد الفاشية . وثالثة ضد الألمان . ووجد فيليبو انفسو الذى أمّ رومة في هذه الأيام قادماً من سفارته في بودابست ، الكونت تشيانو ، وهو يعمل في منصبه الجديد ، غارقاً إلى أم رأسه في هذه المؤامرات ، كما وجد أن هناك كثيرين آخرين إلى جانبه لا يقولون عنه تورطاً . وقد ذكر انفسو أنه كان من العسير اكتشاف « من يتآمر » ، وفي أية مؤامرة يشترك ، ولكن الشيء الثابت أن كل واحد من المتآمرين ، كان يسعى لأسباب تختلف عن أسباب زميله إلى الإطاحة بالدوتشى » .

لكن موسوليني ظل على أى حال ، يتجاهل التقارير التى كانت تصله عنهم . فقد أوصلت إليه راشيل التحذيرات التى كانت قد تلقىها ، ولكنه طلب إليها أن لا تكثر . وقامت أخته ايدفيج بنفس المهمة ، ولكنه أبلغها بأنها تكسب الوضع صفة دراماتية ، مهولة فيها . ومضت انجيلا كورنى إليه في شهر أبريل وقد استبد بها القلق ، تبغى أن الملك ، لا يتلقى الزيارات المستمرة من الجنرالات المتمردين فحسب ، بل ومن الساسة من أعداء الفاشية أيضاً ، فرد موسوليني وهو الائق من أن البلاط الملكي مبعوث الصلة بالأوساط الليبرالية ، بأنه لا يشك لحظة واحدة في إخلاص الملك له ، وجاءه سكرتير الحزب بعد بضعة أسابيع يحمل تحذيراً مماثلاً ويقول إن ابن بادوليو ، صرح في مراكش بأن والده سيخلف موسوليني عما قريب ، وأن هناك أنباء من جميع أرجاء إيطاليا ، تقول إن الفاشيين أنفسهم يعدون العدة لتحطيمه ، ولكنه لم يحمل كل هذه التحذيرات على محمل الجحد . ويقال إن البابا نفسه ، عرض عن طريق وسيط له ، أن يستقبله سرّاً وأن يزوده ببعض المعلومات التى يثق القاتيكان من أن الدوتشى على جهل بها ، ولكن موسوليني رفض العرض أيضاً . وقد قال إنه اجتمع إلى الملك مؤخراً ، وأن جلالته

قد أكد له صداقته وإخلاصه .

وأخفى في منتهى الحرص ما أحس به من قلق تجاه هذه التحذيرات المتكررة التي تولت عليه ، وتجاهل الأنباء المزعجة للغاية التي حملها إليه وزير تجارته ، ووصم الإضرابات الضخمة التي وقعت في مناطق الشمال الصناعية بأنها من حيل البورجوازية ودسائسها ، وظل على تجاهله لخصومه ، كل التجاهل . وكانت الحرب هي كل ما يشغله ، وكان يؤكد أن أحداثها تصرفه عن الاهتمام بكل ما عداها . وكان على ثقة من أن الوضع السياسي . . « يعتمد كل الاعتماد على الوضع العسكري » ، وأن نصراً يتحقق في الميدان يسكت كل معارضة وكان لا يزال يصبر على أن التصبر العسكري أمر محتمل ، إذا استطاع الجيش لم شعثه وتوحيد صفوفه . ولا ريب في أن تراجع روميل سيطيبل أمد الحرب ، ولكنه لا يشك في نتائجها النهائية . وقد يكون الوضع في تونس حرجاً وفي منتهى الخطورة ، ولكن في الإمكان إصلاحه . وكان يرى أن الضرورة الفورية تقضى بعقد صلح عن طريق التفاوض مع روسيا ، لتتمكن ألمانيا من صرف جهودها إلى الخطر المائل في البحر الأبيض المتوسط . وكتب في السادس والعشرين من مارس إلى هتلر مهتماً إياه على تمكنه من إعادة تثبيت الوضع في الجبهة الشرقية بعد معركة ستالينجراد ، واقترح عليه بعد أن تم إضعاف روسيا إلى الحد الذي لا تستطيع فيه ولمدة طويلة ، أن تأمل في أن تشكل خطراً خطيراً أن ينهي « القصة الروسية » . ولكن هتلر لم يكن ميالاً إلى هذه الخطوة ، فقد أعمته رغبة جنونية متعصبة ، على حد تعبير دينوالفييري سفير إيطاليا في برلين « في أن يهزم روسيا » . وأحس الفوهرر بالقلق من موقف الدوتشي ومن الأنباء التي تصله عن تزايد المشاعر المعادية للألمان في إيطاليا ، ومن استبدال الجنرال كافاليرو ، « بجنرال سياسي غير موثوق » كامبروزيو ومن الأنباء المتواترة عن أن تشيانو قد ذهب إلى الفاتيكان كسفير ليقاوض على عقد صلح منفرد ، فراح يستدعي الدوتشي للمجيء إلى ألمانيا لبحث الوضع بكامله . وتم الاتفاق أخيراً على عقد اجتماع بينهما في السابع من أبريل في قصر كليشيام على مقربة من سائزبرج .

ولم يكن موسوليني راغباً في الذهاب ، فلم يكن قد أبل بعد تمام الإبلال من

نوبة المرض العنيفة التي أصابته ، وكان يخشى أن يحرقه الألمان إذا ما استصحب معه طبيبه ليتولى مراقبته وإعطاءه الحقن ، وطباخه لإعداد طعامه الخاص . وكان قد قرر أنه « قد مل من استدعائه بالهاتف وسم » ، ولأنه كان قد قبل الذهاب في المرة الأخيرة إلى ألمانيا شريطة أن يسمح له بتناول طعامه وحيداً ، رافضاً أن يسمح « للألمان المرحين » بأن يشهدوا بأنه مرغم على أن يعيش على حمية من الأرز والحليب . وعادوه المرض في طريقه هذه المرة عدة مرات ووصل وقد بدا كما قال جوبلز « عجوزاً مخطئاً » . وقد نسي الآن لإصراره السابق على ضرورة الصلح مع روسيا ، ومطالبته بعودة القوات الإيطالية من الجبهات الأخرى للدفاع عن الوطن ، وإبلاغ الألمان بأن من واجبهم تزويد ألمانيا بالمزيد من المساعدات الاقتصادية والعسكرية ، ولم يذكر إبان زيارته هذه ، مرة واحدة ، الحاجة إلى نوع جديد من الميثاق الأوربي بالنسبة إلى الصلح في الغرب ، والذي سبق له أن تحدث مطولاً عنه في رومة . وكانت أحاديثه هذه المرة مفتقرة إلى الحماسة ، وسرعان ما تخطى عن محاولاته القيام بالحديث مسلماً ، أمره إلى الله ، في الإصغاء ساعات طويلة للقوهر وهو يعرض في حديث لا ينتهي تصويره للوضع . وكان يفكر كما اعتقد الفيرير فيما يعنيه تصميم هتلر على شن هجوم عام جديد في روسيا لمصير الجيش الإيطالي في تونس . ورأى نفسه مضطراً في اليوم الثاني من الزيارة إلى مغادرة قاعة الاجتماع بسبب تعرضه لنوبة عنيفة من « المنصر » في معدته وبينما كان يتعاطى في غرفة ثانية العلاج الذي أعده له طبيبه لتخفيف الألم ، قال وقد بان الأسى على وجهه . . . « يريد القوهر أن يقوم طبيبه بفحصي . لكنني رفضت . فقد شخصت مرضي حتى الآن . إنه هذه « القوافل البحرية » . وبدأ عليه اليأس والقلق حتى أن هتلر لم يخف قلقه ، كما قل للمرة الأولى ، لدونيتز عندما انتهت الزيارة من أن لا يكون الدوتشي ما زال مصراً على المضي في الحرب حتى النهاية » .

ولكنه بدأ يشعر وهو في طريق العودة إلى إيطاليا ، بتحسن في معنوياته ، وراح يتصرف في الأيام الأولى التي انقضت على عودته ، كما كان يتصرف دائماً فور عودته من كل زيارة لألمانيا كما يتوقع من الديكتاتور أن يتصرف . فقد هدد

بمزید من الاعتقالات المختلفة ، وأصدر أوامره بإعداد معتقل جديد المناهضى
الفاشية . وراح يفصل كارمين سينيز من منصبه كرئيس للشرطة ، لأنه لم يعالج
الإضرابات التى وقعت فى تورين وميلان بقسوة ، كما لم يحسن التصرف فى موضوع
الصحف السرية أو السوق السوداء المنتشرة ، واختار عوضاً عنه ريمنزو شيريكى
المعروف بغلظته . وقام أيضاً بفصل الدوفيدوسوفى من سكرتارية الحزب واستعاض
عنه بكارلو سكورزا ، وهو من أكثر شباب الحزب إخلاصاً ، وكان قد اتهم فى
حادث قتل العصابات الفاشية فى عام ١٩٢٥ بلجوفانى اميندولا . وراح يدرس
الخطط الموضوعة لإعداد مهرجانات إقليمية لشباب الحزب يتحدث فيها القادة إلى
الشعب ، ويشجعونه على القتال حتى الموت . وراح يقول لبوتائى فى لهجة تنطوى
على العاطفة والتهديد الخفى ... « لأنهم ينشرون الشائعات أننى سأموت ، وأننى أذبل ،
بل وأنهى ... حسناً سيروا بأعينهم ... »

وخرج فى الذكرى السنوية لسقوط مدينة أديس أبابا فى شرفة قصر البندقية
ليتحدث إلى الجماهير المحتشدة فى الميدان ... فقال ... وقد علا صوته معيداً
ذكريات أيام شبابه ... « لأننى أحس فى أصواتكم خفق الإيمان الذى لا يتطرق
إليه شك ... لا تخشوا شيئاً فالنصر الهائى لنا . وليس ثمة من ريب لدى فى أن
تضحياتكم ستجازى . وأنا لا أشك فى هذا كما لا أشك فى أن الله عادل وإن
إيطاليا خالدة » .

وعاد إلى داخل القصر وهتافات الجماهير تبعث فى نفسه الحيوية والشجاعة .
وأغلق الباب وراءه ، وكانت المرة الأخيرة التى يفتح فيها هذا الباب له ، وإن كان
أحد لم يقدر فى رومة فى تلك الأيام ، أن موسولینى يخطب الجماهير فيها لآخر
مرة فى حياته .

ولم يمض يومان حتى كانت حماسه المؤقتة قد خبت . وبعد زهاء أسبوعين
كانت جميع قوات المحور فى أفريقيا قد استسلمت ، وأصبح التزل فى الجانب
الآخر من البحر الأبيض المتوسط ، متوقفاً فى كل لحظة . واعتقد هتلر أن هجوم
الحلفاء سيستهدف جزيرة سردينيا ، أما موسولینى فقد اعتقد أن صقلية هى
الهدف ، وزاح يقول لجنرالاته فى اجتماع عقده معهم فى دارة تورلونيا ، بأن عليهم

أن يقاوموا مثل هذا الهجوم مقاومة عنيفة ، إذ ليس ثمة احتمال لتسوية سياسية أو صلح منفرد . وبدأ الهجوم في العاشر من يوليو بعد قصف مدفعي عنيف للساحل . ولم تمض أيام حتى كانت جيوش الحلفاء تتدفق عبر سهل كاتانيا ، وكان موسوليني قد صرم أسبوعه الأخيرة متردداً بين فترات من الهدوء المدروس وأخرى من الغضب الصريح على القوات الإيطالية المتراجعة .

وكان الملك في هذه الآونة قد حزم أمره على أنه لم يعد في وسعه أن يصبر ، وذلك بعد فترات طويلة من التردد والإحجام دعت المتآمرين إلى الشك في أنه سيقف في يوم ما موقفاً صلباً صامداً . وقرر بصورة مستقلة عن الفاشيين الذين كان على اتصال بهم ، وبناء على نصيحة الجنرال كاستيلانو والدوق داكويرون اعتقال موسوليني في أحد أيام الإثنين أو الخميس التي كان يذهب فيها إلى قصر الكيرينالي أو فيلاسافويا ، للمقابلة الملكية العادية . وسأل الماريشال بادوليو إذا كان على استعداد لأن يخلف الدوتشي كرئيس للحكومة ، وأبلغه هذا موافقته ، مقترحاً تأليف حكومة من غير الفاشيين تضم أشخاصاً من أمثال الاشتراكي ايفانو بونومي وفيتوريو ايمانويل أورلاندو ، أحد رؤساء الوزارات السابقين . وسرعان ما اجتمع كاستيلانو وداكويرون للبحث في تفاصيل الاعتقال ، والإجراءات التي يجب أن تتخذ لضمان عدم قيام معارضة يستعصى أمرها من جانب أعوان موسوليني ولا سباً من الجنرال جاليباتي ، الذي أصبح الآن ، وبتوصية من أسرة بيتانشي ، قائداً للحرس الفاشي .

وكان المتآمرون الفاشيون قد قرروا في غضون ذلك أن ليس في وسعهم الانتظار مدة أطول . وبالرغم مما كان بينهم من خلافات صادرة عن الشكوك والحزازات المتبادلة والغيرة ، وعن مطامعهم المتضاربة ، فقد كانوا على اتفاق ، أنه بالنسبة إلى الحالة الطارئة التي فرضها عليهم غزو جزيرة صقلية ، فإن من الواجب دعوة المجلس الفاشي الأعلى ، وهو أعلى سلطة دستورية في الدولة ، إلى الاجتماع ، إذ أنه لم يجتمع بالرغم من أن موسوليني هو الذي ألقه منذ نشوب الحرب . واجتمع نفر من كبار قادة الحرب في السادس عشر من يوليو في مدينة رومة ، إذ كان من المقرر أن يتحدثوا في مهرجانات الحزب الإقليمية التي كانت قد صممت قبل غزو

صقلية ، وأصرروا على ضرورة اجتماع المجلس الأعلى ليستمع إلى تقرير من موسوليني عن الأوضاع العامة ، التي أخذت تسوء يوماً بعد يوم ، إلى الحد الذي أثار الفزع . ورفض موسوليني في البداية ، الإذعان لهذا الطلب ، ولكنه اضطر أخيراً إلى الموافقة ، وحدد موعد الاجتماع في الأسبوع التالي أى يوم السبت في الرابع والعشرين من يوليو .

وتلقى موسوليني يوم الاثنين من ذلك الأسبوع دعوة من هتلر للاجتماع به ثانية في مؤتمر عاجل يعقدانه في إيطاليا . فقد فزع هتلر أكثر من أى يوم مضى ، من الأنباء التي وصلته عن تفاقم المشاعر المعادية لألمانيا عند الإيطاليين ، وعن استسلام وحدات الجيش الإيطالي بالحملة في صقلية . ورفضها التعاون مع الجيش الألماني . وأمل في تقوية المقاومة الإيطالية عن طريق إقناع الدوتشي بالموافقة على أن يضع الجيوش الإيطالية تحت امرة القيادة الألمانية العليا . وقاد موسوليني طاقته بنفسه من ريميني إلى تريفيزو ، حيث اجتمع بهتلر على أرض المطار ، ثم استصحبه إلى دارة عضو مجلس الشيوخ اخيل جاجيا في فيلترى ، على السفوح الجنوبية لجبال الدولولاميت . وكانت الدارة كما وصفها موسوليني « بناء مخبراً كثير التعاريج لا يوجد فيه بعض الناس أى فن هندسى . أجل انه أشبه بلغز الكلمات المتقاطعة ، الذى اتخذ صورة منزل » . وكان جو المقابلة في منتهى الرسمية والتوتر .

كان هذا اللقاء هو الثالث عشر بينهما ، وقد سار على الغرار المألوف في لقاءاتهما . فقد ظل هتلر يتحدث زهاء ثلاث ساعات بين الحادية عشرة والثانية . وكان ما قاله في منتهى البساطة والصراحة . فليس أمامهما سوى شيء واحد ، وهو المضي في القتال ، لا في إيطاليا وحدها ، بل وفي روسيا أيضاً ، حتى يتحقق النصر للمحور ، وقد لا يكون من المجدى ، الاعتقاد بأن هذا قد يتحقق بلا تضحيات . ففي ألمانيا يقاتل فتيان الخامسة عشرة في البطاريات المضادة للطائرات . أما في إيطاليا فيبدو الوضع جد مختلف . فلم يقاتل الجنود كما كان يتحتم عليهم أن يقاتلوا ، ولم يعد للإدارة المدنية احترام كاف في نفوس الجنود . وقد استسلم الشعب للانهازمة ، وبات لزاماً اتخاذ إجراءات أكثر صرامة وحيوية ، إذ يجب إعدام الجبناء والخونة والمفتقرين إلى الكفاية ، وعلى الجيوش الإيطالية أن تضع نفسها تحت قيادة

الألمان . وكان موسوليني يصغى صامتاً وقد ضم ساقيه في وضع متقاطع . وهو يجلس على حافة مقعده الكبير ، وقد أرخى ذراعيه على ركبتيه . وبدأ أن الألم قد عاوده ، إذ كثيراً ما استلقى على ظهره وقد ضغط بيديه على خاصرتيه ، صادراً عن أنه تنطق بالألم . وكثيراً ما فرك شفتيه بمؤخرة أصابعه ، ليروح بعدها بمسح العرق المتصيب على جبهته بمنديله . لكنه لم يتكلم إلا مرتين ، الأولى عندما تدخل ليصحح رقماً عن حقيقة سكان كورسيكا ، والثانية عندما جاءه سكرتيره ليسلم إليه ورقة صغيرة ، راح يعلن بعد أن قرأها بشكل مسرحي ، وبالألمانية إن « العدو يقوم في هذه اللحظة بالذات ، بغارة جوية ثقيلة على مدينة رومة » .

وبعد أن تحدث الإيطاليون حديثاً قصيراً عن الغارة الجوية ، راح هتلر يواصل خطبته العنيفة . لكن موسوليني لم يعد يصغى لما يقوله . وعندما انقضى الاجتماع . لتناول الغداء قال . . . « إن ما يقلقني أشد القلق . هو أن أكون بعيداً عن رومة في مثل هذه اللحظة . ترى ما الذي سيقوله أهل رومة عني ؟ »

ولم يكن الإيطاليون الثلاثة الذين يرافقونه ، وهم باستياني وكييل وزارة الخارجية ، والفيري ، سفيره في برلين ، وامبروزيو ، قائد جيشه مكثرتين بما سيقوله أهل رومة عنه ، بل انصرف همهم ، إلى الإلحاف عليهم ، ليرد على اتهامات الفوهرر ، وليبلغه أن إيطاليا ، وصلت نهاية المطاف . ولم يعد في وسعها أن تستمر مدة أطول ، دون مساعدات ضخمة . وكان الجنرال امبروزيو ، قد سأل الماريشال كيتل وهم في طريقهم إلى فيلتره ، عن المساعدات التي يمكن لإيطاليا أن تتوقعها من ألمانيا قبل أن يفوت الأوان . وكان الفيري ، يجلس في نفس السيارة إلى جانب السفير الألماني . مصغياً إلى أسئلة امبروزيو الصريحة والمباشرة بكثير من الإعجاب . وراح يقول لنفسه . . . « وأخيراً هنا رجل ، لا يخشى أن يستعمل اللغة التي انتظرت طويلاً سماعها » . لكن محاولات امبروزيو لم تجد فتىلاً . فقد رد كاتيل بشيء من البرود ، وهو يرفض أن يجر القائد الإيطالي قدمه ، قائلاً . . . « سيبحث الزعميان في هذه القضايا ، كما تعرف ولا شك » .

ولم يكن امبروزيو ، أكثر نجاحاً مع الدوتشي منه مع كاتيل . فقد أصغى موسوليني إلى نصائحه وهو صامت ، ثم انفجر فجأة يقول . . . « أو تظن أن

نفس الأفكار التي تساورك لا تعذبني ولا تورقني؟ فوراء هذا القناع من الجمود الذي أحمله ، روح معذبة . ولكن لو فرضنا أننا انسحبنا من جانب الألمان ، فما هي النتيجة ؟ ولو رحنا ذات يوم ، وفي ساعة معينة ، نذبح رسالة نوجهها إلى العدو ، فما الذي سيحدث ؟ إن ما سيطلبه أعداؤنا ، ولهم الحق في ذلك ، استسلامنا بلا قيد أو شرط . ولكن أنستطيع على هذا النحو من السهولة ، أن نسلم بجهود عشرين عاماً ، وأن نتخلّى عن تحقيق آمالنا ؟ وما الذي سيفعله هتلر كما تظن ؟ أو تظن أنه سيتركنا أحراراً نفعل كما نشاء ؟

وكان يتحدث بصوت وصفه الفييري بأنه كان يتهدج بتأثير العاطفة . وبدا أكثر قلقاً من أي يوم مضى ، وعندما أبدى أمبروزيو ، أثناء النقاش ملاحظة أخرى ذكر فيها أن الحرب لا تحظى بالتأييد الشعبي في إيطاليا ، استدار إليه موسوليني ثائراً يقول . . . « أرجو أن تتخلّى عن تفاهاتك بحق الإله . أهلك حرب حظيت في التاريخ أو تحظى في المستقبل بالتأييد الشعبي . إن الحرب لا تنال هذا التأييد إلا عندما تنتهى إلى النصر » .

وسرعان ما تبخر غضبه ، وشرع بعد توقف لحظة واحدة يتحدث بهدوء ملقياً خطاباً سياسياً وتاريخياً مطولاً . كان لابد أن يكون كما قال السفير الفييري ، « في منتهى الطرافة والأهمية لو ألقى في مكان وزمان آخرين » .

وقد قطع عليه خطابه اللامناسب هذا ، مجئ سكرتيره دى سيزارى ، يبلغه أن الفوهرر في انتظاره لتناول الغداء . ومضى موسوليني يقطع الممر الطويل إلى قاعة الطعام ، وهو يبدو كما لاحظ الفييري فيما بعد « شارد الدهن إلى حد غريب » .

وكان أعضاء الوفد الإيطالي ، وهم في طريق العودة في القطار إلى تريفيزو يتساءلون عما دار بين موسوليني وهتلر من حديث ، عندما اختليا وحيدين في قاعة الطعام ، وقال ما كترن السفير الألماني مؤكداً لهم . . . « أعتقد أنهما توصلا في هذا الوقت إلى بعض القرارات البالغة الأهمية » . وظل الجميع يرقبون الزعيمين ، وهما يغادران محطة تريفيزيو في السيارة ، ليستقلها إلى المطار . وقد بدا الرجلان كما قال الفييري فيما بعد في منتهى الهدوء والرضى « ، ولعل الدوتشي قد فاتح حليفه بكل ما يريد قوله على أي حال . لكن ايركول بوراتو ، سائق السيارة التي

أقلتهما ، كان يعرف أحسن من غيره . فقد ذكر أن موسوليني « وجد صعوبة في إخفاء قلقه . وقد ظهر التوتر بينهما أثناء الطريق في ثورات مفاجئة من جانب الزعيم الألماني ، وردود فعل مكبوتة من جانب حليفه الإيطالي » .

وعندما حلقت الطائرة « الكوندور » حاملة هتلر في طريق العودة إلى ألمانيا ، وقف موسوليني وحيداً في أرض المطار . وقد اتخذ شكل الاستعداد العسكري ، ورفع يده بالتحية التقليدية . وسرعان ما استدار فجأة ليمشي في طريقه إلى طائرته . وأسرع امبروزيو والقيري وباستيانيني الخطو وراءه للحاق به . وتظاهر بأنه لا يراهم ، ثم ارتدى معطف الطيران ، وأخذ يتحدث بكثير من الاهتمام إلى الجنرال الإيطالي الذي يتولى قيادة القوات المربطة في تريفيزيو . وخشى أن يسافر الدوتشي دون أن يفصح بشيء عما اتفق عليه مع هتلر . فغلب على ترده ، وتقدم إليه ، يسأله تحت ستار رغبته في الحصول على تعليماته الجديدة ، قبل أن يعود إلى سفارته في برلين ، ولكن موسوليني نحاه جانباً ، وقال وسط التهدير الذي أحدثه صوت محركات الطائرة وهي تدور . . . « لم أجد ضرورة للتحدث إلى هتلر بما اقترحته ، فقد وعد هذه المرة بتمنى الصدق ، بأن يبعث إلينا بكل ما نطلبه من مساعدات » ، وراح يضيف وهو يلتفت إلى امبروزيو . . . « ومن الضروري بالطبع ، أن تكون طلباتنا معقولة » .

كان هذا هو الصورة النهائية لخيبة الأمل . فقد عرف امبروزيو من الحديث القصير الذي دار بينه وبين كايبل ، أن الألمان لن يستجيبوا حتى إلى الطلبات المعقولة ، إلا إذا وافق الإيطاليون على شروطهم التي اعترف موسوليني بأنها غير مقبولة كلياً . وكان الجنرال على ثقة من أن موسوليني يرفض مواجهة مشاكله برجولة . وشك في أن يكون قد أبلغ هتلر ، أن إيطاليا ستكون عاجزة كل العجز عما قريب عن المضي في القتال . وعرف الآن أن موسوليني لم يبعث إلى هتلر بالرسالة التي قال إنه سيبعث بها إليه ، ليبلغه فيها اضطراب إيطاليا إلى عقد الصلح ، كما عرف أن هذه الرسالة لن ترسل أبداً . وعاد إلى رومة وهو مقتنع كل الاقتناع ، من أن الجنرالات الآخرين كانوا على حق ، وأن من المستحيل اقناع الدوتشي بالانتقاض على ألمانيا ، وأن إزاحته عن الحكم ، هو الأمل الوحيد المتبقي لإيطاليا .

٢

ومضى موسوليني بعد عودته من فيلترى إلى الملك ، يقدم إليه تقريراً عن الاجتماع . وكان قبل ذهابه إلى القصر قد أبلغ عضو مجلس الشيوخ مانليومورجاجنى بوصفه رئيس مجلس إدارة وكالة استيفانى للأبناء ، بأن الألمان ما زالوا أقوياء إلى حد يكفى « لصد التيار » ، وحل الوضع بكامله فى إيطاليا . ولكنهم يحتاجون لتحقيق ذلك ، إلى « القيادة الفعيلة لاللجنة الإيطالية وحدها ، بل والميدان الداخلى أيضاً . ولكن هذا شرط لن يقبل به الشعب ، ولن يرتضيه الملك ، ولن يكون فى وسعى الرضى به » .

ويقول موسوليني فيما كتبه فيما بعد إنه وجد الملك مقطباً وفى حالة عصبية . وكان الجلو فى منتهى التوتر . وقال الملك . . . « لا يمكن للأمر أن تستمر على هذا النحو . فما هى صقلية قد ضاعت منا . وسيقوم الألمان بمخديعتنا . أما نظام الجنود وانضباطهم فقد أنهارا كل الانهيار » . كان هذا هو لباب الحديث . ويبدو أن الملك عارض بمنتهى العنف شروط الألمان . فقد أبلغه امبروزيو صورة عن موقف هتلر فى فيلترى ، كما أوضح له أن موسوليني بدا عاجزاً من الناحية الصحية والمعنوية عن عرض المأساة الإيطالية فى ضوءها الصحيح . وأشار الملك أثناء المقابلة إلى تزايد مشاعر الكره فى إيطاليا للدونشى ، كما تحدث إليه عن الأنباء التى وصلته عن مختلف المؤامرات التى تحاك ضده . لكنه طمأن موسوليني على وضعه ، وغادر موسوليني القصر وهو مطمئن إلى سلامته كما كان دائماً ، ولم تمض ساعات حتى كان روبرتو فاريناتشى يحذره من أن لدى الجنرال كافاليرو أدلة تثبت أن القصر والكونت جراندى يتآمران للإطاحة به ، وإن ما هو أهم من هذا بالنسبة إليه ، أن التآمر يشمل أيضاً موضوع الانتفاض على ألمانيا . ورد موسوليني بأن هذا مستحيل ، وإنه لا يصدق هذا القول . فقد سمع الملك فى ذلك الصباح . وهو يقول له . . . « لا ريب فى أنها أيام مخيفة بالنسبة إليك ، ولكن فى وسعك أن تثق وأن تطمئن ، إلى أنك ستجد فى دائماً ، صديقاً لك . فن السخف كل

السخف أن تفترض أن جميع الناس سيتخلون عنك بعد كل ما فعلته لإيطاليا . على أى حال ، سأكون آخر من يتخلى عنك » . وعندما جاءه سكورزا يحمل تحذيراً آخر ، وإن محادثة هاتفية قد التقطت بين بادوليو والدوق داكويرون ، لم يبد اهتماماً حتى في معرفة ما دار في هذا الحديث الهاتفي . وكان الحديث يدور حول « اعتقاله » ذات يوم وهو يغادر قصر الملك بعد مقابلته ، وهذا ما أصر سكورزا على إبلاغه إياه . . . فكان تعليق موسوليني الوحيد على هذا القول . . . « أنا أكره الجبناء » .

ومضى في ذلك المساء ، لتفقد ما أحدثته غارة التاسع عشر من يوليو الحوية من أضرار في مدينة رومة . وكانت أنقاض الأبنية لا تزال عابقة بالدخان ، وتطلع إليها الدوتشي . وقد ظهرت على أساريه ، كما قال سائقه فيما بعد ، علامتهم الأسى واليأس .

واستخدم فيليبو انفوسو تعبيراً مماثلاً في وصف مشاعره ، عندما تطلع من نافذة غرفة جلوس تشيانو في شارع النجيلو ميشي ، فرأى سحب الغبار وهي تصعد ببطء متجهة إلى الشرق . وقال فيما بعد ، إن هذه القنابل ، كانت المنبع الذي استمدت منه مؤامرات رومة وحياها .

ولم يعد أحد يفكر الآن بشيء آخر ، سوى هذه المؤامرات ، فحتى ذلك الحشد من الأميرات والنبيلات ، اللاتي كن يستعرضن داخلات وخارجات من بيت تشيانو ، متهامسات بالتجارب التي مررن بها أثناء الغارة ، ضاحكات من انفوسو ، ذلك الشاب الصقلي العاطفي ، وهو يؤكد ضرورة الدفاع عن جزيرته ومسقط رأسه ، مهما كان الثمن ، واللاتي كن لا يتحدثن في العادة إلا عن أنفسهن ، وكأتهن « الجوارى اللاتي يقمن في حريم القصور » بنن ينصتن الآن إلى كل نبا يسمعه عن حل تلك المشكلة التي اسمتها إحداهن « بلغز سقوط الدوتشي الوشيك الوقوع » . إذ لم يكن يعرف أحد ماذا سيقع حقاً ، كما لم يكن هناك اتفاق على ما يجب أن يقع . فقد ذكر باستيانيني أن موسوليني حطم إيطاليا ، بينما خيل لحياتانو بولفيريلي وزير الثقافة الشعبية الجديد ، بأن موسوليني هو الوحيد الذي يستطيع إنقاذها . وقال فيتوريو سيني ، وزير المواصلات إن « موسوليني قد

جن وإنه يجب الخلاص منه «، بينما تصور ابرمانو اميكوكى أن أولئك الذين يريدون الإطاحة به هم المخانين . ومضى يقول . . . « وأنا لأعرف ما الذى يريدون عمله ، ولكن من السهل على أن أرى أنهم سيقودوننا إلى الخراب . » أما تشيانو الذى كان معظمهم يعتقد بأنه الخليفة الشرعى للدوتشى فقد ظل صامئاً مغلقاً ، محتفظاً بسره لنفسه . ولم يكن ثمة أدنى ريب فى أن تشيانو لم يعد قريباً من موسولبنى كما كان من قبل اقصاصه عن وزارة الخارجية بل وقبل نشوب الحرب فى الواقع . فى يناير عام ١٩٤١ ، وكن كغيره من الوزراء ، قد صدر إليه أمر الدوتشى بأن يمتضى إلى الحرب ليكون قدوة للأمة . جاء إلى قصر البندقية ، ليودع حماه ، قبل مغادرته ليتولى قيادة أحد أسراب القوة الجوية فى بارى ، فوجد الدوتشى فى منتهى البرود والنأى عنه . وانتزعت منه أثناء غيبته ، جميع قضايا السياسة الخارجية ، ولم يعد يعرف شيئاً عن حقيقة ما يدور . وعاش فى بارى فى فندق « أوروبا » ، حيث كان يقضى أوقات فراغه بين المهمات الجوية التى توكل إليه ، وتعرضت حياته هناك . بالرغم من أنها لم تكن أكثر صحياً من حياة أى ضابط فى السلاح الجوى ، لموجة عارمة من النقد المؤذى ، ونخيل إلى تشيانو ، وقد رفض موسولبنى مساعدته فى الخلاص من إحدى فضائحه ، أنه بات ضحية حقد الدوتشى وكراهيته . وكثيراً ما تحدث بذلك إلى أصدقائه ، فلذا ما جرؤ أحدهم على توجيه النقد إلى الدوتشى ، نظر إليه تشيانو نظرة ساخطة . وكثيراً ما سمع بوتاي يقول . « كم أود أن أعرف الطريق التى سيقفز فيها ذلك القط . » ولكن تشيانو ظل مغلقاً ، ولم يعرف أحد حقيقة نواياه ، كما اعترف أنفوسو ، نفسه بشئ من خيبة الأمل (كان أنفوسو مديراً لمكتب تشيانو) . وكل ما كان أكيداً ، هو أن الدوتشى أخذ يقترب من الكارثة ، وإن مدينة رومة ، وقد انتشرت سحب الغبار من الغارات فوقها ، واشتد الحر فيها إلى حد الاحتناق ، كانت تنتظر ، كما قال موسولبنى نفسه ، « تمثيل مسرحية كهبرى ، على مسرحها » .

اجتماع المجلس الأعلى

من ٢٤ إلى ٢٥ يوليو ١٩٤٣

« جئت لإدوية لأظل في الحكم فيها أطول مدة ممكنة » .

مضى دينو جراندي بعد ظهر الواحد والعشرين من يوليو إلى شارع فرديناندو دى سافويا ، ليزور فيديريزوني ، رئيس الجمع العلمي الإيطالي في تلك الأيام . فقد كان فيديريزوني ، مواطناً من أبناء بولونا التي ينتمى إليها جراندي ، وكان في وسع هذا أن يتق به ، ويطمئن إليه . وعرض عليه جراندي ، مسودة مشروع القرار الذي كان يعتزم تقديمه إلى اجتماع المجلس الأعلى . وكان المشروع يبدو في ظاهره ، وللهولة الأولى ، في منتهى البراءة . لكن حقيقة الغاية منه ، كانت تبدو في عباراته الأخيرة القليلة . فبعد المقدمة الطويلة . البليغة العبارات ، والناقلة لعدد من الحقائق الثابتة المقررة ، والآمال البراقة ، يعلن المشروع « ضرورة عودة الدولة فوراً إلى أعمالها السابقة ، عل أن يستعيد الملك والمجلس الأعلى والحكومة والبرلمان والاتحادات المهنية ، جميع واجباتها ومسئولياتها ، المقررة لها بموجب الدستور والقوانين الأساسية » . وأعلن المشروع أيضاً أن من الضروري دعوة « رئيس الحكومة إلى أن يطلب من جلالة الملك ، الذي تنجه إليه قلوب أفراد الأمة جميعاً بالثقة والإيمان ، أن يتولى إذا شاء حفاظاً على كرامة الأمة ورغبة في إنقاذها ، بالإضافة إلى القيادة الفعلية للقوات المسلحة . الحق الأعلى في اتخاذ القرارات ، وهو الحق الذي تضيفه عليه نظمنا ، وكان طيلة تاريخنا القوي . التراث المجيد لأسرة سافوي العظيمة » . وبعبارة أخرى كان على موسوليني بموجب هذا المشروع أن يتخلى عن جميع سلطاته .

وقرأ فيديريزوني هذه الورقة بصمت وعناية . وعندما كان يقرأ المشروع بمثل هذا الإمعان ، كان جراندي يراقبه ، وخيل إليه أنه قد أخطأ في اطلاعه عليه .

ولكن سرعان ما هدأت خواطره ، واطمأنت نفسه . فقد قال رئيس المجمع العلمى وهو يعيد إليه ورقته . . . « علينا أن نجرب كل شيء ، وكل وسيلة ، حتى المستحيل منها ، لإنقاذ الأمة من الدمار الكامل ، ولو قدر لنا أن نفشل فى محاولتنا فلأن تضحيتنا ستكون الشعلة التى تلهب الثورة ، وتوقظ الشعب من حالة الخمود التى يعيشها » .

وعندما لقي جراندى هذا التشجيع من فيديريزىوفى راح يعرض مشروعه على جيوسى بوتاي ، وجيوسى باستيانى وأومبرتو البينى ، وهم من الأعضاء المهمين فى المجلس الفاشى الأعلى . وقد وافقوا جميعاً على تأييد مشروعه فى الاجتماع .

وكان بوتاي أرفع الثلاثة منزلة وأكثرهم تجلة . فقد كان من أقدم أنصار الفاشية ، وكان من القادة القلائل الذين يتميزون بالثقافة العالية . أجل كان كاتباً فذاً ، ومفاوضاً من الدرجة الأولى ، وإدارياً قديراً . وكان عند توليه وزارة الاتحادات المهنية مسئولاً عن ميثاق العمل الفاشى ، كما كان عند توليه وزارة التربية مسئولاً عن قانون المعارف وهو القانون الذى استعاض به عن قانون « جنتيل » لعام ١٩٢٣ ، الذى اعتبر مغرقاً فى الليبرالية والعناء للكنيسة ، وكان القصد منه أن يفرض الإشراف الفاشى على النظام التعليمى فى إيطاليا . ومن المعروف عنه أنه كان من الأذكياء ، والمكرين والصريحين فى آرائهم . فلم يخف قط أن إخلاصه الصادق لموسولنى قد تحول إلى خيبة أمل ، كما لم يخف أيضاً كراهيته للحرب . وكان قد أبلغ تشيانو فى ملعب الجولف ، وقبل إعلان موسولنى الحرب بأسبوع على فرنسا وبريطانيا ، بأن الواجب يقضى بإنشاء حزب ينافس الحزب الفاشى . على أن يطلق على نفسه اسم « حزب المتدخلين فى الحرب لمقاصد سيئة » . وازداد عنف نقده بعد عامين . فقد ذكر أن الطريقة الوحيدة للنجاح فى إيطاليا اليوم ، باتت التعرف على أسرة بيتاتشى ، ولأنه لهذا قرر أن يعين لنفسه سفيراً لدى بلاط هذه الأسرة . وقام فى صيف عام ١٩٤٢ بزيارة تشيانو . ودون هذا فى يومياته عن هذه الزيارة فيما بعد قوله . . . « لم يكن لديه ما يقوله لى سوى أن عدائه لموسولنى قد زاد اليوم عن أى يوم مضى . وإذا كان يعترف بمثل هذا لى أنا ، ففى وسع المرء أن يتصور ما يقوله لى أصدقائه فى مجالسه

الخاصة » . وقام بزيارة تشيانو ثانية في الشهر التالي ، وراح يتحدث إليه من جديد عن « التهم التي لا نفع فيها » . فقد تحدث عن موسوليني بغضب ممتزج بالسخط . وقال إن الحرب غير مشروعة ، لأن المجلس الأعلى لم يستشر في أمرها . ولم يكن الدوتشي في نظره إلا « رجلا علم نفسه ، وكان معلمه من أسوأ المعلمين ، وكان تلميذه أسوأ الطلاب طراً » .

وأحس جراندى أن في إمكانه أن يعتمد على رجال من أمثال بوتاي ، في العون لضخم الذى يحتاج إليه لمواجهة موسوليني نفسه في المجلس الفاشى الأعلى . أما بالنسبة إلى باستيانيني والبينى ، فلم يكن على ثقة من صمودهما أمام الدوتشي . ولم يكن باستيانيني لذى اختاره موسوليني نفسه خليفة لتشيانو في وزارة الخارجية في قصر شيجى ، يشترك مع بوتاي في مشاعر الكره العميق للدوتشي ، ولكنه كان يعرف تمام المعرفة ، أن الحرب تقود إيطاليا إلى كارثتها ، وأن إخراج موسوليني من رئاسة الحكومة . قد يساعد على عقد صلح منفرد مع الحلفاء . وكان ، وقد وضع هذا اهدف نصب عينه ، قد شرع في جس نبض الحلفاء عن طريق بعض السفارات المحايدة . ولما كان رجلا يتصف بالحدر والدقة والسير في خط معين ، بطبيعته ، فلم يكن من الطراز الذى يوجه النقد العنيف إلى الدوتشي عند اجتماع المجلس ، ولكن لم يكن ثمة شك في أنه سيقترح إلى جانب مشروع جراندى إذا تبين له أنه سيفوز في نتيجة الاقتراع .

وكان البينى قد خلف بوفارينى - جيدى ، في وكالة وزارة الداخلية أثناء التعديل الوزارى الأخير ، وكان يعرف معرفة صحيحة ومن مصادرها الأولية مدى الوضع المقلج والواقعى الذى وصلت إليه الجبهة الداخلية . واند آمن كباستيانيني برجوب استبدال موسوليني ، ولكنه كرميله ، لم يكن من المتوقع منه أن يتخذ نفس الموقف الهجرى الذى كان سيقفه بوتاي .

وقد اتخذ عدد آخر من أعضاء المجلس الأعلى الذين اتصل بهم جراندى وفيدريزىوفى وبوتاي نفس الموقف الحذر والمتردد الذى اتخذله باستيانيني والبينى . وكان دى بوزو ودى فيشى العضوين الوحيدين الباقيين بعد مصرع بالبو في حادث الطائرة من مجلس الأربعة الذى قاد الزحف على رومة في عام ١٩٢٢ ، وقد وافقا

مع آنيو بيجناردى رئيس الاتحاد الفاشى القومى للعمال الزراعيين والكونت جياكومو سواردو ، رئيس مجلس الشيوخ ، وجيانينى وزير الاتحادات العمالية ودى ستيفانى الوزير السابق للمالية على تأييد مشروع جراندى ، ولكن أياً منهم لم يعرب عن استعدادة لتحمل مسئولية إظهار موقفه أثناء الاجتماع ، إلا إذا تبين له أن النقاش يسير سيراً مواتياً للمشروع نفسه .

ودعش جراندى كل الدهشة من أن كارلو سكورزا ، السكرتير العام للحزب ، أبدى استعدادة لتأييد المشروع عندما عرضه عليه يوم الأربعاء فى الواحد والعشرين من يوليو فى مقر قيادة الحزب . لكنه احتاط لنفسه ، قبل أن يتعهد بشيء ، فأخذ صورة عن المشروع إلى موسولينى الذى مضى لمقابلته ظهر ذاك اليوم ليعرض عليه تقريره . وقرأ موسولينى المسودة بسرعة ، ولم يبد عليه أى ذعر . وأعادها إلى صاحبها مكتفياً بقول مقتضب بأنها « غير مقبولة » ، وتثير الاشمئزاز . وذكر موسولينى فيما بعد ، أن سكورزا « طوي الورقة وأعادها إلى محفظته ولم يعد إلى إثارة الموضوع ثانية » . وراح سكورزا يعد بعد أن غادر قصر البندقية مسودة المشروع الذى اعتزم تقديمه إلى المجلس الأعلى ، كبديل عن مشروع جراندى .

٢

وبعد أن تأكد جراندى من أنه قد حصل على تأييد فيديريزوني وبوتاي وباستيانينى والبيني ، وكذلك سكورزا ، كما أمل ، راح يطلب مقابلة الدوتشى . وقد ذكر هو أنه لم يكن راغباً فى أن « يظهر بصورة المتأمر » ، وكان لا يزال يأمل فى أن يتمكن من إقناع الدوتشى بالقيام تلقائياً بإلماعة تجعل الاجتماع أمراً لا ضرورة له . وفى الساعة الخامسة من بعد ظهر الثانى والعشرين من يوليو ، استقبل موسولينى جراندى فى صالة « الكرة الأرضية » فى قصر البندقية . وكان الدوتشى يقف وراء مكتبه الضخم ، يرقب زائره بنظرة باردة جامدة وهو يتقدم إليه . ولم يدعه موسولينى إلى الجلوس ، وإنما راح هذا يتلو مشروع القرار على مسامع الدوتشى مشفحاً إياه بخطبة قصيرة أبده فيها ، ولم يقاطعه موسولينى ، وإنما ظل

يرقبه بنظرة فيها كل معاني الازدراء المترفع ، وعندما انتهى هذا من خطابه ، راح موسولينى يقول . . . « فارقتى الآن ، وسنلتقى ثانية فى المجلس الأعلى » .

وعندما خرج جراندى . ماراً بقاعة الاجتماع ، كان خديم القصر ، يعدون المقاعد للاجتماع . وكان المارشال كيسلرنج يجلس على أحد هذه المقاعد منتظراً مقابلة الدوتشى . وذكر جراندى فيما بعد ، أن هذا الحادث لم يكن « دليل خير » . وكانت أعصابه قد شددت باعترافه ، إذ أن جمود الدوتشى وثقته المتعالية لم يكونا من النوع المقلق فحسب بل وكانا مثيرين للفرع أيضاً . وقرر أن يطلب إلى البنى أن يعد العدة لإخفاء مائتين من رجال الشرطة فى أماكن متفرقة من القصر . وقرر أيضاً الإذعان لبوتاي لذى اقترح ضم الكونت تشيانو إلى المؤامرة . وبالرغم من أن جراندى ، ما كان ليثق بتشيانو على الإطلاق ، فقد وجد نفسه مضطراً إلى موافقة بوتاي على رأيه ، فى أنه إذا تمكن من إقناع تشيانو بتأييد الثورة ، فإن عدداً من الأصوات المترددة لابد وأن ينحاز إلى المشروع ^(١) .

ودعا بوتاي بعد ظهر اليوم الذى سبق الاجتماع كلا من جراندى وتشيانو إلى الاجتماع فى منزله . ولم ينسجم ضيفاه مع بعضهما ولم يستطيعا الاتفاق على سياسة مشتركة . وبدا أن تشيانو كان يشك فى أن جراندى يريد الإطاحة بموسولينى ليكتسب هو وفيديروزوفى مزيداً من السلطان والنفوذ . وأحس جراندى ، أن تشيانو بالرغم من أية وعود قد يعطيها فى البداية ، قد يلغى فى المحطة الأخيرة وبكل ثقله ونفوذه إلى جانب حميه . وكان بوتاي يعتقد أن السلطة السياسية التى ستترعرع من موسولينى يجب أن تعطى إلى الملك مع القيادة العليا للقوات المسلحة ، ولكن الرجلين الآخرين لم يوافقاه على رأيه ، على اعتبار أنه رأى غير عملى . وطال الحديث بين الرجل الثلاثة وتشعب ، وعندما غادر تشيانو المكان ، لم يكن جراندى وبوتاي على ثقة مما إذا كان سيؤيدهما أو سيعارضهما .

(١) لا تختلف رواية الكونت جراندى عن هذا الاجتماع اختلافاً كبيراً عن رواية موسولينى . لكن المارشال كيسلرنج وهو يحدد تاريخ المقابلة فى الرابع والعشرين من يوليو لا فى الثانى والعشرين . يؤكد أن موسولينى كان فى منتهى الانشراح عند ما دخل إلى القاعة بعد أن كان جراندى قد غادرها . وقد بادره موسولينى قائلاً . . . « فارقتى جراندى قبل لحظات . وكان بيننا حديث صريح من القلب إلى القلب . وأراؤنا متماثلة . فهو يخلص لى كل الإخلاص » .

ولكنه كان قد حزم أمره في صبيحة اليوم التالى كما يبدو . ففى ظهر ذلك اليوم وصل إلى وزارة الخارجية ديناو الفيرى ، الذى استدعى من سفارته في برلين لحضور اجتماع المجلس الذى سيعقد في ساعة متأخرة من ذلك اليوم ، ووجد باستيانى ، « صامتاً ودائماً التفكير » . ولم يكن قد انقضى على وجوده هناك بضع دقائق حتى جاء الكونت تشيانو ، ليرفع ذلك الهجوم الذى كان نجيماً على الاجتماع . ودون الفيرى فيما بعد . . . « وكان تشيانو في منتهى الود والدمائة ، ولكن بدا تأثير الأعصاب . ولست أشك في أنه سر بمرآى » .

وراح يقول . . . « سرنى مجيئك . وقد انفقنا جميعاً على أن من واجبنا أن نخطو إلى أبعد نقطة ممكنة لإنقاذ إيطاليا . فهو ، صاحب رأس الخنزير ، يرفض فهم الموقف وعندما يجتمع المجلس الأعلى اليوم ، ستحدث كما قررنا عما نراه بوضوح ، وسنحمله على أن يفهم » .

وأبلغ تشيانو الفيرى ، إنه في طريقه إلى جراندى ليعده بتأييده ، وطلب من السفير مرافقته . وقد وجدا جراندى يرتدى قميصاً رياضياً في مكتبه في مجلس النواب . وقد رحب بهما كل الترحاب ، وأطلعهما على مسودة المشروع ، فقرأها الفيرى بسرعة ، ثم قال ، إنه بالرغم من سلامتها كما تبدو له ، لابد من أن يستوضح عن نقطة واحدة أو نقطتين فيها .

ورد تشيانو ، مقاطعاً إياه بفروغ صبر . . . « لا حاجة إلى الشكوك والريب . فالمشروع مجرد مذكرة . ولا ريب في أننا أثناء المناقشة سنولى معاملة الدوتشى بمنتهى الاحترام والتوقير .

وهكذا استسلم الفيرى بعد لآى وتردد ودون جراندى اسمه بقلم أزرق ، في ذيل قائمة أنصاره .

وإذا ما استثنينا فيديريزوفى ، لم يكن في وسع جراندى على أى حال أن يتأكد من أن في وسعه أن يثق بأى من أصحاب هذه الأسماء المدونة في قائمته تمام الثقة حتى بوتاي نفسه .

وراح يقول فيما بعد . . . « وكان فيديريزوفى هو الوحيد الذى كان في وسعى . ومن صميم فؤادى ، أن أثق فيه كل الثقة » . وبدأ يفكر أنه كان من

الأفضل له لو فكر في القيام بانقلاب مفاجئ . أما وقد عرف موسوليني الآن المدى الذى مضى إليه في محاولاته تحطيم سلطته ، فقد خشى الآن أن يعتقل ، وأصبح على ثقة ، من أنه إذا اعتقل ، فإن معظم أنصاره ، سيتخلون عنه وينضمون إلى تلك المجموعة القوية من الأنصار المخلصين في المجلس الأعلى الذين لا بد وأن يقفوا إلى جانب الدوشى مهما حدث .

وعندما ارتدى ذلك القميص الخاص المعروف باسم « ساهارينا » ، والذي كان موسوليني قد أمر جميع أعضاء المجلس الأعلى بارتدائه ، راح يضع مسدسه في جيبه ، ويحشو حقيبة يده بالقبائل اليدوية . وغادر منزله في الساعة الرابعة والنصف متجهاً إلى قصر البندقية حيث وجد مجموعات عدة من الحرس الفاشى في باحة القصر الداخلية وكان في القصر أيضاً عدد من رجال الحرس . ووجه بوتاي حديثه إليه غاضباً . . . « أحسنت صنعاً بتحدثك إليه . فقد حانت ساعتنا جميعاً » . وخیل إلى جراندى أن نهايتهم قد دنت حقاً . وشرع يفكر بأنه لن يخرج من القصر حقاً .

وكان موسوليني قد دخل مكتبه . فقد تناول غداءه في دارة تورلونيا ، حيث سار « كل شيء حسب المعتاد » كما دونت راشيل في يومياتها في ذلك المساء . وبدأ غير متأثر بالأنباء التى وصلته عن هذه المؤامرات التى تحاك ضده . وقبل أربعة أيام من هذا التاريخ ، وكان خادمه ، يثبت له ياقة قميصه قبل مضيه إلى حفلة عشاء رسمية . بادرته راشيل بقولها إن البعض قدم إليها قائمة بأسماء الأشخاص الذين زودهم باستيانينى بجازات السفر . وإن « الموقف قد حان للقيام بإجراء ضد تشيانو وجراندى وبادوليو وشركتهم » . لكنه لم يتصيح ولم يقبل التحذير . وقال لها إن الدبابات الأمريكية هى التى تشغله لا دسائس قلة من الإيطاليين . وعندما مضى الآن إلى اجتماع المجلس الأعلى زودته راشيل بنصائحها قائلة . . . « اقبط عليهم جميعاً قبل بداية لاجتماع » . فقبلها في مدخل الدارة دون أن يرد على نصيحته ، ومضى إلى السيارة التى تنتظره ، وقد حمل حقيبة متنفخة تحت إبطه . وراحت زوجته تدون في يومياتها بعد أن فارقتها قائلة . . . « إنه يؤمن إيماناً صادقاً بأن كل شيء سيسير على ما يرام » .

وخطا إلى قاعة الاجتماع بثقته المألوفة بنفسه ، دون أن ينظر إلى أحد الأعضاء الذين هبوا وقوفاً عند دخوله ، رداً على أمر سكورزا الذى ألفاه بلعلى صوته . . . « حيوا الدوتشى » . لبردوا بصوت واحد . . . « إننا نحياه » . ولم تبد عليه علامتهم السرور ، وهم يحيمونه التحية التقليدية لزعيم الفاشية ، وراح يجلس إلى منصته محملاً فيهم . وسرعان ما انتابته نوبة من الألم ، بعد أن اقتعد مقعده . إذ كانت آلام القرحة قد عاودته منذ الليلة الماضية عندما هتفت له كلارينتا بيتانشى تقول . . . « وماذا سيحدث لو أنك أحسست بالألم فى هذا اليوم الكبير الأهمية والخطورة ؟ » ورد عليها بذلك التصميم المتعالى الذى عرف عنه ، والذى لم تؤثر عليه الأحداث ، يقول . . . « سأكون قوياً ، وسأسيطر على الوضع بطريقتى المألوفة » .

وعندما جلس إلى مقعده ، مصغياً إلى سكورزا وهو يتلو أسماء الحاضرين ، خرجاً بعض الأوراق من محفظته التى كان نافارا رئيس فراشيه ، قد وضعها أمامه على منصته ، مقطباً جبينه ، وقد دفع ذقنه إلى الأمام ، وبدا ، كما وصفته إحدى عشيقاته ذات يوم مضى ، وكأن وجهه بكامله قد اندفع إلى الأمام بعيداً عن أذنيه ، قادراً على السيطرة على الاجتماع . وكان يرتدى البزة الخضراء الفاتحة التى يرتديها الحرس الفاشى ، خلافاً للآخرين الذين كافوا فى قمصانهم السوداء ، مدلاً بذلك على ترفعه عنهم ، بوصفه الدوتشى المثقوب والمسيطر . وكانت المنضدة التى جلس إليها ، ترتفع على منصة فتظهر أعلى من أماكن الآخرين ، مما أضفى عليه تفوقاً معنوياً وروحياً عليهم . وكانت هناك بالإضافة إلى كل ذلك ، عادات ومواقف وذكرىات ومخاوف عاشت عمر النظام الفاشى ، الذى اثبتت قبل حقبتين من الزمن . ولم يستطع بوتائى نفسه كبح جماح أفكاره ، بأن هذا الرجل الذى يطل عليهم من عل ، ويمثل هذه القسوة ، إنما يجسد العقيدة الفاشية كلها .

فقد كان عند الكثيرين منهم ، بل عند معظمهم على الغالب ، ورغم كل شيء ، أعظم من أنجبته إيطاليا من أبناء . ولم يكن هناك بينهم حتى ولا قلة ، من لم يعترف بهله الحقيقة ذات يوم ، كما لم يكن بينهم حتى فى تلك اللحظة عدد مهما قل ، ليس على استعداد للاعتراف بها لو أتاحت له الفرصة . وكان بجراندى نفسه ، قد اعترف بها ، قبل مدة قصيرة وبحماسة ، ما كانت لتصلر حتى

عن أكثر أنصار موسوليني تعصباً ، إذ قال له قبل نحو من شهرين ليس إلا . . .
« إن حياتي ، وإيماني ، وروحي ، ملك يديك » .

ويبدو أن موسوليني بات كأتباعه المخلصين أيضاً متأثراً بعادات الماضي . فهو لا يقبل الطاعة والعبادة والثقة التي لا تتزعزع منذ سنوات طويلة ، كالاستجابات المفرحة من شعب راض ومستجيب فحسب ، وإنما يريد لها نوعاً من الإجلال الذي تستحقه عبقريته . ولم يكن شعار « موسوليني على حق دائماً » يظهر على جدران إيطاليا ، كطرء لقائد عظيم يحس شعبه نحوه بإعجاب واعتراف بالحميل عميقين ، وإنما كان تعبيراً عن حقيقة لا يمكن إنكارها . وليس ثمة من شك في أن هذه الثقة المطلقة في عظمته الذاتية ، وعصمته من الخطأ ، وتفوقه الذي لا يتحدى على الإيطاليين طراً ، قد جعلت من العسير عليه أن يتبين ما في أولئك الذين ما كانوا ليضنون عليه بالمساعدة ، من مزايا ، ولا ما في ذلك العدد المتزايد من الناقدين والناقمين الذين آمنوا بخروجه على كل عقل ومنطق من خطر . ولا ريب أيضاً في أن هذه الثقة العمياء هي التي حملته على استبعاد كل فكرة في مؤامرة ناجحة ضده ، ووصفها بالخيال ، وعلى رفض أي اقتراح بوجوب الحرص في معالجة هذا الاجتماع الذي لم يكن يتوقع فيه أكثر من مجرد « مناقشة حامية » . ولم يكن كذلك قد احتمل عناء إعداد خطابه الذي جرت العادة على أن تستهل به ، مثل هذه الاجتماعات ، إذ كان واثقاً من أن في وسعه ، أن يسكت كل معارضة ، بمجرد ارتفاع صوته .

وبدأ موسوليني حديثه بالطريقة المهذبة المألوفة التي يشرع فيها مرتب كبير في إلقاء محاضراته العادية ، قائلا . . . « دخلت الحرب في الواقع مرحلة في منتهى الخطورة . فقد تحقق ما كان يبدو مستحيلاً . بل حتى مجرد فرض سخي ، بالزخم من دخول الولايات المتحدة الحرب في البحر الأبيض المتوسط . وفي وسع المرء أن يقول ، إن الحرب الحقيقية بدأت بسقوط بانثيلاريا . وكان القصد من الحرب الهامشية على الساحل الإفريقي ، تجنب مثل هذا الاحتمال أو إبطائه . وفي مثل هذه الأوضاع ، كان من الطبيعي أن تتحد جميع التيارات الفكرية من رسمية وغير رسمية ، في عدائها لنا ولعهدنا سرّاً أو علانية » .

كانت هذه هي البداية لخطاب طويل وهادر . تميز بكثير من الغموض المدهل . وهكذا تحدث مستسلماً . وخالياً من الإبداع حيناً ، ومغروراً وفي منتهى الصلافة التي تبلغ حدود الاتهام حيناً آخر ، مبرراً أخطائه إلى حد التفضيل ، وبطريقة رنيبة تخلو من الإيمان حتى ومن اعتبار الحقيقة واحترامها ، ضاغطاً براحة يده أحياناً على معدته ، وكأنه يخفف من ألم القرحة التي يشكو منها .

وراح يعلن في تدوينه ذكرياته عن هذا الخطاب الذي رأى فيه سامعوه افتقاراً إلى التصميم والدقة . . . « وليكن معلوماً ، الآن ودائماً . أنني لم أكن في يوماً ما راغباً في تسلم القيادة العليا للقوات العاملة في الميدان ، وهي المهمة الملقاة على عاتقي ، بليعاز من المارشال بادوليو . . . فعندما مرضت في أكتوبر عام ١٩٤٢ ، فكرت في التخلي عن القيادة العسكرية ، ولكنني تراجعته عن ذلك ، لأنني تصورت أن من الخطأ التخلي عن السفينة وهي تائهة وسط العاصفة . وقررت تأجيل ذلك انتظاراً لظهور الشمس من جديد ، وهو ما لم يقع حتى يومنا هذا . وأظن أن ليس ثمة لدى ما أضيفه على موضوع القيادة » .

وبعد أن تخلص من المسؤولية يمثل هذه الفتوى الغربية والإيضاحات غير المقبولة ، راح يشير بأصابع الاتهام إلى المدنيين الحقيقيين ، فوجدهم في كل مكان . إنهم في أعلى مراتب القيادة العامة للجيش ، حيث يفكرون إلى الثقة من ناحية وإلى المعلومات من الناحية الأخرى ، وهم في أقل هذه المراتب في القوات البرية زشأناً إذ يستسلمون في صقلية في قطعان ضخمة ، تماماً كما فعلوا في أفريقيا . وقد تحدث عنهم وكأنهم جنوده في جيش هزم منذ أمد بعيد في حرب أصبحت جزءاً من التاريخ الذي انقضى . ووجد المبررات ، وألقى اللوم ذات البمين وذات الشمال ، وعثر على أسباب الهزيمة ، ولكنه لم يقترح أى علاج . وأقر بأن عواطف الشعب ليست مع الحرب ، ولكنه لم يأت بعلاج لهذا الوضع ثم قال . . . « إن عواطف الشعب بعيدة دائماً عن الحرب . فالحرب هي حرب الحزب ، لأن الحزب هو الذي أرادها . إنها دائماً حرب رجل واحد ، ولو قيل اليوم إن الحرب التي نخوضها هي حرب موسوليني . فقد كانت تسمى في عام ١٨٥٩ بحرب كافور أيضاً . ومضى بعد ذلك يقول . . . « وفي العشرين من أكتوبر ، كنت أتوقع أن

يهاجمنا البريطانيون في العلمين » . وقطع حديثه فجأة ليطلع بعد فترة صمت قصيرة بملاحظة غريبة شاذة ، جعلت بوتاي يتساءل ، عما إذا كان يعتزم الخروج بنكتة مغرقة في سخريتها . فقال إنه توقع يوم الهجوم ، لأنه عرف أن الإنجليز يريدون أن يعكروا صفقونا ونحن نحتفل بالذكرى السنوية العشرين للشوكة الفاشية في الأسبوع التالي .

وتحول بعد ذلك إلى الألمان فقال . . . « علينا أن نعرف بمنتهى الإخلاص للحقيقة ، بأن الألمان عاملونا بمنتهى الكرم والاحترام » . وراح يسرد تفاصيل التوينات الألمانية من المواد الأولية والأسلحة والقوات ، ولكنه لم يذكر الثمن الذي دفعته إيطاليا مقابل هذه المساعدات . ولم يشر في قليل أو في كثير إلى المساعدات الجديدة التي تحتاج إليها إيطاليا في محنتها الحقيقية الراهنة . وحرص على تجنب الإشارة بشيء إلى اجتماع فيلتره الذي كان قد عاد منه قبل آونة قصيرة .

وراح يقول بشيء من الإسهاب . . . « إن المعضلة الكبيرة التي تواجهنا الآن هي التقرير بين الحرب والصلح أو بين الاستسلام والمقاومة حتى النهاية » . وبدلاً من أن يرد على هذا السؤال الجوهرى ، بإحدى حملاته الحماسية الشعرية والمسرحية المؤثرة التي كانت كافية حتى في ذلك الحين ، لحمل المجلس على الوقوف إلى جانبه ، راح يتزلق إلى هوة الجدل اليائس الممل ، ويقول في النهاية . . . « على أى حال ، تتطلع بريطانيا مائة سنة إلى الأمام لتضمن خمس وجبات في اليوم لشعبها . فهي تريد أن تحتل إيطاليا وأن تبقى على احتلالها لها » .

وكان هذا الأداء مفاجئاً . وتطلع أعضاء المجلس إلى الدوتشى بشيء من الصمت المشوب بالفرح . ودون الفييرى فيما بعد ذكرياته ، فأعرب عن شعور الخيبة المرعب الذى سيطر على جميع الأعضاء . كان الخطاب من أضعف الخطب التي سمعوه يلقها في حياته ، وأكثرها حسماً من ناحية أخرى . وعندما انتهى الدوتشى من خطابه ، كانت زعامته قد انتهت ، وهوى هو إلى الخفيض . وانقضت لحظات قليلة ، دون أن يمرؤ أحدهم على الكلام . وسرعان ما انتهى هذا الصمت المطبق ، بأصوات أقدام تتحرك ، وهمس يعلو ، ومحافظ تغلق . وأخيراً نهض الماريشال دى بونو . ولم يكن خطابه القصير ، إلا هجوماً مقنعاً على

الساسة الذين يلقون بالمسئولية على قادة الجيش ، بينما هم الملمون لأنهم هم الذين اختاروهم . وكانت هذه وجهة نظر ، سرعان ما هب زميله الملكى العجوز دى فيشى لمساندتها . ولكنه وجه في حديثه بعض الملاحظات الناقدة إلى حلفاء إيطاليا مما أثار روبرتو فاريناتشى الميال للألمان ، فسارع إلى الاعتراض عليها . وراح هذا يناقض ما قاله دى فيشى ، وينال بالإطراء المتعصب على الألمان مقرظاً قوتهم وعصمتهم من الجريمة . وتآلم دى فيشى من ملاحظاته هذه ، فراح يتهمة بالتهرب من الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى . وبالزيف في ادعاء البطولة في الحرب الحبشية ، بعد إصابته في حادث أثناء اصطياده للسمك .

وأدرك بوتاي ، أن الخطر يهدد الاجتماع بالغض من جراء هذه المهاترات الوضيعة النافهة ، فقاطع دى فيشى ، ليلقى أول خطاب قوى في ذلك المساء . وأصغى الأعضاء لكلماته ، وأدركوا أن النقد يوجه لأول مرة بصورة علنية إلى موسوليني وبخضوره . واستمد الأعضاء الآخرون الشجاعة من الشجاعة التي أطلقها بوتاي في خطابه ، فأعربوا عن رغبتهم في الكلام . ولكن جراندى ، كان هو الذى هب واقفاً ليتكلم ، وعاد الآخرون إلى مقاعدهم ليصغوا إلى كلماته .

وشرع جراندى يتحدث بصوت خفيض يحمل طابع الجلد . مما فرض الاحترام فوراً على الأعضاء الحاضرين وقال : « أود أن أكرر هنا أمام المجلس الأعلى ، ما كنت قد قلته للدوتشى يوم أمس الأول ، وإلى لأقترح أن يكون الأمر اليومى التالى » : وراح يتلو مشروع اقتراحه بهلوه ووضوح . ولم يكذ ينهى منه ، حتى تبدلت لهجة حديثه ، وراح يلقي خطاباً في منتهى البلاغة والحماسة ، مضمناً إياه الاتهامات القاسية . وتحدث بشيء من المرارة « عن الشكل الأحمق والمقيّد للحرب الفاشية » وعن « الإصرار المفرط التزم في مراعاة الشكليات النافهة » وعن « الاستمرار في وضع الأنظمة الجليدية والكبيج المتدرج للحريات الشخصية » . ثم قال بصوت متهدج تغلبه العاطفة « إنك فرضت ديكتاتوريتك على إيطاليا ، وهى ديكتاتورية لا أخلاقية من الناحية التاريخية . وقد احتفظت لسنوات طويلة بين يديك بمقاييد الأمور في الوزارات الثلاث المتعلقة بالقوات المسلحة . ولكن ما الذى حققته ؟ إنك حطمت روح قواتنا المسلحة . وقد خنقت سنوات طويلة شخصياتنا في هذه

الملابس السوداء التي يلبسونها حداداً . وانقضت سنوات طويلة ، وأنت تختار للمناصب الهامة ، أسوأ المرشحين لها من بين عدد كبير من المرشحين الصالحين . وظل جراندي يتحدث أكثر من ساعة . وظل موسولينى يصغى صامتاً إلى هذه الخطبة التي أسماها فيما بعد « بالخطبة القلبية »^(١) العنيفة ، خطبة الرجل الذى وجد أخيراً الفرصة للتعبير عن حقه العميق الدفين . وكان يتكى بجسمه على المنضدة فى وضع المتألم الذى يشكو من المنص الشديد ، راسماً بين الحين والحين ، على ورقة أمامه بعض الأشكال والرموز ، مغطياً عينيه بيده ، ليمنع عنهما الضوء الشديد الصادر عن « الثريا » الكهربائية المعلقة فى سقف القاعة ، وقد اعترف فيما بعد لمارينى « بأن هذا الضوء الساطع الخفيف ، أتعب عيني إلى حد مرعب . وقد وجدت نفسى مضطراً إلى أن أحجبه طيلة الوقت بيدى عن عيني المجهدتين . . . وكنت قد تعرضت قبل ساعتين من الاجتماع إلى نوبة قاسية من الألم الذى أعانيه منذ أمد بعيد . وكنت لا أزال أشكو من الألم فى القاعة ، ولكن عقلى كان صافياً . وكنت أصغى إلى خطاب جراندى الذى مثل الاهتمام العام بوضوح ، ولكن حيويى قد فارقتنى . وهذا أثر من آثار المرض ، إنه زوال الحيوية مع وضوح الفكر واستشفافه » .

ورأى بوتاي أن الدوتشى قد هزم ، وأنه يبدو يائساً وفى منتهى القنوط . وروى فيما بعد أنه « لم يعد رجلاً وإنما ظل رجل ، باتت أقدامه على عتبة الآخرة » . ووصفه بوفاريى - جيلدى ، بأنه كان أشبه بالإنسان الشارد الفكر « وكأنه يعيش فى عالم آخر . وبدأ يحجب رأسه بيده ، كما فعل قيصر عندما أراد أن يحجب بعباءته ، جسده عن ضربات بروتس والمتآمرين الآخرين » . وعندما انتهى جراندى من خطابه ، عدل جلسته وألقى بجسده إلى الوراء فى مقعده بعد أن أرخى ياقته ، وبدأ العرق يتصبب على وجهه الشاحب . وقرر تشبانو فى هذه اللحظة أن يتكلم . وشرع فى حديثه أمام نظرة حميه اليايسة ، بلهجة ناعمة لطيفة . وحصر كلامه فى سرد تاريخى للتحالف الإيطالى الألمانى ، الذى مثل فى وجهة نظر فاريناتشى الساخطة ، حملة تنكر على الألمان

(١) أطلق على خطاب ديمو ستينس الخطيب اليونانى المغموه المشهور اسم القلبيةات . « المغرب »

أى فضل . ولكن تشيانو لم يترك مجالاً للشك على الإطلاق ، في أنه سيؤيد مشروع جراندى . وعند ما انتهى من كلامه ، انبرى فارينا ثانية للرد على جلّ ما قاله ، وللدفاع بقوة عن الألمان . وعرض على المجلس مشروعاً بديلاً عن مشروع جراندى ، يعلن تضامناً لإيطاليا الفاشية مع ألمانيا الاشتراكية الوصية ، ويدعو رئيس الحكومة إلى أن يطلب من الملك تولي قيادة القوات المسلحة كلها « ليظهر للعالم بأسره أن الشعب الإيطالي يقاتل بأسره متحداً تحت قيادته ، لإنقاذ إيطاليا ودفاعاً عن كرامتها » . وكانت أهداف فاريناتشى من الاستعاضة عن الدونشى بالملك في قيادة القوات المسلحة ، هي غير أهداف جراندى ، إذ كان يتوقع أن يكون الملك أكثر استعداداً للاقتناع من موسولينى بالتخلي عن صلاحياته للماريشال كيسلرينج . لكن الرجلين اتفقا على وجوب ذهاب موسولينى .

وتبين بعد انقضاء هزيع من الليل ، أن غالبية أعضاء المجلس ترى هذا الرأي ، وإن كان أولئك لأعضاء الدين ما كانوا ليترددوا في الاقتراح إلى جانب مشروع بسيط بترجيح اللوم ، قد أصبحوا الآن على استعداد لتأييد أى مشروع أقل عففاً من ذلك ، وأخف ضرراً . وراح عدد من الأعضاء يشكون في حقيقة دوافع جراندى . وتكلم جيتانو بولفيريللى ، وزير الثقافة الشعبية ، وأنطونيو ترينيجالى - كازانوفا ، رئيس المحكمة الفاشية الخاصة ، وكارلو البرتو بيجيى وزير التربية ، وإينزو جاليباني ، رئيس أركان الحرس الفاشى ضد مشروعه . ولكن دون إيمان ، ودون تأثير . فكان معظم هؤلاء متأثرين بالمنازعات الشخصية أكثر من تأثرهم بالحجج المنطقية ، فجاءت خطبهم تضيف إلى متاعب موسولينى بدلاً من إسهامها في إنقاذه .

وكان الليل قد انتصف وكان قد مضى على بداية الاجتماع زهاء سبع ساعات ، وانطلق صوت موسولينى الذى وصفه بوتاي بأنه كان « خفيضاً ، ومتواضعاً ، ومستندراً للإشفاق ” يتساءل “ ولكن ما جدوى هذه اللوم ، وقد غدونا الآن وحدنا وجهاً لوجه أمام ثلاث إمبراطوريات عظيمة ؟ » . واقترح على سكورزا تأجيل الاجتماع حتى اليوم التالى ، ذاكرة أنه مريض وأن عليه ألا يجهد نفسه .

وانطلق صوت جراندى بثبات مجدداً حملته . . . « كثيراً ما أبقيتنا هنا في

الماضى حتى الخامسة صباحاً لمناقشة بعض القضايا النافهة . ولن تغادر هذه القاعة حتى تفرغ من مناقشة مشروع قرارى والاقتراع عليه » . وأضاف أنه يوافق على التأجيل لمدة عشر دقائق ليس إلا .

ووافق موسولينى . ولاحظ بوتاي بشيء من السرور « انتهى صلف الديكتاتور ليحل محله خنوع المتهم » . وخرج من القاعة إلى مكتبه ، وحيداً تخلى عنه الجميع . وعندما مر بسفيره إلى ألمانيا قال له . . . « تعال معى يا الفيرى » . وروى الفيرى فيما بعد . . . « كانت الغرفة الفسيحة شبه مظلمة . لا ينيها إلا ضوء شاحب ينبعث من مصباح صغير يستخدم للقراءة . ومضى الدوتشنى بهلوه وببطء إلى منضلته ، ثم أشعل " الثريا " الكبيرة الموجودة فى وسط المكتب وراح يلقى نظره بشيء من شرود الفكر على بعض البرقيات التى وجدها أمامه . وظل على صمته بضع دقائق ، ثم راح يسألنى ، وكأنه أحس بوجودى لأول مرة . . ماذا هناك فى ألمانيا ؟ » .

وأعاد الفيرى على مسامعه ما سبق له أن تحدث إليه به فى فيلترى . وفى تقاريره ، عن وجود إشارات واضحة تبين ما أصاب الشعب الألمانى من إجهاد ، وعن شدة انضباطه بالرغم من ذلك ، وتعصبه الأعمى ، وخوفه من الجستابو ، وإيمانه بدعاية جوبلز ، ثم أضاف قائلاً . . . « ويتابع الناس هناك فى برلين نتيجة التطورات العسكرية الأخيرة » .

وانطلق صوت موسولينى يسأله . . . « ولكن من قال لك ذلك ؟ » . وكانت هجته ثم عن الانزعاج الشديد ، وكأنه بالرغم مما حدث ، ومما اضطرب إلى سماعه فى غضون الساعات القليلة الماضية ، لا يكاد يصدق أن الوضع الداخلى فى منتهى الحرج والخطورة .

ورد الفيرى قائلاً . . . « إنه رأى الذى يسود برلين ، وقد أيد لى ذلك مدراء الشرطة الذين تحدثت إليهم ، فى طريق قلوبى إلى هنا » .

لكن موسولينى يرفض أن يصدق . إنه يرفض تصديق الحقائق التى تقبلها الآخرون منذ أمد بعيد . وعندما أخذ يحسنى قلحاً من الحليب الحلو وضعه الآذن أمامه ، راح يقول للفيرى إن معلومات الألمان خاطئة ، مضيفاً أن قصف الحلفاء لمدينة رومة وغيرها من المدن الكبيرة ، لايد أن يترك أثراً نافعاً لدى الشعب الإيطالى

يوجه له بشيء « من البطولة الصوفية التي تجعل الناس لا يكثرثون بالخطر ،
وتمكنهم من احتمال الألم ، وفقد من يجنون ، ودمار بيوتهم » .
وأضاف يقول . . . « صدقني ، إن ما وصلك من أبناء يفتقر إلى الصحة .
فالوضع على أي حال ، لم يصل إلى تلك الدرجة من الحرج التي تصورها . وما زال
عامل الزمن إلى جانبنا » . وراح يحمل بملعقته بقايا السكر المذاب في قدحه ،
ثم مسح شفتيه بمنديلته ، وهب واقفاً ، وقد استعاد شيئاً من ثقته ، في هذه الدقائق
القليلة التي خلص فيها من ذلك الجو المعادي الذي أحاط به في القاعة المجاورة ،
بعد أن احتسنى قدح الحليب ، وأنيحت له فرصة الحديث على انفراد . واستمرت
هذه الحيوية المنبعثة ، بعض الوقت بعد استئناف الاجتماع . وعندما ألقى جالياني ،
خطاباً يتقد بالخماسة دفاعاً عنه ، منهيّاً إياه بصيحة عالية بأن الإيطاليين متحدون
جميعاً في التفافهم حول الدوتشي ، قرر موسوليني أن يلقي خطبة ثانية .
وانطلق صوته يهتج مشحوناً بالغضب المفاجئ . . . « ينسى الناس في غمرة
هذه الاتهامات التي توجه إلى العهد ، التهمة الشائعة على شفاه الكثيرين من أبناء
الشعب ، وأعني بها الثروات الخيالية التي جمعها الكثيرون منكم » . وأضاف وهو
يضرب بيده على حقيبته ويشير إلى تشيانو . . . « ولدي هنا من الوثائق ما يكفي
لإرسالكم جميعاً إلى المقصلة ، وأنت في مقدمتهم »^(١) .

ووجد سكورزا الشجاعة في انتعاش موسوليني ، فهب يقول في خطاب طويل
يفتقر إلى التلاحم والانسجام ، إن الخطيئة الوحيدة في الدوتشي أنه لم يتصرف
كديكتاتور صحيح ، وإن عليه ليجد الوقت الكافي لتصريف واجباته الكثيرة ،
أن يتخلى لجرانزياني عن « قيادة القوات المسلحة . وبالرغم من مقاطعات باستيانيني
المستمرة له ، فقد حاول التقدم باقتراحه ، وهو أن تطبق ديكتاتورية الحزب الفاشي
بصورة أكثر صرامة وشدة .

وكان الاجتماع قد فقد عند هذا الحد ، كل مظهر من مظاهر النظام .
ويقول بوتاي إن « الجميع كانوا يتكلمون في وقت واحد . ويكيلون الشتائم والإهانات

(١) لم يبد موسوليني على أي حال في سنوات حكمه اهتماماً بالمسئلات المالية المفتقرة إلى النزاهة
التي يقوم بها قادة الحزب الفاشي كما لم يبد أي اهتمام بتلاعب الآخرين . وعند ما تورط اغريل ستراف في
فضيحة مالية من هذا الطراز ، لم يبد أي اهتمام ، مشيراً إلى أن خطيئة الرجل الكبرى هي حمله وساماً من
أومة الخدمة العسكرية الممتازة بدون ترخيص .
« المؤلف »

لبعضهم البعض . وقال موسوليني إنه يحمل في يده مفتاح الوضع الحربى ، ولكنه لن يفضى إليهم بشئ عنه . وراح يقول . . . « وإذا تخلصتم منى . فلن أروح بالسلاح السرى الذى يستطيع لإنهاء الحرب . وستفقدون فى وقت واحد ، الحرب وموسوليني ورؤوسكم » . وبينما كان فاريناتشى يتطلع إليه بشئ من الدهشة الذاهلة ، تمم جراندى قائلاً . . . « إنه التهديد . إنها البلطجة » .

ووقف الكونت جياكومو سواردو ، رئيس مجلس الشيوخ ، الذى كان قد احتسى قلعاً كبيراً من « الكونياك » أثناء الاستراحة القصيرة ، ليثير دهشة الحاضرين جميعاً ، عندما أعلن أنه قرر سحب تأييده لمشروع جراندى ، معرباً عن أمله فى أن ينضم إليه الآخرون فى تأييد مشروع سكورزا . وثنى توليو شيانفى وزير الاتحادات العمالية بأن مثل هذه الخطوة ، هى الفضلى والمثل . وشرع تشيانو فى التردد والضعف أيضاً ، إذ اقترح تعيين لجنة تتولى درس اقتراحى جراندى وسكورزا ، وتعد مشروعاً ثالثاً يجمع بين المشروعين . وعارض بوتائى هذا الاقتراح ، وتحدث من جديد عن ضرورة العمل السريع الفورى . لكن كلماته هذه المرة كانت أقل حزمًا من كلماته السابقة ، وكان الأعضاء يستمعون إليه بكثير من ففاد الصبر الواضح . وهب بولفيريللى ، ليقاطعه قبل أن ينهى كلامه ، وليقول بصوت يغلبه التأثير إنه كان دائماً وسيظل حتى يموت ، رجلاً موسوليني . وتحدث جراندى ثلاثة ليقاطعه بيجينى . وأبد كارلو باريشى وزير الزراعة جراندى ، فهاجمه لتأييده هذا ، بوفارينى - بجيدى . وهكذا اضطرب جبل النقاش ، وأصبح مفتقراً إلى الانسجام والتناسك .

واعترف جراندى فيما بعد ، أنه أحس فى هذه اللحظة بأنه قد خسر المعركة . فقد بدا أن مؤيدى سكورزا فى مشروعه بالحرب حتى النهاية وبالإخلاص المطلق للعهد القائم ، ومؤيدى فاريناتشى فى مشروعه باستمرار الولاء لألمانيا ، أخذوا يزدادون عدداً . وكانت الساعة قد بلغت الثانية والرابع صباحاً ، عندما قاطع موسوليني النقاش فجأة قائلاً بصوت صارم جاف . . « طال أمر النقاش وأصبح مجهداً مملاً . فهناك ثلاثة اقتراحات واقتراح جراندى الأولوية . ولذا فسأطرحه على التصويت أولاً . هيا يا سكورزا اذكر الأسماء ! »

وبينما كان سكرتير الحزب يتلو الأسماء ، اتكأ موسوليني إلى الأمام في مقعده ووضع كوعيه على المائدة ، متفرساً في كل عضو وهو يدلي بصوته وقال لافييري فيما بعد . . . « وكانت عيناه النافذتان تسيطران على عقولنا جميعاً ، وكأنهما تريدان أن تمليا علينا القرار الذي ستأخذنه » .

كان عدد الحاضرين ثمانية وعشرين من أعضاء المجلس الأعلى . وكان الكونت سواردو هو الوحيد الذي امتنع عن التصويت . واقترح سكورزا ضد مشروع جرندي ، وكذلك فعل بولفيريلي وبوفاريني — جيدي وجاليباني ، مع تأييد ثلاثة آخرين ، بينما أيد المشروع تسعة عشر عضواً .
 يجمع موسوليني أوراقه بسرعة ، ونهض من مكانه . وعندما أصبح واقفاً . صرخ سكورزا بصوته العالي « حيوا الدوتشي » . ودارت همهمة ، دلت على حيرة الحاضرين فقطع موسوليني هذا التردد بصوت غاضب . . . « أنا أعفيكم من أداء التحية » .

وعندما وصل إلى مدخل القاعة ، استدار إليهم ، وقال بصوت هادئ لا يخلو من مرارة . . . « لقد أثرت أزمة العهد » .

ومضى إلى قاعة « الكرة الأرضية » حيث انضم إليه فيها بعد لحظات بولفيريلي وجاليباني وبوفاريني — جيدي وسكورزا . واقترح جاليباني اعتقال المتآمرين الخونة على الفور ، ولكن موسوليني بدا وكأن الهزيمة قد أذهلته ، فلم ينبس ببنت شفة . وعندما شرع الآخرون في التحدث إلى بعضهم البعض ، قاطعهم والتفت إلى سكورزا قائلاً . . . « بدا هؤلاء السادة هناك ، تواقين إلى الحديث عن الصلح . ولكن الشيء الذي لا يدركونه أن تشرشل وروزفلت لا يريدان مجرد الإطاحة بي ، بل يريدان القضاء على إيطاليا كدولة في البحر الأبيض المتوسط » . . . وراح يضيف ، بومضة فجائية من ومضات الغرور « وبدوني لن يكون هناك صلح ، بل هزيمة وعبودية » .

وفور في الخامسة صباحاً أن يعود إلى بيته ، وقال لسكورزا . . . « تعال معي إلى البيت ، فأنا جدد منكم » .

وكتب فيما بعد يقول . . . « وكانت الشوارع خالية . ولكن تبشير الفجر

كانت قد لاحت في الأفق . وكان ثمة إحساس بالحتمية . وعندما مضى في شارع نومتيانا ، وسكورزا إلى جانبه ، راح يتمم قائلا : « حتى البني وباستياني . وحتى تشيانو الطفل ذي الأربعين عاماً » .

وفهمت راشبل من أسارير وجهه العابسة عندما وصل إلى دارة تورلونيا ، أن مخاوفها السابقة كان لها كل ما يبررها . وكانت لا تزال تنتظره ، وعندما هتف لها أحدهم من قصر البندقية يقول إنه غادر القصر في طريقه إلى البيت ، مضت إلى الحديقة للقائه .

وقالت له بشيء من الغضب الذي لا يخلو من الحنان . . . « حسن ، أظنك قد أصدرت الأمر باعتقالهم جميعاً . . . » فرد بصوت يغلبه الجهد والضعف . . . « لا . ولكنني سأعتقلهم » .

لكن هذا القول لم يكن أكثر من مجرد احتجاج تفليسي . وبدا وكأن عزمه على المقاومة قد انهار . ومضى إلى الداخل ، وتطلع إلى زوجته صامتاً ثم قال . . . « لم يعد في وسعي أن أعمل شيئاً . فقد حزموا أمرهم على تحطيمنا . ولم تعد لأوامري أية قيمة » .

وخلع ثيابه ، ثم مضى إلى فراشه ، ولكن النوم لم يطرق جفنيه . وعندما جاءه الدكتور بوزي في الثامنة صباحاً ، ليعطيه حقنة المخدر التي تعود على أخذها كل صباح ، رفض الحقنة وهو يقول . . . « لا أريد حقنة اليوم . فالدم يسرى في عروقي بسرعة هائلة » .

٣

ودهش باستياني ، عندما رآه بعد ساعة يجلس إلى مكتبه في قصر البندقية ، وكأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق . ولم يبد عليه أى دليل على القلق أو الإجهاد وطلب أن يوصلوه بهراندلي ليتحدث إليه هاتفيًا ، وعندما قيل له إنهم لم يستطيعوا العثور عليه . وأن من المحتمل أن يكون قد مضى إلى دارته الريفية ، اقترح على موظفيه أن يحاولوا الاتصال به هناك في وقت لاحق .

وحمل إليه ألبيني في التاسعة والنصف صباحاً كالعادة بريده الصباحي ،

فقرأه بعناية ، مظهرًا الاهتمام كله بالأنباء التي وردت عن الغارة العنيفة التي قام بها العدو على مدينة بولونا . وعندما انتهى من قراءة هذه التقارير ، قال لألبيني بلهجة عادية هادئة . . . « لم اقترعت إلى جانب اقتراح جراندي ليلة أمس؟ لقد كنت زائرًا في المجلس ليس إلا ، فأنت لست من أعضائه » .

واحمر وجه ألبيني خجلًا ، وتمم معتذرًا . ولم يبد محرجًا فحسب ، وإنما بدا آسفًا على اقتراحه في الليلة الماضية . وقال للدوتشي . . . « قد أكون أخطأت ، ولكن ليس ثمة من يستطيع الشك في مدى إخلاصى لك ، لا الآن فحسب بل دائماً » . وأصيب آخرون بالدعر مما فعلوه . وهتف سكورزا إليه يقول . . . « يبدو أن الليل قد أعاد الصواب إلى الرؤوس ، ويبدو أن نوبات تيكيت الضمير قد بدأت » .

فعلق موسوليني بنوع من ذلك التهديد المغلق الذي أصبح الآن جزءًا آليًا من حديثه . . . « فات الوقت » . وبدأ في غاية الانسراح ، وطلب إلى سكورزا أن يوافيه إلى قصر البندقية حيث وجده سكرتير الحزب ، في حالة من الثقة المطلقة . وأصغى بشيء من عدم الاكتراث الواضح إلى اقتراحات سكورزا القلقة بأن يعمل بسرعة ضد أعدائه . فرد عليه بأن ليس ثمة ما يدعو إلى الفرع والدعر . فسيصدر تعليماته بعد أن يقابل الملك . وعندما تلقى رسالة من شيانيني يقول فيها إنه يسحب اقتراحه ، ويعرض استقالته من منصبه كوزير للاتحادات العمالية ، قرأ الرسالة دون أية دهشة ظاهرة أو سرور ، وكأنه كان يتوقعها ، بل كأن الآخرين سيحدثون حدوثه عما قريب .

ووصل باستيانيني قبيل الغداء مستصحبًا سفير اليابان الجديد . وكان موسوليني كما قال باستيانيني « في منتهى الود والصدقة » ، عارضًا وجهات نظره في السياسات الخارجية والأوضاع العسكرية بكثير من التفصيل . وكان يتحدث عن علم ، وبكثير من التؤلف عن اليابان وشعبها ، بينما كان السفير يحنى رأسه مبتسمًا ، وقد بانث عليه علائم السرور الطاغى .

وظل باستيانيني مع موسوليني بعد مغادرة السفير الياباني هيدাকা ، لبحث القضايا الروتينية العادية ، والترتيبات اللازمة لزيارة ماريشال الرايخ جورنج

المقبلة . ولم يتناول الحديث موضوع اجتماع المجلس بالأمس . وبدا موسوليني وكأنه قد نسى هذا الموضوع تماماً . وعندما أبلغه سكرتيره دى سيزارى ، أنه حصل على موعد له لمقابلة الملك فى الساعة الخامسة مساءً فى قصر سافويا فى ذلك اليوم ، أشار إشارة غامضة إلى ذلك الموقف بقوله . . . « فى الساعة الخامسة » ، إنه رقم مشنوم » . ولكنه كان قد عاد إلى طبيعته ، وزايله قلقه ، عندما راح يغادر مكتبه قاصداً دارته لتناول الغداء . واصطحب معه الجنرال جاليباتى ، ومضيا عن طريق حى تيبورتينو الذى كان قد أصيب بأضرار فادحة لإبان الغارة الأخيرة التى وقعت فى التاسع عشر من يوليو . وعندما هبط من سيارته ليمشى بين الأتقاض ، هتفت له جماهير غفيرة من الناس . فرفع ذراعه يمينهم ، وقد طغى عليه شعور من الفرح لحبهم له ، طالباً إلى جاليباتى أن يوزع عليهم كل ما يحمله من مال ، إذ أن جيوبه هو ، كانت خالية كمادتها من كل مال . وعندما عاد إلى السيارة ، كرر عليه رفيقه نصيحة سكورزا ، بأن يعتقل الأعضاء التسعة عشر المنشقين على الفور . ولكنه رفض الاستجابة من جديد لهذه النصيحة .

وتناول غداءه فى وقت متأخر فى داوة نورلونا . وكان مؤلفاً من طبق من الحساء ليس إلا ، ثم ارتدى بدلة داكنة ، ليقابل بها الملك . وكان سكرتيره قد أبلغه بأن رجال القصر الملكى ، اشترطوا أن تكون المقابلة بالملابس المدنية ، وكان هذا الاشتراط كافياً لإثارة مخاوف زوجته راشيل التى استبد بها القلق . . . وقالت تتوس إليه . . . « لا تذهب يا بنيتو . فليس فى وسعك أن تطمئن إليه » .

وكانت كلاريتا قد رجته مثل هذا الرجاء وهو فى مكتبه فى الصباح ، فقد ذكرت لنا فاراً أنها توسلت إليه ألا يذهب ، ولكنه أبى أن يستمع إليها . ولم يصنع لتوسل زوجته أيضاً . فلم يكن يحس بأى خطر . وقد يأخذ الملك منه صلاحياته كقائد عام للقوات المسلحة ، ولكن شيئاً أسوأ من هذا لن يحدث على الإطلاق ولم يخطر فى باله أن يقترح على الجنرال جاليباتى تحرك بعض الوحدات المدرعة من ذوى القمصان السوداء إلى رومة إلا فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، ولكن الوقت كان قد فات عندما دار فى رأسه هذا الخاطر . وكان الجنرال كاستيلانو

قد أصدر أمره قبل بضع ساعات بتحرك فرقة من الجيش من « رماة القنابل » إلى العاصمة ، كما التقط أمر جاليباني بتحرك ذوى القمصان السوداء وأوقفه . وعندما غادر جاليباني دارة تورلونا في الساعة الثالثة والنصف كان موسوليني لا يزال في منتهى الثقة . وكان آخر ما قاله للجنرال ، إنه سيحمل الملك على الموافقة على تعيين ثلاثة من الوزراء الجدد . وهتف في الساعة الرابعة والربع إلى سكورزا ، الذي كان قد هتف إلى دارة موسوليني من قبل ، مبلغاً رسالة بأن المارشال جرازياياني وعد بمواصلة تأييده لموسوليني . وقال هذا لسكرتير حزبه . . . « أبلغ جرازياياني أنني سأراه بعد مقابلتي للملك » . ووصل دى سيزاري إلى الدارة في اللحظة التي كان لا يزال يتحدث فيها هاتفياً إلى سكورزا . فالوصول إلى مكان الموعد لا يستغرق أكثر من ربع ساعة ، ولذا فقد قرر موسوليني أن يتحرك من بيته في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين . فحركة المرور في الشوارع خفيفة حتى في أيام الأسبوع ، نظراً لأزمة الوقود ، أما في أيام الآحاد ، فالحركة تكاد تكون متوقفة .

والتقط موسوليني في الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين تماماً قبعته السوداء ، وخرج مع سيزاري إلى السيارة التي تنتظره . ولم يحمل معه هذه المرة حقيبة ملائى بالأوراق ، كما تعود أن يفعل ، عندما كان يذهب لمقابلة الملك ، وإنما حمل وثيقة واحدة تحدد القانون الأساسى للمجلس الأعلى وصلاحياته ونسخة من مشروع جراندى ، ورسالة شيانيني التي استقال فيها من الوزارة .



وبينما كن موسوليني يستعد للمقابلة الملكية في قصر سافويا ، كان الملك بدوره يأخذ أهبطه لاستقباله في القصر .

وكان جراندى قد نقل في ساعة مبكرة من ذلك الصباح إلى الدوق داكوارون نتائج اجتماع المجلس الأعلى ، واقترح على الملك أن يعين المارشال كافيليا الجندى الممتاز والمعروف بعاداته للفاشية ، رئيساً للحكومة ، وأن يبعث ببعض

الممثلين الدبلوماسيين على الفور إلى مدريد للشروع في مفاوضات الصبح مع الحلفاء . وأحس جراندى بالاستياء عندما أبلغه داكوارون أن الملك قرر تعيين الماريشال بادوليو رئيساً للحكومة . ولم ينس الرجل ببنت شفة وإنما غادر الغرفة ، ليختفي إلى الأبد من الحياة العامة^(١) . وأيقظ داكوارون الملك في الساعة السادسة صباحاً ، لينقل إليه تقرير جراندى عن جلسة المجلس الأعلى . وراح بعد ساعة يزور الجنرال امبروزيو ، ثم مضى معاً إلى بادوليو ، ليبلغاه ما قرر الملك أن يفعله . وبالرغم من أن بادوليو فقد فيما بعد كثيراً من ثقته بنفسه ، إلا أنه اتقد تلك اللحظة بالحماسة . وارتدى بزة الماريشالية ، وبعث بأحد خدمه إلى القبر ليأتيه بزجاجة من الشمبانيا . وراح يمزج بعد قليل مع أسرته قائلاً إنه قرر على ضوء الصلاحيات التي ستمنح له عما قريب اعتقالهم جميعاً .

أما امبروزيو وقد عهد إليه بواجب الاعتقال ، فلم يشترك مع بادوليو في معنوياته العالية . وكان الجنرال كاستيلانو قد زاره في ذلك الصباح ، وأبلغه أن الملك لم يصدر بعد أوامر محددة باعتقال موسوليني . وقال امبروزيو . . . « إذا قبل موسوليني إقالاته دون اعتراض ، فسندعه وشأنه . أما إذا اعترض فستجد أنفسنا مرغمين على اعتقاله » .

واعترض كاستيلانو قائلاً . . . « ولكن هذا مستحيل . فالملك لا يريد أن يكون أحد حاضراً معه حديثه إلى موسوليني . ولن يكون في وسعنا أن نعرف حقيقة موقفه » . ولو سمحنا له بالخروج من قصر سافويا ، فلن يكون في إمكاننا اعتقاله ثانية » .

(١) قضى جراندى جزءاً من صباح اليوم في مكتبه في مونتيستوريو ، حيث زاره تشيانو مستصعباً معه فيليو انفوسو . وتقيم رواية انفوسو عن أحداث ذلك الصباح الدليل على أن أيًا من المتأمرين لم يكن يعرف شيئاً عن خطط القصر ، وأن الثقة كانت مفقودة بين الجانبين . ويقول انفوسو إن جراندى وتشيانو انتحيا جانباً من الغرفة وراحا يتحدثان فيما يشبه الهمس . وسرعان ما علا جدالهما . « واتضح أن جراندى كان يخفى الكثير عن تشيانو » . وعند ما غادر هذا وبعه انفوسو المكان بعد قليل ، في طريقهما إلى بيت الأخير ، أظهر تشيانو أن معرفته بتوايا القصر مضطربة كعرق جراندى . وقال بشيء من الهمس « لقد ترقب كل شيء . وسترى ذلك بنفسك » . فقد تم تشكيل الوزارة . وسيكون بيريللي وزيراً للخارجية . أما فيتيني فيسكون ك اعتقد وكيل الوزارة . وسيتمل الجنرال كاربوني وزارة الداخلية . وسأظل بعيداً في الوقت الحاضر . ولكن سترى فيما بعد . أما بالنسبة إليك فلا أريد الحديث كثيراً عنك . فأنت معروف بميلك إلى الألمان . ولكنني سأحدث عنك إلى أصلقائي » . « المؤلف »

فرد امبروزيو بقوله . . . « حسن . . . إذن فعلينا أن نعتقه على أى حال » .
 وبرز كاستيلانو مكتب امبروزيو فى الساعة الحادية عشرة ، ماضياً
 إلى مكتب قائد شرطة « الكاربنيرى » . وكان عليه قبل أسبوع أن يتصارع مع
 الجنرال هازون قائد الشرطة ، إذ بالرغم من تأييده للمؤامرة ، لم يكن موافقاً على
 اقتراح امبروزيو . لكن هازون قتل إبان غارة التاسع عشر من يوليو ، وخلفه فى
 القيادة مساعده الجنرال بيشى ، وهو فاشى مخلص ، تخطوه فى الرقية نتيجة جهود
 الجنرال أنطونيو سوريس وكيل وزارة الدولة فى وزارة الحربية الذى أقنع كلاريتا
 بيتانشى بتأييد ترشيح الجنرال سيريكما للمنصب . وقد وافق سيريكما هذا على أن
 ينفذ لامبروزيو وكاستيلانو ما أراداه . ووصل إلى قصر سافوى يرافقه ضابط
 برتبة عقيد ، وخمسون من ضباط « الكاربنيرى » وجنودها ، قبل نصف ساعة من
 موعد صول موسولينى .

وجه إكوارون حديثه إليه عندما وصل . . . « أتريد الأمر من الملك
 شخصياً ؟ » .
 — « لا بأس ، إذا كنت تصدر الأمر باسم الملك . ولكننى أريده أمراً
 خطياً » .

ومضى إكوارون إلى الملك الذى كان يسير فى حديقة القصر مع مرافقه
 الجنرال بوتونى وقال له . . . « يريد الجنرال سيريكما قائد الكاربنيرى ، من جلالتك ،
 أن تؤكد عن طريقى الأمر باعتقال الشيفالييه بنيتو موسولينى » .
 وكان صوت الملك فى منتهى الهدوء والنعومة ، بحيث لم يستطع الرجلان أن
 يسمعا وهو يقول . . . « حسن » . . . وعندما مضى ليواصل سيره مع الجنرال
 بوتونى ، كان وجهه شاحباً للغاية .

وتلقى الجنرال سيريكما بعد ظهر ذلك اليوم أمراً خطياً وقعه امبروزيو
 وإكوارون . وطوى سيريكما الأمر بعناية ، ووضعها فى جيبيه . وقال : إنه ظل
 حتى تلك اللحظة يشك فى أن الفرصة ستتاح له لتنفيذ الأمر .

الاعتقال في قصر سافوى

٢٥ يوليو ١٩٤٣

« ليس في وسع المرء أن يحكم هذه المدة الطويلة وأن يتطلب من الشعب تضحيات بالغة دون أن يستفز لديه شيئاً من السخط »

سارت سيارة موسوليني عبر شارع سالاريا الخالي من الحركة بعد ظهر ذلك اليوم القاطظ من أيام الآحاد الهادئة ، لتدخل عبر الباب الحديدي إلى ساحات قصر سافوى . ووقفت السيارة أمام رواق القصر . ولاحظ السائق ايركولى بوراتو ، وهو مندهش ، أن الملك ، مصحوباً بمرافقه ، كان يقف في أعلى السلم ، وقد ارتدى بزة ماريشال إيطاليا . وهبط الملك سلم القصر ليستقبل زائره مبتسماً وعارضاً يده ، وهو أمر لم يسبق للسائق أن رآه من قبل . ومضى الملك وموسوليني إلى داخل القصر معاً ، وخلفهما المرافق ودي سيزاري ، بينما مضى السائق بالسيارة إلى زاوية السلم كعادته . وشهد الرجال الأربعة وهم يدخلون القصر ، ثم جلس في مكانه ينتظر . وكان الحر لا يطاق في السيارة ، ولكن هذه المقابلات لم تكن تطول في العادة أكثر من ربع ساعة ، وراح يسلى نفسه بالتفكير في أنه سيعود إلى منزله عما قريب . ولم يكن قد طال انتظاره ، عندما جاءه ضابط من ضباط الشرطة ، لم يكن وجهه غريباً عليه ، ليمد رأسه عبر النافذة قائلاً . . . « إنهم يريدونك على الهاتف يا ايركولى ، فها أسرع ، وسأضى معك ، إذ أنني أريد التحدث في الهاتف أيضاً » .

ودلف بوراتو من السيارة ، ومضى مع الضابط ، وهو مستغرب من هذا الطلب غير المتوقع . ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يستدعى فيها الهاتف في قصر سافوى ، ولكنه أحس هذه المرة بشيء من القلق الغامض . ورأى في القصر وساحاته عدداً من رجال « الكاربينيري » يفوق ما ألف أن يراه في المرات السابقة .

وكانت علامتهم التجهم والحبيطة تبدو على وجوه الجميع باستثناء الدوتشى . فقد بدا موسولبنى وكأنه لا يأبه بشيء ، إذ ظل هادئاً غاية الهدوء طيلة المدة التى قضهاها فى السيارة .

وكان لا يزال على هدوئه حتى تلك اللحظة . وبالرغم من أنه لم يرد على تحية الملك مكتفياً بهز رأسه وكأنه يقول . . . « لا أنا لست بخير . أشكرك » ، إلا أن أحد الخدم سمعه يقول ، وهو يدخل مع الملك إلى غرفة الاستقبال ، مجيباً بلهجة فيها الكثير من الرقة والكماسة . . . على سؤال الملك ، عما إذا كان الطقس حاراً ، « أجل إنه حار » . وراح يروى على مسامع الملك عندما وصلا غرفة الاستقبال ، بهدوء ودون أى إفراط فى التأكيد ، ما وقع فى المجلس الفاشى الأعلى فى الليلة السابقة . وأضاف أن هذه الحوادث ليست مهمة على أى حال ، ولا سيما أن فى وسعه أن يقيم الدليل استناداً على عدد من القوانين والنظم ، أن الاقتراح ضده لم يكن قانونياً . وكان على ثقة مطلقة من عدالة قضيته .

وقاطعه الملك قائلاً كما روى فيما بعد . . . « وسرعان ما حملته على القهقم بأننى لا أشاطره رأى » مشيراً إلى أن المجلس الأعلى جهاز من أجهزة الدولة ، كان هو خالقه ، وقد نال موافقة مجلسى البرلمان على إيجاده . ولهذا فكل قرار يتخذه المجلس الأعلى لابد أن يحتل مكانة عالية من الأهمية » .

وواصل الملك حديثه قائلاً . . . « على أى حال ، لم تعد هناك جدوى يا عزيزى الدوتشى . فالأوضاع فى منتهى السوء والخطورة . وقد أصبحت إيطاليا أرضاً خربة . وانحلت معنويات الجيش انحلالاً كاملاً . ولم تعد للجندوة رغبة فى مواصلة الحرب . وتشدد الكتائب الألبانية نشيداً مضمونه أن رجالها لن يواصلوا القتال من أجل موسولبنى » . ثم تلا باللهجة البيدمونتية ، مقطعاً من الأغنية ينتهى بالعبرة التالية « ليسقط موسولبنى قاتل الجنود الألبانيين » .

وظل موسولبنى بصغى صامتاً . . . بينما واصل الملك حديثه بقوله . . . « واقتراح

المجلس الأعلى شيء مرعب مخيف . فهناك تسعة عشر صوتاً إلى جانب مشروع جراندى وبين أصحابها أربعة يحملون وسام « انونزياتا » . وعليك أن لا تشك لحظة واحدة في حقيقة مشاعر إيطاليا تجاهك . فأنت في هذه اللحظة أكثر رجل تكرهه إيطاليا . وأنا وحدى صديقك الذى ما زلت على صداقتك . ولذا فأنا أقول لك ، إن عليك أن لا تخشى شيئاً على سلامتك . وسأضمن لك الحماية » .

ولم يرد موسوليني حتى هذه اللحظة بحرف واحد ، وعندما أنهى الملك حديثه قائلاً إن المارشال بادوليو سيخلفه فى الحكم ، جلس موسوليني فجأة دون أن يقول شيئاً . وكأنه يحس بالإغماء ، بعد أن شحب وجهه إلى حد مخيف . وبدا وكأنه لم يعد يسمع شيئاً ، وعندما قال الملك إن بادوليو يتمتع بثقة الجيش الكاملة ، وبثقة الشرطة أيضاً ، رد موسوليني العبارة الأخيرة « وبثقة الشرطة أيضاً » وكأنه قد سمع العبارة دون أن يفهم معناها .

وتتم كما روى الملك فيما بعد قائلاً : « إذن فقد انتهى كل شيء » . وكرر العبارة ثلاث مرات .

ثم نهض أخيراً واقفاً على قدميه . وقال بصوت أقوى . . . « إذا كنت جلالتك على حق فيما قلته ، فسأقدم استقالتي » .

— « أجل ، وأنا أقول لك إننى أقبل استقالتك من رئاسة الحكومة دون قيد أو شرط » .

فقال موسوليني : « إنك تتخذ قراراً مشحوناً بالنتائج . فالأزمة فى هذه اللحظة ستحمل الشعب على الاعتقاد بأن الصلح بات وشيك الوقوع ، لأن الرجل الذى أعلن الحرب ، قد أزيح من منصبه . وستكون الصدمة التى ستلحق بمعنويات الجيش مرعبة ومفجعة . . . وستعتبر الأزمة نصراً لخلق تشرشل وستالين ، ولا سيما للأخير الذى سيرى فيها . انسحاب عدو حاربه بضراوة مدة عشرين عاماً . وقد تبينت كراهية الشعب . ولم يكن من الصعب على أن أتبينها ليلة أمس أثناء اجتماع المجلس الأعلى . فليس فى وسع المرء أن يحكم هذه المدة الطويلة ، وأن يتطلب من الشعب تضحيات بالغة ، دون أن يستفز لديه شيئاً من السخط . وإنى لأرجو حظاً سعيداً للرجل الذى سيتسلم مقاليد الحكم فى هذه المرحلة » .

وانتهت المقابلة . ومضى الرجلان إلى الباب . . . وروى موسوليني فيما بعد أن وجه الملك كان « شاحباً » ، وبدا الملك أقصر من حقيقته ، بل بدا وكأن ظهره قد انحني مرتين وكان قد قاد الحديث « بشيء من الهياج غير العادى » ، بل فى شيء من التهمة المؤهلة المهزوزة » ، قاضماً أظفره بأسنانه ، وصادراً بأقوال تفتقر إلى التماسك أحياناً . لكن المرافق الذى رأى الملك وهو يغادر الغرفة ، التى جرت فيها المقابلة ، لم يستطع أن يتبين تبديلاً فى مظهره أو فى تصرفاته ، كما أن بادوليو الذى اجتمع إليه بعد لحظات ، وصفه بأنه كان فى منتهى الهدوء .

وبالرغم من أن الملك قد رأى فى موسوليني ما رآه هذا فيه ، وقال إن رئيس حكومته بدا أصغر مما كان عليه . وكأنه قد انكمش ، فإن موسوليني ظل فى الواقع فى منتهى الهدوء . وعندما أصبح خارج غرفة الاستقبال ، مد يده إلى الملك مصافحاً فتناوھا هذا بين يديه ، وهزها بحمارة . وعاد إلى الحديث ثانية عن الحر الذى لا يطاق . وطلب الملك أن يعرف إلى دى سيزارى الذى كان ينتظر فى الغرفة الخارجية مع العقيد توربلا دى رومانو ، من أركان حرب الملك الشخصيين . وقدم موسوليني سكرتيره بمنتهى الهدوء ، فقد قبل تنحيته عن الحكم بنفس الهدوء الذى كان قد رفض فيه تقبل التحذير عن نوايا الملك .

ولم يبد على موسوليني أى فزع على الإطلاق ، رغم كل ما كان قد تلقاه من تحذير . قاهرة العنيفة الفورية التى أصيب بها بعد اجتماع المجلس الأعلى ، مضت لتحل محلها حالة من الثقة العمياء . وروت الكونتيسة تشيانو تقول . . . « وكان سلوكه والذى فى تلك الأيام من النوع الذى لا يمكن فهمه على الإطلاق . فقد كان يعرف أن انقلاباً يحاك ضده ، منذ أكثر من خمسة عشر يوماً قبل وقوعه . ولكنه لم يعالج الموضوع معالجة جدية على الإطلاق . وكان يظن أن الأمر لا يتطلب أكثر من استبدال عدد من الوزراء . وعندما حذرته زوجته ، ثار عليها ، وقال إنها هى صانعة الأذى الذى سيصيبه . وعندما أنذرتة كلاريتا ، تجاهل إنذارها ولم يأبه به . وعندما حذره سكورزا وجالبياتي ، تجاهل تحذيرهما ، دون أن يطلب منهما المزيد من التفاصيل . وعندما وصل فى هذه اللحظة إلى سلم قصر سافويا خارجاً منه ، لم يكن قد أحس بالخطر بعد . ورأى أن سيارته لا تقف فى

مكاتها المعهود عند زاوية السلم ، وإنما تقف في مكان بعيد ، في الطرف الآخر من الطريق ، وتضايق ، ويدت على ملاحه علائم الضيق ، ، ثم مضى ماشياً يقصد السيارة . وتقدم منه النقيب فيجنيرى من ضباط « الكاربنيرى » وأدى التحية العسكرية برشاقة وقال . . . « سمعنا أنك في خطر ياسيدى الدوتشى . وقد تلقيت الأوامر بحمايتك » .

ورد موسولنى بشيء من الدهشة أو الغضب . . . « لا حاجة بى إلى ذلك . فلدى حراسى » .

وقال النقيب . . . « ولكن الأوامر أن أتولى حراستك » .

وكان موسولنى قد وصل نهاية السلم في هذه اللحظة ومضى يعبر الطريق باتجاه سيارته . . . ثم قال « حسن . إذا كانت هذه أوامرك . والأفضل أن تأتى معى فى سيارتى » .

فرد النقيب . . . « لا يا دوتشى . عليك أن تأتى معى » .

— ولكن هذا شيء مضحك ، لم يسبق لى أن سمعت بمثله .

— إنه أمر يا دوتشى .

وأشار النقيب فيجنيرى إلى سيارة إسعاف . ولم يحاول موسولنى الاحتجاج أو المقاومة وإنما مضى إليها . وكان بابها الخلفى مفتوحاً . وعندما وصل إليه ، تردد لحظة واحدة ، فقد رأى فى داخلها عدداً من الجنود المسلحين . وأمسك النقيب بذراعه بلطف . وتقبل موسولنى الإيماءة على أنها مساعدة لا إرغام ، وصعد إلى السيارة . وجلس موسولنى وقد أسدل قبعته على عينيه ، وصعد دى سيزارى وراءه إليها . واستقلها بعد ذلك ضابط آخر وثلاثة جنود من الكاربنيرى وضابطان من رجال الشرطة بملابسهم الواضحة ، يحملان مسدسين رشاشين . وأغلقت أبواب السيارة بعنف . ولم يدر فى خاطره حتى هذه اللحظة أنه قد اعتقل .

السجين

من ٢٥ يوليو ١٩٤٣ حتى ٢٨ أغسطس ١٩٤٣

«التاريخ غير الأساتذة» ولكن طلابه من
أسوأ التلاميذ» .

نجم الصمت على سيارة الإسعاف . وظل موسوليني جالساً في هدوء نصف ساعة ، والسيارة تقطع الشوارع ، وهو مصدق لما قاله النقيب «الكارينيري» من أنهم يتولون حمايته من خطر الدهماء . وعندما توقفت السيارة في الساعة السادسة في باحة ثكنات «الكارينيري» في «شارع كوفيتينو سيلا» ، نزل من السيارة وكأنه قد جاء إلى معسكر بودجورا في جولة استكشافية متطلعاً حوله ، وقد اندفع فكه الأسفل . وانفجرت قدماه بعض الشيء ، ملقياً بجذعه إلى الأمام ، وواضعاً يديه على خاصرتيه ، في نفس الوقفة التي اشتهر بها وأصبحت معروفة عند الناس كوجهه تماماً .

ومضوا به إلى مطعم الضباط الذي لاحظ أن الجنود يحيطون به مشرعي الحراب . ثم خلفوه وحيداً هناك .

وكان أحد الضباط يجلس في الغرفة المجاورة ، وهو يرقبه من شق الباب نصف المفتوح ، دون أن يحدّثه . وانقضت ثلاثة أرباع الساعة ، وعادوا بعدها بموسوليني إلى سيارة الإسعاف ، التي سارت بسرعة هائلة حتى إن دى سيزارى احتج بأن اهتزازها الخفيف ، سيفضيق معدة الدوتشى المصابة . لكن موسوليني ظل هادئاً ، وعندما وصلت السيارة إلى ثكنات مرشحي ضباط «الكارينيري» في شارع ليجنانو ، خرج من السيارة ثانية دون أى احتجاج . وهمس دى سيزارى في أذنه بأن هذا العدد الضخم من الجنود المسلحين ، في الباحة ، لم يكن إلا بقصد حمايته ليس إلا ، ولكنه رفض أن يصدق . وعندما نحوا عنه دى سيزارى ، ووضعوه في

غرفة أخرى . تاركه وحده في مكتب القائد ، كان لا يزال يؤمن بأن هذه الصفوف الطويلة من الجنود المدججين بالسلاح ، في أروقة البناء ، إنما وضعت هناك لحمايته . لكن الدهشة مالبثت أن استبدت به ، عندما رافقه أحد الضباط وعدد من الجنود ، إلى دورة المياه ، حيث تولوا حراسة الباب ، ثم عادوا يتبعونه إلى مكتب القائد .

وقدموا إليه وجبة من الطعام ، فرفضها ، وكأنه يكاد يتقيأ من مجرد رؤيتها . وبالرغم من أنه لم يشك من شيء ، إلا أنه بدا مريضاً للغاية ، حتى إن القائد ، رأى أن من الخير استدعاء الطبيب للعناية به . ووصل الدكتور سانتيلو على الفور ووجده « في منتهى الشحوب الذي يشبه صفرة الموت » ، وقد انخفض نبضه إلى حد كبير . « وطلب حلاقاً ، فجاءوا به . وبعد إن حلق له ذقنه ، اعتذر بكثير من الحيرة غير المتوقعة ، بأنه لا يحمل مالا معه ليدفع له أجره ، ولكنه سيذكره ، وسيجزيه ذات يوم على ما فعله .

وأطفأ النور في الحادية عشرة ، وحاول أن ينام على السرير العسكري الذي أمّنه له . لكن النور المنبعث من الغرفة المجاورة ضايقه . فقد كان ثمة ضابط يتولى مراقبته بدقة ، دون أن يزعج نفسه حتى بالرد على الهاتف الذي ظل جرسه يرن بإصرار جنوني .

٢

وتجمهر الناس في شوارع رومة منذ الغسق في جماعات صغيرة ، يتناقلون آخر الشائعات . وامتألت الشوارع والساحات العامة في الساعة الخامسة بالجنود المسلحين بالمدافع الرشاشة والمدفعية الخفيفة ، ولم يصلق الناس التفسير شبه الرسمي بأن هؤلاء الجنود يستعدون لمقاومة عملية نزول لقوات الحلفاء من الجو ، قد تقع في أى لحظة ويقوم بها المظليون في ضواحي العاصمة . ولم تكن أية أنباء عما دار في اجتماع المجلس الأعلى قد وصلت إلى الجماهير ولا إلى الصحافة ، وكان كل ما عرفه الناس أن الاجتماع قد طال حتى الساعات المبكرة من الصباح . وأن قراراً في منتهى الأهمية قد اتخذ . وتوسعت الشائعات عندما جن الليل ، وقد تركزت كلها حول

الدوتشى . وقال بعض الناس إنه قد مات . وقال آخرون إنه طار إلى ألمانيا ، بينما قال بعض ثالث إنه استقال ، ومضى إلى مسقط رأسه في روما . وعندما حلت الساعة الحادية عشرة إلا ربعا ، وهو الموعد العادى لنشرة الأخبار ، ووقفت الألوف من الناس حول أجهزة الراديو يصغون إلى البيانات المنتظرة ، ظلت الإذاعة صامتة . وظل الناس ينتظرون بكثير من الלהفة . وكانت العادة أن تعزف الإذاعة بعض الاسطوانات في حالة تأخر نشرة الأخبار عن موعدها ، أما اليوم ، فلا شيء إلا صرير الأجهزة نفسها ، وأخيراً ، سمعوا ، بكثير من الإثارة ، صوت المذيع الذى يعرفونه وهو يقول . . .

« قبل جلالة الملك الإمبراطور ، استقالة ، فخامة الشيفالييه بنيتو موسوليني من رئاسة الحكومة ، ومن السكرتيرية العامة للدولة ، واختار بجلالته خلفاً له في هذين المنصبين ماريشال إيطاليا ، الشيفالييه بيترو بادوليو . . . »

وكان هذا البيان كافياً لكثيرين من المستمعين ، ولم يعودوا تواقين إلى سماع المزيد . وانطلقت الجماهير في الشوارع تهتف وترقص وتغنى . فقد سقط موسوليني ، وأصبحت الحرب على وشك النهاية . وتبادل الناس القبلات ، وتشابكت أيديهم ، وهم يلرغون الشوارع جبهة وذهاباً ، راكضين وهاتفين بالوجوه التى تطل عليهم من النوافذ . . . بأن الفاشية قد انتهت . وانطلقت اللعنات تنصب على موسوليني ، وكأن الناس قد تحولوا إلى أطفال يغلبهم الحماس ، بعد أن سمح لهم بالزعيق بعد صمت طويل فرض عليهم . وهرع الكثيرون إلى قصر الكيرينالى ، يهيون الملك ، بينما مضت حشود أخرى إلى شارع « ٢٠ سبتمبر » تحيي بادوليو . واقتحمت الجماهير التى ألهمها الحماس مكاتب صحيفة « المساجيرو » ، فقلب أفرادها ما فيها ، رأساً على عقب ، محطمين الأثاث ، وممزقين الملفات ، يقدفون بأجهزة الهاتف ، وصور موسوليني من النوافذ . وراح الناس ينزعون الشارات الفاشية عن الأبنية التى يصلون إليها ، ويمزقون شعاراتها عن صدور الحمقى الذين كانوا لا يزالون يحملونها . لكن بعضاً منهم ظل يحمل هذه الشعارات . وانطلق الأشرار يبحثون عن ضحايا لهم ، فلا يجدون أحداً . وبدأ أن الناس قد تحولوا جميعاً وبسرعة البرق ، إلى أعداء للفاشية . وكان سكورزا لا يزال ينتظر عبثاً رسالة من موسوليني ،

لكن هذه الرسالة لم تصله ، ففضى يائساً إلى مقر قيادة الحزب في شارع كولونا . حيث أصدر الأمر بتعبئة جميع الفاشيين في رومه . وراح يقول لسكربتيره المساعد : « هناك شيء يحدث . وأنا لا أعرفه بالضبط ، ولكن يساورني إحساس داخلي بأن ما يحدث في منتهى الخطورة » . ولكنه خاب في مساعيه ، كما خاب جاليباني في تعبئة الحرس الفاشي ، إذ لم يلب النداء إلى أداء الواجب إلا خمسون فاشياً ، لم يحملوا شيئاً يعملونه .

سحطمت الجماهير منازل عدد من الفاشيين المعروفين ، ولكنها لم تجد أحداً فيها . وأشعلت النيران في عدد من مكاتب المنظمات الفاشية ، ولكنها سرعان ما أخذت . واندفعت زمرة من المتظاهرين إلى قصر البندقية ، يصرخون مطالبين بالرجس الذي ظل كابوساً متسلطاً عليهم عشرين عاماً ، ولكنهم لم يحاولوا تحطيم أفعال « قاعة الكرة الأرضية المغلقة » واكتفوا برفع علم أحمر .

لكن حوادث العنف ظلت محدودة ، ولم يقتل فرد واحد فيها ، فقد كانت الحالة النفسية ناطقة بالفرح لا بالرغبة في الانتقام . ورقصت الجماهير وكأنها في عيد في شارع ديل تريمتي وميدان كولونا وشارع ناسيونالي وميدان « الشعب » ، وكان الناس يتبادلون التهاني قائلين . . . « لقد ماتت الفاشية » . وكان قولهم صادقاً ، فلم يضح إنسان واحد في رومه في تلك الليلة بروحه دفاعاً عنها .

لكن معظم الناس ، ظلوا قابعين في بيوتهم ، وقد خيم عليهم وجوم حزين من خيبة الأمل . فبعد إذاعة نبأ استقالة موسوليني ، جاء بيان بادوليو يعلن بأن الحرب ستستمر ، وأن إيطاليا ستظل مخلصمة إلى جانب حلفائها . لقد تعلقتم آمالهم بأكثر من هذا . وكان الألمان لا يزالون في رومه . فقد تكون الحرب حرب موسوليني . ولكن لم يكن في الإمكان إنهاؤها بعد . فالجيش الألماني ما زال مسيطراً على معظم أرجاء إيطاليا ، وكانت الأوامر قد صدرت عن القيادة الألمانية بتشديد هذه السيطرة وهكذا لم يعد هناك أمل بعد في الصلح .

وكان هناك أيضاً كثيرون لا يزالون يذكرون أن غالبية هؤلاء الناس الذين يرقصون ويهزجون في الشوارع محتفلين بسقوط موسوليني بمثل هذا القرح الطاغى ، كانوا يملأون الأجواء ، من قبل بهتافاتهم المجنونة « دوتشي ، دوتشي ، دوتشي » ،

وكانوا يهتفرون معلنين ولاهم له حق الموت . وبدأ أن هناك شخصاً واحداً فقط من جميع أولئك الذين كانوا يتظاهرون لموسوليني بالولاء والإخلاص ، يريد أن يظهر صدق ولائه وثباته على مبدئه .

« لقد استقال الدونشي » . . . هذا ما كتبه مانيليو مورجاني عضو مجلس الشيوخ في ورقة صغيرة خلفها على مكتبه . . . « وقد انتهت حياتي . عاش الدونشي » ثم أطلق النار على رأسه منتحراً ٥

٣

وكان الملك ينسرع ممرات حدائق قصره ، جيئه وذهاباً ، متحدثاً بكثير من المرح إلى أحد ضباط أركانه عن اجتماع المجلس الأعلى وعن اعتقال موسوليني . لكن الملكة لم تكن راضية ، وكانت تقول متذمرة . . . « كان في وسعهم أن يعقلوه متى شاءوا وأن أرادوا ، ولكن كان عليهم ألا يفعلوا ذلك هنا ، فقد كان ضيفنا . إن قوانين الضيافة تعرضت لأبشع انتهاك . وهذا شيء مخجل ومعيب » (١) . وكانت الملكة قد رأت في موسوليني عندما التقت به أول مرة إنساناً سوقيّاً ومتبدلاً ، ولكنها سرعان ما بدأت تعجب به ، ولذا فقد أحست في صميم فؤادها بالأسى والأسف على سقوطه الفجائي العنيف .

٤

دخل المقدم شيريكو في الساعة الواحدة صباحاً مكتب قائد معسكر فيكتور عمانوئيل الثاني ، وبادر موسوليني قائلاً . . . « وصل الجنرال فيروني ، يحمل إليك رسالة من الماريشال بادوليو » .

(١) أحرب الأمير أومبرتو ولي العهد أيضاً عن استيائه من الطريقة التي اتبناها السكريون من الجنرالات الذين تطرف بعضهم فيما بعد فاقترح لإعدام الدونشي فوراً ، وادعى الأمير أنه عارض هذا الاقتراح بمنتهى الشدة والإصرار .
« المؤلف »

ونفض موسوليني من السرير العسكري ، ومضى إلى الغرفة المجاورة ، حيث وجد الجنرال فيروني يضع على وجهه كما وصفه « قناعاً أنيقاً غريباً » . وسلم إليه الجنرال وهو ضابط ركن في وزارة الحربية رسالة من الماريشال بادوليو . وتطلع موسوليني إلى زائره قبل أن يقرأ الرسالة وقال . . . « أظن أننا التقينا من قبل يا جنرال ، أليس كذلك ؟ »

وكان فيروني قد قاد بالفعل فرقة في ألبانيا ، حيث قدم إلى موسوليني ذات يوم . لكن المقابلة كانت عاجلة . وبدا الدوتشي ، الذي ظن الجنرال أنه نسي هذه المقابلة ، غير مكترث به على الإطلاق يوم المقابلة
ورد فيروني قائلاً ببرود . . . أجل ، تقابنا في ألبانيا .

وقال موسوليني ، وقد فتح عينيه متظاهراً بالدهشة من أن يكون فيروني قد تذكر المقابلة ، موحياً له ، كما كان نابوليون يود أن يفعل دائماً ، بأن ذاكرته قوية في مثل هذه الأمور . . . « صدقت يا جنرال ، صدقت . ولا تنس أنني كنت دائماً أقدرك كل التقدير » .

وعاد بأنظاره إلى الرسالة فقرأ فيها . . .

« إلى فخامة الشيفالييه بنيتو موسوليني . يود رئيس الحكومة الموقع على هذه الرسالة أن يؤكد لفخامتك ، أن ما اتخذ من إجراءات إنما كان بقصد ضمان سلامتك ليس إلا ، بعد توارد المعلومات الموثوقة من جهات عدة ، بأن هناك مؤامرات خطيرة تدبر على حياتك . وهو يود أن يؤكد لك ، أنه سيصدر أوامره ، بأن تصحبك حراسة كافية وأمينية ، مع فائق الاحترام ، إلى المكان الذي تريد .

التوقيع . رئيس الحكومة — الماريشال بيترو بادوليو » .

ورفع موسوليني عينيه إلى فيروني ، الذي سأله عن المكان الذي يود أن يقصده .

ورد موسوليني بشيء من الازدراء المتكبر ، أن ليس من شأنه أن يختار . فليس له بيت بملكه ، وسيكون ضيقاً في كل مكان يذهب إليه .

واقترح فيروني عليه أن يذهب إلى روكاديل كاميناتي ، وبدا أن هذا الاقتراح قد أفرح موسوليني . وقال إنه لم يقترح المكان بنفسه لأنه لم يكن يعتبر هذا القصر الريفي ملكاً شخصياً له ، بل ملكاً لرئيس الحكومة . وطلب إلى فيروني

أن ينقل رغبته هذه إلى الماريشال بادوليو في رسالة أملاها عليه ببطء ، هذا نصها ...

« ٢٦ يوليو ١٩٤٣ . الساعة الواحدة صباحاً . (وبداً بلهجة فيها الكثير من الوقار المدروس ، أراد منها أن يضفي على ملاحظاته العادية إحساساً من الإلهام السماوي والمصير) . أولاً : .. أشكر للماريشال بادوليو اهتمامه بسلامتي الشخصية . ثانياً : .. إن المسكن الوحيد الموجود تحت تصرفي هو روكاديل كاميناتي ، وإني لعلّي استعبداد للذهاب إليه في أى وقت . ثالثاً : .. أود أن أؤكد للماريشال بادوليو ، متذكراً علمنا معاً في الأيام الماضية ، أنه لن يجد متاعب من ناحيتي ، إذ سأعاون معه في كل صورة من الصور . رابعاً : .. إنني سعيد بالقرار الذي اتخذتموه بمواصلة الحرب مع حلفائنا . لأن شرف البلاد ومصالحها يتطلبان ذلك . وإنني لأرجو من صميم القلب ، أن يكفل الله بالنتائج العمل الخطير الذي تحمل الماريشال بادوليو أعباءه ، باسم صاحب الجلالة الملك ، وبأمره ، وهو من كنت خادمه الأمين طيلة عشرين عاماً ، وسأظل كذلك ما بقي من حياتي » .

وانتهى من إملاء هذا الكتاب الدليل ، ثم طلب أن يقرأه . وراح يوقع في ذيل الصفحة بقلم أزرق : .. « عاشت إيطاليا . موسوليني (١) » . وغادر الجنرال فيروني المكان ، وعاد موسوليني إلى سريره في الغرفة الصغيرة الغارية . وظل النوم بعيداً عن جفنيه مدة طويلة ، ولكنه أغنى لإغفاءة عميقة قبيل الفجر .

وانقضى اليوم التالي بطوله تقريباً وهو في هذه الغرفة مستلقياً معظم الوقت على السرير ، مع فترات يقف فيها إلى النافذة ، ليتطلع إلى السيارات وهي تدخل وتخرج إلى ساحة الثكنة تحته ، وإلى مرشحي الضباط وهم يسرون أمام السور الذي كتبت عليه بحروف بيضاء كبيرة العبارات التي كانت تؤلف الشعار الرمزي لعهدده وهي : .. « الإيمان والطاعة والنضال » .

وكان في منتهى الدمائية مع « سيجانيه » ، « راغياً » كما تصور أحدهم ،

(١) عند ما نشرت الرسالة قال هتلر إنها مزورة ، وإن تزويرها يبدو من صفتها الضعيفة . ولكن موسوليني أدرجها في كتابه « قصة سنة » .
« المؤلف »

في « تحبيب نفسه إليهم عن طريق إطاعة كل طلب يوجه إليه . وقد أقلّ من الأكل ، ولم يدخن أبداً » . وعندما جاءه الدكتور سانيلو ثانية ليسأله إذا كان في حاجة إلى أي شيء ، رد عليه بمنتهى الإجلال قائلاً . . . « بعض معجون الأسنان . ونعلا أرتاح إليه » . وقال الضابط الذي أوكلت إليه حراسته إنه كان « مستسلماً وهادئاً » . وقد اعترف فيما بعد لراشيل ، أنه أدرك أخيراً أنه سجين ، وأنه بعد واحد وعشرين عاماً من السلطان ، فقد كل شيء في يوم واحد . وراح يقول للدكتور سانيلو . . . « إن الديكتاتورين لا يهبطون بمحض اختيارهم . بل عليهم أن يسقطوا مرة واحدة . لكن سقوطهم لا يسعد أحداً » .

وبمح له في اليوم التالي بزيارة دى سيزارى في غرفة مجاورة . وجلس الرجلان على السرير يتحدثان ، ويحتسيان أقفاحاً متتابعة من الشاي الذي حملته إليهما زوجة القائد . وفي الساعة السابعة ، كان موسوليني يتطلع من النافذة ، فرأى فصيتين إحداهما من جنود « الكارنبييري » والأخرى من شرطة المدينة ، يدخلان ساحة الثكنة ، ويقفان إلى جانب مجموعة من السيارات الشاحنة . ولم تمض ساعة ، حتى كانت سيارات أخرى تغد إلى الساحة ، وفيها عدد من الضباط . وأثارت هذه الحركة الاعادية فضول الضباط المرشحين فراحوا يطلون من النوافذ ، ومن الشرفات . وقد استبدت بهم الإثارة .

وهتف أحد الضباط صارخاً . . . « إلى الداخل جميعاً . . . إلى الداخل ! وأغلقوا نوافذكم » .

ولم يمض طويل وقت حتى جاءه الضابط يقول . . . « صدر الأمر بالحركة » . ومضى معه يهبطان الدرج إلى سيارة واقفة في الانتظار . ودخل موسوليني إلى المقعد الخلفي يتبعه رجل قدم نفسه باسم الحميد (البريجادير) ، بوليتو ، رئيس الشرطة العسكرية . وخرجت السيارة مسرعة من الثكنة تسبقها دراجة نارية يستقلها أحد الجنود ، لإعطاء الأمر للجنود « الكارنبييري » الذين يتولون حراسة منافذ الطرق ، للسماح للسيارة بالمرور دون توقف . وكانت ستائر السيارة مسدلة ، ولكن موسوليني رأى من شقوقها مستشفى « الروح المقدسة » ، فأدرك أنهم لا يمضون به في الطريق إلى روكاديل كاميناتي ، عبر شارع فلامينيا ، وإنما يتجهون به

جنوباً نحو شارع آيا . وعندما وصلت السيارة ، البانو ، تحققت مخاوفه .
وراح يسأل مرافقه . . . « إلى أين نحن ذاهبون ؟
- جنوباً .

- إذن نحن لا نقصد روكاديل كامنياني .

- جاءنا أمر آخر .

- ومن أنت ؟ كنت أعرف مفتشاً في البوليس يدعى بوليتو .

- إنه أنا .

- وكيف أصبحت جنرالاً ؟

- أعطوني رتبة عسكرية مماثلة .

وكان سافيريو بوليتو على حد قول موسوليني « قد قام بعمليات رائعة في سنوات حكمه » . وراح يتحدث عنها الآن ، وعن إلقاءه القبض على سيزاري روسي الرئيس السابق للدائرة الصحفية الفاشية الذي اعتقل بعد مصرع ماتيوقي . وعن قضائه على عصابة بينتور في سردينيا . وظل بوليتو ، والسيارة تنهب الأرض في الطريق « الالبي » عبر فيليري وسيستينا ونيراسينا ، يدخن باستمرار ، ويسلي موسوليني بحديث حماسي ، عن تفاصيل مغامراته ، وعن أسماء المجرمين الذين عرفهم . وبعد انتصاف الليل بقليل ، خففت السيارة من سرعتها ، وفتح الجنرال بوليتو الحاجز الزجاجي الذي يفصلهما عن السائق وقال . . « أين وصلنا ؟ »
- على مقربة من جاييتا .

وأحس موسوليني لدى سماعه بالاسم باعتزاز مؤلم . فقد بدأت الصورة تبدو أمامه ، وكأنه شخصية « تراجيدية » من شخصيات التاريخ . وأصبحت هذه الصورة التي ابتدعها ليعوض بها لنفسه عن سقوطه من عليائه ، كابوساً يتسلط عليه ، ويات يرى في مصيره ، انعكاساً لمصائر أولئك العظماء الذين انتهوا كنهائهم . ورأى في نهاية بوليوس قيصر ونابوليون بل في نهاية السيد المسيح ما يشبه نهايته هو . وسرعان ما رأى صورة تلك القلعة الضخمة التي تشرف على ميناء جاييتا ، فعزى نفسه بأن البابا لويس التاسع كان قد لجأ إلى هذه القلعة في عام ١٨٤٨ ، وأن مازيني نفسه ، سجن فيها في عام ١٨٧٠ . وقال لصحفي سويسري قابله في

العام التالى . . . «وخيل إلى ، أن نفس المصير ينتظرني . وقد اقتنعت بهذه الفكرة ، حتى إنى رحت أسأل حارسى المفتش بوليتو ، عما إذا كنت سأحظى بشرف النزول فى نفس الزنزانة التى ضمت بطل بعثنا العظيم مازينى » .
فرد بوليتو باقتضاب : « لا . لم تقرر بعد » .

وثوقفت السيارة ، واقترب منها ضابط بحرى يلوح بمصباح فى يده . وقد بددت التعليمات التى أصدرها أمل موسولينى فى أن يشترك مع مازينى فى مسرح استشهاده . فقد أشار الضابط إلى الأرضة ، معلناً بمنهى السخرية المقر الفظيع الذى سيقم فيه السجين وهو « رصيف تشيانو » .

٥

كان أميرال المؤخرة فرنكو موجيرى ، رئيس المخابرات البحرية ، قد تلقى فى الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم رسالة عاجلة من مدير مكتب وزير البحرية ، يأمره فيها بأن يكون على استعداد للقيام « بواجب صغير من واجبات الحراسة » . فقد كان عليه أن يمضى بسيارته إلى جايبينا حيث تقف السفينة الحربية الصغيرة . « بير سيفينى » منتظرة على رصيف كونستانزو تشيانو . ولم تمض ساعتان حتى كان يتلقى لأمر التفصيلى من الجنرال سيرىكا . فسيغادر موسولينى مصحوباً بالجنرال بوليتو والعقيد بيلاجى وبعض الحرس مدينة رومة فى تلك الليلة إلى جايبينا . وكان الأمر الذى تلقاه موجيرى أن يقابله هناك ، وأن يحمله على ظهر السفينة « بير سيفينى » ثم يصدر أوامره إلى قبطانها تازارى بالإبحار إلى فينتوتشى ، الجزيرة التى تقع على بعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب . وعلى الأميرال أن يحرص كل الحرص على ألا يعرف أحد هوية السجين حتى تكون السفينة قد أصبحت فى عرض البحر . وكان عليه أن يذكر لتازارى وضباطه فى مقر قيادة جايبينا البحرية أنه « شخصية مهمة ، منهم فى قضية خطيرة من قضايا الحاسوسية » .

ووصل موجيرى إلى جايبينا فى الساعة الحادية عشرة إلا ربماً ، وظل أكثر من ثلاث ساعات ينتظر وصول السجين من رومة ، من غرفة القبطان فى السفينة

أولاً . ثم على الرصيف حيث ظل يسبر جيئة وذهاباً ، يدخن السيجارة تلو السيجارة ، متحدثاً إلى الضباط البحريين الآخرين الذين اعتقد أحدهم أن الأدميرال على موعد في البحر لتحدث إلى المبعوثين الإنجليز والأمريكيين في إحتمال إعلان الهدنة . وبعد الساعة الثانية من الصباح بقليل ، شاهد موجيرو أضواء ثلاث سيارات تهبط الطريق مسرعة من فورميا .

وقد وصف موجيرى في كتابه «موسولنى قال لى» ، كيف أن السيارة الأمامية اقتربت منه لتقف على بعد بضعة ياردات من السلم المؤدى إلى السفينة الحربية . وخرج المقدم بيلاجى من رجال «الكاربنيرى» من السيارة ، ثم مشى عبر الرصيف ، متقدماً من الأدميرال . ونزل الجنرال بوليتو من السيارة الثانية ثم هبط موسولنى أيضاً على الرصيف . وأدى موجيرى التحية ، والتفت عيناه بعينى موسولنى الكبيرتين وهما تدنوان منه «وتبرقان فى هذه الظلمة المدهمة» .

وقاد الأدميرال موجيرى الموكب نحو السفينة ، يتبعه بوليتو فالمقدم بيلاجى . ثم ضابط من الكاربنيرى ، أوصل موسولنى حتى باب جناح القبطان تازارى . وعندما توقف موسولنى أمام مرسمة الضغط يقرأها ، عاد موجيرى إلى الرصيف ، حيث وجد الضابط البحرى المساعد فى السفينة يصدر تعليماته إلى حراس موسولنى وهم ستة من جنود «الكاربنيرى» المدججين بالأسلحة الرشاشة . ورفعت السفينة مراسيها وأقلعت مخلقة جاييتا وراءها . وكان هناك عطل فى محرك الجانب الأيمن من السفينة ، ولكنه دار على أى حال ، قاذفاً بسحابة كبيرة من الدخان استمرت طيلة الرحلة .

وكانت الرؤية سيئة ، وكان ثمة ريح خمسينية ضعيفة . وكان الجو حاراً للغاية والرطوبة شديدة . والسحب خفيفة . وقد سر موجيرى من العودة إلى البحر ثانية ، ولكنه تذكر أنه فكر آنذاك ، فى أنه لو تعرضت السفينة لهجوم من الطائرات أو الغواصات ، فإن القضية لن تكون سهلة أو مزاحاً .

ونخف القبطان تازارى من سرعة السفينة قبل وصولها إلى فينتونى ، وعكس اتجاهها انتظاراً لطلوع الفجر . وعندما بلغت الساعة الخامسة والربع ، ألقى براسيها على بعد بضعة مئات من الياردات من الساحل .

وظل البحارة في مراكزهم ، بينما نزل الجنرال بوليتو إلى الساحل ، ليكتشف إذا كانت الجزيرة صالحة لإقامة موسوليني في منفاه . وراقبه الأميرال موجيرى وهو يصعد إلى الزورق البخارى التابع للسفينة ، ثم نزل ثانية ، ليتأكد من « أن كل شئ على ما يرام » .

ويمضى موجيرى قائلاً « ودفعنى أيضاً إحساس من الفضول ، فدخلت القمرة ، ورفع موسوليني عينيه الكبيرتين يتطلع إلى عيني وأنا أقول ، يا صاحب القخامة - وهل يمكن للمرء أن يدعوه بلقب آخر - أتريد شيئاً ، مشروباً ساخناً ، أو قهناً من القهوة » .

ورفض موسوليني القهوة ، وقال إن كل ما يبغيه هو بعض المعلومات . إنه يريد أن يعرف مساحة فينتوتينى .

وأبلغه الأميرال كل ما تعبّه ذاكرته ، ثم طلب كتاب الخرائط . . .

وقال موسوليني مبتسماً . . . آه ، إنها جزيرة صغيرة .

وأدرك موجيرى أنه يفكر بالبا وسنت هيلانه . وعادت أفكار الأميرال نفسه إلى نابليون . وتطلع إلى موسوليني بشئء من الإشفاق ثم لاحظ وكأنه يراه لأول مرة . . . « إنه يبدو كجثة . فقد نحل كثيراً » .

وقطع عليه موسوليني حبل أفكاره يقول . . . « أهذه السفينة " فرقيطة " ؟ » .

وشرعا يتحدثان عن الحرب في البحر ، وعن التفوق التقنى للأسطول البريطانى ، والمعارك التى شهدتها موجيرى . وسار الحديث بينهما سهلاً رضيعاً على حد تعبير الأميرال . فقد تحدثا عن الأمريكان والفرنسيين واليابانيين وأساطيلهم البحرية ، وعن طريقة الحياة في كل من أمريكا واليابان .

وقال موسوليني إنه رأى مؤخراً شريطاً سينمائياً عن مدرسة طيران يابانية . وقد لاحظ أن اليابانيين أطول بكثير مما يعتقد الناس ، وراح يسأل موجيرى عما إذا كان يعرف السبب .

وقال الأميرال إنه يظن أن هذا ناشئ عن ولعهم بالرياضة وعن تواجهم مع الروس والكوريين .

وعلق موسوليني قائلاً . . . أطفالهم في منتهى الجمال ، فقد أبلغته هذا ابنته التى زارت اليابان .

وعاد الحديث إلى أمريكا وإلى قدرتها على استيعاب هذا العدد الضخم من الأجناس البشرية وامتصاصها . وعادت الحياة إلى وجه موسوليني وهو يتحدث ، وعاد الألق إلى حياه ، بحيث بدا في غاية المرح عندما عاد بوليتو .

وقال بوليتو إن فينتوتيني لا تصلح مكاناً لاعتقال موسوليني ، إذ أن قائد الشرطة في الجزيرة عزوف عن التعاون ، كما أن في الجزيرة حامية ألمانية . وأصدر الأميرال موجيري على الفور أوامره بأن تقلع السفينة بيرسيفوني إلى بونزا التي تبعد خمسة وعشرين ميلاً إلى الشمال الغربي ، حيث رست إلى مرفئها بعد الظهر .

وكتب موسوليني ، خالطاً كعادته بين الفضول الطبيعي عند سكان الجزيرة وهم يرون سفينة حربية تصل إلى جزيرتهم وبين إحساسهم المبالغ فيه بتميز أهمية الشخصية التي تحملها السفينة يقول . . . « وبحافز لا يمكن إيضاحه ، امتلأت النوافذ والشرفات فجأة برجال ونساء مسلحين بالمناظير يرقبون السفينة وهي تدنو من الشاطئ . وعرفت الجزيرة كلها بوصول في سرعة البرق للحافظ » .

وكان بيترو نيني أحد الرجال الذين كانوا يصلون على السفينة الحربية وهي تدخل الميناء . وقد عاد نيني بذاكرته إلى ثلاثين عاماً مضت عندما كان مع موسوليني سجيناً في فورلى . كانا صديقين في تلك الأيام ، عندما تذكر نيني ذلك أحس فجأة بموجة من العطف تساوره . وقد وقف إلى جانبه رجل آخر من أعداء الفاشية هو زانيني ، وقد اشترك مع رفيقه في إشفاقه على المنفى الجديد .

وقال زانيني وهو يرى وجه موسوليني الشاحب في القارب . . . « لن أمضي بعد اليوم في نزهي المعتادة سائراً على أقدامي ، فأنا لا أريد أن أجازف بالتشاجر مع رجل محطم » .

وأحس موسوليني بالرهبة وهو يرى عشرات الناس في الميناء وعلى الرصيف يتطلعون إلى الزورق البخاري الذي سيستقله وهو يدنو من الشاطئ . وأحس كما ذكر فيما بعد بشيء من القلق والفرع مخافة أن يروه يهبط الشاطئ كسجين فطلب مقابلة الأميرال موجيري .

وكان الأميرال يدخن سيجارته على ظهر السفينة ، فتزل تلبية لطلب موسوليني ووجده « هائجاً للغاية » ، وإن كان يبذل جهده للتظاهر بالهدوء .

وقال موسوليني . . . « لا أريد النزول في وضع النهار . . . أجل لا أريد أن يراى الناس . . . لم كل هذا الإزعاج الذى لا داعى له أيها الأميرال » ؟ فغذ يوم الأحد الماضى وهو معزول عن الناس تماماً . إنه لم يتلق أنباء عن أسرته . ولم تكن لديه إلا الملابس التى يرتديها . وأشار إلى الرسالة التى بعث بها إليه بادوليو والى تحدثت عن مؤامرة خطيرة تحاك ضده .

وذكر موجيرى أن الأوامر قد صدرت إليه بمرافقته لأن البحرية اعتبرت أن من الواجب أن يكون مصحوباً بضابط ذى رتبة عالية فى رحلته . ولكنه لا يملك صلاحيات للرد على ما يشكو منه .

وأصر موسوليني بصوت أكثر هدوءاً بل يحمل طابع التوسل على أن المعاملة كانت على أى حال غير كريمة . وقد ترك آثاراً فى منتهى الخطورة . بل لعبها تسبب آثاراً سيئة ، إذ أن هتلر وفى لأصدقائه .

وواصل حديثه على هذه الصورة بعض الوقت . وكلما طال حديثه هدأت حدته وخف قلقه . وسرعان ما عاد الحديث بينهما إلى الحرب وإلى ما خلفه سقوطه من انطباعات فى ألمانيا وإنجلترا . . .

وأراد موسوليني أن يعرف إذا كان تشرشل قد قسا عليه ، وأعرب عن رأيه فى أن المشاعر ضده شخصياً فى إنجلترا فى منتهى العنف .

ولم يرد موجيرى على السؤال مباشرة ، وإنما تحدث بصورة عامة عن « التعليقات الألمانية الحالية من العاطفة » وعن « اتجاهات الدعاية الإنجليزية » التى كانت تنصح الإيطاليين بطرد الألمان من بلادهم إذا أرادوا صلحاً شريفاً . واقترح أخيراً أن يصعد إلى ظهر السفينة ، عندما يحين وقت نزوله إلى الشاطئ . وكان بوليتو قد عاد إلى السفينة بعد جولة استطلاعية قام بها فى الجزيرة حيث أصلسر أوامره بإعداد منزل فى قرية « سانتا ماريا » لإقامة « شخصية عظيمة » .

ومضى موسوليني إلى سرور السفينة ، وقد أسدل قبعته كعادته فى هذه الأيام على عينيه . وتطلع بأنظاره إلى الجزيرة ، وسأل عن البيت الذى سيحل فيه . ودلوه على بيت منزل أصفر اللون ، قائم الهيئة يتألف من ثلاث طبقات . ودرفات

نوافذه خضراء يطل على خليج صغير يقوم بين صخرتين كبيرتين . وقد اصطفت أمام المنزل عدة قوارب شرعية . وعند ما شرع أحدهم ، في وصف المنزل له ، قاطعه بشيء من الغضب قائلاً . . . « فهمت . إنه ذلك البيت الصغير أمام القوارب الشرعية وذو النوافذ الخضراء » .

ولم يذكر له أحد ، أن هذا البيت كان السجن الذى أقام فيه الرأس ليمرو الزعيم الوطنى الحبشى .

وغلبه اليأس ، لكنه أخفى وجهه وراء قبعته ، قبل أن يرتقى سلم الجبال ليهبط عليه إلى الزورق . وانفجر فجأة محتجاً بصورة بدا فيها كالطفل الغاضب . وقد استدار ليمسك بسور السفينة . . . « لا أريد الذهاب ، لا أريد أن يعرف الجميع ماذا حدث » . ولكن غضبه سرعان ما زال كما جاء ، وراح يودع الأميرال موجيرى بهدوء وهو يقول له بصوت عال ، لا ضرورة له ، مما حمل البحار الواقف على مقربة على الظن بأن هذه الكلمات موجهة إليه . . . « أرجو أن تنقل إليهم ما قلته لك » .

ولاحظ موجيرى ، أنه ابتسم ابتسامة حزينة ، وهو يحى الجميع بالتحية الرومانية . واقتعد مكانه في الزورق وإلى جانبه حراسه من الكارنبييرى . وابتعد الزورق به عن السفينة بينما ظل البحارة واجمين في أماكنهم .

وكانت الساعة العاشرة عندما نزل موسولنى إلى ساحل سانتا ماريا في جزيرة بونزا . وقبل أن يصعد الطريق إلى البيت استدار إلى لبحر ، وظل يتطلع إلى الأفق بضح لحظات .

وقال فجأة . . . أنا منهك القوى ، وأريد سريراً أستريح عليه .

وكانت غرفة النوم حديثة عهد بالطراشة ، وقد بدت بمجمراتها الغربية الشكل ، والمغسلة « العادية » في داخلها توحى بالانطباع الحتمى بأنها زنزاة في سجن . وكان الأثاث الوحيد سريراً من الحديد ، ومنضدة خشبية قلدة ، خدشها المدى ، ومقعداً مهلهلاً خرجت حشيتها من قاعدته . وعاوده الغضب الناشئ عن اليأس الذى أحس به وهو عى ظهر السفينة الحربية عندما رأى هذه الغرفة المهجورة الخالية من كل وسائل الراحة ، وقال وهو يضم قبضته ، مستديراً إلى النافذة ليحمل

المقعد الموجود في وسط الغرفة . . . « شبت من كل هذا » . وجلس إلى المقعد ، ثم أغرق وجهه في راحتيه .

ودخل الغرفة الرقيب ماريني من قوة جزيرة بونزا ، وكان واقفاً في مدخلها يشهد هذا المظهر بشيء من الارتباك ، ثم أدى التحية الرومانية وظل واقفاً وقفة استعداد . وأراد أن يقول شيئاً ، ولكن الكلمات وقفت في حلقه . وكان بادى العصبية ومفتقراً إلى الثقة بنفسه مما أدى إلى أن يغير موسوليني حالته النفسية فوراً . ونهض من مقعده . وأمسك بالرقيب من منكبيه ، ثم قال له بلهجة مسرحية . . . « تشجع ، فأنا أعرف مشاعرك » .

وقال الرقيب : لم تكن نعرف يا صاحب الفخامة أنك قادم إلى بونزا ، إذ لم يبلغوني ذلك إلا قبل نصف ساعة .

— لا بأس ، لا تتزعج .

— كم كنت أرغب في أن أراك في الماضي ، لأحدثك عن أشياء كثيرة .

— والآن وقد قابلتني ، فلم يعد بهمك هذا كثيراً .

ومضى الرقيب من الغرفة ليبحث عن الفراش وبعض الأغذية ، وعندما عاد كانت ترافقه زوجة أحد رجاله ، وقد حملت وعاء من الحساء ، وبيضة وبعض البازلاء . وكان موسوليني مستلقياً على حديد السرير ، وقد وضع جاكيتته كوسادة تحت رأسه . وبدأ مجهداً تعباً . ولكنه أحس بشيء من التحسن بعد أن تناول الطعام ، واستطاع بعد ذلك أن يتحدث بشيء من الحيوية المعروفة عنه إلى بعض الصيادين الذين جاءوا لزيارته وقد حملوا إليه هدية من السرطان البحري (أبو جلمبو) .

وكان اليوم التالي ، التاسع والعشرون من يوليو ، عيد ميلاده . وكان يجلس ، مرتدياً بدلته الزرقاء التي فقدت هندامها ، إلى النافذة ، عندما دخل عليه الرقيب ماريني حاملاً أربع خوخات .

وقال موسوليني . . . إنك في منتهى اللطف يا رقيب ، وإلى لآمل ، أن لا يعنى هذا أن الناس سيفتقرون إلى الفاكهة .

— لا . لا .

— إذن فسأكلها اليوم وغداً .

وجاءه في الصباح ، عدد من الصيادين وبعض جنود الكارنبييرى يتمنون له عيداً سعيداً ، وحمل إليه أحد الضباط بعد الظهر برقية هذا نصها . . .

« أيها الدوتشى . .

أبعث إليك أنا وزوجتى بأحر تمنياتنا وأصدقها في عيد ميلادك . وبالرغم من أن الظروف قد حالت بينى وبين الحىء إلى رومة ، كما كان مقرراً لأقدم إليك تمثالاً لفريدريك الكبير ، وأحر تهانئى ، فإن المشاعر التى أعرب لك عنها اليوم ، مؤكداً صداقتنا الأخوية وتضامنا فى منتهى الصدق والود ، أما عملك كرجل دولة ، فسيعيش فى تاريخ أمتنا ، وقد شاء لهما القدر أن تسيرا جنباً إلى جنب نحو مصير مشترك . وأود أن أقول لك ، إن أنكارنا معك دائماً ، كما أود أن أشكرك على حسن وفادتك وكرم ضيافتك لى فى الماضى ، وأعود فأقول وأنا أمنى برفيقتى إليك ، بلعمان صادق بأننى المخلص لك .

جورننج .

وكانت هذه هى الرسالة الوحيدة التى تلقاها من البر الإيطالى .

وروى ماكزنز لالفيرى أن هتلر كان « يغلى من الغضب على الملك وعلى بادوليو ، لأنه لم يستطع أن يعرف المكان الذى يوجد فيه موسولبنى . وحاول أن يكشف مكانه ، فأوعز إليه كسفير له ، أن يطلب مقابلة الملك وأن يطلب إذناً بزيارة موسولبنى . ولكن بادوليو رد متأسفاً بأنه « لا يستطيع أن ينفذ له هذه الرغبة لمصلحة موسولبنى نفسه ، وأن يسمح له بزيارته » وأضاف أنه على أى حال « مستعد لأن ينقل إليه الرسائل التى يريد سعادة السفير إرسالها إليه ، وأن يحمل إليه ، ردوده عليها » . وقرر هتلر على الأثر أن يبعث إلى موسولبنى بطبعة رائعة جميلة ومجلدة من مؤلفات نيتشه^(١) .

(١) فريدريك ويلهلم نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) - فيسوف ألمنى ، يمى إلى أسرة بولونية . عريقة ، أصبح أستاذاً فى جامعة بال وهو فى الرابعة والعشرين . أصيب بالجنون فى أخريات أيامه . تقوم فلسفته على اعتبار الإنسانية مؤلفة من طرازين يختلف أحدهم عن الآخر ، هما طراز الأقوياء والضعفاء ، أو السادة والمبيد أو التلاذ والدماء . ويقوم الصراع بينهما على أساس الأخلاق التى يؤيد قوتها ، إذ حمل على المسيحية لأنها تدعو - كما قال - لأخلاق المبيد . « للمرب »

ولكن الكتب لم تصل إلى موسوليني وهو في بونزا ، ولذا فقد قضى وقته في الجزيرة يترجم « أغنية البرابرة » لكاردوشي Cardacci^(١) إلى الألمانية وفي قراءة كتاب جيوسيبي ريكويotti Giuseppe Ricciotti^(٢) عن حياة السيد المسيح ، وهو الكتاب الذى أعطاه فيما بعد إلى كاهن الجزيرة بعد أن رشّاه بتعليقاته التى تشير إلى الراحة التى أحس بها من وجه التشابه المدهش بين مصيره ومصير السيد المسيح . وكان قد شرع فى التعليق على الكتاب قبل اعتقاله ، ويتضح من تعليقاته التى كتبها فى بونزا بقلم مختلف ، أن هذه الصفحات التى نصف ما لقيه المسيح من خيانة أدت إلى اعتقاله ، أصبحت مهمة للغاية فى نظره . وقد رآه مارينى يقرأ فى الكتاب ذات يوم ، فأشار إلى أوجه الشبه بين خيانة الآخرين لمؤسس المسيحية وبين خيانتهم لمؤسس الفاشية .

وقال موسوليني بشئ من الرضى الذى لم يستطع إخفاؤه . . . « ولكن يجب أن لا تفرنى بالسيد المسيح » .

وكان يعزى نفسه كثيراً ، بالتفكير بأن بونزا ، كانت موطناً للمبشرين الآخرين . وقد كتب فيما بعد يقول . . . « كانت بونزا منذ أقدم العصور المنفى الذى يبعد إليه المشاهير ، من أمثال أجريبيننا والدة الإمبراطور بيرون وجوليا ابنة الإمبراطور أغسطس ، ومن ثم القديسة فلاfia دوميتيلا ، وكذلك البابا القديس سيلفيستر الشهيد ، فى عام ٥٣٨ بعد الميلاد . لكن هذه القدرة على أن يقيس نفسه برجال التاريخ لم تكن إلا تعزية تفتقر إلى الحرارة . فى تلك الرتبة من الحياة التى كان يعيش فيها .

وكان يستبقي كل صباح فى الساعة والنصف فيتناول إفطاره المؤلف من قذح من الحليب وبيضة واحدة . ويتناول عند الغداء بيضة أخرى ، وبعض « الطماطم » وقطعة من الخبز وبعض الفاكهة . وكان يشرب قذحاً آخر من الحليب قبل مضيه إلى النوم بعد حلول الظلام فوراً . وكان يجلس الساعات الطوال يقرأ ويكتب

(١) جيوسى كاردوشي - (١٨٣٦ - ١٩٠٧) شاعر إيطالى مشهور . نال جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٠٦ .

(٢) باتيستا ريكويotti (١٥٩٨ - ١٦٧١) - فيلسوف إيطالى من فيرارا ، كان من اليسوعيين . وحاضر فى جامعة بولونا . « المغرب »

أو يتطلع من النافذة عبر الخليج ، مفكراً كما اعترف فيما بعد ، بذلك « المؤامرة الحقيرة التي تخلصت مني والتي ستؤدي إلى الاستسلام وإلى تسليمي إلى العدو » . ولم يكن يسمح له بأية صحف ، ولا باستقبال أي زوار ، كما لم يسمح له كما قال لراشيل ، بحضور الجناز الذي طلب من راعي أبرشية بونزا أن يقمه في الذكرى السنوية لصراع ولده برونو . وكان رفاقه الوحيدون من جنود « الكاربنيري » الذين كانوا يستمعون إلى أحاديثه بالدهشة والارتباك ، إذ لم يكن مسموحاً لهم بالرد على أسئلته ، وكذلك الرقيب ماريني وراعي لأبرشية لويجي ماريا دايز الذي ذكر فيما بعد أن حياته في المنفى قد حوت « هذا الرجل العظيم إلى مسيحي صادق » .

ولم يكن يغادر المنزل إلا للمأماً . وعندما وصل ضابطان جديدين هما المقدم ميولي والملازم ايليو دي لوريتزو إلى الجزيرة ومعهما الرقيب انيتشي ، لتعزيز حراسته ، سمح له بالذهاب إلى البحر للسباحة ، ونصبي ذات يوم بحراسة ثلاثة من رجال الكاربنيري ، لمشاهدة الآثار لرومانية القديمة في الجزيرة ، والكهوف التي كان الكهنة يربون فيها بعض أسماك « المورينة » . لكنه كان عزوفاً عن أن يراه القرويون ولذا فقد أثر البقاء في المنزل معظم الوقت .

ووصل في الأول من أغسطس من البر الإيطالي أحد صيادي السرطان البحري ، في زورقه البخاري « ماريا بيسي » يحمل له صندوقاً من الفاكهة وحقيبتين ، كانت السلطات قد سمحت لأسرته بإرسالهما إليه . ووقف الرقيب موريني يشهده وهو يفتح الحقيبتين . وكانت فيهما ثلاث رسائل ، تضم أولاهما رسالة من راشيل وصورة لبرونو ، وتضم الثانية عشرة آلاف ليرة إيطالية . بينما تضم الثالثة رسالة من ابنته إيلدا قرأها بسرعة ، ثم قذف بها تحت حشية سريره . وسأله ماريني . . . « أتريد الرد على هذه الرسائل ؟ » فقال . . . « لا ، فأنا لست في عجلة من أمري » .

وفرغ بعض الوقت بوصول الملابس ، وسرعان ما استبدل بملابسه السابقة قميصاً أبيض نظيفاً . ولم تمض لحظات حتى شوهد وهو يخلع القميص ويسير إلى النافذة عاري الصدر ، وقد وضع قبعة من التي يرتديها سائقو اليخوت على رؤوسهم ، ولكنه ما لبث أن خلعها فجأة ، وعاد فارتدى قميصه الأبيض من جديد .

كان الممل قد أخذ منه كل مأخذ ، وكان يحس بوطأته . وكانت حنفية الحوض في غرفته غير صالحة . وكان هذا وحده كافياً لأن يدفعه إلى اليأس . وفي ذات يوم راح يقول لماربني بشيء من النكد القاسي . . . « قل لي أيها الرقيب ... لم لا أجد الماء في هذه الحنفية ؟ أنفقت كثيراً من المال ، لإصلاح الأنابيب في بونزا . هذا ما أعرفه » .

فرد الرقيب . . . حقاً أنفقت الكثير من المال على مد الأنابيب في الجزيرة ولكن الماء ما زال يجري في ينبوع إلى البحر .

— أنقول الحقيقة يا رجل ؟

— أجل يا صاحب الفخامة .

— آه من هؤلاء الموظفين الإداريين . آه منهم ؟

وبدأ الرجلان في حديث طويل .

ولم يمض أسبوع من هذه الحياة الحزينة التي تتلف الروح ، حتى سقط مريضاً ، وجاءه الدكتور سيلفيريو مارتينيلي ، طبيب الجزيرة يعود .

وقال مارتينيلي دون أن يفحصه . . . « أنا أعرف مرضك . وقد جئتك ببعض الدواء » . وعندما سلم إليه الدواء ، قال إنه لا يكفي . وطلب جرعة مضاعفة . ولم يكن حتى في تلك اللحظات يقاوم الرغبة في التحدث . وراح يلتقي على مسامع الطبيب قصة مرضه الصويل . وعندما انتهى من حديثه ، قال بدون وعي . . . « وهذه هي الآلام البدنية للدوتشي » .

ورأى الدوتشي بعد ستة أيام بعيد الغسق ، نوراً غريباً يضيء وينطفيء باستمرار على التلال الواقعة وراء الميناء . وظل يرقب النور بعض الوقت ، ولكنه ما لبث أن نام نوماً عميقاً ، ليجدهم وقد أيقظوه فجأة قبيل الفجر ، ليقولوا له إنهم سينقلونه من الجزيرة فوراً .

ودون فيها بعد يقول . . . « وجمعت حوائجي بسرعة ، ومضيت مع حراسي أنزل إلى الساحل . وظهر أمامنا على مسافة بعيدة هيكل سفينة حربية تقف عند مدخل الرصيف » . ونقلوه إلى ظهر « بانترى » ، وهي سفينة حربية كانت فيما مضى في الأسطول الفرنسي . وهناك رأى الأميرال موجيري ثانية .

ورآه الأميرال فى حالة تفضل تلك التى رآه فيها من قبل . « وكان يبدو أكثر صلابة ، وأحسن لوناً ، وأقل شحوباً ... وكان يرتدى نفس البدلة ، ونفس القبعة » .
وقال يسأل موجيرى بشئ من المرح ... « وللى أين منمضى هذه المرة يا موجيرى ؟ »

— « لى قاعدة مادالينا » .

— لعلها أقل سهولة على الوصول .

وبدت له الفكرة مفرحة له . واعترف الأميرال أنه فى الحديث الطويل الذى دار بينه وبين موسولينى فى قمرة القبطان ، وقع تحت الانطباع المزعج الذى أخذ ينمو فى عقله ، وهو أن موسولينى يعتبر نفسه الآن « شخصاً ثالثاً » ، لا الممثل الرئيسى فى المأساة الضخمة التى عاشها شعبنا . وكان موسولينى يتحدث وبدأ لموجيرى أنه لا يتحدث عن نفسه ، وأن لا شأن له على الإطلاق بالأحداث التى كان يصفها .

وبالرغم من تعاليه ، ومن هذه العزلة الجيدة التى اختار تصويرها لنفسه ، إلا أنه كان متلهفاً كل التلهف على أن يعرف ما هو واقع فى ذلك العالم الذى بات معزولاً عنه منذ عشرة أيام . وكان قد سمع من أحد الضباط البحريين على ظهر السفينة أن بادوليو قد حل الحزب الفاشى . وسمع الآن بشئ من الاهتمام الواضح أن فاريناتشى ، ذهب إلى ألمانيا ، وتحدث من إذاعة مونيخ ، وأن تشيانو فصل من سفارته ، وعلق موسولينى على ذلك بصوت حزين ولكنه ثابت . . . « آه ، إذن فهناك شخص شقى ، يلعب الجولف كل يوم مع صديقاته » . وعندما أبلغه موجيرى أن السلطات خشيت من أن يكون الفدائيون الألمان قد أعدوا محاولة لخطفه من بونزا ، أظهر شيئاً من الاهتمام الحقيقى والطبيعى . وخيل إليه أن مثل هذا التطور سيكون أكبر إذلال يصيبه فى حياته . أويظن الناس حقاً أنه سيذهب إلى ألمانيا ويحاول تسلم الحكم ثانية بمساعدة الألمان ؟ كان هذا هو السؤال الذى وجهه والذى رد عليه بالنفى القاطع طبعاً .

وأحس بالغضب البالغ من جراء الفكرة التى ساورته ، وهى أنه لم يعد بعد شخصية تاريخية لا تؤثر عليها الأحداث المعاصرة ، ومن جراء إدراكه ما تعنيه

غارة يقوم بها الفدائيون الألمان . واعتقد موجيرى أن غضبه هذا كان صادقاً كل الصديق . ومن المؤكد أنه لم يكن قد فكر في ما يعنيه إنقاذه على أيدي القوات الألمانية ، وإن كان قد بحث مع الرقيب مارينى في بوزرا احتمال وقوع غارة بريطانية على الجزيرة .

وعاد الهدوء إلى موسولينى فى الصباح التالى ، عندما كانت السفينة الحربية تبحر بسرعة (٢٢) عقدة فى الساعة ومع ربح غربية قوية ، لتصل إلى منتصف الطريق إلى مادالينا . وقد أطلقت صافرات الإنذار مرتين تلك الليلة عندما حلفت طائرة معادية على ارتفاع منخفض فوق السفينة ، لكنها لم تتعرض لأية غارة . وراح يغط فى سبات عميق استغرق بضع ساعات . وعندما جاء موجيرى إليه ، كان قد استراح ، وهدأت تأثيرته .

وكان البحر هائجاً ، وكانت أمواجه تلطم مقدمة الباخرة وجوانبها ، بينما تحمل الريح الغربية القوية الرذاذ حتى جسر السفينة . وكان مدى الرؤية فى منتهى السوء . وأصبحت جبال كورسيكا ظاهرة للعيان وراء الضباب أمام قوس السفينة الأمامى . أما سردينيا فكانت مجرد نقطة غير واضحة . ومضت السفينة إلى أن غدت فى المنطقة التى تصبها بطاريات الميناء ، وذلك لئتمكن القبطان من تحديد طريقه . ولكن لم يظهر فى الأفق شئ سوى رأس فيجارى ، ولم يكن القبطان ولا الأميرال موجيرى على يقين مطلق من ذلك . ومضت السفينة تسير ببطء نحو الجنوب بعيدة عن حدود حقول الألغام ، حتى أصبحت نافولارا على مرمى النظر ، وبات فى الإمكان تمييز مدخل المصب . وانطلق زورق بخارى أمام السفينة يرشدها بينما سارت هى عبر القناة بسرعة أربع عقد . وعاد الهدوء الأميرال موجيرى بعد أن انتهت متاعب الملاحة ، لكن منظر موسولينى وهو يقف على ظهر السفينة مع ضباط الكاربنيرى ، ضايقه . وقد كان على المقدم ميولى أن يجتنب هذا ، إذ خشى أن يقوم بحارة السفينة الحربية بمظاهرة مماثلة . لكنهم لم يفعلوا ذلك على أى حال . فقد ظلوا ينظرون إليه بالطبع ، ولكنهم ظلوا صامتين ، ولم تتحول نظراتهم إلى تفرس .

ووصل زورق بخارى فى الساعة الثانية بعد الظهر ، وعلى ظهره الأميرال

بريفونيزى ، فوقف إلى جانب السفينة الحربية ، وهبط إليه موسولنى . وكان يعرف الأميرال ولا يحبه . وكان قد أمر بحاكمته عسكرياً بعد معركة بحرية فقد فيها ثلاثاً من سفنه دون أن يتزل بالطردات البريطانية التى هاجمته أية خسارة . ورأى فى الحكم الذى أصدرته المحكمة عقوبة غير كافية واعتبر تعيينه اللاحق كقائد لقاعدة مادالينا البحرية ، أمراً مخزياً . وكان موسولنى يعلق بشيء من الكراهية الواضحة بأن الرجل متزوج من إنجليزية .

وعندما أصبح موسولنى فى مادالينا استغزت مشاعره أكثر فأكثر عن طريق تذكيره بالإنجليز . فقد نقل إلى منزل تحيط به حديقة كبيرة ملأى بأشجار الصنوبر ، وهو يطل على البحر ، وكان البيت حسن الأثاث . وكان يستخدم حتى الليلة الماضية مطعماً لضباط زوارق الطوربيد . وقيل لموسولنى إن صاحب البيت لإنجليزى يدعى ويبر . اكتشف موسولنى وراء رغبته فى العزلة فى هذا البيت النافى حافزاً شريراً . وراح يتساءل . . . ترى لم اختار ويبر هذا المكان من العالم الملىء بالأماكن الجميلة لإقامته فى مثل هذه الجزيرة المنعزلة القائمة التى تعتبر أكثر الجزر الواقعة إلى الشمال من سردينيا وحشة ؟ لابد أن هناك سبباً ؟ لعله التجسس ؟ ربما !

وكانت مادالينا أشد وحشة فى هذه الأيام ، فقد أخليت من جميع سكانها المدنيين بعد غارة جوية عنيفة تعرضت لها ، تصور موسولنى بشيء من الإصرار الجنونى أنها لابد أن تكون ثمرة الخيانة والخديعة ، نظراً « لغموضها » . إذ أن العدو « كان يعرف بالدقة جميع الأهداف التى أغار عليها » . ولم يبق على ظهر الجزيرة إلا عدد من البحارة وبعض الصيادين وقوة من رجال الكارنبييرى ، ضوعف عددهم مؤخراً فزاد على المائة رجل .

وتركت وحشة الجزيرة أثراً فورياً فى معنويات موسولنى وخرج إلى شرفة المنزل فرأى منها عبر الضباب المستبد الذى ينتشر فى الأمسيات هياكل البواخر الكبيرة الغارقة فى الميناء ووراءها ، جبال جالورا المظلمة السوداء . ووجد البحر الذى يحيط به « معادياً ومنزلاً بالخطر » ، فدخل المنزل ، ولحظ موجيرى ما بدا عليه من تعجبهم وأحنى رأسه للأميرال مودعاً ، ثم مضى إلى غرفته مغلقاً الباب وراءه .

وظل موسوليني في الجزيرة ثلاثة أسابيع كانت من أشقى أيام حياته . وكان قد شكاً من أيامه في بونزا بأنها كانت طويلة ، تسودها الوحدة ، أما هنا فالأيام أطول .. والوحدة أشد قسوة وصرامة . وكان شهر أغسطس من ذلك العام شديد الحرارة بوجه خاص ، وتميز البحر بالهدوء والخلو من الريح . وكتب موسوليني فيما بعد يقول . . . « وكان كل شيء يبدو وقد سمرته الشمس في مكانه » . ولم يكن يبدي رغبة في مغادرة الدارة الباردة نوعاً ما ، فلا يغادرها إلا لما في جولة في غابة الصنوبر مصحوباً بعريف من الكاربينيري . وانقطع مرة ثانية عن العالم الخارجي ولم يتلق شيئاً سوى هدية هنلر . وهي أربعة وعشرون مجلداً من مؤلفات نيتشه ، التي شرع في قراءتها بعناية من أولها ، مكتشفاً أن قصائد الفيلسوف الأولى كانت « في منتهى الجمال » . وبدأ يلون يومياته ، حاشياً إياها « بملاحظات يومية ذات طابع فلسفي وسياسي وأدبي » . لكن أحداً لم ير هذه اليوميات سواء ، ولم يعثر عليها قط فيما بعد^(١) . وكان يقضى معظم أوقاته متطلعاً بشيء من الكآبة ، إلى البحر البعيد الآفاق ، وهو قابع في ظلال شرفته .

وجاء الجنرال بوليتو ذات يوم إلى الجزيرة ، وسأله موسوليني عما حدث بوعد بادوليو بأن يسمح له بالذهاب إلى دارته في روكاديل كاميناتي . فرد بوليتو بأن القرار اتخذ بأن ذهابه إلى هناك في منتهى الخطورة ، لا سيما أن محافظ فورلى أعرب عن شكه في قدرته على ضمان سلامته هناك .

ورد موسوليني متجهماً . . . يا له من سخف !
فرد بوليتو : لا إنه ليس بالسخف . إذ يبدو أن الفاشيين قد اختفوا .

(١) نشرت ترجمة ألمانية لمعدل موسوليني بعنوان « أفكار في مدالينا وبونزا في صحيفة سالزبرجر ناخرنختين الألمانية » . ويعتقد أنه كان تلك اليوميات التي كتبها . وذكرت الصحيفة أن ضابطاً من الحرس النازي سلمها دفترًا صغيراً تضمن ذلك المقال قبل بضعة أيام من استسلام ألمانيا . وحدثني العقيد سكورزيني أنه عند مآزار موسوليني بدعوة منه في صيف عام ١٩٤٤ ، طلب إليه موسوليني أن يأتيه من ألمانيا بيوميات كان الألمان قد أخذوها منه بعد إنقاذه من « معتقل » لصخرة الكبيرة » (جران ساسو) . وقد تمكن سكورزيني من إقناع مكتب المخابرات الألمانية بأن يسمحوا له بحمل اليوميات بعد أن يأخذوا صوراً فوتوجرافية لها . وهو يعتقد أن إحدى هذه الصور قد انتزعت من الملفات وبيعت إلى الصحيفة المذكورة .

وهناك دلائل على وجود رد فعل عنيف ضدهم وضدك في كل مكان . وقد هاجمت الجماهير صحيفة «البوبولو ديتاليا» في ميلان . وقد رأيت بنفسى تمثالا نصفياً لك على أرض أحد المراحض العامة في أنكونا .

— وماذا حل بالحرب ؟

— كل إنسان يتمنى أن تنتهى . وقد أصبحت الآن عبئاً على السكان المدنيين بقدر ما هى عبء على الذين يحاربون ولا سيما من الشيوخ والنساء والأطفال . ولعل هذا هو السبب في عنف المشاعر المعادية لك .

ولكن بالرغم من أن الإيطاليين كانوا يتلهفون حقاً على انتهاء الحرب ، إلا أن بادوليو وجد نفسه مضطراً إلى السير في طريق الهدنة بمنتهى الحذر . لكن سياسته لم تكن نلجحة . فقد أعلن ، وما زال يصصر على أن يعلن بأن الحكومة الجديدة ستظل مخلصه لحلفاء إيطاليا . ولكن الألمان كانوا يشكون صراحة في صدق قوله ، وظلوا يتدفقون بقواتهم عبر ممر برنر ، بينما غضب الحلفاء على إعلانه أنه سيواصل القتال فشدوا من تصميمهم على هزم إيطاليا وإخراجها من الحرب . وتقابل امبروزيو ووزير خارجية إيطاليا الجديد رافائيل جواريجيليا في السادس من آب عند محطة تافيسيو الواقعة على الحدود ، مع ريبنتروب وكايتل ، وقدموا إليهما احتجاجاً رسمياً على ما أصبح الآن في الواقع احتلالاً عسكرياً لإيطاليا . وقال امبروزيو لكايتهل « من حقنا أن نعطونا مقدماً بعض المعلومات عن تحركات القوات الألمانية » . لكن هذا الاعتراض لم يتعد الناحية الشكلية . فقد كان مندوبو الجانبين يدركون أن المحور قد انتهى . وكان كيسلرنج أحد الألمان القلائل ، بل لعله الألماني الوحيد الذى ظل يعتقد بأن بادوليو سيظل ثابتاً على وعده . ولم يخف ريبنتروب في هذا الاجتماع — وكان محاطاً بجماعة مرعبة من رجال الحرس النازى — عدم ثقته بحلفائه ، وراح يسأل جواريجيليا ، عن المدة التى انصرفت منذ شرعت الحكومة الجديدة في مفاوضات الحلفاء لعقد صلح منفرد . وتطلع جواريجيليا الذى تميز بالمكر والدهاء ، إلى ريبنتروب بشيء من البراءة التى أحست بالإساءة وقال بلهجة أهل نابولي القوية . . . « ولكننا حلفاءكم المخلصون » .

وبعد أقل من أسبوع كان الجنرال كاستيلانو في طريقه إلى لشبونة ليبلغ

السفير البريطاني فيها أن الحكومة الإيطالية على استعداد للاستسلام . وكان الجور في رومة مكهرباً منذ أيام طويلة . وكان الدبلوماسيون ينظرون إلى بعضهم نظرات العداء ، وكان الاضطراب في قصر شيجي (مقر وزارة الخارجية) باعثاً على الرعب ، إذ كان الموظفون والأذنة يهرعون من مكتب إلى آخر ، محاولين أن يعرفوا ما هو دأثر هناك . وقال الفييري . . . « وكانت البرقيات تتوالى من سفارتنا ملحفة بطلب التعليمات العاجلة . وكانت أجراس الهاتف تقرر باستمرار وإلحاح في جميع المكاتب » . بينما ظل الرعب ماثلاً من أن يقوم الألمان برد فعل وحشي ومفاجئ . قد يصل إلى حد إعلان الحرب . وسمع الجنرال كاستيلانو الموظفين ، يتحدثون المرة تلو المرة عن « ليلة جديدة كليلة عيد القديس بارثولوميو ^(١) » .

وفي الثالث من سبتمبر وبعد ثلاثة أسابيع من المفاوضات السرية المختلسة في خيمة عسكرية في كاسيبيل القريبة من سراقوسة في صقلية ، تم التوقيع على اتفاق الاستسلام . وكان بادوليو قد أكد في نفس اليوم للسفير الألماني في رومة ، أن إيطاليا ستواصل القتال إلى جانب « حليفها ألمانيا حتى النهاية » . ولم يعلن عن توقيع الهدنة للألمان وللعالم إلا في الساعة الثامنة من مساء الثامن من سبتمبر ، أي عندما هبطت قوات الحلفاء على البر الإيطالي عند ساليرنو .

ولم يعرف موسوليني بالطبع شيئاً عن المفاوضات التي أدت إلى إنهاء حلف القولاذا . وظل طيلة أيام شهر أغسطس الحارة ، يتطلع عبر البحر الهادئ ، المنبسط كالصف أمامه ، مما أعاد إلى ذاكرته صور البحيرة الألبية ، مرتقباً بكثير من الأسى ، ورود الأنباء من إيطاليا . وكان يجلس على شرفة داره وير كعادته مساء السادس والعشرين من أغسطس عندما حلقت طائرة ألمانية على ارتفاع منخفض فوق رأسه . حتى إنه رأى وجه الطيار تماماً . وجاءه أحد ضباط الكارabinieri في اليوم التالي ، ليبلغه أنه سينقل من الجزيرة في الصباح التالي . وكان الجنرال باسو ، القائد العسكري في سردينيا ، قد نصح الحكومة بأن جزيرة مادالينا لم تعد مكاناً أميناً للشخصية الرفيعة « المبعدة إليها » . فقد كانت الغواصات الألمانية

(١) إشارة إلى مذبح ليلة عيد القديس بارثولوميو في فرنسا في عام ١٥٧٢ ، عند ما قام الكاثوليك بأمر من الملكة كاترين دي ميديشي أم الملك شارل لتاسع بذبح البروتستانت (الهوجونوت) عن بكرة أبيهم بعد مكيده مدبرة .

« المعرب »

تبحر دائماً على مقربة من الجزيرة ، ولا بد أن محاولة إنقاذه باتت وشيكة الوقوع .
ونقل موسولينى فى الساعات المبكرة من صباح الثامن والعشرين من أغسطس
من دارة ويير إلى الميناء ، حيث كانت تقف طائرة بحرية من طائرات الصليب
الأحمر منذ بضع ساعات . واستقل موسولينى الطائرة ومعه الملازم فايولا والقيب
أنتيشى ، ثم طارت بهم مدة ساعة ونصف الساعة لتهبط على سطح بحيرة براسيانو .
وعند فيتا دى فالى ، قابله أحد مفتشى البوليس ويدعى جويل ، إذ كان قد عين
كبيراً لسجانيه خلفاً لبوليتو الذى كان قد أصيب فى حادث سيارة ، ومعه ضابط
من الكارنبييرى برتبة « رائد » . ونقل هناك إلى سيارة إسعاف ، راحت تدرع
الأرض به باتجاه رومة .

على الصخرة العظيمة . . .

من ٢٨ أغسطس عام ١٩٤٣ حتى ١٢ سبتمبر ١٩٤٣

«آء . إله أفس سجن في العالم»

١

عندما وصلت السيارة إلى مدخل رومه ، اتجهت شمالا باتجاه شارع فلامينيا ، حيث عبرت الجسر الحديدي فوق نهر التير ، ثم اتجهت نحو طريق ساين . وتستدير الطريق بانحناء قاسية عند ريتي إلى اليمين عبر الوادي الذي يفصل جبال ساين عن جبال ابروز ، وأدرك موسوليني بشيء من الارتياح عند ما رأى سيارة الإسعاف تصعد طريق اكويلو نحو الصخرة العظيمة «جران ساسوديتاليا» ، التي تعتبر أعلى قمة في تلك المنطقة ، أنهم يأخذونه إلى الجزء الذي يحبه من إيطاليا كل الحب .

وقد كتب في «قصة عام» يقول . . .

«ولا يستطيع الإنسان أن ينسى بسهولة صورة ذلك الجبل الوعر المعبّر المرتفع نحواً من عشرة آلاف قدم في وسط إيطاليا . وهناك صورة لا يمكن للإنسان وصفها تحيط بسكان جبال الابروز وجو بلادهم ، وتستأثر بفؤاد الإنسان . وفي بداية شهر سبتمبر ، تأخذ قطعان الأغنام التي جاءت في الربيع من السهل ، لترعى في الهضبة المرتفعة ، تستعد للعودة ، هابطة من الأراضي المرتفعة بصورة بطيئة . وكثيراً ما يظهر الرعاة على صهوات جيادهم ، ثم يختفون وراء تعاريج الجبل ، ليعودوا فيظهروا في الأفق البعيد وكأنهم شخصيات جاءت من عصر آخر» .

وعلى بعد خمسة عشر ميلاً من اكويلو صعوداً مع الطريق الملتوية المؤدية إلى الصخرة العظيمة (جران ساسو) ، تنهى هذه الطريق عند مرتفع عمودي ، يعلو

مسافة ثلاثة آلاف قدم أخرى ليصل إلى الهضبة التي يطلق عليها اسم « المعسكر الإمبراطوري ». وتمتد هذه الهضبة التي ترتفع مسافة (٦٥٠٠) قدم فوق سطح البحر ، مسافة عشرة أميال تحت قمة جبل كورزو ، أعلى قمة في جبال الأبين . وهكذا تقرر أن ينقل موسوليني إلى فندق منعزل يقع على هذه الهضبة العالية .

وقبل وصوله بأيام ، كانت الأنباء قد انتشرت بأن « شخصية مهمة للغاية ستزور الفندق عما قريب » ، وهو فندق اليرجو - ريفوجيو ، وعندما وصل إليه في الثامن والعشرين من أغسطس ، الجندي فرانسيكو جريفيتو . الذي عرف بأنه كان في خدمة موسوليني قبل اعتقاله . لم يترك وصوله أثراً للشك في هوية ذلك الزائر المنتظر . ولما كان الفندق لا يزال حاشداً بالنزلاء ، فقد أعد نزل فيليتا الواقع في أسفل المرتفع لاستقبال موسوليني إلى أن يكون الفندق قد أخلى من نزلائه .

وكانت فلافيا ايوراتو ، مديرة الفندق ، والتي استدعيت إلى النزل الأسفل للإشراف على الإعدادات لاستقبال موسوليني ، موجودة في ساحة القرية ، عندما وصلت إليها سيارة الإسعاف التابعة للصليب الأحمر . وقد ذكرت فيما بعد « أن رجلاً بديناً » خرج من السيارة ، وكان يرتدى بدلة داكنة ومعطفاً ، وقبعة سوداء ، هو موسوليني . ولم يعد فيه ما يشبه الديكتاتور الوثائق من نفسه ، الذي تبدو عليه دلائل الرفاه والغذاء الجيد . وكان يتطلع بقلق إلى كل ما حوله . وكأنه يخشى الوقوع في « مصيدة » ، يدور بعينيه البارزتين من محجريهما في كل مكان ، وقد بان الشحوب على وجهه .

وكانت صافرات الإنذار بالغاارة الجوية قد أطلقت في الطريق الصاعد من سيتادوكالي . وكتب موسوليني فيما بعد بشيء من الازدراء الواضح . . . « وكنا نرى جماعات الجنود ، يفرون بقمصانهم (التحتانية) في كل اتجاه ، يصرخون فزعين . فيحلبو المديون حذوهم ، وهذا ما فعله الضباط أيضاً » . لكن أحد الضباط لاحظ أيضاً بأن موسوليني لم يكن يقل لهفة عن الجميع في الرغبة في الوصول إلى حفرة يختبئ فيها .

وكانت أيام الوحدة التي صرمها في بونزا ومادالينا ، وصحته المتدهورة ، قد امتصت كل ما لديه من روح ومعنوية ، واستنفدت من بدنه كل قوة . وبدا الآن

لكل من رآه رجلاً مهزوماً ومريضاً في وقت واحد . ولم تكن شجاعته موضع الشك في يوم ما فيما مضى ، ولم تكن فيما تلا من أيام ، لكنه في تلك اللحظات بدا خائفاً وجلاً .

وجلس موسوليني في غرفته التي تقع في الطبقة الثانية من المنزل . ساكناً هادئاً ، وعيناه تنطلقان إلى عل ، تجوب الجبال السامقة الشاهقة . وسبح له الآن لأول مرة بالاسماع إلى الإذاعة ، ولكنه كما يبدو لم يرحب بهذا الامتياز الجديد . وقد بدا في منهي البأس ، في عيون سجانیه فيولا وجوبلي ، حتى لأنهما كانا يسارعان بعد كل وجبة إلى رفع السكين والأشواك من أمامه مخافة استخدامها في إلحاق الأذى بنفسه .

ونقل في مستهل سبتمبر إلى محطة « المرتفع » استعداداً للمرحلة الأخيرة من رحلته . واحتج على نقله من جديد ، ولكن احتجاجه ذهب أدراج الرياح . وراح يسأل ناظر المحطة وقد بدا عصبي المزاج . . . ترى هل القطار الكهربائي مأمون الجانب ؟ ، وسرعان ما أضاف وكأنه يصحيح نفسه ، وقد عاد إليه شيء من كبريائه . . . « لا بالنسبة إلى ، فلعلك تعرف أن حياتي قد انتهت ، بل بالنسبة إلى مرافقي » .

وأخذ يعزى نفسه بالفكرة ، بأن هذا المصعد ، قد أقيم كما أقيم الفندق نفسه ، في عهد الفاشية الذي استطاع عشرين عاماً . . . وسأل عن ارتفاع الفندق فرد أحدهم بأنه ٢١١٢ متراً عن المكان الذي كانوا فيه وكان تعليقه متوقفاً ، ومؤثراً ، بما فيه من بساطة الطفولة . . . « آه ، إنه أعلى سجن في العالم » .

إذا تطلع الإنسان إلى فندق البرجو - ريفوجيو ، من سطح محطة المرتفع . بدا أشبه ما يكون بالسجن حقاً . فقد كانت جدرانها المتعرجة الملتوية ، ونوافذها الصغيرة ، أشبه ما تكون بجدران السجون ونوافذها . ولكن حارسه جوبلي تصور

أن موسوليني قد سر بمراى الفندق ، وكأنه قد رأى فى منظره المهيب القاتم ، نهاية صالحة للمأساة إبعاده . لكن هذا السرور ما لبث أن زايله عندما أصبح فى داخل الفندق . وقادوه إلى جناح فى الطبقة الأرضية كان فاخر الأثاث ، وفيه غرفة حتى لخدمه جريفيشو . وسرعان ما ركع على أرض غرفة الجلوس ، وأخذ يطوى ما فيها من سجاد وهو يقول لمجموعة من جنود الكارينييرى ، وموظفى الفندق ، الذين أرادوا أن يعاملوه باحترام يتعارض مع هذا المنظر الذى وضع نفسه فيه . . . « إذا كنت مسجوناً ، فيجب أن تعاملنى كسجين . أما إذا لم أكن ، فعليكم أن تأخذونى إلى منزلى فى روكاديل كاميناتى » .

لكنه كان يعامل كنزير لا كسجين . وتقول مديرة الفندق إن « أيامه أصبحت كأي أيام يقضيها مواطن وديع ، يقضى عطلته فى المكان . . . وكان يتناول وجبات طعامه ، تلبية لطلبه فى غرفة جلوسه . وكان يعيش على حمية قاسية بسبب مرضه ، فلا يتناول إلا الأرز والبيض والبصل المسلوق وبعض اللحم والحليب وكثيراً من الفاكهة . وكان يحب العنب كثيراً إذ كان يأكل سبعة أرطال منها فى اليوم (أى حوالى ثلاثة كيلوات) . وكان يمضى فى كل يوم بعد الظهيرة ، فى مسيرة يرافقه فيها الرقيب انتيشى ، فلذا ما عاد ، مضى لىليه جوبلى فى غرفة جلوسه ، ليحدثه . وقد ذكر جوبلى « أن أحاديثه مع رجل يحمل مثل هذا العقل الكبير ، كانت أسعد ساعات حياته » .

وكان يتناول عشاءه فى الساعة مساء ، ثم يهبط إلى صالة طعام الفندق ، حيث يلعب الورق مع انتيشى وجوبلى وجالولا . وكان يسمح له بالجلوس إلى « الراديو » قبل المضى إلى فراشه . وكان يستمع إلى نشرات الأخبار الإيطالية والألمانية والإنجليزية ، وعندما كان المذيع يذكر اسمه ، « طريراً إياه حيناً ومتمناً إياه أحياناً أخرى ، كان الحاضرون يتطلعون إليه ، ليروا رد فعله ، ولكن كان من العسير تبين علامته الرضى أو الألم وراء هذا القناع الصارم من الجمود الذى كان يضعه على أساريه .

وكان يصفى دون أى تأثير واضح إلى أنباء ما يسميه « بالحرب الصورية » ، وهى حرب تزدد الخطورة والعجيجة فيها يوماً بعد آخر . واستمع إلى أنباء الغارات

الجوية المتزايدة والمفرقة على المدن الإيطالية ، وما يقع فيها من عديد الضحايا ، وإلى أنباء الجيوش المتراجعة ، وسرعة احتلال صقلية ، ووجود مئات الألوف من اللاجئين الذين يتضورون جوعاً ولا يجدون مأوى ، وتدمير المحاصيل ، ونقص الخنطة ، وتوقف شحن الفحم فجأة من ألمانيا ، وإلى أنباء الجيوش الإيطالية الحاضرة في كرواتيا وإيونان وفرنسا . وهي تلقى بسلاحها وتسلمه إلى الألمان ، وأنباء الاستسلام والهدنة ، وتدفق القوات الألمانية من الشمال ، وقرار الميث وحكومة بادوليو من رومة إلى بسكارا ومنها إلى برنديزي . أجل كان يصغى إلى كل هذه الأنباء ، بنفس التعبير من الجمود الخالي من كل تأثير وعاطفة . وبدا وكأن سبر التاريخ كله قد تقرر في عينه ، أو كأنه لا يكثر بالأحداث المعاصرة : إذ لا معنى لها ، إذا لم يكن هو الوجه لها .

وراح يسأل جويلي ذات يوم ... « ترى ما الحكم الذي سيصدره التاريخ على ؟ » أجل كان هذا هو السؤال الوحيد الذي يهيم . وبدا وكأنه لا يكثر بأى شيء سوى ذلك . وكانت هذه السلبية في موقفه من الأحداث قد باتت عادة مألوفة لديه . ولم يظهر أكثرأ بزيادة تدابير الأمن المتخذة في المكان ولا بالحرس المسلح الذي بات الآن يقف على باب جناحه ، ولا بالجنود يحملون الأسحة الرشاشة وقد انتشروا على الشرفة . وذكرت مديرة الفندق ... أنه لم يبد « شعوراً بالحزن أو بالذلة » ... ولكنه كان أحياناً يبدو وهو يراهم يواقبونه أشد مراقبة ، ساهم النظرات شارد الفكر ... ولم يعد يقضى وقته في القراءة أو الكتابة ... وكثيراً ما شوهد ، وهو يقف إلى النافذة ، متطعماً إلى منظر « الصخرة العظيمة » الرائع ، بمنظاره المقرب ، أو جالساً إلى سور خفيض في ساحة الفندق ، يتفرس بشيء من شروذ الدهن ، في المسافات البعيدة أمامه ، ممثلاً بصورة نابوليون التقليدية المعروفة في جزيرة سانت هيلانة .

وكثيراً ما خرج على طوره ، فجفا اللطف والدمائة ، وأكن سلوكه كان يحمل دائماً شيئاً من حنان الأبوة ، مع الشعور بالحاجة إلى مقاراة النكبة التي يعيشها بنكبات غيره . فعندما شكت الوصيصة ليزا ميسكوردى ، التي كانت تتولى غسيل ثيابه أيضاً من ألم في معصمها ، راح يبحث لها على الفور عن بعض « الدهون »

وراح يقول لها بمنتهى الحنان . . . « كرفى شجاعة يا طفلى ، واذكرى أنى ما زلت أعانى الآلام منذ ثمانية عشر ربيعاً » .

وسمع ذات يوم أحد الجنود يحاور راعياً جاء إلى الفندق يطالب شراء زجاجة من النبيذ . وكان الجندي يقول ، إنه لا يسمح لأحد من المدنيين بالدخول الفندق ، ولكن الراعى يرفض الانصراف قبل أن يحصل على بغيته . وطلب موسولبنى من الجندي أن يسمح للراعى بالدخول ، وأخذته إلى إحدى الموائد حيث جلس ، دون أن يكثر لحظة واحدة ، بأنه يجد نفسه فجأة فى رفقة زعيمه السابق .

وراح موسولبنى يسأله عن الإصلاحات التى حققها الفاشية فى رعاية الماشية . ولم يستطع الراعى تذكر أى إصلاح ، وقال رأيه بصراحة ، وفجأة مال الراعى إلى الأمام ، ووضع يده ، بود على كتف موسولبنى مخاطباً إياه ، بطريقة تخلو من جميع الشكليات . . . « إنك كنت على خطأ ، فقد فرضت علينا ضرائب ثقيلة ، وكنت تسمح لم بأن يبتزوا منا الكثير من الصوف والحب ، لمؤسسات الدولة » .

وراح موسولبنى يغير الموضوع فسأله عن الحرب ، وما رأيه فيها وقد انتهت الآن هذه النهاية السيئة .

ورد الراعى ، بشيء من التعالم الواعى الذى يتميز به أمثاله . . . « انتشر اللصوص فى كل مكان . وكان على الخبز أن يسمن الكثيرين قبل أن يصل إلى أفواه الجنود المساكين » .

وأخيراً انتهى الراعى من احتساء نبيذه ، فهب من مكانه وربت على كتف موسولبنى وصافحه وهو يقول . . . وكأنه يعرفه منذ أمد طويل ، دون أية كلفة . . . « اعن بنفسك يا موسولبنى . وشكراً لك على النبيذ » .

وخشى المتفرجون أن يغضب موسولبنى من معاملة الراعى . ولكن هذه المقابلة الغربية أدخلت فى نفسه الكثير من المرح . وعندما انتهى من عشائه فى تلك الليلة ونزل إلى القاعة ليلعب الورق كمادته ، راح يسأل بحماس عن موعد هبوط الثلج . فرد عليه بعضهم بأن الثلج يهبط أحياناً فى مستهل شهر أكتوبر . وقال وهو يبدو مرحاً . . . « عسى أن ينزل الثلج هذا العام مبكراً . فكم أود الترحلق من جديد » .

لكن هذا المزاح المرح لم يعمر طويلاً . وبعد نحو من الساعة ، نقلت الإذاعة

والرباط ليربط لها معصمها .

شروط الهدنة التي وقعها بادوليو مع الحلفاء . وكان المذيع من محطة برلين ، ينقل إذاعته عن نداء أذاعته محطة الجزائر .

وسمع موسوليني المذيع يقول . . . « أذيع رسمياً ، أن أحد شروط الهدنة ، ينص على تسليم موسوليني إلى الحلفاء » .

وفي الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي ، سلم خادمه جريفتو إلى الملائم فيولا ، رسالة طلب إليه موسوليني نقلها إليه ، وهذا نصها . . .

« وجدت فيك في غضون الأيام القليلة التي عشناها معاً ، صديقاً حقاً ، ولا ريب في أنك كجندى تدرك تمام الإدراك ، ما يعنيه وقوعي في يد العدو . ولقد فهمت من إذاعة برلين ، أن أحد شروط الهدنة يتحدث عن تسليمي حياً إلى الإنجليز . وبالطبع لن أرضى على الإطلاق بهذا الإذلال ، ولذا أرجو أن تسلمني مسدسك » .

وقفز فيولا من فراشه مسرعاً إلى غرفة موسوليني ، حيث وجد أسيره ، جالساً إلى سريره « بمسك بشفرة جيليت حادة ، وكأنه يريد أن يقطع بها شرايين يده » . وروى موسوليني فيما بعد أن فيولا بعد أن رفع من الغرفة كل ما فيها من أدوات معدنية وآلات حادة ، بما فيها شفرات الحلالة ، عاد يكرر على مسامعه ما سبق له أن وعده به . . . « أخذت أسيراً في طريق ، عندما كنت مصاباً بجراح بالغة . وقد شهدت فظاعة البريطانيين في معاملة الإيطاليين . وثق أنني لن أسلم إيطالياً إلى الإنجليز » . وسرعان ما تفجر الدمع من عينيه . لكن ما أبكاه ، لم يكن كما اعترف لموسوليني فيما بعد ، خوفاً من أن يصدر الأمر إليه بتسليم موسوليني إلى الإنجليز ، وإنما الذي أبكاه هو الخوف الملح من أن لا يمكنه الألمان من أن يفعل ذلك ، إذ أن التعليقات التي لديه في مثل هذه الحالة قاطعة وهي أن « لا يسمح للألمان بأخذ موسوليني وهو على قيد الحياة » .

الإنقاذ من الصخرة العظيمة

١٢ سبتمبر ١٩٤٣

« كنت أعرف أن صديق أدولف هتلر لن يتخل عنى » .

١

كان أوتو سكورزينى النقيب الشاب فى وحدة « فريدنيتال » الخاصة من وحدات الحرس النازى ، يجلس بعد ظهر السادس والعشرين من يوليو ، فى فندق لايدن فى برلين يحتسى القهوة مع صديق قديم له من فيينا . وكان يحس فى قرارة نفسه ، بشعور خفى وغامض من القلق دون أن يدرك لهذا الشعور سبباً .

وقرر أن يتصل هاتفياً بمكتبه ، وكم كانت سعادته ، عندما نفذ ذعلاً قراره . فقد كان سكرتيره يبحث عنه منذ نحو من ساعتين ، إذ أنهم يريدونه على عجل فى مقر قيادة القوهرمر ، وستكون طائرة فى انتظاره فى مطار تمبلهوف فى الساعة الخامسة مساء .

وقال سكورزينى . . . ليخص رادل فوراً إلى غرفتى ، وليحزم بدلة عسكرية من ملابسى وبعض الملابس الداخلية فى حقيبة ، ثم ليخص فوراً إلى المطار . وكان مساعده كارل رادل فى الانتظار هناك عندما وصل سكورزينى فسأله عن القضية ولكن رادل لم يكن يعرف شيئاً أيضاً .

وبما كانا يسيران على أرض المطار هبطت طائرة من طراز يونكرز (٥٢) على المدرج ، ولم تمض دقائق معدودات ، حتى كان سكورزينى يطير فوق برلين وقد حمل قلسحاً من « البراندلى » فى يده . وبعد ثلاث ساعات هبطت الطائرة فى مطار يقوم على طرف بحيرة قرب أوتزين فى بروسيا الشرقية . وكانت سيارة « مرسيدس » فى الانتظار ، وسرعان ما حملته عبر غابة قطعها عندما جن الدجى .

ونخفت السيارة من سيرها عند حاجز عسكري ، وفحص المراقبون أوراق سكورزيني . وارتفع الحاجز ، وسمح للسيارة بالمرور عبر أجمة من أشجار التامول ، حتى وصلت إلى حاجز آخر ، حيث فحصت أوراقه من جديد . ودخلت السيارة الآن معسكراً تحيط به الأسلاك الشائكة ، وتقوم على طرفي طرقاته أكواخ وأعشاش مغطاة بالأعشاب وشبكات التعمية .

ومضوا به إلى بناية من الخشب . ثم دخلوا به إلى غرفة خارجية حسنة الأثاث . وقد غطيت أرضها بالسجاد . وكان هناك خمسة من الضباط الآخرين ، فقدمه نقيب من الحرس النازي إلى كل واحد منهم . وكان سكورزيني متوتر الأعصاب فلم يسمع أسماءهم جيداً ، فلما مضى النقيب راح يشعل سيجارته . ولم تنص بضغ لحظات ، حتى عاد النقيب يقول . . . « سأضئ بكم إلى الفوهرر يا سادة ، وسأقدمكم إليه ، على أن يتحدث كل واحد منكم عن تاريخ حياته في الجيش . وقد يوجه الفوهرر إليكم بعض الأسئلة . . . أرجو أن تلحقوا بي من هذا الطريق » . وأطفاً سكورزيني سيجارته ، ثم بدأ يرتجف ، وهو يسير خلف الآخرين ، عبر غرفة خارجية أخرى أكبر من الأولى ، إلى أن دخلوا غرفة كانت فيها منضدة كبيرة انتشرت فوقها الحرائط . وبالرغم من ارتباكهم فقد التقطت عيناه بعض التفاصيل الواضحة إذ رأى صورة من رسم « دور » داخل إطار من الفضة ، وستائر فاتحة اللون على النوافذ ، وشفافاً من أقلام الرصاص الملونة ، تقف متوازية على مائدة تستعمل للكتابة

وفتح باب دلف منه الفوهرر . . . وأدى الضباط التحية العسكرية ، فرد الفوهرر عليهم بالتحية النازية ، ثم تقدم ببطء منهم . كان يرتدى قميصاً أبيض ورابطة عنق سوداء ، ووسام الصليب الحليدي من الطبقة الأولى ، يتدل على سترة بزة الميدان العسكرية التي يرتديها . وقدم إليه الضباط واحداً بعد آخر . فراح يوجه إلى كل منهم سؤالاً ينتقل منه إلى الضابط الذي يليه وبعد أن تحدث إلى سكورزيني ، الذي وقف في آخر الخط بوصفه أذناً رتبة ، عاد الفوهرر خطوة إلى الوراء ، ثم قال بصورة مفاجئة . . . « ومن منكم يعرف إيطاليا ؟ » وكان سكورزيني الوحيد الذي أجاب ، فقد ذكر أنه كان في نابولي مرتين .

- وما رأيكم فى إيطاليا ؟

وتردد الضباط ، قبل أن يردوا الردود التقليدية التى قد يثيرها مثل هذا السؤال .
وارتفع صوت سكورزى بين الهمهمة من الأصوات المرتجفة التى تتحدث عن
المحور والفاشية ، يقول ، بلهجة قاطعة محدودة . . . وفيها بعض المسرحية . . .
إننى نمسوى يا زعيمى .

وتطلع هتلر إليه ، بينما صمتت الأصوات الأخرى . ثم قال بعد فترة
طويلة . . . فى وسع السادة الآخرين أن يذهبوا . أما أنت يا نقيب سكورزى ،
فأريدك أن تبقى .

وعندما أصبحا وحيدين ، بدأ الفوهرر يتحدث بتلك الحيوية المتزايدة التى
تصل حدود الحماسة ، نتيجة استماعه إلى صوته .

وشرح الفوهرر يتحدث . . . « لدى مهمة خطيرة لك . فقد تعرض موسولنى ،
صديقى وزميلنا المخلص فى السلاح إلى خيانة الملك بالأمس ، واعتقله مواطنوه .
ولن أتخلى عن أعظم من أنجته إيطاليا من أبنائها فى ساعة محنته . فالدوتشى يمثل لى
عظمة رومة العريقة مجسدة . وستخلى عنا إيطاليا فى ظل حكومتها الجديدة ،
ولكننى سأحافظ على عهدى لحليفنا القديم وصديقنا العزيز . ولما يجب إنقاذه
على الفور » .

وذكر سكورزى فيما بعد ، أن لهجة هتلر ، كانت تنبض بالحرارة والعطف
الصادق ، مما أثار عواطفه وأهاجها . وعندما شرع الفوهرر يصدر توجيهاته إليه ،
وجد فى الرجل صدقاً فى عباراته وطريقته فى الحديث ، بحيث لم يشك لحظة واحدة فى
أنه سينجح فى مهمته .

وقال سكورزى بمنتهى الجدية والحماسة كجدية هتلر وحماسه . . . لقد
فهمت تماماً يا فوهررى . وسأعمل كل ما فى وسعى .

ولم تنتقل عينا الفوهرر لحظة واحدة عن وجهه طيلة المواجهة . وعندما أوشك
أن يغادر الغرفة ، استدار عند الباب ليؤدى التحية ، وكان هتلر لا يزال ينظر
إليه . وأحس سكورزى بالدوار . وانقضى وقت طويل قبل أن يجمع شتات
أفكاره من جديد .

ولم يكن قد أفاق من تأثير هتلر المغناطيسى ، عندما استدعى إلى مكتب آخر لبحث فى التفاصيل مع الجنرال ستودينيت وهملر . وكان الأخير ثائر الأعصاب إلى درجة قصوى . فقد كان على ثقة من أن خيانة حكومة بادوليو ستظهر عما قريب فالممثلون الإيطاليون وصلوا إلى البرتغال ، يحاولون التفاوض على عقد صلح منفرد . وسرعان ما مرد أسماء عدد من الإيطاليين أيديا وجهة نظره . وعندما تناول سكورزى قلمه ليبدون هذه الأسماء التى لم يكن قد سمع بمعظمها من قبل ، استدار إليه هملر وقال غاضباً ... « لا ريب فى أنك جنت حتى إنك تدون الأسماء على الورق . هذه أمور فى منتهى السرية . وعليك أن تسمى الأسماء فى ذاكرتك » . فلا يعرف بخطط القوهر حتى الماريشال كيسلرنج القائد العام فى إيطاليا وحتى السفير الألماني فيها .

وعاد هملر فاستدار إليه غاضباً عندما رآه يشعل سيجارته ، وقال وهو يكاد ينفذ بناظره عبر عدستى نظارته الكثيفتين ... « هذه الحشائش الملعونة . ألا تستطيع أن تفعل شيئاً دون أن تدخن ؟ فى وسعى أن أرى أنك لست طراز الرجل الذى نحتاج إليه فى هذه المهمة » .

أما الجنرال ستودينيت فكان أكثر وداً . وعندما مضى هملر ، راحا يعدان معاً الخطوة . وتقرر أن يطير سكورزى إلى رومة ، كمرافق لستودينيت فى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى . وكان على نحو من خمسين رجلا من وحدة سكورزى أن يسيروا فى الوقت نفسه من برلين إلى جنوب فرنسا ، ومن هناك إلى رومة لينضموا إلى فرقة المظليين الأولى التى تقرر إرسالها إلى إيطاليا أيضاً .

وكانت الساعة قد بلغت منتصف الليل . وقضى سكورزى الساعات القليلة الباقية يعد قوائم المعدات والمتفجرات والأسلحة ، وأجهزة الإرسال ، والمواد الطبية ، وملابس التنكر المدنية وبينها فلتنسوات الكهنة والشعر الأسود المصبوغ ، ويختار الضباط الذين سيرافقونه ، متحدثاً بالهاتف إلى برلين . وموجهاً الرسائل إلى الآلة الطابعة اللاسلكية . (تليبرينتر) . وحاول بعد ذلك أن ينام ، فلم يغمض له جفن .

وراح فى الساعة السادسة صباحاً يعد وصيته .

وفى مساء ذلك اليوم ، كان يرتدى بزة ضابط فى فيلق المظليين ويتناول العشاء فى دارة الماريشال كيسلرنج فى فراسكاتى . واقتصر الحديث على اعتقال الدوتشى .

وذكر أحد الضباط ، أنه سأل ضابطاً إيطالياً كبيراً إن كان يعرف مكان اعتقال الدوتشي فرد الإيطالي بأنه لا يعرف ، وأن أيّاً من الجفرالات لا يعرف مكانه أيضاً . وقال سكورزيني ، وهو يأمل في استفزاز أحد الضباط ، فلعله بفشى سرّاً ... « أنا أشك في صحة هذا القول » .

ورد كيسلرنج بسرعة ، وقد أزعجه هذا المساس بشرف ضباط محترفين كانوا زملاءه وحلفاءه ... « لا ، أنا أصدقه تماماً . وليس لدى ما يدعوني إلى الشك في كلمة شرف تصدر عن ضابط إيطاليا ، وقد يكون من الخير ، يا نقيب أن تحمل نفس الشعور » .

وقال كيسلرنج إنه سأل ولي العهد الأمير أومبرتو عن مكان موسوليني فرد الأمير بأنه لا يعرف . وكل ما يعرفه أن الدوتشي قد اختفى .

وسرعان ما اكتشف سكورزيني أن هناك شائعات كثيرة بالطبع . وكان الشمال تحت حراسة قوية . وقيل عنه أيضاً إنه انتحر ، وهناك من قال إنه فر ليقاتل مع ذوى القمصان السوداء في الجبهة . ووجد هناك من يقول ، إنه نقل بالطائرة إلى إسبانيا . وكانت كل شائعة تناقض سابقتها ، وظل سكورزيني أياماً لا يعرف الحقيقة ، إلى أن بدأ يشك في قدرته على اكتشاف وجوده . واستشير المنجمون في برلين عن مكان وجود الدوتشي ، كما صدرت التعليمات إلى عملاء المخابرات الألمانية في رومة ، للبحث عنه ، بكل طريقة ممكنة . وبزغ بصيص من الأمل ، عندما تلقى الملاحق البوليسي في السفارة الألمانية تقريراً من ضابط في الكاربنيري ، يقول إن موسوليني نقل من قصر سافوي في عربة إسعاف وإنه كان في الخامس والعشرين من يوليو في إحدى ثكنات الكاربنيري . ولكن أياماً كثيرة كانت قد انقضت على ذلك التاريخ ، وكان الوقت الآن في شهر أغسطس ، واكتشف سكورزيني أن موسوليني قد فارق تلك الثكنة .

وتلقى سكورزيني أخيراً ، وفي مطعم في رومة ، أول دليل حقيقي يرشده إلى ضالته . فقد أبلغه أحد زبائن المطعم ، وهو تاجر يتردد كثيراً على تراسينا الواقعة على خليج بجاييتا ، قصة طريقة . فلقد كان لخدمة رجل يعرفه هناك ، حبيب يعمل في الكاربنيري ، في جزيرة بونزا . وكان هذا الحبيب يكتب أحياناً لعشيقته

إذا طال غيابه عنها في الجزيرة . وقد ذكر في إحدى رسائله إليها ، أن هناك « شخصية مهمة سجيئة » في الجزيرة .

وسرعان ما أيد ضابط بحري إيطالي أن السجين هو موسوليني . ولكن موسوليني كان قد نقل في هذا الوقت من الجزيرة . ومع ذلك فلم تمض بضعة أيام حتى كان سكورزيني قد اكتشف الخبأ الجديد . فقد روى ضابط ارتباط ألماني مع الأسطول الإيطالي في سردينيا ، في أحد تقاريره ، نبأ عن وجود سجين غامض في جزيرة مادالينا . وقرر سكورزيني أن يمضي إلى الجزيرة على الفور مستنصباً معه أحد ضباطه وهو الملازم وارجر الذي يتحدث الإيطالية بطلاقة . وصدر الأمر إلى وارجر ، بأن يرتاد حانات الساحل ، متكرراً في زى بحار ألماني مفرط في السكر ، فإذا ما ذكر اسم الدوتشي أمامه . فعليه أن يقول إن الدوتشي قد مات ، وإذا ما خالفه أحدهم الرأي ، فإن عليه أن يراهنه .

وذكر يستاني يبيع منتجاته من الخضار والفاكهة ذات مساء ، اسم موسوليني ، ثم قبل الرهان ، ثم أخذ وارجر معه ليقم الدليل على أنه كسب الرهان إلى منزل ملاصق لدارة ويبر ، وأشار بشيء من الرضى إلى صورة إنسان وحيد يجلس على الشرفة . لكن القيادة الألمانية لم تقتنع بأن الرجل الذي رآه وارجر ، ليس إلا موسوليني ، إلا بعد أن قام سكورزيني بزيارة أخرى إلى مقر قيادة القوهر . وكان الأميرال كاناريس قد أبلغ القيادة أن الدوتشي سجين في جزيرة صغيرة قريبة من جزيرة إلبا ، وكانت الأوامر قد صدرت إلى المظليين بالهجوم على الجزيرة ، عندما جاء سكورزيني يقنع هتلر بأن السجين موجود في جزيرة تبعد نحواً من مائة ميل إلى الجنوب .

وقال هتلر ، وقد وقف فجأة ليصافح سكورزيني عندما انتهى من حديثه . . . « أنا أصدقك يا نقيب سكورزيني . فأنت على حق ، وسأسحب أمرى بالهجوم على الجزيرة . أليدك خطة بعملية مماثلة على مادالينا ؟ إذا كانت لديك خطة ، فأرجو أن تبلغنا إياها » .

وأعد سكورزيني خطة ، سرعان ما قبلت على الفور . وقال هتلر وهو يصرفه من حضرته . . . « ستنجح يا سكورزيني » . وأحسن

هذا من جديد بما في ثقة الفوهرر من قوة مغناطيسية .

ولم يمض أسبوع حتى كانت خطة العملية بكل دقائقها وتفصيلها قد وضعت ، وبينها استخدام عمارة من زوارق الطوربيد وعدد من القطع البحرية الصغيرة الأخرى ، وسرية من المتطوعين من لواء الحرس النازي في كورسيكا ، ووحدة سكورزني الخاصة . وتقرر أن تبدأ العملية فجر اليوم السابع والعشرين من أغسطس . ولكن في صبيحة اليوم الذي سبق الموعد المقرر ، وبينما كانت القوات الألمانية تستعد للإبحار فعلا ، نقل موسوليني بالطائرة إلى البر الإيطالي ، وبدأت عملية البحث من جديد . لكن البحث هذه المرة عن الخبأ الجديد ، كان أقل صعوبة من المرتين السابقتين . فقد شوهدت طائرة الصليب الأحمر البحرية وهي تهبط عند بحيرة براسيانو ، كما تلقى سكورزني بعد بضعة أيام ، رسالة ملتقطة بالرموز ، كانت مرسلة إلى وزارة الداخلية وهذا نصها . . « تمت إجراءات الأمن حول الصخرة العظيمة (جران ساسو) » . وقد حملت الرسالة توقيع جوبلى .

وبدأ الإعداد لعملية الإنقاذ من جديد . وأخذت صور من الجو للمكان ، وأراد سكورزني أن يتأكد من تقرير المخابرات الذي تلقاه عن أوضاع الفندق هناك ، فتمكن من إيفاد طبيب ألماني عسكري كبير ، لمعاينة الفندق ، والاستعلام عن صلاحه ليكون مستشفى لأمراض الملاريا . ومضى الطبيب وهو لا يعرف الهدف الفعلي من زيارته ، فوصل إلى اكويلا دون أية صعوبة ، ولكنه وجد الطريق مغلقا تحت البيرجور ريفوجيو ، كما وجد حراسة قوية على محطة القطار الكهربائي يقوم بها فصيل من الكارabinieri . وأقنعهم بأن يسمحوا له بالاتصال بالفندق هاتفياً ، فرد عليه ضابط أبلغه بأن المعسكر الإمبراطوري منطقة تدريب عسكرية ، وعظورة على جميع الزائرين ، وأن الفندق نفسه قد أخطى من نزلائه وأعد ليكون مسكناً للمائتين من الجنود .

ولاحظ الطبيب وجود سيارة لاسلكي في الوادي ، كما لاحظ نشاطاً فوق العادة على سكة الحديد الكهربائية . وأبلغه بعض الإيطاليين الذين تحدث إليهم فيما بعد ، أنهم يعتقدون أن سبب هذا النشاط ، هو أن موسوليني سجين في الفندق . وأصر الطبيب على أن هذا القول ، لا يعدو مجرد شائعة ، وأنه لا يعتقد

أن هذه الشائعة صحيحة على الإطلاق .

ونحيل إلى سكورزيني أنه إذا لم يسرع إلى تنفيذ خطته ، فإن وجود موسوليني هناك سيصبح حقاً من الشائعات . ولم يكن الخطر ناشئاً الآن عن احتمال نقل الدوتشي ثانية فحسب ، بل كان هناك خطر أكبر من هذا ، ولا سيما بعد توقيع الهدنة ، وهو أن يسلم إلى الحلفاء فيفقدوه الألمان إلى الأبد .

وكانت هناك ثلاثة سبل أمام سكورزيني . فلما القيام بهجوم من الأرض ، أو بإنزال المظليين ، أو بإنزال طائرة بلا محرك ، وقد استبعد فكرة الهجوم من الأرض . بالنظر إلى الحاجة إلى عدد كبير من الجنود . واستبعد أيضاً « فكرة الهجوم بالمظليين » بسبب ما يتعرض له الهابطون من خطر في مثل هذه المرتفعات الأرضية العالية ، نظراً لقصر مدى الهبوط ، وصعوبة إنزالهم على أرض الهضبة بأعداد متماسكة وقادرة على الهجوم والمناورة . وبدا له أن النزول عن طريق طائرة بلا محرك ، هو السبيل العملي الأمثل . لكن هذا السبيل لم يكن يخلو من الخطورة أيضاً ، إذ أن المكان الوحيد الصالح للهبوط ، هو قطعة أرض صغيرة مثلثة الشكل تقع خلف الفندق . وتصور رئيس أركان حرب فيلق المظليين في الواقع ومعه عدد كبير من ضباط أركانه أن النزول على مثل هذه الأرض الصغيرة وغير المعدة ، سيؤدي إلى ضياع أكثر من ثلاثة أرباع القوة الهابطة ، وأن ما يتبقى منها من رجال لن يكونوا كافين لإتمام العملية . وعندما طلب إليهم على أي حال ، أن يقترحوا خطة بديلة ، لم يستطيعوا ، مما أجبرهم في النهاية على الموافقة على استعمال الطائرات بلا محركات . وقرر الجنرال ستودينت استدعاء اثنتي عشرة طائرة من هذا الطراز من جنوب فرنسا إلى رومة ، وأنه في الوقت الذي تهبط فيه قوة سكورزيني بواسطتها ، يقوم فوج من المظليين باحتلال قاعدة المرتفع . وتقرر أن تجرى العملية فجر السادس من سبتمبر .

وعندما كان يناقش تفاصيل العملية مع سكورزيني تقدم مساعده كارل رادل ، باقتراح كان يأمل في أن يؤدي إلى مضاعفة أثر المباغتة التي تعتبر عنصراً لا بد منه في نجاح الخطة . فقد اقترح أن يحملوا معهم ضابطاً إيطالياً يؤدي وجوده إلى تضليل الكارabinieri ، ويحرك بينهم وبين تنفيذ أية أوامر قد تكون صادرة إليهم

بقتل موسوليني بدلا من وقوعه في أيدي الألمان . ووقع الاختيار على الجنرال سولتي ، الذي أبلغه الجنرال ستودينت أن هتلر يطلب شخصياً اشتراكه في العملية ليحول دون وقوع سفك لا ضرورة له في الدماء . وقد قبل الجنرال سولتي الدعوة على الفور ، إذ رأى فيها كما قال سكورزيني ، ما يرضى غروره إلى حد كبير .

وكان لابد من تأجيل الموعد نظراً لتأخر وصول الطائرات إلى إيطاليا . وتقرر أخيراً أن تتم العملية في الساعة الثانية بعد ظهر الأحد في الثاني عشر من سبتمبر . وبدأت الطائرات التي تحمل قوة سكورزيني في الساعة الواحدة من بعد ظهر ذلك اليوم تحوم فوق مطار رايكا دي ماري ، لترتفع في الجو شيئاً فشيئاً . وكان الطقس رائعاً . وكانت هناك سحب بيضاء اللون في السماء على ارتفاع عشرة آلاف قدم ، وعندما ارتفعت الطائرات فوقها ، سطعت عليها أشعة الشمس . وكان الجو حاراً بشكل لا يطاق داخل الطائرات . وأصيب عريف في طائرة سكورزيني بمرض طارئ ، وبدأ الجنرال سولتي الجالس إلى جانبه على اللوح الضيق الذي يقطع الطائرة في وسطها المغطى بالأشعة ، مريضاً ولكن في منتهى القلق . وقبل حلول الساعة الثانية بقليل رأى سكورزيني من ثقب ، شقه في الشارع ، سحابة يطل وراءها سقف الفندق .

وهتف بأعلى صوته . . . ضعوا خوذكم ، وأنزلوا جبال الجر . وهبطت الطائرات على الأرض في صمت فجائي . وكان الطيار وسكورزيني يشاهدان الأرض المثلثة وراء اليريجور ريفوجيو ، ولكنهما ما لبثا أن أدركا أنها لم تكن أرضاً مسطحة كما افترضا ، وإنما سفح تل شديد الانحدار . وكان التزل هناك مستحيلاً . وتحتّم عليهما أن يهبطا بقوة على الأرض الصلبة القائمة أمام الفندق .

سمع موسوليني وهو جالس على نافذته المنفوحة في غرفة جلوسه ضاماً يديه ، دوى الطائرة ، فشخص بصره إلى السماء التي تملؤها السحب ، ورأى الطائرة وهي

تهبط مسرعة على الصخرة أمام الفندق مباشرة ، ووراءها عدد من الطائرات بلا محركات . وعندما هبطت الأولى في شبه اصطدام ، مزق أشرعها ، وطير قطع الأخشاب منها ، رأى عدداً من الرجال يخرجون من هيكليها المحطم فيجمعون صفوفهم ويتجهون إليه راكضين . ولم يستطع في البداية ، بالرغم من أنهم لم يكونوا يبعدون عن مدخل الفندق أكثر من ثلاثين ياردة ، تمييز هويتهم ، ولكنه سرعان ما رأى أن أحدهم ضابط إيطالي ، كان يهتف بأعلى صوته إلى رجال الكارabinieri الذين أذهلتهم المفاجأة قائلاً . . . « لا تطلقوا النار ، لا تطلقوا النار » .

وهتف موسوليني بدوره من النافذة المفتوحة ... « لا تطلقوا النار فهناك جنرال إيطالي . وكل شيء على ما يرام » .

وصرخ الملازم فيولا ، وهو يصعد الدرج متقطع الأنفاس إلى غرفة موسوليني « يا صاحب الفخامة ، يا صاحب الفخامة . . . لإنهم الألمان » .

واندفع إلى الغرفة ، وعندما رأى سجينيه مطلاً من النافذة المفتوحة ، زعق بأعلى صوته ، وكان نوبة جنونية قد انتابته وهو يقول . . . « اغلق النافذة ولا تتحرك » .

وكانت طائرة سكورزيني قد هبطت على الأرض الصلبة خارج الفندق ، واندفع من أول باب مفتوح أمامه إلى داخل الفندق . ورأى أمامه أحد أجهزة اللاسلكي ، فحطمه على الفور ، كما قذف بالمقعد الذي كان يجلس إليه العامل على الجهاز . وبحث عن منفذ من الغرفة التي دخلها إلى الفندق فلم ير أي باب . فعاد يركض خارجاً ليسير بحذاء الجدار حتى وصل إلى شرفة ترتفع تسع أقدام عن الأرض . وقفز على ظهر أحد رجاله ، ثم صعد إلى الشرفة متطلعاً بلهفة إلى الجدار الملتوى فوقه . وقد امتدت عليه صفوف من النوافذ المربعة الصغيرة ورأى في إحدى هذه النوافذ في الطبقة الأولى وجه موسوليني وهو يتطلع إليه محملاً . . .

وصرخ سكورزيني بأعلى صوته ، وهو يركض متجهاً إلى باب قاعة الفندق .. « أبعد عن النافذة » . وذكر أحد موظفي الفندق فيما بعد ، أن الاضطراب ساد المكان ولم يفكر أحد من الحراس في إصدار أمر . كان المكان يعج بجنود الكارabinieri الذين هجروا مواقع مدافعهم الرشاشة ، وهرعوا بحثاً عن ملجأ بعد أن رأوا الفدائيين الألمان ، وبعد أن قذفوا بما يحملونه من بنادق وقنابل على الأرض في طريق فرارهم .

واندفع رجال سكورزيني ، وهم يصرخون « لا تطلقوا النار » دون حاجة إلى هذا الصراخ ، إذ لم يكن هناك من يطلقها ، إلى داخل الفندق ، بينما شق سكورزيني طريقه عبر رجال الكاربنيري ، بمقدمة مسدسه الرشاش حتى وصل الدرج ، فارتفاه راكضاً وهو يصعد كل ثلاث درجات معاً وعندما وصل نهايته ، استدار شمالاً وركض في رواق طويل ، وفتح باب غرفة كان يأمل في أن تكون الغرفة التي يقصدها .

وجد أمامه موسوليني يقف في وسط الغرفة ، وبعه الملازم فيولا ، وضابط إيطالي آخر . وسرعان ما قاد أحد صغار الضباط الألمان ، الضباطين خارجاً إلى الرواق . وكانت الطائرات قد هبطت الآن واحدة إثر الأخرى . ليخرج منها المزيد من رجال الحرس النازي ، عابرين الباحة باتجاه الفندق . ولم تكن طلقة واحدة قد أطلقت حتى تلك اللحظة .

وأطل سكورزيني برأسه إلى الرواق ، وهتف طالباً الضابط المسؤول عن قيادة القوات الإيطالية في الفندق . وظهر ضابط إيطالي برتبة عقيد فدعاه سكورزيني إلى الاستسلام ، ولكنه طلب مهلة للتفكير فأمهله هذا دقيقة واحدة . ولم تكن الدقيقة قد انقضت عندما عاد العقيد يحمل كأساً من النبيذ الأحمر ، قدمه وهو ينحني بمنتهى الكياسة إلى سكورزيني وهو يقول بلهجة جدية . . . « إلى المنتصر » . وفي هذا الجو من الرسمية إلى حد ما ، استدار سكورزيني إلى موسوليني ليقدم نفسه إليه .

وقال وهو يقف وقفة التحية الصلبة . . . « يا دوتشي . . . لقد بعثني الفوهرر إليك ، وأنت حر الآن » .

ورأى موسوليني العرق يتصبب من الضابط ، الذي بدا التأثير واضحاً في قسماته .

وفتح الدوتشي ذراعيه وأخذ سكورزيني بينهما معانقاً إياه لحظة طويلة وهو يقول . . . « كنت أعرف أن صديقي أدولف هتلر لن يتخلى عني » .

كان حديثه واضحاً ، ولكن سكورزيني ذعر من مظهره . فقد كان يرتدى بدلة رثة ، سيئة الكي ، ويبدو المريض واضحاً في وجهه الذي لم يخلق ، والذي

ظهرت عليه علامم الشيخوخة وكأنه كبر عدة سنوات منذ رآه سكورزبني لآخر مرة يقف منتصب القامة . على شرفة قصر البندقية . وتطلع الضابط النمساوي إلى شعره المخبوذ الآن ، وعادت به الذاكرة إليه مسبلا جميلا يعلو هامته . ولم يبق من مظاهر العظمة والسلطان فيه إلا عيناه الكبيرتان السوداوان . وذكر الجنرال سبوليني فيما بعد ، أن الدوتشي بدأ مجهداً . وأن الرغبة الوحيدة التي أعرب عنها ، هي العودة إلى منزله في روكاديل كاميناتي .

وواجهت سكورزبني الآن المشكلة الأولى ، وهي كيفية الخروج بالدوتشي من هذا المكان . وكان الاتفاق قد تم على أن يطير في طائرة هينكيل ، من مطار اكويلا ، الذي كان من المقرر أن يحتله المظليون . لكن عامل اللاسلكي لم يستطع الاتصال بمطار رومة ، أو بسلاح الجو الألماني لاستدعاء الطائرة من هناك . وكانت هناك خطة بديلة ، وهي استخدام طائرة أصغر ، تستطيع الهبوط والطيران من الوادي . وقد تمكنت هذه الطائرة من الهبوط ، ولكن مقودها تعطل أثناء الهبوط بحيث لم تعد صالحة للاستعمال . وكان الحل الأخير إذا فشل الحلان الأولان هو أن تهبط طائرة صغيرة من طراز ستورش على أرض الهضبة . وقد تمكن جيرلاخ ، الطيار الشخصي البارع للجنرال ستودينيت من الهبوط بطائرته سليمة على الهضبة ، ولكنه كان في شك من أمر تمكنه من الصعود بها من هناك إلى الجو ثانية .

ولم يكن موسوليني قد عرف بمخاوف جيرلاخ ، فخرج إلى الهواء الطلق ، وقد وضع في قدميه حذاءين ثقيلين من أحذية التزلج . وبدأ كعادته دائماً أمام الألمان قوى العزيمة والشكيمة . وروى دومينكو انطونللي ، المدير الجديد للفندق ، إذ كان قد تسلم إدارته في اليوم السابق ، أن موسوليني استعاد في تلك اللحظات مظهره كديكتاتور ، « فقد أخذ يتحرك بمزيد من الصلاة ، ويتحدث بكثير من الثقة ويدفع فكه الأسفل إلى الأمام كعادته » .

وطلب إلى جويلي وفايولا أن يرافقه . فوافقا في البداية ، ولكن عندما حان موعد الرحيل ، طلب فايولا وهو متردد ، أن يسمح له بكلمة على انفراد مع الدوتشي .

وقال موسوليني بفروغ صبر . . . « هيا قل ما تريد . قل ما تريد » .
 وقال فايولا بشيء من العصبية الواضحة . . . « لدى زوجة وطفل ياسيدي
 الدوتشي . فإذا كنت لا تجد مانعاً ، فسأبقى هنا إلى جانبيها » .
 - إذن ، فلتبق حيث أنت .

ولاحظ أنطونيللي أن لهجته كانت في منتهى الغلظة .

واصطف موظفو الفندق في الخارج ، كما كان الخدم يصطفون في الماضي
 في أى بيت ريفي ، لوداع ضيف كبير . وصافح موسوليني كل فرد منهم ،
 متحدثاً إليهم ببضع كلمات بدا فيها تنازل الديكتاتور الذي لا يخرج على لطفه
 ودمايته . وكانوا يتوقعون منه هذا اللطف المتكبر الأنوف منذ البداية ، ولكنه لم
 يكن يظهره لهم أبداً .

وقال أخيراً وهو يبتعد عنهم . . . شكراً لكم جميعاً ، وتأكدوا من أننى لن
 أنساكم أبداً .

وقصد إلى الطائرة ، بينما وقف الجنود الألمان ورجال الكارabinieri وقفة التأهب ،
 تودون له التحية بالطريقة الفاشية ، ويهتفون بصوت عال « دوتشي ، دوتشي ،
 دوتشي » .

ونحدث موسوليني فيما بعد بصف هذه اللحظة الدراماتية . . . « وتقدم الطيار
 الذى سيقود طائرتي . وكان شاباً صغيراً من أبطال الطيران الألماني يدعى جيرلاخ ،
 واستندرت بوجهي قبل أن أدخل الطائرة لألوح بيدي إلى حراسي السابقين ،
 كانوا جميعاً بصعقهم الدهول . وكان بعضهم قد اضطرب اضطراباً صادقاً متأثراً
 لفراقى إذ سالت العبرات من عيون الكثيرين منهم » .

أما جيرلاخ فكان مضطرباً حتى إنه لم يلحظ المسرحية . وقال إنه تمكن من
 الهبوط بصعوبة بالغة على مثل هذه الأرض الوعرة والضيقة المدى ، وإنه يعتقد
 أنه لا يستطيع الإقلاع ، حاملاً راكباً واحداً . وعندما ذكر سكورزيني أنه
 سيستقل الطائرة أيضاً ، أصيب الطيار بما يشبه الرعب ، مؤكداً استحالة ذلك .
 فالطائرة لا تستطيع أن تحتل راكباً واحداً فكيف باثنين . إنها كارثة . ولو قدر
 لها أن ترتفع عن الأرض ، فلن تستطيع الصمود . لكن سكورزيني أصر على

رأيه ، وكتب فيما بعد يقول ، معترفاً بأنه كان مهتماً بنفسه . . . « ولو حدثت هناك كارثة فكل ما سيبقى منى ، طلبة من مسدس أطلقها على نفسى . ولن يغفر لى أدولف هتلر مثل هذه النهاية لمغامرتنا . ولما كان من المستحيل العثور على طريقة أخرى ، للوصول بالدوتشى سليماً إلى رومة ، فإن من الخير أن أقاسمه الخطر ، حتى ولو كان وجودى على الطائرة سيضاعف هذا الخطر . فلو لم ننجح ، فإن نفس المصير سينتظرننا جميعاً » .

واعترف موسولبنى فيما بعد بأنه شارك جيرلاخ مخاوفه ، ولكنه لم يفه بينت شفة . وشهد أحد رجال الكاربنيرى وهو ينحنى ليدخل الطائرة الصغيرة . كان يبدو عجزاً ناعلاً فى معطفه الشتوى الواسع عليه ، وفى قبعته السوداء الواسعة الحاشية التى ضغطها فوق رأسه لتغطى عينيه . وأحس هذا الرجل بشيء من الإشفاق الفجائى عليه ومن الإعجاب بشجاعته . ولاحظ سكورزى بأنه تردد قليلاً قبل أن يجلس على المقعد الخلفى واحترمه كل الاحترام ، لأنه لم ينطق بكلمة احتجاج واحدة . وهدر محرك الطائرة الصغيرة إلى أقصى قوته عندما اشترك اثنا عشر رجلاً فى تحريكه مرة واحدة ، وعند ما أنزل جيرلاخ يده ، مطلقاً الطائرة ، لتسير فوق صحور الهضبة . عبأت الطائرة السرعة اللازمة للانطلاق قبل وصولها إلى آخر الأرض الصالحة للطيران ، ولكن العجلات لم ترتفع عن الأرض . واقتربت الطائرة من حافة الهضبة ، وخيل للجميع أنها ستتهوى إلى منحدرات الهاوية القريبة ، عندما ارتفعت فجأة عن الأرض . لكنها ما لبثت أن هوت بعد لحظة ثانية ، وأصاب إحدى عجلاتها صخرة بارزة ، دفعت الطائرة متدحرجة إلى الشمال فوق الحافة لتتهوى نحو الوادى . وبدأت الطائرة تسقط مترنحة عبر الهواء ، وزارت الريح فى أذنى موسولبنى بينما كان جيرلاخ يحاول أن يسحب الطائرة من انقضاضها ، ليسير بها فى طيران مستو . واعترف موسولبنى لصحنى سويسرى فى العام التالى قائلاً : « كانت لحظة من الرعب الحقيقى أصابتنى » .

وهرع رجال الكاربنيرى والحرس النازى باتجاه حلود الهضبة ، ورأوا الطائرة وهى تهوى يأساً باتجاه صحور الوادى الداكنة السوداء . وفجأة انطلقت الطائرة ، وكان طيارها كان قد تعمد منذ البداية هذا الإقلاع الغريب ، من انقضاضها ،

وراحت تطير باتجاه الجنوب الغربى نحو وادى افيزانو ، مرتفعة مسافة تقل عن مائة قدم عن سطح الأرض .

وانقضى بعض الوقت دون أن ينبس أى من الذبن فى الطائرة ببنت شفة . وظل موسولبنى مقعياً إلى جانب سكورزبنى ، دون أن يبدو عليه خوف ، بقدر ما بدا عليه من حزن وانزعاج . ووضع سكورزبنى يده على كتفه وكأنه يريد أن يطمئنه ، وعندما أدار الدوتشى وجهه إليه كان أشد شحوباً من أى وقت مضى . ولم تمض لحظات على أى حال ، حتى شرع فى الحديث مشيراً إلى التضاريس الأرضية تحته ، سارداً على مسامع سكورزبنى ما حدث له فى المدن والقرى التى فوقها . وعندما وصلت الطائرة إلى مطار براتيكا دى مارى ، نقل ركبائها إلى طائرة لينيكىل ، كان هدير محركاتها مرتفعاً إلى الحد الذى لم يستطع موسولبنى معه أن يسمع صوته . فاسترخى فى مقعده ، وقد أغمض عينيه ، ثم بدا وكأنه راح فى سبات عميق .

وكان الظلام قد خيم على الكون عندما هبطت الطائرة فى مطار اسيرن فى فيينا ، ودلف منها موسولبنى وقد بان عليه الإجهاد . وعندما وصل إلى فندق الكونتنتال حيث أعد له جناح خاص ، هتف له هتلر مهتماً بالنجاة ، ولكنه لم يكن قادراً على الحديث مطولاً ، فشكر للفوهرر اهتمامه باقتضاب وقال « أنا منهك . منهك للغاية ، وفى حاجة إلى الراحة » .

لكن اهتمام هتلر الواضح به وبراحته ، وسروره البالغ بنجاته ، وقد ظهر فى حديثه إليه ، أعاداً له قواه الضائعة ، وعندما حمل إليه سكورزبنى ، « ببيجامة » جديدة ، كان قد أعدها له كويرمر ، قائد الحرس النازى فى فيينا ، رفضها موسولبنى بمرح وهو يقول . . . « مما يخالف قواعد الصحة أن ينام الإنسان بملابس الليل » ، وأشفع قوله هذا بابتسامة نابضة بالتروات ، اعتبرها سكورزبنى دليلاً على « تجارب الدوتشى الموسعة فى الحياة » . وسمع الدوتشى يقول له . . . « أنا لا أردى شيئاً فى الليل ، وإنى لأنصحك بأن تفعل ذلك أيضاً » .

وبدا موسولبنى وقد استعاد قواه فى الصباح التالى . وجاء الحلاق ، فحلق له ذقنه وهندم شعره ، ثم شرع يستقبل عدداً من الزائرين . تأثر بالغ التأثير بما شهده

عند زائريه من تهاني متحمسة ، واحترام يبلغ حدود الإجلال ، وحماسة طاغية . ولم يعد يتحدث عن الانطواء في روكاديل كاميناتي ، وإنما شرع يتحدث من جديد عن مستقبل الفاشية ، وعن ضرورة تحويلها إلى حزب جمهوري .

وسمعه الناس يقول . . . « اقترفت خطأ كبيراً واحداً ، وكان على أن أدفع ثمن هذا الخطأ . فلم أعرف قط أن البيت الإيطالي المالك هو عدوي ، وأنه سيظل على عدائي . وكان على أن أحول إيطاليا إلى الحكم الجمهوري فور انتهاء الحرب الحبشية » . ورأى فيه سكورزيني من جديد صورة مشرقة للأمل والتصميم .

وغادر فيينا ظهر الثالث عشر من سبتمبر إلى مونيخ حيث استقبلته راشيل والأولاد في مطار ريم . وأصبحت راشيل بالفرع من « شحوبه الخفيف » . ولكنه تقدم منها « بطريقته المألوفة يسير قفزاً » ، وعندما سأله عما يعترق فعله الآن ، راح يتحدث على الفور عن خططه المقبلة ، قائلاً . . . « عزم على أن لا أتخلى عن خطتي في الحياة ، وأن أعمل جهد طاقتي لإنقاذ الشعب الإيطالي » . وكان يتحدث بسرعة بالغة ، وكأنه يخشى ، كما ظنت راشيل ، أن تقاطعه ، أو تعادله . وغادرا المطار معاً متجهين بالسيارة إلى فندق « كارل بلاتز » ، حيث أعد له جناح خاص . لكن هذا الجناح كان من الترف بحيث رفض موسوليني النوم في غرفة نومه ، وأثر قضاء الليل في الغرفة الأكثر تواضعاً والتي أعدت لراشيل . ووافق بعد لأي على أن يستحم ، فقد كان ، كما قالت زوجته ، في أشد الحاجة إلى الاستحمام ، وكان « جورباه ملتصقين بقدميه من العرق » .

وجاءت إيدا في الصباح التالي لرؤيته . وكانت المقابلة حسيرة للغاية إذ أن زوجها جاليزو كان في مونيخ أيضاً . فقد غادر رومة خلافاً لأوامر المارشال بادوليو وبمساعدة الألمان في الثالث والعشرين من أغسطس مستصحباً إيدا وأطفالهما . وحاول الحصول من الألمان على تأشيرة للسفر إلى أسبانيا أو إلى أمريكا الجنوبية ، فأعطوه إياها بعد لأي وتسويف طويلين شريطة أن يسافر عن طريق مونيخ . ولكن الألمان ولا سيما ريبنتروب ، وقد تحول عدم استلظافهم له إلى كراهية ، لم يرغبوا في أن ينجو من سلطانهم . ويبدو أن تشيانو نفسه لم يكن يعرف مدى

مشاعر العداء ضده في ألمانيا ، إذ أنه سافر إليها دون وجل أو قلق . ووصف فيليبو انفوسو ، كبير سكرتيريه الخاصين سابقاً ، المحاولات التي بذلها لتحذيره من الذهاب إلى ألمانيا ، وانهار تشيانو وراح يبكي ويقول . . . « إن موسوليني رجل عظيم ، بل هو عبقرى حقاً » . ولم يكن الصهر ليشك في أنه سيغفر له . ولكنه وقد وطأت قدماه أرض مونيخ ، وجد المصاعب تثار في طريقه لتحول بينه وبين مواصلة سفره . وظل هو وإيدا تحت رقابة الجستابو الشديدة الصارمة . فلما جاءت إيدا لزيارة أبيها ، وقف رجال الجستابو في الرواق خارج جناح موسوليني ، ينتظرون انتهاء المقابلة .

وتوسلت إيدا إلى أبيها أن يقابل جاليازو ، وقالت إن لديه مبررات كاملة للسلوك الذي سلكه ويود أن يبسطها على مسامع الدوتشي . لكن موسوليني متأثراً برأى راشيل ، رفض مقابلة صهره . ومع ذلك فسرعان ما لدم على موقفه ، وذكر بأنه سيتيح لجاليازو مقابلة قصيرة بعد بضعة أيام . ولكن زوجته ظلت مصرة على رأيها ، وظلت تقول ما عرف عن أهل رومانا من عناد وإصرار وتأثر بالعواطف . . « أنا أكرهه . وكم أود لو قتله بيدي » .

وقبل حلول موعد المقابلة بين الرجلين ، نقل موسوليني بالطائرة من مونيخ إلى بروسيا الشرقية ليجتمع إلى القوهرر في مقر قيادته . وقد قرر الحديث الذي دار بينهما هناك مصير تشيانو إلى الأبد .

مقابلة في مقر قيادة الفوهرر

١٥ سبتمبر ١٩٤٣

« بحث أتلز تملياق » .

هبطت طائرة اليونكرز (٥٢) في المطار الخاص بمقر قيادة الفوهرر ، في جو مشمس رائع . وعندما خرج موسوليني من الطائرة . وتقدم منه هتلر والدموع في مقاتليه ، وتصافح الصديقان ، والواحد منهما ينظر إلى الآخر صامتاً ، وظلا واقفين على هذا النحو وقد أمسكا بيدي بعضهما ، مثل داود ويوناثان^(١) في الصحراء . وبدأ هتلر ، متأثراً من المقابلة تأثراً عميقاً .

لكن الجو ما لبث أن اختلف كل الاختلاف ، عندما اجتمع الرجلان بعد قليل وحدهما . فالمطامح التي بعثت في صدر موسوليني بعدما سمعه في فيينا ومونيخ من تقدير وإجلال ، ما لبثت أن خبت ، وانطوت ، إذ رأى فيه هتلر رجلاً قلقاً وياثساً . وذكر موسوليني فيما بعد أن « المقابلة » بدأت ، بحديث من هتلر أعاده إلى واقعه تماماً كما فعل الملك في شهر يوليو .

وراح هتلر يسأل ضيفه بصرامة عما يعتزم أن يفعله الآن . وعندما اقترح موسوليني أن من الأفضل أن ينسحب من الحياة العامة ، ليجنب إيطاليا نيران الحرب الأهلية ، رد هتلر قائلاً . . . « إنه سخف » . فاعتزله الحياة العامة أمر خارج عن الموضوع إطلاقاً ، إذ أنه يظهر للعالم أن الدوتشي لم يعد مؤمناً بانتصار ألمانيا . وعلى الدوتشي أن يعيد نظره في الموضوع . وما لم تقم حكومة فاشية قوية في شمال إيطاليا - ، فلا يعرف أحد ما سيحل بالشعب الإيطالي . وستجد الجيوش الألمانية نفسها مضطرة إلى الحكم في ظل الحكم العرفي الذي لا يرحم ولا يشفق ، كما ستضطر إلى الانسحاب إلى حوض البو أو حتى إلى جبال الألب . مدمرة كل

(١) من قصص التوراة عن ملوك العبرانيين .

شيء قبل انسحابها . وقرر هتلر أن «الإجراءات البربرية المتوحشة هي القاهرة وحدها على إنتقاذ إيطاليا» . وكانت هناك اقتراحات بقيام حكومة فاشية في إيطاليا بقيادة أحد الإيطاليين الذين فروا إلى ألمانيا من أمثال بافوليني وفاريناتشي وريناتوريكي وبريزيوسي أو حتى بزعامة فيتوريو موسوليني (ابن موسوليني) ، ولكن الفوهور لم يرض عن أى منهم . ولم تكن الحكومة الفاشية الوطنية التي أعلنت الإذاعة الألمانية من غابة راستنبرج قيامها في التاسع من سبتمبر ، أكثر من مرحلة انتقالية ، وهي لن تجدى شيئاً دون زعامة الدوتشى لها . وعلى الدوتشى نفسه أن يعود ، وأن يحاكم خونة الخامس والعشرين من يوليو ، وأن يعدهم . وعليه أن يسمح لألمانيا باحتلال الأقاليم الشمالية الشرقية من إيطاليا ، كالاديغ وشبه جزيرة البندقية وترنتينو ، كتأمين لألمانيا ضد هجوم قد يشن عن طريق يوجوسلافيا . وعلى العالم أن يسمع من جديد تأكيداً بتضامن المحور . وظل هتلر يتحدث على هذا النحو زهاء ساعة ، وكان موسوليني أكثر ضعفاً وإجهاذاً من أن يستطيع اعتراض إرادته . وعندما انتهى هتلر من خطابه ، التفت إلى السفير الألماني المعين حديثاً وهو رودولف إن الذي كان يشهد المقابلة ، وأمره بصرامة بأن يساعد في إعداد دستور الجمهورية الجديدة ، وغادر موسوليني غرفة الفوهور وهو يكاد يكون ذاهلاً . ووصفته الكونتيسة تشيانو (ابنته لإندا) ، التي رآته بعد أيام من هذه المقابلة ، بأنه كان أشبه برجل فقد لإرادته . وعندما تحدث هتلر إلى جوبلز عن المقابلة ، لم يخف خيبة أمله في موسوليني هذا الذي حملة سكورزيني من إيطاليا ، مضيفاً إلى ذلك قوله إنه بدا في عينيه أصغر مما كان يراه من قبل .

وكان من رأى جوبلز ، أن السبب الرئيسي في خيبة أمل هتلر في موسوليني ، هو افتقاره الواضح إلى التصميم ، لمعاقبة خونة الخامس والعشرين من يوليو وإعدامهم . وكتب جوبلز يقول . . . « لكن عقاب الخونة الفاشيين أمر لا بد منه لأى بعث للفاشية » . ولكن الدوتشى وهو «الشديد الارتباط بأسرته» بدا عازلاً عن معاقبة أى إنسان . وبدا أنه يحمل الملك وحده مسئولية الكارثة التي حلت به ، وأن مسئوليته فيها أكثر حتماً من مسئولية تشيانو ، الإنسان الذي تكرهه القيادة العليا الألمانية أشد الكراهية . وعندما أشار موسوليني إلى الحقيقة الواقعة وهي أن

تشيانو ، زوج كريمته على أى حال ، انقضض عليه هتلر قائلاً . . . « وهذه الحقيقة تجعل خيائنه أدهى وأمر . وهذا لا بد من من أن أكون واضحاً كل الوضوح ، فالغفران الواضح للخيانة فى إيطاليا ، سيرك آثاراً عميقة فى كل مكان » . وهذا ما لن تسمح به ألمانيا على الإطلاق . وعلى موسوليني أن يضرب المثل للعالم كله بالعقاب الصارم الذى ينزله بالخونة .

وكان موسوليني قد وعد بمقابلة تشيانو بعد رجوعه إلى مونيخ . وعلق جوبلز على ذلك بشئ من الاحتقار قائلاً . . . « وهذا يعنى أن هذا الفطر السام ، سيزرع من جديد وسط الحزب الجمهورى الفاشى الجديد » . ومضى جوبلز يقول . . . « ويعتزم تشيانو كتابة مذكراته . ويشك الفوهرر وهو على حق فى شكه ، فى أن مثل هذه المذكرات ستكتب بصورة تحط من قدرنا ، إذ لو لم يفعل ذلك ، لما استطاع تصريفها فى سوق النشر الدولية . ولهذا فليست ثمة فكرة فى السماح لتشيانو بمغادرة الرايخ بل إنه سيجل تحت تصرفنا » .

ودون جوبلز فى مكان آخر من يومياته . . . « يبدو أن الدوتشى لم يستخلص من كارثة إيطاليا النتائج التى كان الفوهرر يتوقع منه أن يستخلصها . وليس ثمة من شك فى أنه فرح فرحاً زائداً بطلوعه إلى أجواء الحرية من جديد ، زمن رؤيته للفوهرر . ولكن الفوهرر كان يتوقع أن يكون أول ما يفعله الدوتشى الانتقام انتقاماً صراماً من الذين خانوه ، لكنه لم يوح على أى حال بأنه سيفعل هذا ، مظهرأ ضعفه الحقيقى . فهو لا يضاهى فى ثورته الفوهرر أو ستالين . وهو مرتبط إلى شعبه الإيطالى كل الارتباط ، بحيث يفتقر إلى المزايا الضخمة التى يجب أن توجد فى الإنسان الثورى على الصعيد العالمى » .

وقد طرب جوبلز لموقف الفوهرر فكتب فى يومياته يقول . . . « وفى وسعنا أن نعتبره خائب الأمل إلى حد كبير فى شخصية موسوليني ، وإن لم يقع بين الرجلين خلاف حقيقى » . وكان جوبلز ، كما يبدو يغار من صداقة الفوهرر السابقة للدوتشى ، ولذا فإنه لم يشعر نحوه بميل قط ، وكان قد سر سروراً واضحاً عندما تحدث الإيطاليون الذين فروا إلى ألمانيا من قبل ، إلى هتلر عن ضعفه وعن افتقاره إلى الشدة فى لاساميته . ورأى جوبلز فى سقوط الدوتشى ضربة قاصمة للدعاية الألمانية ، ولكنه سرعان ما عزى نفسه بقوله ، إنه لم يشارك الفوهرر قط

لعجابه الخاطي* به . وتخيّل إليه أن آمال هتلر خابت الآن في الدوتشي ، فراح يجلس على مقعده في مكتبه وهو يردد بشيء من السخرية . . . « درتشي ، دوتشي » . ومضى جوبلز . بعد ذلك يقول . . . « على أى حال ، فهو لا يعدو أن يكون إيطاليًا ، وليس في وسعه الخلاص من هذا التراث » .

واعترف موسوليني فيما بعد بأن إيطاليته هي التي دفعته إلى قبول شروط هتلر . فبالرغم من إيمانه بقسوتها ، فقد اعتقد بأن رفضها يعنى الحكم على إيطاليا بالدمار . وها هو كيمسلونج قد أعلن أن إيطاليا كلها وراء خطوط الجبهة الألمانية أصبحت منطقة حربية تخضع للأحكام العرفية ، وأن جميع الأعمال التي يقصد منها عرقلة سير الحرب ، بما فيها تنظيم الإضرابات الصناعية تعتبر جرائم كبرى عقوبتها الإعدام . وذكر موسوليني فيما بعد ، أنه رغبة منه في حماية إيطاليا من مزيد من الاستعباد للأوامر الألمانية التي هي من هذا الطراز ، ورغبة منه في التأكد من أن أولئك الإيطاليين الفاشيين المغالين في انحيازهم لألمانيا والذين هربوا إليها من إيطاليا بعد اعتقاله ، لن يروّوه في سلطانه ، ذهب إلى القوهر من جديد ليلبّغ قراره بالعودة إلى الحياة السياسية العملية . وراح يقول للقوهرر بشيء من المرارة . . . « وقد جئت الآن لأتلقى تعليماتي » .

وتظاهر هتلر بأنه لم يسمع احتجاج الدوتشي الضمى والصامت ، فراح يصدر على الفور تعليماته إليه . فعلى الدوتشي أن يدرك بالطبع ، أنه في مقابل السماح بإعادة الفاشية ، تحتاج ألمانيا إلى « ضمانات إقليمية للحيلولة دون وقوع أزمات جديدة » . فأمن ألمانيا يتطلب إعادة تنظيم منطقة « الأديج » كلها ، على أن تسلم للرايخ منها مقاطعة بولزانو بصورة خاصة . وأن تسلم إليه بعد استفتاء يشرف عليه الألمان مقاطعتا نورنتو وبيلونو . وستؤلف هذه الأراضي جزءاً من النمسا الجديدة الموسعة التي تصبح لإحدى إمارات ألمانيا الكبرى المشتركة في اتحاد فيدرالى مثلها ، مثل تشيكوسلوفاكيا والنمجر وبولنده . وقد تضيق إيطاليا فيما بعد إلى التخل عن دالماتيا وكريستا وأستيريا . ولما كانت ألمانيا ، تقاثل الآن وحدها نيابة عن إيطاليا ، فلا بد أيضاً من إعادة التنظيم في الحقوق الاقتصادية والصناعية أيضاً . ويجب نقل المصانع والآلات الصناعية إلى شمال الألب ، وتزويد المزارع

والمصانع الألمانية بعدد آخر من العمال الإيطاليين ، ودفع بعض التعويضات في النهاية إلى ألمانيا . ويجب فوراً إقصاء بعض العناصر الفاشية عن المناصب التي يشغلونها . كما يجب محاكمة خونة الخامس والعشرين من يوليو وإعدامهم .

وكان هتلر ، كدأبه دائماً عندما يتحدث عن مشاريعه المقبلة في تغيير سير التاريخ ، وصورة أوروبا ، قد نحمس وأخذ يتحدث بهياج مجنون ، وكأنه يريد أن يبعث في الكلمات التي تصدر عنه ، صورة تفوقه في الأهمية على محدثه . وظل موسوليني يصغى ، إذ ألف في الآونة الأخيرة الإصغاء ، دون أن يعلق بشيء سواء بالرضى أو الرفض . وعندما توقف هتلر عن الحديث ، كانت أسئلة موسوليني في منتهى الضعف إلى حدود التخاذل .

وقال متسائلاً . « أليس من الأفضل الدخول في مفاوضات مع روسيا لتحطيم جبهة الحلفاء ؟ » . وكان الرد سلبياً . وقال متسائلاً من جديد . . . وما مصير كورسيكا ؟ وكان رد هتلر أن محادثات قد تدور بصدد تونس . أما فيما عدا ذلك فإن إيطاليا ، بعملها ، قد تنازلت عن مطالبتها من فرنسا . وتساءل أيضاً . . . أليس من الأفضل أن تعطى تشيكوسلوفاكيا وبولندا نفس الاستقلال ، الذي سيسمح به إلى الدول الأخرى في الكتلة الأوروبية ؟ . وكان الرد بالنفي أيضاً . وكان التنازل الوحيد الذي استطاع موسوليني الحصول عليه ، هو أن يكون حراً في عمله في شؤون إيطاليا الداخلية ، وإن كانت هذه الحرية ستظل أيضاً تحت رقابة دقيقة .

وبدا بل كان في الواقع رجلاً مهزوماً . وكانت ثيابه مهلهلة حول جسده ، إذ انحل رباط عنقه متدلياً . وبعد أن كان لهتلر ما أراد منه ، عاد يظهر له عطفه وحبه ، وأصر على أن يقوم الأستاذ موريل بفحصه ، وهو طبيب قلر كان متخصصاً في يوم ما في الأمراض التناسلية . وقام موريل الذي كان يتولى إعطاء هتلر حقناً يومية وجرعات منظمة من العقاقير التي تضم أنواعاً مختلفة من المخدرات ، والسموم الخفيفة ، والمهيجات والباقيات ، بفحص موسوليني ، فوجده معاف باستثناء بعض الزيادة في الضغط ، والإجهاد العصبي ، وضعف الأمعاء . وعلق جوبلز بشيء من نفاذ الصبر . . . « لأنها في الواقع عين الأمراض التي نشكو

منها جميعاً . ولكن هتلر ، لم يكن يثق كل الثقة في طب موريل ، رغم اعتماده عليه ، فأظهر عدم اقتناعه بتشخيصه ، واقترح على موسوليني أن يأخذ معه إلى إيطاليا ، الأستاذ زاخاري ، وهو طبيب ألماني آخر .

وعاد موسوليني إلى مونيخ في السابع عشر من سبتمبر . . ودونت زوجته في يومياتها تقول . . . « يبدو أنه في حالة صحية أفضل . ولكن في عينيه تعبيراً غريباً عن الألم يفصح ما يعانيه من عذاب عقلي » وكعادته لم يبحث معها في معضلته ، مكتفياً بالقول بأنه قضى « ثلاثة أيام من العمل المستمر مع هتلر » . وحبس نفسه بعد ظهر اليوم التالي في غرفته ليعد الخطاب الذي سيوجهه في ذلك المساء عن طريق إذاعة مونيخ إلى الشعب الإيطالي .

وكتبت راشيل تقول . . . « ومضيت معه إلى غرفة البث الصغيرة في الفندق وقد يكون ما أقوله غريباً . ولكنهما كانت هذه المرة . هي الثانية التي يذيع فيها . في الماضي كان يلقي خطبه على الجماهير ، وإن كانت الإذاعة تتولى نقلها . ولم يكن في حالة طيبة . وقبل الشروع في إذاعة رسالته . التفت عيناه بعيني . وانقضت فترة طويلة خيل لي أنها لن تنتهي قبل أن يشرع في الكلام » .

وبدا صوته محموماً . وكانت عباراته مدغومة ببعضها . بحيث بدت سيئة اللفظ غير مفهومة . وتحدث إلى سامعيه عن فترة سجنه ، وعن فراقه المسرحي ، بطريقة وجد أحد المعجبين الجدد بالفاشية نفسه مضطراً إلى وصفها « بالطريقة الصحفية وراح بعد ذلك يحاول استعادة سيطرته الماضية على الكلام ، فراح يذكّر شعبه بواجبه ، ويدعوه إلى السير وراءه في الطريق إلى النصر .

ولكن جوبلز وهتلر لم يتوقعا من الشعب الإيطالي أن يتبعه . فقد كتب جوبلز يقول . . . « انتهت إيطاليا كشعب وكأمة » . وبالرغم من أنه ، على النقيض من الآخرين الذين استمعوا إلى الخطاب ، رأى في خطاب الدوتشي « هدوءاً وواقعية وخلوا من الإفراط في العواطف » ، إلا أنه اعترف بفشله في تمثيل دور « العودة العظيمة » . ومضى جوبلز يقول . . . « وعلى أي حال ، فقد كان هندنبورج المعجوز على حق عندما قال : إن أي إنسان حتى موسوليني لا يستطيع أن يخلق من الإيطاليين إلا الإيطاليين » .

رئيس الجمهورية في جرجانو

السنة الأولى

من ٢٧ سبتمبر ١٩٤٣ إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٤٤

« أسلمنا أنا وعلمت نفسنا إلى أحلامنا كزوج من المجانين ولم يبق أمامنا إلا أمل واحد ، وهو أن نخلق أسطورة » .

١

ظل موسوليني في ألمانيا عشرة أيام أخرى ، قضى بدايتها في مونيخ ، ثم نقل بعدها ، بعد أن اشتدت الغارات الجوية المعادية على المدينة إلى قصر يدعى « شلوس هيرشبرج » يقع على بعد خمسين ميلاً منها من سفوح جبال الألب البافارية عند بارميش . وراح بعيد هناك تنظيم حكومته الجديدة . ويقوم البناء الجديد للفاشية .

وأعلن في المدة الواقعة بين الخامس عشر والسابع عشر من سبتمبر من راستنبرج وفي ستة أوامر يومية ، مولد الجمهورية الإيطالية الاشتراكية .

وقد نصت هذه الأوامر على أن يستأنف الدوتشي « السلطة العليا في توجيه الفاشية في إيطاليا » وأن يتولى إعادة تنظيم الحزب الفاشي تحت اسمه الجديد « الحزب الفاشي الجمهوري » وأن يقوم بإعداد تشكيل الحرس الفاشي . وإعادة التعاون مع الألمان ومعاقبة الخونة . ولم يذكر في هذه الأوامر من الأسماء إلا اسم اثنين من الفاشيين العدائين الذين فروا من إيطاليا بعد تولي بادوليو الحكم . وهما اليساندرو بافوليني وهو متعصب سياسي وسكرتير سابق للدوتشي وقد عين الآن سكرتيراً للحزب الجديد الذي صمم على أن يكون حزباً للأقلية البسيطة القوية والمتعصبة ، وريناتوريكي ، الذي

عين قائداً للحرس الفاشي ، الذي لم يستطع أن يجند فيه رغم جهوده الفائقة أكثر من عدد قليل من الرجال . أما روبرتو فاريناثشي المعروف بعنف ميوله إلى الألمان وجيوفاني بريزيوسي ، المشهور بصلابته في عقيدته اللاسامية ، واللذان كانا يحاولان التقرب إلى الألمان والتودد إليهم على حساب موسوليني فقد خابت آمالهما في تولي منصبين هامين في الإدارة الجديدة^(١) . وكان فيتوريو موسوليني قد أبلغ والده ، أن الرجلين ، نقلاً إلى هتلر صورتها عن ضعف الدوتشي وفشله ، وأبلغاه أنه كان كثيراً ما يتفجر حاملاً على الألمان ، وأنه كان يتسامح تسامحاً سخيفاً مع أعدائه السياسيين ، وكان لا يتردد في الحملة على الاشتراكية الوطنية . بالإضافة إلى نظرياته اللامشغولة والضعيفة في موضوع اللاسامية ، وكان قد حدثا الألمان أيضاً عن افتقاره المتزايد إلى الحيوية وعن صحته الآخذة في التدهور .

وكان من الواضح أن لانتقاداتهما ما يبررها . وكان من الواضح للألمان الآن أيضاً أن أحاديث موسوليني الراهنة عن طريقة جديدة ، وأفكار جديدة . وفرصة التعلم من أخطاء الماضي ، وتنظيف الفاشية ، تصدر عن ظاهريّة في تفكيره ، وأن ليس في معتقداته العميقة ما يدعّمها . فهو إنسان مجهد ويائس . وكان لا يزال بالرغم من تحسن حالته الصحية عما كان عليه عند ما وصل إلى فيينا ، مريضاً للغاية . فهو إنسان عصبي المزاج ، وتثير أقل حركة أعصابه . وكان يفد إلى العمل في الصباح ، وقد بان عليه نفس الإجهاد الذي كان يعانيه في الليلة السابقة . وهو لا يستطيع النوم لأول مرة في حياته ، وكان إذا ما استطاع الإغفاء في نوم قلق في بعض الليالي هب فجأة مذعوراً من نومه على حد وصف الممرضة التي كانت تسهر عليه خوفاً من معاودة نوبات الألم له . وبعث الدكتور زخاري بتقرير إلى برلين قال فيه ... « إنه لا يأكل إلا القليل . وتحول نوبات المغص التي تنتابه في معدته بينه وبين النوم وقد انخفض ضغطه كثيراً ، وجفت عروقه ، وضمربطنه إلى حد كبير ، بينما تورم كبده » . وأعرب الدكتور بعد فحص دقيق له وتحليل لدمه . أنه ليس متأثراً من

(١) كان هذان الرجلان وأمثالهما ، قد أزعجوا هتلر عند ما طاروا إلى ألمانيا بعد اعتقال موسوليني بدلا من الهباء والقيام بثورة مضادة ترفض الملك على تسليم قيادة القوات المسلحة الإيطالية إلى الألمان . وقد سرخ هتلر عند ما سمع بمجيئهم . . . « لا يمكن عمل شيء مع هؤلاء الأوغاد » .

الأمراض الزهرية ، وإن كان فاريناثشى قد أبلغ ريبنتروب بأنه وصل « في مرضه هذا الدرجة الثالثة » :

ومن السهل على المرء أن يفهم السبب في هذا الحكم الذى صدر عن فاريناثشى فكثيراً ما شوهه الدوتشى يصاب بحالة قصيرة من الهياج الشديد يعقبها انهيار فيجأى وتحول إلى فترة من اليأس القانط . وكان سماعه بكارثة خطيرة تقع في الجهة الإيطالية لا يؤثر عليه مطلقاً ، بينما تودى إثارته بمسألة تدفئة إلى تحوله إلى حالة هياج عنيف للغاية . وقد يبدر منشرج المزاج مؤقتاً وهو يتحدث عن بعث الفاشية . ثم لا تلبث رؤية جندى ألماني في بزته العسكرية ، أن تفقده كل حماسه .

فكان تأثير الألمان حتمياً ومسيطرأ عليه ، وكان يعرف في صميم قواده ما يعنيه بعث الفاشية حقاً . وعاد في السابع والعشرين من سبتمبر ، مصحوباً بالجنرال كارل وولف قائد الحرس النازى في إيطاليا إلى دارته في روكاديل كاميناقى ، حيث وفد عليه عدد من أعضاء حكومته الجديدة ، يؤدون له يمين الولاء كرئيس للجمهورية ويبدو أن الألمان أرادوا أن يؤكدوا لمؤلاء الوزراء طبيعة السلطان الذى يستمدون منه سلطتهم . فحملهم مبعوث هملر الموثوق في إيطاليا والعقيد في الحرس النازى يوجين دولمان ، إلى بيت موسولينى . وبالرغم من أن الحكومة الجديدة لم تضم المتطرفين من أمثال روبرتو فاريناثشى . الذى عاد إلى كريمونا ليضفى على صحيفته فيها « العهد الفاشى » ، صبغة معادية لموسولينى ، وجيوفانى بريزيوسى ، فإن أعضاءها كانوا من الرجال المستعدين لدعم الحلف مع ألمانيا وحمل لوائه . وكان جيدو بوفارينى جيدى ، الذى عين وزيراً للداخلية في الوزارة الجديدة ، معروفاً في الأوساط الفاشية بمكره وبراعته في حبك النسائس . لكن الألمان هم الذين زكوه ، وأصروا على إدخاله في الوزارة ، إذ أنه حرص كل الحرص على أن يبدى دائماً إعجابه الشديد بهم . وعهد إلى رجل آخر شديد الإعجاب بالروح الألمانية ، وهو فيرناندو ميزسوما . بوزارة الثقافة الشعبية المهمة كل الأهمية . وكان هذا الشاب الضئيل الجسم ، والشاحب اللون ، والشاحب الوجه ، ذو العينين الواسعتين للغاية واللثان تخفيهما نظارتان سميكتان ، آخر الأكفياة الذين تمكنك الفاشية من تجنيدهم في صفوفها . وكان يتحدث دائماً عن بعث الحزب ودوره الجديد كحزب ثورى يجمع بين الجماعية والتطرف الاجتماعى

والاشتراكي ، بحماسة متقدة ، كانت تتعب موسوليني ، الذي مل أيضاً تفجرات بافوليني المسرحية ، ومطالب بوفارينى - جيلدى المدروسة بإيقاع عقوبات صارمة. بأعداء المخور. وكان هؤلاء الثلاثة ، أى بافوليني وميزاسوما وبوفارينى - جيلدى ، هم الذين اعتمد عليهم الألمان لضمان سير الجمهورية الاشتراكية في الطريق الذى رسموه لها . وكان هناك عضواً رابع فى الحكومة ، لا يشك فى ولائه للحلف الألمانى وهو الماريشال رودولفونجرزىانى. وقد تحدث إلى ضابط ألمانى فقال . . . « لم أكن فى يوم من الأيام فاشياً ، وإنما كنت دائماً جندياً يطيع الأوامر » . وبالرغم من أنه اعترف بنجبة أمه فى عودة موسوليني إلى الحكم ، إلا أن كراهيته لبادوليو ، واحتقاره للدسائس السياسية التى كان يقوم بها ضباط القيادة العامة ، كدنا كبيرين ، بحيث حملتا الألمان على تجاهل عيوبه السياسية وعدم فشيتيه ، ولا ريب فى أن الحكومة قد اكتسبت مظهراً محترماً بتعيينه وزيراً للدفاع. أما الوزارات الأخرى فقد أسندت إلى رجال لم يتميزوا بالشهرة ولا بالمواهب الفائقة ، فقد أصبح ترينجالى - كازانوف وزيراً للعدل ودومنيكوبيليجرينى وزيراً للمالية وسيلفيوجاى وزيراً للاقتصاد وإدواردوموروفى وزيراً للزراعة ، وكالوالبرتوبيجينى وزيراً للتربية ، وجيوسيبى بيفريل وزيراً للمواصلات . واختير فرانسيسكوماريا باراكو سكرتيراً عاماً لرئاسة مجلس الوزراء . وحمل موسوليني نفسه من أعباء وزارة الخارجية ما سمح له بمزاوتها ، بينما عهد بوكالتها إلى الكونت سيرافينو مازولينى . وكان هذا رغم جسده الضعيف الذى أنهكه السل والسكر ، يتميز بالحماسة والعنف والجنون ، وكان صالحاً كل الصلاح لإجراء الدسائس واللاواقعية التى صبغت الجمهورية بطابعها .

وكان موسوليني طيلة حياة جمهوريته ، يبدل أقصى الجهد لتجنب صحبة الوزراء الذين يؤلفون حكومته ، مؤثراً التحدث إلى رجال من الخوارج السياسيين . وكان من أبرز هؤلاء كارلو سيليفيسترى ، الصحفي الاشتراكي ونيقولو بومباكي الشيوعى السابق ونائب السكرتير العام للحزب الاشتراكي الإيطالى ، وكان يعرفهما منذ عام ١٩٠٢ ، عندما كانا يعملان معه كمعلمين فى مدرسة واحدة فى جواتيرى . وبالرغم من أن بومباكي ، صديق شبابه ، كان قد تحول إلى علموسياسى له ، فإن موسوليني

تطوف في عام ١٩٣٧ في مساعدته ومساعدة أسرته ، عندما أخرج من عمله . وكان هذا العمل فضلاً لم يستطع بومباكي السريع التأثير أن ينساه أبداً . وعندما سأله أحدهم عما يعتزم أن يعمل ، إذا انهارت الجيوش الألمانية قال . . . « سأشاطرهم مصيره . فأنا لن أنسى م عمله لأسرى ، عندما كانت تتصور جوعاً » .

وكان يقول إن موسوليني نفسه الآن في حاجة إلى المساعدة والعطف . ولذا فقد مضى للإقامة معه في روكاديل كاميناتي . وكان يصغى بطويل صبر وتفهم لشكاواه الطويلة من الألمان وتدمره وحملاته عليهم ولا سيما أن نفوذهم عليه هنا كان كبيراً كما كان في ألمانيا نفسها .

وكان جنود الحرس النازي يحرسون حدائق دارته باستمرار . ويقفون مراقبين له ، وهو يحاول استعادة قواه الضائعة ، ولياقته البدنية ، بتحطيط الأشجار في الحديقة . وعند ما تقرر بناء على نصيحة الألمان إقامة عاصمة الحكومة الجديدة في بلدة سالو على بحيرة جارداد بدلا من رومة ، التي قد ينسحب منها الألمان عما قريب أمام الحلفاء . انتقل موسوليني إلى دارة فيلترينيلي ، في بلدة جرجنانو الصغيرة والواقعة على بعد بضعة أميال إلى الشمال من سالو على شاطئ البحيرة . وراح الجنود الألمان يتولون حراسته في مقره الجديد أيضاً^(١) . وقد اختبر هؤلاء الحراس من دهماء الألمان الذين لا يمجيدون الألمانية بله الإيطالية ، وكان منظرهم يثير من البأس ما لا يطاق في نفس موسوليني . وكثيراً ما سمع يشكو غاضباً . . . « أنا لا أريد من الناس أن يظنوا أنني سجين » . ولكنه كان سجيناً حقاً . فقد كتب ضابط ألماني شاب إلى أسرته يقول . . . « إن الحراسة عليه مشددة . وأنا لا أخطو في الحديقة إلا إذا غنيت أو صفرت . إذ أن هناك رجلاً من الحرس النازي ومسلحه في يده ، وراء كل شجرة . وهناك عدد من الإيطاليين أيضاً من ذوي القمصان السوداء لتغطية المظهر ليس إلا » .

وكان الجنود الألمان يتبعونه بسياراتهم العسكرية ، إذا ما خرج بسيارته ، كما كان الجواسيس الألمان يصغون إلى مكالماته الهاتفية التي كانت تتم عن طريق

(١) كان من أهم مظاهر الضعف في جمهورية سالو ، أنها أقيمت في ذلك المكان النائي في الشمال لضرورات عسكرية ملحة ، ولا ريب في أن الحكومة الفاشية بتخليها عن رومة . عاصمة البلاد التاريخية ، قد فقدت كل ما كانت تلمع فيه من مكانة ضئيلة ، في الظروف التي خلقت فيها ، ما أوسع بحقيقة وضعها القريب .

مقسم الجيش الألماني. وكان يتلقى زيارات منتظمة من الجنرال وولف ، والسفير ران ، والدكتور زاخارى والعقيد دولان ، فقد تلقوا شخصياً تعليمات من هتلر بأن لا يغيب الدوتشي عن أنظارهم . وكان كثيراً ما يتذمر قائلاً . . . « إن وولف ودولان هما سجاناي » . وعندها كان يطل برأسه من النافذة ، فيرى خوذة ألمانية ... كان يقول « إنهم هناك كالبعق في جلد الحرباء » .

وكان يكثر من التذمر على هذا النحو لزارثريه من الإيطاليين ، ولكنه لم يشك مرة واحدة إلى هتلر . وقد كتب إليه ذات يوم شاكياً من السلوك المتعسف المستبد للجنود الألمان ، ومن احتلالهم المتعسفين للأقسام الشمالية الشرقية من إيطاليا الذي شابه الضم تقريباً ، ومن موقف الحكومة الألمانية ، التي تعتبر موقفه موقف التابع لها . لكنه لم يتلق ردّاً مرضياً . ولذا لم يعد إلى مثل هذا الاحتجاج المطلق ، مستمداً شيئاً من الغزاء من معرفته بأنه قد احتج مرة واحدة على الأقل ، ومعيداً تلاوة الصورة التي احتفظ بها أحد سكرتيريه في درج مكتبه بكثير من الرضى .

ولم يحتج موسوليني على محاكمة خونة الخامس والعشرين من يوليو ، وهي المحاكمة التي فرضها عليه هتلر . فقد قبل شروط هتلر ، وأصدر أوامره باعتقال هؤلاء الخونة وتقديمهم إلى المحاكمة . وكان يقول إن على العالم أن يعرف أن مؤامرة خفية قد حيكت ضده وأن الملك قد اشترك فيها ، وأن يعرف أيضاً أنه ما زال صاحب السلطان ، وأن دوتشي الفاشية أقوى من كل شيء . ووصف سكرتيروه ، أنه عندما كانت أسماء الخونة تتلى على مسامعه ، كان وجهه يتخذ تعبيراً جامداً كالرخام ، كوجه الإمبراطور كراكتلا الذي عرف بالغلظة والبعد عن الرحمة والعاطفة . وكان في وسعهم فقط أن يجلسوا بما كان يفكر فيه . ترى هل كان يخفى وراء تلك الصورة من الحمود الثلجي شعوره بالخجل لضعفه وعجزه عن مقاومة مطالب هتلر ؟ أو هل كان يخفى قلقاً إنسانياً على أطفال ابنته لايدا ، الذين ظل الألمان حتى بداية شهر ديسمبر يحتجزونهم في مونيخ وكأنهم رهائن ؟ أو هل كان يأمل في استعادة شهرته بالعدالة الصارمة وعدم المحاباة ؟ أو هل كان يؤمن حقاً بما قاله ذات يوم لسيرفينو مازولينى ، من أن هذه المحاكمات ضرورية لأسباب تتعلق بالدولة ؟ وهل كان صادقاً عندما قال فيها بعد للصحنى إيفانو فوسانى ، بأنه لم يكن راغباً في المحاكمة شخصياً ، ولكن الحزب والألمان كانوا مصممين .

على إجرائها « لإعادة الإيمان بالحلف الألماني - الإيطالي » ٤ .

ومهما كانت الدوافع التي دفعته ، فإن الذي لا شك فيه هو أنه قد أصدر في الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٤٣ ، مرسوماً بإقامة المحكمة الخاصة ، وأنه لم يتردد لحظة واحدة في عزمه على الوفاء بوعوده إلى هتلر . وقد نص المرسوم على أن تستلهم المحكمة « العدالة في حكمها » ، وأن تستوحيه أيضاً « من المصالح العليا للبلاد التي تخوض غمار الحرب » ، ونص المرسوم أيضاً على أن من واجب رئيسها أن يسير في إجراءاته « دون اكتراث بأى إنسان مهما يكن » ، ولم يكن ثمة شك في هوية المعنى بهذا التعبير الغامض .

وكانت إيذا قد جاءت لرؤية أبيها بعيد عودته إلى إيطاليا . وعندما وصلت وكان الإعياء قد أخذ منها كل مأخذ بعد رحلة طويلة في قطار حربي بطيء . راحت تتوسل إلى أبيها ، بما يشبه « الهستيريا » بأن ينقل زوجها جاليازو من قبضة الألمان . فرد عليها موسوليني بنفاد صبر . . . « لا تضطربي إلى هذا الحد » . ونصحها بأن تمضي إلى دار لمتحمريض ، فليس في استطاعته أن يعينها بشيء . فقد زوده ريبنتروب « بوثائق مادية » ، تثبت بصورة تقطع الشك « خيانة جاليازو » ، ولا سيما مع الإنجليز » ، وأنه لا يستطيع أن يغفر له ذلك لأن إيطاليا لا تغفر له .

وكان تشيانو قد اجتمع بموسوليني تحقيقاً لوعده في مونيخ وذلك قبل عودته إلى إيطاليا ، وكانت المواجهة قصيرة ومثقلة . وحاول « الفطر السام » كما كان جوبلز يدعوه ، أن يشرح للدوتشي سلوكه في المجلس الفاشي الأعلى ، بينما ظل وجه الدوتشي جامداً كالصخر ، وخالياً من كل تعبير . وبدأ وكأنه لا يستمع إلى صوت جاليازو ، وهو يتطلع إليه باشمئزاز جامد ، لا يصفح ولا يغفر . وظل واقفاً ، أمام المدفأة ، عندما فارقه تشيانو ، دون أن يسمح له بوداعه . وبدأ وكأن الدوتشي قد قرر أنه لا يختلف أيضاً عن الرجل الذي بات الآن سيده ، وأن الشفقة لا تعرف طريقاً إلى قلبه ، وأن خيانة زعيم الفاشية خيانة عظيمة ، وأن عقوبتها الوحيدة هي الموت . وكان يقول قبل سنوات طويلة . . . « أشعر بشبه كبير بدانتى ، في وطنيته ، وصلابته ، فقد كان لا يغفر لأعدائه حتى بعد أن يصل بهم إلى الجحيم » .

وحاول تشيانو بعد هذه المقابلة مرة ثانية ، الرحيل إلى أسبانيا ولكن الألمان حالوا بينه وبين تحقيق بغيته من جديد . لكنهم سمحوا له بالعودة إلى إيطاليا ، فاعتقد أنه سيستعيد حريته ، ولذا طار من مونيخ إلى فيرونا حيث اعتقلته على الفور قوة من الجنود الألمان ورجال الشرطة الإيطاليين .

ولما فشل إيدا في تحطيم تصميم والدها المتحجر ، مضت إلى هتلر تقابله ، ولكنه رفض أيضاً التدخل لإنقاذ حياة زوجها . وراحت تتوعد بأنها ستحسر النقاب عن أمور تهم العالم بأسره ، وأصيب هتلر ، كما قال موسوليني للمازوليني « بشيء من الفزع » ، ولاسيا أنها قد أعادت تهديدها في رسالة بعثت بها إليه . وليس ثمة من ريب في أن هتلر طلب عن طريق السفارة الألمانية تأجيل المحاكمة . لكن موسوليني تمسكاً منه بالدور الذي أخذ على عاتقه القيام به ، كان أصلب من الصخر . وأعلن أنه « لن يؤجل المحاكمة يوماً واحداً » . وعندما نصحه رجل القانون رولاندو ريشي الذي ساعده في إعداد دستور الجمهورية الاشتراكية الجديدة ، بالعدول عن المحاكمة ، رفض النصيحة بنفس العناد . وعندما توسلت إليه إيدا توسلاً عاطفياً بوصفه والدها ، وجد أطفالها . رد قائلاً . . . « لم يكن أسلافنا الرومان يترددون لحظة واحدة ، إذا تطلبت مصلحة رومة العليا ، في التضحية بأبنائهم في سبيلها . وليست القضية هنا قضية والد أو جد ، بل قضية دوتشي الفاشية » . . . وانفجرت إيدا باكياً ثم خرجت من الغرفة مهرولة .

وبأت إيدا على وشك الانهيار العصبي ، فاستمعت إلى نصيحة والدها ومضت إلى دار للتمريض والرعاية في رامبولو قرب بارما ، حيث دخلته تحت اسم مستعار هو إيلزا سانتوس . ووصف جيوفاني دولفين ، أحد سكرتيري موسوليني ، زيارتها لبيت أبيها . ولم يكن هنا قد رآها من قبل ، فتأثر بالشبه الكبير بينها وبين أبيها ، وكتب في يومياته يقول . . . « إنها تختلف كثيراً عن صورها الفوتوجرافية ، بل إنها صورة طبق الأصل عن أبيها » . وكانت لهما نفس العيون ونفس التقاطيع ، ونفس الحركات ، ونفس الوضوح في الحديث . وكنا يتشابهان أيضاً في نفس العادة العصبية وهي الرجوع فجأة بالرأس إلى الوراء وسط الحديث ، ونفس التطلع بنظرات مغناطيسية إلى الشخص الذي يتحدثان إليه . وبالرغم من أنها حاولت

إخفاء هياجها ، إلا أنها كانت قريبة من الجنون . وبدت غير مهيمنة وشاحبة الوجه ، ونحيلة الجسم ، وكأنها مريضة تماماً كما كان والدها قبل بضعة أسابيع . وعندما غادرت الدار بعد أن فشلت في مهمتها ، لاحظ أحد الخدم ، العبرات وهي تنساب من مآقيها على وجنتيها . ولم يمض يومان على هذه الزيادة حتى كان الضابط الألماني الذي يتولى قيادة حرس الدارة ، يستدعى إلى فيرونا ، ليوضح الأسباب التي دعت له للسماح للكويتيسة تشيانو ، ابنة موسوليني المقربة ، بدخول الدارة .

ولم يكن لقلق الألمان ما يبرره . واستمرت الإعدادات لمحاكمة تشيانو . واختار موسوليني لرئاسة المحكمة عامياً قديماً يدعى الدو فيشيني ، كان يشارك رولاندو ريشي شكوكه في صلاح الأدلة التي تقود المتهمين إلى المحاكمة ، ولكنه اضطر إلى استبعاد هذه الشكوك . أما الأعضاء الثمانية الباقون فلم تكن لديهم شكوك أبداً ، وكان خمسة منهم ، من أشد الناس إخلاصاً للفاشية . ولم يمثل أمام المحكمة من التسعة عشر متهماً إلا ستة فقط ، أما الباقون وبينهم زعيمهم جراندي الذي فر إلى أسبانيا فور اعتقال موسوليني ، فقد تمكنوا إما من الفرار إلى الخارج ، أو الاختفاء في إيطاليا . وكان الحاضرون هم اميليو دي بونو وتوليو شيانيني وجيوفاني مارينيلي ولوشيانو جوتاردى وكارلو باريشي وتشيانو .

وبدأت المحاكمة في الساعة التاسعة من صباح السبت في الثامن من يناير عام ١٩٤٤ في قاعة كاستيلفيشيرو في فيرونا . وجلس أعضاء المحكمة ، وكانوا جميعاً يرتدون القمصان السوداء ، على منضدة تقوم على منصة ترتفع وراءها ، قطعة كبيرة من القماش الأسود نقش عليها شعار الفاشية . وتلقى كل منهم في الليلة التي سبقت المحاكمة ، هدية من مجهول ، هي « كفن مصغر » .

وكان إلى الشمال مقعد يجلس عليه المتهمون الستة . وإلى يمينهم منضدة ، جلس عليها الصحفيون والمصورون السينمائيون . وأمام القضاة مقعد يجلس عليه محامو الدفاع ، ووراءهم مقاعد النظارة . وكان المطر في الخارج قد تحول إلى ثلج يتساقط . وجاء النظارة من الخارج صامتين يرتجفون من البرد .

وتلا كاتب المحكمة نص الاتهام بصوت جهورى بشع . وقد اتهم المسجونون

بأنهم « انتهزوا فرصة الاقتراع في المجلس الأعلى للفاشية في الخامس والعشرين من يوليو عام ١٩٤٣ في مدينة رومة ، فتآمروا مع بعضهم وحاولوا تحطيم استقلال الدولة ، وأنهم لم يحبظوا بتشجيعهم الأوهام بشروط صلح هينة ، روح المقاومة المعنوية عند الأمة فحسب ، وإنما أحبطوا العمليات الحربية أيضاً ، وعملوا بذلك على مساعدة العدو وتخفيف الأعباء عنه » .

وكان الماريشال العجوز دى بونو البالغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً هو أول المتهمين ، الذين دعوا للرد على هذه التهمة . ووقف أمام المحكمة بيزته العسكرية وقد زينها بجميع الأوسمة التي نالها قبل الزحف على رومة وبعده . وكان قد رفض في البداية أن يعتبر نفسه مهدداً بالخطر . وقد يكون من حق الملك وبادوليو أن يرتحلا جنوباً إلى برندينزي ، ولكنه هو قد خدم موسوليني بإخلاص أكثر من عشرين عاماً ، وكان على ثقة من أنه لن يصيبه ضرر . ورفض بشيء من الترفع اقتراحات أصدقائه ، بأن يختفى وأن يخلق ذقنه الشهيرة المميزة . وعندما اعتقل ، خيل إليه أن موضوع براءته سيظهر في غضون أيام ، ولم يحاول انتهاز الفرصة التي أتاحت له عندما أصيب بالتهاب السحايا ، وسمح له بالعودة إلى دارته الريفية مقابل وعد بشرفه بأن لا يفر . فقد عاد إلى فيرونا في سيارته ، وأمر سائقه بأن ينتظره إذ أن غيابه لن يطول . ولكن شيئاً ما في جو المحكمة ، سرعان ما أوحى له بأنه كان على خطأ في تقديره . وكانت لديه حاسة الرجل العجوز بالموت . وبينما كان استجوابه يسير في الطريق المعتاد ، قاطع إجراءات المحكمة فجأة ، وقال بفروغ صبر . . . « كل هذا عبث . يبدو أن هناك من قرّر أنني يجب أن أموت . أنا رجل عجوز . عجوز للغاية . إذن ، فأنتم لا تسلبون مني شيئاً . ولكن أرجو أن تسرعوا » . ومضى إلى مقعده وسط همهمة من العطف ، صدرت عن جماهير النظارة ، وجلس في مكانه . وبالرغم من أن استجوابه لم يكن قد انتهى ، فإن رئيس المحكمة ، وممثل الاتهام ، لم يجرؤا على استدعائه من جديد .

وقد أخفقت جهود المحكمة في إقامة البيئة على وجود « مؤامرة مسبقة » ، عندما استدعى المتهم الثاني وهو كارلو باريشي لاستجوابه . وكان باريشي هذا وزيراً للزراعة ، وكانت جلسة المجلس تلك ، أول جلسة يحضرها للمجلس

الأعلى . وكان شاباً يفتقر إلى التجربة . وقد بدا كما قال أحد الصحفيين « ذاهلاً من اتهامه » ، ولكنه رد بمنتهى الهدوء على أسئلة ممثل الاتهام ، نافياً محاولاته لإقامة الدليل على وجود مؤامرة للإطاحة بالدوتشي تمهيداً للصلح مع العدو . وأنهى استجوابه قائلاً بشجاعة « كان جميع الإيطاليين المسؤولين ضد موسوليني وضد الحرب . ولكن لم يكن هناك اتفاق بين أعضاء المجلس الأعلى كما تقول ، ولم تكن ثمة مؤامرة . وكل ما في الأمر أن الكأس كانت قد امتلأت حتى نهايتها ، فجاء جراندى وصب النقطة الأخيرة التي جعلتها تطفح » .

وكان جيانيني المتهم الثالث الذي استدعى للاستجواب . وقد قال إنه سحب تأييده لاقتراح جراندى فور إعطائه له . وإن إيمانه بالدوتشي لم يجب لحظة واحدة . ولم يشر بقليل أو كثير إلى وجود مؤامرة مدبرة . وكذلك فعل جوتاردى الرئيس السابق للاتحاد الفاشى لعمال الصناعة ، الذى قال إنه اقترح إلى جانب مشروع جراندى . لأنه كان يأمل فى أن يؤدي « إلى تحرير الدوتشي من مسئوليات القيادة العسكرية الخطيرة فى ذلك الوقت الذى سارت فيه الحرب سيراً سيئاً » . ولم يعترف مارينيللى أيضاً بوجود المؤامرة . وكان هذا الرجل الأصم الذى بلغ الخامسة والستين من العمر ، خازناً لأموال الحزب سنوات طويلة . وقد ذكر أن حصمه لم يمكنه إلا من التقاط عبارات عابرة من الخطاب التى ألقى في اجتماع المجلس ، وكان قد وقع تحت الانطباع بأن القرار لا يحتوى على شىء يسىء إلى الدوتشي أو الفاشية ، وأنه افترض أن القرار يحظى بتأييد موسوليني نفسه . وعندما استدعى تشيانو أخيراً ، لم يوهى بشىء إلى وجود مؤامرة للإطاحة بالفاشية والدوتشي ، وقال . . . « لم يتقدم جراندى باقتراح من هذا النوع ، ولم أكن لأتصور لحظة واحدة ، بأن القرار سيؤدي إلى سقوط العهد » .

وقال ممثل الاتهام . . . « ولكنك وقعت أمر جراندى اليوم قبل ساعات من عرضه كاقترح على الاجتماع » .

— أجل قبل بضع ساعات . ولكننى عرفت من جراندى أن سكورزا حمل نسخة منه إلى الدوتشي . وعندما تكون هناك مؤامرة للإطاحة بإنسان عن طريق الحيانة ، فإن المتأمر ، لا يحذر عادة من يتأمر عليه ، ولا يبلغه بالوسيلة التى سيستخدمها .

— ولكنك لم تقم شخصياً بإبلاغ حميك . وكان من الطبيعي أن تفعل هذا بالنسبة إلى العلاقة الشخصية التي تربطك به .
— لم يكن في وسعي حتى أنا أن أرى موسوليني ، وقد انقضت على ستة أشهر دون أن أتمكن من رؤيته .

وانقضى ذلك اليوم بطوله بين استجواب المتهمين ومناقشتهم وتلاوة إفاداتهم ، ولكن ممثل الاتهام لم يستطع ، مطلقاً الكشف عن إشارة واحدة إلى وجود مؤامرة ، وهو ما كان يفترض منه أن يقيم الدليل على صحة وجودها . ولكن عندما انعقدت المحكمة في الصباح التالي ، لتستأنف عملها ، عرضت على المحكمة وثيقة ، أظهرت إلى حد كبير ، أن الأعمال التي يتم بها المسجونون ، لم تكن على ذلك النحو من البراءة ، التي حاولوا تصوير أنفسهم بها في اليوم السابق . وكانت الوثيقة التي تلاها رئيس المحكمة بكثير من الأناة والتأكيد ، ورقة كتبها الجنرال الكونت أرجو كافاليرو ، الرئيس السابق لأركان الحرب . وقد عثر على كافاليرو ميتاً على مقعد في حديقة عامة في الساعات المبكرة من صباح الرابع عشر من سبتمبر وبعد بضع ساعات من تناوله طعام العشاء على مائدة الماريشال كيسلرنج في مقر قيادته في فراسكاتي . وكان ثمة مسدس إلى جانبه . وبالرغم من أن ثقب العيارات النارية في الجانب الأيسر من رأسه ، كانت في وضع غريب بالنسبة إلى رجل منتحر ، فلم يكن الآن ثمة ما يبرر الشك في تقرير السفارة الألمانية بأن كافاليرو قد انتحر بإطلاق الرصاص على رأسه . وكان بادوليو قد أمر باعتقاله في نفس اليوم الذي عقد فيه اجتماع المجلس الأعلى ، وكان موسوليني قد نجاه عن منصبه من قبل ليخلفه فيه امبروزيو . وهكذا لم يكن ليثق فيه أحد الجانبين ، وكان يعرف أنه إذا عمل مع أحدهما ، فإن الجانب الآخر سيصمه بالخيانة . وكان قد اشترك إلى حد ما وبصورة متردة في بعض المؤامرات للإطاحة بموسوليني ، وقد ذكر كيسلرنج أن فكرة لقائه من جديد بالدوتشي قد تكون هي التي دفعته إلى الانتحار . وقال رئيس المحكمة إن الوثيقة التي كتبها ، وجدت في مكتب بادوليو بعد فرار الحكومة إلى برنيزي . ولا ريب في أنها بالتفصيلات الوافية التي أوردتها عن المؤامرات ضد الدوتشي ابتداءً من نوفمبر عام ١٩٤٢ ، هي عين ما كانت تطلبه

النيابة من دليل . وكان ثمة شك في صحتها ، ولا سيما أن تقديمها بهذه الصورة المتأخرة إلى المحكمة يجعل الشك فيها أمراً طبيعياً ، وإن كانت الأحداث فيما بعد قد أقامت الدليل على صحة جميع الوقائع التي وردت فيها . وقد حسرت الوثيقة النقاب عن أن رئاسة الأركان العامة بالاتفاق مع الملك ، كانت تبحث جدياً في الإطاحة بموسوليني قبل تسعة أشهر من انعقاد المجلس الأعلى ، وأن امبروزيو وبادوليو قد اتفقا على أن يكون المجلس الأعلى هو الأداة في تحقيق مشاريعهما ، لاكساب هذه المشاريع الصفة الدستورية .

وقبل أعضاء المحكمة بوثيقة كافاليرو كدليل مادي ، واعتبروا أن الاهتمام قد أقام قضيته على أساس صحيح . وانصرفت الجلسة المسائية في ذلك اليوم ، وجلسة اليوم التالي في الاستماع إلى الحجج الحذرة التي تقدم بها محامو الدفاع عن المتهمين ، وإن كانت نتيجة المحاكمة قد غدت الآن واضحة كل الوضوح ، إن كان ثمة شك فيها منذ البداية . وعاد رئيس المحكمة في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر الاثنين ليعلن أن المحكمة قررت الحكم على جميع المتهمين بالإعدام باستثناء شيانتي الذي قضت عليه بالسجن ثلاثين عاماً .

وهتف شيانتي . . . شكراً ، شكراً . أما مارنييلي فقد أغمى عليه . وهتف دى بونو بأعلى صوته «عاشت إيطاليا» وردد باريشي وجوتاردى وتشيانو الهتاف . وجاء الكاهن الذي استمع إلى اعترافات المحكومين في سجن ديجيلي سكانيو ، إلى السجن ثانية في الساعة العاشرة من ذلك المساء ، ليأمر من جديد . ورفض الحراس الألمان السماح له ، في البداية بدخول زنزانه تشيانو ، ولكنه راح يهتف إلى قيادة الجستابو مؤكداً طلبه ، فأمرت هذه رجالها هاتفياً بالسماح له بالدخول ، ليؤدى المحكوم واجباته الدينية الأخيرة .

وقبل بضع ليال ، وجد تشيانو في زنزانه ، رفيقاً من طراز آخر . كان هذا الرفيق فتاة رائمة الجمال ، شقراء الشعر ، دفع بها الجستابو إلى زنزانه فلعلها تستطيع إقناعه ، وهو الكثير الشكوك ، في لحظة من لحظات العاطفة أو الشهوة ، بأن يكشف لها عن المكان الذي أخفى فيه يومياته التي كتبها . لكن هذه الحيلة القديمة خلفت نتيجة غير متوقعة ، فقد فشلت هذه السيدة ، الدونا فيليسيا ، في

إقناع تشيانو ، بأن يدها على شيء ، وروى العقيد دولان ، أنها وقعت في هواه ، وبكت بكاء مرّاً عندما حكم عليه بالإعدام ، ثم تحولت أخيراً إلى جاسوسة للحلفاء .

وجد تشيانو بعض العزاء في ساعاته الأخيرة . فقد تلقى رسالة في السجن هربت إليه من الخارج ، تقول إن زوجته تمكنت بمساعدة عشيقها المركز اميليو يوشى من لفرار عبر الحدود إلى سويسرا ، تحمل بعض « الدفاتر » الصغيرة . التي تضم يومياته الأخيرة ، بعد أن أخفّتها في « حزام » تمنطقت به ، مخلفة يومياته الأولى مع بعض الوثائق المهمة التي تتناول العلاقات الألمانية - الإيطالية والتي كان تشيانو قد أخذها من ملفات وزارة الخارجية ، مع أحد الأطباء في دار القمريض التي كانت تقيم فيها . وكانت إيذا قد جمعت هذه الأوراق والدفاتر من مخبئها في رومة ، وأملت ذات يوم في أن تساوم الألمان عليها ، مقابل إنقاذ زوجها من الموت . وبدأت المفاوضات بالفعل مع الجستابو في إيطاليا ، ولكن عندما نعى نبؤها إلى هتلر ، راح يقنع هتلر ، بوضع نهاية لها . ولم يكن تشيانو ، على أى حال ، مؤمناً باحتمال نجاحها ، وقد ذكر للكاهن الذى زاره في الليلة التي سبقت لإعدامه ، بأنه واثق حتى في حالة نجاحها ، من أن الألمان سيدبرون له طريقة يموت فيها .

وبعد أن أدى تشيانو واجباته الدينية الأخيرة ، استحصل له الكاهن على إذن بأن ينضم إلى المحكومين الآخرين بالإعدام في زنازة دى بونو . وكان مارينبللى قد أصيب بنوبة قلبية ، فاستلقى على الفراش بينما ظل الآخرون يتحدثون إلى الكاهن . وقد تحدث هذا فيما بعد فقال . . . « لم نتحدث عن الحياة التي انتقضت ، وإنما تحدثنا عن الحياة المقبلة ، وعن الله ، وخطود الروح . حقاً كانت ليلة ممتعة ، أشبه بليالى سقراط » . وراح باريشى يقرأ مقتطفات من أفلاطون ، أخذ الآخرون يناقشونه فيها . وذكر أحدهم اسم موسولنى ، وسرعان ما تحول الحديث لفترة قصيرة إلى محادثتهم . وقال جوتاردى ، إن إعدامهم كخونة سيتم بإطلاق النار على أقيمتهم . وهنا صرخ دى بونو غاضباً بصورة مفاجئة ، وقد تجمعت الدموع في عينيه . . . « هذا كثير . فقد ارتدبت بزة الجندي اثنين وستين عاماً على التوالي ،

دون أن ألوثها بلوثة واحدة » .

وجاءت الأنباء عند الفجر بأن موعد التنفيذ قد تأجل . وكانوا جميعاً قد وقعوا في الليلة الفائتة طلباً بالاسترحام ، وعد بافوليني بتسليمه إلى موسوليني وكان من المتوقع أن يصدر عفوه عن دى بونو على الأقل . وساور الأمل أفئدة المسجونين بعض الوقت ، ولكن دى بونو هز رأسه قائلاً . . . « إنه أمل لا جدوى منه . واذكروا أن جاليازو بيننا » . وقد حرص بافوليني في الواقع على عدم تقديم الاسترحام إلى موسوليني ، ليجنب الدوتشي كما قال « مشقة تصديق حكم الإعدام » .

وجاء ضابط ألماني في الساعة الثامنة صباحاً إلى السجن يقول إن « المصاعب الفنية » قد ذلت ، وأن التنفيذ سيتم في غضون ساعة على بعد بضعة أميال خارج فيرونا في قلعة بروكولو . ونقل المحكومون في سيارة إلى هناك تحت حراسة الجنود الألمان . وفقد تشيانو في نوبة هياج زمام السيطرة على أعصابه ، وراح يشتم موسوليني ويلعنه أقذع اللعنات ، إلى أن وضع دى بونو يده على كتفه قائلاً له بأن عليه أن يستقبل ربه وقد غفر للمسيئين إليه .

وكان الصباح قرراً شديد البرودة ، مما دعا دى بونو إلى أن يفرك يديه بعنف وهو يخطو من السيارة إلى صف من المقاعد المدرسية ، كان المحكومون سيشدون إليها وقد أعطوا ظهورهم للثلة التي ستطلق النار . وكان تشيانو قد عاوده هدوؤه من جديد فأشار إلى المقعد الأيمن وقال . . . « هذا مقعدك يا ماريشال ، فھر من حقلك » . ورد دى بونو قائلاً . . . « لا أعتقد أن ثمة أهمية للأسيقية في الرحلة التي ستمضي إليها بعد لحظات » .

وطلب الرجلان من ضابط الشرطة الذي يقود ثلة إطلاق النار ، أن يواجهها البنادق بصدرهما ، ولكنه رفض طلبهما . وأغمى على مارينيللي من جديد ، وحمل إلى مقعده حملاً . وخلع بارينشي معطف الفراء الذي كان يرتديه وقدمه إلى الجندي الذي كان يشد وثاقه إلى المقعد . وتم جوتاردى بضع كلمات لم يسمعها أحد ، ولعله كان يصلى . وكانت السماء متلبدة بالغيوم ، وشك مولر ، المصور الألماني ، في أن الصور التي سيلتقطها ستكون واضحة . وبينما كان يضبط عدسته ، هتف

دى بونو « عاشت إيطاليا » .

ورد تشيانو هاتفاً . . . عاشت إيطاليا .

وصدر الأمر بإطلاق النار ، وأعدم الرجال الخمسة . وتمكن تشيانو فى اللحظة الأخيرة من الإفلات من وثاقه ، وواجه جلاديه . ولم تكن إصابتهم له دقيقة فلم يمت ، وقدم إليه ضابط الحرس ، فأفرغ رصاص مسدسه فى رأسه . وظهر فى صورة مولر ، وجه تشيانو بمنتهى الوضوح ، وقد علاه الهدوء ورباطة الجأش . وكان تشيانو قد قال لكاهنه . . . « لقد جرفتنا نفس العاصفة . وكل ما أرجوه أن يعرف أولادى أنى مت لا أحمل حقداً على أى إنسان » .

٢

ورأس موسولبنى بعد ساعتين جلسة مجلس الوزراء ، وبادر وزراءه قائلاً بتجهيم . . . « أخذت العدالة مجراها » .

وكان قد قضى كعادته فى هذه الأيام ليلة قلقة لم يذق جفنيه فيها طعم الكرى . وروى سكرتيره جيوفانى دوفين ، أنه تحدث بالهاتف فى الساعة الواحدة صباحاً ، طالباً أنباء ابنته إيدا ، والرجال المحكومين فى فيرونا . وتحدث فى الساعة السادسة بالهاتف إلى الجنرال وولف . ويبدو أنه كان متلهفاً على أن يظهر بمظهر الإنسان الهادئ الذى لا يتأثر بعواطفه ، إذ ظل يتحدث إلى الجنرال الألماني ساعة كاملة بمنتهى اللطف والود . وروى كل من العقيد دولمان والحر مولهاوزن رئيس القسم السياسى فى السفارة الألمانية ، أنه لم يذكر طيلة الحديث شيئاً عن « المأساة الوشيكة الوقوع » . وذكر وولف لمولهاوزن ، أنه يعتقد بأن موسولبنى أجرى هذا الحديث الهاتفى الطويل . . كوسيلة يقضى بها تلك الساعات الحرجة ، ونحوه دون ضعفه وانهباه » .

وعندما جاءه دولفين يبلغه أن التنفيذ قد تأجل ، هز رأسه ، متمتماً بعبارة أو عبارتين ، ثم مضى يكتب على مكتبه . وأدرك السكرتير أن الدوتشى يبذل جهداً بالغاً ، للحفاظ على تظاهره بعدم الاهتمام . ونقلوا إليه بعد ساعة أن الخونة

قد أعدموا ، فاستقبل النبأ بصمت . محاولاً أن لا يفضح عواطفه العميقة ، التي خيل لدولفين أنها سيطرت عليه . وكان قد قال في الليلة السابقة وكأنه يعتذر . . . « لم أكن في يوم ما متعطشاً للدماء . أما تشيانو فقد مات بالنسبة إلى منذ أمد طويل » . وراح يعلق الآن باقتضاب وبشيء من التجهم ، على ما نقلوه إليه عن استقبال المحكومين للموت ، فأعرب عن سعادته لأن يعرف بأن صهره والآخرين قد ماتوا كإيطاليين شجعان وكفاشين . ولكنه عندما مضى إلى مكتبه ، دون أن يتناول من الطعام شيئاً ، كان يبكي بحرق ، كما روت زوجته راشيل . وراح يقول بشيء من اليأس لسكرتيه دولفين ، وقد تحطم ستار الجحود الذي فرضه على نفسه أخيراً . . . « سنفقد عطف الشعب الإيطالي ، ولن يفهم هذا الشعب أبداً حقيقة ما أعاناه من عذاب » .

وتحولت تلك التقلبات في المزاج التي طبعت حياة موسوليني في السنوات الأخيرة ، والتي تميزت بعدم الثبات والدوام ، بعد محاكمة فيرونا ، إلى حالات أكثر ظهوراً ، وأكثر تكراراً . وراح موسوليني يقول في اليوم الذي تلا تنفيذ الإعدام ، لوكيل وزارة خارجيته . . . « أما وقد بدأنا دحرجة الرؤوس على الرغام ، فسنعرض في طريقنا هذا حتى النهاية » . وراح يصدر أوامره إلى رئيس شرطته تامبورييني باعتقال كافة الفاشيين غير الموثوقين الذين ضمن أسمائهم قائمة سلمها إليه . ولكن لم تمض أيام على هذا الأمر ، حتى كان قد غير فكره ، فراح يلغى أوامره السابقة إلى تامبورييني ، متحدثاً عن الصفح والغفران . وكان في هذه الآونة ، كثيراً ما يبدو وقد فقد كل رغبة له في الحكم ، حاصراً تفكيره في ماضيه وفي مكانه في التاريخ . وكان المصورون والصحفيون الذين يفدون لمقابلته ليقوموا الدليل للشعب على أنه ما زال حياً يرزق ، يحاولون أن يظهره ، وكأنه لم يفقد شيئاً من حماسه الروحي السابق والمتقد ، ولكنهم كانوا يعترفون في أحاديثهم الخاصة ، بأنه كان يبدو قلقاً ، مغلوباً على أمره . وكان مظهره الصحي ، قد تحسن كثيراً عما كان عليه عندما أُنقذ من سجنه في فندق « الصخرة العظيمة » . وكان يرد بجرأة على أسئلة الصحفيين ، وينظر بقوة وثبات إلى عدسات المصورين ، ولكن العدسات لا تكاد تختفي ، وأوراق الصحفيين لا تكاد تبعد عنه ، حتى يعود إلى

حالة التبدل التي أصبحت ترافقه في هذه الأيام . وسأل ذات يوم العقيد دولان ، عما إذا كان صحيحاً ، ما يقال ، من أن أصبغاً واحدة لم ترتفع في رومة لنصيرته بعد اعتقاله ، فلما رد عليه هذا بالإيجاب معترفاً بالحقيقة ، قال ، وقد استبد به الغضب ، إنه يستطيع أن يغفر للشعب مثل هذا النكران للجميل . ومضى يقول . . . « لم يفعل إنسان لرومة منذ أيام يوليوس قيصر ما فعلته لها . وإن أعود إلى قصر البندقية إلا كما يعود الفاتحون » . ولكنه نسي في اليوم التالي غضبه وزهوه ، وعاد يغوص في حالة السبات التي تنتابه في يقظته .

وكان يقضي الساعات الطوال في قراءة الصحف ، متطعلاً بلهفة ، إلى خبر ينشر عنه ، ومقتطعاً منها المقالات التي تخصه مباشرة ، حتى تلك التي نشرتها صحف رومة في أوقات أسره ، والتي تضمنت قصصاً مثيرة ملفقة عن حياته الخاصة ، وعن خيلياته المزعومات . وكان يضع رقماً من هذه المقالات ، ويؤشر عليها بقلمه الأزرق . وكان يكثر من اختلاق الأعذار لفشله ، وإضاعته للإمبراطورية التي أقامها . وكان ينحى بالملامة على الجميع ، لا يستثنى أحداً ، فلوهم بنصب على قدم المساواة على البريطانيين والأمريكيين والألمان والإيطاليين والماسونيين والبورجوازيين واليهود ومتآمري الخامس والعشرين من يوليو ، وإن كان اللوم في رأيه يقع أول ما يقع على الملك . وراح ذات يوم يلقي خطاباً في عرض للجنود الفاشيست في جوادريا ويقول . . . « لو لم يقع الانقلاب لما كنت اليوم في ضاحية من ضواحي بريسكيا ، بل لكنت في أحد ميادين القاهرة »^(١) .

وكتب وزيره للثقافة الشعبية فيرناندو ميزاسوما يقول ذات يوم . . . « إنه لا يفكر إلا في التاريخ ، وفي الصورة التي سيجعلها له » .

وكان يقضي الساعات الطويلة أيضاً ، يحاضر وزراءه وزائريه ويدونهم بأفكاره التاريخية والسياسية ، مستخدماً الإشارات والتعبيرات الضخمة التي كان يستعملها في شبابه . وكان يشهد ذات يوم مؤتمراً للحزب في مقره الرئيسي في دارة كافاليرو ، فأحس بالملل ، وهب من مقعده ، ثم أخذ يلدع الغرفة جيئة وذهاباً ، إلى أن توقف فجأة ، وقد ضم ذراعيه إلى صدره وقال بشيء من الجدة . . . « وما هي الفاشية ؟ » .

(١) حلم استعماري - عاش عليه موسوليني ولكنه لم يتحقق .

وكان من الواضح أنه سؤال بياني ، إذ أنه راح يرد على السؤال قائلاً . . .
 « إنه سؤال لا يرد عليه إلا بطريقة واحدة وهي أن الفاشية هي الموسولينية . علينا
 ألا نخذع أنفسنا . فليس في الفاشية كعقيدة أى جديد ، وإنما هي ثمرة الأزمة
 الحديثة ، أزمة الإنسان الذى لا يستطيع أن يظل محصوراً ضمن القيود العادية
 للقوانين الراهنة . وفى وسع الإنسان أن يطلق عليها اسم اللاعقلانية » . وقال
 فى يوم آخر ، إنه لم يخلق الفاشية ، وإنما كل ما فعله هو أنه استغل الميول
 الفاشية الكامنة فى نفوس الإيطاليين . ومضى بعد ذلك يقول . . . « ولو لم تكن
 هذه هي الحقيقة ، لما تبعنى الناس عشرين عاماً . فالشعب الإيطالى شعب ضعيف
 قلب . وعندما أمضى عن هذه الحياة ، سيتساءل المؤرخون وعلماء النفس ، بكل
 تأكيد ، عن الطريقة التى تمكن فيها رجل واحد ، من قيادة مثل هذا الشعب
 مدة طويلة . ولو لم أفعل شيئاً سوى هذا ، فإن هذه المأثرة يجب أن تكون
 كافية لثلاثي يبتلعنى النسيان فى أعماقه . وقد يتمكن البعض من الانتصار بالسيف
 والنار . ولكنهم لا ينتصرون بموافقة شعوبهم ، كما انتصرت أنا . . . وعندما يقول
 البعض إننا كنا الحرس الأبيض الذى يدافع عن البورجوازية ، فإنهم يكذبون
 دون أن يحسوا بالخجل والعار . وقد عملت ، وأنا أقول هذا بضمير مستريح ،
 على النهوض بالعمال ، أكثر مما عمل أى إنسان آخر . . . وجعلت من الديكتاتورية
 شيئاً نبيلاً . ولكنى لم أكن فى الواقع ديكتاتوراً ، لأن سلطتى لم تكن أكثر من
 تجسيد لإرادة الشعب الإيطالى » .

ومضى على هذا النحو فى حديثه . يزداد غموضاً والثواء ، ويلف معانيه
 بتعابير غير واضحة ، إلى أن أصبح سامعوه ، لا يستطيعون فهم ما كان يقوله ،
 وكانوا يشكون فى أنه يفهم حقاً ما يقوله . وفى مرة أخرى ، وكان يتحدث عن
 الدفاع عن رومة ، راح يلقى خطاباً مطولاً عن « انهيار فرنسا عضوياً وحياتياً » .
 وكان فى مرات أخرى ، يعود فى أحاديثه إلى ما كان يقوله قبل سنوات طويلة
 كاشتراكى ، مستبعداً ما طرأ على الفاشية من تطورات أخيرة وصفها بأنها « مصيبة
 سياسية » . وقال ذات يوم لنيقولا بومباكي . . . « إننا خسرنا كل شيء ، دون
 أن يكون لدينا مجال للاستئناف . وسيحكم علينا التاريخ فى يوم ما قائلاً إننا شيدنا

أبنية عدة ، وأقمنا جسوراً كثيرة عبر عدد من الأنهر ، ولكنه سيجد نفسه مضطراً إلى الوصول في النهاية ، إلى أننا كنا من ناحية الروح « ببادق » عادية على لوحة شطرنج الأزمة الأخيرة للضمير الإنساني ، وأنا ظللنا نمثل هذا الدور حتى النهاية .

أصبح هذا هو التقويم المألوف الذي بات يردده دائماً . وقد عترف ذات يوم في إحدى هذه اللحظات التي كان يعكف فيها على التحليل والنقد الذاتيين بقوله . . . « سلمنا أنا وهنتر أنفسنا إلى لأوهامنا كزوج من الهجانين . ولم يبق أمامنا إلا أمل واحد ، وهو أن نخلق الأسطورة » . لكن الآخرين لم يكونوا في حاجة إلى خلق الأسطورة ، إذ أن أعمالهم خلدها التاريخ . وكثيراً ما تحدث عن هؤلاء الناس من أمثال فردريك الكبير ونابوليون وجورج واشنطن وبسارك . وعن أبناء جلدته من الإيطاليين من أمثال جاريبالدي^(١) ، ومازيني . وجيوليني^(٢) وكريسيبي^(٣) ، الذين تتشابه ظروف حياتهم مع حياته . وكثيراً ما تحدث أيضاً عن معاصرين من أمثال بييترونيي ، الذي ظل رغم كل ما قيل وكل ما وقع إيطالياً صالحاً ، ودينوجراندي ، الذي « كان بالرغم من كل شيء خير من أنجسته الفاشية من أبنائها » ، وبريان^(٤) « السياسي الوحيد الذي رغب صادقاً في إقامة اتحاد اثنلافي (فيدرالي) أوروبي دون اللجوء إلى القوة المسلحة ، وأنطوني إيدن الذي كان يكرهه ، وروزفلت الذي كان يحقره ، ولانزبوري^(٥) وهو وليد جورج من الذين كان يميل إليهم ، وستالين الذي كان يحسده وتشرشل الذي كان يعجب به كل الإعجاب . ولم يكن يستطيع على أي حال ، إخفاء غيرته من انتصارات

(١) جيوسيبي جاريبالدي وطني لإيطالي وقائد عسكري (١٨٠٧ - ١٨٨٢) - تولى قيادة الحملة المشهورة باسم حملة ألف ولعب دوراً كبيراً في وحدة إيطاليا .

(٢) جيوفاني جيليني (١٨٤٢ - ١٩٢٨) - شغل الوزارة عدة مرات ، وكان رئيساً للوزراء . أدخل إصلاحات عدة لمصلحة الطبقات الدنيا وتناولت إصلاحاته النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

(٣) فرانميسكو كريسيبي (١٨١٩ - ١٩٠١) - سياسي إيطالي ومن الذين لعبوا دوراً كبيراً في الوحدة الإيطالية ، ألف الوزارة عدة مرات ، وكان له نفوذ عظيم في السياسات الإيطالية .

(٤) أريستيد بريان (١٨٦٢ - ١٩٣٢) - سياسي فرنسي مشهور . ألف الوزارة عدة مرات واشتهر بميثاق برين - كيلوج الذي لعب دوراً بارزاً في السياسات الأوروبية .

(٥) جورج لانزبروري (١٨٥٩ - ١٩٤٠) - زعيم حزب العمال البريطاني قبل كليمنت أتلي .

تشرشل في كثير من الأحيان . وقد قال عنه ذات يوم . . . « إنه لا يفهم الروح الأوروبية ، ولا يفهم شيئاً حقاً ، إلا ما يحتاج إليه هؤلاء الإنجليز . لكنه رجل الساعة ، لأنه يكره الألمان » . وكانت مزيمته العظمى في نظره بالطبع ، أنه لم يكن سياسياً بقدر ما كان قرصاناً من قراصنة البحر . « فهو رجل عجوز عنيد ، حرون ، لا يتحزح عن رأيه » ، وكثيراً ما قال عنه لميزاسوما بشيء من الاحترام الذي يكاد يشبه الحب . . . « إنه يشبه والذي إلى حد كبير » .

ولم يكن يتحدث دائماً بمثل هذه الصورة البعيدة عن الحزازات والمفرقة في التسامح ، فقد كان مجرد ذكر اسم إنسان أمامه . يستفز لديه شعوراً طاعياً من الغضب . وكان اسم فاريناثشي أحد تلك الأسماء التي لم يكن يطبق مجرد ذكرها أمامه . وقال ذات يوم لدولمان غاضباً . . . « لا تذكره أبداً . إنه يريد أن يخلفني » . وقال مرة ثانية عندما تناول الحديث رجلاً فاشياً آخر لم يكن يحبه . . . « لا تذكر اسمه » . واستطرد وهو يعرض بعصبية على نواجهه . . . « إن سماعي باسمه ، يهيج أعصابي » . وكان يغلي ذات يوم بالغضب والهياج ، فأراد ميزاسوما أن يصرف اهتمامه إلى موضوع يستهويه ، وقال . . . « وأنت با دونشي ؟ ما رأيك في نفسك ؟ »

وقال وهو يتبسم تلك الابتسامة التي كان يعتمد أن تبدو مغلفة ، والتي كان يلجأ إليها دائماً عندما يريد الإفشاء بإحدى تعبيراته الجديدة . . . « أنا ؟ أنا لست بالسياسي ، وإنما أنا أقرب إلى الشاعر المحنون » .

وكان يود لو كان شاعراً ، كما كان هتلر يود أن يكون رساماً عظيماً ، وكما كان يبدو أن معظم الديكتاتوريين يتظاهرون بالمواهب الفنية . وكان يود أن تكون لديه مواهب دانوزيو الخيالية أو مواهب بودلير^(١) أو ريمبو^(٢) ، وكان يتحدث

(١) شارل بيير بودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧) - شاعر فرنسي كبير . توفي والده بعد ولادته . وتزوجت أمه من الكولونيل أوبليك الذي أمن للفن دراسة عالية في أدق المبادئ . قضى حياة بوهيمية في باريس ، ومات متأثراً من الشلل الذي أصيب به . له عدد من دواوين الشعر ، ويعتبر زعيم الفترة الأخيرة من الحقبة الرومانطيقية في الشعر الفرنسي .

(٢) جان آرثر ريمبو (١٨٥٤ - ١٨٩١) - شاعر فرنسي . أبرز مواهب رائدة منذ حداثة سنه عاش حياة بوهيمية وزاوى عدداً من المهن . يعتبر من رواد السريالية والرمزية في الشعر الفرنسي . خلف عدداً من دواوين الشعر . « المغرب »

عن هؤلاء الرجال بكثير من الاحترام ، إن لم يكن دائماً بكثير من التمييز والإبراز . ولكنه لم يكن شاعراً ولا حتى من الطراز الذى ظن نفسه فيه . وكان يكتب الكثير الآن ، كما كان يفعل دائماً . وقد أنشأ وكالة أنباء أسماها « وكالة الأنباء الجمهورية » تتولى نشر مقتطفات من كتاباته الجدلالية ، كما كتب سلسلة من المقالات عن تاريخ حياته لصحيفة « كورييرى ديلا سيرا » ، ما لبثت أن توسعت فأصبحت كتاباً ، وترجم إلى الألمانية ترجمة إيطالية لأغنية شعبية ألمانية ليقارن بين ترجمته وبين الأصل الألمانى ، كما كتب بعض المقالات لمجلة مدرسية . لكن أياً من هذه الكتابات لم يكن من إنتاج شاعر مجنون كما وصف نفسه .

وكان يحس بأنه يدنو من هذا المثل الأعلى الذى أراده لنفسه . عندما كان يعزف على قيثارته . وكثيراً ما سمع يقول . . . « إن العزف يقربنى من لمحات الخلود . فعندما أعزف ، أحس وكأن العالم ، قد فرّ منى » . وكان يعزف دون روعة ، ولكن بقوة ، وأحياناً بشئ من الجنون المتوحش الذى يوحى بما يحس به هذا العقل العظيم المضطرب من ألم . وتقول مرجريتا سارفاتى . . . « كان ديكتاتوراً حتى فى موسيقاه . فلم يكن يحترم الأسلوب أو الشكل . وكانت له تعابير وطريقته ، فهو يعزف بالأسلوب الذى اختاره لنفسه » . وكثيراً ما أغلق باب غرفته على نفسه فى دارة فيلتر نيبل ، ليعزف المقطوعات التى يحبها لبيتهوفن . وواجتر وشوبر وفيردى ، وكثيراً ما وقف وحيداً فى حديقة الدارة إلى جوار أسوارها الرخامية الزرقاء ، يعزف على قيثارته بقوة وعنف كان حراسه الألمان يعتبرونهما دليل عبقريته . وفى ذات يوم راح يعزف لبعض الضباط الألمان فى أنقاض منزل دمرته غارة جوية مقتطفات من « كونشرتو » بيتهوفن ، وعندما انتهى من عزفه ودوت أكفهم بالتصفيق أغمض عينيه فى نشوة ظاهرة .

وكان يحس بحاجة خاصة إلى ذلك الطراز من الهروب العاطفى الذى يؤمنه له العزف فى الجو الخائى الذى تحيطه به أسرته . وقد كانوا جميعاً تقريباً فى الدارة طيلة الوقت ابتداء من يناير عام ١٩٤٤ ، وفى مقدمتهم فيتوريو المتخترس وغير المحبوب مع زوجته وأطفاله ، وجينا أرملة برونزو وأطفالها ، ورومانو ولده

الثالث والطالب في المدرسة ، وأنا ماريا صغرى بناته ^(١) . وكان الأستاذ زاخارى يعيش في المنزل أيضاً مع الملازم ديشيروف وهو ضابط في الثانية والعشرين كان يعمل كضابط ارتباط بأمر من هتلر شخصياً . وقد وصفت راشيل في كتابها عن تاريخ حياتها ، الجو في المنزل ، بأنه كان في منتهى السعادة ، ولكن الألمان لم يكونوا يشتركون معها في هذا الرأي . فقد كان رومانو يتعلم العزف على « الأكورديون » ، وكان يملأ البيت بأنغامه النشاز . وكانت « الكنتان » كثيراً ما تتشاجران . وأقنع فيتوريو والده بأن يستخدم اثنين من أصدقائه معه ومع ابن عمه فيتو في أعمال السكرتارية ، كسكرتيرين إضافيين يفتقرون إلى الكفاية . وكان الأحفاد يصرخون ويتشاجرون ويملاؤن البيت صراخاً منادين بلحدهم الدوتشى ، بينما كانت راشيل تقتل سخطها ومللها ، بالجلوس صامتة أحياناً ، والانغماس أحياناً في عواصف من التذمر والاحتجاج . وكانت مشكلتها أنها تلقت رسائل غفلاً من التوقيع ، تقول إن كلاريتا بيناتشى التي كانت قد أمست في أن تكون قد اختفت من حياة زوجها إلى الأبد . قد عادت إليه الآن ، وأنها تعيش في دارة قريبة من البحيرة . ولم تكن قد سمعت عن كلاريتا ، إلا ليلة الخامس والعشرين من يوليو عندما غادرت دارة تورلونيا في رومة خوفاً من هجوم الدماء ، ولجأت إلى كوخ بواب الدارة ، حيث تحدث إليها أحد الخدم عن خيانة زوجها القديمة العهد لها مع كلاريتا . وقد قال هذا الخادم فيما بعد . . . « كم أود لو لم أبلغها ، فقد أذهلني أنها لم تكن تعرف شيئاً عن موضوع كلاريتا » .

وكانت كلاريتا قد خرجت مع أسرتها من رومة بعد أن سمعت باعتقال موسوليني ، ولكنها اعتقلت في الثاني عشر من أغسطس عندما كانت في منزل زوج شقيقتها ميريما ، المركز بوجياتو ، الواقع على بحيرة ماجيوري . وسيجت مع والديها وشقيقتها ميريما في سجن قلعة فيسكونتي في نوفارا ، حيث كانت

(١) كان فيتوريو مشغولاً في السنوات الأخيرة في صناعة السينما التي لم يحقق فيها نجاحاً يذكر . وهو يعيش الآن في أمريكا الجنوبية . أما أنا ماريا فقد تزوجت مؤخرًا في إيطاليا . ويدير رومانو فرقة لمسيقى « الجاز » الراقصة .

تقضى وقتها تكتب يومياتها مسجلة أحزانها لفراق « بين » وحبها العظيم له . وكتبت ذات يوم في إحدى هذه اليوميات التي تعتبر نموذجاً لما كانت تكتبه في تلك الأيام تقول . . . « أحس كأنني عصفور ، وقع خطأ في طريق مسدود ، فهو يضرب رأسه بالجدار أمامه فزعاً خائفاً » . ويبدو أنها لم تقنع بمثل هذه اليوميات الرومانطيقية ، إذ راحت تبعث في كل يوم برسالة إلى قصر البندقية آملة في أن تصل رسائلها بطريق أو بآخر إلى موسوليني . وفي إحدى هذه الرسائل . . . كتبت تقول « لا أدري إن كانت رسالتي هذه ستصل إليك ، أو إن كانوا سيقرونها . أجل لا أدري ، ولا يهني إذا قرأوها . وقد كنت في الماضي أتحجل من أن أحذلك عن حبى ، أما اليوم ، فأنا أريد أن يسمع العالم كله ، منى بأعلى صوفى ، أننى أحبك ، بل أحبك أكثر من أى وقت مضى » .

وكانت لا تزال في سجنها تكتب بمثل هذا الهوس الذى لا يشبع من الكتابة عندما طار حببها عائداً إلى إيطاليا من مونيخ . وقررت أن تعود إليه . ونقلت الراهبات اللاتى كن يتولين حراستها ، رسالة منها إلى أخيها مارسيلو الذى مضى بدوره إلى مقر القيادة الألمانية في نوفارا . وسرعان ما أطلق سراح أفراد الأسرة جميعاً ، وبعد أيام ، حملتها سيارة عسكرية ألمانية من الفندق الذى نزلت فيه في ميلانو للاجتماع بموسوليني . وعندما عادت إلى الفندق ، كانت تكاد تطير من السعادة والفرح . وقالت لأهلها ، إنه سمح لها بالعودة إليه ، وأنها ستجتمع إليه في كل يوم ، بعد أن يعثروا لها على بيت مناسب على بحيرة جاردا . وسرعان ما أعد بوفارينى — جيدي ، العدة لنقل أسرتها إلى دارة فيورداليزو في أراضي إقطاعية دانونزيو ، وكانت الدارة بيتاً واسعاً كثيباً ، كانت السلطات قد أحالته إلى متحف . وأعطوها غرفة جلوس في برج دارة دانونزيو نفسها المسماة بفيتوريالى ، وخصصوا لها صابطاً ألمانياً يقوم على حراستها خوفاً من رجال المقاومة السرية . وبالرغم من أنها كتبت إلى أخيها تعرب عن شكرها لحرص الألمان عليها ، لتعينيهم مثل هذا الحارس الشاب الجميل ، الذى مالت إليه ، ليتولى حراستها ، إلا أن الرائد فرانز سبوجلر ، كان جاسوساً عليها أكثر منه حارساً . وكانت مهمته الأساسية أن يبعث إلى رئاسة الجستابو في فيينا بتقرير أسبوعى عن كلاريتا

بيتاشى ، إذ كان يظن أن تأثيرها على الدوتشى قد لا يكون نافعا .
ولم يكن موسولينى يرى عشيقته فى الواقع إلا لماما . فقد أصبحت غضبات راشيل النابعة عن الغيرة شيئا لا يطاق ، مما دعا إلى التقليل من زيارة كلاريتا . وكان لا يذهب إلى الفيتوريالى ، حيث تقيم إلا نادرا فى الأمسيات وبعد أن يجن الليل ، حيث لا يقضى إلا وقتا قصيرا . وكان يعضى إلى المكان فى سيارة « فيات » صغيرة ، مخلقا سيارته الرسمية « الالفاروميو » أمام المدخل الرئيسى لمكتبه فى فيلا ديل أوسولينى . وكانت اجتماعاتهما حزينة وقصيرة على حد تعبير كلاريتا . فالمكان رطب وبارد ، والغابات المحيطة به ملأى بالجنود الألمان . وهكذا ضاعت السعادة ، ولم يعودا يذوقان طعما للعزلة . وقد أبلغها مرتين أنه لن يعود إلى زيارتها ، ولكنها كانت تبكى بين أحضانها ، متوسلة إليه أن لا يهجرها ، فكان يضعف أمامها ، ويعدها بالعودة .

وعجزت راشيل ذات يوم عن السيطرة على عواطفها وكبت غيبتها . فعزمت على أن تضاعف من شقاء كلاريتا ، وأصرت على أن يأخذها بوفاريينى - جيدى ، لترى خلية زوجها . ووصلت راشيل إلى الفيتوريالى ، وهى ترتعد من الغضب . وأطالت كلاريتا عليها الانتظار ، ثم هبطت إليها ترتدى ثوبا فضفاضا ، وبرفقها الرائد سبوجلر . وكانت تبدو شاحبة وفى منتهى الإعياء ، وجلست إلى مقعد ، تلوى مندبلا بين أصابعها ، ولم ترد على راشيل وهى تطلب إليها أن تترك زوجها وشأنه . وثار راشيل لصمتها ، فتقدمت منها وهى تكاد تعجن من الغضب وأمسكت بكم ثوبها . وهنا انفجرت كلاريتا باكىة تقول . . . « إن الدوتشى يحبك يا سيدتى . ولم يسمح لى قط أن أذكرك بكلمة سوء أمامه » .

وأصيب راشيل بما يشبه الدهول ، ولكن عندما عرضت عليها كلاريتا صورا مطبوعة من الرسائل التى كان موسولينى قد بعث بها إليها ، عاودها الغضب وقالت صارخة . . . « أنا لا أريد رسائل مطبوعة ، فلم أجيء لهذا . . . »

وقالت كلاريتا . . . ولكن لم جئت يا سيدتى ؟

وظلت راشيل صامتة لحظة طويلة . . . وروت كلاريتا فيما بعد تقول . . . « وظلت تنظر إلى ، وقد وضعت يديها فى خصرها . وسرعان ما انهالت على

بالسباب والشتائم ، ووجهها يزداد حمرة لحظة بعد أخرى .

وقررت كلاريتا أن تتحدث بالهاتف إلى موسوليني . . .

وقالت له . . . « اسمع يا بين ، إن زوجتك هنا . ماذا تريدني أن أعمل ؟

وشطفت راشيل منها السماعه ، وأجبرت زوجها على الاعتراف بأنه كان يعرف أمر زيارتها . واشتد غضبها الآن إلى درجة الجنون ، وقالت لكلاريتا ، إن الفاشيين يكرهونها أكثر من كراهية رجال المقاومة السرية ، وأغشى على كلاريتا مرتين ، واضطر بوفارينى - جيدى ، إلى الإسراع بحثاً عن « النشادر » لتستفيق من إغمائها . وعندما أفاقت ، راحت تجلس إلى مقعدها وهي تبكى بحرقة . وخيل إلى سبوجلر أن راشيل كانت تبكى أيضاً عندما غادرت المكان .

وهكذا وجد موسوليني نفسه ، وقد ضايقه الشجار بين زوجته وخليته ، ومل من المعارك بين زوجتي ولديه ، وسئم وزراءه الذين يضجرونه بتفاصيل لم تعد تهمه في قليل أو كثير ، راعباً في الوحدة متلهفاً عليها . وكان لا يغادر فراشه في الأسابيع القليلة الأولى من إقامته في جرجناتو قبل الساعة العاشرة صباحاً ، ولا يترك منزله إلى مكتبه في دارة أوسوليني قبل الحادية عشرة والنصف أو الثانية عشرة . ولكن لم يحل ربيع عام ١٩٤٤ ، حتى كان قد أصبح يبكر شيئاً فشيئاً في موعد استيقاظه ، وكثيراً ما وصل إلى مكتبه قبل الساعة الثامنة حيث يظل حتى الثانية ظهراً ، ليعود بعدها إلى منزله ، حيث يتناول غذاءه خفيفاً يفرغ منه كوجباته الأخرى بسرعة هائلة ، مغادراً قاعة الطعام قبل أن يكون الآخرون قد شرعوا في تناول طعامهم . وكان يعود ثانية إلى مكتبه أو يجلس في غرفة الاستقبال السيئة الأثاث ، والزخرفة ، حيث يستقبل زائريه ، فلا يعود إلى منزله قبل الثامنة أو التاسعة مساء .

وبالرغم من أنه كان يقضى الساعات الطوال وهو جالس إلى مكتبه ، فإن القضايا التي كانت تشغل تفكيره حقاً كانت ذات طابع فلسفى أو شخصى ، ولم تكن من القضايا العملية أبداً . ولم تكن مشاكل الحكم تشغله إلا لماماً ، فيغرق فيها مفكراً ، ولكن هذه القضايا لم تكن في الواقع من النوع الذى يستحق منه كل هذا الاهتمام الفجائى .

فقد كان منصرفاً بالغ الانصراف في اهتمامه وتصميمه ، إلى الحصول على اعتراف الفاتيكان الرسمي بعهدته ونظام حكمه . وقد ذكر ذات يوم إلى بعض أصدقائه بشيء من الإجهاد أنه لا يستطيع المضي في الحكم دون هذا الاعتراف ، وإن كان يعرف أن عمل حكومته لن يحظى بمزيد من النجاح من جراء اعتراف الفاتيكان بعهدته . كانت القضية موضوع كبرياء شخصية ، إذ بدأ يحس بالمهانة من جراء تردد البابا في الاعتراف بحكومته وأصبحت القضية تؤلف لديه كابوساً ، مما حملته على أن يعلن أن صبره قد نفذ ، وأنه قد يعلن إلغاء الاتفاقات السابقة مع البابوية ، ويقيم كنيسة منفصلة عن الفاتيكان . وتطرف في اتجاهه هذا ، إلى حد الشروع في دراسة مؤهلات بعض القسس على أسس سياسية ، لاحتلال مراكز المطارنة ، ولم يثنه عن عزمه المتهور هذا إلا الألمان الذين لم يكونوا راغبين في أن تزداد علاقاتهم السيئة مع البابوية تردياً بسبب هذا الموقف .

وكانت القضية الأخرى التي تثير اهتمامه في هذه الأيام وتلهب حماسه ، هي أنه كان يرى في نفسه رجلاً لم يفقد في قرارة فؤاده قط تلك المبادئ الاشتراكية التي آمن بها في شبابه . وبالرغم من أن معظم وزرائه ، كانوا يستنكرون في مجالسهم الخاصة هذا الإيمان المتجدد في الاشتراكية الصحيحة ، ويعتبرونه اتجاهًا خاطئاً إلا أنهم ما كانوا ليشكوا قط في إخلاص هذا الإيمان وصدقه . ولم يكن هذا الإيمان بالطبع مجرد نزوة طارئة يتحمس لها ، وإنما ظل حياً معه حتى النهاية . وكان يغرم بالقول دائماً . . . « إن الاشتراكية هي حجر الزاوية في الجمهورية » . وكانت مثل هذه الأقوال تثير الفزع عند الألمان وعند الصفوة الفاشية الجديدة وعند كل التخوف من محاولة موسوليني في توسيعه الصورة الفاشية الجمهورية التي يرسمها عن طريق التنازل ، تقديم تنازلات خاضعة لليسار ، وهي تنازلات تصل حدود إزالة المثل الفاشية ، وبينها بالطبع ، بل لعله أكثرها فجعية ، المثل الذي يقول بأسطورة الدوتشي كرجل أسمى (سوبرمان) .

وكان التركيب المذهبي للجمهورية الاشتراكية قد وضع في فيرونا في الرابع عشر من نوفمبر عندما انعقد المؤتمر الأول للحزب الجمهوري الفاشي لتحديد المبادئ التي سيحكم الحزب عن طريقها . وقد بدأت أعمال المؤتمر بتلاوة رسالة من

الدوتشي أكد فيها أهمية العردة إلى « النوايا الأصلية للثورة الفاشية » . وكان « بيان فيرونا » الذى صدر فى النهاية عن المؤتمر تذكراً إلى حد بعيد لتطلعات عام ١٩١٩ ، مع إضافة إشارات كثيرة أصبحت تحمل طابع الإلزام فى المحافل الفاشية إلى « انحلال الملكية وإنهيارها » . وكانت أهم نقاط هذا البيان بالنسبة إلى موسوليني تلك التى تتعلق بالترفيه عن العمال ، وقد رفض تقبل الرأى القائل بأن هذا المنحى الاشتراكى كان اهتماماً جديداً اكتشفه فى تفكيره .

وكان يقابل كل اتهام ، ولا سيما تلك الاتهامات التى يقرؤها أحياناً فى الصحف ، من أن الفاشية ، لم تكن تهتم فى الماضى اهتماماً جديداً بخير الطبقة العاملة ، وأن الرأسمالية البورجوازية هى التى أبقتنا فى الحكم ، بغضب شديد وازدراء ، لا يضاهيه إلا الازدراء الذى يحتفظ به لكل من روزفلت والمملك وأنطونى ليدن . وعندما قرأ ذات يوم ، نبأ صحفياً عن اجتماع عقده الاتحاد العام للعمال فى نابولى ، حيث ادعى أحد الخطباء أن القوانين الاشتراكية التى وضعت فى العهد الفاشى لم تكن ذات نفع للعمال ، راح يديج على الفور مقالا عاطفياً نشرته وكالة الأنباء الجمهورية رد فيه على ادعاءات الخطيب معهداً القوانين التى أصدرها لمنفعة العمال ، وعدد المستشفيات التى أقامها لهم ، والرواتب التقاعدية والمكافآت التى أمنها لهم ، ومقاييس الحد الأدنى من الأجور التى طبقها فى البلاد . وراح يقول بعد ذلك . . « ولا ريب فى أن هذه الاتهامات ليست صادرة إلا عن الشيوعيين وغيرهم من أعداء البلاد الذين يستخدمون العمال (بيادق) فى (لعبة الشطرنج) الشيطانية التى يلعبونها . ولكن العمال أنفسهم يعرفون زيف هذه الاتهامات وكذبها » .

وقال فى مناقشة تالية حول نفس الموضوع . . . « يستحيل على المرء لإفساد الطبقة البروليتارية العاملة . فالعمال لا يعرفون الخيانات التى يعرفها البورجوازيون . فالبورجوازيون بعقلياتهم المادية وأطماعهم ، هم خراب لإيطاليا . وكنت أومن بالاشتراكية فى صميم قواذى منذ عهد بعيد » .

ومن الصحيح القول ، إنه بالرغم من أنه لم يكن يولى النواحي الأخرى من أعمال حكومته مزيداً من اهتمامه ، إلا أنه كان مصمماً على أن يظهر أن جمهوريته الاشتراكية تستحق هذا الاسم بالرغم من ضآلة ما لديها من سلطان وموارد .

وفي الشهر الأخير من حياته ، أى بعد أن انهار خط الدفاع « القوطى » ، وأصبح انهيار بناء المحور المتداعى ، وحكومته بالذات أمراً مؤكداً ، كان لا يزال يولى عنايته لقضايا لم يعد لها محل بعد هذه التطورات الأخيرة ، كاحتمال إدخال الزراعة الجماعية إلى إيطاليا ، وإعادة تنظيم المستشفيات لإيواء المصابين بالسل من الفقراء . ولقد تحدث « موزاوين » إلى « ران » بأن موسولينى كان - حتى في تلك اللحظات التى نأى فيها عن الناس ، وأخذ بنادى بأن عمله أصبح جزءاً من التاريخ - واقعاً تحت سيطرة فكرة أصيلة في أن يخلف وراءه في إيطاليا ، إطاراً يمكن من بناء دولة الرفاه في المستقبل ضمنه :

لكن عدد القضايا من هذا الطراز في إثارتها لاهتمامه ، كان ضئيلاً للغاية ، وكان يصرف جل أوقاته في مكتبه في القراءة والكتابة ، وكان يطلب أن لا يضايقه أحد ، فأصبح ينأى شيئاً فشيئاً عن طبعة الديكتاتور ويدنو كل يوم من طبعة « الأستاذ الجامعى » ، الذى كان يشبهه إلى حد كبير على حد تعبير الدكتور زاخارى . وكان مكتبه غرفة صغيرة مزدحمة ، فيها مدفئة رائعة وكبيرة من الرخام ، ومكتب في زاوية الغرفة حيث كان يجلس الساعات الطوال ، وحيداً ، يقرأ ويكتب ويتطلع من النافذة إلى الحديقة . وكان إذا ما دخل أحد سكرتيريه الغرفة ، رفع رأسه ببطء إليه ، دون أن يزيح نظارته عن عينيه . وهى النظارة التى أصبح يحتاج إليها كل الحاجة ، وإن ظل حتى عام مضى ، ينكر ذلك بشيء من الكبرياء . وكثيراً ما تورّم جفناه ، والتهبا ، وكان يعترف طائعاً بأن نظره أخذ في السوء يوماً بعد آخر .

ولم يعد يهتم بالتظاهر ، وبإيحاء الانطباع للآخرين ، بأنه صاحب عقل عظيم يعمل ، كما كان يفعل في قصر البندقية ، حيث كان مكتبه ، يبدو أحياناً خالياً من كل ملف أو كتاب ليوحى لزائريه ، بأنه يستوعب في عقله كل ما يزيد أن يعرفه ، وأحياناً مثقلاً بالملفات والأوراق والوثائق ليظهر أنه إنسان مشغول جداً . أما مكتبه هنا في دارة أورسولينى فكان يفتقر إلى الترتيب . فالصحف لا قصاصاتها ، والأوراق والكتب ، والأقلام الملونة والصور منتشرة فوقه بلا نظام أو ترتيب ، وبلا فائدة أيضاً . وتطلع أحد الصحفيين ذات يوم إلى مجموعة الكتب المنتشرة

فوق المكتب ليعرف ما الذى يقرؤه الدوتشى ، فوجد أنها مجموعة لا اختيار فيها ، ولا انتقاء ، إذ بينها كتب دوستويفسكى وتولستوى ، وهمنجواى وأفلاطون وسافو وكانت وكتاب شولوخوف « هادثاً ينساب الدون » وكتب نيتشه وكتاب إميل لودفيج عن نابليون، وكتاب سوريل « نظرات في العنف » وكتب جوته وشوبنهاور وبعض الكتب عن السيد المسيح وعن فريدريك الكبير وبيتهوفن ، وكلها تتضمن قصاصات من الورق متشرة بين صفحاتها لتشير إلى فقرة مهمة أو خطوطاً متناثرة هنا أو هناك بالأقلام الملونة على الهوامش . وكان يبدو منهكاً أحياناً إلى الحد الذى يدعوه ، إلى صرف زائريه أو الموظفين الذين يقصدونه ، ولا سيما إذا كانوا من الألمان بإحالتهم بشيء من نقاد الصبر إلى جرازيانى أو إلى وزير الثقافة الشعبية ، أو كبير سكرتيريه الخاصين . وكتب ضابط ألماني شاب يدعى فورست أوراخ إلى بعض أصدقائه في ألمانيا يقول . . . « يميل الدوتشى إلى الانسحاب من جميع شؤون الحكم . فلماذا ما زاره أحد الجنرالات الألمان يطلب شيئاً ، رد عليه قائلاً . . . « آه . . . راجع جرازيانى » . وإذا ما زاره ليبرز أو غيره من الخبراء الاقتصاديين قال له . . . « تحدث في الموضوع إلى وزير الاقتصاد » . وإذا ما أصر أحد الزائرين على أن القضية التى جاء من أجلها في منتهى الأهمية وأنها تتطلب قراراً من الدوتشى شخصياً ، رد موسولبنى ، بأنه لا يستطيع اتخاذ مثل هذا القرار ، وأن على الألمان أن يتخذوه ، إذ أنه لا يعدو أن يكون رئيس بلدية جارجنانو .

ولكن مهما كان نشيجه على الألمان وحقله عليهم . إذ كان يسميهم أحياناً « بالخمرين بطيعهم » ويشير إليهم أحياناً بهؤلاء « الأوغاد البرابرة ، القساة الظالمين ، الذين يتميزون بالعنف والطغيان » . فإنه لم يكن قادراً على الإفلات من تأثير زعيمهم السحري عليه .

وقد مضى في الواحد والعشرين من أبريل عام ١٩٤٤ ، إلى ألمانيا لمقابته . وتلقاه هتلر في سالزبرج في أحضانه ، وراح هو يؤكد للفوهرر من جديد لإيمانه الذى لا يتزعزع بانتصار ألمانيا النازى . وكان جو الاجتماع ودياً ومرحياً ، مما شجعه . ولا سيما أنه قد وجد إلى جانبه كلا من جرازيانى ومازولبنى اللذين رافقاه في زيارته ، وفيليبو انفوسو ، سفيره الجديد في برلين ، على أن يحتج لدى هتلر ،

على احتلال الألمان لمنطقة الأديج وتريستا ، وهو الاحتجاج الذى سبق له أن ضمنه رسائله إلى هتلر ، وعلى أن بلغت نظر صديقه إلى ما يلقاه العمال الإيطاليون من سوء معاملة فى ألمانيا . وتجاوب هتلر معه ، ووعد به بأن يعيد النظر فى الموضوع ليرى ما يستطيع أن يفعله فيه . لكن هتلر لم يفعل شيئاً ، وعندما مضى موسوليني للقائه ثانية بعد ثلاثة أشهر ، كان جو الاجتماع مختلفاً كل الاختلاف ، إذ تميز بالتوتر الشديد منذ البداية ، فقد تقدم إليه هتلر على رصيف المحطة ، وهو يعرج بعض الشيء ، وبدأ الشحوب على وجهه . وضم الفوهرر يده اليمنى بقوة إلى صدره ، وقدم إلى موسوليني يسراه ، معترفاً بأنه أصيب فى حادث بسيط . وسار به بعد قليل إلى بقايا الكوخ الذى تفجرت فيه قنبلة العقيد جراف كلاوز فون شتوفنبرج قبل برهة قصيرة ، إذ كان الدخان لا يزال يتصاعد من الركام ، وكانت جثث القتلى الأربعة الذين أصيبوا فى الحادث قد نقلت من مكانها قبل لحظات . وكان شتوفنبرج قد حمل القنبلة إلى غرفة الاجتماع فى حقيبته اليدوية التى وضعها تحت المنضدة التى انتشرت فوقها الخرائط أمام الفوهرر ، وكان أحد الضباط قد تعرّض فيها تحت المنضدة ، فأزاحها بقدمه بعيداً عن هتلر . وقال الفوهرر لصديقه إن العناية الإلهية قد أنقذته ثانية ، وبينت له أن القدر شاء له أن يتصر على أعدائه . ورد موسوليني بكثير من الكياسة . « لا ريب فى أننى أشاطرك الرأى تمام المشاطرة ، وإن نجائك علامة من السماء » . وبدأ الفوهرر فى منتهى الهدوء ، كما خيل لموسوليني ، لكن هدوءه كان أكثر من المعتاد ، إذ جلس بعد انتهاء الاجتماع مع موسوليني إلى جانب ريبنتروب وجورنيج ، يتناول الشاي مع ضيفه دون أن ينبس ببنت شفة ، مواصلاً التطلع إلى الجدار المائل أمامه ، ومبتلعاً بين الفينة والفينة إحدى حبات الدواء الملونة . وانقضت ساعة كاملة ، وموسوليني وجرازيانى ، بصفيان إلى القادة الألمان وهم يتناقشون فى الأسباب التى أدت إلى عدم الفوز فى الحرب ، وإلى جورنيج وهو يحمل كايبل المشوية حيناً ، ويشير متوعداً بعضاً الماريشالية التى يحملها إلى ريبنتروب حيناً آخر . وذكر أحدهم اسم روهم^(١) ، وعلمية تطهير عام ١٩٣٤ ، وهنا ففز هتلر من مكانه ، فجأة ، وبدأ يحطّب ، مصرّاً على أن العناية الإلهية بتدخلها لإتقاده من

الموت ، قد أظهرت من جديد أنها اختارته ليكون « رجل القدر » ، وليكون الرجل الذى ينقذ أوروبا والعالم بأسره . وقال إن الواجب بدعوه إلى أن لا يستنى أحداً من انتقامه . وظل يتحدث على هذا النحو أكثر من نصف ساعة ، بينما خيم الصمت على القادة الألمان ، وظل موسوليني يتطلع إليه وقد سمرت نظراته فيه ، مذعوراً من صرخاته الحاشدة بالتهديد والوعيد المحمومين . وأخيراً جاء الخدم يحملون الشاي ، وعاد الفوهرر إلى مقعده ، وقد عاوده الصمت الذى زايه عندما ذكر اسم رومهم أمامه .

وبدا موسوليني مذعوراً من سلوك هتلر ، وعندما توادعا فى المطار قبل عودته إلى إيطاليا ، لم يتجاوب مع كلمات هتلر العاطفية على النحو الذى كان يفعله فى الماضى . لكن هتلر لم يتأثر ببرود اللوتشى وجموده ، فأطال لحظة الوداع ، وظل يمسك بيده ، وهو يتطلع إلى عينيه ، وذكر راهن لموظفوا وزن عندما عاد إلى بحيرة جاردا ، أنهما ظهرا كعشيقين ، وقال هتس ، بادی التأثير والانفعال ... « أنا أعرف أن فى وسعى الاعتماد عليك . وفى وسعك أن تصدق بأنك أحسن صديق ، بل لعلك الصديق الوحيد لى فى هذا العالم » . ولم يكذ اللوتشى يسافر ، حتى أصدر هتلر أوامره ، بإقامة ملجأ من الغارات الجوية فى دائرة موسوليني فى فيلترنيلى ، لكن موسوليني لم يزر الملجأ إلا مرة واحدة ، عند ما مضى لتهنئة العمال الذين تولوا بناءه .

وهكذا لم تكن للاجتماع الذى عقده الرجلان أية فائدة . فلم يجد موسوليني إبانته إلى تكرار الشكاوى التى كان قد وجد الشجاعة فى نفسه لذكرها فى اجتماع أبريل الماضى ، ولذا فقد آب إلى إيطاليا هذه المرة واجماً حزيناً . وكان الناس قد ألفوا منه أن يعود من زيارته إلى ألمانيا ، مليئاً بالثقة ، وبالمعنويات العالية ، لكنهم وجدوا أن تبدله هذه المرة كان باتجاه الأسوأ . وكان أحد موظفى سفارته

(١) إرنست روم ، كان قائد جيش الصاعقة النازى . وقد اشترك فى مؤامرة لاغتيال هتلر وكانت نتيجتها مصرع روم وعدد من رجاله فى عمليات تطهير عام ١٩٣٤ . « العرب »

في برلين قد زوده ببعض الإحصاءات عن الإيطاليين في ألمانيا ، وقد أفرغته هذه الإحصاءات أشد الفزع ^(١) .

وعاد إلى عمله الرتيب التافه وقد هبطت حيويته . وتدنّنت حماسته عن ذى قبل . وكان في مطلع ذلك الصيف كثيراً ما يلعب كرة المضرب « التنس » ، فيسمح له خصمه بأن يغلبه ، ولكنه ، سرعان ما مل هذه اللعبة أيضاً ، وأخذ يحصر تمريناته الرياضية في ركوب الدراجة حول شاطئ البحيرة ، وفي المسير في الغابات وحيداً أو بصحبة ولده رومانو ، يتبعه حراسه الألمان . وسرعان ما توقف عن تلقى الدروس الألمانية التي كان قد شرع فيها بمعدل ثلاث مرات في الأسبوع ، فهو قادر على أن يحمل الآخرين على فهم ما يقول ، ولم يعد في حاجة إلى الطلاقة في هذه اللغة . ودأب في هذه الفترة على الذهاب إلى مكتبه مبكراً ، وكثيراً ما وصل إليه قبل الثامنة ، هروباً من الضجيج في منزله ، ولا يعود إليه إلا متأخراً ، ليقتضى المساء حينما استطاع وحيداً في غرفته يقرأ ، أو جالساً إلى مقعد مريح وقد ضم يديه وراء رأسه ، منتظماً إلى الأفق البعيد وراء البحيرة ، حتى تغطس الشمس في مغيبها .

وكان يكره شفق المغيب . فكان إذا ما غابت الشمس ، سارع إلى الدخول ، ليضيء النور في غرفته . وتعطل التيار الكهربائي ذات يوم وحمل إليه كوينتو نافارا ، الذي عاد إلى خدمته في هذه الآونة ، مصباحاً عادياً . وذكر نافارا هذا ، أنه لم يستطع احتمال ضوء المصباح الخافت « فضي إلى الحديقة » ، حتى عاد النور إلى المنزل ، وظل تلك الفترة يقف إلى شاطئ البحيرة ، يقذف بالحصى في مائها .

وكان طبيبه الإيطالي والأستاذ زاخارى يتناوبان عيادته كل صباح ، ليطمئنا على أن الحمية التي فرضها عليه ، قد تركت أثرها النافع في صحته . وكان شحوبه قد اشتد إلى حد كبير ، كما لاحظ زاخارى ، وكثيراً ما ظهرت عيناه محمومتين وهما يبرزان من محجريهما ، في رأسه الضامر الهزيل . وكان فطوره يتألف في العادة

(١) يقول سالفاتوريلى وميرا ، إن نحواً من سبعمائة ألف إيطالي قد أرسلوا إلى ألمانيا إبان الحرب للقيام بأعمال عادية غير القتال ، وإن ثلاثين ألفاً منهم لقوا حتفهم .

من قدح من الشاي ليس إلا ، أما غداؤه وعشاؤه ، فخفيفان للغاية . ولم يعد يتناول الحليب مع أنه كان في الماضي يأخذ ستة أقداح كبيرة منه في اليوم . وأصبحت البزة العادية البسيطة لرجال الحرس الفاشي التي ألف ارتداؤها في هذه الآونة ، تبدو مهلهلة عليه ، بالرغم من كبرها دائماً كبراً دقيقاً . واتسعت ياقات قمصانه حول عنقه الذي أصبح ضامراً ، بعد أن كان يتميز بالغلظة ، وهدت التجاعيد عليه وكأنه جلد سلحفاة كثير الغضون . وكان يحرص كل الحرص على حلق شعر رأسه ، بينما كانت تجيء إليه فتاة من جاردون مرتين في الشهر لتقليم أظافره ، وتزيينها . وكانت هذه هي البقية الباقية من المظاهر التي كانت ترضي غروره الشخصي في الماضي ، والتي كانت تستبدل بتصرفاته . وذكر خادمه نافارا عن هذه الأيام ، قائلاً . . . « ولم يكن مزاجه رقيقاً في هذه الأيام إلا للمأ ، وكثيراً ما أعقبت هذه اللحظات النادرة ، ساعات طويلة سوداء من الحزن العميق » .

وقرر بعد شهر من زيارته لهنر في بروسيا ، أن يقوم بزيارة العجبة . وشجعته الملتفات الموعز بها التي تلقاها عند وصوله إليها ، على البقاء خمسة أيام يطوف خطوط القتال ، مسدياً نصائحه إلى الجنرالات الذين لم يأبهوا بها ، ومقترحاً هجمات مضادة لم تكن ممكنة من الناحية العملية . وكان كيسلرنج يصغى إلى ما يقوله بمنتهى الكياسة ، لكن موسوليني أحس بالانزعاج البالغ ، وهو يرى أن اقتراحاته لا تجد أذناً صاغية أو اهتماماً عند القائد الألماني . وسمع موسوليني ذات يوم وهو يقول . . . « إن كيسلرنج هذا ، لا يساوي قلامة ظفر » .

لكن الملتفات التي سمعها من الجنود الإيطاليين والألمان في الجبهة ، تركت في نفسه أثراً منعشاً للغاية . فقد عاد إلى جارجنانو ، وقد عاودته الثقة والأمل ، وراح يعيد على مسامع راشيل المرة تلو المرة ، كيف أن الجنود قد أظهروا له منتهى الحب والولاء . وراح يقول لها . . . « وكان الألمان جدد متحمسين بصورة خاصة إلى حد الجنون ، وقد وقفوا في خنادقهم الضيقة ، وقففة التأهب لاستقبال » لكن أمر هذه الحالة النفسية المتعشة لم يطل . فلم يمض أسبوع واحد ، حتى كان يعود إلى يأسه السابق .

ومضى منقلبه أوتو سكورزيني لزيارته في شهر يونيو ، فوجده في منتهى التشاؤم

والتبльд . ويقول العقيد سكورزىنى . . . « كان موسولبنى هادئاً للغاية ، وبدا لى وكأنه قد استسلم وفقد كل رغبة فى المقاومة . ولم بعد ذلك الرئيس القوى الذى يوجه وزرائه ، وإنما بات يدعهم يتصرفون كما يشاءون . . . وكان فى هذه الأيام أقرب لى الفيلسوف منه ، لى رئيس الحكومة . وراح يحدثنى عن التاريخ الألمانى ، الذى كان واسع الاطلاع فيه ، وعن الأسس الفلسفية للفاشية ، وعن ضرورة تغييرها فى المستقبل . وكان يحاول إخفاء تشاؤمه عن أفراد أسرته » ، ولكنه لم يفلح . وكتب راشيل تقول . . . « ومع مضى الأيام ، كان يزداد وجوماً وإمعاناً فى التفكير . وبات فى وسعى من الطريقة التى كان يتحدث لى فيها بين الحين والآخر ، أن أحس بما يعانى من عذاب دائم ، من هذا الصراع المميت بين الإيطاليين وراء جبهة القتال . وكان يظل عى وجومه وحيرته وشرود ذهنه ، حتى وهو يتناول طعامه . وكثيراً ما أصغى لى صامتاً ، ثم سمعته فجأة يقول . . . عم كنت تتحدثين ؟ »

ولم يكن ثمة من شك فى أن هذا الصراع الذى أشارت إليه راشيل كمصدر عذاب دائم للدوتشى ، كان قد تحول فى نهاية عام ١٩٤٤ لى صورة حرب أهلية .

الحرب الأهلية

من نوفمبر ١٩٤٤ إلى ديسمبر ١٩٤٤

« قررت أن لا يظل الحزب منظمة سياسية بل يحصل إلى منظمة عسكرية ليس إلا » .

كانت الخطط قد أعدت لتنظيم المقاومة السرية ضد الألمان في إيطاليا ، قبل بروز الجمهورية الاشتراكية إلى حيز الوجود بأمد طويل . ولم تكن نهاية عام ١٩٤٣ قد حلت ، حتى كانت بلجان التحرير الوطني السرية قد أقيمت في معظم المدن الكبيرة في شمال إيطاليا ، وتم تأليف عصابات « الأنصار » من رجال المقاومة السرية . وقد تألفت هذه العصابات من الجنود الذين فروا من الجيش الإيطالي ، الذي انحل تقريباً بعد توقيع الهدنة ، ومن المحرّفين والمغامرين ، ومن الأشخاص الذين جعلوا من أنفسهم خصوصاً للفاشية دون مذهبية أو تنظيم ، وكان مهمهم ، الثأر لفضايهم الشخصية ، أكثر من العمل على طرد الألمان من البلاد . ولذا لم تكن هذه العصابات في البداية أفضل من « مجموعات من الأوباش » ، كما كان موسوليني يسميهم ^(١) . لكن طبيعتهم هذه ما لبثت أن تبدلت في وقت قصير . فقد انضم إليهم عدد من المخلصين في عدائهم للفاشية ، ومن الوطنيين الصادقين ، الذين رأوا في هزيمة ألمانيا ، الأمل الوحيد في مستقبل بلادهم ، ومن الضباط النظاميين الذين اعتبروا أن جيش الجمهورية الاشتراكية الذي يحاول جريزاني ما وسعه من جهد ، إعادة خلقه ، لن يكون أكثر من تابع لألمانيا أو قوة شرطة ، الغاية منها فرض الإجراءات التحصينية الفاشية .

(١) اعتقد أن في هذه الصورة خطأ من شأن حركات المقاومة السرية في إيطاليا وغيرها في البلاد التي استعبدتها الألمان في أوروبا ، يخالف الحقيقة والواقع ، وإن كان المرء لا يستطيع أن ينكر أن مثل هذه الحركات السرية ، لا بد وأن تضم البعض من هذا الطراز . لكن الغالبية تظل من أولئك الذين لا هم لهم إلا تحرير وطنهم .

والمناهضة للملكية^(١). وقد أضفى هؤلاء الضباط على رجال حركة المقاومة إحساساً بالمسؤولية وصورة محترمة ، وأصبح أحدهم وهو الجنرال رافائيل كادورنا نجل الماريشال الكونت لويجي كادورنا أحد القادة العاملين السابقين للجيش الإيطالي ، قائدهم . لكن هؤلاء الضباط لم يكونوا في الواقع القادة الفعليين لحركة ، إذ ظلت منذ البداية تحت سيطرة أيدي أقل اهتماماً بموضوع التحرر .

وعقد في نوفمبر من عام ١٩٤٣ ، اجتماع في بلدة مونشيروفي مقاطعة بيدمونت ، كان نموذجاً للاجتماعات الكثيرة التي عقدت في ذلك الشتاء . وكشف عن الاتجاه الغالب على حركات المقاومة السرية . تقرر في هذا الاجتماع الذي أداره لويجي لونجو ، الذي غدا فيما بعد نائب زعيم الحزب الشيوعي الإيطالي^(٢) ، أن الطريقة الفعالة لتقوية منظماتهم ، وهي منظمة « فيلق متطوعي البحرية » ، وزيادة نفوذها ، هي استفزاز الألمان والإيطاليين للقيام بأعمال انتقامية ضد الشعب الإيطالي . وهكذا تقرر اختيال الجنود الألمان والموظفين الفاشيين لاستفزاز عمليات الثأر التي تؤدي بدورها إلى زيادة الكراهية . وتقرر لنفس الغاية نسف الجسور وخطوط السكة الحديدية وأسلاك الهاتف والكهرباء سواء أكانت ذات أهمية عسكرية أم لا .

وكان نفوذ الشيوعيين في حركة المقاومة كبيراً منذ البداية . وسرعان ما أصبحوا المسيطرين عليها . وتألفت عصابات لا تضم إلا الشيوعيين بقودها أعضاء الحزب ، ومعهم مفوضون سياسيون على غرار التنظيم السوفييتي ، ليتأكدوا من أنهم ان ينحرفوا عن الخط المرسوم لهم . وكانت هناك عصابات أخرى ، اضطرت إلى قبول المفوضين السياسيين بالرغم من أن الشيوعيين لم يكونوا يمثلون إلا قلة من أعضائها . وقد ذكر لويجي لونجو فيما بعد أن « الشيوعيين هم الذين كانوا يقترحون هؤلاء المفوضين ويختارونهم ، وكانوا يحضرون معارضة في البداية من الباقين . ولم يكن الناس يفهمونهم

(١) زادت شتاعب جرازياتي من جراء محاولات الألمان وضع المقاتلين في طريق خلق جيش إيطالي مستقل ، لا يستطيعون إقناع أنفسهم بالثقة فيه ، وتشجيعهم تشكيل وحدات عديدة مستقلة ، لا تكون خاضعة خضوعاً مباشراً لسيطرتهم ، وإقامة قوات بوليسية مسلحة مستقلة ، تؤدي فرضهم الممثل في « فرق تسق » . وعند ما تقرر تشكيل أربع فرق إيطالية ، اتخذت الترتيبات لتدريبهم وتزويدهم بالمعدات في ألمانيا ، ولم يكن هتلر يحنى الحقيقة الواقعة ، وهي أنه يرى أن جل ما تستطيع إيطاليا الإسهام فيه في المحور ، هو تقديم المال ، لا الجنود .

(٢) أصبح لويجي زعيم الحزب الشيوعي ، بعد وفاة زعيمه السابق السنيور تولياتي .

إلا على النحو الذى تصورهم فيه أكاذيب الفاشية وإدعاءاتها . وكذن الضباط العسكريون يرون فيهم شيئاً لا يطاق يمس بكرامتهم ومكانتهم ، وكان السياسيون يرون فيهم وسيلة شيوعية مبتكرة تهدف إلى ضمان السيطرة على العصابات واستغلالها لأهدافهم الحزبية ولكننا ناضلنا حتى النهاية للإبقاء على نظام المفوضين السياسيين . وتم تطبيق هذا النظام بصورة متدرجة فى جميع التشكيلات ، حتى ولو تحت ستار أسماء أخرى كتلقب المفوضين بممثلى لجنة التحرير الوطنى ، أو بالمندوبين المدنيين ، إذ كنا نحن الذين نحدد لهم واجباتهم » . وهكذا تمكن الشيوعيون من فرض سيطرتهم حتى على تلك العصابات التى كانت تسمى نفسها بالاشتراكية : « بالوية ماتيوتى » أو تلك التى كانت تعتبر نفسها ملكية والتى أطلقت على نفسها اسم « اللهب الأخضر » ، وذلك عن طريق بلان التحرير الوطنى التى يسيطر عليها الشيوعيون ، الذين تطرف بعضهم إلى حد الدعوة السرية إلى إخفاء بعض الأسلحة والمعدات التى تلقىها طائرات الحلفاء إليهم بالمظلات ، وعدم استعمالها ضد الألمان ، للإبقاء عليها حتى نهاية الحرب ، واستعمالها عندما تبدأ ثورة العمال .

وشرع رجال المقاومة السرية فى شتاء عام ١٩٤٣ - ١٩٤٤ ، فى أعمال إثارة الاضطراب . ووقعت عدة حوادث فى البداية . وجرت بعض الاغتيالات الفردية وأعمال التخريب والانتقام ، ولكن العهد الفاشى فى الأقسام التى يحتلها الألمان من إيطاليا ، لم يغد فى خطر حقيقى من أعدائه السياسيين . ولكن لم يحل الثالث والعشرون من مارس ، وهو موعد الذكرى السنوية لقيام الفاشية ، حتى كانت لجنة التحرير الوطنى فى رومة قد أعدت العدة للقيام بمذبحة عامة تكون بمثابة إيحاء للجبان الشمال . وانفجرت بعد ظهر ذلك اليوم إحدى عربات « الزبالة » وكانت محملة بالمتفجرات فى شارع واسيلا إلى جانب سيارة شاحنة كانت ملأى بالجنود الألمان لنقلهم إلى معسكرهم . وقتل فى هذا الحادث ثلاثة وثلاثون ألمانياً ، وعدد من عابرى السيل من الإيطاليين . وقام الألمان كإجراء انتقامى فى اليوم التالى بإعدام ٣٣٥ من الرهائن الإيطاليين على طريق أرديا ، ودفنوا فى المغاور القريبة .

وسرعان ما انتشرت أنباء هذا الحادث الفظيع فى إيطاليا كلها ، وتوسع نشاط

رجال المقاومة في ربيع ذلك العام ومطلع صيفه في الشمال ، بينما ازدادت حوادث الانتقام من جانب الألمان قسوة ووحشية . وأعدم الألمان نحواً من مائة من رجال المناجم في شهر مايو في قرية صغيرة واحدة ، ولم تمض بضعة أسابيع ، حتى كانوا يعدون أربعمائة من المسجونين ومائة وعشرة من الفارين من الجيش . وأرغم أكثر من ألفي رجل بعد فترة قصيرة على الرحيل إلى ألمانيا ، وذلك بعد نصف جسر على نهر في مقاطعة بيلمونت . واتسع نطاق أعمال التخريب بعد انهيار خط جوستاف وسقوط كاسينو ، وعندما حان موعد تحرير رومة في يونيو عام ١٩٤٤ . كانت هذه الحوادث تقع في كل يوم تقريباً ، وأعلن موسوليني في الواحد والعشرين من يونيو أن الحزب النازي لم يعد قادراً على البقاء كحزب سياسي ، وأن عليه أن يتحول إلى « منظمة عسكرية كاملة » . وصدر الأمر بأن يصبح جميع الأعضاء الذين تتراوح أعمارهم بين التاسعة عشرة والسبعين اعتباراً من اليوم الأول من يوليو ، والذين لا ينتمون إلى قوات الجمهورية المسلحة ، جنوداً في وحدات ذوى القمصان السوداء المسلحين ليقوموا على « صيانة الأمن والحياة السلمية للمواطنين ضد القتل وضد أولئك الذين يتعاونون مع العدو » .

وكان هذا الأمر بمثابة إعلان للحرب الأهلية . وكانت الفظائع التي تقوم بها هذه الوحدات السوداء ، وأعمال الانتقام التي تطبقها ضد رجال المقاومة ، لا تقل عنفاً عن الأعمال التي يقوم بها الألمان وإن لم تعادلها في الاتساع . وبالرغم من أن الحرس النازي هو الذي كان يقوم بالأعمال الانتقامية الضخمة ، وأنه هو الذي ذبح جميع سكان قرية سانتا أنا دي ستازيما في شهر أغسطس عام ١٩٤٤ ، وقتل بين الثامن والعشرين والثلاثين من شهر سبتمبر ، نحواً من سبعمائة شخص في مارزابوتو إلى اجنوب من بولونا ، فإن الكتائب السوداء ، كانت مسئولة عن عدد آخر من الأحداث الوحشية أيضاً ، وإن لم يذع أمرها . وكانت هذه الكتائب تضم عناصر تفوق في سوءها العناصر الموجودة في وحدات المقاومة السرية ، وتؤدي واجباتها بكثير من الغلظة والوحشية والخطورة . وتعذب المسجونين دون رحمة أو إشفاق ، تماماً على النحو الذي كانوا يتعرضون هم فيه لتعذيب وحدات المقاومة الشيوعية إذا ماوقعوا في أيديها . وحتى عندما تمكن الألمان من تجميع قواتهم إلى

الشمال من فلورنسا ، وراحوا يقضون الشتاء على طول خط الدفاع القوطى الممتد من ريمينى إلى سبيزيا ، لم تخف حدة العنف وراء الخطوط الألمانية .

وكان موسولينى يرقب هذه الوحشية المتزايدة من جانب الفاشيين أو أعدائهم بكثير من القلق الحزين ، متفجراً أحياناً فى ثورات غاضبة يعلن فيها أن « أيام الرحمة قد انقضت » . ولكن بالرغم من هذه التومضات من الغضب والثورة ، وبالرغم من دعوته إلى المزيد من تجنيد الكتائب السوداء ، فإنه وجد نفسه مضطراً فى النهاية إلى الاعتقاد بأن موقف التسامح والوفيق ، هو الأمل الوحيد الباقى للجمهورية . وقد أصدر أوامره إلى محافظ تورين بأن يجتمع إلى الجنرال أوبيرى ، مدير التورين السابق فى الجيش الإيطالى الرابع ، وأحد زعماء المقاومة السرية البارزين الآن ، وأن يتفاوضا على منح عفو عام ، وقد طال أمر المفاوضات ، وأخيراً وافق سبعة وخمسون من ضباط المقاومة ليس إلا ، وكان الفاشيون قد اعتقلوهم على شروط الاستسلام . وكان بافولننى وفاريناتشى وبوفارينى - جيدي ، دأبى الشكوى والتدمير من اعتقاد موسولينى اللاواقعى بإمكان التفاهم بين الفاشيين وأعدائهم ، ومن رفضه ، عندما حان الوقت لاتخاذ قرار حاسم ، التصديق على الإجراءات الصارمة التى اقترحوها ، التى كان هو قد أقرها فى البداية . وكان قد أصدر فى الخامس والعشرين من أبريل عام ١٩٤٤ ، مرسوماً يقضى بعقوبة الموت على كل عضو من أعضاء المقاومة السرية يعتقل بعد ذلك التاريخ ، ولكنه منحهم فى الوقت نفسه مهلة شهر للاستسلام مقابل العفو ، كما راح يمنح بعد ذلك ، إعفاءات ، مماثلة فى عدد من القضايا . وقد اتخذ موقف القسوة والصرامة فى يوم ما ، ولكنه لا يلبث بعد أربع وعشرين ساعة ، أن يندم ، وأن يعود إلى صفحه وغفرانه . وسجل جيوفانى دولفين فى يومياته حالات كثيرة ، تدخل فيها موسولينى لإنقاذ أرواح رجال حكم عليهم بالإعدام . ولم يكن يصفح عن المعروفين بشيوعيتهم ، ولا سما أولئك الذين يعملون تحت إمرة تيتو فى « فينسيا جوليا » ، وقد أعدم كثيرين منهم بتهمة الخيانة ، ولكن عندما عرضت عليه رسالة تضم أسماء قادة الأحزاب السياسية غير الشيوعية واللامشروعة ، لم يفعل أكثر من الانطلاق بالتهديد والوعيد ، وهو ما لم يحمله أحد على محمل الجد ، وما نسيه هو نفسه فى صباح اليوم التالى . وكان بين هذه الأسماء اسم فيروشبو بارى زعيم حزب العمل

اليسارى ، والذي كان وزير عدل موسوليني قد حذر منه المرة تلو المرة . ولكن موسوليني رفض إصدار الأمر باعتقال بارى ، إذ كان يعتقد أنه « رجل شريف فى قرارة فؤاده » . وراح وزير العدل ، يصرخ بيأس قائلاً لكارلو سيلفيستري . . . « كم مرة عملت كل ما فى وسعى من جهد لإنفاذه » . وقال فاريناتشى فى مناسبة أخرى « ولكنه برفض إنفاذ نفسه . فهو لا يستطيع النجاح إلا عن طريق القسوة لا عن طريق الترضية والتفاهم » .

ولم يكن موسوليني أكثر نجاحاً فى محاولته اكتساب أهل الشمال إلى صفه عن طريق تأميم الصناعة . وكان يعتقد أن القوانين التى رعى من ورائها إلى تطبيق سياسته الاشتراكية محالاً بواسطتها حل مشاكل الجمهورية الاقتصادية ، ستحظى بتأييد عمال الشمال . وعندما أصدرت لجنة التحرير الوطنى فى مدينة رومة فى مطلع شهر مارس أمراً بالإضراب العام فى جميع أنحاء الجمهورية الاشتراكية ، اعتقد أنه لن يواجه خطراً كبيراً . ولم يكن الإضراب بالطبع عامساً على النحو الذى أراده شيوعيو رومة ، وحاولوا تنفيذه ، ولكن وزارة ميزاسوما اضطرت إلى الاعتراف بأن عدداً من المصانع قد توقفت عن العمل ، وأن نحواً من ربع مليون عامل قد خرجوا من أعمالهم ، بينما ادعى الشيوعيون أن عدد المضربين زاد على المليون . ورفض موسوليني تلبية طلب الألمان باتخاذ إجراءات صارمة ضد المضربين ، وقال إنه ملّ من رؤية الإيطاليين يحاربون بعضهم البعض ، ولأنه لا يريد المزيد من ذلك على الإطلاق^(١) .

ولم يؤد وجود الحكومة الفاشية وتجزئة إيطاليا إلى مشول خطر واحد فى قيام حرب أهلية واسعة النطاق ليس إلا ، إذ كان هناك خطر آخر ، فى أن يجد الإيطاليون أنفسهم يقاتلون أبناء جلدتهم فى الميدان أيضاً . ويبدو أن هذا الخطر

(١) أعربت السفارة الألمانية فى تلك الأيام عن اعتقادها ، بأن الأمل الذى يساور الحلفاء دائماً هو نشوب الحرب الأهلية على نطاق واسع فى شمال إيطاليا . وذكر رئيس القسم السياسى فى السفارة ، أن هذا الأمل كان السبب فى امتناع الحلفاء عن الإغارة من البحر على مكاتب الحكومة الإيطالية على بحيرة جارد . وكان الأمريكيون يعرفون موقع كل مكتب وكل وزارة ، لكن الغارات لا تتجه إلا إلى البيوت التى يقيم فيها رجال السفارة الألمانية ، وأجنود الألمان ، ومضى هذا الدبلوماسى الألمانى يقول إن بقاء حكومة فاشية فى حيز الوجود كان يضمن للحلفاء الانتفاع من اشتداد معارضة لهذه الحكومة « المؤلف »

كان مصدر قلق دائم لموسوليني . وكان يحدد على الخريطة تحركات الوحدات الإيطالية التي تقاتل إلى جانب الألمان ، بينما يطلب بإصرار المعلومات الدقيقة عن الوحدات الإيطالية التي بجندتها بادوليو للقتال إلى جانب الحلفاء . وكانت هناك ثلاث وحدات إيطالية لا تزال تقاتل الحلفاء في إيطاليا ، وهي فوج بارباريجو على جبهة انزيو ، وفوج من رجال القمصان السوداء يقاتل تيتو في كرواتيا ، وفوج من الرماة يقاتل رجال المقاومة السرية السلافية في كارسو . وكان هناك فوج آخر من الرماة يقاتل الألمان ، وروى مازوليني أنه سمع موسوليني يعرب ذات يوم عن سروره لأنه سمع من إذاعة بارى بلاغاً رسمياً للحلفاء يتحدث فيه عن شجاعة هذا الفوج الإيطالي . .

وصرخ مازوليني مندهشاً . . . ولكنها قوات بادوليو ، وهي تحارب الألمان ! . فرد موسوليني بهدوء . . . ولكنهم إيطاليون ، وهم يقاتلون ببسالة . وهذا هو المهم .

وروى مازوليني أن موسوليني قضى بقية ذلك اليوم ، بادی المرح وعندما جن الليل ، كان يعتقد صادقاً أن المحور سيكسب الحرب ، ولكن لم يمض يومان ، حتى كان يعود إلى طبيعته ، في تلك الأيام ، حزيناً يائساً

رئيس الجمهورية في جرجنانو الأشهر الأخيرة

من ديسمبر ١٩٤٤ إلى أبريل ١٩٤٥

« أنا أشبه ما أكون بقبطان سفينة هاجمتها العاصفة . وقد تحطمت السفينة ، ووجدت نفسي وسط محيط متلاطم الأمواج ، على ظهر لوح من الخشب لا أستطيع توجيهه ولا التحكم فيه » .

ارتفعت معنويات موسوليني في ديسمبر عام ١٩٤٤ ، إلى الذروة ، ودام هذا الوضع بضعة أيام . فقد مضى إلى مدينة ميلان مع وولف وران ، في زيارة قصيرة . وتوقفت سيارته لسبب أو لآخر ، وسرعان ما التفت حولها الجماهير تهتف له بصورة عالية مستبشرة ، وكأنه قد أعلن لها قبل لحظات أن الحرب قد انتهت . ولا ينكر أحد أن الجماهير كانت تهتف له أحياناً في جرجنانو ، ولكنها لم تستقبله قط بمثل هذه الحماسة التي قوبل بها هنا في ميلان . وأخذت الجماهير تتزايد شيئاً فشيئاً ، والسيارة تشق طريقها ببطء في الشوارع ، واضطر حتى خصوم الفاشية إلى الاعتراف بأن ما يربو على الأربعين ألف إنسان ، كانوا يهتفون بأعلى أصواتهم متحمسين . . . « دوتشي ، دوتشي . دوتشي » . وتحدثت راشيل عن نفس الموضوع بقوياً . . . « لو لم أسمع اهتاف الحماسي بنفسى من المذيع ، لما صدقت موسوليني وهو يروى لي ما حدث له عند عودته . ويتضح من هذا أن لا صحة لما يقال من أن البلاد كلها ، تعادى الفاشية ، وأن كل إنسان يكره بنيتو » .

وراح يقول لها بشيء من الاعتزاز . . . « لم يسبق لي طيلة العشرين عاماً الماضية من عمر الفاشية أن قوبلت بمثل هذا الترحاب . ولسبب غريب لا أعرفه ، لم يكن الجنرال مونفانا رئيس الشرطة ، قد علم بزيارتي ، إلا في اليوم السابق لها . وقد

أذيعت وقائع الزيارة في ليريكو ، بحيث فوجئت إيطاليا كلها ، بأمر وجودى هناك ، ولم أكند أنهى من خطاى حتى كانت الهتافات تملأ عنان السماء ، وكان والحق يقال ، نصراً كاملاً مطلقاً ، أما بالنسبة إلى الجماهير فكانت أشبه بأمواج البحر الصاخبة . وكان من الرائع أن أقف بين جماهير الشعب في سيارتى ، وأن أسمع هتافاتهم تنادى بالولاء لى .

وظل يتحدث عن استقباله هذا أكثر من أسبوع كامل ، وتظاهر الألمان بدهولم من هذا الاستقبال . وذكر ران ، أن ليس ثمة من شك في أن كل إنسان قد ذهل من هذه المفاجأة ، فقد كانت والحق يقال « مظاهرة حماسية رائعة » . وكان مما يثير المزيد من الاستغراب ، أن الخطاب الذى ألقاه الدوتشى في مسرح ليريكو ، لم يكن قوياً على الإطلاق . فقد شرع بقرأ من ملاحظات دونها في ورقته ، وكان من العسير عليه أن يقرأها ، دون نظارتيه ، واعدأ الشعب بالمزيد من الإصلاح في حقلى السياسة والصناعة . وقد ذكر بأنه قد لا يصبح من الضروري عما قريب بالنسبة إلى العمال ، أن يحملوا بطاقات العضوية في الحزب الفاشى ، وأن الأحزاب السياسية الأخرى ، سننال الاعتراف الرسمى بها . ولم تظهر على صوته ملامح القوة السابقة التى عرفها الناس فيه ، إلا عندما أخذ يتحدث عن حتمية النصر الألماني ، مشيراً إلى وجود أسلحة سرية ذات قوة هائلة .

وكان هتلر قد حدثه بعض الشيء عن هذه الأسلحة عندما زاره في شهر يوليو ، ولم يكذ ينهى من هذه الزيارة الظافرة التى قام بها ميلان ، حتى سارع إلى ألمانيا من جديد ، ليعرف من القوهرر المزيد عن هذه الأسلحة السرية ، فحصل على معلومات دفعته إلى أقصى درجات الحماسة والإثارة . وقد توقف به القطار الذى كان يستقله في خارج مونيخ ، وراح ينتظر في محطة جانبية وصول قطار هتلر القادم من الشمال . وتبادل الرجلان التحية بنفس الحرارة التى عرفت عن مقابلاتهما في الأيام السعيدة الخوالى ، ثم راحا يستقلان معاً سيارة ، مضت بهما لرؤية الأسلحة الحديدية التى وصفها موسولبنى فيما بعد بأنها « آلات دقيقة الصنع للغاية طورتها البحوث المختبرية تطويراً عظيماً » . وصدق دون أى نقاش كل ما قاله

له الألمان عنها ^(١). وراح يقول للرائد فورتوناتو البونيتي ، قائد حرسه الخاص . . . « ستدهش هذه الأسلحة العالم وتدمره ، كما ستغير مجرى الحرب في غضون بضعة أيام » . واستمرت موجة الحماسة هذه عند موسوليني طيلة طريق العودة إلى جرجانفو ، وروى موهاوزين ، أنه هتف بجماعة من رجال الحرس الفاشي ، مر بهم وهو يقود سيارته على الطريق المخاضى لساحل البحيرة إلى دارته في فيلترنييلي ، بقوله . . . « اصعدوا أيها الشباب . فقد كسبنا الحرب » .

لكنها كانت المرة الأخيرة التي يظهر فيها ثقته . فمع مضي أشهر الشتاء القاسية ، ودنو الربيع ، راح يغوص شيئاً فشيئاً في أعماق بأسه ، ويعود ثانية إلى تلك الحالة من « الانهيار المعنوي والبدني ، بعد أن زايله كل نشاط وكل حيوية » ، على حد تعبير الأستاذ زاخاري قبل زيارته الأخيرة لهتلر . ولم تعد مهام الحكم وتفصيلها تعنيه لافي قليل ولا في كثير ، ولم تعد المحاولات والمناقشات حول المستقبل القريب للفاشية ، تثير لديه أى اهتمام . وكان يحتاج في الماضي أحياناً على المطالب الألمانية ويفلح في رفضها ، أما اليوم فلم يعد يحتاج إلا نادراً . وكان في السنة الأولى من رئاسته للجمهورية قد قاوم الضغط الألماني الشديد لاستبدال الليرة الإيطالية ، بالمارك الألماني كنقد للجمهورية ، كما قاوم فيما بعد ، وبنجاح ، مطالب ألمانية عدة ، تتعلق بتفكيك المصانع الإيطالية ونقلها إلى ما وراء جبال الألب . أما اليوم فباتت مقاومته ، ضعيفة خائرة ، ونادرة ، ولا يمكن أن يعزى الفضل في بقاء المصانع الإيطالية بعيدة عن متناول الألمان وسيطرتهم إلا إلى الجهود المشتركة التي بذلها العمال وأصحاب المعامل أنفسهم . وظل يرفض مدة طويلة استبدال تامبوريني رئيس الشرطة الذي كان الألمان قد استاءوا منه ، ولكنه لم يستطع الاستمرار في هذا الرفض الآن ، وسمح لبوفارينى - جيدي ، بأن يقنعه بالتسليم للألمان بما يريدون . وعندما توفي الكونت مازولينى متأثراً بتسمم الدم بعد حقنة من الأنسولين ، وحاول

(١) لا ريب في أنه كان مصنفاً إلى حد عجيب موضوع الأسلحة السرية ، كما صدق أموراً عديدة أخرى . وعند ما قيل له إن مختبراً إيطالياً يعمل في اكتشاف « أشعة الموت » التي ستحقق النصر للفاشية ، سارع إلى الاقتناع بمساعدته بالمال ، في مشروعه . وكان منذ مطلع فبراير عام ١٩٣٩ ، يتحدث عن سلاح سرى « يؤثر على سير الحرب تأثيراً كاملاً » .

بريزيوسى الحصول على تأييد السفارة الألمانية ، من وراء ظهر الدوتشى لتعيينه فى المنصب الذى خلا بوفاة لكونت فى وزارة الخارجية ، وعلق موسولينى بشىء من الانزعاج على هذه الدسياسة عندما وصل نبؤها إلى أسماعه بقوله . . . « ولكن ما الذى يريده بريزيوسى من هذا المنصب ؟ إنه لن يجد ما يعمله إذا توصل إليه » .

وكتب إلى هتلر فى الرسالة التى بعث بها مهنتاً برأس السنة الجديدة يقول . . . « هناك شىء واحد ، أنا على ثقة منه كل الثقة ، وهو أن الديمقراطية لن تحل فى أوروبا محل الفاشية أو الاشتراكية الوطنية » . لكن موسولينى لم يعد قادراً على أن يصبر على مثل هذه الادعاءات المتبجحة أو على قائلها . ووصلت إلى مسامعه أنباء النشاط الذى يقوم به المتمردون عليه من الفاشيين ، والذين يحاولون الحصول على مساعدة الألمان فى الإطاحة به ، واستبداله ، بزعيم فاشى جديد يكون صارم العزيمة فى نظراته التى لا تخالطها الأفكار الاشتراكية . وسمع أن هناك آخرين ينادون بالسرعة فى التحول إلى الديمقراطية . وقيل له إن فاريناتشى وبوفارينى -جيدى يواصلان القول للألمان بأن موسولينى أصبح من النعومة بمكان بحيث لم يعد صالحاً حتى للبقاء كرأس اسمى للدولة . ولكنه ظل يستمع إلى كل هذه الأمور بهدوء يقرب من حدود التجاهل وعدم الاكتراث . وحملت صحيفة « العهد الفاشى » التى يصدرها فاريناتشى ذات يوم عنواناً كبيراً يقول . . . « لطف الدوتشى المفرط مع زانيبونى » ، ثم راحت تهاجم موسولينى لسماحه ببقاء هذا الرجل الذى حاول اغتياله فى عام ١٩٢٥ على قيد الحياة . وتقول راشيل لأنه حمل هذه الصحيفة معه من مكتبه إلى منزله ، وقذف بها على المائدة بحركة ملول ، ما كانت لتصدر عنه فى أيام سلطانه وقوته أبداً . وقال معلقاً . . . « لا يمكن للطف أن يكون مفرطاً » . واضطر أخيراً تحت إلحاف راشيل التى كانت قد تحولت إلى كراهية وبوفارينى - جيدى بسبب اتصاله بآل بيتاتشى ، للموافقة على إبعاده عن وزارة الداخلية ، وقد أبلغ موسولينى أحد سكرتيريه بأنه قد أقال الرجل لإرضاء راشيل ، وإثارة الألمان ، لا لأنه يعتقد أن إبعاده سيؤدى إلى تقوية مركز الحكومة أو إلى تثبيت موقفه هو .

وبدا وكأنه قد فقد كل أمل . فلم تعد الأوهام تساوره . وكان يحتفظ بهذه الأوهام فى الماضى عن طريق تصديق دعاياته القائلة بأن أسلحة الألمان السرية

وجيشهم السرى الحديد . سيقبلان موازين الحرب عما قريب ، وأن خسائر الحلفاء أكبر مما يستطيعون احتمالها ، وأن الحلاف بين الروس والأمريكيين سيؤدى إلى الحرب بين الدولتين ، أو أنه سيتيح له الفرصة على الأقل لعقد صلح منفرد مع أحدهما ، مؤثراً إذا لم يكن ثمة مناص من ذلك ، أن تتحول إيطاليا كما قال لوزير ماليته ولبريزيوسى ، إلى جمهورية سوفياتية على أن تكون مستعمرة أنجلو — أمريكية . ولكنه أخذ الآن يستمد عزاءه من التفكير ، بأن بريطانيا إذا ربحت الحرب ، فستفقد إمبراطوريتها بعد انتهائها ، تماماً كما فقد هو إمبراطوريته . وكان إذا ما حاول وزراؤه تشجيعه ، يقابل تشجيعهم هذا بالهز والسخرية . وعندما حدثه جرازيانى ، عن مشاجرته الأخيرة مع كيسلرينج ، راح يهز كفيه ، مبدياً عدم اكترائه . وعندما اقتحم ميزاسوما عليه مكتبة ذات يوم ، هاتفاً بأن هناك « أنباء رائعة » ، وأن الألمان شنوا هجوماً مضاداً ناجحاً على نهرالموز ، كان تعليقه الوحيد ، يعكس عدم الاهتمام ، وكأنه لم يفهم ما قاله الوزير الشاب المتحمس . . . إذ قال « هذا حسن » ثم أوماً إليه بيده ، صارفاً إياه من حضرته ، ودون أن يكلف نفسه عناء مؤالاه عن التفاصيل .

ومضى فى الذكرى السنوية لوفاة دانونزيو إلى قصر الفيتوريالى ، حيث وقف إلى جانب قبر الشاعر ، ثم ألقى خطاباً حزيناً طافحاً بالأسى ، وصفه أحد سامعيه « بالافتضاب والغموض والكآبة » ، والإحساس بالمأساة . وكان وجهه حزيناً شاحباً ، ويبدو « كالرخام » ، بينما كانت السماء ملبدة بالغيوم ، والجو فى منتهى السوء . وراح موسولينى يقول . . . « إنك لم تمت يا صديقى ، وإن تموت ، طالما أن هناك جزيرة باقية فى البحر المتوسط تسمى لإيطاليا . إنك لم تمت وإن تموت طالما أن هناك فى وسط إيطاليا مدينة لا بد من أن نعود إليها ، هى مدينة رومة » . ووصف ميزاسوما حالته فى تلك الأيام بقوله . . . « إنه يعيش على أحلامه ، وبأحلامه . ولم يعد له أى اتصال بالواقع . فهو يعيش ويعمل فى عالم بناه لنفسه ، عالم فى منتهى الغرابة والشذوذ . فقد تعدى نطاق الزمن . ولم تعد لردود فعله أو مجالات حماسه أو انهياراته أية صلة بالحياة . فهو نفذ إليه فى أية لحظة ، ودون أى سبب محدد » .

وكان يتحدث أحياناً ويتصرف كما يتحدث ويتصرف أى شاعر مجنون في الواقع ، وهو الوصف الذى كان قد ادعاه لنفسه قبل نحو من عام .

ووصف الصحفي إيفانو فوسانى مقابلة جرت له مع موسوليني في تلك الأيام . وقد جرت هذه المقابلة في جزيرة تريميلون الواقعة في وسط بحيرة جاردا ، وفي العراء تحت سماء تسطع فيها النجوم . وكان ثمة كلب بوليسى ينبح بشدة ووحشية ، ومضى موسوليني إليه فأمسك بفكه الأسفل بإحدى يديه ، ليربت عليه باليد الأخرى . وراح موسوليني يتطلع في عيني الكلب ، فوصفهما بأنهما هادئتان ، وتوقف الكلب عن النباح بعد لحظات ، وألقى عند قدميه لـ ، ثم مضى في إغفاءة طويلة ، بينما شرع موسوليني في الحديث إلى الصحفي . وكان يتحدث بسرعة وبصورة تحمل طابع الإسهاب ، حتى إنه عندما انتهى من حديثه وعاد في زورقه البخارى إلى جرجنانو ، ظل فوسانى يكتب باستمرار ثلاث ساعات متوالية ، محاولاً تسجيل كل عبارة قالها . ولم يفه الصحفي طيلة المقابلة إلا بكلمة واحدة هي « تيل » ، وهى اسم الكلب البوليسى . وراح يعلق على ما كتبه قائلاً . . . « وخفت منذ البداية أن يقطع سماع صوتى أنسياب هذا الرجل ، الذى كان قد قرر الاعتراف للنجوم » .

فقد أحس موسوليني بالحرية بعيداً عن حراسه وعن الألمان ، ونائياً عن ثورات زوجته الغاضبة ، ودموع عشيقته ، وراح ينطلق متعبداً لها ، وكأنه أصيب بالهذيان ثم قال . . . « ولو كان هذا اليوم من أيام الصيف . لنزعت معطى وأخذت أتدحرج على العشب ، وكأننى طفل شقي سعيد » . وراح يحدث الصحفي عن النجوم وعن القوة الخفية للروح وعن ولده الصريع وأخيه أرنالدو ، وعن تفاهة الحياة الإنسانية . وروعة حياة الروح . كان يتكلم كمنى محموم ، ينسج بأقواله بين الحقيقة والخيال اللذين لا رابط بينهما ، منتقلاً من فكرة إلى أخرى بعيدة عنها كل البعد ، خائضاً فجأة في سلسلة طويلة من التناقضات والاستعارات الكثيرة والأفكار نصف الواضحة ، لينطلق بملاحظة تجمع بين الصدق والوضوح ، أو نبوءة تنطق بالاستشفاف العميق للغيب . وحاول تحليل أسباب نجاحه وفشله ، فقال إنه غير معصوم ، وإنه قد أخطأ كثيراً ، وإن في وسعه أن يرى الآن أخطاءه

ويتبينها . ولم يكن من السهل عليه أن يفعل ذلك في الماضي إذ أنه ظل سنوات طويلاً محاطاً بالمتنافقين من عبدة الأشخاص . . . » وراح يقول بعد ذلك في شيء من التفزز الحزين . . . « كنت أسمع تعبير العبرى ، أكثر من مائة مرة في اليوم » . ولكن غيره اقتصرت أخطاء أكبر ، وكان في وسع الناس أن ينسوا أخطاءه كلها ، لو أن الحرب التي فرضتها عليه السياسة الخارجية البريطانية الشيطانية ، قد سارت من جانب الألمان بطريقة أكثر تحفظاً وأدق قيوداً . فلقد وقع المحجور على روسيا خلافاً لنصائحه وضد رغباته ، وهاهى ألمانيا تقف على عتبة الدمار ، وسيصبح الروس عما قريب في وضع في أوروبا الوسطى ، يستحيل إخراجهم منه . ولو اقتصرت هذه الأخطاء عنها في الشرق ، لكان في إمكان الصين أيضاً أن تطيح بالعالم كله . . . » ترى كيف يمكن لإنجلترا وأمريكا التغافل عن مثل هذا الخطر الهائل ؟ »

وقادته هذه الإشارة إلى الإنجليز ، إلى موجة جديدة من الحقد الغاضب عليهم . وراح يهاجمهم ويهاجم الفرنسيين لأنهم لم ينصروه ، في مطالبته بتعديل معاهدة فرساي ، وإلغاء ديون الحرب وتعويضاتها ، وفي موقفه ضد ألمانيا في مستهل الثلاثينات . وحمل على الملك وعلى الحاشية الرجعية التي أحاطت به ، كما هاجم البورجوازية التي تسلت بروح كاذبة إلى عقيدة الفاشية . وهاجم القيادة العامة لأنها خانت الجنود ، كما حمل على الجماعات الصناعية والمالية الدنيئة ، لأنها « أساءت معاملة العمال الذين كان ولا يزال يحبهم باستمرار ، لأنهم طيبون وصامدون ، ولأنهم يتفوقون على جميع الأدعياء الكاذبين الذين يزعمون تمثيلهم » . وحمله التفكير فيهم إلى الإغراق في حالة نفسية كثيفة إذ قال « ما زلت سجيناً ، منذ اعتقلت أول مرة في قصر الملك ، ولم يعد ثمة مفر . فأعداؤنا يطلبون منا التسليم دون قيد أو شرط . . . أما بالنسبة إلى الآخرين ، فنحن خونة ، ولم تعد لدى أوهام في موضوع مصيرى . وليست الحياة إلا مرحلة قصيرة من مراحل الخلود . وعندما تنتهى الحرب ، سيبصق الناس على ، ولكنهم قد يجثون في يوم آخر ، فيمسحون عنى بصفاهم ، وأنداك سأبتسم ، إذ أنني أكون قد تصالحت مع شعبي » .

وهب من مكانه بعد كل هذا الحديث ، وودع فوساني مصافحاً إياه .
وروى الصحفي ، أنه أحس ، وقد رأى موسوليني بمضى إلى زورقه ، بالتأثر
العميق لهذه الكبرياء الهائلة التي تبدو عند هذا « الرجل العظيم الشقي في ساعة
مأساته » ، وانطلق الكلب الضخم يقفز إلى صخرة قريبة ، ليصدر عن نباح طويل
حزين .

ولكن إذا كان في مكنة هذا الصحفي أن يتميز العظمة في هذه الشخصية
المحنة في ساعة من ساعات الإشفاق الداهل ، تحت السماء الصافية التي ترصعها
النجوم ، فإن مثل هذا التمييز كان صعباً على الصحفيين الذين كانوا يلقونه دائماً
في مكتبه الصغير المكتظ في دارة أورسوليني . وردّت الصحفية ماديلين موليير ،
بأنها وجدت فيه رجلاً لم تستطع التعرف إليه ، إذ بدا كجرم مدان بوجهه الشاحب
ورأسه الحليق . وعينيه السوداوين اللتين ينقصهما البريق . وكان أكثر استسلاماً
منه تواضعاً . وكان استسلامه هذا ، وتقبله الهادئ لمصيره ، يحمل طابع الاعتذار ،
واستشارة الإشفاق .

وراح يسألها . . . « ما الذي تريد أن تعرفه . إلى أذكر أنك جئتنا في
رومة قبل سبع سنوات . كنت آنذاك رجلاً يهتم به الناس ويثير اهتمامك .
أما الآن فأنا رجل عاجز . ولكن لم يعد يخيفني شيء . فالموت شكر لله الذي
احتمل مني الكثير . وقد صادوا صباح اليوم عصفوراً صغيراً في غرفتي . كان يطير
بيأس في الغرفة يبحث عن منفذ ، إلى أن أعياه الجهد فسقط على السرير .
وحملته بحنان مخافة أن أفزعه . ثم فتحت له النافذة وأطلقتني إلى السماء . ويبدو أنه
ذهل في البداية ، وراح يتطلع حوله ، قبل أن ينشر جناحيه ليطير ، مزقزقاً
زقزقة الفرح ، منطلقاً إلى الحرية . لن أنسى ما حييت هذه الزقزقة . ولكن
هذه النافذة لن تفتح لي أنا ، إلا لتقودني إلى الموت . وهذا جزاء استحققه . فقد
أخطأت كثيراً ، ومن حق أن أكفر عن أخطائي بحيتي ، إذا كانت توازي هذه
الأخطاء ، وأود أن أقول ، إنني لم أخطئ قط عندما كنت أسير على هدى
غرائزي ، وإنما أخطأت عندما أصبحت السمع لنداء العقل . . .
« أجل يا سيدتي : فقد انتهيت . وقد أفل نجمي . وأنا لا أزال أعمل ، ولكنني

أعرف أن ما أعمله ليس إلا تضليلاً . وأنا أنتظر نهاية المأساة . وقد تأيت عنها إلى حد غريب . وأنا مريض . وقد انقضى على عام كامل لم أتناول فيه من الطعام إلا السوائل . وأنا لا أشرب ، ولا أدخن . . . وقد يكون القدر قد شاء لي أن أبين الطريق إلى شعبي ، ولكن هل سبق لك أن سمعت بديكتاتور مثلاً ، يحسب لكل شيء حساباً .

وقال لزيارته إنه لا يعزى نفسه الآن إلا بكتبه ، وهى من خير ما ألفه كبار الفلاسفة . وهو لا يريد وهو ينتظر نهايته ، إلا أن يقرأ ، وأن يواصل القراءة . . . وعندما سألته عن تشيانو قال . . . « مت أنا منذ ذلك الصباح من يناير ، عندما لقي هو حتفه . والعذاب طويل ولا يطاق . فأنا كقبطان سفينة هاجمتها العاصفة . وقد تحطمت السفينة . ووجدت نفسى وسط محيط متلاطم الأمواج ، وعلى ظهر لوح من الخشب لا أستطيع توجيهه ولا التحكم فيه . ولم يعد هناك من يسمع صوتى . ولكن العالم بأسره ، قد يصيح السمع لى ذات يوم » .

وكان يتحدث على هذا النحو لكل من يأتى لزيارته فى هذه الأيام . فهو دائماً يتحدث حديث الذى يحس بالمأساة ، بل حديث الصوفى الغامض أحياناً ، والشاعر فى أغلب الأحيان . وقد ذات يوم للكاتب الفرنسى الشاب بيير باسكال ، الذى ترجم إلى الفرنسية كتابه « حديث مع برونو » . . . « رأيت هذا الصباح وأنت فى طريقك إلى هنا ، ألوان البحيرة الفاقعة ؟ رأيت زرقها الشديدة ؟ أنا أنظر إليها عندما تكون حمراء عند المغيب أو بيضاء عند برودة الفجر ، وأراها ، وكأنى أبصرها لأول مرة . إن الجمال فى إيطاليا شيء لا يوصف » . وفجأة راح يغير موضوعه ، دون أن ينتظر جواباً ويسأل باسكال إذا كان يؤمن بالله . وقال إنه لا يعرف حقاً أن كان يؤمن بالله ، ويود لو آمن به . وقفز فى حديثه من الله إلى نابوليون فى شارل مورا^(١) ومنه إلى المصورين الإيطاليين فدانتي فدانوتزيو ، مبتعداً عن كل حديث عن السياسة ، إلى أن ذكر باسكال حاجة أوروبا إلى

(١) شارل مورا ، (١٨٦٨ - ١٩٠٠) كاتب ملكى فرنسى من أهل البين . ترك أثراً ملحوظاً على النقاشية وكان من أشد خصوم الشيوعية . وقد أدين بالسجن فى عام ١٩٤٥ مدى الحياة بتهمة التعاون مع الألمان أثناء الاحتلال . ألف عدداً من الكتب منها « تقدم العقل » و « ثلاث أفكار سياسية » . « المغرب »

الرجدة للدفاع عن نفسها ضد تدخل الإنجليز . . . فقال موسوليني وكأنه يعد كل فكرة عن الإنجليز الذين لا يحبهم والذين أسهموا كثيراً في الدمار الذي حل به . . . « هذا هو الواجب الملقى على أبناء جيلك ، والحيل الذي يليه » . ولم يكن في وضع يرغب فيه بالحديث عن السياسة ، وبعد أن أبدى بأسكال بعض الملاحظات عن رجال المقاومة السرية في إيطاليا ، ورجالها في فرنسا ، أوقف موسوليني الحديث فجأة .

ووجدته كاتب آخر هو بيار ريجيدوري كورتى ، عازفاً كل العزوف أيضاً ، عن التحدث عن الأحداث الراهنة . وآثر أن يتحدث عن مازينى وجاريبالدى ، وعن الفلسفة والحب الجنسي . وقال إن كل حب لابد أن يموت سريعاً ، نتيجة عجز العاشقين عن فهم بعضهما . وعندما علق كورتى بأن خيبة الأمل تقع عندما تؤخذ الشهوة على محمل الحب ، أشار موسوليني إلى أفلاطون وأنهى المقابلة قائلاً بأنه يعتقد من ناحيته أن الحياة تعنى الألم .

وكثيراً ما قاطع اجتماعاً مهماً يعقده مع وزرائه أو مع الألمان ، ليتحدث عن الفلسفة أو التاريخ أو الدين . وفي السادس من أبريل ، وكان الحلفاء قد شنوا هجومهم الأخير ، واحتلوا ماساً ، وشرعت الجيوش الألمانية في التراجع السريع عبر تسكانيا ، أذهل العقيد دولمان ، الذى كان لا يشغله شئ سوى مشاكل الانسحاب والتسليم ، عندما قال له ، وسط مناقشة فى منتهى الأهمية . . . « قل لى يا عقيد . . . أتؤمن بالله ؟ إن الجنرال وولف يؤمن به » .

الألمان يستسلمون . . .

من فبراير إلى أبريل ١٩٤٥

« من حق أن أعرف على الأقل ، حقيقة ما يدور » .

كان العقيد دولان والجنرال وولف من قادة الحرس النازي يتفاوضان منذ مدة دون علم موسوليني مع الحلفاء ، حول استسلام الجيوش الألمانية في إيطاليا . وكان الوسيط الكردينال ايدلفرنسو شوستر ، رئيس أساقفة ميلان ، الذى ذاع أمر حكمته في العالم بأسره ، والذى كان على اتصال بهما منذ مطلع شهر فبراير ، عندما اقترح عليهما ، رغبة منه في إنقاذ إيطاليا والحيولة دون المزيد من التضحية بأرواح الألوف من الناس ، أن يسمحا له بالتفاهم نيابة عنهما مع قادة المقاومة السرية . وقال الكردينال إن رجال المقاومة يزدادون عدداً في كل يوم ، ويحسن تنظيمهم ، وهم يتلقون المزيد من الأسلحة والمعدات التى يعيها الحلفاء إليهم . وقد بحث العقيد دولان في اقتراح الكردينال مع الجنرال وولف ، واتفق القائدان الألمان ، على أن يبعث الكردينال بممثل عنه إلى مقر قيادة المقاومة السرية لمقابلة الجنرال كادورينا . وقد اختار هذا قسيساً ذكياً ، يدعى اللدون جيوسيبى بيشيراي كان يعمل كاهناً مع الجيش من قبل .

وتمكن العقيد دولان في غضون ذلك من الحصول على تأشيرة تسمح بالسفر إلى سويسرا ، للبارون لويجي باريللى ، الممثل السابق لإحدى الشركات التجارية الأمريكية في إيطاليا ، تحت ستار الاستشفاء . وأقام هذا في زيوريخ ، في بيت صديق له يدعى الأستاذ هوسمان ، مدير معهد زوجربرج .

وجاء إلى البيت ذات مساء بعد وصول باريللى إلى زيوريخ ، رجل لا يعرف الأستاذ ، قال إنه جاء لقراءة عداد الغاز . وصبق الأستاذ هوسمان دهشة عندما قدمه باريللى إليه على أنه العقيد دولان من قادة الحرس النازي ، وطلب إليه أن يتصل فوراً بالسفارة الأمريكية ، وأن يطلب إلى المستر آلان دالاس ، النجى

لمقابلته . ولم يرغب دالاس في أن يقم نفسه في المفاوضات وهي في هذه المرحلة ، فأوفد مساعده الدكتور جيفرنيتر . واجتمع الرجلان في مقهى بيانشى . حيث اعترف الألماني بأن اسمه لا بد أن يكون على قائمة مجرمي الحرب عند الحلفاء ، وأنه مقابل رفع اسمه ، على استعداد للمساعدة في إنهاء الحرب في إيطاليا^(١) . لكن جيفرنيتر ظل متشككاً في الموضوع ، وما كان ليصدق بأن دولان يعترم حقاً ترتيب موضوع التسليم أو أنه قادر عليه ، وطلب منه للتدليل على قدرته وحسن نواياه ، أن يأتي إلى الحدود السويسرية بأحد الزعماء البارزين في عداثهم للفاشية ، والمعتقل في أحد السجون الإيطالية . وسرعان ما وافق الألماني على تنفيذ الاقتراح ، وطلب منه أن يسمى له الرجل . وقال جيفرنيتر إن عليه أولاً أن يستشير رئيسه ، ثم عاد مسرعاً إلى دالاس .

وقال دالاس . . . « اطلب منه فيروشيوي باري » . معتقداً أن دولان لن يلبث أن يختلق الأعذار ، لاستحالة إطلاق سراح مثل هذا السجين البارز . ولم يمض أسبوع حتى كان فيروشيوي باري وزوجه ، وشخص يدعى أوسيمينى ، من القادة البارزين الآخرين في مناهضة الفاشية والمحكوم عليهم بالإعدام في سجن فيرونا قد وصلوا إلى سويسرا .

ووصل الجنرال وولف نفسه في الثامن من مارس إلى سويسرا . والتقى بالأستاذ هوسمان في إحدى عربات القطار السريع بين شياسو وزوريخ . وسرعان ما اجتمع بالان دالاس ، الذي لم يعد به شيء ، وإن كان قد ألح إلى أنه سيضمن له مستقبله إذا انتهت المفاوضات نهاية ناجحة . وعندما عاد إلى إيطاليا ، فوجئ الجنرال ، بأن الماريشال كيسلرنج ، الذي كان يعتمد في مشروعه كثيراً على سلامة منطقته ، قد نقل أثناء غيابه من إيطاليا إلى الشمال ، ليخلف الماريشال

(١) كان اسم دولان على قائمة مجرمي الحرب حقاً . فقد كان المسئول عن إقامة غرف تعذيب البساتير في شارع تاسو في سجن بكارينو في رومة ، وعن أعمال الحرس النازي في فندق ريمينا في ميلان ، وكان المسئول أيضاً عن قتل الرهائن على طريق أوروبا . وكان هذا الشاب جميل الصورة وفي منتهى اللدكاء ، وقد أحق بالسفارة الألمانية في رومة منذ عام ١٩٣٩ ، إذ كان يعيش في العاصمة الإيطالية قبل هذا التاريخ ، وكانت أمه وهي ابنة طبيب في مونيف ، تدير منزلاً « بنسبويًا » في رومة .

رونشتادت في القيادة العامة للقوات الألمانية في الجبهة الغربية ، ليحاول منع الجبهة الألمانية هناك من الانهيار . ولم يكن في وسع وولف أن يتأكد من مدى الثقة التي يستطيع إيلاءها ، للجنرال فيتينجهوف خليفة كيسلرنج ، ولكنه استمر في مفاوضاته أملاً منه في أن يقبل فيتينجهوف وغيره من ضباط الجيش الألماني الشروط التي سيتمكن من الحصول عليها لإبان مفاوضاته . واجتمع في التاسع عشر من مارس مع الجنرال الإنجليزي ايرى والجنرال الأمريكي ليمتيزر على مقربة من الحدود الإيطالية - السويسرية في اسكونا على بحيرة ماجيوري ، وبحث معهما في شروط الاستسلام . ولكنه عندما عاد إلى مقر قيادته في إيطاليا ، فوجئ من جديد بأنباء غير سارة . فقد تحدث إليه هملر هاتفياً من برلين يقول إن الجستابو قد فرضت رقابتها على أسرة الجنرال وروجة دولان . ومنع الجنرال وولف من مغادرة إيطاليا ثانية ، ودأب هملر ، على التحدث إليه هاتفياً بين آونة وأخرى ، لينقل إليه أنباء أسرته . وقال وولف للبارون باريللي ، إنه يجد نفسه مضطراً إلى وقف المفاوضات ولكن هذا أقنعه بأن الخطر الذي يهدده كعجرم حرب أكثر من الخطر الذي قد يهدده إذا ما أصبح الألمان يشتبهون بخيائنه . وهكذا وافق وولف على الاستمرار في الاتصال بالحلفاء عن طريق جهاز إرسال وضعه في غرفة نوم مرافقه . وحصل في اليوم الأخير من شهر مارس على موافقة القائد العام فيتينجهوف على شروط الاستسلام . وفي الثالث عشر من أبريل ، استدعى إلى برلين ، فودع أصدقاءه وكتب وصيته .

ولكنه عاد إلى إيطاليا قبل انقضاء أقل من أسبوع . واستمع هتلر في الساعة الرابعة والنصف من صباح الثامن عشر من أبريل ، وكان لا يزال في ملجأ دار المستشارية إلى تقرير وولف ، الذي أراد منه هملر أن يقدمه إلى الفوهرر حول الوضع في إيطاليا . وروى وولف فيما بعد أن الفوهرر ظل صامتاً ، شبه ذاهل ، وهو يصغي إلى تقريره ، ثم تحدث أخيراً لا عن إيطاليا بل عن الفرصة التي كان لا يزال يحلم فيها في التفريق بين روسيا وبين البريطانيين والأمريكان . وكان وولف نفسه يعرف أن لا صحة لهذا الأمل الواهم ، إذ أن ممثلي الحلفاء ، رفضوا بسرعة وإصرار وثبات ، اقتراحاً كان قد ألح إليه في مستهل مفاوضاته معهم حول استسلام الجيش الألماني

في إيطاليا ، وهو أن يسمح لما تبقى من قوات المحور في إيطاليا ، بعبور الألب دون مضايقة لتكون حرة في محاربة الروس ، وأكدوا أن حلفهم مع الروس قوى لا يمكن أن يحل أو يضعف . ولكنه أحس وهو يغادر الملجأ ، أن الأمل الوحيد الذي بق هتلر ، هو أن يقع الخصام بين أعدائه . أما إيطاليا ، فكان قد أسقطها من حسابها منذ زمن بعيد .

ولم يمض أسبوع على عودته إلى إيطاليا ، حتى كان وولف يقابل ممثلي الحلفاء للمرة الأخيرة عند الحدود السويسرية ، ويتفق معهم حول التفاصيل النهائية لاستسلام الجيوش الألمانية استسلاماً غير مشروط ، والعمل الذي يجب أن يقوم به ضد كل من تسول له نفسه من جنرالات الجيش الألماني ، معارضة هذا الاستسلام . ومضى وولف مع العقيد دولان في اليوم الذي تلا عودته من شياسو إلى قصر الكردينال شوستر في ميلان ، ليجتمع هناك إلى ممثلي حركة المقاومة ، الذين أيدوا قبولهم لشروط الاستسلام التي اتفق عليها مع الحلفاء ، وراحوا يعلنون له أن لجنة التحرير الوطني لشمال إيطاليا قد أصدرت أوامرها بإعلان الثورة العامة على حكومة موسوليني في الخامس والعشرين من أبريل . وتأييد في هذا الاجتماع أيضاً أنه قبل صدور الأوامر بالشروع في الثورة ببضع ساعات ، سيصدر الجنرال وولف أمره إلى العقيد راوف الجستابو في ميلان ، بمنع قوات الحرس النازي من التدخل في أية قضية إيطالية صرف .

ولم ينقل إلى موسوليني بالطبع شيء عن كل ما وقع . لكن الشائعات وصلت إلى جرجنانو . وكان الجنرال وولف نفسه قد ألمح إلى وجود شيء من الاتصال مع الحلفاء في سويسرا ، وذلك إبان مقابلة عاصفة مع موسوليني ذي الوجه الجامد كالصخر في السابع والعشرين من فبراير . واعترف موسوليني في حديث له مع ألبرتو ميليني ، من موظفي وزارة الخارجية بشكوكه في أن شيئاً يدور وراء الستار . وقد اعتقد أن « شوستر » يقوم بعمل ما . وأن الألمان على اتصال بلجنة التحرير الوطني في ميلان . وبينما كان يعترف بأن هناك نوعاً من الاتصال بين الحرس النازي والمقاومة الإيطالية ، إلا أنه تحجج بأن المواضيع التي يجري بحثها لا تتعدى حدود بعض القضايا المحددة للغاية ، ونفى أن يكون هو أو أي ألماني آخر ، قد أجرى

مفاوضات مع الكردينال شوستر . وزعموا لموسوليني أن إطلاق سراح بارى ، قد جرى لمصلحة الشعب الإيطالي الذي سيفيد من تخفيف التوتر الذي لا بد أن ينتج عن مثل هذه البادرة الطيبة ، وقد قبل موسوليني هذا التعليل ، وأبلغ ميليني أنه لا يعترض على إطلاق سراح الرجل ، ولكنه لا يستطيع أن يصدق أن الشائعات التي سمعها عن الاتصالات الألمانية ، لا أساس لها من الصحة . وقال لمحدثه . . . « ولاني لعل ثقة بأنهم يتعاملون مع لجنة التحرير الوطني . وقد يحسن ران و وولف الصنع لو أخبراني ماذا يدور في خلدهما » . ثم قال بشيء من الغضب . « فن حتى أن أعرف على الأقل ، حقيقة ما يدور » .

وقرر في الثالث عشر من مارس ، أن يخطو خطوة من جانبه ، فأوفد ولده فيتوريو إلى الكردينال شوستر ، حاملاً رسالة يقترح فيها شكلاً من أشكال الضمان للسكان المدنيين في حالة وقوع انسحاب ألماني عام من إيطاليا ، وانسحاب القوات الإيطالية إلى مراكز دفاعية في جبال الألب . ولكن خطوة موسوليني لم تكن كافية في نظر الكردينال ، وإن كان القاصد الرسولي في بيرن قد أمر بنقلها إلى قيادة الحلفاء العليا في كاسيرتا ، حيث رفضت على الفور رفضاً قاطعاً ، لأن الحلفاء لا يقبلون بغير الاستسلام اللامشروط . ورفض موسوليني بدوره التفكير في هذا الاستسلام ، إذ كان متردداً حتى تلك اللحظة في الاعتقاد بأن الألمان قد أفروه . وتلقى في السادس من أبريل تقريراً يقول إن الأوامر قد صدرت إلى بعض الوحدات الألمانية بإعداد العدة للجلء عن إيطاليا ، ولكن لم يمض يوم أو يومان حتى كان يسمح للجنرال فيتينجهوف ، بإقناعه ، بأن حلفاءه الألمان سيقاتلون حتى النهاية . وأكد له الجنرال أن كل ما يسمعه من شائعات عن استسلام الألمان « عمل من أعمال الدعاية المعادية » .

الانتقال إلى ميلان

من ١٩ إلى ٢٥ أبريل ١٩٤٥

« ظلت أقامر حتى النهاية ، وكنت المغلوب في نهاية المغامرة » .

استقبل موسوليني في الثالث عشر من أبريل ، وكيل وزارة الداخلية .
 وراح يسأله بكل وضوح . . . « قل لي ! ما رأيك في الحرب الآن ؟ »
 ورد وكيل الوزارة . . . « ليس ثمة من شك في أننا قد خسرتها » .
 واحتج موسوليني على ذلك ، قائلاً إن المقاومة تشتد في ألمانيا ، وإنهم يقاتلون
 دفاعاً عن كل شبر من الأرض .
 ورد وكيل الوزارة . . . « لكن الخلعجات الأخيرة لا تؤثر على النتيجة . . . »
 وصمت موسوليني . . . ثم قال بشيء من النعومة . . . « أجل إنك على حق .
 هذه هي الحقيقة ، ولم يعد في وسعنا أن نعمل شيئاً » .
 وقد قلر لهذه القسرية التي تخللها دفقة واحدة من الأمل ، أن تعيش مع
 موسوليني حتى النهاية . فقد قبل الأمر الواقع ، وأن النصر بات مستحيلاً ،
 وتركزت أفكاره الآن على الطريقة التي سيؤلف فيها ويمجد . واقترح بعض وزرائه ،
 أن يصمدوا لمة الأخيرة في تريستا ، بينما اقترح البعض الآخر ، يؤبد هم الجنرال
 وينينيج ، قائد الحامية الألمانية في ميلان ، الدفاع عن المدينة وتحويلها إلى
 سنالينجراد الإيطالية . ورأى البعض الثالث ، أن خير خدمة لأسطورة الفاشية ،
 أن يظل الفاشيون يقاتلون حتى الموت في جبال الألب . وجاء بافوليني في الرابع
 عشر من أبريل إلى اجتماع عقد في دارة أورشوليني ، ليعرض خطته في إظهار
 هذه الإيماءة الأخيرة من الإيمان والتحدى في فالتيلينا إلى الشمال من برجامو . ولم

يعترض أى من الألمان الذين شهدوا الاجتماع ، وبينهم الجنرال وولف ، على خطة بافوليني ، كما لم يذكروا شيئاً عن احتمال استسلام الألمان .

ولم يتحدث موسوليني بالكثير فى هذا الاجتماع ، وبدأ راضياً باقتراحات بافوليني دون مناقشة ، سارحاً بفكره فى أماكن أخرى ، وكأنه يعد نفسه للموت . وعندما اعترض جرازيانى على هذا المشروع وهاجم بافوليني لأنه لم يعد تفاصيل وافية عن مخططة ، راح موسوليني يقول بمنتهى الهدوء . . . « ليس ثمة من إرغام على أحدكم بالمضى إلى فالتيلينا . وعلى كل منكم أن يقرر لنفسه ما يشاء » .

وعندما وفد عليه الأب يوسيبو ، كاهن الجيش الذى سبق له أن تحدث إليه عدة مرات فى جرجنانو ، كان حديثه الأخير إليه ، أشبه بوصية الرجل المشرف على الموت واعترافه . فقد بات مقتنعاً من الهزيمة . وخيل للأب أنه أخذ يتوقع المديته العنيفة التى كانت تنتظره^(١) . وقال لكاهن آخر هو الدون بانسينو ، جاء يزوره بعد يومين . . . « ودعنى الآن أيها الأب . وشكراً لك على الصلاة التى أديتها من أجلى . وكل ما أرجوه أن تواصل الصلاة من أجلى ، إذ أننى فى حاجة . إليها . فأنا أعرف أنهم سيقفلوننى » . وأوحى بنفس الانطباع من اليأس والاستسلام إلى دينالى ، الثورى العجوز الذى عرفه منذ أيام شبابه فى سويسرا . . . عندما قال . . . « هناك إشارات مرة عن المصائب ، عالقة فى الجو » . . . ثم راح يدعى نفس الإحساس المسبق بالنكبة الذى أحس به فى رومه فى اليوم الذى سبق اعتقاله ، وقال . . . « يشاء القدر لى أن أصاب . لقد استثرت الحظ ضدى فأنقلب على . ولا ريب فى أن المؤمنين الذين لم أحسدكم قط كما أحسدكم اليوم ، سيشيرون إلى يد العدالة الإلهية . وقد أصبحت الحوادث بالنسبة إلى جزءاً من التاريخ . فقد ظلت أقامر حتى النهاية ، وكنت المغلوب فى نهاية المقامرة . وإنى لأودع الحياة دون أحقاد ودون كراهية ودون كبرياء . الوداع » .

ورد دينالى . . . « إلى اللقاء » .

(١) قال لشقيقته متحدثاً عن وفاة مازوليني وكيل وزارة الخارجية . . . « مسكين مازوليني . ولكنه مات فى فراشه كما أراد أن يموت ، ومن يدري أين سنموت نحن ، وما سيلحق بظلماتنا بعد موتنا » .
« المؤلف »

وكانت الشمس تشرف على المغيب عندما ودع راشيل في حديقة الدار ، قائلاً لها إنه سيعود إليها فيما بعد . وذكرت راشيل فيما بعد « وقد تحدث أيضاً عن احتمال الصمود الأخير في فيلتيلينا . ولم أجد سييلا ، المناقشة » . وكان أكثر وضوحاً مع شقيقته ايلفيج . فقد ذكر أن ألمانيا شارفت على نهايتها وأنها ستقسم بعد الحرب بين الروس والحلفاء الغربيين . أما بالنسبة إليه . فقد ذكر ، ويبدو أن حبه في البلاغة لم يزايله لحظة واحدة ، بأنه بات على استعداد « لولوج صمت الموت الرهيب » .

وأقام موسوليني مكتبه في ميلان في الطبقة الأولى من دار المحافظة في قصر مونفورتي ، حيث ظل لمدة خمسة أيام متوالية . يتلقى سيلا لا يتقطع من الزائرين . وخلفت الأحاديث المتواصلة ، وجو الإثارة المحمومة ، في نفسه بعض الارتياح . فقد وصل إلى ميلان عصبي المزاج ، بادی اليأس ، لا يكثر بشئ . أما اليوم ، أى في العشرين من أبريل ، فقد عاوده هدرؤه ، وأصبح أكثر ثقة بنفسه . وراح يتحدث عن مقاومة تستمر شهراً في فيلتيلينا ، مما يتيح له الفرصة لإقامة حكومة مستقرة تتولى القيام بصلح شريف . وأخذ يبحث جاداً في احتمال إقامة جبهة جديدة مع الاشتراكيين ضد الملكية . ووجده الصحفي كابيلا ، عندما قابله في العشرين من أبريل « في حالة صحية طيبة على العكس مما كان يقوله الناس » . وبدأ أكثر بدانة من المرة الأخيرة التي لقيه كابيلا فيها ، وأكثر مرحاً ، وهو يسأله عما يستطيع أن يفعله من أجله . . . وقال الصحفي « أريد صورة لك موقعة » . فأعطاه موسوليني صورته وقد وقعها بشئ . من الاعتزاز على النحو الذي ألفه في السابق . . . السنة الثالثة والعشرون للعهد الفاشي » ، وكأن هذا العهد ، لا يزال في بدايته ، ولم يصل نهايته . وكان يقول ، إن حياته قد شارفت على النهاية لكن لإيطاليا والفاشية لن تمونا أبداً .

وقال كابيلا يسأله . . . أنت حقاً في شوستر ؟

وسرح موسوليني بنظره من النافذة ، ونشر يديه بالصورة المعروفة عنه وقد رفع راحتيه إلى السقف يقول . . . « إنه ماكر إلى حد ما ، ولكن على الإنسان أن يصدق رجال الله » .

سكرتيريه والدكتور زاخارى أن يطير إلى أسبانيا ، أو عندما اقترح تامبوريني عليه الفرار إلى بولنيزيا . وكان قد حزم أمره على الموت في فالتيلينا . فقد انتهت حياته ، لكن الفاشية في نظره لم تنته . وفي الخطاب الأخير الذى ألقاه على عدد من الضباط جاءوا لرؤيته ، تحدث بشئ من قوته السابقة عن « خلود الحزب الفاشى » .

لكن أسرته يجب أن تكون فى مأمن . وتحدث إلى زوجته راشيل هاتفياً فى الثالث والعشرين من أبريل ، قائلاً إنه سيعود إلى جرجنانو ، ليعد العدة لفرارها إلى سويسرا . ولكنه اضطر بعد ساعات إلى التحدث إليها ثانية قائلاً إن مانوا سقطت وأن بريسكيا مهددة ، ولأنه لن يستطيع الوصول إلى جرجنانو . وأمرها بالمضى إلى مونزا ، حيث مستجد براسو فى انتظارها فى الدارة الملكية . وسيعود إلى الاتصال بها هناك ثانية . وحاول إقناع كلاريتا أيضاً بالفرار ، ومضى لزيارتها فى البيت الذى نقلها إليه مع أسرهما فى ميلانو ، الرائد سبوجلر . وكان بقية أفراد أسرتهما يعدون العدة للطيران إلى أسبانيا ، ولكن كلاريتا ترفض الذهاب معهم . وكتبت إلى صديقة لها ، تقول وقد استعارت تعابير حبيبها المحبوبة لديه . . . « سأسير وراء قدرى ، وأنا لا أعرف ما سيحل بى ، ولكنى لا أستطيع مناقشة القدر » .

وقضى موسوليني سحابة الخامس والعشرين من أبريل فى ميلان . وظل يرفض بإصرار كل الاقتراحات المنصبة عليه بمغادرة البلاد ، وبدأ هادئاً ، ومتبلداً أحياناً . وكان ينفجر أحياناً بملاحظة غاضبة عن الألمان ، أو عن الملك والإنجليز ، ولكنه ظل يعمل طيلة النهار ، دون تدمير ، أو سرعة ، جامعاً أوراقه ، متحدثاً إلى زائريه ، متأهباً للشروع فى رحلته نحو الشمال . وانتشرت الشائعات بأنه سيقادر ميلان فى ذلك اليوم ، فجاءه الملازم بيرزير ، مذكراً إياه بشئ من الحدة بوعده بأن لا يغادر المدينة حتى يعود النقيب كيسنان من جرجنانو ، حيث كان قد مضى لجمع مناع رجاله . ورد موسوليني ، وهو يصدر إليه أمره بأن يمضى إلى ثكنات « موتى » لإعداد بعض السيارات الشاحنة والوقود ، استعداداً لرحلة الشمال . . . « ولكن الوضع قد تبدل الآن » . وبدأ متزعجاً من أن بيرزير ، اعتبره مخلفاً

لوعده لكيسنان ، وإن لم يتزعج للوضع الذى بات فيه .

وجاء الجنرال مونتانا رئيس الشرطة فى ميلان والمارشال جرازيانى إلى دار المحافظة فى الساعات المتأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم للبحث فى انسحاب القوات الجمهورية من المدينة ، لإعادة تنظيمها فى الشمال . ولكن موسوليني أبلغهما أنه سيقصد إلى الكردينال شوسنر . ليطلب إليه إعداد اجتماع مع زعماء لجنة التحرير الوطنى ليخبر شروطهم للاستسلام . وقال إنه قرر « أن يوفر على الجيش المزيد من التضحيات » .

ومضى موسوليني بعيد الخامسة إلى قصر الكردينال ، على أن يلحق به جرازيانى فيما بعد . كانت الشوارع هادئة هدوءاً غريباً ، وكانت الأماكن العامة مغلقة ، ومعظم الحوانيت والمكاتب مغلقة . وكانت صافرات المصانع قد انطلقت قبل بضع ساعات تعلن بداية الإضراب العام .

وروى الكردينال شوسنر فيما بعد . . . « ودخل موسوليني غرفة استقبالى فى حالة كئيبة ، فثقل أمامى صورة الرجل الذى أذهلته الكارثة الرهيبة . واستقبلته ، بجنان أبوى كنسى ، وحاولت ونحن ننتظر وصول الرجال الذين أراد مقابلتهم ، الترويح عن نفسه ، بشئ من الحديث » .

وكان الحديث عسيراً ومؤلماً . وبدأ موسوليني فى غابة الإجهاد ، عازفاً عن الحديث . وأصر الكردينال على أن يتناول بعض المرطبات ، ليتعشى بعض الشئ ، فقبل مدفعاً بالكياسة قدحاً من الشراب ، وقطعة من البسكويت « . وكان أشبه بالرجل الذى زابلته لإرادته ، وتقبل مصيره دون حراك » .

ولم يستعد موسوليني قوة عزيمته وبصورة مؤقتة ، إلا عندما رجاه الكردينال أن يوفر على إيطاليا المزيد من الاضطراب الذى لا طائل تحته ، وأن يقبل بشروط الاستسلام الشريف . وقال إن مشكلته ذات شقين ، وتعالج فى مرحلتين . وأضاف أنه سيحل الجيش والحرس الفاشى ، ولكنه سيتسحب مع ثلاثة آلاف من ذوى القمصان السوداء إلى فالتيلىنا ، لبواصل الحرب فى الجبال .

وقال له الكردينال . . . « لا تجر وراء الأوهام يا دونشى . فأنا أعرف أن من سيتبعك إلى هناك من ذوى القمصان السوداء ، لن يزيدوا على الثلاثمائة ، لا ثلاثة

آلاف كما يحاول البعض أن يوهموك » .

واعترف موسوليني بشيء من الاستسلام الكئيب . . . « وقد يزيد هذا العدد بعض الشيء ، لكن الزيادة لن تكون كبيرة . فأنا لا أعيش في الأوهام » . واعتقد شوستر ، أن موسوليني مصمم على أن يمضي إلى قبره في الجبال ، حتى ولو كان العدد ثلاثمائة ليس إلا . ونحيل إلى الكردينال أنه لن يتحول عن رأيه ، ولذا فقد توقف عن الحديث ، في هذا الموضوع . وتكلما في أمور أخرى ، لكن النار القصيرة التي اشتعلت في نفس موسوليني ما لبثت أن خبت ، وكان الكردينال هو المتحدث معظم الوقت . وتناول الحديث موضوع « التكفير » و « الغفران » ، والسجن والإبعاد ، وبدا وكأن موسوليني لا يصغى إلى محدثه ، وإن ظهر بريق السرور في عينيه المجهدين في ومضة خاطفة عندما أشار الكردينال بصورة عارضة إلى نابوليون . وامتلاً ناظره بالدموع عندما تطرق الحديث إلى مغفرة الله . وأهداه الكردينال نسخة من « قصة القديس بنديكت » ، فتقبلها موسوليني شاكرًا ، ووضعها بعناية في مغلف بني اللون .

ووصل في الساعة السادسة الجنرال كادورنا ، مصحوباً بممثلين آخرين عن لجنة التحرير الوطني ، هما أنجيل مارازا ، المحامي الديمقراطي الاشتراكي ، والمهندس ريكاردو لومباردي ، أحد أعضاء حزب العمل . وسرعان ما قادم الدون جيوسيبي بيشيري إلى غرفة الكردينال . وقدم إليهم الكردينال يده ليقبلوا الخاتم الذي يحمله . وعندما انتهوا من ذلك ، عرفهم على موسوليني الذي اتجه مسرعاً إليهم ، وقد ظهرت على وجهه ابتسامة صورها مارازا بأنها كانت تنطق بشيء من التنازل . ومد يده إلى كل منهم مصافحاً . وراح يجلس إلى جانب الكردينال على الأريكة ، بينما ظل الرجال الثلاثة واقفين .

ونخيم على المكان جو من التحفظ والحيرة ، ولا سيما بعد أن وفد إليه مندوبو الجمهورية الاشتراكية ، وهم جرازيانى وباراكو وباولو زيرينو وزير الداخلية . وكان موسوليني يؤدي دوراً لم يسبق له أن مثله ، فراح ينظر بإصرار إلى الستائر القرمزية المدلاة على الجدران ، مبتعداً ببصره عن عيون الآخرين . وكان الشارع الذى تطل عليه النافذة المفتوحة في منتهى الهدوء .

وقال أحدهم . . . هل يسمح لنا بالجلوس هناك ؟
وأشار الكردينال شوستر ، إلى مائدة كروية ضخمة تقوم في وسط الغرفة
وعليها عدد من الكؤوس ، وجرة من نبيذ مارسالا ، ووعاء من البسكويت . وجلس
الكردينال إلى طرف المائدة إلى جانب موسوليني ، وإلى شاهما جلس كادورنا
ومارازا ولومباردي ، بينما جلس إلى اليمين جرازياي وزيرينو وباراكو ، وذكر
كادورنا أن جرازياي كان بادی الغضب .
وراح موسوليني يبدأ الحديث بصوت حاد نافذ الصبر ، وكأن المبادرة ما زالت
حقاً له . . . « حسن . . . ما هي اقتراحاتكم ؟ »
وجه كلامه إلى كادورنا الذي بدا غير راغب في الرد عليه ، فتطلع إلى
مارازا .

وقال مارازا : « إن التعليمات لدى محمدة ودقيقة . فعلى أن أطلب منكم
الاستسلام وأن أقبله ليس إلا » .

وقاطعه موسوليني خاطفاً وقد استدار غاضباً إلى الكردينال شوستر . . . « أنا لم
أت إلى هنا لهذا . فقد قيل لي إننا سنجتمع وسنبحث في الشروط . وهذا هو
سبب مجيئي . حماية رجال وأسرههم ، والحرس الفاشي . أريد أن أعرف ما سيحدث
لهم . فمن الواجب إضفاء الحماية على عائلات أعضاء حكومتى . وقد أكدوا لي
أيضاً ، أن رجال الحرس الفاشي سيسلمون إلى العدو كأسرى حرب » .

وكان غضب موسوليني قد اشتد وهو يتحدث . وكان من المتوقع أن يقول
المزيد لو لم يقاطعه لومباردي قائلاً . . . « طبعاً هذه تفاصيل ، واعتقد أن لدينا
الصلاحية لبحثها وتسويتها » .

فرد موسوليني بلهجة الرجل الذي استثير ثم أرضى بعد لآي ، وكأنه قد كسب
نقطة في النقاش . . . « حسن إذن ، ففي وسعنا أن نصل إلى شيء من الاتفاق » .
وسرعان ما بدأ النقاش الجدى ، وقد بشر في مستهله بالنجاح . ووافق ممثلو لجنة
التحرير الوطنى ، على أن يعامل الجنود الفاشيون عندما يؤخذون كأسرى طبقاً
لميثاق لاهاى . وأن لا تتعرض أسر الفاشيين للأذى ، وأن يلقى الدبلوماسيون المعتمدون
لدى الجمهورية الاشتراكية حماية القانون الدولى . ولكن بينما بدا أن موسوليني

بصمته غير المألوف كان يقر شروط مندوبى اللجنة ، راس المارشال جرازيانى يهب فجأة على قدميه عندما أثير موضوع مجرى الحرب قائلاً . . . « لا . لا يادوتشى أرى لزاماً على أن أذكرك بأن علينا التزامات بالولاء لحلفائنا . فليس فى وسعنا أن نتخلي عن الألمان وأن نتفاوض على هذا النحو المستقل . فليس فى وسعنا أن نوقع اتفاقاً بدون الألمان . وليس فى وسعنا أن ننسى قوانين الشرف والواجب » .

ورد كادورنا ببطء وهو يؤكد كل كلمة يقوها ، متطلعاً إلى موسولينى . . . « أخشى أن لا يكون الألمان قد أحسوا بمثل هذا الواجب . فقد كنا نبحت معهم فى شروط الاستسلام طيلة الأيام الأربعة الماضية . وقد اتفقنا على جميع التفاصيل ، ونحن نتظر أنباء توقيعهم على الاتفاق فى أية لحظة » . ولم يشك مارازا لحظة واحدة فى أن هذه الأنباء كانت مفاجأة مذهلة لموسولينى وبدا الألم على وجهه واضحاً كل الوضوح . وقال مارازا وقد تظاهر بالدهشة . . . « أولم يكلفوا أنفسهم عناء إبلاغ حكومتك ؟ »

فقال موسولينى غاضباً : هذا مستحيل ، أرنى المعاهدة .

وتدخل زيرينيو قائلاً : إن الأمر ليس مستحيلاً ، وذلك لأن الدون بيشيراي قد حدثه به فى الغرفة الخارجية . والتفت موسولينى إلى الكردينال شوستر ، الذى اعترف فيما بعد بأنه قد تضايق لأن الدون بيشيراي قد أفشى سرّاً دبلوماسياً . وقال الكردينال أخيراً . . . « ليس من المجدى الآن على أى حال ، الاحتفاظ بسرية أمر أصبح معروفاً للجميع . . . أجل كان الجنرال وولف رئيس الحرس النازى فى إيطاليا يتفاوض معى فعلاً عن طريق السفير الألمانى والعقيد راوف » . واستسلم موسولينى إلى حافز مفاجئ من السخط ، وأعلن أن الألمان قد خانوه ، وأنهم كانوا يعاملون الإيطاليين دائماً كالعبيد . وتوعد بأن يستعيد لنفسه حرية العمل ، طالما أنهم « عملوا من وراء ظهورنا » .

وحاول الكردينال شوستر والمارشال جرازيانى تهدئة ثأرته دون جدوى إبان الوقت الذى استؤنف فيه النقاش . ولكنه بدا غير قادر على التفاوض وسرعان ما قام من مكانه ، قائلاً إنه لن يقر شيئاً إلى أن تتاح له الفرصة للتحديث إلى القنصل الألمانى ثم قال . . . « وفى وسعنا أن نقول هذه المرة إن ألمانيا خانت إيطاليا » . وطلب مهلة ساعة للدراسة شروط اللجنة للاستسلام ، فوافق المندوبون على منحه

هذه المهلة . وروى جرازيانى أنه غادر الغرفة متوقفاً بإذاعة الخيانة الألمانية عن طريق الإذاعة . وودعه الكردينال إلى الغرفة الخارجية متمنياً له سلامة العودة في غضون ساعة . . . ورد عليه موسوليني قائلاً . . . « هذا لا يهمنى » .

ووصل القنصل الألماني بعد نحو من نصف ساعة متساقلاً عما حدث . وسرعان ما حمى وطيس الجدل بينه وبين عدد من الإيطاليين . وكان هناك في إحدى الزوايا ، وقد وقف صامتاً ، كارلو تينيجو ، محافظ تورين السابق ، الذى كان الجنرال ديامانتي قائداً للحرس الفاشي ، قد طلب إليه أن يحاول معرفة ما حدث . وقبل ربع ساعة من انقضاء المهلة المعطاة لموسوليني اندفع إلى الغرفة اليساندرو بيريتى سكرتير الحزب الاشتراكي ، وكان قادماً لتوه من اجتماع في مصنع للسيارات ، حيث نشب عراك بين العمال المسلحين . . .

وصرخ اليساندرو . . . أين موسوليني ؟ لم كل هذا الحديث ؟ إذا سلمتم موسوليني إلينا، فإننا سنقيم في غضون يومين محكمة للشعب . إن ما نطلبه هو العدالة السريعة . وقد مللنا من هذا الحديث الذى لا فائدة منه » .

وبينما كان مارازا يتعرض على مناداة بيريتى بالعنف ، تسلس تينيجو من الغرفة واكضاً لتحذير موسوليني من الخطر الذى يهدده . ووجد ساحة المحافظة ملأى بالسيارات والرجال المتحمسين يصعدون الدرج ويهبطونه . وكان الضجيج في الداخل مرعباً .

وصرخ تينيجو مردداً عبارة بيريتى التى قالها عندما اندفع إلى قصر الكردينال .. « أين موسوليني ؟ »

وقال له أحدهم إن الدوتشى مضى إلى مكتبه ، وطرد كل إنسان من حضرته ، ثم أغلق الباب عليه . ومن المحتمل أنه يعتزم أن يطلق النار على نفسه . فلديه مسدس في المكتب ، وهو في حالة جنونية . ولاحظ الدكتور زاخارى ما كان عليه من شحوب وما بدا في تقاطيعه من عبوس . وعندما عرض عليه الجنرال وينينج قائد الحامية الألمانية في ميلان ، حراسة ألمانية مسلحة ، صرخ في وجهه قائلاً إن الألمان خونة وجبناء ، ولأنه يؤثر الموت على طلب حمايتهم .

وعندما عاد موسوليني إلى القصر ، مضى فوراً إلى خريطة منشورة على المائدة ، وأشار إليها بأصبع مرتجفة وقال . . . « سنغادر ميلان فوراً باتجاه كومو » .

ولم يكن هذا يمثل الطريق المباشر إلى فالتيلينا ، ولكن الأنباء كانت قد وصلت بأن الأمريكان يتقدمون بسرعة على طريق بيرجامو ، وأن رجال المقاومة قطعوا الطريق إلى ليكو . ولم يعرف أحد ما كان الدوتشي يعتزم عمله ، بعد الوصول إلى كومو . ونحيل إلى البعض أنه قد يمضي منها إلى شياسو محاولا عبور الحدود إلى سويسرا ، وهذا ما اعتقده الكثيرون في الواقع فيما بعد ، إذ تصورا أن موسوليني قد سرّ من خيانة الألمان إذ أتحّت له الفرصة للفرار دون أن يتهم بالخيانة .

ولكن فيتوريو لم يكن يعتقد كغيره من الذين كانوا قريبين منه في هذا الوقت ، بأنه يعتزم الفرار . فلقد كان قبل بضع ساعات قد أبلغ أباه بأن هناك بعض الطائرات ما زالت في مطار جيدي ، وأن الوقت ما زال متسعا للنجاة . لكن هذا الاقتراح أثار غضبه ، فقد تطلع إلى ولده بنظرة غاضبة ثائرة « جمدت العبارات في فم فيتوريو » كما اعترف هذا فيما بعد . وصرخ في ولده بمنتهى القسوة ... « لم يطلب منك أحد أن تدلني على ما يجب أن أفعله . فقد قررت أن ألتحق في إيطاليا » . ووجد فيتوريو في نفسه الجرأة ليكرر نصيحته الآن ، ولكن هذه النصيحة رفضت من جديد ، بغضب شديد .

واندفع موسوليني من مكتبه ، ولقيه تينيجو في الرواق ، ونصحه بأن لا يعود إلى قصر الكردينال ، إذ أن أعداءه سيقتلونه . وتوسل إليه كارلو بورساني أحد أعوانه الخلقص ، وكان قد أصيب بالعمى في معارك ألبانيا ، أن لا يغادر ميلان ، مادّا إليه يديه ، وقد سالت العبرات من عينيه اللتين لا تبصران . وطلب إليه بوفاريني - جيدي وريئاتو ريكي ، أن يقبل بنصيحة ولده فيتوريو ، وأن يطير إلى أسبانيا ، بينما هتف آخرون . . . « لا لا تذهب يا دوتشي ، لا تذهب » . وهرع إليه أحد سكرتيريه يحمل أوراقا يطلب توقيعها عليها ، فدفعه عنه بيده ، دون أن ينظر إليها . ونصحه البعض بأن يحاول الوصول إلى حراسه الذين كانوا لا يزالون ينتظرونه في جادرون . وقال بومباكي ، وكان يرتدى قميصاً أسود ، وسروال ركوب أسود أيضاً إن المنظر ذكره بمدينة بيروجراد ، حيث وقف يرفب مع لينين فرار قوات ياديينيك . وقال . . . « كان قصف المدافع آنذاك يهز النوافذ . وكان الوضع مماثلاً لما هو واقع اليوم ، وإن كانت حالة اليوم أكثر سوءاً » .

وهتف موسوليني قائلاً دون أن يكثر بمن حوله ، وقد سرت إليه عدوى ما أصابهم جميعاً من جنون . . . « يريدون أن يكرروا الخامس والعشرين من يوليو ، ولكنهم لن ينجحوا هذه المرة . أجل لن ينجحوا » .

وكان يرتدى لباس الحرس الفاشي ، وقد وضع مدفعاً رشاشاً على كتفه . وكان يحمل حقيبتين جلديتين وقد حشيتا بالوثائق السرية ، فسلمهما مع بعض المال إلى كاردورى ، وهو من رجال القمصان السوداء الذين يثق بهم . واتجه نحو سيلفيستري وبورسالى فعانقهما صامتاً . وفجأة رجع بضع خطوات إلى الوراء ، وصرخ بصوت دراماتي . . . « إلى فاليتلينا » . ثم هبط السلم متجهاً إلى سيارته .

وشقت سريّة من ذوى القمصان السوداء طريقها عبر الجماهير ، ثم سارت القافلة متجهة إلى شارع مونفورتى . ومنه إلى شارع ليتوريو ، في الطريق إلى كومو . وكان لويجي جاني . سكرتير موسوليني الشاب يتولى القيادة ، جالساً في مقدمة السيارة وقد ارتدى جاكيت من الجلد الأسود ووضع مدفعاً رشاشاً بين ركبتيه . ووراءه كانت سيارة موسوليني « الالفاروميو » المكشوفة ، وقد جلس فيها وإلى جانبه بومباكي ، ووراءها نحو من ثلاثين سيارة أخرى بين صغيرة وكبيرة . وكانت في إحدى السيارات وهي من طراز « الفاروميو » وتحمل رقماً أسبانياً ، كلاريتا بيتاتشى ، ومعها أخوها مارسيلو وزوجته وطفلاه . ووراء هذه السيارة ، شاحتان وقد ملتا بمجنود الحرس النازى بقيادة الملازم بيرزير ، الذى أمره الجنرال وينينج ، بالرغم من احتجاجات موسوليني المسرحية ، بأن يواصل القيام بواجبه في حراسة موسوليني ، وكان فيتوريو في السيارة الأخيرة .

وكان عدد من وزراء الحكومة الجمهورية قد قرروا البقاء في ميلان ، لكن معظمهم ، لحقوا بالدوتشى .

وراح أحدهم يسأل ميزاسوما . . . « إلى أين نحن ذاهبون » .

فرد هذا ببرحوم يحمل طابع التنبؤ . . . « لا يعرف ذلك إلا الله . وربما كنا ماضين إلى حتوفنا » .

الفرار من ميلان

من ٢٥ إلى ٢٧ أبريل ١٩٤٥

« سأمضى إلى الجبال ، ومن المستحيل باعاً أكيد أن لا يكون ثمة خيانة على استعداد الحاقق بـ » .

١

وصل موسوليني إلى كومو حوالى الساعة العاشرة مساء . وراح يصعد سلم المحافظة مسرعاً حيث قرر أن ينتظر وصول بافوليني ، الذى وعده بأن يأتي بثلاثة آلاف من الفاشيين المخلصين ، للصمود معه فى وقفته الأخيرة فى الجبال . لكن الأنباء التى وجدها فى كومو لم تكن مشجعة على الإطلاق ، فخطوط الهاتف ما زالت سليمة ، وكان الجرس يقرع فى رواق المحافظة بين لحظة وأخرى ، حاملاً صوتاً مرتعداً يعلن وقوع كارثة جديدة . فلقد احتل العمال المسلحون ضواحي ميلان كلها . والأمريكان لا يزالون يتقدمون ، والألمان يتراجعون تراجعاً عاماً . ومنعت جماعات المقاومة السرية الجنود الجمهوريين من دخول ميلان ، بعد أن أغلقت طريقى ميلنجانو ونريفيليو . وتحدث ميزاسوما هاتفياً إلى مكاتب صحيفة كورييري ديلاسيرا فقبل له إن رجال المقاومة السرية قد احتلوا البناء . ولم يسمع أحد بأية أنباء عن بافوليني .

وأعدت زوجة المحافظ العشاء حوالى الساعة العاشرة والنصف . وقدمته فى مكتب زوجها ، لكن موسوليني لم يستطع أن يأكل شيئاً . وظل يصغى صامتاً إلى وزرائه ، وهم أقرب ما يكونون إلى الذعر : يواصلون تقديم النصائح المتناقضة إليه . فقال باولوبورتا ، مفتش الحزب الفاشى فى لومبارديا : إن عليه أن لا ينتظر وصول بافوليني وأن ينسحب إلى كاديناييا . وحده بوفارينى - جيدي ، على أن يمشى معه لعبور الحدود إلى سويسرا عند شياسو ، حيث لابد أن يسمح لهم حرس الحدود بعبورها . وقال جرازيانى الذى استشار قائد الحامية الألمانية فى كومو

لأنه يرى أن الفرار إلى سويسرا ، أمر مستحيل . وهتف الجنرال ميشي من قادة الجيش الجمهوري ، يقول إنه ينتظر الدوتشي في سولندريو .
وقال أخيراً . . . « سأمضي إلى الجبال ، ومن المستحيل بالتأكيد أن لا يكون ثمة خمسمائة رجل على استعداد للحاق بي » .

وبدا شديد القلق على ملفاته . فبالإضافة إلى الحقيبتين الجلديتين اللتين سلمهما في ميلان إلى كارادوري ، كانت هناك وثائق أخرى ، وضعها في سيارة شاحنة ، لم تصل إلى كومو بعد مع بقية القافلة . وبعث بجاني والعقيد كاسالينوفو ، ليحاولا البحث عما تم بالوثائق ، بينما راح يقرأ بمنتهى العناية والدقة مجموعة أخرى من الوثائق كان قد وضعها في حقيبتَي يد كبيرتين كانتا لا تفارقان نظره لحظة واحدة . ولم يعرف أحد أبداً ما اذى تضمنته هذه الأوراق ، كما لم يستطع أحد فيما بعد اكتشاف ما كان فيها ، بالرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلت وستبدل في هذا السبيل . وأعرب كارلو سيفيسري ، الذي أعانه في حشو حقيبتين كبيرتين بها في ميلان ، عن اعتقاده ، بأن هذه الوثائق كانت تضم الأوراق التي ظن الدوتشي أنها ستعينه في الدفاع عن نفسه في أية محاكمة قد يتعرض لها بعد الحرب . وتضمنت كما قال ، الأدلة الوافرة على الجهود الكبيرة التي بذلتها الجمهورية الاشتراكية لإنقاذ شمال إيطاليا من ويلات الحرب وتدمير الألمان وأخطار الحرب الأهلية ، والأدلة على سيطرة الشيوعيين على أنشطة حركة المقاومة السرية ، وأوراقاً دبلوماسية تتعلق بمسؤولية إنجلترا عن إشعال الحرب ، وأوراقاً أخرى عن ولده أومبرتو ، وعن هتلر ، ومحاكمة فيرونا . ولا ريب في أنه بذل عناية كبيرة ، في اختيارها ، إذ ظل موسوليني طيلة أسابيع عدة قبل مغادرته جرجنانو ، يجمع أكثر الوثائق سرية ، ثم مضى أحد سكرتيريه في الليلة التي سبقت رحيله إلى ميلان ببقية الوثائق التي حملها على ظهر زورق بخاري ، ليقذف بها في أعماق بحيرة جاردا ، بعد أن قرر الدوتشي عدم الاحتفاظ بها .

وعندما عاد جاني وكاسالينوفو إلى كومو ليعلنا أن رجال المقاومة السرية ضبطوا السيارة الشاحنة التي تقل الوثائق وهي في طريقها خارجة من ميلان ، بدا موسوليني وكأن هذه الكارثة قد أنزلت به من الهم ما لم تنزله أية كارثة أخرى . فبالإضافة إلى

الوثائق ، كانت السيارة تحمل جزءاً مما سمي فيها بعد « بكنز دونجو » ، وهو يضم سبائك ذهبية وتحفاً فنية وأموالاً كلها ملك للحكومة الجمهورية الاشتراكية ووزرائها ، وتبلغ قيمته ما يعادل عدة ألوف الملايين من الليرات^(١) . وأظهر موسوليني أنه لا يكثر بضائع هذا الكثر ، وإن كان قد ظل يذكر الوثائق باستمرار طيلة اليومين اللذين بقيا من حياته .

وراح يكتب وهو ينتظر عودة جاني وكاسالينوفو ، رسالته الأخيرة إلى راشيل ، التي كانت قد غادرت الدارة الملكية في مونزا ، ووصلت مع رومانو وآنا ماريا إلى دارة مونتيروفي سيرنويو ، حيث حاول الاتصال بها عن طريق الهاتف عدة مرات دون جدوى . وكانت الساعة في الثانية صباحاً عندما تلقت راشيل رسالة زوجها . كانت مستلقية على سرير في الدارة ، يحرسها بعض ذوى القمصان السوداء الذين كان زوجها قد بعث بهم إليها في سيرنويو ، لحمايتها ، عندما « سمعت أصوات أقدام وبعض الضجيج عند بابها » . وطرق أحد الحراس باب الغرفة وقال . . . « هناك رسالة لك من الدوتشي يا سيدتي » .

وقالت متذكرة فيما بعد . . . « وقفزت من سريري ، وخطفت الرسالة ، بعد أن عرفت خط بنيتو ، والقلم الأزرق والأحمر الذي كان يستخدمه في كتابة رسائله الخاصة في الآونة الأخيرة » .

ومضت فأيقظت ولديها وتلت عليهما الرسالة . وحملتهما على أن يحفظا ما قاله والدهما عن ظهر قلب قبل أن تحرق الرسالة . وكانت الرسالة تقول كما تذكرنا فيما بعد . . .

(١) يقول خازن في وزارة مالية الجمهورية الاشتراكية ، إن هذا الكثر تضمن مقادير ضخمة من العملة الأجنبية نقلت إلى مكتب موسوليني في شهر فبراير . وقد احتوت خزنة مكتب موسوليني ٢٦٧٥ جنياً أسترلينياً و ٢١٥٠ ليرة ذهبية إنجليزية و (١٤٩) ألف دولار و (٢٧٨) ألف فرنك سويسري و ١٨ مليوناً من الفرنكات الفرنسية . والمعتقد أن الشطر الأكبر من هذه الأموال ، ذهب إلى صناديق الحزب الشيوعي . وكان أهل رومة قد أطلقوا على مقر قيادة الحزب اسم « قصر دونجو » نسبة إلى البلدة الصغيرة التي اعتقل فيها موسوليني والواقعة على ساحل البحيرة . المؤلف

عزيزتى راشيل :

« ها أنا ، وقد وصلت آخر مرحلة من حياتى ، أكتب آخر صفحة فى كتابى . قد لا نلتقى ثانية فى هذه الدنيا . ولذا فأنا أبعث إليك بهذه الرسالة ، أسألك الغفران عن كل ما سببته لك من ألم وأذى ، عن غير قصد . . . خذى الأطفال معك ، وامضى إلى الحدود السويسرية . فى وسعك هناك أن تبلى حياة جديدة . لا أعتقد أنهم سيضمنون عليك بالدخول إلى سويسرا ، فلقد طالما ساعدتهم ، وليس لك أنت شأن بالسياسة ، وإذا رفضوا السماح لك بدخول سويسرا ، فسلمى نفسك إلى الحلفاء ، فلعلهم أكثر كرمًا من الإيطاليين . أرجو أن تغنى بآنا ورومانو ، ولا سيما بآنا ، فهى فى أشد الحاجة إلى عنايتك . ولا ريب فى أنك تعرفين كم أحبهما ، وأن برونو سيساعدك من سماته . مع عظيم حبنى لك وبالأطفال .

المخلص

بنيتو»

كومو فى ٢٧ أبريل ١٩٤٥ الموافق السنة الثالثة والعشرين من العهد الفاشى

* * *

وطلبت إلى الطفلين أن يعيدا قراءة الرسالة المرة تلو المرة ، بينما راحت تسأل أحد رجال الحرس ، أن يحاول الاتصال ثانية عن طريق الهاتف بدار المحافظة فى كومو . وقد أفلح هذه المرة فى تحقيق الاتصال . ورد جاتى على الطرف الآخر ، ولكن سرعان ما أخذ موسولينى منه الساعة ، وسمعت صوته يقول . . . « راشيل . . . هذا أنت أخيراً » .

كان صوته هادئاً متزنًا . رجاها أن لا تفكر فيه ، بل فى سلامة نفسها وأولادها . ولم يسبق لها أن سمعت منه مثل هذا الحنان . . .

واحتجت تقول . . . « ولكن وسلامتك أنت ؟ » . فقال مستخدماً مرة أخرى ذلك التعبير الذى يعتمد أن يكون دراماتيًّا . . . « أنا أسير وراء قنبرى . ولكن عليك أن تنقلى الأطفال إلى مكان أمين . ليس عندى ما أضيفه على

رسالتى . اغفرى لى كل ما أسأت به إليك . وربما كانت حياتك أكثر هدوءاً وسعادة لو لم تنق بى » .

وراحت تبذل المحاولة الأخيرة اليائسة لتشجيعه . . . « ولكن هناك الكثيرين على استعداد للموت فى سبيلك ومن أجل إيطاليا . فلك أتبع كثير ، ولا بد أن من حولك على استعداد للتضحية بكل شىء من أجلك » .

فرد عليها قائلاً . . . « لقد مضوا جميعاً . وبت وحيداً يا راشيل . وها أنا أرى أن كل شىء قد انتهى » .

وطلب منها أن يتحدث إلى الطفلين ، فتوسل إليه رومانو أن لا يفارقهم . وتناولت راشيل سماعة الهاتف من ولدها ثانية لتودع زوجها . ولم تكذب تفعل ذلك . حتى قررت أن لا تمضى قدماً إلى سويسرا ، وأن تحاول رؤيته مرة أخرى فى كومو . وعندما وصلت إلى هناك ، أسلمها أوراقاً كثيرة من المجموعة التى حرص كل الحرص عليها ، وبينها بعض الرسائل التى كان قد تلقاها من ونستون تشرشل ، والتى كان يأمل فى أنها ستساعد على اجتياز الحدود .

وقال لها أخيراً . . . « ولو حاولوا منعك أو إلحاق الأذى بك ، فاطلبي تسليمك إلى الإنجليز » .

٢

وفى الساعة الرابعة والنصف صباحاً ، رأى حارس المانى ، كان يتطلع إلى دار المحافظة فى ضوء الفجر الشاحب ، موسوليني وهو يهبط السلم متجهاً إلى سيارته ، ومعه بومباكى والمارشال جرازيانى ، وبعض الإيطاليين الآخرين الذين لم يتميزهم .

وكان موسوليني ، وقد ملّ انتظار بافوليني ، قد قرر الاتجاه نحو الشمال على شاطئ البحيرة ، إلى ميناجيو ، متخلفاً تعليماته لبافوليني للحاق به . وكان الملازم بيرزير قد حزم أمره ، على أن لا يسمح للدوتشى بالتحرك بدون الحرس الذى أمر هو بتأمينه له . وعندما سمع صوت الإنذار من الحارس ، هرع إلى

سيارته ، وقادها ليقف بها في وسط الطريق ، قاطعاً على سيارة موسوليني سبيلها . وهبط بعد ذلك من السيارة ، ومضى إلى الدوتشي فأخذ التحية وقال ... « يجب أن لا تخرج يا دوتشي ، دون حراسة » .

فرد موسوليني باقتضاب « أرجوك . دعني وشأني . في وسعي أن أفعل ما أريد ، وأمضي أني أشاء . أبعد عن طريقي » .

ورد بيرزير ، وهو لا يزال واقفاً وقفه الاستعداد ... « ولكنك لن تمضي دون حراسة » .

فقال جرازباني ... « أبعد من الطريق ، في وسع الدوتشي أن يمضي حيث يشاء » .

— لا . لا يمكن أن يمضي دون حراسة يا سيدى الماريشال . هذه أوامرى . ووقفت جماعة من الإيطاليين بين الدوتشي وبين الضابط الألماني الصامد كالصخر ، ولكن عندما هرع الجنود الألمان ليقفوا وراء ضابطهم ، وقد وضعوا أصابعهم على أذنلة بنادقهم ، اضطر الإيطاليون إلى التسليم . وعاد بيرزير ، فدق قدميه ، وأدى التحية وقال ... « لن تمضي بدون حراسة يا سيدى الدوتشي » .

واضطر موسوليني أخيراً ، إلى التسليم للضابط بما أراد . ووصل إلى ميناجيو ، وسط زخة من المطر ، حوالى الساعة الخامسة والنصف صباحاً . وهبط من السيارة حاملاً مدفعه الرشاش إلى ظهره ، ثم خطا ، وقد أحنى رأسه بين كتفيه ، بضع دقائق ، جيئة وذهاباً أمام المدرسة التي كانت قد تحولت إلى ثكنة للدوى القمصان السوداء ، ثم مضى بعد ذلك إلى دارة إميليو كاستيلي ، سكرتير فرع الحزب الفاشي في البلدة ، حيث استلقى على سرير محاولاً النوم . وبينما كان يستريح على سريره ، وصلت السيارات والشاحنات الأخرى التي لحقت به من كومو إلى ميناجيو ، تحرسها عدة فصائل من الجيش الجمهورى ، وسيارتان مدرعتان مجهزتان بالمدايع الرشاشة من عيار ٢٠ مليمتراً . وتوقفت القافلة الطويلة وراء سيارة بيرزير . وكانت كلاريتا بيتاتشي في إحدى هذه السيارات ، ففضى بها العقيد كاسالينوفو إلى موسوليني داخل الدارة .

ونخشى لو ينجى جاني ، أن يؤدي تجمع مثل هذا العدد الكبير من السيارات إلى استشارة اهتمام رجال المقاومة السرية ، فأمر القسم الأكبر منها ، بالعودة مسافة قصيرة ، في طريق كادينابيا . وقد أطاع الرجال هذا الأمر بكثير من التردد والتبرم وهتف أحدهم . . . « جئنا نموت مع الدوتشي » . وسمع صوت رجل آخر ، يهتف صارخاً وهو يستدير بالشاحنة التي يقودها إلى طريق ضيق ، بأن الدوتشي قد تخلى عنهم ، وأنه يريد الفرار وحده عبر الحدود إلى سويسرا . وكانت لحظة من القلق المتزايد . وأيقن بيرزير أن هذا ما انتوى الدوتشي أن يفعله ، عندما خرج بعد راحة ثلاث ساعات ، من دائرة كاستيللي مصدراً أوامره ، للسيارات الباقية ، بأن تسير بجناء شاطئ البحيرة إلى قرية جرانديولا ، حيث يختفون عن العيون انظاراً للوصول بقوة بافوليني من الفاشيين المخلصين . ولم تبعد هذه القرية إلا أربعة عشر كيلو متراً عن الحدود السويسرية . وعندما أصدر موسوليني أمره هذا ، للقافلة ، مضى إليه بيرزير ، وأدى التحية ، وقال بدمائة مصحوبة بالشلك الواضح . . . « إلى أين نحن ماضون يا دوتشي ؟ »

فرد موسوليني . . . « اتبعني وستعرف » .

ومضت السيارات الإيطالية بسرعة هائلة عبر الطريق الملتوي والقائم نحو الجبال ، بينما وجد بيرزير ، صعوبة بالغة في اللحاق بها . وخرجت سيارة إيطالية من طراز « الفارومبو » في ضواحي القرية ، من خط القافلة ، وسارت بسرعة في طريق ضيق ، إلى دائرة وحيدة منعزلة . ولم يستطع بيرزير التثبت مما إذا كانت هذه السيارة ، هي سيارة موسوليني ، ولكنه شك في أنها سيارته ، وأحس فجأة بالخوف من أن يكون الدوتشي قد نجا من حراسته . وأصيب بما يشبه الدهول المصحوب بالراحة ، عندما رآه بعد دقيقة أو دقيقتين وقفاً في قاعة فندق ميرافال في القرية . وكان يسير في حديقة لفندق مع كلاريتا بيتاتشي وثلاثة من وزرائه ، عندما أصر حارس ألماني على وجوب دخول الفندق .

وكانت ساحات الفندق قد امتلأت في ساعات بعد الظهيرة المبكرة بالسيارات ، بينما احتشد جمع من الفاشيين الذين استبدت بهم العصبية ، في الفندق ، يتسائلون عما أصاب بافوليني . وكان موسوليني قد اجتمع إليه بضع دقائق في

الصباح في ميناجيو ، ولم يدر أحد شيئاً عما دار بين الرجلين . وعرف أنه تمكن من جمع ما يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف من ذوى القمصان السوداء من جميع أنحاء لومبارديا ومن مناطق تصل حدود تورين واليساندرى ، وأن هؤلاء الرجال ، وكثيرون منهم استصحبوا زوجاتهم وأطفالهم ، يحتشدون الآن في محطة فيروفا في شمال كومو . لكن ساعات طويلة قد انقضت منذ عاد إليهم ، ليجمعهم ، ويأتى بهم . رها هي الساعات تمضى دون أن يعود .

وانشغل موسولينى ، بينما كان الآخرون يتناولون وجبة سريعة ، في تجميع وثائق وفحصها بدقة ، مستخرجاً منها تلك التى تتناول المفاوضات التى جرت مع الحكومة السويسرية لضمان سلامة المرور عبر الحدود لأسر أعضاء حكومته وموظفيهم .

وكان ذلك اليوم رطباً ، كثيباً وقائماً . وظل الموجودون يديرون جهاز الإذاعة في الفندق ، فيسمعون إذاعات تتحدث عن ثورة عامة في شمال إيطاليا ، وعن انهيار المقاومة في جميع أرجاء الجبهة ، وعن تقدم قوات العدو . وأراد موسولينى الخلاص من هذا الجو القائم الذى يشبط العزائم ، فخرج إلى الحديقة يسير حاسر الرأس ، والمطر ينهمر فوق رأسه ، ومعه فتاة صغيرة انضمت إلى القافلة في كومو . وكانت الفتاة إيلينا كورتى كوكياقي الابنة الجميلة الشقراء لأنجيلا كورتى ، عشيقته السابقة ، التى لم تنقطع لحظة واحدة من قبل وبمتمنى الاهتمام ، عن تحذيره عبثاً من المؤامرات التى تحاك للإطاحة به ، وأدى سروره برؤية إيلينا ، وارتياحه إلى صحبتها ، إلى نوبة من نوبات الغيرة العاطفية العنيفة عند كلاريتا . وعندما عاد إلى الفندق ، راحت تصبح به قائلة . . . ما الذى تفعله هذه المرأة هنا ؟ عليك أن تتخلص منها فوراً . أجل تتخلص منها على الفور .

وحاول أن يهدئ من ثائرتها ، ولكنها مضت في صراخها الخنوع ، مما أدى إلى احتشاد لفييف من الناس على نافذة قاعة الطعام . ورأى أحدهم وجه موسولينى وقد بدت فيه صورة العذاب ، وهو يخطو إلى النافذة ليغلقها بعنف وهو يصرخ بصوت تجلى اليأس فيه أكثر من الغضب « كفى » . واستدارت إليه ، فانزلقت قدمها ، وهى تلتفت وسقطت على الأرض ، وأصببت ركبتيها بحرج سالت منه

الدماء . فتركها وهي تجهش بالبكاء دون أن تتمكن من السيطرة على نفسها ، وعاد يخرج إلى الحديقة .

وأرادت إيلينا كورتى أن تبعث الأمل في نفسه ، فعرضت عليه أن تعود على ظهر دراجة إلى كومو ، لترى ما حل بباقوليني . وكان قد ذكر لها أنه إذا لم يصل باقوليني فوراً ، فسيخلى عنه الجميع ، ولا سيما أن عدداً كبيراً من الذين لحقوا به من كومو وميلان ، قد أظهروا استعدادهم للتخلي عنه . وكان لا يزال يصصر على وجوب إنقاذ الفاشية عن طريق وقفة أخيرة يصمد بها في الجبال ، ولكن لم يبق معه كثيرون يرون معه هذا الرأي . وعندما قال بوفاريني - جيدي ، الذي كان قد اشتغل بالتهريب بعد إخراجهم من الحكومة ، والذي كان يعرف طريق جرانولولا جيداً ، إنه سيحاول عبور الحدود إلى سويسرا ، عن طريق بوليزا ، ادعى اثنان كانا قد وافقا على الذهاب إلى فالتيلينا ، وهما إنجيلونارشي وفابيانى ، بأنهما لا يريدان التعرض لخطر الوقوع في أيدي رجال المقاومة السرية ، وأنهما سيمضيان معه إلى سويسرا . وتزود الثلاثة بجوازات سفر مزيفة ، وغادروا المكان بعيد الساعة الثانية دون أن يودعوا موسوليني . ولم يودعه جرازيانى كذلك ، عندما مضى بعد الظهر لينضم إلى وحدة الجيش الإيطالى المراقبة في مانديلو . وراح موسوليني يقول لإيلينا . . . إن الجميع سيمضون ، وسأبقى وحيداً .

واقترح أحد رجال القمصان السود ، في قاعة الطعام ، أن يحدو الباقون حذو بوفاريني - جيدي ، وأن يطلبوا إلى السلطات السويسرية حمايتهم حتى تصل قوات الحلفاء فتسلمهم إليها . لكن الحدود كانت مغلقة . وقد أعيدت منها راشيل وطفلاها إلى شياسو ، حيث عادوا جميعاً إلى كومو . وعاد فابيانى هارعاً الآن إلى الفندق ، ليقول إن السيارة التى كان يأمل في أن تحمله مع بوفاريني - جيدي وتاريشى إلى سويسرا ، قد أوقفت في بوليزا ، بعد أن انضم حرس الحدود إلى رجال المقاومة السرية . وقد تمكن هو من الفرار ، بينما اعتقل رفيقه .

وطلب موسوليني من الملازم بيرزير ، أن يمضى لمساعدتها ، ولكنه رفض قائلاً إن أوامره تقضى بحماية الدوتشى ليس إلا ، ولأنه لا يهتم أى إنسان آخر . وتطابرت الاتهامات والتهديدات والشنائم في سماء الغرفة ، بينما كان الموجودون فيها

يناقشون ما يجب عليهم أن يفعلوه . ولم يشترك موسوليني في هذه المناقشات الحادة ، وإن ظل يفرز وثائقه ، وعندما أشرفت الدنيا على الدجى ، استدعى الملازم بيرزير ، وأبلغه أنه قرر ألا ينتظر بافوليني مدة أطول ، وأن يعود إلى ميناجيو ليخصي منها صعداً مع ساحل البحيرة إلى فالتيلينا . وأضاف أنهم سيتركون رسالة لرجال بافوليني للحاق بهم عند ميرانو . ولكن بيرزير لم يوافق على رأيه ، وقال بشيء من الاحترام الفاتر ، إن رجاله قد أجهدوا ، ولأنه لا يستطيع أن يطلب منهم اختراق الحصار الذى لا بد أن يكون رجال المقاومة قد فرضوه إلى الشمال من ميناجيو ، إلى أن يكونوا قد أخذوا قسطاً من الراحة . واضطر موسوليني إلى التسليم ، وأمرهم جميعاً بقضاء الليلة في جراندولا ، على أن يتحركوا في الخامسة صباحاً إلى ميناجيو . وأضاف أن رجال بافوليني الذين يعدون ثلاثة آلاف لا بد أن يكونوا قد وصلوا إلى هناك في تلك الساعة . وقد صدر عنه هذا القول ، دون أن يصدقه الآخرون ، أو يصدق نفسه .

ووصل بافوليني في الساعات المبكرة من صباح السابع والعشرين من أبريل ، في سيارة مصفحة قادماً من كومو . وكانت السماء لا تزال تمطر مدراراً ، إذ ذكرت إيلينا كوكياتي فيما بعد ، أنه عندما دخل الفندق ، كان الماء يتصبب على وجهه الشاحب . وروى لهم أن ذوى القمصان السوداء في كومو ، قد وقعوا اتفاقاً للاستسلام إلى رجال المقاومة السرية . ولم يستطع أن يحمل معه منهم إلا عدداً قليلاً جداً

وهتف به موسوليني بلهفة . . . وكم عدد الذين جاءوا معك .

وتردد بافوليني ولم يجر جواباً . . .

— قل لى ، كم عددهم ؟

— اثنا عشر . . .

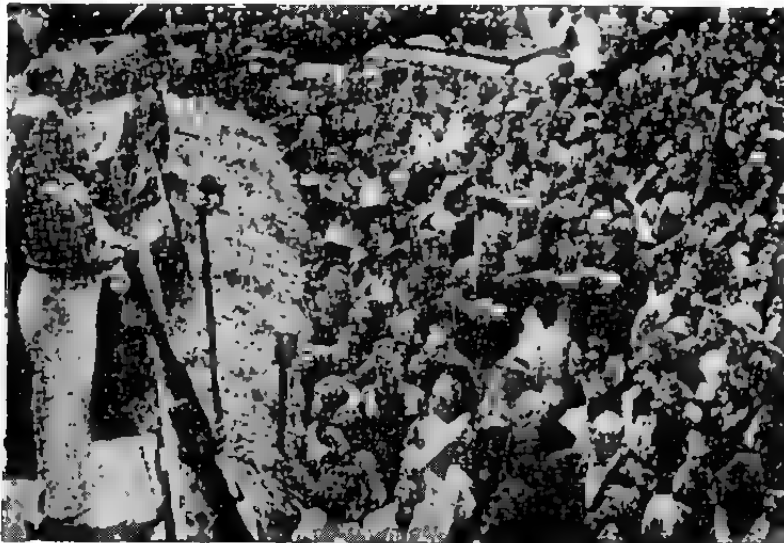
وكانت هذه نهاية الأمل .

وسرعان ما سمح موسوليني للملازم بيرزير ، بأن يعد العدة له ولين ينى معه ، بالانضمام إلى قافلة ألمانية تضم أربعين سيارة شاحنة يقودها الملازم كولمباير ، كانت تتراجع شمالاً على ساحل البحيرة باتجاه اينزبروك .



موسولې پستمرض قواته آمدنه
من غزو الحبيشه

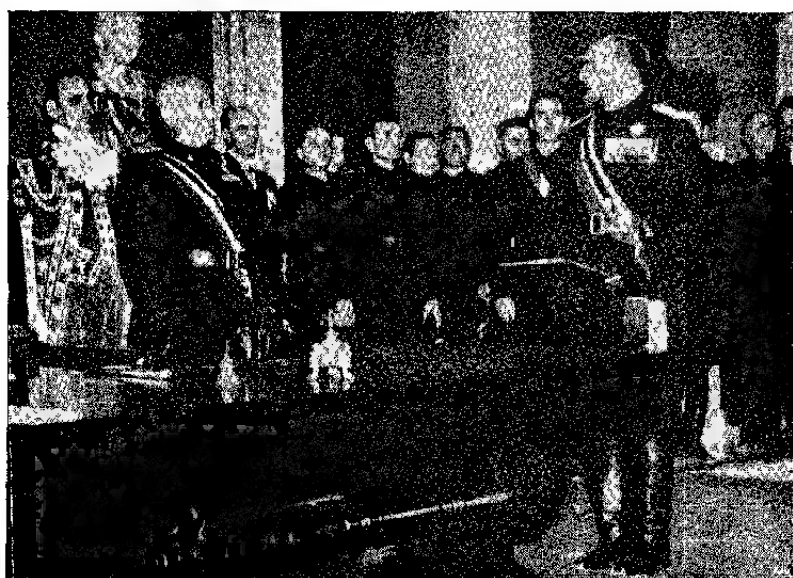
موسولې پلن حمايان في اراضي الإصلاح
الزراعي في يوليو عام ١٩٣٨



موسوليني يسلم على المدك أثناء المظاهرات
العسكرية في أغسطس ١٩٣٨



موسوليني يتلقى هدية من النكتة حرندي أثناء تذكري
استنوية تسابعة عشرة للرحيل على رومة

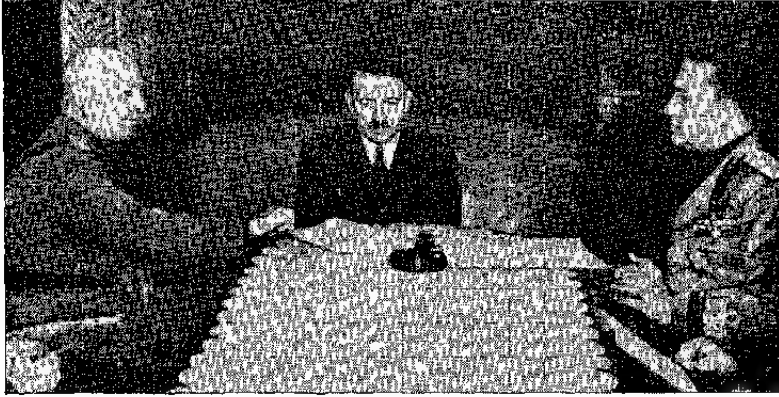




موسوليني مع ولده درودو وفيتوريو قبل الحرب

موسوليني مع الكونت تشيانو والمستر تشمبرلين
وايزر ديه كيني في أكتوبر عام ١٩٤٠





موسوڤي مع هتلر وتشيانو في أكتوبر ١٩٤٠

موسوڤي يلقى خصاماً من شرفة قصر لينينقية



العسكري ، أن ليس معهم أحد من الإيطاليين ، فوعده الكاهن بأن يبذل قصارى جهده . وعندما كان الكاهن يهم بالسير ، تقدم منه جندي ألماني آخر ، وهو من الكاثوليك النمساويين ، وكان قد تلقى العلم في بادوا ، فهمس له بالإيطالية . . . « أجل معنا إيطاليون . لا تصدق الضابط . واطلبوا تفتيش السيارات » .

ومضى الكاهن يصعد الطريق الجبلى إلى مقر قيادة المقاومة المحلية . ولكنه عندما وصل إلى المقر ، أبلغ بأن القضية أصبحت في يد القيادة العامة في موريبيجنو ، وأنهم هنا لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً قبل أن يثقلوا أوامر جديدة .

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة عندما مضى فولماير إلى موريبيجنو ، التى لم يعد منها إلى موسو إلا بعد الثانية . واستبد القلق والفرح بالإيطاليين من رجال القافلة في هذه الفترة من الانتظار التى امتدت ست ساعات طويلاً . واقترح بافوليني أن يقتحموا طريقهم عنوة . بينما اقترح آخر أن يعودوا أدراجهم ، وأن يحاولوا الالتفاف حول الحاجز من طريق أخرى ، لكن معظمهم ، رأى أن من الجنون محاولة القيام بأى شيء قبل أن يعود فولماير . وعندما راحت ساعات الصباح تمر سراعاً ، دون أن يعود الضابط الألماني ، قرر بعض الفاشيين ، الهجوم إلى مساعدة راعي الأبرشية وحمايته . وكان دون مينين قد عاد من الجبال ، ويوشك أن يتناول غداءه ، عندما جاءه رجل إلى منزله يقول . . . « أنا بومباكى ولفى لعل استعداد لتسليم نفسى إلى رجال المقاومة السرية . فهل تساعدنى يا أبى ؟ » وقال بومباكى فيما بعد لأسريه ، إنه أضحك لإيمانه بموسوليني في ميناجيو ، إذ أنه اعتقد كما اعتقد الملازم بيرزير ، أن موسوليني ، كان قد هباً نفسه للفرار وحيداً إلى سويسرا مع كلاريتا وأنه لم يعدل عن خطته هذه ، إلا عندما تأكد من استحالة عبور الحدود ، فعاد يحاول الوصول إلى فاليتلينا . واعتقد كثيرون آخرون من أتباع الدوتشى بأن هناك ما يبرز شكوك بومباكى . وروى الكاهن لمطرانة فيما بعد ، أن آخرين سرعان ما حذوا حذو بومباكى ، وأسلموا أنفسهم لحمايته . ومضى في تقريره يقول . . . « وسرعان ما اجتمع في غرفة الطعام في الأبرشية عدد من وزراء موسوليني منهم زيرينو وأوجستوليفيرانى ، وفيرناندو ميزاسوما وهو يسمح بعصية نظارتيه ، وروجيرو رومانو ومعه ولده قسطنطين البالغ الخامسة عشرة من

عمره . . . وكانت الساعة قد تجاوزت الآن الواحدة . وأعددت شيئاً من الحسا للفارين اللاجئين . ووصل رجال المقاومة إلى الأبرشية ، يقودهم النقيب باربييري . وحاول الضابط أن يعرف إذا كان موسوليني في إحدى السيارات .. فرد رومانو بأنه كان معهم في ميناجيو ، ولكنه اختفى منذ تلك اللحظة . لكن بومباكي اقترب من شقيقى وقال . . . « إنه معنا ، وليس من العدل أن ينجو بجلده » . ولم يكن موسوليني يحاول النجاة بجلده أبداً . فقد ظل يجلس في السيارة المصفحة يقرأ في وثائقه ، ويصغى إلى الإذاعات الدولية وهى تنقل الأنباء ، مستمداً شيئاً من الأمل ، في النبأ الذى أذيع بأنه اعتقل في بلدة بعيدة عن موسو . وروت إيلينا كورنى كوكباني ، كيف كان يجلس هادئاً ينتظر عودة فولماير ، عندما ظهر شخص قصير القامة يرتدى « عفرية » زرقاء اللون ، وقد وضع خوذة صلبة على رأسه ، عند نافذة السيارة المدرعة . وخيل لإيلينا أنه صبي صغير ، وراحت تتساءل عما يفعله هذا الصبي في هذا المكان . عندما ارتفعت الخوذة ، وانسدل شعر أسود طويل ، حول وجه نسوى قلق تبينت فيه وجه كلاريتا بيتاتشى « بعينها الجميلتين البراقنتين » . وتحدث إليها موسوليني برقة وحنان ، وهو يحاول التسرية عنها . وعاد فولماير إلى السيارة المصفحة أثناء حديثه إلى كلاريتا ، وأبلغه أنه فشل في مهمته ، وفي إقناع رجال المقاومة بالسماح للإيطاليين بالمرور ، مع موافقتهم . على السماح لجميع السيارات الألمانية بالمرور بعد تفتيشها في دونجو للبحث عما إذا كان بعض القاشيين يختبئون فيها . واقترح بيرزير أن يرتدى موسوليني معطف جندى ألماني ، وأن يختلط مع الجنود الألمان في إحدى السيارات الشاحنة . وترجم موسوليني للآخرين ما قاله الضابط وأضاف . . . « إنه يقول ، إن في إمكاني المرور إذا تنكرت في زي ألماني » .

وهفت كلاريتا على الفور . . . « هيا يا دوتشى ، لا تتردد . انج بنفسك » . . . وكانت العبرات تسيل من مآقيها .

لكنه كان عازفاً عن الحركة . وخيل إليه أن فولماير قد ساوم رجال المقاومة عليه ، فحصل على موافقتهم بالسماح له ولرجالها ، بالذهاب إلى ألمانيا ، مقابل تسليم موسوليني إليهم .

وراح يقول ليرزير . . . « أشم هناك رائحة خيانة أيها الملازم » .
 - « لا يا دوتشى . هيا وارند معطف أحد الجنود الألمان وخوذته واختبئ
 فى إحدى سيارات فولماير . سيقوم رجال المقاومة بتفتيشها . ولكنها فرصتك
 الوحيدة .

- حسن . ولكن تذكر أن أوامرك تقضى بالدفاع عني .

- طبعاً يا دوتشى .

وابتعد بيرزير ، ليفصل الألمان عن الإيطاليين . وعندما عاد كان موسوليني
 لا يزال فى السيارة المصفحة ، بينما جلست كلاريتا على سطحها ، تبكى بحرقة .
 وقال موسوليني غاضباً ليرزير عندما وصل إليه . . . « أيها الملازم ، إذا
 لم تؤمن لوزرائى ، نفس الحماية التى تعرضها على ، فان أتحرك من مكانى » .
 - ولكن هذا مستحيل يا دوتشى . فقد تم توقيع الاتفاق . ويجب أن نخلف
 جميع الإيطاليين وراءنا .

- ولكن صديقتى على الأقل يجب أن تأتى معى .

- هذا مستحيل أيضاً .

وظل موسوليني فى مكانه ، يرفض التحرك ، وقد تجمد فكه فى عناد وإصرار .
 وعندما مضى بيرزير ليأتى بالسيارة الشاحنة التى سيجتئ فيها ، لتقف إلى جانب
 المصفحة ، راح الآخرون يقتنعونه بأن يغير رأيه . وعندما وصل بيرزير بالسيارة ،
 وقال . . . « هذه هى فرصتك الأخيرة يا دوتشى » ، راح يتسلق السيارة صامتاً وقد
 ساعده كاردورى ، فارتدى معطفاً ألمانياً وخوذة ، واندفع إلى السيارة .
 وعندما مضت السيارة ، ركضت كلاريتا وراءها تحاول اللحاق بعشيقها ،
 والقفز إلى سيارته أو أية سيارة أخرى ، واضطر بيرزير إلى استخدام كل ما لديه
 من قوة لإبعادها .

وهكذا مضى موسوليني وحيداً إلى دونجو . وكان رجال المقاومة قد عرفوا
 بوجوده مع القافلة ، من راكب دراجة كان قد رآه فى السيارة المصفحة ومن الكاهن
 مينيتى ، ولذا وقفوا ينتظرونه فى ساحة البلدة .

الاعتقال . . .

٢٧ أبريل ١٩٤٥

« لا أريد أن أرى بزة ألمانية عسكرية مرة أخرى » .

١

كانت الساعة قد أزفت على الثالثة ، عندما مضت السيارة الشاحنة تحمل
موسوليني وقد أقمى فيها إلى دونجو . وكانت سيارة مارسيلو بيتانشي ، وهي تحمل
اللوحة الدبلوماسية ، والعلم الأسباني يرفرف فيها ، هي السيارة الإيطالية الوحيدة التي
سمح لها بمتابعة السير مع القافلة .

ولم يكد الألمان يتعدون بسياراتهم ، حتى تقدم رجال المقاومة السرية ، بحمطة
وحذر ، لاعتقال الوزراء والموظفين الآخرين ، الذين كانوا لا يزالون يقفون إلى
جانب السيارات الأخرى في الطريق . وقد استسلم معظمهم دون أية مقاومة .
واستسلم كذلك الوزراء الآخرون المجتمعون في دار راعي الأبرشية ، بينما صمم
أولئك الموجودون في السيارة المصفحة على المقاومة .

وعندما مر الألمان بباراكو ، وقف في مقعد القيادة ، وقد شحب وجهه
إلى درجة مخيفة بهتف بأعلى صوته . . . أيها الجبناء ، أيها الخونة ! وسرعان ما احتفى
وراء دروع السيارة ، وراحت السيارة تستدير بمنتهى الصعوبة في الطريق الضيق .
ولكنها ما كادت تفعل ذلك حتى أطلق رجال المقاومة النار عليها ثانية ، بينما قذف
أحدهم بقنبلة يدوية بين عجلاتها . وبعد لحظات واصت فيها المصفحة إطلاق
النار ، ارتفع علم أبيض من برجها ، بينما قفز بافوليني منها متجهاً إلى البحيرة ،
وصارخاً بالآخرين أن يلحقوا به وأن يلقوا بكل شيء في مائها . وتبعه كارادوري
وقد امتلأت بداه بالأوراق . وراحا يغطسان في الماء ويسبحان تحت ستار شاطئهما
المطل ، دون أن يراهما رجال المقاومة .

ولكن الآخرين لم يفلحوا في الابتعاد . فقد لحق رجال المقاومة بكاسالينوفو وأوتيمبرجى قبل أن يخطوا بضع خطوات واعتقلا ، بينما أصيب باراكو بعيار في قدمه . وسحب بافولينى وكارادورى بعد نحو من ساعة من البحيرة ، بعد معركة أصيب الرجلان فيها بجراح ، ثم أرسل مع رفاقهما إلى دونجو .

وكان موسولينى قد وصل إلى هناك ، وبدأ تفتيش السيارات الشاحنة . وبدأ رجال المقاومة يرافقهم فولماير ، بالسيارة الأولى . ولكنهم لم يجدوا فيها ولا فى التى تلبها ما أثار اشتباههم . ولكن أحد هؤلاء الرجال ويدعى جيوسيبى نيجرى ، وكان يعمل بحاراً فى الماضى ، وجد فى إحدى السيارات الخلفية ، جندياً ألمانياً ، كان إما ثملاً أو نائماً . وكان يجلس القرفصاء إلى جانب صفيحتين من البترول ، وقد ارتدى خوذة ألمانية من الفولاذ ، ومعطف عريض فى إحدى وحدات مقاومة الطائرات . وروى رجل آخر من رجال المقاومة السرية ، وكان واحداً من عشرة ، ادعى كل واحد منهم فيها بعد لنفسه شرف اكتشاف موسولينى ، أن هذا الألمانى ، كان يضع على عينيه نظارتين سوداوين كبيرتين . ولم يكن نيجرى قد كلف نفسه عناء الصعود إلى السيارة الأولى التى كان قد فتشها ، ولكنه وجد نفسه مدفوعاً هذه المرة إلى الأمام من رقيب من حرس الجمارك ، فصعد إلى السيارة ، وأخذ يتفحص فى الرجل الجالس فى مقدمتها . ورأى مدفئاً رشاشاً بين ركبتيه ، وعندما قال رفاقه من الجنود الألمان ، إنه زميل سكير ، تظاهر الإيطالى بأنه قد صدقهم . وقفز من السيارة ، راكضاً لمقابلة نائب المفوض السياسى للكتيبة ، أوربانو لازارو .

وراح يهتف بلازارو عندما عثر عليه أخيراً . . . « تعال هنا . أعتقد أننى وجدته » .

وركض لازارو إلى السيارة وصعد إليها . وشق طريقه إلى مقدمتها ، حيث كان يجلس ذلك الألمانى فى بزة العريف . وراح يسأله . . . « هل أنت إيطالى ؟ » وسادت لحظة من الصمت قبل أن يرفع موسولينى عينيه قائلاً بشيء من الخزم . . . « أجل أنا إيطالى » .

وصرخ لازارو ، وقد أخذ بنظرة الدوتشى المفاجئة . . . « يا صاحب

الفخامة» . . . فقد جعله هول المفاجأة ، ينطق بهذه العبارة دون وعى . . . ثم قال . . . «إذن فأنت هنا» .

ولاحظ لازارو أن وجه موسوليني كان أبيض كالرماد ، وخالياً من كل تعبير . وكان شعر ذقنه أسود وكثيفاً ، مما يضاعف من إبراز شحوب وجنتيه . وكان بياض عينيه قد تحول إلى صفرة . وكان في وسع المرء أن يقرأ فيهما معاني الإجهاد لا معنى الخوف ، فقد ماتت روحه منذ أمد بعيد ، ولم يعد له شأن بين الأحياء .

وكان قد طلب إلى الجنود الألمان عدم المجازفة بأرواحهم في محاولة إنقاذه من الأسر ، ولم يبد عليه أنه راغب في محاولة استخدام مدفعه الرشاش . وراح ينزل بمساعدة لازارو من السيارة ، ولم ينبس ببنت شفة عندما انتزعوا المدفع منه ، أو عندما رفعوا الخوذة الألمانية عن هامته . وتعاملت هتافات الناس في الميدان عندما تبينوا حقيقة الأسير .

وراح لازارو يسأله . . . أليس لديك أسلحة أخرى ؟ ولكنه لم يجب ، ففتش رجال المقاومة السرية جيوبه ، وعثروا فيها على مسدس محشو . ولم ينبس ببنت شفة أيضاً عندما انتزعوا المسدس منه . ولكن عندما أراد أحد رجال المقاومة أن ينتزع منه الحقيبتين اللتين كان يحملهما ، التفت إليه بعنف قائلاً . . . «احذر ، إن هاتين الحقيقتين تضمّان وثائق سرية في منتهى الأهمية ، من الناحية التاريخية وليستقبل إيطاليا» .

وكانت هذه الثورة مؤقتة . فقد بدا محطماً مستسلماً ، وضعيفاً وفي منتهى الإعياء والمرض ؛ وعندما راح يجتاز الميدان إلى مكتب رئيس البلدية ، في ذلك البناء الجميل رغم تداعيه الواقف عند سفوح جبل بريجاجنو ، بادره لازارو قائلاً . . . «حافظ على هدوئك ، فلن نصيبك بضر» .

وحاول رئيس البلدية الدكتور جيوسيبي روبيني ، أن يسرى عنه أيضاً ، فقال . . . «لا تتزعج ، فلن يصيبك سوء» .

ورد موسوليني بشيء من التنازل المرضي . . . «أنا أعرف هذا فأهل البحيرة أناس طبيو القلب» .

وسمح له بالجلوس في مكتب رئيس البلدية ، وتحلقت حوله جماعات من أهل

البلدة ومن رجال المقاومة الشعبية ، يوجهون إليه الأسئلة التي يرد عليها بشيء من الغضب ، أو الكبرياء المهانة ، أو الرغبة الحاطة التوجيه في إرضاء الآخرين . . .
 وسأله أحدهم . . . وما الذى دعاك إلى خيانة الاشتراكية ؟
 - أنا لم أخنها . وإنما الاشتراكية هى التى خانت نفسها .
 - ولم قتلت ماتيوتى ؟
 - لم يكن لى شأن فى قتل الرجل .
 - ولم طعنت فرنسا من الخلف ؟
 - يتطلب إيضاح الأسباب التى أجبرت إيطاليا على دخول الحرب ، وقتاً طويلاً .

- أكان الخطاب الذى ألقيته بعد إنقاذك من « الصخرة العظيمة » بمحض إرادتك ، أم كنت مرغماً على إلقائه .
 - كنت مرغماً على إلقائه .
 - ولم سمحت باتخاذ مثل تلك الإجراءات الصارمة ضد رجال المقاومة السرية ؟
 فقد عذب بعضهم عذاباً شديداً . أكنت تعرف ذلك ؟
 - كانت يداى مغلولتين . ولم تكن ثمة فرصة لمعارضة كيسلرنج وولف فيما يفعلانه . وقد تحدثت إلى الجنرال وولف المرة تلو المرة عن قصص الناس الذين يعذبون ، وعن غير ذلك من الأعمال الوحشية التى وصلت إلى مسامعى . ورد وولف ذات يوم ، بأن هذه « هى الطريقة الوحيدة لاستخلاص الحقائق وإن الموتى لا يد أن يعترفوا بالحقيقة فى غرف تعذيبه » .
 وانهالت عليه الأسئلة واحداً إثر آخر ، ورد عليها كلها . وجف حلقه من كثرة الحديث ، فطلب كأساً من الماء . وجاءوا له ببعض الماء وبقدح من القهوة . واحتساه بلهفة ، ثم راح فى صمت عميق ، وقد وضع يديه على ركبتيه ، محملاً فى الجدار . وكان قد نزع المعطف الألماني وقذف به إلى الأرض ، وجلس حاسر الرأس فى بزة الحرس الفاشى .

وسمح فى الخارج للقافلة الألمانية بمواصلة سيرها باتجاه الشمال ، وسرعان ما بعث أحد المفوضين السياسيين لجماعات المقاومة ويدعى فرانثيسكو تيرزى برسالة

إلى كومو في الجتوب ، يذكر فيها وقوع موسوليني في الأسر ، ويطلب من اللجنة المحلية للتحرير الوطني فيها تعليماتها عما يجب أن يفعله بالمعتقل .

٢

كانت الساعة قد أذفت على الثامنة والنصف . وكان لابد من انقضاء بعض الوقت ، قبل أن يعود الرسول الذي مضى إلى كومو للترود بتعليمات لجنة التحرير الوطني . وقرر قائد المقاومة السرية الشاب في دونجو ، الكونت بيير لويجي بيليني ديل ستيل . أن ينقل أسيره الخطير الشأن إلى مكان أمين ، خوفاً من قيام محاولة لإتقاذه . ولم تحل الساعة السابعة ، حتى كان قد عزم على نقل موسوليني إلى الجبال ، إلى ثكنة حرس الحدود في جيرماسينو .

وكان المطر يتساقط مدراراً . واشتدت البرودة . وراح أحد رجال المقاومة وكان يتولى حراسة موسوليني ، يسأله إذا كان يود أن يرتدى المعطف الألماني ليتقي البرد فقال . . . « لا أريد أن أرى بزة ألمانية عسكرية مرة أخرى » ، وراح يرتدى بدلا منه « عفريتة » زرقاء وجدها ملقاة في زاوية من الغرفة . واشتدت به الرجفة في السيارة التي أقلته إلى جيرماسينو ، فقد كانت الرحلة بطيئة ، إذ كان المطر ينهمر بعنف على مقدمة السيارة بحيث لم يكن في وسع السائق أن يتبين طريقه . وقال أحد الحراس ، محاولاً بعصبية ظاهرة ، الشروع في حديث مع السجين .. « هذه هي المرة الثانية التي تقع فيها أسيراً » .

فرد موسوليني بشيء من المرح المتشائم . . . « هذه هي الحياة يا ولدي العزيز . هذا هو قلدي ، من الرغام إلى السلطان ، ومن السلطان إلى الرغام » . وعادت إليه معنوياته الضائعة ، وكأنه وجد العزاء في فكرة الاستشهاد . وبدأ سعيداً عندما وصلوا به إلى جيرناماسينو . وعندما أشعل الحرس النار ليصطلي عليها ، وأعدوا له وجبة ساخنة ، راح يتحدث إليهم وكأنه ضيفهم لا سجينهم . وعندما طلبوا إليه توقيع ورقة يعترف فيها بحسن معاملتهم له ، وقعها طائماً مختاراً . وكان نصها على النحو التالي : « اعتقلني كنيبة جاريبالدي الثانية والخمسون اليوم

في السابع والعشرين من أبريل ، في ميدان دونجو . وكانت معاملتهم لى أثناء الاعتقال وبعده ، حسنة للغاية » .

وجلس موسوليني إلى مائدة العشاء . كان جائعاً ، ولذا فقد تناول الطعام بشمية . وظل يتحدث أثناء العشاء وبعده إلى رجال الحرس طويلاً وكأنه أستاذ ثرثار يتحدث إلى مجموعة من طلابه الذين استبدت بهم العصبية . وكان حديثه أقرب إلى المحاضرة منه إلى أى شىء آخر . فقد تحدث إلى الشبان عن زيارته لروسيا ، وعن طبرانه عبر المساحات الواسعة من السهول الروسية . وتحدث عن ستالين كأحد عظام الرجال الأحياء ، ووصف روسيا بأنها المنتصرة الفعلية في الحرب . وعرض آراءه في البلشفية والاشتراكية الوطنية ، وتنبأ بانهايار الإمبراطورية البريطانية . وكانوا يصغون إليه دون أن يقاطعوا حديثه . فهما حدث له الآن ، فلمهم لم يستطيعوا أن ينسوا ، أنه ظل يحكمهم زهاء عشرين عاماً . وروى أحدهم ويدعى ماريوني ، أن « القلق كان يستحوذ عليه أحياناً ، ولكنه لم يبد خائفاً على الإطلاق . وبدا وكأنه لا يهتم بمصيره . وقد قال لى ولأحد الرفاق . . . ” إن الشباب شىء جميل “ . وابتسم رفيق عندما سمع هذا ، فاستأنف موسوليني قائلاً . . . ” أجل ، أنا أعنى ما أقول . فالشباب شىء جميل . وأنا أحب الشبان حتى ولو حملوا السلاح ضدى “ . ثم أخرج ساعة ذهبية من جيبه وقدمها إلينا قائلاً . . . خذاه لتذكر كما يى » .

وعندما بلغت الساعة الحادية عشرة ، قال إنه منهك ، وسأل إذا كان في استطاعته أن ينام . ونقله الحراس إلى غرفة صغيرة في الطبقة العليا ، حيث أعد له سرير وراء نافذة مغلقة ، تحجزها القضبان . ورأى جيورجيو بوفيللى ، وهو الشاب الذى كان قد تحدث إليه في السيارة ، شيئاً صغيراً أسود يطل من جيبه ، فأشار إليه باهتمام . وكان قد رآه منذ مدة ، وخيل إليه أنه مقبض مسدس . فأخرج موسوليني ذلك الشىء طائعاً من جيبه وعرضه على حارسه ، ولم يكن سوى « حافظة النظارات » . وأغلق بوفيللى الباب بالمزلاج .

وعندما عاد الكونت بيليني إلى دونجو ، وجد كلارينتا بيتاتشى ، في غرفة في دار البلدية ، حيث اعتقلت منفردة عن أخيها ، إذ لم تكن تحمل جواز سفر

يقيم الدليل على صحة ادعائها بأنها تحمل الجنسية الأسبانية . وكانت لا تزال تصر على أنها شقيقة السفير الأسباني لدى جمهورية سالو ، وراحت تسأل بعض فتيات القرية عما سيحل بكلاريتا بيتاتشى ، إذا اعتقلها رجال المقاومة ، وعندما أبلغها الكونت بيليني ، أن موسوليني سجين لديه ، قالت إنها لا تعرفه ولم تلقه أبداً .

وقال الكونت بيليني . . . ولكنى أعرف من تكوين . . . وأضاف أنهم اكتشفوا أيضاً أن الرجل المبتكر باسم السفير الأسباني ليس إلا شقيقها مارسيلو . ولم يعد في وسعها الاستمرار في الادعاء . فسألت الكونت عن أحوال موسوليني ، وأجابها بأنه وحيد وبخير . وتطلعت إليه كلاريتا بنظرة عميقة فاحصة ثم قالت . . . من أنت ؟ أنت صديق ؟
فرد بيليني . . . لا . أنا عدو .

وقالت تعض على ناجذ من نواجذها ، وكان قد انقضت إبان الرحلة . . . « أنا أعرف أنكم جميعاً تكرهونى . وكنتم تتصورون أننى أحب فيه ماله وسلطانه . ولكن هذا كذب . فلم يكن حجبى له انتهازياً على الإطلاق . فقد ضحيت بنفسى من أجله . وحاولت أن أكون طيبة معه » . . . ثم راحت تسأله بتوسل . . . أتسدى إلى منة ؟

— ماذا تريدان ؟

— أريد أن تحبسنى معه فى نفس المكان . أريد أن أشاطره مصيره . وإذا قتلتموه ، فاقتلواى معه .

ونظر الكونت إليها بإمعان ، وقد استبدت به الدهشة . إذ لم يكن يتوقع منها هذا الوفاء . وراح يمضى مخلفاً إليها فى الغرفة .

وصل الشاب الذى أوفد من دونجو حاملاً أنباء اعتقال موسوليني إلى كومو فى الساعة السادسة والنصف . ولما عجز عن مقابلة أى من أعضاء لجنة التحرير

الوطني المحلية في البلدة ، راح ينقل النبا إلى جينو بيرتينيلي ، الحامي الذي غدا منذ بضع ساعات ليس إلا ، محافظاً للمدينة . وقال المحافظ للرسول . . . « عد على الفور ، وأبلغ قائدك ، أن ينقل موسوليني على التو إلى مكان أمين في الجبال ، مخافة أن يجدوه وينقذوه ثانية . وسأحاول بدوري الاتصال بميلان » . وعاد الرسول مسرعاً إلى دونجو ، يحمل هذه التعليمات إلى الكونت بيليني ، الذي كان قد نقل موسوليني إلى جيرماسينو .

ووصل نبا نقل موسوليني إلى جيرماسينو ، إلى صديق حميم للجنرال كادورنا ، هو العقيد البارون جيوفاني ساردانا ، الذي عين مؤخراً قائداً عسكرياً في كومو نيابة عن لجنة التحرير الوطني . وسرعان ما هتف ساردانا للجنرال ، فلم يستطع الاتصال به إلا بعد مضي وقت طويل . وكان الخط الهاتفي غير واضح ، ومع ذلك فقد تحدث إلى العقيد بالومبو ، رئيس أركان حرب الجنرال كادورنا .

وقال ساردانا لمحدثه . . . « اعتقل موسوليني بعد ظهر اليوم على مقربة من دونجو ، فماذا نعمل ؟ إنهم يريدون مني التعليمات ! ماذا أقول لهم ؟ »
— لا أستطيع إصدار أية تعليمات بعد . . فقد نقل إلينا نبا الاعتقال منذ لحظات . سأعرد إلى الاتصال بك ، ناقلاً إليك التعليمات .

— حسن . ولكن علينا أن نسرع في البت في هذا الموضوع .

— طبعاً . ولكن ليس في وسعي أن أقول شيئاً محدداً الآن . سأصل بك هاتفياً فيما بعد .

ورن جرس الهاتف عند ساردانا في الساعة الحادية عشرة والنصف ، لم يكن بالومبو هو المتحدث ، وإنما كانت هناك برقية عاجلة من لجنة التحرير الوطني في ميلان . وكان نصها كما يلي . . . « أحضروا موسوليني ، ورجال عهده إلى ميلان في أسرع وقت ممكن » .

وتحدث ساردانا قبل أن يسرع إلى تنفيذ هذه الأوامر ، إلى بالومبو من جديد . وقال له عندما تم الاتصال الهاتفي بعد وقت طويل . . . « اسمع . فهمت أمركم . ولكنني أريد التأكد منه شفويّاً » . وأضاف أن نقل موسوليني إلى ميلان أمر سهل على القول ، ولكنه صعب على التنفيذ . فليس ثمة عدد كبير من الرجال

الذين يمكن الوثوق بهم ، والركون إليهم . ولذا يجب أن تقوم بالتنفيذ جماعة صغيرة مختارة ، وأن تتم عملية النقل ، سرّاً في الليل . وعلى ناقله أن يعرفوا أنهم سيحتاجون عدداً من حواجز الطرق . وبالطبع هم يستطيعون نقله عن طريق البحيرة إلى كومو ، ولكن ليس من السهل العثور على قارب صالح . ثم قال بإصرار . . . « يجب أن أعترف بأن هناك مخاطرة بالغة في العملية كلها » .

فرد بالومبو بإصرار . . . « حسن إذن . عليك أن تجد مكاناً أميناً يمكن إخفاؤه فيه بعض الوقت » .

وهكذا تقرر نقل موسوليني من جيرماسينو إلى قرية بليفيو ، التي تبعد سبعة كيلومترات إلى الشمال من كومو ، حيث يملك صديق لساردانا ، هو من كبار رجال الصناعة ، ويدعى ريمو كاديماتوري ، دارة منعزلة واسعة ، لها واجهة واسعة مطلة على البحيرة . وهتف ساردانا لصديقه كاديماتوري ، قائلاً إنه في حاجة إلى دارته ، لإخفاء شخص فيها ، وإن هذا الشخص سينقل إليها في الليل عن طريق البحيرة في مولتازيو . وقال له ، إنه إذا سئل عن يكون هذا الشخص ، فعليه أن يقول إنه ضابط إنجليزي أصيب بجراح . ولم يوجه كاديماتوري أية أسئلة ، ولكنه عرف لثوه ، أن هذا الشخص هو موسوليني بعينه . وخرج في تلك الليلة الشديدة البرودة ، يجلس على سلم دارته المطل على البحيرة ، منتظراً وصول الزائر ، وقد رافقه بستانيه العجوز ، ينظران عبر الليل البهيم ، إلى مياه البحيرة .

٤

وصل الأمر بنقل موسوليني من جيرماسينو إلى دارة كاديماتوري في بليفيو ، إلى الكونت بيليني ، حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف ، ولم تمض ساعتان حتى كان قد نقل أسيره من ثكنة جيرماسينو في سيارة التفت بالسيارة التي نقلت كلاريتا بيتاتشي من دونجو حوالي الثانية والنصف صباحاً على مقربة من « بونتي ديلا فولك » . وكانت السماء لا تزال تهطل مدراراً ، ولكن موسوليني هبط من

السيارة . وقد التف « ببطانية » من الصوف . واختفى جزء من وجهه تحت الرباط ، ليبدو كرجل جريح في طريقه إلى المستشفى ، ومشى نحو كلاريتا ، وتبادلا التحية بشيء من الاصطناع الذى جمع بين الحنان والسخف .
وقالت كلاريتا . . . مساء الخير يا صاحب الفخامة .

— أنت يا سيدتى ! لماذا جئت ؟

— أوتر أن أكون معك .

كانت هذه هى العبارات الوحيدة التى تبادلها . وانطلقت السيارتان تخوضان السيول التى تجمعت من مياه الأمطار المهمرة ، باتجاه مولترازيو . وكان إلى جانب السائق فى السيارة الأولى ، رجل من المقاومة السرية يدعى لويجي كانالى ، وكان يسمى نفسه « بالكابتن نيرى » ، بينما جلست كلاريتا فى المقعد الخلفى بين جنديين من جنود المقاومة هما جيوسيبى فرانجى وجوجيليمو كانتونى ، وكلاهما من الصيادين . وجلس موسولينى فى السيارة الثانية بين الكونت بيللى وعشيقة كانالى . وتدعى جيوسيبينا توبسى ، متنكرة فى زى ممرضة . أما فى المقعد الأمامى إلى جانب السائق ، فقد جلس ميشيل موريتى المعروف عند رفاقه من رجال المقاومة السرية باسم « بىرو جاتى » .

وكانت الطريق تتعرج وتلتوى بين الصخور إلى جانب البحيرة . وكانت السيارتان تقفان أحياناً أمام حاجز من حواجز الطرق ، فيخرج رجال من الظلام المدهم ، يحملون المصابيح . التى تتأرجح فى أيديهم تحت انهيار المطر المنصب من السماء ، بينما تسطع أنوار القذائف المدفعية فى السماء ، وقد سمع دويها من مسافات بعيدة . وانطلقت القذائف فى إحدى المرات من التلال الواقعة إلى اليمين ، وقفز الكونت بيللى من السيارة هائفاً وملوحاً بيديه . وعندما وصلت السيارتان إلى مولترازيو ، توقفنا على مقربة من « فندق أمبريالى » ، وهبط الكونت ثانية من السيارة ، يمشى بعيداً مع لويجي كانالى .

وظل موسولينى هادئاً لا ينبس ببنت شفة . كان الهدوء يخيم على مولترازيو ولكن الصواريخ كانت تنطلق على بعد سبعة أميال إلى الجنوب عبر السماء فوق كومو ، وكان دوى العيارات النارية فى شوارعها ، يصل إلى الأسماع . فقد وصل

الأمريكيون الزاحفون بسرعة عبر سهل لومبارديا إلى جبال الألب عند بيرجامو .
وعاد لويجي والكونت إلى السيارتين بعد نحو من ربع ساعة . وروى بيليني
فيما بعد قائلاً . . . « وكنت بالطبع لا أنوي المغامرة بتسليم موسوليني إلى الأمريكان »
ولذا فقد عدل عن الخطة الأصلية في نقله عبر البحيرة إلى دارة كاديما توري .
واقترح كانالي أن خير مكان أمين لإخفاء موسوليني وكلاريتا ، هو مزرعة تقع على
مقربة من بونزانيجو ، حيث يعرف فلاحاً يدعى جياكومو ، وزوجته ليادي ماريا ،
كانا يخفيان رجال المقاومة ، أثناء فرارهم من القوات الفاشية . وأضاف أن هذين
الزوجين سيخفيان الأسيرين دون أي سؤال . وأقر الكونت بيليني اقتراحه ،
وراحت السيارتان تستديران عائدتين باتجاه الشمال .

ووصل الركب إلى ازانو في الساعة الثالثة والربع صباحاً . وكان منزل
الزوجين ، يقع في مكان مرتفع على الجبل ، فطلب كانالي من الجميع ، أن
يهبطوا من السيارتين وأن يرتقوا وراءه الجبل . وسار أمامهم في طريق ضيق ، يحيط
به جدران من الصخر . وكان المطر لا يزال ينهمر بشدة ، واندفعت المياه
هابطة مع الطريق وكأنها سيل جارف وانهارت معنويات موسوليني ، فقد نفذ
الماء من « البطانية » التي التحف بها . وأمسكت كلاريتا بذراعه بعنف . وكان
القمر مشرقاً رغم السحب الكثيفة التي تحجبه ، مما أثار لهم الطريق ومكنهم من
رؤية جدران المزرعة ، بعد وصولهم إلى ضواحي بونزانيجو .

وصرخ كانالي منادياً الزوجين ، على الطريقة المألوفة عند الفلاحين في مناداة
يواناتهم . وكان هذا النداء هو العلامة المتفق عليها عند رجال المقاومة . وسرعان
ما فتح الباب ، وأطل منه جياكومو وزوجته وقد حملا مصباحاً جازياً . وتعرفا إلى
كانالي ، وأوسعا له طريق الدخول . وتبعه موسوليني الذي انهار على مقعد في
المطبخ ، وقد جلست إلى جانبه كلاريتا ممسكة بذراعه .
وقال كانالي . . . لهنما سجينتان . أرجو أن تحسنا معاملتهما ، وأن تسمحا
لهما بالنوم .

وخلف وراءه الصيادين الشابين كانتوني وفرانجي ليتوليا حراسة الأسيرين ،
ثم عاد إلى السيارتين مع الكونت بيليني وجيوسيبيينا تويدي وميشيل مورتى .

وأوقد جياكومو النار ، وقدم للأسيرين بعض الطعام . ولم يكن يعرف هويتهما وراح يسأل كلاريتا ، عازفاً عن التحدث مباشرة إلى هذا الرجل الذى تعصب الأربطة رأسه . . . « ماذا أقدم للسيد ؟ »

رتتم موسوليني هازاً رأسه ودون أن يرفع نظره عن النار المشتعلة أمامه ، وقد وضع يديه فى جيبيه « لاشئ » .

وقالت كلاريتا . . . أريد بعض القهوة من فضلك . . .

فردت دى ماريا معتذرة . . . ليس لدينا بن حقيقى ، ولكن فى وسعى أن أصنع لك شيئاً من مسحوق القهوة . . .
- لا بأس .

وراح جياكومو يعد القهوة صامتاً . ولم ينبس أى من الموجودين ببنت شفة . وسرعان ما آبت زوجته من غرفة فى الطبقة العليا ، بعد أن نقلت ولديها من سريرهما المزدوج وبعثت بهما إلى « علبة » فى أعلى المنزل . . . وقالت إن الغرفة معدة ، إذا رغب السيد فى الصعود . ولم يجر موسوليني جواباً . كما لم يتحرك من مكانه . . .
وقالت كلاريتا بنعومة . . . « الغرفة معدة ، هل نصعد إليها ؟ »

ونهض من مكانه دون أن يقول شيئاً ثم سار وراء السيدة ، صاعداً الدرج ، إلى غرفة النوم البيضاء الجدران فى الطبقة العليا ، حيث رأى سريراً كبيراً من الخشب ، يؤلف مع مقعدين من القش ومغسلة الأثاث الوحيد فيها . واتجه موسوليني إلى النافذة . وخيل لدى ماريا ، التى كانت تتبعه أنه سيحاول الفرار ، فسارعت إلى إغلاق النافذة . ومضت كلاريتا إلى السرير تحسه بيديها وكأنها فى فندق . ثم طلبت وسادة ثانية . . . وهى تقول . . . « إنه ألف النوم على وسادتين » .

وخيل إلى المرأة أن كلاريتا تحس بالخجل . وعندما أعطتها الوسادة الثانية ، تطلعت إلى غطائها بإمعان . ثم وضعتها إلى جانبها على السرير . أما الوسادتان الأخريان فقد وضعتهما إلى الجانب الآخر القريب من النافذة حيث أراد موسوليني أن ينام .

وجلس إلى سريريه الآن ، يفك رباط رأسه . ووقفت السيدة دى ماريا ترقبه .

وعندما ارتفع الرباط الأبيض عن الحبة ، بدأت تتميز فيه وجه الدوتشي المعروف لديها ، فراحت تنفّس فيه بإمعان ، مدعورة حائرة . وعندما سمعت صوت كلاريتا تسألها إذا كان في وسعها أن تستحم ، قفزت من ذهولها تقول بعصبية ظاهرة . . . « نحن كما نرين من أهل الجبال . وعليك أن تسامحينا إذا طلبت إليك النزول إلى الطبقة السفلى لتستحمي » .

وسارت كلاريتا وراءها إلى الطبقة السفلى ومنها إلى بيت صغير خارجي ، حيث اغتسلت بينما كان أحد الصيادين الحارسين يَسْتَرِقُ النظر إليها من شق في الباب . كان جسدها جميلاً ، وصدرها راقعاً ، ولذا فلم يستغرب أن يتدله موسوليني بهواها . وعندما انتهت من اغتسلها ، تبعها إلى الغرفة وطلب إليها أن تبقى على الباب مفتوحاً .

وانتهت من خلع ملابسها على ضوء المصباح الكهربائي الخافت ثم انسلت إلى السرير بجانب حبيبها . وتمتعت بوضع كلمات ، رد عليها باقتضاب ، وحاول كائنوني وفرانجي الإصغاء عبر الباب المفتوح جزئياً إلى ما قالاه ، فلم يستطيعا . وخيل إليهما أنهما سمعا اسمي « بافوليني » وجرارزاني ، وأن موسوليني قال « إني على ثقة من أنهم لن يقتلوني » . وأنه قال لها . . . « هل تغفري لي » . وعندما ردت عليه بعبارة لم يسمعها ، تناهى إلى مسامعهما قوله . . . « لم يعد هذا يهمني » . وتوقف الحديث بين العشقين ، واشتدت عصبية الحارسين ، فقد خيل إليهما أن الأسيرين يخططان للهروب . وسرعان ما فتحا الباب فجأة واندفعا إلى الغرفة . فغطت كلاريتا وجهها بملاءة السرير وأقعت بجانب موسوليني ، بينما هتف هذا بهما مؤثباً . . . « اذهبا أيها الولدان . عليكما أن لا تسلكا على هذا النحو . ولا تكونا مزعجين » . وقد لاحظا في وجهه علامة الإجهاد ، وبدت الغضون وصور اليأس واضحة فيه .

وغادر الحارسان الغرفة ، وأقعا ثانية عند بابها . وأطفأ موسوليني النور ، ولم تمض لحظات . حتى كانا يسمعان بالرغم من زئير الريح في الخارج ، وصوت انهمار المطر على النافذة ، تنفس موسوليني العميق . ونام نوماً عميقاً طيلة الليل ، وكانت درفات النافذة المغلقة قد حجبت عن أذنيه إلى حد ما هدير الرعد القاصف ، وميضات البرق الخاطفة والمتواصلة . وأغفى الحارسان الشابان عند الفجر أيضاً ،



كلارا بېناتشي عشيقه موسوليني



موسوليني يخرج من أسره
في سبتمبر ١٩٤٣



هتلر يرحب بموسوليني بعد إنقاذه في بروسيا الشرقية في سبتمبر ١٩٤٣

موسوليني في دارة فالتر بيني في عام ١٩٤٥





دی دویر و بار پشی -- وجوتاری و شبانو و مارنیلی یثتظرو تیفید حکم الإعدم فیهم

جشٹ موسوینی ورفاقہ معنفۃ فی کراچ لورانیو فی میلان فی ۲۹ اپریل ۱۹۴۵



الكولونيل فاليريو

من ٢٧ إلى ٢٨ أبريل ١٩٤٥

« مهما كانت نفسى ومعتقداتى تشمئز من قتل إنسان لإنسان آخر فإننى أجد على أى حال ، أن العنف من القاعدة رداً على العنف من القمة ، أمر ضرورى ، بالرغم من استشارته للأسف . وعندما تسد جميع الطرق ، على المرء أن يفتح له منفذاً ، حتى ولو كان الدم هو الثمن » .

عندما انتشر نبأ اعتقال موسوليني فى الليلة السابقة ، تنادى مختلف أعضاء لجنة التحرير الوطنى لشمال إيطاليا ، والممثلون الرئيسيون لفيلق متطوعى الحرية إلى اجتماع عقده فى ميلان .

وتنضارب الروايات عن هذا الاجتماع الذى عقد بعيد الساعة الحادية عشرة وتتناقض . والشئ الثابت والمؤكد على أى حال ، هو أن القرارات التى اتخذت فى لحظات مختلفة من تلك الليلة ، صدرت عن ستة رجال أو سبعة باسم لجنة التحرير الوطنى ، ولم تصدر عن اللجنة بكاملها . وكان اثنان من هؤلاء الرجال هما لويجي لونجو الشيوعى الصادق الذى بذل غاية الجهد ، ليجعل من حركة المقاومة السرية ، حركة سياسية ، وولتر أوديسيو وهو رجل طويل القامة ، شاحب الوجه ، فى السادسة والثلاثين من عمره ، كان يعمل محاسباً ثم تطوع فى الحرب الأسبانية ضد الفاشيين ولقب نفسه « جيوفان باتيستا دى سيزارى مانولى » ، أو بالاسم الأسهل على اللفظ وهو « الكولونيل فاليريو »

وكان قد تقرر بحضور عدد من الأعضاء الأقل التزاماً من الناحية السياسية والأصنى ضميراً ، العهدة إلى وولتر أوديسيو بأن ينقل موسوليني إلى ميلان . ولكن دقائق هذه المهمة سرعان ما بحثت بعد ذهاب الأعضاء الآخرين . وتضمنت هذه

« الدقائق » أن يحمل موسوليني إلى ميلان ميتاً . وكان أمر الإعدام قد صدر في الواقع عن باليرو توجلياني ، بموجب صلاحياته ، كما قال هو فيما بعد ، في حديث لصحيفة « أونيتا » الشيوعية التي تصدر في ميلان ، كزعيم للحزب الشيوعي ، وفائب لرئيس وزراء إيطاليا . واعترف توجلياني بأن هذا الأمر قد نص على إعدام موسوليني وجميع وزرائه فور اعتقالهم ، وتمييز هوياتهم ، لكن سر هذا الأمر لم يكشف أبداً للأعضاء غير الشيوعيين في لجنة التحرير الوطني ، الذين اعتبروا أنفسهم ملزمين بتنفيذ نصوص الهدنة التي قضت بتسليم موسوليني إلى الحلفاء . وذكر إيفانو بونومي ، الذي خلف بادوليو في رئاسة الوزراء ، أنه لم يسمع بهذا الأمر قط . لكن الأعضاء الشيوعيين في اللجنة كانوا أقوى الأعضاء على أي حال ، وكان بعضهم يعطف على آراء لجنة بيدمونت التي تطرقت في قراراتها ، فأعدت قانوناً خاصاً بها للعقوبات لا يقضى باعتبار جميع أعضاء حكومة موسوليني فقط بل جميع الفاشيين الآخرين مجرمين بتهمة « القضاء على الحرية » ، وينص على إعدامهم دون محاكمة إذا لم يسلموا أنفسهم قبل إعلان الثورة العامة في شمال إيطاليا .

وجرت ثلاث محاولات لتجنب مثل هذا الإعدام السريع لموسوليني ، قام الأمريكيان باثنتين منها ، وقامت حكومة الجنوب الثالثة ، في محاولة للعثور على مكانه . لكن هذه المحاولات الثلاث منيت بالفشل ، وإن كان أعضاء لجنة ميلان الذين قرروا قتله ، قد عرفوا أن هناك محاولات أخرى في حريق الإعدام . وطارت برقية في الساعة الثالثة صباحاً من ميلان إلى مقر قيادة الحلفاء في سينا هذا نصها « تأسف لجنة التحرير الوطني لعجزها عن تسليم موسوليني الذي حوكم وأعدم أمام محكمة شعبية في نفس المكان الذي قتل فيه الفاشيون خمسة عشر وطنياً إيطالياً » . ولم تمض ساعة حتى كان الجنرال كادورنا يسلم أوديسيو ، جواز مرور حصل عليه بمساعدة الدكتور جراستوني الذي يعمل وسيطاً بين المقاومة السرية والجيش الأمريكي ، من النقيب (الكبتن) إميليو داداريو من الجيش الأمريكي والذي يعمل ضابط ارتباط مع اللجنة . وكان قد اشترك في إحدى المحاولتين الفاشلتين للعثور على موسوليني . وكان نص الجواز الذي كتب بالإنجليزية على النحو التالي :

« إن الكولونيل فاليريو المسمى بمافولى جيوفان باتيستا دى سيزارى ، ضابط إيطالى ، ملحق بالقيادة العامة لتطوعى الحرية . وقد أوفدته لجنة التحرير الوطنى لشمال إيطاليا ، فى مهمة إلى كومو ومقاطعتها ، ولذا يجب السماح له بالتجول بحرية مع حراسه المسلحين . . . التوقيع اى . كيو . داداريو - النقيب » .

وغادر أوديسيو ميلان فى سيارة صغيرة فى الساعة السابعة من صباح الثامن والعشرين من أبريل متدريجاً بهذا الجواز ، وبجواز آخر يحمل شعار النجم الذى الخمسة الرؤوس وهو شعار فيلق متطوعى الحرية . ورافقه فى سيارته الدولامبريدى ، العامل الذى يحمل أيضاً رتبة عقيد فى فيلق متطوعى الحرية ، وخلفهما سيارة شاحنة تحمل اثني عشر رجلاً من رجال المقاومة يقودهم ريكاردو موردينى الذى كان محارباً أيضاً فى اللواء الدولى فى أسبانيا . وكان الجميع مسلحين بمدافع ستين أو بريتا الرشاشة ، ويرتدون ملابس الخاكى التى لا تحمل أية شعارات مميزة ، لا ملابسهم العادية التى كانوا يعضون بها فيما سبق إلى مثل هذه المهمات . وكان أوديسيو يرتدى معطفاً طويلاً واقياً من المطر ، وبني اللون ، وقد لف عنقه بوشاح مثلث الألوان إذ يضم الأحمر والأخضر والأبيض .

ووصل إلى كومو فى الساعة الثامنة ، وراح يقفز بسرعة من سيارته ، ويصعد الدرج راكضاً إلى دار المحافظة يرافقه الدولامبريدى . وكان جينوبير تينيللى المحافظ الجديد ، أول شخص رآه فى البناء . ولاحظ المحافظ حالته العصبية المضطربة ، وطلب منه أن يرى أوراقه . وراح أوديسيو يخرج بشئ من الثورة ، الجواز الموقع بختم فيلق متطوعى الحرية . ولكن بيرتينيللى ، وكان قد رأى العشرات من هذا الجواز فى الأيام الأخيرة ، لم يهتم به . وأخرج أوديسيو الجواز الموقع من داداريو ، فكان له تأثير أكبر على المحافظ . ولكنه قبل أن يعد بمعاونته ، أراد أن يعرف بالضبط ، حقيقة مهمته . وعندما قال له إن مهمته تنحصر فى نقل موسولينى والفاشيين الآخرين الذين اعتقلوا فى دونجو إلى ميلان ، ازداد تحفظ بيرتينيللى . وكان يعرف أن رجال المقاومة السرية المحليين فى كومو ، ما كانوا يرغبوا فى أن يحرمهم هذان « العقيدان » المجهولان القادمان من ميلان من شرف اعتقال مثل هذا الأسير الثمين . وكانوا قد أعدوا سجن سان دونينو فى كومو لاستقبال موسولينى

كما أعدت الترتيبات اللازمة لنقله إليه .

وتقول إحدى الروايات المتناقضة والمتعددة التي صدرت عن أوديسيو فيما بعد عن أحداث ذلك اليوم ، إن قلق بيرتينيللى ورفاقه وحرصهم الواضح على عدم التفريط بشيء قد حسرا النقباب « عن مظاهر الغيرة الوضبة التي تعكسها الروح البورجوازية » . وتحول الحديث عند الساعة العاشرة إلى مناقشات حادة . وعجز أوديسيو على أى حال عن إقناع بيرتينيللى أو أعضاء لجنة كومو للتحرير الوطنى بالتساهل ، وطلب أن يرى البارون ساردانا ، ولكن البارون كان قد اختفى ولم يستطع إنسان معرفة مكان وجوده . وطلب أن يتحدث هاتفياً إلى ميلان ، وراح يحرك مسدسه بغضب ، وهو يطلب إليهم مغادرة الغرفة ليجرى مكالمته . وانطلق زميله العقيد الدولامبريدى ، وريكاردو موردينى قائد الحرس المرافق له ، أثناء حديثه مع ميلان باتجاه دونجو ، دون أن يتركاه له أية رسالة .

وتم الوصول أخيراً إلى حل وسط . واتفق على أن يتسلم أوديسيو الفاشيين مقابل وصل يوقعه ، كما اتفق على أن يأخذ معه ما يشاء من وسائل النقل التي يحتاج إليها إلى دونجو ، شريطة أن يرافقه إليها ممثلان عن لجنة كومو للتحرير الوطنى . وهكذا تأهب أوديسيو أخيراً وفى الساعة الثانية عشرة والربع لمغادرة كومو . وانضم إلى الركب فى اللحظة الأخيرة على أى حال ، المقدم جيوفانى ديس من ضباط المخابرات الإيطالية ، وكان الأمريكان قد طلبوا منه أن يعثر لهم على موسولنى ، ومعه عميل آخر للأمريكان يسمى « كارليتو » . وكان صبر أوديسيو قد نفذ فى هذه اللحظة وقرر أن لا يسمح لأية عقبة جديدة بأن تقف فى طريقه وعندما توقفت السيارة التي كانت تقل « العميلين » الأمريكيين فى ضواحي البلدة لتتروى بالوقود ، راح يمر بجانبهما مسرعاً ويأمرهما والمدفع الرشاش فى يده ، بالهبوط من السيارة ، فانصاعا لأمره الصارم متدمرين .

وعندما تخلص على هذا النحو من رفيقيه اللذين لا يرغب فى رفقتهم راح أوديسيو يتبعه ممثلاً لجنة كومو ، يسير بسرعة فى طريق دونجو ، وحصل فى الطريق على عربة كبيرة مغطاة ، وراح يدخل بها فى الساعة الثانية والدقيقة العاشرة ومعه حراسه ، ميدان دونجو .

وظنهم رجال المقاومة في دونجيو من الفاشيين الفارين ، أو رجالا يقومون بمحاولة لإنقاذ من لديهم من المسجونين ، فأطلقوا عليهم النار .

وصرخ أوديسيو بأعلى صوته وسط الميدان ، ملوحاً بيديه فوق رأسه . . . أنا قادم من القيادة العامة . من القائد هنا ؟ أرجو أن تجمعوني به فوراً .

وجاءته رسالة بعد لأي اعتبرها في منتهى الحماسة . فقد ذكرت أن قائد المقاومة موجود في دار البلدية ، وأنه إذا أراد العقيد أن يراه ، ففي وسعه أن يمضي لرؤيته هناك . وفقد أوديسيو زمام السيطرة على أعصابه . وراح يصرخ غاضباً ، بأنه أصدر أمراً ، وأنه يريد منهم أن ينفذوه . وراح يقطع الميدان إلى دار البلدية ، يحيط به حراسه ، ونزل الكونت بيليني السلم للقائه ، قائلاً إن في وسع العقيد أن يدخل ، أما الحراس فيجب أن يظلوا في الخارج .

وبجد أوديسيو زميله ألسو لامبريدي في مكتب الكونت بيليني في دار البلدية . فأمره بمغادرة المكان لأنه يريد التحدث إلى الكونت على انفراد . وكان الحديث بين الرجلين فاتراً ومفتقراً إلى الود ، وإن كان أوديسيو قد تمكن أخيراً من إقناع بيليني بأن ممثلي لجنة التحرير الوطني في كومو هما من المشتبهين بالفاشية . وبالرغم من أنه وافق على اعتقالهما ، إلا أن بيليني لم يوح لأوديسيو بأنه سيكون أكثر تعاوناً من بيرتينيلي ، محافظ كومو . وكان عازماً على أن لا يدفع دفعة إلى القيام بعمل قد يأسف له في المستقبل ، وروى أوديسيو فيما بعد ، أنه اضطر إلى الحديث بمنتهى الصراحة في النهاية إلى قائد المقاومة الشاب . وروى أجد رجال المقاومة ويدعى سودي جنيسي ، وكانت شقيقته خلية لبيليني ، أنه رأى العقيد الميلاني ، يقدم إلى الكونت مظروفاً أصفر اللون ، فيه ورقة واحدة موقعة من عضو واحد من أعضاء لجنة التحرير الوطني لشمال إيطاليا ، وقد كتبت فيها العبارة التالية . . . « يحول العقيد فاليريو ، بأن ينقل إلى ميلان ، مجرم الحرب ، بنيتو موسوليني » . وعندما سمح لرفاق بيليني من رجال المقاومة ، بالعودة إلى الغرفة التي كان النقاش دائراً فيها ، تخلى أوديسيو عن كل ادعاء وتظاهر ، وأعلن لهم عزمه الحقيقي قائلاً . . . « جئت لأقتل موسوليني ، والقادة الفاشيين » .

وروى بيليني فيما بعد ، أنه أصيب ورفاقه بما يشبه الذهول . واحتج الكونت

أخيراً بأن خطه أوديسيو « شاذة للغاية » . وأضاف أنه اتفق في ذلك الصباح مع لجنة التحرير الوطني في كوهو على نقل موسوليني وجميع الفاشيين إلى هناك . ثم راح يتساءل . . . فما الذى تعنيه هذه الخطة الجديدة بقتلهم جميعاً في دونجو . وهو بوصفه القائد المحلى لمقاومة السرية ، لا يستطيع السماح بذلك أبداً . واستمر النقاش حتى الساعة الثالثة بعد الظهر عندما فكر الكونت بعذر قد يتبع له بعض الوقت . إذ لما كان بعض السجناء الفاشيين في جيرماسينو ، فهو يقترح أن يذهب إلى هناك لإحضارهم . وكان واثقاً من أنه هو وحده ورفيقه ميشيل موريتي ولويجي كانالى يعرفون فقط مكان موسوليني ، وكان يعتقد أن أوديسيو لن يستطيع اكتشاف مخبئه أثناء المدة التى سيقضيها بعيداً عن دونجو .

لكنه كان مخطئاً . فقد كان موريتي وكانالى في دار البلدية عندما غادرها ، وكانا من غلاة الشيوعيين . وكان موريتي أيضاً ، يعرف العقيد الآخر القادم من ميلان ، وهو ألدو لامبريدى تمام المعرفة ، إذ سبق لهما أن ناضلا معاً في الماضي . ولم تمض عشر دقائق على رحيل الكونت بيليني ، حتى كان العقيدان أوديسيو ولامبريدى ، يقودان سيارتهما بسرعة خارجين من دونجو . وكان ميشيل موريتي ، يجلس في المقعد الأمامى ، إلى جانب السائق^(١) .

(١) لا ريب في أن التاريخ اللاحق هؤلاء الرجال ، يتلى أسوأ كثيرة . فرولتر أوديسيو المسى « بالكونيلى فاليريو » . من الأعضاء البارزين في الحزب الشيوعي ، وهو عضو في مجلس النواب الإيطالى . أما ألدو لامبريدى المسى « جيدو » ، فما زال حياً ، ولكنه رفض أن يتحدث عن أحداث ذلك اليوم التى أسفرت عن مقتل موسوليني . أما ميشيل موريتي ويسى « بيترى جاني » ، فقد تضاربت الأقوال عن مصيره وذكر بعض الكتاب أنه مات كما ذكر البعض الآخر أنه يعيش في الخارج حياة مرفهة ، على حصة من غنيمة دونجو ، ولكنه لا يزال يعيش في الواقع حياة البساطة والفاقة في ضواحي سينزو بيو . وما زال الرجل عضواً في الحزب الشيوعي ، ولكنه يرفض الحديث عن الموضوع . وهناك جيوسيبي فرانجي المسى « لينو » ، وقد تحدث إلى عدد من الناس ، بعد موت موسوليني ثم مات هو ميتة غامضة في الخامس من مايو عام ١٩٥٤ . ومات مثل هذه الميتة الغامضة كثيرون من الذين اشتركوا في أحداث ذلك اليوم . « المؤلف »

الوفاة في دارة بيدمونتي

٢٨ أبريل ١٩٤٥

« ليس ثمة من يستطيع تحلى القدر مرتين ، ويموت كل إنسان المينة التى تطلق مع شخصيته » .

١

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بقليل ، عندما قطع حبل الصمت الخيم على غرفة النوم في مزرعة دى ماريا ، صوت خطوات عجل تذرع ساحة الدار في الخارج . واقتحم المنزل رجل طويل القامة ، يرتدى معطفاً بنياً واقياً من المطر ، ليصعد الدرج مسرعاً . وسرعان ما دفع باب غرفة النوم ، واندفع الرجل إلى الداخل .

وفوجئ موسوليني بالرجل يقول له . . . « هيا ، جئت لإنقاذك » .
ورد موسوليني بسخرية واضحة ، مغتصباً لأول مرة في ذلك اليوم ابتسامة هائجة ، وهو يتطلع إلى الرجل الطويل النحيل ، الذى يحمل المدفع الرشاش في يده . . . « حقاً ! يا لك من رجل كريم ! »
وسأله أوديسيو : هل أنت مسلح !
- لا .

وابتعد أوديسيو بنظره عنه ، وتطلع إلى كلاريتا التى كانت لا تزال مستلقية على السرير ، وقد أزاحت بوجهها إلى الحائط . . . وقال لها الرجل . . . « وهنا أنت أيضاً . أسرعى . أسرعى . . . »

وخرجت من السرير ، وشرعت تبحث عن شيء بين الملابس .
وسألها أوديسيو غاضباً : « عم تبحثين ؟ »
- ابحث عن لباسى .

- لا تضيعى الوقت بالبحث عنه . هيا .

وتركت الفراش . وبينما كان موسوليني يرتدى سترته العسكرية ، التقطت يدها حقيبتها ، وحقيبة أخرى على شكل دلو . وسأل موسوليني منقذه المزعوم عن ولده فيتوريو ، فأجابه بأنه قد أنقذ أيضاً . وسأل عن زيرينو وميزاسوما ومكانهما ، فقال أوديسيو لأننا نبحث عنهما أيضاً .

وروى أوديسيو ، أن موسوليني صدرت عنه تهيدة تحمل طابع الارتياب . ومضى الرجل يقول هيا ، هيا ، وراح يدفعهما على السلم ، في لفته للخلاص من المنزل .

ورأهم ليا دى ماريا من النافذة ، وهم يتعدون إلى الطريق ، فرسمت إشارة الصليب على صدرها ، إذ أنها أحبت تلك المرأة ، كما أحبا الصيادان الحارسان أيضاً ، وأعجبت بشجاعتهما . وعادت السيدة إلى الغرفة وراحت تعد السرير ، فوجدت آثار الدموع على وسائده وعلى ملأءاته النظيفة التي كانت قد وضعها في الليلة الفائتة .

ولم تكن كلاريتا تبكي الآن ، ولكن عينها كانتا حمراوين ، وتورم جفناها ، وأمسكت بذراع موسوليني بقوة ، وهي تتعثر في خطاها ، في الطريق الضيق . من جراء كعب حذاءها العالى ، حاملة حقيبتها ، مع معطفين ، أحدهما من الفراء ، والآخر من وبر الجمال على ذراعها . لكنه لم يكن قادراً الآن على إسنادها . وتعثر في مشيته أيضاً في الدرب الضيق ، ومد ذراعه إلى الجدار يستند إليه ، وحاولت لإيه أن تساعد ، فدفعها عنه غاضباً ، كما يفعل المشلول ، إذا أراد أحد مساعدته . ولم ينبس أحدهما ببنت شفه .

ومضى بهم دليلهم إلى القرية ، وعندما كانوا يمرون في ساحتها ، كانت هناك ثلاث من النسوة يغسلن ملابسهن ويضربنها بعنف على صخرة الغسيل . فتطلعن إلى الجماعة الصغيرة . وكان فلاح عجوز ، يهبط سفح الجبل وقد حمل سلة على ظهره ، بينما كانت هناك امرأة تدلف على الطريق ، ومعها طفل صغير . كان هادئاً ، وكان المطر قد انقطع .

واستلّاروا نحو الشمال من الساحة ، ثم ساروا تحت قوس إلى الشارع المعبد ، حيث كانت السيارة في الانتظار . وكانت السيدة روزيتا بارباريتا ، تقود كلبها

في سيارة ، وعندما وصلت إلى السيارة ، مضت نحوها لتتحدث إلى سائقها المسمى جيمينازا . وكان الرجل حاد الطبع ، وغير راغب في الحديث إذ صدرت إليه الأوامر بأن يكون حذراً كل الحذر . وكانوا قد قالوا له . . . « سترى عما قريب أناساً لا بد أن تعرفهم وتميزهم . ولكن عليك أن تنسأهم فوراً . أما إذا لم تنسأهم ، فإنك لا تكون بذلك قد فقدت ذاكرتك فقط بل حياتك أيضاً » .

وعندما فارقت السيدة بارباريتا ، صادفت في طريقها جماعة من الناس ، متجهين إليها . وقال الرجل ذو المعطف البني : « أبعدي . أبعدي » . وهكذا تراجعت بسرعة من طريقهم . وخيل إليها أنهم يتناقشون مناقشة حادة ، وإن لم تستطع فهم ما يقولونه . ورأت امرأة تضم بذراعها عنق رجل عجوز يدفعونه دفعاً وبخشونة إلى السيارة .

واتجهت السيارة في طريق القرية لتستدير في اتجاهها في ساحتها العامة ، وعندما عادت السيارة ومرت بها ، تبينت السيدة بارباريتا في الرجل العجوز وجه موسوليني . وكان هو وكلا ريتا وحيلدين مع السائق في داخل السيارة ، أما رجل المعطف فقد جلس فوق دولاب السيارة بينما جلس الرجلان الآخران على مقدمتها . وعندما تحركت السيارة ببطء صاعدة الجبل ، راح الحارسان الصيادان ، كانتوني وفرانجي يركضان خلفها .

وكان في وسع السائق جيمينازا أن يرى الأسيرين في مرآة سيارته . وكان في وسعه أيضاً أن يرى الحارسين الراكضين خلف سيارته . . . وقال بعد سنوات . . . « كانت كلاريتا تلتصق بموسوليني ، ويكاد رأساهما يتلاصقان . وكان موسوليني شاحب الوجه بينما كانت كلاريتا هادئة كل الهدوء . وبدلاً من أنه لم تظهر عليها أية علامة لحرق . . . ووقفنا عند مدخل دارة بيدموتني » .

كانت دارة كبيرة ، تقف وراء سور عال يفصلها عن الطريق . وكانت هناك عائلتان من الذين جلوا عن أماكنهم الأصلية ، تعيشان فيها ، ففيها بيرناردو

بيليني المهندس وزوجته ، ورينالدو أوبيزى وزوجته أمنيًا وطفلتها ليليا وبيانكا .
وعندما وقفت سيارة أوديسيو خارج بوابة الدارة الحديدية ، كانت السيدة بيليني
تجلس على شرفة الدارة متطلعة إلى البحيرة أمامها . وكان زوجها داخل البيت
يستمع إلى الإذاعة مع رينالدو أوبيزى . وفي الحديقة كانت ليليا تقرأ في كتاب
تحمله بينما كانت خادمة بيليني ، جوسيبينا كوردازو ، تعمل في تعشيب أحد
أحواض الزهور . وسرعان ما سمعنا صوتاً يصرخ ... ادخلا ... ادخلا إلى
البيت .

ورأت تيريزا بيليني ، رجلاً ضخماً الجسم يخرج من السيارة وهو يضع على
رأسه كما تصورت طاقية سوداء ، ويحمل طرف سترته في يده . وتقول إنه بدا لها
في صورة « أحد أبناء الجبال ، يمسك طرف خرجه » .

وأمر أوديسيو كلاريتا بأن تخرج من السيارة وراء موسوليني . وراه السائق
وهو يصوب مدفعه الرشاش إليهما ويتم بوضع كلمات . واعتقد السائق أنه
كان يردد أمراً صدر إليه ببعدهما ، لكنه لم يتأكد من ذلك ، لأن كل شيء
حدث في سرعة عجيبة . ووقف موسوليني جامداً لا يتحرك ، بينما فقدت كلاريتا
زمام السيطرة على أعصابها ولقت موسوليني بذراعيها ، وهي تقفز هنا وهناك صارخة ..
« لا . لا تفعل ذلك . عليك أن لا تفعله » .

وقال العقيد بصوت وصفه السائق بأنه كان « جافاً وشديد العصبية » ...
دعيه وشأنه ، وإلا قتلته معه ، ولكن كلاريتا لم تأبه بما قاله ، وظلت تقفز بجذون
وهي تتعلق بموسوليني . وأطلق أوديسيو الزناد ، وهجمت كلاريتا عليه تمسك بفوهة
المدفع الرشاش بيديها وهي تصرخ .. « ليس في وسعك أن تقتلنا على هذا النحو » .
وأطلق أوديسيو النار مرة ثانية . ورأى السائق العرق يتصبب من جبينه .
وأطلق الزناد للمرة الثالثة ، ولكنه لم ينطلق ، فانتفضي مسدسه من جيبه ، فلم ينطلق
أيضاً فهتفت بموريثي صارخاً ... « أعطني مدفعك » . وأعطاه موريثي مدفعه
الرشاش الفرنسي الصنع ، وصوبه أوديسيو على موسوليني الذي واجهه بكل هدوء
ممسكاً بطرف سترته وقال ... « أطلق النار على صدري » . وسمع السائق هذه
العبارة بوضوح ، فقد كانت آخر عبارة صدرت عن موسوليني .

٣

قتلت الطلقة الأولى التي صدرت عن مدفع موريتي كلاريتا ، التي هوت إلى الأرض ، لا تحير حراكاً . وأصابته الثانية موسوليني الذي تراجع إلى سور الدارة الحجرى ، حيث هوى ببطء إلى الأرض بعد أن عجزت ساقاه عن حمله . ولم تقتله الإصابة ، فقد ظل يتنفس تنفساً ثقيلاً . وتقدم أوديسيو منه فأطلق النار من جديد على صدره ، واختلجت الروح في جسد موسوليني بعنف ثم هدأت . وتطلع إليه أوديسيو صامتاً لحظة ثم قال للسائق . . . « انظر إلى تعابير وجهه ، ألا ترى أنها تناسبه » .

وتقدم موريتي منهما وأشار إلى جيمينازا وكأنه يقول . . . « لا يمكن دفع حوادث القضاء والقدر » . وقدم أوديسيو إليهما سيجارتين ، فتناول السائق إحداهما ، وإن لم يكن قد ألف التدخين من قبل . كان يحس برعب شديد وتصور أن التدخين سيهدئ من تأثيره . وساعد الرجلين في التقاط الخراطيش الفارغة من الطريق ، ثم استقل السيارة ، ليقود العقيد وميشيل موريتي في الطريق إلى دونجو . وظل الصيادان يحرسان الجثتين . وكانت الساعة الرابعة والدقيقة العشرين .

وقد وقع كل هذا في أقل من دقيقة . ولم تكد السيارة تمضى في طريقها ، حتى دوى هزيم الرعد ، ثم انهمر المطر بشدة .

وسمع سكان الدارة أصوات الطلقات النارية ، وعددها عشر طلقات ، لكن السور المرتفع حال بينهم وبين رؤية ما وقع . ونظاهرت الخادمة جيوسيينا ، برغبتها في التقاط بعض الأزاهير ، وراحت تختلس النظر ، عبر الباب ، ولكن صرناً ، صرخ بها قائلاً . . . « أبعلى . أبعلى » ، فابتعدت دون أن ترى شيئاً .

وعاد جيمينازا بسيارته إلى المكان من دونجو ، حيث كان أوديسيو قد أشرف

على إعدام خمسة عشر رجلا من الذين اعتقلوا في موسكو^(١) . وحمل جثتي موسوليني وكلاريتا في المقعد الخلفي ثم مضى بسيارته تحت المطر المنهمر إلى الطريق الرئيسي الممتد إلى أوزانو . وكانت السيارة الكبيرة تنتظر هناك لنقل الجثتين إلى ميلان ، وسرعان ما قذف بهما فوق الجثث الأخرى .

(١) كان خمسة عشر الذين تم إعدامهم . . . مارسيلو بيتاتشي ، وفيرلاندو ميزاسوما ، رينقولا بومباكي ، واليساندرو بافوليني ، وباولو زيربينو (وزير الداخلية) ، وروجيرو رومانو (وزير الأشغال العامة) وأوجستو ليفيراني (وزير المواصلات) وباولو بورتا (مفتش الحزب الفاشي في لومبارديا) ، ولويجي جيتي (سكرتير موسوليني) وألفريدو كويولو (رئيس معهد الثقافة الفاشية) ، وإيرنستو داكوانو (مدير وكالة ستيفاني للأثباء) وماريو لودي (رئيس اتحاد المزارعين الفاشيين) ، والعقيد فيتو كاسالينوفو وبيتر و سالوستري (ضابط برتبة نقيب في السلاح الجوي) وهينريماير (من رجال الإعلام) .

ميدان لوريتو

٢٩ أبريل ١٩٤٥

« أريد أن تكتبوا على قبرى . . . هنا يرقد واحد من أكثر الحيوانات التى ظهرت على وجه البسيطة ذكاء » .

وقفت سيارة نقل الموتى فى الساعات المبكرة من صباح التاسع والعشرين من أبريل عام ١٩٤٥ ، بعد أن اجتازت عدة حواجز طرق أمريكية ، أمام مرآب (كاراج) ، لم يكتمل بناؤه ، فى ميدان لوريتو البحرى ، حيث كان الألمان قد أعدوا خمسة عشر من الزهائن قبل نحو من تسعة شهور . وكان اليوم من أيام الآحاد . وأخرجت الجثث من السيارة ، وألقيت على الأرض فى شكل مضطرب حتى الفجر ، عندما قام أحد المارة ، بترتيبها فى شكل منظم . وقد وضع هذا الرجل جثة موسولينى على بعد من الجثث الأخرى وألقى برأسه على صدر كلاريتا . وجاء شابان ، فراحا يركلان موسولينى بأقدامهما بمنتهى القسوة . وعندما خلفاه فى مكانه ، كان وجهه قد تبدل وتشم . وكان فيه مفتوحاً وانفرجت شفته العليا عن أسنانه وكأنه يريد أن يخطب . ووضع أحد المارة عصى فى يده ، لف أصابعه حولها .

وعندما حلت الساعة التاسعة ، كان حشد غفير من الناس ، قد تحلق حول الجثث ، وكان أفرادهم يصرخون ويقفزون ، لأن كلا منهم يريد أن يرى المنظر أمامه . وكان بعضهم يشتم ويلعن ، والبعض الآخر يطلق النار من المسدسات والبنادق على الجثث ، بينما كان البعض الثالث يتطلع واجماً ، وقد ظهر على نفر منهم الرضى ، وعلى البعض الآخر الاشتزاز المصحوب بالإشفاق . ووقف بعض الناس يضحكون ضحكاً هستيرياً . وأطلقت سيدة خمس طلقات من مسدسها على جثة موسولينى « لتأثر لأولادها الخمسة القتلى » . وارتفع عدد النظارة ، وتكاثر الازدحام والتدافع ، حتى إن الواقفين فى المقدمة ، دفعوا دفعاً فوق الجثث ، مما اضطر حراس الجثث من رجال المقاومة السرية إلى إطلاق النار فوق الرؤوس

لإرهاباً ، لإبعاد الناس عنها ، وإلى تصويب خراطيم المياه إليهم ، لتفريقهم .
وهتف رجل ضخم الجثة من رجال المقاومة ، وقد انتشر الدم على ذراعيه
العاريتين صارخاً بالناس . . . « من الذى تريدون رؤيته » .
ورد رجل من النظارة . . . بافوليني . . . وقال آخر « بومباكى » ، وارتفعت
أصوات عدة . . . « موسولينى . بيتاتشى . . . بوفارينى جيدى » . وكان الرجل
يرفع كل واحد منهم بدوره ، وقد وضع يديه تحت ذراعى الجثة رافعاً إياها فوق
الرؤوس .

وصرخت الجماهير . . . ارفعها أيضاً . . . ارفعها . . . فنحن لا نرى . . .
ونطلق صوت يقول بلهجة آمرة . . . علقوا الجثث .
وسرعان ما سجد بالحبال ، وشدت حول معاصم الجثث . وارتفعت جثة موسولينى
أولاً من رجلها ، وشدت إلى سقف المرأب ، وقد تلى رأسه إلى الأرض . كان
وجهه ملطخاً بالدم ، وفه لا يزال مفتوحاً . وهتفت الجماهير هتافات مجنونة ،
وبصق الواقفون في الطليعة على الجثة ، كما أخذ بعضهم يقذفها بكل ما يصل إلى
متناول يده من فاذورات . وقد أرغم أخيل ستراشى على الوقوف في سيارة شاحنة
يشهد هذا المنظر ، ثم جر جراً إلى جدار حيث أطلقت النار عليه ، ورفعت جثته
لتلقى فوق كومة الجثث في انتظار دورها لترفع وتعرض على النظارة .

ورفعت جثة كلارينى بيتاتشى ، بعد جثة موسولينى . وزعفت بعض النسوة ،
وسرعان ما خيم صمت غريب على الميدان ، استمر بضع ثوان ، بعد تعليق
الجثث . أجل فقد توقف الصرخ والهتاف ، وهدأت الوجوه المتطلعة ، وساد المكان ،
كما روى أحد المشاهدين ، وجوم غريب ، فيه جمود ، وفيه توقع ، وكأن الجميع
يعيشون في حلم لا بد من إفاقتهم منه ليروا العالم وقد تبدل . وبدا وكأننا كلنا ،
قد اشتركنا لبضع ثوان في إدراك حقيقة واحدة ، وهى أن الدوتشى مات أخيراً ،
وأنه ذبح دون محاكمة . ومرت بنا لحظات ، خيل إلينا فيها أن علينا أن نوفر للجماهير ،
مظاهر التكريم التى تليق بالأبطال ، والصلوات التى يستحقها القديسون بدلاً من
الإهانات والشتائم .

لكن هذه الحالة النفسية سرعان ما تبدلت . فقد هوى ثوب كلارينى بعد

تعلقها من رجلها ، وتكشف فخذها العاريان ، وتقدمت إحدى النساء وقد وقفت على صندوق من الخشب تمزق بيديها لباسها ، فازفع صراخ الجماهير وزئيرها . وتقدم رجل من الجثة ودس فيها ببشاعة ، عصي يحملها في يده ، فراحت تتحرك وتدور وتلتوى ، وكأنها تضم عشيقة . ولكن وجه كلاريتا لم يكن جامداً ، فقد أخذ الرجال بجماعها الذي لم تحجبه الدماء . وكانت عيناها قد أغمضتا ، وبدأت هادئة . . . وناعمة . . . وكأن البسمة على وجهها .

أما ملامح موسوليني المعبدة فلم تتكشف عن مثل هذا الرضى . وخيل إلى بعض الناس أنهم رأوا حول شفتيه المتورمتين ، وفي عينييه الجامدتين نظرة يأس وقنوط . لكن الآخرين لم يروا فيه إلا صورة مرعبة لوجه لطخته الوحول والدماء .

المصادر

مصادر عامة :

تعتبر الدراسة التي أعدها جيورجيو بيني ودويليو موسمبيل ، تحت عنوان « موسوليني ، الرجل والعمل » والتي تقع في أربعة مجلدات ، أكثر الدراسات شمولاً عن حياة موسوليني ، وقد عثرت فيها على معلومات قيمة عن حياته في جرجنانو .

وهناك دراسة حديثة أخرى تقع في مجلدين أعدها مينوكاردانا تحت عنوان « ابن الحداد » ، ولكنها لا تضيف شيئاً ذا أهمية على المؤلف السابق ، كما أنها تفتقر إلى الدقة ، وإن تضمنت تفاصيل لم أجدها في مكان آخر .

وهناك كتاب « موسوليني - حياته الشخصية » لباولومونيللي ، ويعتبر أحسن تلخيص لحياته كتب حتى الآن . وقد روى المؤلف وهو صحفي خبير ، ما سمعه من كثيرين قابلهم عن حياة موسوليني .

أما كتاب « موسوليني » لريشارد ويشترينج ، فصورة معبرة للرجل كما يراها رجل ألماني . وهناك كتاب « موسوليني » لجورج رد ، وهو أحدث ما كتب عن حياته ، ويعتبر دراسة تفصيلية وإن تضمن تفسيرات غامضة لبعض الحقائق . ولا يعتبر كتب « حياتي » الذي وضعه موسوليني نفسه مهماً إلا كوثيقة نفسية . وهناك كتاب إميل لودفيج « أحاديث مع موسوليني » وقد سجل فيه عدة مقابلات وأحاديث مهمة أجراها معه .

ومن أحسن الكتب الأولى التي وضعت عن موسوليني كتاب « حياة بنيتو موسوليني » لمجربتا سارفاقي ، التي عرفته معرفة وثيقة ، وظلت تعجب به إعجاباً عميقاً حتى استأثرت كلاريتا بيتاتشي بكل اهتمامه .

ولعل خير ما كتب كدراسة علمية عن الفاشية الكتاب الذي وضعه أويجي سالفاتوريللي وجيوفاني ميرا بعنوان « تاريخ إيطاليا في الحقبة الفاشية » . وهناك كتاب « إيطاليا » لمؤلفه دنيس ماك سميث .

مصادر القسم الأول :

- ١ - كتاب « موسوليني في طريق التكوين » لجودينز ميجارو ، وبروى حياته في سويسرا وتريستينو . . وقد دحض فيه بعناية ودقة كثيراً من الروايات التي أوردها مؤرخو حياته في عهد الفاشية ، كما ضمنه بعض الكتابات التي كان موسوليني يؤثر لو لم تنشر .
- ٢ - كتاب « حياتي كثائرة » لإنجيليكا بالابانوف ، وقد روت فيه الكثير عن حياة موسوليني وسلوكه في ميلان .
- ٣ - كتاب « حياتي مع موسوليني » لراشيل موسوليني ، وهو كتاب يفتقر إلى الدقة رغم طرافته .
- ٤ - كتاب « أحاديث مع راشيل موسوليني » لبرونو داجومستيني .
- ٥ - كتاب « موسى يقتحم السلطان » لجيدو دورسو ، وهو من أحسن ما كتب عن الفترة بين عامي ١٩١٣ و ١٩٢٢ .
- ٦ - كتب عدة منها « تاريخ الثورة الفاشية لشيروكو » و « حقبة موسوليني » لسبازاري روسي و « موسوليني وعهده » لإدواردو سوسميلي و « أصول الفاشية » لألتاري ، و « يوميات بالبو » .
- ٧ - كتاب « ماتيوقي - وموسوليني والمأساة الإيطالية » لكارلو سيلفسنري ، وكتاب « الفاشية وأعداؤها » لجيدوليتو .
- ٨ - كتاب « تطور إيطاليا الحديثة » لسيسيل سبريج ، وكتاب « النواحي العالمية للفاشية » جى . اسى . بارنز ، وكتاب « قصة الفاشية » لفاريناتشي ، وكتاب « مدرسة الديكتاتورين » لايغنازيو سيالونى .

مصادر القسم الثاني :

- ١ - يوميات تشيانو .
- ٢ - وثائق إيطاليا الدبلوماسية .

- ٣ - « إيطاليا في برلين » لماجيستراني .
- ٤ - « سفارة إيطاليا في برلين » لسيموني .
- ٥ - « بين قصر البندقية وبحيرة جارد » لانفوسو .
- ٦ - « الديكتاتوران وجهاً لوجه » لالفيري .
- ٧ - « بين هتلر وموسوليني » لستار هيمبرج .
- ٨ - « من فرساي إلى نورمبرج » لبول شفيدت .
- ٩ - « دبلوماسية موسوليني » لجيتانو سالفيميني
- ١٠ - « موسوليني وأوروبا » لماريو دونوسكي .
- ١١ - « سياسة إيطاليا الخارجية في عهد موسوليني » للويجي فيلاري .
- ١٢ - « محور برلين رومة » - لإليزابيث تسليان .
- ١٣ - « هتلر » لآلان بولوك .
- ١٤ - « تاريخ ألمانيا النازية » لويليام شيرار .
- ١٥ - « جذور الحرب العالمية الثانية » لتيلور .
- ١٦ - « ذكريات سفارتي في برلين » لأندريه فرانسوا بونسيه .
- ١٧ - « كتب ونستون تشرشل واللورد فانسيثارت ودايف كوبر عن الحرب الثانية .
- ١٨ - « تشمبرلين ، حياته » لكيث فيلنيج .
- ١٩ - « ماذا نعمل بإيطاليا » لجيتانو سالفيميني وجورج لايبانا .
- ٢٠ - « محاكمة موسوليني » - لمايكل فوت .
- ٢١ - « إيطاليا والحرب العالمية الثانية » لبادوليو .
- ٢٢ - « رجل واحد » لماكارتي .

مصادر القسم الثالث :

- ١ - « يوميات عن الحرب » لكبرينوار ميليني .
- ٢ - « جرازاني قال لي » لإميليو كانيغاري .
- ٣ - « مذكرات سرية » لكاربوني .
- ٤ - « القيادة العليا » لأوجو كافاليرو .

- ٥ - مذكرات كيسلرنج .
- ٦ - « حلفنا موسوليني » لقون رينيتلين .
- ٧ - « عدة ملاين من الحراب » لمايو رواتا .
- ٨ - « كسل الأسطول » لأنطونيو تريزينو .
- ٩ - « دفاعاً عن الوطن » - بلخرازيانى .
- ١٠ - « ذكريات رفاق موسوليني » لكونيتو نافار .
- ١١ - يوميات كلاريتا بيتاتشى .
- ١٢ - قصة عامين لانيديو تامارد .
- ١٣ - « تهمة الخامس والعشرين من يوليو » لكاسينيللى .
- ١٤ - « ذكريات سرية » لكاربونى .
- ١٥ - « الملكية والفاشية » لفيانا .
- ١٦ - « الشرفة الخالية » لبيرو سابوريتى
- ١٧ - « قصة سنة » لموسوليني .
- ١٨ - « رومة » لمانيللى .
- ١٩ - « موسوليني » - الشفق والمغيب لرومان دومبرويسكى
- ٢٠ - « قصة الجمهورية الإيطالية » لايدمويدو سيوتى
- ٢١ - « جمهورية موسوليني » لفيليس بيلوتى .
- ٢٢ - « ٦٠٠ يوم من حكم موسوليني » لايرمانو اميكوكى .
- ٢٣ - « مع موسوليني ، فى مأساته » لجيوفانى دولفين
- ٢٤ - « اعترافات موسوليني » لجورج زاخاريا .
- ٢٥ - « رومة النازية » ليوجين دولان .
- ٢٦ - « سفير هتلر فى فيشى وسالو » لرودلف ران .
- ٢٧ - « الحقيقة عن محاكمة فيرونا » لدومينكو ماير .
- ٢٨ - « موسوليني فى محاكمة فيرونا » لروزومونتانو .
- ٢٩ - « قصة المقاومة السرية » للجنرال كادورنا .

- ٣٠- « تحرير إيطاليا » للويجي فيلاري :
- ٣١- « أخى موسوليني » لايديج موسوليني .
- ٣٢- « الحياة مع والدى » لفيتوريو موسوليني .
- ٣٣- « الرحلة الأخيرة لبنيثو موسوليني وكلاريتا بيناتشى » لستوريكوس :

فهرست للكتاب

صفحة	
٥	تقدمة المغرب
١١	مقدمة
١٧	القسم الأول - الصراع من أجل السلطان
١٩	١- الثائر الشاب (٢٩ يوليو ١٨٨٣ - ديسمبر ١٩١٢) .
٤٥	٢ - الداعية إلى التدخل (أكتوبر ١٩١٣ - ٢٤ مايو ١٩١٥) .
٥٢	٣ - الفاشي في دور التكوين (أغسطس ١٩١٥ - ٢٨ أكتوبر ١٩٢٤)
٦٦	٤ - رئيس الحكومة (٢٨ أكتوبر ١٩٢٢ - ١٣ يناير ١٩٢٤)
٨٢	٥ - الديكتاتور (١٣ يوليو ١٩٢٤ - ١٠ يونيو ١٩٤٠) .
١٠٦	القسم الثاني - الإمبراطورية والمحور
١٠٩	١ - الدبلوماسية (٢٨ أكتوبر ١٩٢٢ - ١٠ يونيو ١٩٤٠)
١٩١	٢ - القائد الأعلى (١٠ يونيو ١٩٤٠ - ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢)
٢١٣	القسم الثالث - سقوط العمالق
٢١٥	١ - الحرب تسير سيراً سيئاً (٢٣ أكتوبر ١٩٤٢ - ٢ يناير ١٩٤٣)
٢٣٣	٢ - المتآمرون (نوفمبر ١٩٤٢ - ٢٤ يوليو ١٩٤٣) .
٢٤٩	٣ - اجتماع المجلس الأعلى (٢٤ - ٢٥ يوليو ١٩٤٣) .
٢٧٣	٤ - الاعتقال في قصر سافوي (٢٥ يوليو ١٩٤٣) .
٢٧٨	٥ - السجن (٢٥ يوليو ١٩٤٣ - ٢٨ أغسطس ١٩٤٣) .
	٦ - على الصخرة العظيمة (٢٨ أغسطس ١٩٤٣ -
٣٠٥	١٢ سبتمبر ١٩٤٣)
٣١٢	٧ - الإنقاذ من الصخرة العظيمة (١٢ سبتمبر ١٩٤٣) .
٣٢٩	٨ - مقابلة في مقر قيادة الفوهرر (١٥ سبتمبر ١٩٤٣) .

٩	رئيس الجمهورية في جرجانلو (٢٧ سبتمبر ١٩٤٣ -	
٣٥٥	٢٧ سبتمبر ١٩٤٤)	
٣٧٠	١٠ - الحرب الأهلية (نوفمبر ١٩٤٤ - ديسمبر ١٩٤٤)	
	١١ - رئيس الجمهورية في جرجانلو - الأشهر الأخيرة (ديسمبر	
٣٧٧	١٩٤٤ - أبريل ١٩٤٥)	
٣٨٧	١٢ - الألمان يستسلمون (من فبراير - أبريل ١٩٤٥)	
٣٩٢	١٣ - الانتقال إلى ميلان (من ١٩ إلى ٢٥ أبريل ١٩٤٥)	
٤٠٥	١٤ - الفرار من ميلان (من ٢٥ - ٢٧ أبريل ١٩٤٥)	
٤٢٠	١٥ - الاعتقال (٢٧ أبريل ١٩٤٥)	
٤٣٤	١٦ - الكولونيل فاليريوي (من ٢٧ - ٢٨ أبريل ١٩٤٥)	
٤٤٠	١٧ - الوفاة في دارة بيدمونتي (٢٨ أبريل ١٩٤٥)	
٤٤٨	١٧ - ميدان لوريغو (٢٩ أبريل ١٩٤٥)	
٤٥١	المصادر	
٤٥٧	فهرست الكتاب	

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر



دارالمغارف بمصر

Bibliotheca Alexandrina



0665959

١١٥	قروشاً ج. ع. م.	١١٥٠	فلساً في العراق والأردن	١١٦٠	فرنكات في المغرب
٩٢٠	ق. ل.	١١٥٠	فلساً في الكويت	١٣,٢٦	ريالاً سعوديلاً
١١٥٠	ق. س.	١٣٨٠	مليماً في تونس	٢٣	شكلاً في البلاد
١١٥٠	مليماً في ليبيا والسودان	١٦١٠	فرنكات في الجزائر	٣٠٣١	دولارات الأخرى